قَالتْ حَامِدَة

أساطِير حِجازيّة

عبده خال



"إنّ عادة الحكي في الحجاز حميمة جداً، إذ تكون الحكاية خاصة بالأبناء وليست عامة، ومن تقوم بالسرد هي أم أو جدّة تحكي لأبنائها أو أحفادها، وتتم الحكاية قبل النوم، ولهذا شاع تعبير "حكاية قبل النوم"، وهي حكايات تدور في محيط الواقع مخففّةً من عوالم الجنّ والسحرة.

ومن أدبيات الحكاية الحجازية البدء بصيغ مختلفة قد يكون أشهرها قول الراوية أو الراوي: "كان ياما كان يا سعد يا إكرام ما يحلى الكلام إلاّ بذكر النبي عليه الصلاة والسلام"، ويقف الراوي ليسمع الردّ بالصلاة والسلام على سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام.

وتأتي خاتمة الحكاية بصيغ مختلفة أيضاً أشهرها: "وعاشوا في تبات ونبات وخلفوا صبيان وبنات وكنت عندهم وجيت ولولا الطاقية مخروقة كنت جبت لكم شوية مسلوقة". وغالباً ما تكون هذه الخاتمة للقصص المضحكة أو الطريفة لتاتي خاتمة مثيرة للضحك أيضاً".

يحتوي هذا الكتاب وفرة من الحكايات الشعبية الحجازية جمعها الكاتب من أفواه الرواة و"الحكّاءات" مباشرةً. وعلى الرغم من أنّ الحكايات الشعبية قد تتماثل من حيث موضوعاتها وسردياتها إلا أن كل منطقة تضفي عليها نكهةً تخصّها دون غيرها، وهو ما فعلته الحجاز أيضاً.

عبده خال كاتب وروائي سعودي. فازت روايته "ترمي بشرر" بالجائزة العالمية للرواية العربية ٢٠١٠. صدر له عن دار الساقي "قالت عجيبية: أساطير تهامية"، وفي الرواية "الطين"، "فسوق"، "لوعة الغاوية" الحائزة جائزة وزارة الثقافة والإعلام للكتاب في السعودية للعام ٢٠١٣.


ISBN 978-1-85516-981-4

9 781855 169814 >

دار الساقي

daralsaqi.com

قَالتْ حَامِدَة

خطوط العناوين: حمدي طبارة
تصميم الغلاف: سحر مغنية

عبده خال

قَالتْ حَامِدَة

أسَاطِيرُ حِجَازيّة



الطبعة الأولى ٢٠١٣

ISBN 978-1-85516-981-4

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرزم البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٨٦٦٤٤٢ ١ ٩٦١‎، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ ١ ٠٩٦١
e-mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على
@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

الإهداء

إلى حامدة حمدان التي منحتني أغلى كائن في حياتي: حبيبتي حنان

الفهرس

استهلال ١٣
المقدّمة ٢٥

كلّه عفن ١٣١
الطير الأخضر ١٤٦
نذرت نفسي لابني ١٥٣
هذا المطرطر إيه؟ ١٦٣
يا جارنا الهندي! ١٦٥
التليسية ١٦٧
عشيق الجنيّة ١٧٠
الطمع فرّق ما جمع ١٨٥
الحلاق والسلطان ١٨٧
السلطان ومرافقوه ١٩٣
بلّ السعف عليكِ ١٩٦
رزقك هللة ورزق زوجتك هللة ١٩٨
عدس ولا راس بصل ٢٠٠
زوّجوني راعي غنمكم ٢٠١
اضربنا بيد أمنا ٢٠٢

الابن الخبيلة ٢٠٣
كبّر راسي ٢٠٦
سعيد وسعيدة ٢٠٨
تقضي حاجتي ٢١١
أخت الحطاب ٢١٥
سلطان لمدة ربع ساعة ٢٢٠
خنفس خنافس ٢٢١
السمكة وابن الصيّاد ٢٢٦
خائنة العهد ٢٤٠
ضيف الله ٢٥٤
الجارية والعابد ٢٥٧
اختلاف النية ٢٥٩
رجل من أهل الجنة ٢٦١
الملافظ سعد ٢٦٥
كسر عين الحاسد ٢٦٧
لماذا ابتسمت؟ ٢٦٩
دعاء إبطال الحسد ٢٧١
بيع وشراء النصائح ٢٧٢
أبو وجهين ٢٧٧
ورقة الحنا ٢٨١
ابن التفاحة ٢٩٠
فاطمة الغالية تندب السنين الخالية ٣٠٠
بنت الحطاب ٣٠٦
ثلاث وصايا ٣١٦
الفقر والمرأة ٣١٩

دعوة أمّها ٣٢٤
شهوة أمي ٣٣٣
فرط الرمّان ذهب ٣٤٢
حكمة أب ٣٥٧
لا يسترك إلا زوجك ٣٦١
ميا ومي ٣٦٣
الحظ من الله ٣٦٨
الالتزام بالنصائح ٣٧١
كيد النسا كيد جبار ٣٧٨
هدية الصياد للملك ٣٨٥
حبة عنب من الجنة ٣٩٥
أبو خيشة ٤٠٣
عقاب ٤٠٧
اختلاف الحال ٤٠٨
عمر اليتيم ٤١٠
محمد يرث ومحمد لا يرث ومحمد يرث ٤٢٠
أغنى رجل وأفقر رجل ٤٣١
مثل حديث عباس أوله (حوسة وآخره كوسة) ٤٣٧
أمّ الكلاب ٤٤٦
زواج المحارم. . . دودة في الرأس ٤٥٤
طيبة وحسيبة ٤٥٨
وداعة الله ٤٦٩
الكاذب الصدوق ٤٧٤
التخلص من ثقل الملك ٤٧٩
أكرم الأكرمين ٤٨٠

القلب لله ٤٨١
واجب السيد ٤٨٣
الله يعلم بالسرائر ٤٨٤
كيد النساء ٤٨٦
شجرة التفاحة ٤٩٠
ست ساعات من النعيم ٤٩١
خسارة العصّار ٤٩٤
ثمرة الرحمة ٥٠١
حذاء الملك ٥٠٤
الملك وبطانته ٥٠٦
ما هو ميزان العقل؟ ٥١٠
شراء النصيحة ٥١٥
رزق الدودة ٥٢١
وما جزاء الإحسان؟ ٥٢٣
لا أحد يقدر على مكر العجائز ٥٢٩
جوّع شعبك ٥٣٠
الأمنيات الثلاث ٥٣٩
اسأل الله أن يعطيك ٥٤٢
قصص عن الحسد: ٥٤٥
حاسدة لا تعرف محسودتها ٥٤٥
حسد الرجل على زوجته ٥٤٦
حاسدان في بيت واحد ٥٤٧
الحاسد وفقأ العين ٥٤٩
الحاسد وصلاة الميت ٥٥٠
دعاء أمّ ٥٥١

ابنة الحطاب والكنز ٥٥٢
الراعية والكنز ٥٥٣
الديجيرة - ١ .... ٥٥٤
الديجيرة - ٢ .... ٥٥٥
الديجيرة - ٣ .... ٥٥٦
الديجيرة - ٤ .... ٥٥٧
الديجيرة - ٥ .... ٥٥٩
المخاوي ٥٦٠
الهول - ١ .... ٥٦١
الهول - ٢ .... ٥٦٢
الهول - ٣ .... ٥٦٣
الهول - ٤ .... ٥٦٤
الهول - ٥ .... ٥٦٥
السلطان والباذنجان ٥٦٦
يا وليدي يا محمد ٥٦٧
الأحمدي ٥٦٩
مالكة أخت مالك ٥٧١
المقبرة (فضل الصدقة) ٥٧٥

استهلال

قدمت إلى جدّة من قريةٍ موغلةٍ في البدائية، وهذه المناطق وشبيهاتها تعوّض عوزها وشظف العيش فيها بثراءٍ باذخ في موروثاتها وحكاياتها وفنونها وطقوسها، إذ تتحول بداثيتها إلى منجمٍ لاينضب من الفنون، فكلّ فعل أو قول له حكاية حتى تظنّ أنّ العالم جاء ليلاً ودلقَ كلّ أوجاعه ومضى مؤتمناً أهل القرية على البوح بكلّ ألامه التي غيّرت ملامحه وأبقت له آهةً مكتومة لا يستشعرها إلاّ الموجعون. وهم - أهل القرية - لم يبخلوا عليه، فقد منحوه أفواههم في ترديد تلك الحكايات كشهود لم يرغبوا في كتم الشهادة، فظلّوا يسردون كلّ شيء كحكاية، ويمارسون الطقوس كفعل، ويدندنون بما فاتهم من أيامٍ خوالٍ بالقصائد، وإن أغبرت أيامهم يجلونها بخلق الفرح، فيغنّون للأرض ولحراثتها وبذرها، ولهطول الأمطار ومواسم الحصاد وجريان السيل، ويمارسون عبادات قديمة عند الخسوف والكسوف أو عند مرض أحدهم، ويتبادلون الوصايا مع ظهور البروق أو دويّ الرعود: عشرات الأفعال التي تتوالد يومياً كطقسٍ يمارَس من غير معرفةٍ منهم بأنّهم إنما يعيدون فعلاً أسطورياً عبر الكون طغى حضوره في زمنٍ ما ثم أفل كعبادة وبقي كممارسة.

حين غادرت القرية لم أعلم أنها تسللت وهربت إلى داخلي واستكانت في أعماقي تهزّني في كلّ حين، فرضيت أن تسكن في داخلي، بين ذكرياتي وأمراضي الطفولية التي وسمت كتاباتي فيما بعد.

وصلت إلى جدّة أحمل قريةً لا تنام، بل تبقى مستيقظةً لتهدهد الكون لكي ينام!

كنت أحمل موروثاً حكائياً ترسّب في وجداني بوفرة. كان كلّ شيء في المدينة

مغايراً لبيئة القرى، ولم تكن طفولتي قادرة على الصمود أمام تلوّن المدينة ودهشتها، فأخذت أرقب المتغيرات التي طرأت على حياتي:

أوّل من سُفك دمه كان الليل.

الليل أول ضحايا المدينة، إذ اختفى ليل القرية المظلم، موطن الجنّ ومثير زوابع الهلع في قلوب أطفال القرية، ذلك الليل الدامس الذي تخرج من جنباته خيالاتٍ تثير الرعب في القلب وتجعل صيحات الاستغاثة مدوية يتراكض لها الكبار لإخراجك من براثن جنٍّ أمسكوا بقدميك وسمحوا لفمك أن يستغيث بصراخٍ متواصل لتهبّ الأقدام لنجدتك، وحين يتفقّدونك يجدون أنّ حبلاً تثنّى على ساقك، أو أنّ شجرةً متوسطة النمو لامست ملابسك، أو كومة قمائم وطأتها، إلاّ أنك تقسم لهم أنّ جنّيّاً قد خرج وفتح أشداقه وابتلعك، ولولا صراخك لأكمل هضمك.

ليل المدينة سافر الوجه؛ فالمصابيح الكهربائية متواجدة في كلّ مكان، حتى في دورة المياه التي لا تصلها ليلاً في قريتك خشية ثعبانٍ أو عقرب وأنت تبحث عن حجر للاستجمار، هذا اذا استبعدت وجود جنّيٍّ هناك.

وفي موت الليل تلحظ أنّ أهل المدينة يتحلّقون حول علبةٍ ضخمة (التلفاز) تبثّ لهم الأغاني والأخبار والحكايات، فتغيب تلك العجوز القابعة خلف الفانوس، ويغيب تهدّج صوتها المبحر في عوالم الجن والسحرة، ويحضر هذا الجهاز بدلاً عنها يقدّم لك منوّعات بالصوت والصورة، فتشعر أنّ مخيلتك تمّ عقرها، فالحكاية تُنشّط مخيّلتك وتمنحك حرية أن تتخيّل ما تسمعه، بينما الصورة سجنٌ للمخيلة فلا تغادره!

وإذا تحلّقت النساء في مجالسهن فإنّ أحاديثهن تبتعد عن حكايات الجن، وتتناثر حول الجارات أو عن الصبية وأزواجهن وعن الأفعال والأعمال التي انشغلن بها في يومهن.

وصباح المدينة صباحٌ صارم في الاستيقاظ، إذ يهبّ الصبية والصبايا لارتداء ملابس أنيقة ومرتّبة ويتجهون إلى مدارسهم، ولا يتنعّمون ببهجة الصباح القروي الذي يبدأ بتناول (الصفارة) ثم الانطلاق إلى الخبت لجلب الماء أو تفقّد حظيرة البهائم وتقديم الأعلاف لها أو جمع البيض من تحت الدجاج أو متابعة نمو النبتات

المنتشرة في فناء الدار أو حلب الابقار أو الجلوس أمام (الدبّية) وترقّب انتهاء خضّ اللبن لتحصل على القشطة، أو الخروج إلى الحقول القريبة للتعليف أو الرعي وترك كلّ ما جئت من أجله وملاحقة (الزماميح) أو الطيور الملونة أو اختطاف ثمرة من نبتة نضجت أو تفقّد جريان المياه في الوادي أو في الفنية أو بين المساني. . .
صباحك في القرية يكون متخماً بالعافية، بينما صباح المدينة رقيق الحال يشبه العجل الدائر: أثره واحد وحركته عجلة.

* * *

في مدينة جدة انتظمت في المدرسة ووجدت في مقرّراتها حكايات ساذجة باردة تتحدّث عن (الولد النظيف) أو قصة (طه والطبلة)، وهي القصة التي أضحك كلّما تذكّرتها، ليس لفكهاتها بل لعجز مؤلفها عن جعلها حكايةً تتوازى مع مخيلة الطفل. ونحن إلى الآن نستهين بمخيلة الطفولة ونتعامل معها باستهانة كبيرة، ممّا يجعلني أتساءل:

- هل من يؤلف للأطفال لم يكن طفلاً في يومٍ ما؟!
- ألم تكن مخيّلته مجنّحةً لا يحدّها حدّ؟
- ألم تنتبْه أسئلة الوجود والخلق؟

الطفل يمتلك مخيلةً متّسعة بلا حدود أو ضوابط؛ فتلك المخيلة المجنّحة والقادرة على استمزاج الخيال هي مخيلة بلا حدود أو ارتدادات.

إنّ أسئلة الطفولة هي البناء الذي تقيمه من غير علم، إنها تشبه مخيلة الإنسان الأول؛ فكل فضاءها قائم على حرية تخيّل الأشياء، ومتى ما دخل إلى التعليم يفتقد تلك الحرية ويبدأ ببناء ذاته بما يقال له، إذ إنّ المقرّرات المدرسية تصنع أقفاصاً للمخيلة تضعها فيها وتطمئنّ لكونها استطاعت - بجدارة - اصطياد أرنبٍ أرهقها بسرعة ركضه!

كانت مادة القراءة مادةً سمجة، إذ تتوالى قصصها لتخبرنا عن خداع الثعلب أو تلصّص الذئب، أو تحذّرنا من (كذب حماد) وعدم تقليده والاتّصاف بما كان عليه، أو تقودنا إلى حفظ أناشيد عن الولد النظيف، ثم تأتي بقصص عن الفلاحين داخل الحقول فلا تتطابق مع الحياة التي عشتها في قريتي. كانت حكايات مادة القراءة كشتلة ورود بلاستيكية تقدَّم إلى امرئٍ قادمٍ من أرض الورود.

هنا أعود وأسأل:

- هل مؤلفو قصص الأطفال لم يكونوا يوماً ما أطفالاً؟

- ألا يعلمون أنّ محاصرة الطفل تجعله كذوباً؟

كان كل شيء داخل المدرسة يدعو الطفل إلى أن يمارس الكذب ببراعة، إذ يجده منجاةً، وهذا أول إخفاق تربوي تمارسه المدارس.[1]

---

(١) حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ،عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: «لا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ صِدِّيقاً، ولا يَزَالُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ كَذَّاباً.» - حديث مرفوع.

وعَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ أَبِي الأَحْوَصِ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: «إِنَّمَا هُمَا اثْنَتَانِ: الْهَدْيُ وَالْكَلامُ، فَأَحْسَنُ الْكَلامِ كَلامُ اللَّهِ، وَأَحْسَنُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَلا إِيَّاكُمْ وَالْمُحَرَّمَاتِ وَالْبِدَعَ، فَإِنَّ شَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ ضَلالَةٌ، أَلا لا يَطُولُ عَلَيْكُمُ الأَمَدُ فَتَقْسُوَ قُلُوبُكُمْ، أَلا كُلُّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ، أَلا إِنَّ الْبَعِيدَ مَا لَيْسَ بِآتٍ، أَلا إِنَّ الشَّقِيَّ مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، وَإِنَّ السَّعِيدَ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ، أَلا وَإِنَّ شَرَّ الرَّوَايَا رَوَايَا الْكَذِبِ، أَلا وَإِنَّ الْكَذِبَ لا يَصْلُحُ فِي جِدٍّ وَلا هَزْلٍ، وَلا أَنْ يَعِدَ الرَّجُلُ صَبِيَّهُ ثُمَّ لا يُنْجِزُ لَهُ، أَلا وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّهُ يُقَالُ لِلصَّادِقِ: صَدَقَ وَبَرَّ، وَيُقَالُ لِلْكَاذِبِ: كَذَبَ وَفَجَرَ، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّ الْعَبْدَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ كَذَّاباً، وَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ صِدِّيقاً. ثُمَّ قَالَ: إِيَّاكُمْ وَالْعِضَةَ. أَتَدْرُونَ مَا الْعِضَةُ؟ النَّمِيمَةُ وَنَقْلُ الأَحَادِيثِ» - حديث مرفوع.

والحديث المرفوع يقصد به كلّ ما أضيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير، صحّ السند أو لم يصحّ، اتّصل أوانقطع. واشترط الخطيب البغدادي - رحمه الله - أن يكون الرفع إلى النبي صلى الله عليه وسلّم من صحابي. وبعض علماء الحديث يقصد بالمرفوع ما اتّصل سنده فيجعله مقابلاً للمرسل. والمرفوع إذا توفرت فيه شروط الصحة أو الحسن وجب قبوله. والحديث المرسل إذا كان الذي يحدّث عن النبي صلى الله عليه وسلّم تابعياً وليس صحابياً.

ومن الضروري التنبيه إلى أنّ المحدثين - خاصةً المتقدّمين منهم - يطلقون على كلّ انقطاع في السند إرسالاً. يقول الخطيب البغدادي رحمه الله: «المرسل: ما انقطع إسناده، بأن يكون في رواته من لم يسمعه ممّن فوقه، إلاّ أنّ أكثر ما يوصف بالإرسال من حيث الاستعمال ما رواه التابعي عن النبي صلى الله عليه وسلم.»

أما الموقوف فالمقصود به قول الصحابي وفعله، هذا إذا أطلقت كلمة الموقوف - أي قيل =

منذ البدء لم ترق لي قصص المناهج الدراسية؛ فهي قصص باردة جامدة ليس فيها تلك الأحداث الكبرى التي كنت أسمعها في القرية من خلال (الخبابير). وإذا كانت لتلك المناهج من ميزة فهي ميزة الحجر، فقد كانت مناهج تعتقل مخيلة الطفولة وتُسكنها في واقعٍ حكائيٍّ فقيرٍ للغاية.

في إحدى المرات حاولت جمع أقراني لأحكي لهم من موروثي الحكائي (وكانت لهجتي لاتزال تهامية قروية) فلم يفهمني أحد منهم مما ألجم لساني فيما تلى تلك المحاولة.[(١)]

* * *

في المدينة وجدت مارداً جديداً.

لكلِّ مكانٍ أدواته التي يستخدمها في تسيير حياته، حتى إنّ الفن يتّخذ أشكالاً مغايرة ولغةً مختلفة.

ثقة ابن المدينة في إمكانياته ومقدرته على تصريف شؤون حياته تفوق مقدرة ابن القرية، خاصةً في المحيط المدني، كما أنّ نسبة الخرافات تقلّ لديه، إن لم تضمحل تماماً، فجلّ الخرافات تأتي على باله كموروث حكائي، وقلّما يقف عندها كثيراً، فمنذ طفولته يفرّق نسبياً بين الواقع وبين المتخيل.

واذا استمعت إلى حكايات المدينة ستجدها تحوم حول الملاحم والقصص الواقعية، كقصص الأشخاص والأماكن والبطولات التي يقترب جلّها من الواقع، بينما تأتيه الحكايات المؤسطرة من خلال الرواة القادمين من المناطق الريفية.

في المدينة لم يعد الليل ثقباً تتسلّل منه الحكايات، فقد اتّسعت مساحته وغدا المكان المظلم هو المكان النكرة.

= موقوف فقط ولم يزد عليه قولهم: على فلان - وأما إذا قيدت بقولهم: على فلان، كقولهم مثلاً: موقوف على الشافعي أو موقوف على سعيد بن المسيب، ونحو ذلك فهو كلام من ذكر.
والموقوف على الصحابي قسمان: الأول، ما كان للرأي فيه مجال - أي يمكن أن يقوله الصحابي عن اجتهاد - فهذا ليس بحجّة إلاّ إذا وافقه الصحابة عليه فإنه يكون إجماعاً. الثاني، ما لا مجال فيه للرأي، وهذا له حكم المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ إلاّ إذا علم أنّ هذا الصحابي كان يأخذ من كتب أهل الكتاب. (موقع اسلام ويب)

(١) حكيت لهم حكاية (ياشمس مين أحلى أنا والا بنتي) - إحدى حكايات الأساطير في تهامة.

في القرية ليس هناك تقنين فيما يقدَّم للطفل؛ فكلّ ما يتلقّاه الكبار يسمعه الصغار كمرويٍّ أو حكائي، ليس ثمّة تحرّج يظهره الكبار، بينما في المدينة تجد ذلك التحرّج واضحاً وجليّاً؛ فإذا كان هناك أمرٌ لايودّ الكبار أن يسمعه الصغار قيل: الحمام يلتقط الحب، فيمسك المتحدّث (أو المتحدّثة) عن الكلام أو يختار الترميز كوسيلة لتمرير قوله.

الأطفال في المدينة لهم حكاياتهم وعالمهم، وهو عالم يتشكّل من خلال بيئة المكان، وإذا آمنا بأنّ الشخصية المكانية لها سطوتها فإنّ المدينة تستخدم منتجها الحضاري في تشكيل مروياتها وللطبيعة الاستهلاكية وتحوّل الحكاية إلى استثمار: تنتج الحكايات من أجل بيعها، وتتّخذ في هذا المضمار طرقاً عدّة قد يكون أهمها استخدام التلفاز أو الكتب والمجلات. وهي، في هذا الاستثمار، تولّد المزاوجة مابين الأسطورة والواقع. وفي أحيان تكون لها أسطورتها الخاصة، هي أسطورة العلم (أسطورة القادم). ويشترك في عالمي المدينة والقرية الخيال الذي يمثّل العمود الفقري لكلّ العوالم الحكائية المنتجة.

في تلك الفترة الطفولية لاحظت أنّ الأطفال يجتمعون حول التلفاز (عصراً) لمشاهدة أفلام الكارتون، وهي الفترة التي يتجمّع فيها الأطفال متحلّقين لمشاهدة تلك الأفلام بنشوةٍ غامرة.

كانت فترة العصرية هي الوجبة الحكائية التي تقدَّم للأطفال من خلال الرسوم المتحركة، وهو العالم البديل لعالمي الليلي.

لم يعد هناك ليل لسرد الحكايات.

كان المنفذ إلى الخيالات والمغامرة ما أنتجته المدينة من شخصية أسطورية تتناسب مع عالمها، ألا وهي شخصية سوبرمان.

شخصية سوبرمان هي الشخصية الأولى التي اصطحبتها مبكراً، ولكونها قصص مصورة كان استهلاكها ممكناً، بتتبّع الصور في بادئ الأمر، وبعد أن تمكنت من أن «أفكّ الحرف» غرقت مع هذه الشخصية في عوالمها الخارقة وتحولت إلى منجمٍ حكائي أقع عليه من خلال الأعداد الأسبوعية المتوالية.

عدت إلى عالم الحكاية الخرافية من خلال قصص السلسلة **الخضراء**، ففيها وجدت عالمي الحكائي الذي غادرته ولم أجده على لسان حكاءة داخل المدينة.

قرأت معظم تلك الحكايات فإذا بها تعيدني إلى حكايات قد سمعتها في قريتي، وكلما قرأت حكاية وجدت الشبه المهول بينها وبين حكاية قد سمعتها هناك في تلك القرية التي تسرج فانوسها ليلاً وتبحر في الحكايات عبر صوت عجوز فتحت الدنيا بحكاياتها.

أُصبت بصدمة حينما مررت بمركاز ووجدت رجلاً يحكي حكاية.

لم أتعود أن يروي الحكاية رجل. كنت أسير في أزقّة حيّنا (الهنداوية) فوجدت رجلاً يقتعد كرسيّاً خشبيّاً وبيده كتاب ومن حوله تجمّعت مجموعة من رجال الحي يستمعون إليه وهو يروي حكاية (حمزة البهلوان).

لم يكن لائقاً أن يقوم رجل بسرد حكاية؛ فموروث الحكي لدي أنّ الحكاية جنس أنثوي ولد من لسان امرأة، تلده كما تلد أبناءها.

وكان طقس الاستماع مقتصراً على الرجال فحسب، إذ لا يليق بالأطفال الجلوس مع كبار السن، ولكي أتغلّب على هذا الشرط كنت أقعد بعيداً محاولاً الإصغاء قدر الاستطاعة؛ فمع شغب الأطفال اللاهون اللاعبون يضيع كثيرٌ من الكلمات التي تصل مقطّعةً أو مفصّحة فلا تستقيم الأحداث في مخيلتي. ومن العيوب الأخرى لحكّاء المدينة أن يقف عند حدثٍ متوتّر ويكمل في اليوم التالي.

داومت على حضور هذا المركاز - من بعد - وتعرّفت على العديد من الملاحم العربية المشهورة مثل عنترة بن شداد والزير سالم والأميرة ذات الهمة ورأس الغول... لكنّ طريقة السرد والقطع والإكمال لم تكن تروق لي. وحين تمكّنت من القراءة الجيدة أصبحت أحكي لنفسي، إذ كان هناك ورّاق (بحارة البحر) بجوار المحكمة (ننادي عليه بالعم صالح) يبيع الكتب، فكنت أجمع القرش على القرش لشراء كتاب، وكان ورّاقاً حقيقياً، إذ يقوم بشراء كتابك الذي أخذته من عنده بثمن أقل، وإن أردت شراء كتاب آخر عليك دفع الفرق، وفي أحيان يكون ثمن الكتاب المباع أغلى من الكتاب الذي تودّ شراءه حديثاً فيعطيك الفرق.

مع هذا الورّاق وكتبه استعدت توازني من خلال **ألف ليلة وليلة** و**كليلة ودمنة** و**حكايات إيسوب** و**الأسفار الخمسة**.[1]

---

(١) الأسفار الخمسة أو البنجاتنترا، ويرجع المتخصصون أنّ البنجاتنترا في أصلها السنسكريتي =

وكان الارتياد إلى هذا الوراق يجعلك تقتني كتباً لا تعرف قيمتها تماماً، إذ قد يجذبك الغلاف، وهذا ماكانت تحسنه بعض الدور في تقديم أغلفة جاذبة للروايات العالمية. ومن عند ذلك الوراق عرفت طريقي للخروج وزيارة العالم من خلال رواياته، فقرأت بائعة الخبز وأحدب نوتردام وقصة مدينتين ومرتفعات وذرينغ . . .

كنت يومياً أدخل الليل ممسكاً برواية ما تقودني إلى عالمي الذي أحبّ، ولم أكن وحيداً، إذ إنّ المدينة تعلّمك أن تكون حكّاءً لنفسك.

كانت عادة الحكي في الحجاز حميمة جداً، إذ تكون الحكاية خاصة بالأبناء وليست عامة، ومن تقوم بالسرد هي أم أو جدّة تحكي لأبنائها أو أحفادها، وتتم الحكاية قبل النوم، ولهذا شاع تعبير «حكاية قبل النوم»، وهي حكايات تدور في محيط الواقع مخففّةً من عوالم الجنّ والسحرة.

ومن أدبيات الحكاية الحجازية البدء بصيغ مختلفة قد يكون أشهرها قول الراوية أو الراوي: «كان ياما كان يا سعد يا إكرام ما يحلى الكلام إلاّ بذكر النبي عليه الصلاة والسلام». ويقف الراوي ليسمع الردّ بالصلاة والسلام على سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام.

وتأتي خاتمة الحكاية بصيغ مختلفة أيضاً أشهرها: «وعاشوا في تبات ونبات وخلفوا صبيان وبنات وكنت عندهم وجيت ولولا الطاقية مخروقة كنت جبت لكم شوية مسلوقة». وغالباً ماتكون هذه الخاتمة للقصص المضحكة أو الطريفة لتاتي خاتمة مثيرة للضحك أيضاً.

وثمّة صياغة أخرى لإنهاء الحكاية يقولها الراوي وهو يبتسم: «توتوة توتة

= كانت موجودة في القرن الخامس الميلادي، ذلك لأنها تُرجمت إلى البهلوية بتحريفٍ يسير في القرن السادس. وقد وصل العلماء إلى هذه النتيجة عندما وجدوا أنها اعتمدت على كتاب كوطيلة أرثاشاستره ونقلت فقرات متعددة منه. والترجيح لظهور هذه الحكايات حدث بين ١٠٠ قبل الميلاد و٥٠٠ ميلادي.

ولم يعرف العالم هذه الأسفار من خلال نسختها النسكريتية الأصلية بل من خلال الترجمة البهلوية (الفارسية)، فقد ضاع هذا النص. وقد قام بنقلها طبيب فارسي يدعى برزويه. (الاسفار الخمسة أو البنجاتنترا: ترجمة الدكتور عبدالحميد يونس، الهيئة المصرية للكتاب).

خلصت الحدوتة». وابتسامة الراوي هي دليل على انشراحة وانبساطة مما فعل، وتكون ابتسامة مغرية للأطفال بأن يواصل سرد حكاية أخرى.

* * *

عندما طرأت بالبال تسجيل وتوثيق حكايات قريتي نشطت للعودة إلى الاستماع إلى كلّ الحكايات التي سمعتها صغيراً، وكنت ألجأ إلى والدتي وأخواتي وبعض الجارات المشهورات في هذا الجانب، معتمداً على الكتابة خلف كلّ من تحكي لي؛ فجمعت الكثير الكثير. ومع تأخر الشروع في نشرها كنت أفقد الكثير منها بسبب كثرة الأوراق وتداخلها وضياعها، فقد انتقلت إلى ستة بيوت، وكانت تضيع مجموعة ما خلال كلّ انتقال، إذ إنّ عمال شركات النقل لا يعنيهم من تلك الأوراق (مكتبتي) سوى جمعها بطريقة عشوائية داخل كراتين عديدة وحملها إلى البيت الجديد. وفي إحدى الحملات ضاعت كرتونة فيها مجموعة من تلك الحكايات لم أستطع تعويضها.

وكانت تداهمني حالة من النشاط لإعادة جمع مافقدت من تلك الحكايات إلاّ أنّ الوقت لم يكن يسعفني، إذ يتطلّب الأمر التنسيق مع الرواة واجتزاء وقت كبير لسماعهم، بينما وقتي مزدحم للغاية كوني أعمل عملين ما إن أنتهي من أحدهما حتى أنتقل إلى العمل الآخر، فاعتمدت على الصدف والطلب إلى القريبين من الأصدقاء معاونتي في التسجيل، ولم يجد ذلك الطلب هوى في نفوس الكثير منهم، وكما يقول المثل المصري الشعبي «الغاوي يناط بطاقيته» إذ لم يكن مصاباً بهذه الغواية سواي، فتأخّر مشروع نشر هذه الأساطير ربع قرن، ففكرة نشر هذه الأساطير كانت قد لاحت في مخيلتي مبكراً جداً...

بسبب هذا التأخير والجمع المعاد كنت أسمع حكايات مختلفة، فجاءت فكرة أن أجمع أساطير الجنوب (تهامة) وأساطير الحجاز (والمقصود بالحجاز هنا جدة ومكة والمدينة) وأدفع بهما سوياً.

وفي كلّ مرة أقول: سوف أقوم بإعدادها ونشرها هذا العام... وقد مضت أعوام عديدة وها أنا أجهّز نشرها وأشكّ في أن تنشر في وقتها المحدد الذي اتفقت مع الدار عليه بسبب رغبتي الجامحة في الوصول إلى متخيل سكن داخلي للخروج بهذا العمل... وأشكّ أيضاً في أنّي قد استطعت تحقيقه.

أثناء كتابة هذا المشروع لم أكن أمتلك جرأة ناثانيل هوثورن حين قال: «إنّ هذه الأساطير ليست ملكاً لزمانٍ بعينه أو لقومٍ دون سواهم؛ إنها ملك للعالم كله وللزمان كله ولا يملك اليونان وحدهم الحق فيها». وناثانيل تجترأ بهذا الاعتقاد وأخذ الأساطير اليونانية القديمة المعروفة وصاغها صياغة جديدة تلائم عصره ووطنه ولغته.[1]

بينما أثناء جمعي وتوثيقي هذه الحكايات تجاذبتني أفكار حول أسلوب السرد، وكلما اطمأنت النفس لشيء منه انقلبت حالها في اليوم التالي.

وإن كنت بحاجة الى اعتراف ما فإني أقول - بادئ ذي بدء - إنّ هذا المشروع عمره أكثر من خمسة وعشرين عاماً أربض عليه كدجاجة بليدة فسد بيضها من مكوثها الطويل من غير أن تتحرك وتقلب بيضاتها ذات اليمين وذات الشمال.

كانت الرغبة الأولى تتمثّل في جمع هذه الحكايات كتوثيق لها فحسب، ثم طرأت فكرة المقارنة بين الحكايات (الأساطير) المتواجدة في المنطقة مع بقية حكايات (أساطير) العالم التي كلّما سمعت منها ما يتقارب أو يتطابق مع قصصنا تأجّجت تلك الرغبة، وحين فعلت ذلك وجدت أني أغرق في محيطات لا قدرة لي على الوصول إلى قرارها أو إلى أدنى من ذلك العمق للقصور في مهارة الغوص، وكنت أمنّي النفس أنّي سوف أستطيع القيام بذلك في زمنٍ ما. وكلّما مضت الأيام اكتشفت عجزاً مهولاً عن الوصول إلى الأمنية التي عششت في داخلي، فطال عمر هذا المشروع كثيراً.

كنت أهرب منه دائماً، وقد حدث خطأ مبكر حين سجّلت في سيرتي الذاتية أنّ لدي كتابين عن الأسطورة **قالت عجيبة - أساطير تهامية وقالت حامدة - أساطير حجازية**، وكلّ من قرأتلك المعلومة سألني عنها فأقول إني لم أنجزهما بعد... وكم أكون خجلاً حين أجد سائلاً (مفلوت اللسان) يتهكّم قائلاً: «إذا لم تنجزها لماذا تكتب أنّ لديك كتابين عن الأسطورة؟!»

---

(١) كتاب العجائب، ناثانيل هوثورن، ترجمة الدكتورة سهير القلعاوي، مكتبة الانجلو المصرية.
قام هوثورن بجمع الأساطير اليونانية القديمة في جزئين: الجزء الأول بعنوان كتاب العجائب، وجاء الجزء الثاني بعنوان قصص تانجلوود.

وفي الفترة الأخيرة وجدت من الصديقين (بل الأخين) يحيى امقاسم والدكتور حمود أبو طالب إلحاحاً لإنجاز هذا المشروع المتعثر.

وحين شرعت في الالتفات إلى المشروع وإنجازه رغم أنّ كثيراً من الحكايات التي جمعتها والقراءات والملاحظات التي سجّلتها قد تبعثرت بين الأوراق وضاع جلّها، فإذا بي حائر بين الوقوف أو مواصلة الانتهاء من المشروع بأيّ صورة كانت... فقررت الانتهاء بهذه الصورة.

وإن كانت هناك من إشارة أخرى فهي متعلقة بالهامش، إذ تجد أنه متخم - إلى درجة الإزعاج - بإضافات حكائية عديدة، فقد كنت أستهدف - منذ البداية - خلق مقارنة بين النص المحلي وبين بقية الأساطير العالمية، لكنّ هذا أمر بعيد المحال إذ يحتاج إلى فريق عمل متكامل وعلى اطّلاع واسع جداً بما أُنتج من أساطير وعالماً بجذورها وتفرّعاتها.

كما أنّي لم أكتب بحثاً وإنما كنت أستهدف الجمع ليقوم القارئ بالمقارنة، ولهذا كان الاقتباس في مقاطع عديدة يتجاوز كثيراً، وهي ملاحظة رغبت في الإشارة إليها كأساس آخر في كتابة هذه الحكايات، ووجدت فرصة لتمرير هواجس كنت أعيشها حيال الأساطير يمكن أن يعتبرها بعضهم شطحات، إلاّ أنها كانت تحوم في داخلي منذ زمنٍ بعيد فثبتُّها مع محاولة تدعيمها بأدلّة من القرآن الكريم.

وكما قلت، إنّ هذا المشروع مضى عليه أكثر من ربع قرن وأنا أزوره كتابة وقراءة، لكنّ خروجه لم يكن كما كنت أحلم به، ولهذا أقدّم هذا المشروع خديجاً، فقد ضربت على بطني قبل أن أكمل عدته. وهذا القول لكي أسترضي جزع النفس التي رأت فيه قصوراً حادّاً عن ما كانت تحلم به.

عبده

المقدّمة

١

علاقة البشرية بالأسطورة علاقة بدأت بالخلق الأول وظل ذلك الخلق ناثراً بذور وجوده عبر الديانات المتوالية إلى أن بلغ العلامات الكبرى لانتهاء البشرية من خلال علامة الدابة[1] وفق المفاهيم الأدبية لأسطرة الواقع في المفهوم الإسلامي.

ولهذا أجد نفسي مردّداً أننا بقايا أساطير نسكنها وتسكننا.

وحين آمنت بتلك المقولة أخذت أتلمّس وجودها في حياتنا فإذا بها تغلف كلّ شيء كمحيط، وتتغلغل في ممارساتنا كمرتكز سلوكي أنتجته أساطير موغلة في الزمن نمارسها من غير أن نستبين أنها بقايا فعل أسطوري اندثر كعبادة وتحول إلى سلوك.

وأجدني منساقاً لتعريف الثقافة بأنها كلّ فعل أو قول ترسّب داخل المجتمع وتحوّل إلى سلوك أو إيمان يمارسه الفرد من غير فحص أو مراجعة.

وإذا ولجنا من هذا الباب فسوف نجد أنّ الأسطورة تسكننا ونسكنها كإيمان وسلوك، كفعل لا نعرف مصدره.

كانت البداية من تلك الطفولة الأولى.

في قريةٍ استرخت على حوافّ وادٍ ضخم، ومن أسرة مزارعة تعرف تفاصيل

---

(١) قال تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ - (سورة النمل، الآية ٨٢).

الأرض بما يخرجه باطنها من ثمار، كان على أفرادها تعلم أوجاع الحقول ومداواتها قبل أن تنعكس على حياتهم.

ومن الطفولة الأولى وقفت على الأرض الخسئة والمرتوية والجدباء والمشققة والظامئة والمغبرّة، فالأرض كائن يحزن ويفرح وعلى الفلاح التعامل مع كلّ حالة من حالاتها وفق ظرفها مستجلباً كل الأساطير التي مضت عبر الزمن لكي يعيد إليها شيئاً من بهجتها.

فإذا تمدّد القحط وتغلغلت الفاقة بين الناس أُستجلبت الأغاني لإحياء موات الأرض، وهو فعلٌ فيه استعادة لأسطورة النسر. ففي زمنٍ غابر اختصمت الأرض والسماء، وإمعاناً في الخصومة قطعت السماء ماءها عن الأرض، ومضت السنوات، وفي كلّ سنة يتضاعف ألم الأرض باتّساع رقعة الجفاف بها حتى لم يعد بها مكان به ثمر أو شجر، فماتت الحيوانات والطيور وهلك البشر. وإزاء هذا الموات أشفق النسر على الأرض وكائناتها فحلّق عالياً صوب السماء وأخذ يغني لها ويستعطفها لكي تنهي خصامها مع الأرض. ولحلاوة وطراوة وعذوبة غنائه تصفح السماء عن الأرض وتسكب أمطارها، فتنبت الأشجار وتثمر بثمارها وتستعيد الأرض بهجتها وتعود كائناتها تدبّ على سطحها.

في طفولتي الأولى كنت محظوظاً، إذ عشت داخل الأساطير كحكاية وكفعل، ولأنّ ذاكرة الطفل ذاكرة محلّقة ومستفسرة منذ البدء وقبل بلوغ الحلم، إذ إنّ بلوغه يعني التكليف بحيث يكون الفرد قد تزود بما يجب وما لا يجب، بينما الطفولة السابقة هي اختراق ما يجب وما لا يجب.

في تلك الطفولة كان سؤالي هو: لو أني سرت في خط مستقيم فإلى أين أصل؟

لم يكن هناك من أحد يجيب على أسئلتي الحائرة سوى أم - رحمها الله رحمةً واسعة- لا تملك من المعرفة إلا ما يقال أو ما تمّ تغذيتها به للإجابة عن الأسئلة الوجودية الضخمة سوى أساطير تتناقلها القرية لكي تُسكت نهم الأسئلة المتقافزة من ألسنة أطفالها.

أجلستني أمامها وقالت: لو أنك سرت على وجهك - وستحتاج سنوات -

فسوف تسقط في بحر الظلمات.[1]

واقترن في مخيلتي بحر الظلمات بالليل.

ليل القرى دامس لا ترى فيه ظاهر كفّك، وأيّ ضوء شحيح قادم من مكانٍ ماء، سواء من فانوس أم نجم في عمق السماء، يخلق تخيّلات في ذهنية ذلك الطفل فيظنّها جنّاً جاؤوا لإزهاق روحه أو خطفه إلى الأرض السابعة. فالأرض السابعة موجودة كأداة تخويف وأنّ من يسكنها هم الجنّ، ومن يتمّ خطفه ليلاً لن يرى نوراً أبداً إذ سيعيش في ظلمةٍ أبدية.

وخلال ليالي السنة لا نستطيع الابتعاد أو السير في منحنيات القرية حتى إذا قدم

---

(١) كان الاعتقاد السائد أنّ الأرض مسطّحة وأنّ حوفها تنتهي بالعالم السفلي، وهو العالم الممثل للشر حيث يقبع الشياطين والمردة. وفي الأسطورة الفرعونية كانت مهمة الإله رع أن يخرج صباحاً في موكبه الخالد، يخرج من الأفق الشرقي عابراً السماء ويختفي موكبه في الأفق الغربي ليصل إلى العالم السفلي لينير بنوره ذلك العالم المظلم.
هذه الرحلة للوصول إلى العالم السفلي كان لها تفسير - عندما تقدّم العلم قليلاً - فمن خلال تواصل الرحلات البحرية بحث الإنسان عن أرض جديدة لكي يستولي عليها ويكسب وجوداً جديداً من خلال استغلال خيراتها، فحدث غزو للبحار لمعرفة ما يوجد خلفها، إلا أنّ إمكانياتهم المتواضعة لم تكن قادرة على اختراق المحيطات ومنها المحيط الاطلسي فأطلق المؤرخون العرب في إحدى حقب التاريخ لقب بحر الظلمات على المحيط الأطلسي الذي وقف على ساحله عقبة بن نافع وقال وهو يغوص بجواده في مياه الشاطئ: «يارب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك.»
وكان الاعتقاد بأنّ المحيط الأطلسي هو آخر الدنيا وأنّ هذا البحر يسيطر عليه طائر الرخ (وهو كائن أسطوري ضخم قادر على ابتلاع أيّ شيء) وأكّدوا أنّ من يحاول الإبحار فيه ينتهي أمره بأن يقوم طائر الرخ بابتلاعه، وإن نجا من هذا فسوف يسقط في فجوةٍ عميقة تدخله إلى العالم السفلي.
ونقطة السقوط إلى الفجوة العميقة هو إعادة فكرة أنّ الأرض مجوفة يفضي تجويفها إلى إدخالك إلى أرض أخرى.
وقد شاعت فكرة أنّ نهاية العالم هي بحر الظلمات.
وقد شغل بحر الظلمات الرحالة والمحاربون والمؤرخون، فكتب عن هذا البحر الإدريسي في نزهة المشتاق ووصفه ابن بطوطة في رحلته، وكذلك كتب عنه ابن خلدون في مقدمته وأشار إلى أنّ الأعاجم تسمّي بحر الظلمات بحر أوقيانوس وآخرون يسمونه بحر البلايا، ومن كلمة بلايا نلحظ التفخيم الأسطوري لما يتواجد في بحر الظلمات.

رمضان تحولت الليالي المظلمة إلى قطعة من ليلٍ آمن، فالإيمان المطلق بأنّ الله يصفد الجنّ والشياطين في رمضان[١] يجعل المرء يسير من غير أن تنتابه الهواجس، فما يحدث في ليالي السنة من أفعال يثير رعباً حقيقياً لدى الفرد بينما إذا حدث الفعل نفسه في ليالي رمضان فلا يُلقى له بالٌ ولا يثير مخاوف أحد إيماناً بأنّ الجن مصفدة.

لم تكن الحياة في القرية إلاّ مجموعة أساطير يتم بواسطتها تفسير كل ما يحدث على أرض الواقع، ففي ذات صباح «ارتجّت الارض» وتصايح الناس للحظات حتى إذا هدأت انتهى بهم الأمر لاستذكار «أسطورة الثور» وعرفوا أنّ الثور قد تعب وأراد أن يريح أحد قرنيه من الثقل الذي يحمله.[٢]

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب النار، وصفدت الشياطين. (متّفق عليه). وفي رواية: سُلسلت.
وفي رواية عند الترمذي وابن خزيمة: إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صفدت الشياطين ومردة الجنّ.

(٢) تواجدت أسطورة مشهورة تفسّر حدوث الزلازل مفادها أنّ الارض يحملها ثور على أحد قرنيه وإذا تعب نقلها إلى قرنه الآخر.
وهذا هو التفسير الأسطوري لحدوث الزلازل أو رجفات الأرض.
والثور في الأسطورة الفرعونية هو الحيوان المقدس عند الإله آتوم، وظلّ متواجداً في بقية الأساطير العالمية بصورة أو أخرى. بينما هو في الأسطورة الإغريقية يرمز إلى الحب والهيام. فالإله جوبيتر، كبير الآلهة، كان قد شغف حباً بيوروب، ابنة فينيقا وأجمل جميلات نساء زمانها، وقد استعمر حبها قلب الإله جوبيتر وهام بها شوقاً حتى أنّ الكون كله تضاءل في نظره، وصار في حبه ضعيفاً صاغراً لا يرى غيرها. ولكي يصل إليها لجأ إلى الحيلة فتمثل في صورة ثور أبيض ناصع البياض وانخرط وسط القطيع، وكانت يوروب جالسة تشاهد جمال الطبيعة، فما أن رأت الثور الأبيض حتى نهضت كي تلمس فورة جلده الرائعة، فانحنى لها خشوعاً وكأنه يدعوها لتركب ظهره، وبالفعل فعلت، فما كاد يمشي بها قليلاً حتى انطلق بها فوق البحار والأراضي إلى أن وصل جزيرة (كريت) فأنزلها برفق ورجع إلى صورته الأولى (صورة الإله جوبيتر كبير الآلهة) وباح لها بحبه وراح يبثها أشواقه، وكلما تكلم تفتحت نجمة وترنمت الرياح. - (كتاب أسرار الأبراج)
وهناك تفسيرات أسطورية أخرى لحدوث الزلازل:
إذ كانت أسطورة الخلق القرشية فيما قبل الإسلام، وكان طوطمها الحوت تقول: «إنّ الله خلق الأرض على الحوت، والحوت في الماء، والماء على ظهر الصفا، والصفا على ظهر ملك، والملك على صخرة، والصخرة على الريح». يقال إنها هي الصخرة التي ذكرها =

من قبل أن أولد والأسطورة تشكّلني. اسمي عبد الرحيم، وقد تشكل هذا الاسم في صور عديدة بسبب الأسطورة.

ويحق لي أن أقول إني عشت الأسطورة وجدانياً وثقافة.

كلٌّ منّا يجالس أمه أو أباه ويسأل كيف اختارا له اسمه، وإذا بدأت الحكاية تصل بك إلى ما كان يحدث لك قبل أن تعلم شيئاً.

روت لي الوالدة - رحمها الله رحمةً واسعة - أنّ من سمّاني هو أخي الذي يكبرني، إذ جاءها وقال لها: لو كان في بطنك ولد فسمّيه عبد الرحيم.

وعبد الرحيم ولي من أولياء الله الصالحين له ضريح يزوره أهالي القرى، وجعلت الذاكرة الشعبية من حركة قبره موعداً لقيام الساعة، إذ تذهب إلى الاعتقاد أنّ هذا الرجل الصالح يتحرك قبره سنوياً بمقدار شبر متّجها للقاء الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة، ويظلّ القبر يقطع المسافات حتى إذا وصل قبر عبد الرحيم إلى قبر الرسول صلى الله عليه وسلم قامت الساعة. ولهذا تجدهم يشجّعون هذه الرحلة من خلال أهزوجة يترنُمون بها سنوياً أو عند زيارتهم قبره منشدين:

يا عبد الرحيم يا صابر اصبر

إنّ الله مع الصابرين.

وفي مرحلةٍ تالية تأثر الاسم بطقس العادات، إذ أنّ أهل تهامة يحوّرون كلّ الأسماء المنتهية باسمٍ من أسماء الله الحسنى إلى (عبده) بحذف الاسم أو الصفة

= الحكيم لقمان: ليست في السماء ولا في الأرض. فتحرك الحوت فاضطربت وتزلزلت الأرض فأرسى عليها الجبال.

وفي إحدى الخرافات التي يوردها وهب بن منبه «أنّ ذا القرنين أتى إلى جبل قاف فقال: فأخبرني ما هذه الجبال التي حولك؟ فقال جبل قاف: هي عروقي، فإذا أراد الله أن يزلزل أرضاً أمرني فحرّكت عرقاً من عروقي فتزلزلت الأرض المتصلة به.» - (موسوعة الفلولكلور والأساطير، شوقي عبدالحكيم).

وقد ذُكر في كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس بيان لماذا سُمّي الإسكندر عليه السلام بذي القرنين قال: «إنه إنما سُمي ذو القرنين بذي القرنين لأنه كان في رأسه عظمان ناتئان مثل قرني الكبش ويلبس عليهما عمامته فيسترهما، وهو أول من لفّ العمامة وأول من صافح بكفة.»

وإلحاق ضمير الغائب (الهاء) بالاسم لكي يتبارك صاحبه بجميع صفات وأسماء الله الحسنى.[1]

ولأنّ المنطقة كانت مغمورة في وعاء أسطوري خضع اسمي للتغيّر مرة أخرى، إذ مرّت طفولتي بأمراض عديدة بدءاً بشلل الأطفال وتوالي أمراض عرفت في المنطقة كأمراض إما أن يعبرها الطفل أو أن تنتهي حياته داخل قبرٍ صغير. وكثيرة هي النعوش التي كانت تخرج مع كلّ (شوطة) إلى مقبرة القرية. ولهذا كانت الوالدة - رحمها الله رحمةً واسعة - تعدّني كمشروع ميت عليه الإسراع بقطع أنفاسه اللاهثة قبل أن يستطيل به الألم. أما هي فقد تدرّبت على الحزن بفقدان خمسة من أبنائها الذكور أودعتهم المقبرة في سنوات أعمارهم المختلفة. كان يشقيها رؤية هذا الطفل الذي يخوض غمار الأمراض ويخرج منها مواصلاً رحلته إلى مرضٍ جديد؛ كان يشقيها ألمه، وقد تلقّت نصيحة من إحدى جاراتها العارفات[2] أن تقوم بتغيير اسم ابنها لكي ينجو من الموت، وتمّ تغيير اسمي (وهي النبزة التي لازمتني بقية حياتي، إذ لا أعرف بسواها بين الأهل والأقارب).

* * *

عرفت الجنّ مبكّراً من خلال الحكايات ومن خلال الحياة اليومية، فليل القرى شديد الظلمة، وقد قيل لنا إنّ اليوم مقاسمة بيننا نحن البشر وبين الجن الذين يخرجون من مساكنهم في الليل ويعودون إليها مع أول ظهور للشمس.

وثمة تحذيرات من أن تذهب إلى الأماكن الخربة ليلاً، إذ يمكن أن تخطفك الجنّ ولا تعود الى أهلك، وتغلظ الوصية لفتيات الجميلات فلربما عشقها جني وجذبها بحيل إلى الفضاء وخطفها وغاص بها إلى سابع أرض. وهناك قصص كثيرة (لرجال ونساء) بأن الجنّ قد خطفوهم. ولا تقف الحكاية عند هذا الحدّ بل تواصل

(١) الاسم الوحيد الذي لا يطاله هذا التغير هو اسم (عبد الله) أما بقية الأسماء، كعبد القادر أو عبد الرحيم أو عبد العزيز أو عبد القدوس أو عبد الرحمن أو عبد السلام، فيتم تحويره إلى عبده.

(٢) كانت المعرفة تثمّن بما يحمله المرء من دراية بالأساطير إذ من خلالها يقيّم الحالة ويصف الدواء.

سرد قصص هؤلاء المخطوفين، مع عودة بعضٍ منهم وشرح ما حدث لهم.[١]

وأهل القرى التهامية يؤكدون أنّ الجن يقاسمونهم حياتهم في أشياء كثيرة منها الأكل والشرب، فلم نكن نتبوّل أو نستنجي بعظام أو جلود الحيوانات النافقة أو التبوّل على روث الحيوانات، فهي غذائهم، ولا ندوس على ظلّ. وإذا هبّت عاصفة وتطايرت الأوراق فإنّ تطايرها يعني أنّ جنيّاً قد غضب ونادى على أهله بأن ينفخوا معه لذرّ التراب في عيون البشر، وكل ورقة طائرة هي مخبأ لجنّي يشارك في النفخ، فلا يمسك بها إنسي.

والجانب المفرح الذي ينتظره القروي هو أن يمرّ به النبي الخضر، فالمحظوظ من عبره وحقّق له أحلامه. وحضور النبي الخضر يتمركز في باطن الأودية أو بجوار الآبار وفي ليلة القدر.

وكثير من القرويين يؤمن بوجود (خاتم الاسم) وإمكانية الحصول عليه. والخاتم في الذاكرة الشعبية هو خاتم النبي سليمان، والعثور عليه يحقّق لصاحبه كلّ الامنيات التي يريدها. كما أنّ الباحثين عن الثراء لديهم أساطيرهم الأخرى، وهي تتبع الثعابين، وخاصةً (ثعبان أبو جوهرة)، فهذا الثعبان يحمل جوهرة لا تقدّر بثمن يحملها معه أينما ذهب، وهي بمثابه عينيه اللتين يرى بهما، فإذا وصل إلى مكان وضعها وتحرّك بحثاً عن غذائه، فإنّ من رأى تلك الجوهرة عليه أن يضع فوقها (ضفعة)[٢] بقرة ويهرب في الحال مغادراً قريته لمدة ثلاثة أيام، ولو مكث فإنه ميت ميت لا محالة.

---

(١) هناك قصص كثيرة بعضها يذهب إلى أنّ جنيّاً (أو جنيّة) عشق إنسيّاً (امرأةً أو رجلاً) وقام بخطفه إلى العالم السفلي، وبعد سنوات يعود هذا المخطوف في حالة رثّة يغلب وصفها بأنّ شعره طويل وأظافره كحوافر الحمار وأنه هزيل، وعلى لسانه تواصل الحكاية وصف ما حدث له من البدء حتى عودته إلى أهله الإنس.
وهناك قصص تقول إنّ الخطف يحدث إن أغضب إنسيٌّ (أو إنسية) جنيّاً (أو جنيّة) أو أذاه بصبّ ماء حار عليه أو ضربه بحجر أو صفّر واستدعاءه... تواجدت صور كثيرة لحضور الجنّ بين الناس. ولهذا فإنّ هناك العديد من المحظورات، مثل عدم دلق الماء الحار على الأرض أو التصفير ليلاً أو ضرب الكلاب والقطط بالحجارة أو الدوس على ظلّ الإنسان، إذ إنّ الظل هو القرين، والقرين في مفهوم أهل القرى هو جنّي أو شيطان.

(٢) أسطورة الثعبان أبو جوهرة معروفة في المنطقة، وصفته أنه ثعبان طائر وضخم، ومن شروط =

وتواصل الأسطورة حضورها حتى في الموت، فهناك حيوان أسطوري يلقّب بـ(النباش)[1]، وهذا الكائن إذا تمّ ايذائه من أحد فإنه يخرج إليه ليلاً متوعّداً إياه وصائحاً به: «حلالتي بك... ويعقب عقبك». فإذا دنا أو مات الموعود بالتهديد فإنّ على أبنائه أو ذويه حماية قبره لثلاثة أيام بلياليها وإلا قام الحيوان الأسطوري (النبّاش) بنبش قبر الميت وأكله ميتاً... وتظلّ اللعنة تلاحق ذريته.

كثيرة هي الأساطير التي عشتها، فحين يخسف القمر تقوم النساء بدقّ وقرقعة الصحون لكي ينبّهن القمر إلى أنه قد ضلّ طريقه، وكذلك مع كسوف الشمس تقوم النساء بقلب المطاحن على وجوهها إشارةً إلى أنهم سيموتون جوعاً لو اختفت الشمس، كنوعٍ من الاسترضاء وطلب الرحمة. ولو أردت الاستمرار في ذكر السلوك الحياتي لأبناء القرى فسوف يطول الأمر، خاصةً حين اقترانها بأسطورة ما حدثت في مكانٍ ما من هذه المعمورة.

ولن أكون جازماً في إعادة كلّ سلوك إلى زمنيته التي نشأ بها، إذ أنّ أفعالنا هي إرث حكائي تناقلته الأمم وأدخلته في حياتها كسلوكٍ تعبّدي في البدء، ومع تطاول العهد تحول إلى سلوك حياتي ومعيشي يمارس من غير مرجعيته الدينية. فالقروي لا

= الحصول على جوهرته أن تغطيها بضفعة بقرة (الضفعة مفردة ضفاع وهي روث البقر)، وحالما يتم تغطيتها يطير الثعبان باحثاً عمّن سرق جوهرته، فإن وجده قتله في الحال، ويظل محلقاً باحثاً عن خصمه لثلاثة أيام، فإن لم يجده سقط على الأرض ومات. ولهذا وجب على من يجدها ويغطيها مغادرة المكان لثلاثة أيام حتى إذا انقضت يعود ويزيل الضفعة ويجد الجوهرة.
وكل الأساطير توصي من يجد كنزاً أن يغطّيه. ويختلف الغطاء من أسطورة إلى أخرى، ومعظمها يذهب إلى تغطية الكنز بقطعة سوداء تخفي توهّجه، إذ أنّ الكنز تصدر منه أشعة، والغطاء الأسود يخفي تلك الأشعة، ويمكن الاستنتاج من هذا أنّ الكنز كان يمثّل جواهر أو ذهباً، فهي مواد عاكسة للضوء.

(١) النبّاش هو الضبع، وهو حيوان يعيش على أكل الجيفة، ولأنه حيوان ضار ويتواجد بكثرة في خلاء القرى بسبب ابتعاد الناس عن إيذائه أو محاولة قتله. ويغزو القبور ليلاً كون القبور متروكة في الفلاة من غير أسوار، والقبر الذي ينبش وتؤكل جثته يتقوّل أهل القرى أنّ المنبوش قد أذى ذلك الحيوان لكنه لم يخبر أهله، ولهذا فإنّ من يخشى على جثته يدّعي أنه موعود بالنبش، فيحرس أهله قبره لثلاثة أيام، ومع الحرارة الشديدة تختفي الرائحة النتنة للمدفون، فلا تقود الضبع إلى نبش ذلك القبر. ولهذا أعتقد أنّ أسطورة النباش نشأت بالصدفة.

يمكن له أن يطفىء النار من غير أن يذكر اسم الله خشية أذى قد يلحق به جرّاء إطفائه النار، وهذا مرتبط بالديانة الزرادشتية وبإبقاء النار مشتعلة كونها رمزاً للنور الإلهي.

وتسود كلمة (ناهي) على ألسنة بعض أهالي قرى تهامة بمعنى التأمين على ما تقول أو الرضوخ لما تقول. ويرجع الأستاذ حمزة علي لقمان في كتابه **أساطير من تاريخ اليمن** أنّ (ناهي) كان إلهاً يعبد في اليمن.

ويسبب الوفرة المهولة للأساطير وانتقالها من حالة تعبّدية إلى حالة سلوكية أجدني دائم الترديد أننا بقايا أساطير، وهي جملة لازمتني وقتاً طويلاً ملازمة تسجيل وتوثيق هذه الحكايا، وكلما أنغمس في قراءة الأسطورة صادفني فعل ما أو عبادة قديمة تحولت إلى سلوك أو عادة في حياتنا الراهنة، وغدوت مستملحاً المقاربة بين السلوك والبحث له عن مرجعية أسطورية.

إلاّ أنّ غزارة الأساطير وتبدّل حالها من مكان إلى آخر ينبّهك إلى وجود معضلة، فالأسطورة الأولى لكونها لم تكن مكتوبة فقد غدت معرّضة للزيادة والحذف من راوٍ إلى آخر. وغالباً ما تكون الأسطورة أو الحكاية ذات جوهر واحد إلا أنها تحرّف على لسان من يرويها إما استجابةً لظرفه الاجتماعي أو الديني وإما وفق أهوائه وعدم انسجامه مع الرواية التي سمعها؛ فتجده يضيف شيئاً من عنده. وهذه الزيادة عندما تنقل إلى شخص آخر ويقوم الأخير بسرد الحكاية فإنّ زيادة الراوي الذي سبقه تصبح لبنة جوهرية من لبنات الحكاية، وربما يقوم هو أيضاً بإضافة لبنة أخرى أو إسقاط حدث أخر. وتنتقل الحكاية من مجتمع إلى آخر وفق هذه الزيادة أو النقص.

وهذه الخصلة لا يسلم منها الوعي أو عدم الوعي، فنرى أنّ جان دي لافونتين (١٦٢١-١٦٩٥) في مقدمته لحكاياته قد استقى الكثير منها من حكايات إيسوب[١]

(١) إيسوب عاش في النصف الأول من القرن السادس قبل الميلاد في مدينة عمورية (آموريوم) بفريجيا الواقعة في أواسط آسيا الصغرى)، وقد حباه الله ذكاءً أذهل أهل زمانه، وجعله الله في خلقةٍ من القبح لا تصدّق، وقد ولد حرّاً ولكنه جُعل عبداً رقيقاً يباع ويشترى لسنين طويلة غير أنه بقي يتشبّث بحريته ويتحدّى المهانة والظلم بشجاعة وقدرة عقلية نادرتين. وله مع الفيلسوف اكسانتوس الذي اشتراه وأدخله في خدمته مدة طويلة في ساموس حكايات كثيرة مما =

وأراد لحكاياته أن تنتعش بلمسات منه تشع فيها الحيوية والجدّة والمرح، فهو لم يكتفِ بمجرد كتابتها شعراً بل أضاف جزئيات طريفة من عنده إلى التركيبة القصصية، كما أضاف عشرات الحكايات الأخرى التى تجعل منها وسيلة لقول الكثير مما أراد قوله على طريقته الخاصة.

ونلحظ أيضاً أنّ الأسطورة في تشكّلها الأول كانت تكتب في قالبٍ شعري وليس سردي، وهذا يعيدنا إلى أنّ الشعر أداة خانقة كونها تلتزم بشروط الشعر بينما السرد يمنح السارد فضاءً أوسع من الفضاء الشعري. وإذا تحولت الأسطورة من بنيانٍ محكم في الشعر فإنها تتفلّت في السرد، وخاصةً عندما تحولت الأسطورة إلى ملك مشاع ترويها النخبة والعامة. وقد أضرّ الرواة العاميين ببناء الأسطورة ضرراً كبيراً من حيث الزيادة والنقصان وتكييف الأسطورة مع واقعهم المعاش.

كما أنّ وجود الدين جعل الأسطورة تنسلخ عن كونها حكاية آلهة إلى كونها حكاية بشر، ولهذا نلحظ أنّ الأساطير التي تمّت روايتها بعد مجيء الإسلام قد حُرِّفت تحريفاً أساسياً، فالإله يتحول إلى ملك وآلهة الشر تتحول إلى جنّ، ونلحظ أيضاً أنّ الإله المغضوب عليه بالمسخ من قبل الإله الأكبر يتمّ تكييف هذا بأنّ ساحراً قد قام بفعل المسخ.

ومن الصعوبة بمكان - بالنسبة إلي - أن تجد بناءً موحّداً لأيّ أسطورة، إذ تتحول إلى شظايا من الحكايات المتناثرة التي يتقاسمها البشر كحكايات أو أفعال غاب بنائها الحقيقي وتوالدت منها آلاف الحكايات ميزتها الحقيقية أنها باقية وأنها عبرت الزمن وما زالت باقية.

٢

عندما نقرأ في الأسطورة فإنها توصلنا إلى طريقة التفكير لدى أصحابها وكيف كانت نظرتهم المعرفية إلى ما يحيط بهم، ولكن حين ترغب في الوقوف على

= أدّى بمالكه في النهاية إلى عتق رقبته. - (حكايات من لافونتين، اختارها وقدّم لها جبرا إبراهيم جبرا، الطبعة العربية الأولى ١٩٨٧، وزارة الثقافة والإعلام، دار ثقافة الطفل، ص١٢).

مصطلح أساطير لكي تستبين أين تضع خطواتك في طرقٍ متشعبة سلكها مرتادو البحث عن الأسطورة، سواء بالتوثيق أم الدراسة، فإنك تجد تلاطم التعريفات التي تدخلك إلى ضياعٍ مضاعف. وقد بدأ الخلط في تعريف هذا المصطلح مع بداية جمع تراث الأمم السابقة «إبّان العصرالهيلنستي عقب فتوح الإسكندر المقدوني على يد كتّاب من أمثال كاليماخوس وأبولونيوس، وقلّدهم في ذلك لاحقاً الشعراء الرومان من أمثال أوفيد وبروبيرتيوس. وعندما جاء الباحثون الغربيون في العصر الحديث للنظر في تلك المجموعات الأدبية أطلقوا على ما حوته اسم «الأساطير»، وابتدأت مشكلتنا مع المصطلح والتعريف.»[١]

وقد تنامت تعريفات الأسطورة حتى لم تعد تستطيع الوقوف أمام مصطلح يحمل تفاصيله الواضحة[٢]، فكلّ مصطلح يحاول الاقتراب ممّا يريده الكاتب، وبذلك تشعّبت التعاريف وفق الأهواء والأغراض. وفي فضائنا العربي اعتُبرت الأسطورة قصة رمزية ذات دلالة قدسية؛ فهي نتاج تلاقح ركنين أساسيين فيها هما الصورة الشفهية للمفردة ودلالتها في الذهن الإنساني انطلاقاً من رمزية معينة ترمي إليها المفردة في إطار لاعقلاني[٣]. واعتباره بهذه الصيغة هو انقياد للتعريفات الغربية.

---

(١) فراس السواح: **الأسطورة والمعنى**.

(٢) امتاز الآريون عن الساميين بمقدرتهم على توليد الأساطير والشعر القصصي بكثرة وافرة وبأنواع مختلفة حتى أصبح متعذراً على العلماء أن يحدّدوا معناها لكثرة تنوعها، وهذا ما قاد إلى الخلط في تعريف الأسطورة. وعندما جاءت الدراسات منقّبةً عن معنى لهذا الكمّ المهول من الأساطير «وهو ماعُرف بعصر توليد الأساطير، وهو العصر الحجري والحديدي الذي مثل طوراً من أطوار ارتقاء الفكرة الإنسانية.» - (**الأساطير والخرافات عن العرب**، الدكتور محمد عبد المعيد خان، دار الحداثة).
ولكون فراس السواح اشتغل كثيراً بالأسطورة نجده يقدّم تعريفات عديدة لها فيقول في كتابه **مغامرة العقل الأولى**: «الأسطورة قفزة أولى نحو المعرفة، وهي مرحلة لاحقة على السحر بعد أن يئس منه الإنسان القديم... وهي نظام فكري متكامل ومجمع الحياة الفكرية والروحية للإنسان القديم... الأسطورة حكاية، حكاية مقدسة...» لكنه سيعود للتأكيد على أنّ للأسطورة نسيجها المتميز بالرغم من تداخلها مع الخرافة والحكاية.

(٣) الدكتور محمد شحرور: **القصص القراني - قراءة معاصرة**، دار الساقي.

ولكون علماء الغربهم هم روّاد الدرس الاجتماعي جاءت الدراسات العربية مقتفيةً أثر هؤلاء العلماء اقتفاءً حرفياً، في حين أنّ لفظة «أساطير» كانت مفردة مهمة من مفردات القرآن استُخدمت كرفض للرسالة التي جاء بها سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم، لكنها لم تحمل نفس الدلالات الغربية باعتبار أنّ الاسطورة أباطيل، بل لكونها أخبار الأولين المسطّرة، أي المكتوبة، وإن كانت الموضوعات التي تدور حولها الأسطورة قد تميّزت بالجدية والشمولية، مثل التكوين والأصول والموت والعالم الآخر ومعنى الحياة وسرّ الوجود وما إلى ذلك من مسائل التقطتها الفلسفة فيما بعد.

إنّ همّ الأسطورة والفلسفة واحد ولكنهما تختلفان في طريقة التناول والتعبير، فبينما تلجأ الفلسفة إلى المحاكمة العقلية وتستخدم المفاهيم الذهنية كأدوات لها فإنّ الأسطورة تلجأ إلى الخيال والعاطفة والترميز وتستخدم الصورالحية المتحركة.[١] ومع كثرتها فهي لا تتجاوز الأوصاف الرمزية والمشابهة الفنية التي طبع الخيال، فهي ترجع إلى ملكة التجسيم والتصوير ولا ترجع إلى ملكة الإيمان والاعتقاد.[٢]

وتجري أحداث الأسطورة في زمنٍ مقدّس هو غير الزمن الحالي، ومع ذلك فإنّ مضامينها أكثرصدقاً وحقيقةً بالنسبة إلى المؤمن من مضامين الرويات التاريخية، فقد يشكّ هذا المؤمن في أيّ رواية تاريخية ويعطي لنفسه الحق في تصديقهما أو تكذيبها، ولكنّ الشك لا يتطرّق إلى نفسه، إذا كان بابلياً، في أنّ الإله مردوخ قد خلق الكون من أشلاء تنّين. فالأسطورة لا تقصّ ما جرى في الماضي وانتهى، بل عن أمرٍ ماثلٍ أبداً لا يتحول إلى ماضٍ.[٣]

إنّ الأسطورة هي حكاية مقدسة[٤] ذات مضمون عميق يشفّ عن معانٍ ذات

---

(١) نزار يوسف: **الحكمة بين الإله والسلطان**.

(٢) **الله** كتاب لعباس محمود العقاد.

(٣) نزار يوسف: المصدر نفسه.

(٤) الأسطورة، في الأساس، حكاية مقدّسة، أبطالها من الآلهة أو من أنصاف الآلهة. وهي نص أدبي جميل كان يُتلى في المعابد أو يُمثّل على المسارح القديمة. وكلمة «أسطورة» ذات أصل آرامي (سرياني) من فعل «سطر» أي كتب، ومنها كلمة «سطّر» بالعربية. أما في الإغريقية فهي (Istoria) وتعني «أخباراً تاريخية»، ومنها جاء مصطلح (History) غير أنّ للأسطورة بعداً =

صلة بالكون والوجود وحياة الإنسان. ومع أنّ حمولاتها دينية لكنها لا تأخذ قداسة النص الديني، فهناك جرأة على التغيير في أسلوبها وعلى تغيير أحداثها.

وقد أظهر الدين مناعةً أمام النقد الفلسفي والعلمي، وحافظ على استمراره فاعلاً ومؤثراً في الحضارة الإنسانيه رغماً عن لامعقولية تعبيراته الرمزية.[1] وحين يقول الأستاذ فراس السواح «إنّ أيّ نصّ غير قابل للدحض من حيث المبدأ هو نصٌّ زائف» إنما ينطبق هذا القول على النصّ البشري، بينما النص المقدّس (كالقرآن) مع الإيمان بأنّه ليس نصّاً بشريّاً بل قول الله يصبح دحض قول الخالق من المخلوق يعبّر عن عدم إدراك يبدأ من غياب علم الضاحد بما يعلمه الخالق المحيط بالأشياء، وينتهي بعجز لغة المخلوق عن استيعاب لغة الخالق.

كما أنّ فرضية هيجل القائلة إنّ عصراً ساد فيه السحر وقد سبق عصر الدين في تاريخ الحضارة تكون فرضية معلّقة في الهواء، إذ ليس في الإمكان أن يسود السحر القائم على التيمة اللفظية التي هي تيمة منشأها ديني. فالدين سابق لأيّ فعلٍ كان، وقد تفرّعت كلّ الأفكار والممارسات من الدين. وإن ذهب الرأي القائل إنّ تاريخ الفكر الإنساني قد تتابع عبر أربع مراحل هي السحر فالدين فالفلسفه فالعلم التجريبي، وقد تشكّل هذا الرأي انطلاقاً من فرضية هيجل، فيمكن إعادة الترتيب بأن يأتي الدين أولاً ثم تأتي بقية التفريعات الأخرى. ولو لم يكن الدين أولاً لما نشأت الأساطير الباحثة عن الخالق وتفسيرات الوجود، فهي سابقة على كلّ فعل.

= معرفياً أيضاً هو أنها محاولة لاستكشاف خفايا الكون وغرائبه الكثيرة، وهي، في الوقت نفسه، محاولة لتفسير أسرار الكون المتشابكة. وتنتمي الأسطورة، زمنياً، إلى مرحلة حضارية سبقت نشوء الفلسفة وبدايات العلوم، فكانت تفسِّر بطريقة أولية، وربما بدائية أحياناً، ظواهر الكون والطبيعة، ولاسيما مظاهر التغيّر في السماء والأرض. فأسطورة «برسيفوني» تفسّر، إلى حدٍّ ما، تعاقب الفصول الأربعة، وأسطورة الثالوث المصري «إيزيس وأوزيريس وحورس» حاولت أن تقدّم تفسيراً لظاهرة الخصب تبعاً لجريان نهر النيل وفيضانه، أي ثالوث الموت والانبعاث والخلق، أو الخير والشر والانتقام؛ فاتحاد النيل بالأرض ثم بدء عملية الإنبات هو تماماً مثل اتحاد إيزيس وأوزيريس وإنجاب حورس. - (صقر أبو فخر: بين الأسطورية والتاريخية، مأساة أوديب وقصة أخناتون، مجلة نزوى، العدد السبعون).

(١) فراس السواح: الأسطورة والمعنى.

وحين يقول السير حوم «إنّ الأساطير هي علوم عصر ما قبل العلوم»[١] يمكن قبول ذلك، إذ أنها كانت المفسّر لكلّ ما يحدث للإنسان في ظلّ غياب أدوات البراهين والأدلة العلمية.

وإن كان لي من الأمر شيء في صكّ تعريفٍ للأسطورة فيمكن القول: إنّ الأسطورة هي بحث العقل عن وجوده.

٣

حينما تحاول اختراق الزمن في رحلة عكسية لتقف على بداية شرارة الحياة وكيف عاشها الإنسان الأول فلن تستطيع أعتى مخيّلة بناء منظومة متجانسة لما كانت عليه الحياة، ففترة الإنسان القديم، وفق ما اصطلح على تسميتها (ما قبل التاريخ)، تمتد إلى ملايين السنين، بل إلى أكثر من ذلك بكثير، حيث يقول العلماء إنّ الديناصورات انقرضت قبل أكثر من ٦٠ مليون عام، ويؤكّد علماء الجيولوجيا أنّ عمر الأرض لا يقلّ عن ٤,٥ بليون عام. وكان اللورد كالفن أول من تجرّأ (في العقد الأخير من القرن التاسع عشر) على معارضة التيار الديني وأكّد استحالة تشكّل الأرض خلال عمر قصير. وقد قدّم حينها استنباطاً علمياً رائعاً يعتمد على وجود أحافير عتيقة تشير إلى أنّ القشرة الخارجية للأرض تتطلّب ٤٠٠ مليون عام حتى يتصلب. واليوم أثبتت التقنيات الحديثة (مثل قياس نصف عمر اليورانيوم) أنّ عمر الأرض أكبر من كلّ التوقّعات وأنه لا يقل - في أيّ حال - عن ٤,٥ بليون عام!![٢]

هذه الفجوة الزمنية السحيقة لم تصل إليها أيّ دراسة، ولم يصلنا منها أيّ مدوّنة سوى إشارات وومضات عبر الكتب المقدسة. وحديثاً استطاعت الاكتشافات الأثرية[٣] اقتحام أطراف تلك التخوم إلاّ أنها لم تُشبع نهمنا إلى معرفة الأعمق.

---

(١) سليمان مظهر: أساطير من الشرق، الهيئة العامة للكتاب، الألف كتاب الثاني ٢٧٤.

(٢) فهد الأحمدي، جريدة الرياض، العدد ١٥٧٣٠.

(٣) الحفريات تكشف عن جماجم بشرية ذات شكل قردي في الترنسفال وبكين وجاوة. ونياندرتال وبعض هذه الجماجم وجدت في كهوف عثر فيها على بقايا خشب متفحم في مواقد تدلّ على أنّ أصحاب هذه الجماجم قد اكتشفوا النار واستخدموها منذ ملايين السنين. =

ولأنّ القرآن الكريم هو آخر الكتب السماوية فإنه لم يحمل في إشاراته تاريخاً أو جغرافيا، فأصبح المكان والزمان مجالاً رحباً للمتخيّل منذ بدء الخليقة إلى أخر نقطة في المستقبل.

وإذا آمنّا أنّ بداية الإنسان موغلة في الزمن فإنّ كلّ مانقوله عن ذلك العهد ما هو إلاّ تخرّصات وتكهّنات نذكرها لكي تستقيم دراستنا مع ما نؤمن به. ولو أردنا متابعة أول ظهور حضاري للإنسان، فإنّ أقدم هذه التحولات قد حدث في مطلع العصر البليستوسيني الأعلى الذي امتد من عام ١٠٠,٠٠٠ إلى عام ١٠,٠٠٠ قبل الميلاد، فهنا تشير الدلائل إلى أنّ الإنسان قد أحسّ بانفصاله الفعلي عن عالم الحيوان، وأخذ بإدراك إمكانيات بيئته الطبيعية فكيّف نفسه تجاهها وقام بتنظيم جهوده من أجل استغلالها وتوجيهها لمصلحته. وقد اصطلح على تسمية جملة التغيّرات التي حدثت خلال هذه الفترة الممتدة عبر تسعين ألف سنة بالثقافة الباليوليتية، أي ثقافة العصر الحجري القديم.[١]

على سبيل المثال، نجد أنّ الأستاذ طه باقر يعتبر أنّ الإنسان قضى القسم الأعظم من حياته في أطوار التوحّش والهمجية في ما يسمّى «عصور ما قبل التاريخ» (التي استغرقت أكثر من ٩٩٪ من حياة الإنسان، وتقدّر بنحو مليوني عام[٢])، وهذا يُعدُّ تحديداً زمنياً خاصاً بدارس الانثربولوجيا. في حين لو أننا استندنا إلى تسجيلات التاريخ الذي لم يسجّل سوى التصرفات الجماعية أو الفردية التي حصلت ضمن

= - («قصة الخلق»، بقلم د. مصطفي محمود، مقال نشر في مجلة «صباح الخير» بتاريخ ١٤/ ٠٩/ ٢٠١٠).

وقبل أيام عثر العلماء على عظم فكّ يعود عمره إلى ما قبل نصف مليون عام في كهفٍ بصربيا. وذكر موقع «لايف ساينس» العلمي الأميركي أنّ الباحثين من جامعة وينيبيغ الكندية عثروا على عظم فكّ قالوا إنه قد يعود للإنسان المنتصب (هومو إريكتوس)، وعمره يزيد على ٣٩٧ ألف عام، وربما يزيد على ٥٢٥ ألف عام. ويعتبر الأحفور الذي عثر عليه في منطقة أوروبا هو الأقدم الذي يشبه البشر، وقد يغيّر الاعتقاد بأنّ إنسان النياندرتال كان أقرب المخلوقات المنقرضة إلى البشر، وأنه نشأ في أوروبا في ذلك الوقت. - (جريدة عكاظ، ٧ فبراير ٢٠١٣).

(١) فراس السواح: لغز عشتار - الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة، دار علاء الدين.

(٢) طه باقر: ملحمة كلكامش، دار الحرية، بغداد.

نطاق الجماعة، فإنّ عصر ما قبل الحضارة الأولى أو الكتابة الأولى يسمّى «عصر النيولين»، وهو - حسب بعض الدراسات - يمتد لأكثر من ثلاثة ملايين سنة وينتهي حوالي سنة ١٠,٠٠٠ قبل الميلاد[١]. وقد سجّل الدارسون أنّ الثورة المدنية وظهور المدن الأولى قد تمّ في سومر بوادي الرافدين ومنها انتقلت جنوباً نحو مصر وشرقاً نحو الهند[٢]. وهذه المتابعة أو العلم بما حدث بدءاً من هذه النقطة التاريخية يكون لدينا زمنٌ مهول مفقود لم يُتابع ولم يتمّ الوصول إليه، كمعرفة ماذا حدث من أفعال إنسانية سواء كانت مهنية أو فكرية.

وعلى مدى آلاف المليارات من الأيام كان الإنسان يفيق يومياً ليصنع حدثاً ما[٣]؛ فأيّ مقدرة يمكن لها أن تحصي تلك الأحداث أو أن تقف على الثورات التي

---

(١) نزار يوسف.

(٢) فراس السواح: المصدر السابق.

(٣) وما تمّ تحديد تاريخه وأحداثة الهامة جاء وفق الجدول الزمني التالي:

- من سنة ٤٠٠,٠٠٠ حتى سنة ٣٦,٠٠٠: الإنسان في آسيا وأفريقيا يصنع الأدوات ويستخدم النار ويقوم بالصيد وجمع الثمار والحبوب والجوز، ويمارس دفن موتاه.
- من ١٢٠,٠٠٠ حتى سنة ٧٥,٠٠٠: الإنسان يطوّر مهارات الصيد ويعتني بكبار السنّ.
- ٦٠,٠٠٠: الإنسان يستخدم الزهور في دفن موتاه.
- من ٤٠,٠٠٠ حتى ٢٠,٠٠٠: الإنسان يتحكم بالنار ويطوّر الأدوات ويقوم بصيد الحيوانات والأسماك ويجمع العسل والثمار.
- ٣٥٠٠٠: رسومات الكهف في فرنسا وإسبانيا.
- ١٢,٠٠٠: استئناس وتربية الماعز في الشرق الأدنى (العصر الميزوليثي الحجري أوالوسيط).
- ٧٥٠٠: تربية الأغنام في اليونان (العصر الحجري الحديث).
- ٧٠٠٠: زراعة القمح والشعير وظهور الجدران في المستعمرات السكنية (الشرق الأدنى).
- ٦٥٠٠: السومريون يطورون تصنيع العجلات.
- ٦٠٠٠: تطور صناعة الفخار والخبز وحفظ الفواكه والخضروات بالتجفيف (في سومر).
- ٥٥٠٠: صهر النحاس (فارس).
- ٥٠٠٠: حفر قنوات للري والصرف في الشرق الأدنى.
- ٤٠٠٠: تربية الخيول بعد استئناسها (أوروبا) وصناعة النبيذ.
- ٣٥٠٠: صناعة البرونز والسومريون يطورون العربات ذات العجلات والسفن التي تدفعها المجاديف. =

شكّلت النواة الأولى لفكر الإنسان؟

وإذا كانت أبعد نقطة وصل الإنسان في تقديرها لخلق الأرض بـ ٤,٥ مليار سنة (وفق المعطيات العلمية) وكانت أبعد نقطة لما دونه التاريخ هي مليونين أو ثلاثة ملايين سنة، فأين ذهبت آلاف الملايين من السنوات؟

ومن غير المنطقي أن تكون الأرض مخلوقة وليس عليها خلق، فأيّ خلقٍ كان عليها؟

هذا ما يدخلنا إلى فجوة معرفية لا يُستهان بها تبدأ بسؤال: من سكن الأرض أولاً قبل نزول آدم إليها؟ فإن قيل الجنّ هم من سكن الأرض أولاً تكون الحوارية التي جرت بين الله عزّ وجلّ وملائكته عند خلق آدم[1] نافية لوجود الجن، إذ أنّ الحوار أورد مفردة (خليفة) والخليفة حين يأتي يكون من جنس المخلّف، فهل وجد إنسان على الأرض بتركيبته العضوية من غير ميزة العقل التي خُلق عليها آدم حتى إذا شاء الله عزّ وجلّ أن يخلق العقل خلق آدم وزوّده بهذا التميّز الفذّ وأنزله خليفةً على الأرض؟

وإذ تؤكد بداية الأصول الأولى المكوّنة للحضارات والتجمّعات البدائية (على الأقل التي وصلتنا) أنّ البدايات الخلاقة كانت متلازمة مع بداية ظهور الإنسان العاقل، إذ قبل ظهوره لم يكن للإنسان البدائي القديم أيّ أثر يدلّ على تحضّره أو تمدّنه أو اختلافه عن غيره من الحيوانات، بل كان - إلى حدٍّ بعيد - يشبه القردة في تصرّفاته وأعماله؛ فهو لم يكن منتصب القامة بل كان يمشي على أطرافه الأربع، ولم يكن - فضلاً عن ذلك - يستخدم يديه في المشي ولا في الأكل، وخلال ملايين السنين مرّ هذا الإنسان بعمليات تطور أثّرت فيه من الناحية الجسدية والعقلية وأدّت به - في نهاية المطاف - إلى الوصول إلى مرتبة الإنسان العاقل المميّز والمستقلّ عن القردة. والمراحل التي مرّ فيها الإنسان القديم أثّرت في تكوينه

= - ٣٠٠٠: السومريون يطورون الكتابة المسمارية.

(نزار يوسف: **الحكمة بين الإله والسلطان**)

(١) ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ - (البقرة: ٣٠).

الجسدي والعقلي، وقد كان أهمها تحرّر اليدين من المشي واستخدام الأرجل لهذه الغاية، أي بداية الانتصاب ثم استخدام اليدين في الاستعمال... وقد أعطت الدراسات الأنترُوبولوجية تسميات عديدة للإنسان القديم عبّرت عن مراحل تطوره السابقة الذكر، كالأوسترالوبيسيكوس أو الإنسان الجنوبي، ثم الإنسان الحاذق، ثم الإنسان المنتصب القامة، ثم الإنسان العاقل، ويأتي بعد الإنسان الحالي أو الإنسان الشديد الحكمة[١]. وعند هذا المفصل يمكن الحديث عن نظرية داروين (النشوء والارتقاء) التي أثارت صخباً وجدلاً لمّا ينتهِ بعد، إذ يمكن تحميل صحة نظريته وتطبيقاته على ما سبق وجود الإنسان العاقل؟

إنّ جلّ الكائنات الثديية وغير الثديية تشترك في تشكّلٍ عضويٍّ متشابه يتحوّر ويتشكّل وفق البيئة المتواجد فيها ذلك الكائن، هذا إذا أردنا التماشي مع كلّ جهد علمي مضنٍ اصطدم بما ينقضه على أرض الواقع، فأيّ عملٍ جادّ ثمّة صواب يسكن جزءاً من أجزائه، ونظرية النشوء والارتقاء يمكن السير معها في أجزاء إلاّ أنّ نتيجتها النهائية (البقاء للأقوى) لا يمكن لها أن تصمد أمام كائنات عبرت ملايين السنوات وهي لا تحمل صفة القوة مقارنةً بما يجاورها من كائنات أخرى.

إذ بالامكان القول: إنّ كلّ ضعيفٍ قويٌّ في موقعه ووظيفته. وقد تكون وظيفته قائمة على الإبقاء على الأقوى فيغدو هو قوياً بدوره هذا.

كما أنّ هناك فوارق مهولة بين من يبدأ من اللاشيء، وليس مزوّداً بخارطة تقود خطواته ولا يعرف إلى أين تحمله مغامرته القائمة على فرضية يقبلها العقل المغامر ويسعى حثيثاً لإثباتها بكلّ ما يجده في طريقه كداعم لفكرته، وبين من يرتهن إلى يقينٍ مسلَّم به تلقّاه كإيمانٍ لا يقبل الجدل أو الشكّ.

والطريقان المتبعان لكلّ حالة من الحالتين السابقتين تفضي إلى قلق الأول ودِعة الثاني واستكانته.

ولأنّ الإنسان ذو النزعة البحثية قد وُجد منذ الزمن السحيق فقد كان محراثه البحثي استخدام الخيال. ففي ظلّ افتقاره لوسائل العلم الحديث للبرهنة على ما يؤمن به استخدم مخيلته في بناء نظرته إلى الوجود وإلى ما خلف ذلك الوجود...

(١) نزار يوسف: المصدر السابق.

هذا ما جعل الأسطورة علمَ الإنسان الأول، إذ بواسطتها يقيم الوشائج بين مفردات الكون ويسعى لبناء حضارته.

وقد أثبت الواقع أنّ كلّ منجزات العلم لم تكن قبل وجودها سوى خيالٍ يحوم في مخيّلة الإنسان، وقد أسرّ به للدنيا عبر أسطورة أو حكاية. ولا توجد حكاية عبثية؛ فكلّ حكاية حملت روح شيءٍ ما وظلّت أمينة عليه حتى ظهر إلى الوجود كمنجز بشري. وما منجزات العلم إلا حكايات نثرها سارد، وظلت تطفو على السطح حتى التقفها عالم وصاغ منها منجزاً علمياً عظيماً. ولازالت الحكاية تبحر في الكون بواسطة مخيّلةٍ إنسانية تخترق - دائماً - تخوم المستحيل ولاتقف عند حدّ.

٤

«الإنسان كائنٌ متدين» - بهذه الجملة أراد فراس السواح أن يحاكي جملة أرسطو القائلة: «الإنسان كائنٌ ناطق»

واستشعار الإنسان منذ البداية بتميزه عن بقية المخلوقات جعله أكثر دأباً لتأكيد هذا التميّز بالبحث عن الواجد لوجوده، ولم يكن هذا البحث مقتصراً على الفرد بل إنّ الجماعات كانت معنيّة هي أيضاً بهذا البحث عن الخالق، وهذا من أهم الظواهر المميزة للجماعات البشرية منذ بداية تكونها، بل لعلها أهم ظاهرة ميّزت تلك الجماعات الأولى بعد صناعة الأدوات. فبعد ظهور الأدوات الحجرية ترك لنا الإنسان الأول، إلى جانب أدواته، شواهد وسطه الفكري التي تشير إلى بوادر دينية لا لبس فيها وتبيّن ظهور الدين إلى جانب التكنولوجيا كمؤشرين أساسيين على ابتداء الحضارة الإنسانية ومازالت إلى يوم الناس هذا. وكل نواتج الحضارة الإنسانية ليست سوى استمرار لهاتين الخصيصتين الرئيسيتين للإنسان(١).

ومن تثقف على الكتب السماوية سيجد استقراراً نفسياً لا يأخذه إلى منطقة التأزّم والقلق الوجودي اللذين عاشتهما البشرية الأولى في تصوّر الخلق أو السؤال عن الإله وكيف جاء وكيف تناسلت البشرية.

ومع تلاحق الأزمنة وترسيخ جملة أفكار عن نشوء أساطير الآلهة في أركان

---

(١) فراس السواح: دين الإنسان - بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني، دار علاء الدين.

المعمورة يعتري المرء (المنتمي إلى أيّ ديانة سماوية) ارتباكٌ حول كيفية انحراف البشرية في تصور الخلق والإله، إذ كانت متواصلة مع ظهور أول إنسان على وجه الأرض (آدم)، ممّا يحمل الدارسون على البحث عن هذا الانحراف البدئي، وخاصةً إذا آمنّا أنّ الرسل والأنبياء لم ينقطع تتابعهم عبر الأزمنة بدءاً من آدم عليه السلام.

فهل كانت الهجرة وتكوّن الجماعات وابتعادهم عن الآباء والأجداد مصدراً لذلك الانحراف أو تكوّن تلك التصورات لبداية الخلق أم أنّ خطأً ثقافياً قد حدث في تبنّي الحكايات التي تداولتها البشرية كنوعٍ من الإنتاج الأدبي وحولتها إلى تصورات للخلق الأول بعيداً عن حقيقة اليقين الدِيني لما توارثه الإنسان في تواتر لا ينقطع؟

وثمة ملاحظة تكاد تكون جوهرية في تشابه الأساطير في البناء الحكائي مع استعارة الحدث (الحبكة القصصية) لكلّ أسطورة من مصدر ديني سماوي، ومن ثم تشكيلها وفق ثقافة البيئة التي تنتج تلك الأسطورة.

ثمة إجابات حول هذا التشابهة ذهب إليها بعض الدارسين تتمثّل - أولاً- في أنّ الجنس البشري كله نشأ، أول ما نشأ، في مكانٍ واحد ثم تفرّق وارتحلت معه معتقداته وأساطيره. ويذهب آخرون إلى أنّ حياة الناس لم تظهر في مكانٍ واحد بل في أمكنة متفرقة، ولكن قامت بين مختلف هذه الأوطان علاقات ثقافية هاجرت بواسطتها الأساطير وسواها من عناصر التراث القديم من أمة إلى أمة. وثمّة رأيٌ ثالث يقول إنّ سبب التشابه هو تشابه ظروف تطور التاريخ الإنساني عامةً وانتقاله من حالات قامت في موطن إلى حالات أخرى حكمت هذا الموطن نفسه.[1]

يقول ستروس في الإناسة البنيانية: «معلومٌ أنّ الأساطير تتحول، وأنّ هذه التحولات التي تحصل بين رواية للأسطورة الواحدة وأخرى، أو من أسطورة الى أسطورة أخرى، أو من مجتمع إلى آخر، بالنسبة إلى الأساطير نفسها أو بالنسبة إلى أساطير مختلفة، تؤثّر على هيكلية الأسطورة حيناً أو على «كودها» حيناً آخر أو على المرسال المقصود منها حيناً ثالثاً. لكنّ هذه التأثيرات لا تحول دون بقاء الأسطورة أسطورة، فهي تراعي بذلك ما يمكن تسميته مبدأ الاحتفاظ بالمادة الأسطورية، وهو

(١) سليمان مظهر: أساطير من الشرق، ص١٥.

مبدأ يعمل على أن يكون من الممكن دائماً أن تنشأ عن كل أسطورة أسطورة أخرى بحثاً عن الأسطورة الخالدة.»[١] إذ أنّ كلّ أسطورة معنيّة بالبحث عن الخلود.

وتكاد تكون جميع الأساطير مشتقّة من الكتب المنزلة، وإن تكن الحقائق الأصلية قد بُدِّلت أو أُخفيت معالمها؛ فليس ديوكاليون إلا اسماً آخر من أسماء نوح، كما أنّ هرقل هو نفسه شمشون وآريون هو يونان.[٢]

وقد ضجّت الذاكرة البشرية بأساطير فرعونية وآشورية وبابلية وسومرية ويونانية وهندية وصينية، وجميعها تداخلت في تكوين المحصّلة الثقافية عن بداية تشكّل الفكر الإنساني، وخاصةً في جانبه الديني. وقد كان السؤال الأساس الذي واجهه الإنسان القديم في ما بين النهرين (وكذلك في بقية المواقع): كيف تمّت ولادة الآلهة؟

وقد تعددت الأجوبة أو محاولات الأجوبة عن هذا السؤال، فقد تمّ تصور إلهة (أم) ولدت جميع الآلهة: آلهة السماء وآلهة العالم السفلي.

إنها الإلهة - الأم مامي (الإلهة - الأم البدائية) التي جاءت سيرة ولادتها جميع الآلهة في قصيدة الصراع بين نينورتا (ابن إنليل إله الحرب) والطائر أنزو (الطائر الأسطوري الذي انتصر عليه نينورتا) وقد لقّبت بسيدة جميع الآلهة، وهي التي أعلنت دورها في تلك القصيدة حين قالت:

أنا هي ولدت جميع الإيجيجي (مجموع ألهة السماء)
أنا التي خلقتهم بكاملهم
هم ومجموعة الأنوناكي (مجموعة آلهة العالم السفلي)، الآلهة العظام
وأنا التي منحت السيادة لإنليل أخي (سيد مجمع الآلهة في سومر)
وعينت لآن (إله السماء) سلطته العليا في السماء.[٣]

---

(١) تركي الربيعي: طه باقر والريادة في عالم مجهول، مجلة نزوى، العدد التاسع والثلاثون.
(٢) دريني خشبة: أساطير الحب والجمال عند اليونان، المجلد الأول، دار التنوير.
(٣) ديوان الأساطير سومر وأكّاد وآشور - الآلهة والبشر: نقله إلى العربية قاسم الشواف، دار الساقي.

إلاّ أنّ الغريب في هذا السياق أنّ الأسطورة لم تذكر كيف وجدت الأم مامي (الإلهة-الأم البدائية) إذ تغفل الأسطورة عن هذا الوجود وتستمر في إيجاد بقية الآلهة من غير ذكر، أو الإشارة إلى، وجود إلهٍ ذكر، وفق بناء بقية الأساطير المعتمدة على التكاثر الجنسي بين الآلهة.

ولو أردنا تتبّع البدايات الأولى لأساطير أخرى سنجد أنها تتكاثر من خلال فكرة التزاوج ثم تسند الأدوار، فيما بعد، إلى نتائج الصراع والحاجة التي توجدها بنية الأسطورة[1] كحدث حكائي. فسفر التكوين البابلي الذي يحكي قصة الخليقة في ملحمة (حينما في الأعالي) تبدأ الملحمة بإشارة وجيزة إلى الزمن الذي لم يكن يوجد فيه شيء سوى الأبوين الإلهيين ابسو وتئامت وابنهما ممو، وكان أبسو بحر المياه الحلوة الأول وتئامت بحر المياه المالحة، بينما يُحتمل أنّ ممو كان يمثّل السديم المرتفع من التقاء قناتي المياه والمحوّم فوقهما، لاسيّما وهو يدخل - في اللوح السابع - في علاقة مباشرة بالغيوم. وقد اختلطت هذه الأنماط الثلاثة من المياه ببعضها مكونةً كتلة واحدة هائلة وغير محددة تنطوي على جميع العناصر التي سيتكون منها العالم فيما بعد.

وفي ذلك الوقت لم تكن هناك سماء ولا أرض، وفي وقتٍ لاحق أنجب ابسو وتئامت زوجاً من أخٍ وأخت هما لخمو ولخامو، وبدأ التناسل فظهر الإله انكي إلهاً ذا حكمة استثنائية وقوة شاملة، ولذلك صار إله المياه الحلوة تحت الأرض وإله السحر والعقل المدبّر للآلهة العراقية القديمة. وقد لجأ إليه الآلهة الصغار جزعاً من ابسو الذي انزعج من صخبهم وقرر قتلهم ليستمتع بالهدوء، فلجأت صغار الآلهة

(١) يتساءل ستروس، في مستهل تحليله «بنية الأساطير» بما فيها أسطورة أوديب ومجموع أساطيرأمريكا الشمالية الهندية، عن السرّ الذي يجعلنا نتأرجح بين السطحية والسفسطائية كلما حاولنا أن نفهم ما هي الأسطورة. لكنه، بعد عقد ونيف من الزمان وأكثر قليلاً، راح يعزو هذا التأرجح إلى الثقافة، وبصورة أدقّ إلى العاهة الملازمة أصلاً لمعرفتنا، والتي تحول بيننا وبين معرفة الأسطورة وتفرض علينا حالة التأرجح بين السطحية والسفسطائية. وحالة التأرجح هذه تطال مسيرة الثقافة الأوروبية/ الغربية في موقفها من الأسطورة. (تركي علي الربيعو: مضمون الأسطورة في خطابنا المعاصر (الأسطورة والأيديولوجيا: فراس السواح نموذجاً)، مجلة نزوى، العدد الثامن).

إلى انكي (أو: ايا) الذي عمل دائرة سحرية ثم ألفّ رقية قدسية لا عاصم منها فأنشدها وجعلها تنحدر على ابسو بوصفها قوة مخدّرة له، وحين أنشد ايا رقيته خضع أبسو لقوة التميمة وغطّ في نوم عميق، فهرع إيا إلى إزالة التاج الملكي وانتزع بهاءه العلوي وتحلّى بهما فاكتسب قدرة ابسو فسارع إلى ذبح جميع الآلهة محققاً نصراً ساحقاً من خلال استخدام سلطة الكلمة المنطوقة أو قوتها المتمثلة في قوة التميمة.[1]

ويلد له مردوك أحكم الآلهة (الذي رضع من صدور الإلاهات) وهكذا صار

(١) قوة التيمة القولية نجدها في الأسطورة الفرعونية. فقد كان رع يخرج كلّ صباح في موكبه الخالد من الأفق الشرقي عابراً السماء، وفي كلّ مساء كان موكبه يختفي في طيات الأفق الغربي حيث ينير ظلمات العالم السفلي، عالم الأدوات. وقد ظل رع يقوم بهذه الرحلة ملايين السينين حتى دبّت فيه الشيخوخة وتقدّمت به السنّ فكان لا يستطيع أن يضم فكيه أو يقفل فمه فكان لعابه يسيل على الأرض.
وتناولت إيزيس حفنة من التراب ومزجتها بلعاب رع وصنعت من ذلك قطعة من الطين جعلتها على صورة ثعبان مجنّح، من تلك الثعابين المقدسة التي تتوّج رؤوس الآلهة وتزيّن تيجان ملوك مصر، ولم تقرأ على ذلك الثعبان تعاويذها ورقاها، لأنّ الثعبان كان الحياة وكان يجري فيه من لعاب رع نفسه، ثم أخذت الثعبان وأخفته عن طريق مرور الإله رع. لكن يحدث وأن يمرّ به الإله رع فينشب الثعبان نابه فيه فيصرخ صرخةً عظيمة يسمعها كلّ الخلق، ثم يناديهم ويقول لهم: لقد أوذيت أذىً بالغاً أحسّه ولكني لا أعلم ما أتاه ولم تخلقه يداي هاتان، ولا أعلم من أوجده. أبداً لم أحسّ بمثل هذا الالم من قبل... من الذي يستطيع إيذائي؟ إن أحداً لا يعرف سر اسمي، ذلك الاسم الذي منحنيه أبي وأمي وأودعاني إياه بحيث لا يؤثّر فيه سحر ولا يعرفه مخلوق...
وتمضي الحكاية إلى أن تأتي إيزيس وتطلب من رع أن يخبرها باسمه الأعظم لكي تستخدمه كترياق لعلاجه، ولم يبح به إلا بعد أن أوشك على الهلاك. وحين يبوح به ينتقل اسمه الأعظم من قلبه إلى قلب إيزيس وأصبح ملكاً لها، فصاحت به فأطاع السمّ وشفي رع بقوة اسمه، وقبلها قالت إيزيس لرع: عاهدني أن تعطي عينيك لحورس. وما عينا رع إلا الشمس والقمر. (كمال الحناوي: أساطير فرعونية).
ونلحظ أنّ التميمة تأتي من قوة الكلمة إذ أنّ السحر في كلّ الأساطير قائم على نفاذ الكلمة وتأثيرها في الكون.
وهذا الجزء من الأسطورة به خلل في البناء الحكائي إذ أنّ رع منذ البدء تذهب أسطورته إلى أنه خالق نفسه، بينما هنا عندما يتحدث عن اسمه يقول إنّ أبويه منحاه الاسم، وهذا ينسف بناء الأسطورة من جذرها الأساس.

يتشرّب بقوى وخواص إلهية إضافية. ويقال إنّ مردوك هو مار-أوتو (ماروت الذي هو أحد الملكين اللذين نزلا إلى الأرض). وتواصلت المؤامرات والقتل، وهي الخطة التي بدأت بها تئامت انتقاماً لزوجها.[١]

إنّ تأثير ملحمة (حينما في الأعالي) كان حاضراً في سفر التكوين في التوراة، وقد سبق وأن اكتسحت الثقافة البابلية العالم القديم منذ الألف الثالث قبل الميلاد، فقد أثرت في الطوفان وأسطورة مولد سرجون الأكّدي (٢٣٧٠-٢٣١٦ قبل الميلاد)، ويمكن مقارنتها بقصة مولد النبي موسى أو بحكايات الرجل الصالح في سفر أيوب.[٢]

وللفرس قصة تروي أصل الإنسان وهي أن هرمزد خلق شيئين هما أصل الإنسان والحيوان والنبات، وهما كيومرث والثور الأول، عاشا سعيدين في ملك هرمزد ثلاثة آلاف سنة، ثم ظهر أهرمن (الشيطان) فقتلهما، بدأ بالثور وبعد ثلاثين سنة قتل كيومرث، فنتج من الثور حين موته الزوجان الأولان مشيا ومشيانه (أدم وحواء) فنسلا.

وللهنود قصة أخرى هي أنهم يتصورون السماء ذكراً والأرض أنثى، وأمطرت السماء فقبلت الأرض ماءها، بمنزلة قبول المرأة ماء الرجل في رحمها، وعاجلها الفلك بسرعة جريه ودورانه فبدأ أول ما بدأ نبات شبيه بالإنسان، ثم ألحّ عليه الفلك بدورانه حتى أقلعه من منبته فسار إنساناً يسعى.[٣]

وتذكر جداول الملوك السومرية أنّ الملوكية نزلت من السماء في مدينة أريدو بالقرب من أور في جنوب العراق، ثم جاء الطوفان العظيم الذي اكتسح الأرض ومن عليها باستثناء رجل الطوفان العظيم زيوسدرا في النص السومري، أو أتونابشتم في النص البابلي.[٤]

---

(١) ألكسندر هايدل: سفر التكوين البابلي - قصة الخليقة ملحمة حينما في الأعالي، ترجمة سعيد الغانمي، منشورات الجمل.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) الدكتور محمد كريم الكواز: الحفر في الذات - مقاطع من أسطورة آدم.
(٤) الدكتور محمد كريم الكواز: المصدر نفسه.

وإنّ بابل التي تلت مصر في سلّم الحضارة قد أثّرت في جاراتها أضعاف ما أثّرت مصر، والموازنة السريعة بين شجرة أنساب الآلهة البابلية ثم أشجار الآلهة السومرية والحثية والآشورية واليونانية تثبت هذا التأثير بصورة واضحة لا تقبل الجدل.[١]

لقد كان العالم قبل أن يأخذ شكله الحالي (هيولي) أو - كما كان اليونانيون يقولون - خيوس، أي شيئاً كبيراً مضطرباً لا يستطيع أحد أن يتبينه لأنه لم يكن يوجد أحد في ذلك العهد السحيق الذي يسبق الأزل، ولأنّ الكون كله كان يخبط في ظلام قاتم دامس... واعتبر اليونانيون هذا الخيوس أو تلك المادة ربهم الأول، وكانت منهم طائفة تعتقد أن هذه الهيولي شيء والإله المسيطر عليها شيء آخر وإن يكن اسمه هو الآخر خيوس.

وكان خيوس يجلس على عرش الهيولي وإلى جانبه زوجته نيكس، ربّة الليل الزنجية التي لم يكن محيّاها الأسود وثيابها الدجوجية يستطيعان أن ينشرا حولها إلاّ الظلمة التي تضرب في الظلمة والسواد الذي يضاعف السواد.[٢]

مضت قرون وتتابعت الأحقاب وأحسّ الزوجان بمللٍ شديد ينتابهما، فحياتهما الرتيبة لا تتغير وأصبحت شيئاً بغيضاً لا طعم له، ورأى خيوس أن يستعين بولده إريوس (الظلام)[٣] لتبديل هذه الحال، فاستدعاه وشاوره في الأمر، فقهقه إريوس وصارح أباه بأنه لم يعد يصلح لحكم هذا العالم لأنه شاخ وتقدمت به السنّ، ومن الخير له ولذلك الكون أن يترك مقاليد الحكم لولده الذي يعيش عيشة فارغة لأنه بلا عمل... فإذا رضي هذا الرأي وجب أن ينزل لولده عن زوجته نيكس، أي أم إريوس، كي تكون لابنها زوجة!

---

(١) أساطير الحب والجمال عند اليونان، دريني خشبة، المجلد الأول، دار التنوير.

(٢) قد تكون هذه أول إشارة إلى نبذ اللون الأسود كونه ممثلاً للظلمة التي تعني الشر. وهي أسطورة سابقة لذمّ السواد وسابقة لأسطورة حام بن نوح الذي لعنه أبوه ودعا عليه أن يكون خادماً لأخويه. وتذهب أسطورة حام إلى أنه كان أسود البشرة، وإليه ينتسب العرق الزنجي.

(٣) وأريوس أيضاً يؤكد لعنة الظلام (السواد)، وتقيمه الأسطورة ممثلاً للشر بما فعله بأبيه وأمه. وهذا ما يفسر لنا حكاية الدماء الزرقاء عند الأوربيين، ويفسر المناداة بنقاء ذلك العرق الأزرق.

ثار خيوس لهذه القحة، لكنّ ابنه عبث وخلعه عن الحكم واغتصب أمه، ومن ثمّ أصبحت له زوجة.

هذه تيمة وتركيبة تصوّر بداية تناسل الآلهة، إذ يكون الملل والضيق من البقاء الطويل محرّضاً على إحداث أفعال لمواصلة تلك الحياة.

وإريوس وزوجته أيضاً يصابان بالملل من المكوث في الظلام الدامس، وعندما كبر ابنيهما أثير (الضوء) وهيميرا (النهار) تآمرا على خلع أبويهما عن الحكم والسيطرة على العالم، ومع انتصارهما يشعّ النور فيريان فوضى العالم التي كانت مستترة في الظلمة الدامسة، فيشعران بالأسف ويستدعيان ابنهما إيروس (إله الحب)، واجتمع ثلاثتهم لبحث المشكلة، فخلقوا بونتس (البحر) ثم جايا أو جي (الأرض). ولبؤس الأرض يتحرك إيروس ويصوب سهامه إلى الأرض فتنبثق العيون والأشجار والأزهار وتخرج الحيوانات وتغوص الأسماك في البحار وأصبح كل شيء جميلاً، واستيقضت الأرض (جي) فأعجبت بكلّ هذه الآيات التي صنعتها سهام إيروس لتجعلها أجمل شيء في هذا الوجود، فضحكت وعرفت أنها ربة، ثم أدركت أنّ شيئاً ينقصها، إله ذكر كما للإلاهات الأخريات آلهة ذكور، فخلقت أورانوس (السماء).

وثمّة سفر آخر يزعم أنّ إريوس وفيكس خلقا بيضةً ضخمة خرج منها إيروس (إله الحب) ليتولى بنفسه خلق الأرض[١]. ويقول السير والتر رالي في كتابه **تاريخ العالم** إنّ جوبال وثوبان وتوبال (قايين) إن هي إلا أسماء لمركيوري - أي هرمز اليوناني - وفلكان وأبوللو، أرباب المراعي والحدادة والموسيقى، وإنّ التنين الذي كان يسهر على حراسة التفاحات الذهبية هو الأفعى التي خدعت حواء، وإنّ حادثة صرح نمرود هي نفسها محاولة المردة الثورة على زيوس.

كما نلحظ استعارة طريقة التكاثر البشري للآلهة، إذ لم يكن العقل يتصوّر الوجود الإلهي خارج تجربته الشخصية، فنصوص ما بين النهرين قالت لنا إنّ السماء والأرض هما زوجان بدئيان، حيث تزينت الأرض واكتست أجمل حللها لتلقّي مني

(١) دريني خشبة: أساطير الحب والجمال عند اليونان.

السماء. . . إذ تتم ولادة الآلهة، في معظم الأحيان، بنتيجة اتصال جنسي. وبمجرد الاعتقاد بفكرة توالد الآلهة كتوالد البشر كان من الطبيعي محاولة سرد وتعداد الآلهة التي كانت فاعلة وكانت لها أدوارها الكونية والطبيعية والتنظيمية. وقد تمّ لذلك تأليف النصوص المختصة بتسلسل الآلهة، ومحاولة العودة بهذا التعداد إلى أقصى حدّ تصورته عقول مفكّري ما بين النهرين، أي إلى زمن البدء. وهذا ما تمّ فعلاً، بدءاً من نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، حين وضعت لائحة الآلهة التي عرفت بمطلعها (آن- آنوم) والتي أخذت شكلها النهائي في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد.[1]

ونجد أنّ كلّ جيل من أجيال الآلهة يقوم بصياغة وجود آلهه أخرى، وهناك نظريات لتوالد أو نشأة الأساطير بالكثرة الكاثرة التي تقيم كلّ نظرية لنفسها مقومات لتحقيق وجودها وصحتها. فالأستاذ توماس بلفنش أقام نظريته لهذه النشأة بأنّ جميع الأساطير مشتقة من الكتب المنزلة - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - ثم بسط الحديث عن تلك النشأة من خلال النظرية التاريخية بأنّ أبطال الأساطير وآلهتها ما هم في أصلهم إلا أبطال البشر والقبائل البدوية القديمة، حيث أخذ الرواة ينسجون حولهم الأقاصيص الضافية التي كلّما جاء جيل وذهب آخر أُضيفت إليها الزيادات والحواشي حتى ارتفع هؤلاء الأبطال في أذهان الناس إلى مصافّ الآلهة، فايولوس ربّ الرياح - مثلاً- ليس إلاّ ملكاً من ملوك الجزائر في البحر التيراني، وقد حكم قومه بالعدل. وهكذا بالنسبة إلى النظريتين المجازية والطبعية، إذ جميعها تذهب إلى أنّ الأساطير هي نتاج ثقافة متناسخة.[2]

وتقول الأسطورة المصرية إنّ الماء كان في البدء يغمر العالم كله، وكان هذا الغمر المائي الذي لا نهاية له ذا لونٍ داكن مظلم، وكان خالياً من أيّ حياة، ومن تلك الماء ظهر النظام والحياة وانبثق النور متّخذين عادةً هيئة مرتفعٍ أو تلّةٍ بدائية. إلا أنّ صورة الماء، بالإضافة إلى ما تمثله من هيولى وحال شواش مختلطة للكون،

---

(١) ديوان الأساطير سومر وأكاد وآشور - الآلهة والبشر، نقله إلى العربية قاسم الشواف، دار الساقي.

(٢) دريني خشبة: أساطير الحب والجمال عند اليونان.

تعبّر أيضاً عن وحدة واحدية حيث تتّحد كلّ الأضداد ولا تتّخذ أشكالاً خاصة مميزة لها. لذا يرى بعض العلماء أنّ ظهور الحياة من المياه الأولية يمثّل ظهور الوعي وانبثاقه من اللاوعي.[1] ونرى تشكل الآلهة الفرعونية من خلال الإله رع الذي تُطلق عليه عدة ألقاب لما له من ميزة الاندماج مع آلهة أخرى.

ويعتبر الإله رع خالقاً لذاته، وله القدرة على التجدّد وإعادة خلق نفسه (التي مُثلت بقدرته على التحول إلى أفعى وطرح جلده)، ومع هذا ظلّ مختلفاً عن الخلق، منفصلاً ومستقلاً عنه. وقد كان إلهاً خفيّاً لا يمكن إدراك كنهه، وذلك يعود إلى كماله المطلق، وهو يختلف عن بقية الآلهة الفرعونية. ولعلو قداسته فقد ظلّ منفصلاً عن الكون المخلوق، وكان مرتبطاً بالهواء، وله قوة خفية تمكّنه من الاختلاف عن بقية الآلهة، ويظهر موازياً له آمون، وباتحاد آمون مع رَع، الشمس، تجلّى آمون للخلق، ولهذا جمع (أمن‌رع) في نفسه النقيضين الإلهيين: فهو بصفته آمون كان خفياً وغامضاً ومنفصلاً عن العالم، وبصفته رع كان جلياً وظاهراً ومانحاً للحياة اليومية. بنفس المنطق كان ارتباطه بماعت، المفهوم المصري للعدل والتوازن في الكون.[2]

وهناك أيضاً الإله بتاح (إله منيف) إذ كان يعتقد أنّ بتاح هو الصانع الأعظم الذي خلق العالم، على أنّ المجهود الذي بذله لينال هذه المكانة قد ساعده مساعدة جدية على استيلائه على السلطة والسيادة الفريدة التي كان يتمتع بها الإله رع.

وبتاح هو قلب الآلهة ولسانها والتعبير عنها بصفتها الأصل والقوة المساعدة لكلٍّ من الأمر الإلهي والأمر الدنيوي. وبما أنّ القلب واللسان تغلّبا على كلّ عضو في الجسم، فبتاح كان في كلّ صدر على هيئة قلب وعلى هيئة لسان في كل فم عند جميع الآلهة وجميع الناس وجميع الأحياء، وكان بتاح يفكّر ويأمر بكلّ شيء يرغب فيه.

وبتاح خلق كلّ شيء وكلّ كلمة مقدسة، وتُعدُّ قوة بتاح أعظم من قوة كلّ

(١) سهيل بشروني ومرداد مسعودي: تراثنا الروحي من بدايات التاريخ إلى الأديان المعاصرة، دار الساقي.
(٢) ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

الآلهة، وهو الذي ذرأ الآلهة وأقام المدن وأسّس المقاطعات ووضع الآلهة في أماكنهم المقدّسة وثبت دخلهم المقدس.[١]

أما أسطورة أوزيريس فقد وفرت الأساس الأسطوري الذي أنشأ مدخلاً للصلة بالعصر الذهبي السابق له من خلال شخص فرعون. وآلام أوزيريس تبدأ حين تزوج أخته إيزيس، عندها تآمر أخوه ست (الذي يمثّل قوى التفكّك والفوضى) للإطاحة بملك أوزيريس والنظام الذي أنشأه. واستطاع ست بما حاكه من مؤامرات أن يقتل أوزيريس ويتخلص من جثته بإلقائها في نهر النيل. لكنّ إيزيس، بما أوتيت من قدرات وقوى سحرية، استطاعت استيراد جثة أوزيريس، إلاّ أنّ ست تحدّاها وقطّع جثة أوزيريس إرباً إرباً، وقد استطاعت أن تجمع هذه الجثة وترتّبها وتدفنها بالصورة اللائقة، وسخّرت قواها السحرية لكي تحمل بحورس من أوزيريس الميت.

وولدت إيزيس ابنها حورس وأخفته عن عمه ست. وعندما شبّ حورس رغب في الانتقام لأبيه، فقام بمنازلة عمه الشرير ست وانتصر عليه، فلقي الثناء والمديح من مجلس الكبار، ثم نصّب ملكاً على مصر.

وقد تميزت فترة حورس بعودة النظام ونهاية عهد ست الفوضوي، غير أنّ ست استطاع خلال المبارزة أن يقتلع إحدى عيني حورس[٢]. وكان أن حمل حورس عينه

---

(١) سليم حسن: الأدب المصري القديم، أخبار اليوم، كتاب اليوم.

(٢) كان ست ماكراً خبيثاً يتّسم بكل الصفات السيئة كونه يمثل الشر، وكانت لديه القدرة على التشكل في أي صورة يرغب، ولأنّ حورس يمثل الخير فلم تكن من صفاته الخديعة أو الغش، وقد امتاز بأنّ من ينظر إلى عينيه الزرقاوين الصافيتين يرى المستقبل منعكساً على حدقتيهما. . . وكان ست قد تمثل في هيئة خنزير أسود، وقد وصل إلى علم ست أنّ رع سوف يتشاور مع حورس، وأنّ هذه هي فرصته السانحة للقضاء على حورس. وكان رع يتحدث مع حفيده حورس قائلاً: دعني أنظر في عينيك الصافيتين لأرى ما سيجيء به المستقبل.
وبينما كان ينظر رع في عيني حورس مرّ الخنزير الأسود فقال رع: انظر إلى هذا الخنزير فأنا لم أرَ مثيلاً له في ضخامته ووحشيته. . . فنظر حورس صوب الخنزير، ولم يكن يعرف ست بهذه الصورة الغريبة، وظنّه خنزيراً برياً من الخنازير التي تسكن الغابات الشمالية، فلم يحتط لنفسه من عدوه، وعندئذٍ وجّه ست حزمة من النار إلى عين حورس فصاح متألماً: إنه ست وقد قذفني في عيني بالنيران. ولكن ست سرعان ما اختفى ولم يُرَ الخنزير الأسود مرةً أخرى. =

المقلوعة إلى أوزيريس الذي كان في حالة اللاوعي في العالم السفلي، حيث كان أوزيريس روحاً لا شكل لها، وحين أخذ عين حورس صحا، وباتت عين حورس السليمة مقترنة بإله الشمس رع، وهذا كان دليلاً على الرابطة الوثيقة التي نشأت بين أوزيريس وعقيدة رع الدينية في فترات لاحقة.

وأصبح أوزيريس ملك العالم السفلي، وامتلك كلّ القوى التي يتميز بها إله ختوني (تحت أرضي) ومنها الخصوبة والتجدّد والإنتاج.

وقد اقترن اسم فرعون (ملك مصر) بحورس واعتبر أنه هو.[١]

ويقول العالم جون ولسون إنه عندما ظنّ المصري القديم أنّ الملك فرعون كان حورس لم يقصد أنّ الملك كان يقوم بدور حورس وإنما عنى أنّ الملك كان بالفعل هو حورس، وأنّ الاله كان حاضراً في جسد الملك خلال فترة النشاط والفعل المعنية.

ويقترن فرعون بعد موته بأوزيريس في العالم السفلي.

وبذلك يكون حورس (الملك فرعون) قد رسّخ النظام الخُلقي والاجتماعي والديني وأيّده فوق وجه الأرض، بينما عمل أوزيريس (الفرعون الميت) على المحافظة على خصوبة تربة الأرض وإنتاجيتها.

وقد اقترن اسم أوزيريس، بعد نهوضه وبعثه من الموت وصعوده إلى السماء، برع، وعُرف بإله الشمس. وساد الاعتقاد على هذا الأساس بأنّ فرعون كان إلهاً متقمصاً في هيئة ملك على الأرض. فالملك لا يموت فعلياً أبداً، وإنّ ما يحدث له هو موت جسدي عضوي ينزل به إلى العالم السفلي، حيث يستيقظ ويقترن عندئذٍ برع، أو يعرف بأنه رع الإله الأسمى. ولهذا ظلّ تقليد التقمص والبعث مستمراً عند سلسلة الفراعنة المتوالية ونمطاً يتّبع النهج الأسطوري لنموذج أوزيريس[٢].

وثمة اختلاف في تجسيد الإله عند الزرداشتين إذ تقوم على ثنائية النور

= وحلّت لعنة رع بالخنزير بسبب ست فقال: «ليكن الخنزير قرباناً لحورس» - (كمال الحناوي: أساطير فرعونية، منشورات المكتبة العصرية).

(١) سهيل بشروئي ومرداد مسعودي: تراثنا الروحي من بدايات التاريخ إلى الأديان المعاصرة، دار الساقي.

(٢) المرجع السابق نفسه.

والظلمة، فالنور يمثل الخير (وهو الإله أهورامزدا) والظلمة تمثل الشر (وهو الشيطان أهريمن). والإله أهورامزدا يعلم بعلمه المطلق وجود الظلام، بينما أهريمن لا يعلم بوجود الإله ولم يكن يمتلك مقدرة اختراق النور. ولم تحمل الأسطورة تفسيراً لهذا الوجود أو كيف ظهرت هذه الثنائية، إذ هناك فصل تام منذ البدء. والأسطورة الزرادشتية[1] تحكي لنا أنّ أهريمن قد سُمح له فجأةً بعبور عالم الظلمة دون سببٍ واضح، وحينما صدمه هول ما رآه في عالم النور، فلم يكن على علمٍ بوجوده، قرّر أن يُدنّس عالم النور ويُميت الخلود. وكان مزدا يعلم بتجول أهريمن في عالمه النوراني المطلق، ورغم قدرته على إفنائه لم يقم بذلك بل أنه اتفق معه على موعد لبداية المعركة بين العالمين: الخير والشر، الحياة والموت، وحدّدها أنها ستكون بعد ثلاثة آلاف عام. وفي تلك الأثناء خلق مزدا كلّ خلقه، بدايةً بالسماء والأرض، وصولاً إلى العشب والنار، ونهايةً بآخر مخلوقاته وهم البشر. وظلّ الجميع في حالة سكون إلى أن انقضت المهلة وأعلنت الحرب ضد أهريمن وأعوانه، فتحركت المخلوقات.

أي أنّ فلسفة خلق العالم في الزرادشتية هي استعداد للصراع بين الخير والشر، حتى أنّ المخلوقات قد ظلّت ساكنة حتى اللحظة الموعودة، فالحرب مع الظلمة والشر هي هدف الحياة والوجود. ومن المهم الإشارة إلى أنّ كافة المخلوقات كانت تتمتع بصفة الخلود الإلهي التي منحتها إياها مزدا، ولكنّ هذه المنحة لم تدم طويلاً في مرحلة الصراع، فقد تمكن أهريمن من خلق الموت والفناء، فقام بتدنيس مخلوقات أهورامزدا المقدّسة الخالدة كخلوده بسِمة الموت والعدم.

لكنّ هذا لا يعني أنّ أهريمن يملك حق الموت في مقابل حق الحياة لدى مزدا، ففي نهاية الأسطورة، أي في نهاية العالم والمعركة، سيُفني أهورامزدا عالم الظلمة وأهريمن ليعود الوجود إلى طبيعته النورانية الأولى، أي الوعد الإلهي بالنور المنتظر. فحق الحياة والفناء بيد أهورامزدا فقط. فأهريمن يمثل زوال الحياة، أي نفي صفة الخلود عن الحياة، لتبقى من حق الإله الأكبر وحده، وكأنه يعمل لصالح

(١) في هذه الجزئية اعتمدت اعتماداً كلياً على بحث بعنوان الوحدانية في الديانة الزرادشتية (صراع المقدس والمدنس) للأستاذ أحمد لاشين، نشر في السنديوم ١٩ - ١٠ - ٢٠٠٩.

من يحاربه، ويُقر بألوهيته عليه، فدوره لا يتعدى أن يكون رمزاً للموت والمسؤول عنه، «فجدلية النور والظلمة هي امتداد طبيعي لجدلية الوجود والعدم، بما يتّسق والتصورات الطبيعية في تلك الفكرة، . . . فللطبيعة وجود حاضر مفيد. . . وزوالها هي العدم أو الظلمة أو الموت».

لكنّ الوجود في حدّ ذاته لا يمثّل الإله الأكبر، فهناك علاقة نسبية بين الوجود والإله السفلي، وبالتدريج سيحاول أهريمن أن يأخذ النور الكامن في المخلوقات، أي يأسر الحياة ويهبط بها إلى العالم السفلي، ولكن في يوم النهاية الموعود سيعود كلّ النور إلى أهورامزدا ثانيةً، فالنور دائماً إلهي وإن انتسب إلى الشيطان بعض الوقت ولكنه عائد لأبديته مرة أخرى. ونتيجةً لخطف النور الإلهي سيصيب المخلوقات الأمراض فيخلق لها مزدا الدواء، ثم يُصيب الإنسان العجز والهرم فيعوضه الإله بأبناء حتى تستمر الحياة، وهكذا دواليك. فأهريمن بفعلته تلك قد تمّم الخلق الإلهي ونفّذ مشيئة الرب الأكبر في كائنات فانية ضعيفة تحتاج دائماً إليه.

«النار في الزرادشتية هي فكرة مزدا المجسدة أعلى من كل مخلوقاته»، فالنار ليست معبوداً في حدّ ذاتها وإنما هي تجسيد للضياء الإلهي، هي أخت النور ومصدر الطهر والنقاء في الوجود. فكما ورد في الزرادشتية «إنها مخلوقة من ضياء العرش الأعلى، وتجسدت على الأرض. . . هي سرّ الحياة وروح العالم، رمز القوة الإلهية في الوجود وأصل جوهر البشر، فأصل فكلّ المخلوقات من ماء إلاّ الإنسان المخلوق من النار. . . ولكن للنار تدخّلها في كلّ عناصر الوجود، فقد امتزجت بالماء والنبات فاكتملت ملامح الخلق ونمت الأعشاب. . . وتكونت السحب وهطلت الأمطار، . . . فكان الكون».

إذاً فالنار تتجاوز مجرّد الرمزية الخاصة بالضياء لتتخلخل في الوجود بأكلمه، فقد مُنحت ميزات إلهية لم تُمنح لغيرها من العناصر الكونية. كما أنّ النار كذلك تُجسّد الصدق المطلق ضد الكذب المظلم، فللكاذب عقابه في الزرادشتية في العالم الأخر بحيث سيمكث في ظلمة الجحيم ثلاثمائة عام.

ولتصورات الحياة في العالم الأخر سياق أخر قد يحتويه سياق كتاب آخر وستكون للنار فيه مكانة هامة، ولكن من يُشكك في صدقه فالنار اختباره.

«يُحكى أنّ سياوش بن كيكاوس البطل الإله، وهو أحد أبطال الفرس

الملحميين وله مكانة خاصة في الأفستا بوصفه من عداد الصدّيقين، قد اتهمه أبوه في زوجته، وحتى يتحقق من صدقه في عدم مساسه بها أدخله النار فإذا خرج سالماً صدُق قوله وإلا ستحرقه النار، فيدخل سياوش ويخرج منها بلا أدنى أذى». فالنار هي مقياس الصدق الوحيد. وقد يُذكّرنا هذا المشهد بحكاية النبي إبراهيم ودخوله النار حتى يُعاقب، ولتثبت صحة فكرته عن الله في قومه يخرج منها سالماً، خاصةً إذا تتبعنا كمّ التراكمات الأسطورية التي بُنيت على الحكاية الإبراهيمية، حيث سنجد ذلك التشابه الواضح في عمق البنية الرمزية لعناصر الكون في كل أشكال الدين.

كما أنّ النار في الزرادشتية تمثّل حالة صراع أخرى بين المقدّس والمدنّس، فهي علامة الطهر والصدق، وهي التي تفرّق بين الشيطاني والإلهي، والصورة الأوضح لتلك الفكرة ميلاد زرادشت، فبداية خلقه كانت بنور إلهي نزل من السماء السادسة إلى الشمس للقمر، ثم إلى بيت النار فأضاءت النار تلقائياً، ثم إلى رحم زوجة صاحب بيت النار فحملت بفتاة هي والدة زرادشت، وحينما ولدت الفتاة كانت تُشعّ نوراً فظنّ أبوها أنّ هذا بفعل الشيطان فطردها، لتتزوج من أحد القبائل المجاورة ولتنجب زرادشت الذي كان يضحك ويتكلم لحظة ولادته، فخاف أهريمن على نفسه من هذا الطفل الإلهي، فوجّه بعض أتباعه ليضعوه في قدر به نار مشتعله، فدخل ثم خرج منها سالماً وحرق أولئك الشياطين ضاحكاً.

قبل قيام الساعة بثلاثة أشهر ستكون حرب قوية ما بين مزدا وأهريمن ستنتج عنها أعاصير وأمطار ثقيلة، . . . ثم تتصاعد النيران وينتهي العالم بالنار ويفنى كلّ المخلوقات. . . ويغرق العالم في ظلام كامل لسنوات طوال حتى تقوم الساعة والحساب ويعود النور ثانياً.

ويلخّص العالم الفارسي الكاهن الزردشتي فارهانغ مير جوهر الديانة الزردشتية فيقول:

تؤمن الزردشتية بخالقٍ واحدٍ حافظ للكون، وهو عليم بكلّ شيء، كلي الوجود، قدير. هو الوحيد الذي لا يظهر إلاّ من خلال صفاته ومزاياه. هو خالق الكون في فكره السليم (فوهو مانا) ومشكّله في ضميره (داينا) ومجسّده من خلال روحه الخيرة (سبنتا ماينيو) وأطلق حركته بمشيئته (آشا) - القانون الأساسي للعدل

والاستقامة. هو الذي خلق الإنسان شريكاً في عمله وملّكه القدرة على التفكير والتمييز بين الصواب والخطأ (الحق والباطل) والعمل من أجل تقدم العالم، وهو الذي أوحى بشريعته الأبدية إلى النبي زردشت في الغاثات، وهو الذي بلّغ بقانون مغبّة الأعمال وحقيقة الحياة الآخرة ووعد السعادة الحقة (أوشتا) للصالحين.[١]

وأنكي أيضاً الذي عرفته النصوص الأكادية باسم (إيا) كان بحكمته وعظيم ذكائه قادراً على نزع التراب من تحت أظافره وعجنه ثم خلق الإلهة (صلتو) - وهي الإلهة التي خلقها إيا لمجابهة عشتار - وبعد ذلك إزالتها من الوجود بمحض إرادته، وقد أظهر هذا كله أنّ للآلهة طبيعتين ووجهين مختلفين لشخصية مزدوجة: مادية وإلهية.[٢]

والملفت في الأسطورة بشكل عام أنّ الإله تنافسه زوجته بعد إيجادها وتبدأ صرعات بينهما. وإذا أسندت للأنثى الألوهية المطلقة فهي تبدأ من العالم السفلي، أو إن غضب الإله يعيدها إلى العالم السفلي، وهي إشارة إلى أنها تمثّل الشر.[٣]

---

(١) سهيل بشروئي ومرداد مسعودي: تراثنا الروحي - من بدايات التاريخ إلى الأديان المعاصرة، دار الساقي.

(٢) ديوان الأساطير سومر وأكاد وآشور - الآلهة والبشر، نقله إلى العربية قاسم الشواف، دار الساقي.

(٣) الميثولوجيا الإغريقية تعتبر (كاوس) الربةالأولية لهذا الكون، وهي الربةالتي تجسد المكان غير المحدد والمادة التي لا شكل لها والتي سبقت كل خلق وكل خليقة وكل ما هو معروف.
وكاوس بالإغريقيةالقديمة معناها الفراغ والظلام اللذان بلا حدود، ويمكن أن تتم ترجمة معنى الكلمة أيضاً بأنها الفراغ العشوائي الأولي للكون أو ما يسمّى أيضاً السديم الكوني الأولي.
وبحسب الميثولوجيا الإغريقيةالقديمة فإنّ كاوس هو الربة الأولية التي أتت منها بقية الأرباب الأولية التي تدعى أيضاً أرباب الخلق الأولى. وهي تدل على كل ما كان موجوداً قبل خلق الكون، وهكذا تكون كاوس هي الكتلة الأولية لهذا الكون المؤلفة من عناصر الطبيعة الأربعة: النار والهواء والماء والتراب، التي تبعثرت وتناثرت بكلّ الاتجاهات قبل أن تهدأ وتستقر.
وقد وصف الشاعر هسيودوس الربة كاوس بأنها الحالة الأولية لهذه الخليقة، فهي اللاشيء الذي بدأت تظهر منه الأشياء، كانت البداية ومنها أتت الخليقة تباعاً، فهي فجوة الظلام الدامس والسواد المطلق الذي ظهرت منه ربة الأرض «جايا» وربة ظلام الليل «نيكس» ورب =

ونلحظ أيضاً أنّ جميع الأساطير قد اهتمّت اهتماماً بالغاً بذكر تفاصيل تكاثر الآلهة وكيفية ظهورها وذكر أسباب صراعاتها، بينما لم تحفل بالإنسان (العابد) قط، إذ لا تلتفت إليه في كلّ وجودها وتناميها وصراعها. وهذا ما يرجّح أنّ مُنبت الأسطورة كان معنياً بتفسير وجود الظواهر الطبيعية (من ليل ونهار وظلام ونور وأرض وسماء وخير وشر) أوجدها الإنسان من أجل إقناع نفسه وإيجاد تبرير ما لظهور كلّ هذه الآلهة، وهو في هذا الجهد نسي أن يذكر وجوده بالنسبة إلى الآلهة، هذا إذا أغفلنا أنّ ميزة الأسطورة هي الحديث عن الآلهة في خلقها وصراعات وجودها.

وإذا أردنا أن نتعرف إلى التصور العربي لبداية الخلق سنجده يبحث عن الموائمة بين ما جاءت به الرسالة المحمدية بحيث يفسر الأخبار بآيات من القرآن الكريم[١]، فسوف أنقل مقطعاً كاملاً من كتاب **الكامل في التاريخ** لابن الاثير:

إنّ أهل العلم جميعاً من أهل الإسلام اتفقوا أنّ الله عزّ وجلّ خلق الأشياء على غير مِثَالٍ، وابتدعها من غير أصل، ثم رُوي عن ابن عباس وغيره: إنّ أول ما خلق

= الظلام في العالم السفلي «إيريبوس» ورب العالم السفلي «تارتاروس» ورب الشهوة والحب الشغوف «إيروس».

أما الشاعر أوفيديوس فقد وصف الربة كاوس بأنها المادة الخام المنفجرة التي لا حياة فيها، وهي الربة التي لا حدود لها ولا تكوين، إنها عبارة عن مجموعة بذور متضاربة تعمّها الفوضى العادلة، وهي القاع الذي لا نهاية لعمقه وكل ما يقع فيها يكون منجرفاً إلى ما لا نهاية. هي نقيض الأرض «جايا» المنبثقة منها، هي المكان الذي لا اتجاه محتمل فيه، إن وقع فيها شيء تناثر بكل الاتجاهات، وهي الفضاء القاسم والفاصل ما بين السماء والأرض بعد انفصالهما عن بعضهم البعض. - يوكيبيديا الموسوعة الحرة.

(١) قال المسعودي: وما ذكرناه من الأخبار في مبدأ الخليقة هو ما جاءت به الشريعة ونقله الخلف عن السلف، والباقي عن الماضي، فعبرنا عنهم على حسب ما نقل إلينا من ألفاظهم ووجدناه في كتبهم، مع شهادة الدلائل بحدوث العالم واتضاحها بكَوْنه، ولم نتعرض لوصف قول من وافق ذلك وانقاد إليه من أهل الملل القائلين بالحدوث، ولا الرد على مَنْ سواهم ممن خالف ذلك وقال بالقدم؛ لذكرنا ذلك فيما سلف من كتبنا وتقدم من تصنيفنا، وقد ذكرنا في مواضع كثيرة من كتابنا هذا جُمَلاً من علوم النظر والبراهين والجدل تتعلق بكثير من الآراء والنحل وذلك على طريق الخبر. - (المسعودي: مروج الذهب).

الله عزّ وجلّ الماء، وكان عَرْشه عليه، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دُخَاناً، فارتفع الدخان فوق الماء فسمّاه سماء، ثم أيْبَسَ الماء فجعله أرضاً واحدة. ثم فَتَقَها فجعلها سَبْعَ أَرَضين، في يومين الأحد والاثنين، وخلق الأرض على حُوتٍ، والحوتُ هو الذي ذكره الله سبحانه في القرآن في قوله تعالى: (ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) والحوتُ في الماء، والماء على الصَّفا، والصَّفا على ظهر ملك، والملك على صخرة، والصخرة على الريح، وهي الصخرة التي ذكرها الله تعالى في القرآن حكاية عن قول لقمان لابنه: ﴿يبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى السَّمَوٰتِ أَوْ فِى الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ فاضطرب الحوت فتزلزلت الأرض، فأرسى الله عليها الجبال فَقَرّت الأرض، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِى الأَرْضِ رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ وخلق الجبال فيها، وخلق أقْوَاتَ أهلها، وسخرها وما ينبغي لها، في يومين في يوم الثلاثاء والأربعاء، وذلك قولُه تعالى: ﴿قُلْ أءنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَلَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّام سَوَآء لِّلسَّآئِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ (فصلت: ٩ ١١) فكان ذلك الدخان من نَفَسِ الماء حين تنفس فجعلها سماء واحدة، ثم فَتَقَها فجعلها سبعاً في يومين في يوم الخميس والجمعة، وإنما سمي الجمعة لأن الله جَمَعَ فيه خلق السموات والأرض، ثم قال: (وَأَوْحَى فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا) (فصلت: ١٢) يقول: خلق في كل سماء خلقها من الملائكة والبحار وجبال البَرَد، وإن سماء الدنيا من زمردة خضراء، والسماء الثانية من فضة بيضاء، والسماء الثالثة من ياقوتة حمراء، والسماء الزابعة من درة بيضاء، والسماء الخامسة من ذهب أحمر، والسماء السادسة من ياقوتة صفراء، والسماء السابعة من نور، قد طبقها الله بملائكة قيام على رِجْلٍ واحدة تعظيماً لله لقربهم منه قد خرقت أرْجُلُهم الأرض السابعة واستقرَّت أقدامهم على مسيرة خمسمائة عام تحت الأرض السابعة، ورؤوسهم تحت العرش من غير أن تبلغ العرش، وهم يقولون: لا إله إلا الله ذو العرش المجيد، فهم على ذلك منذ خلقوا إلى أن تقوم الساعة، وتحت العرش بحر تنزل منه أرزاق الحيوان يوحي الله تعالى إليه فيُمْطِر ما شاء من سماء إلى سماء، حتى ينتهي إلى موضع يقال له الأبرم، فيوحي الله إلى

الريح فتحمله إلى السحاب فتغربله، وتحت سماء الدنيا بحر من ماء يطفح فيه من الدواب مثل ما في بحور الأرض مستمسك بالقدرة، وإن الله تعالى أسكن ظهر الأرض - لما فرغ من خلقها- الجنّ، قبل آدم، فجعلهم من مَارِجٍ من نار، وإبليسوإبليسُ فيهم، فنهاهم الله أن يسفكوا دم البهائم، وأن يظهرواالمعصية بينهم، فسفكوا وعَدَا بعضُهم على بعض، فلما رآهم إبليس لا يقلعون عن ذلك سأل الله تعالى أن يرفعه إلى السماء فصار مع الملائكة يعبد الله أشد عبادة، وأرسل الله إلى الجن - وهم حزب إبليس- قبيلاً من الملائكة فطردوهم إلى جزائر البحار وقتلوا مَنْ شاء الله منهم، وجعل الله إبليس على سماء الدنيا خازناً، فوقع في صدره كِبْرٌ.

ثم شاء الله عزّ وجلّ أن يخلق آدم فقال الله للملائكة: ﴿إِنّي جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠) فقالوا: ربنا وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: تكون له ذرية، ويُفْسِدون في الأرض، ويتحاسدون، ويقتل بعضهم بعضاً، فقالوا: ربنا ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠).

ثم بعث الله جبريل إلى الأرض ليأتيه بطين منها، فقالت له الأرض: إني أعوذ بالله منك أن تنقصني فرجع ولم يأخذ منها شيئاً وقال: يا رب، إنها عَاذَتْ بك، ثم بعث الله ميكائيل فقالت له مثل ذلك، فرجع ولم يأخذ منها شيئاً، فبعث الله ملك الموت فعاذت بالله منه، فقال: وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ الأمر، فأخذ من تربة سوداء وحمراء وبيضاء؛ فلذلك خرج بنو آدم مختلفين في الألوان، وسمي آدَمَ لأنه خرج من أديم الأرض، وقيل غير ذلك. ووكل الله ملك الموت بالموت، وجَبَلَه الله تعالى، وتركه حتى صار طيناً لازباً يلزق بعضه ببعض، أربعين سنة، ثم تركه حتى أَنْتَنَ وتغير أربعين سنة، وذلك قوله تعالى: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ (الحجر: ٢٦) أي: متغير منتن، ثم صَوَّرَه وتركه بلا روح من صَلْصَال كالفخار حتى أتى عليه مائة وعشرون سنة، وقيل: أربعون سنة، وهو قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَنِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾ (الإنسان: ١) فكانت الملائكة تمرُّ به فيفزعون منه، وكان أشدهم فزعاً إبليس، كان يمر به فيضربه برجله فيظهر له صوت كظهوره من الفخار وتكون له صَلْصَلَة، وذلك قوله تعالى: ﴿مِن صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ (الرحمن: ١٤) وقد قيل: إن الصلصال غير ما ذكرناه، وكان إبليس يدخل من فيه

ويخرج من دبره، ويقول: لأمر ما خُلِقْتَ، فلما أراد الله تعالى أن ينفخ فيه الروح قال للملائكة: ﴿اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾ (البقرة: ٣٤) وقال يا رب: ﴿أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ (ص: ٧٦) والنار أشرف من الطين، وأنا الذي كنت مستخلفاً في الأرض، وأنا الملبَّس بالريش والموشَّحُ بالنور، والمتوَّج بالكرامة، وأنا الذي عبدتك في سمائك وأرضك، فقال الله تعالى: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ (الحجر: ٣٤، ٣٥) فسأل الله المهلة إلى يوم يُبعثون، فأنظره الله إلى يوم الوقت المعلوم، وذهب على إبليس المعنى الذي له ومن أجله أُمِرَ لآدم بالسجود: فمن الناس من رأى أن آدم كان محراباً للمأمورين بالسجود والمقصود بذلك الخالق عزّ وجلّ، وموافقة الأمر والطاعة له على سبيل البلوى والاختبار والمحنة الواقعة بالمكلفين، ومنهم من رأى غير ذلك، ثم نفخ الله تعالى في آدم من روحه؛ فكان كلما دخل في بعضه الروح يذهب ليجلس، فقال الله تعالى: ﴿وَكَانَ الإِنْسَنُ عَجُولاً﴾ (الإسراء: ١١) ولما تتابع فيه الروح عَطِسَ، فقال الله له: قل الحمد لله، يرحمك الله يا آدم.

نلحظ من هذا السرد أنّ المؤرخين العرب وجدوا أنفسهم أمام مرويات وأساطير عديدة فكان كلٌّ منهم يكيّف مرويته وفق ما جاء في القرآن حتى وإن لوى النصوص لكي تتواءم مع المروي منها[1]. كما أنّ العرب عرفت آلهة عدّة تناثرت في الجزيرة

(١) ميزة الرواة والمؤرخين العرب أنهم يجمعون الأخبار المتفرقة والمتضادة حول نقطة واحدة، وهناك عشرات المرويات عن تصورهم لبداية الخلق، إذ يمكن الرجوع إلى كمٍّ مهول من المرويات سجّلت في كتب التاريخ العربي. ولأني لست في مجال بحث أو استقصاء وإنما أستهدف البحث عن متعة التنزه في المخيلة الأولى كعابر سبيل، لهذا سوف أتجاوز عن ذكر الكثير من تلك التصورات، ليس عزوفاً بل لطولها وتنوعها، وسوف أورد هنا نظرة أخرى لتصور الخلق عند العرب، إلا أن التوجة الديني المذهبي يظهر بجلاء في هذه المروية إذ يقول ابن الأثير:

روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: إن الله حي بالحدوث. ولا الرد على مَنْ سواهم ممن خالف ذلك وقال بالقدم؛ لذكرنا ذلك فيما سلف من كتبنا وتقدم من تصنيفنا، وقد ذكرنا في مواضع كثيرة من كتابنا هذا جُمَلاً من علوم النظر والبراهين والجدل تتعلق بكثير من الآراء والنحل وذلك على طريق الخبر. =

العربية وأقيمت لها طقوس عبادية عدّة وقد كانت الآلهة كرب وعم ونون وسين أشهر تلك المعبوادت في جنوب الجزيرة.[1]

من كلّ ما مضى من سرد لبعض التصورات الأسطورية للخلق فقد تباينت صور الخالق في أذهان البشر حتى آمن بعضهم بفكرة الرب الواحد الذي يتمثل دائماً في

= ورويَ عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: إن الله حين شاء تقدير الخليقة وذَرْءَ البرية وإبداع المبدعات نصب الخلق في صور كالهَبَاء قبل دَحْوِ الأرض ورفع السماء، وهو في انفراد ملكوته وتوحد جبروته فأتاح نوراً من نوره فلمع، ونزع قبساً من ضيائه فسطع، ثم اجتمع النور في وسط تلك الصور الخفية فوافق ذلك صورة نبينا محمد ، فقال الله عزّ من قائل: أنت المختار المُنْتَخَبُ، وعندك مستودَع نوري وكنوز هدايتي، من أجلك أسْطَحُ البطحاء، وأمْرُجُ الماء، وأرفع السماء، وأجعل الثواب والعقاب والجنة والنار، وأنصب أهل بيتك للهداية، وأوتيهم من مكنون علمي ما لا يشكل عليهم دقيق ولا يُغْيِيهِمْ خفي، وأجعلهم حجتي على بريتي، والمنبهين على قدرتي ووحدانيتي، ثم أخذ الله الشهادة عليهم بالربوبية والإخلاص وبالوحدانية فبعد أخْذِ ما أخذ من ذلك شاب ببصائر الخلق انتخاب محمد وآله، وأراهم أن الهداية معه والنور له والإمامة في آله؛ تقديماً لسنة العدل، وليكون الإعذار متقدماً، ثم أخفى الله الخليقة في غَيْبه، وغَيَّبَها في مكنون علمه، ثم نصب العوامل وبسط الزمان، ومرج الماء، وأثار الزبَدَ، وأهاج الدخان، فطفا عرشه على الماء، فسطح الأرضَ على ظهر الماء، وأخرج من الماء دخاناً فجعله السماء، ثم استجلبهما إلى الطاعة فأذعنتا بالاستجابة، ثم أنشأ الله الملائكة من أنوار أبدعها، وأرواح اخترعها، وَقرَنَ بتوحيده نبوَّةَ محمد فشهرت في السماء قبل بعثته في الأرض، فلما خلق الله آدم أبَانَ فضله للملائكة وأراهم ما خصّه به من سابق العلم من حيث عَرَّفَه عند استنبائه إياه أسماء الأشياء. . . - (ابن الأثير: الكامل في التاريخ).

(١) وكان من أسماء كرب عند أكثر الشعوب السامية: ورخ وشهر وآل مقه وسين (بفتح السين وتسكين الياء)، وتجده باسم محرم (بفتح الميم وتسكين الحاء وفتح الراء) وهذا الاسم يطلق على الإله الحبشي الأكبر للحرب، ومن بين أشهر أسماء الإله القمر ودّ (بفتح الواو وتسكين الدال) التي تعني الحب الإلهي البعيد عن الحب الجنسي والمحب لعباده الودود بهم، ومن بين الأسماء الأخرى للقمر عم، وكان العرب الجنوبيين يطلقون على أنفسهم (ولد عم) أي أنهم أولاد الإله القمر عم.

وإلى جانب ذلك نجده باسم ثهوان عند السبأيين وسين عند الحضارم وعم وانسي عند القتبانيين وود وشهر عند المعنيين والأوسانيين وهران عند أهل الجوف وثعلب ريام عند الهمدانيين. - (حمزة علي لقمان: أساطير من تاريخ اليمن، ص ص٢٦-٢٧).

ربُّ الأرباب أو كبير الآلهة، وجعلوا الآلهة الأخرى أتباعاً له يكلّفهم بمساعدته ويوكل لكلٍّ منهم مهمة معينة ويمنحهم قوى خاصة يمارسونها تارةً بإرشاده وطوراً من تلقاء أنفسهم دون أن يكون في ذلك مساس به أو تجريد لما له من ربوبية مطلقةوسلطان شامل على كل شيء.(١)

وقد عاشت كلّ الأساطير كمفسره للوجود إلا أنها تراجعت كنظام مفسر مع ظهور الديانات السماوية كنظام ديني جديد يفسر كل ما يحيط بالإنسان ويربطه بخالقه.

٥

إنّ الدين قد يحتوي الأسطورة ولكن الأسطورة لا تحوي الدين.(٢)

نهضت الأسطورة في كلّ موقع متخيّلةً كيفية انطلاق الشرارة الأولى المولدة للحياة؛ فحيناً تبحث عن كيفية تشكل الآلهة وحيناً تبحث عن بداية الخلق البشرية(٣)، ومع اختلاف تلك التصورات وتشكلها إلاّ أنّ ثمة تناسخٌ في تيماتها

---

(١) سليمان مظهر: أساطير من الشرق، ص١١.

(٢) الله كتاب لعباس محمود العقاد.

(٣) الخلق وفابيولاتة الحشرية الطوطمية تتشكل بصورة متقاربة في كثير من الأحيان، إذ يكون مرتكزها جلب مادة خلق الإنسان في أحيان. ونلحضها بصور شتى إلا أن صورها المتعددة تشي بتناسخ الفكرة مع تحويرات تأتي من هنا وهناك. ونرى في النصوص الفلاشية الحبشية أن سينجابونجا الإله الأعظم صعدت إليه الضفدعة البرية وطرشت الطمي منمعدتها في يد الإله الذي شكل منه من فورة مادة الأرض.
وصورة الرسل في تلك الأساطير غالبت ثلاثة طيور أو حيوانات ثلاثة ثابتة تغوص وسط مياه المحيط الصاخب لإحضار مادة خلق الإنسان والعالم. وفي بعض الحالات يهدف الإله أن يحضروا التربة من الأعماق، وغالباً ما يفشل الرسولان الأولان والثالث فقط ينجح في إحضار الطمي أو التربة.
ويكفي أن نلاحظ هنا أنّ كل الاحتمالات تشير إلى أنّ الأسطورة الأم منشؤها الهند، وهو ما تؤكده أغلب المصادر الهندية، خاصةً في البرجاباتي عند البراهمه، وفيها يتخذ الرسول هيئة الخنزير البري أو السلحفاة. - (شوقي عبد الحكيم: موسوعة الفلوكلور والأساطير).
بينما في الإسلام الرسل المكلفين بإحضار خامة الإنسان الأول (آدم عليه السلام) هم ملائكة، إذ أمر الإله الملاك جبريل أن ينزل إلى الأرض ويحضر حفنة من التراب لكي يخلق منها آدم، =

الأساسية تشي بأنّ هناك مرجعية أساسية لهذا التشابه والتناسخ. وهناك من ينجذب لهذا التنوع بحثاً عما طرأ في ذهنية كل أمة وابتعادها عن المرجعية الأساسية من خلال فرضيات أصالة الفكرة أو البحث عن أسباب ظهور التنويعات الإضافية لفكرة الوجود.

وانساقت كل الأمم في بداية نموها للرجوع إلى الخلف ونبش موروثها لمعرفة كيف آمن الأسلاف بفكرة الخلق وتشكله إذ أنّ مجموعة القيم والأخلاق التي تحكم تلك الأمم ما هي إلا تعاليم دينية في جوهرها، فالإنسان لا يلتزم بقيمة أخلاقية ما لم تدخله بين رحى الثواب والعقاب - قد تكون هذه في بدايات الالتزام كنهج إيماني إذ أنّ بالإمكان أن يتحول الالتزام بالقيمة الأخلاقية إلى مطلب قانوني وليس إيمانياً - وحين يتلقّى المرء تعاليم (افعل، ولا تفعل) ينازعه السؤال عمّن يقف خلف تلك الأوامر، فإن عرف قدرة الآمر وآمن به فإنه يقدم على تنفيذ الأوامر واجتناب النواهي، ولهذا فإنّ فكرة الرجوع إلى الخلف غالباً ما تكون بحثاً عن الاقتناع بالمصدر أو بالمشرّع.

ولهذا فإنّ الذنب والعقاب والتوبة مفردات بقيت قائمة في وعي الإنسان

= وعندما سمع إبليس بمهمة جبريل انطلق إلى الأرض وتخفّى في ثياب رجل صالح أو رجل ناسك مقدس وأخبر الأرض أنّ الله يريد تشكيل مخلوقات من ترابها بهدف أن يسيّدها على كافة مخلوقات الأرض قاطبة. قال إبليس: لكني خائف إذ أنّ هذه المخلوقات ستجدّف ضد الله، لذا لا تسمحي أن يأخذ منك أي شيء. وبناءً عليه تصرفت الأرض، ولكن عندما سمع جبريل برفض الأرض عاد إلى الله بلا تراب. ونفس القدر صادف الملاك الثاني ميخائيل. لكن الرسول الثالث عزرائيل لم يعطِ اهتماماً لبغي الأرض مفضّلاً أمر لله، وكان أحضر حفنة من مختلف الأتربة، ومن هذا خلق آدم. لكن عندما عاد عزرائيل من رسالته كان مأخذواً حتى أنه ظلّ أربعين يوماً بلا حركه أو كلام. وبعد أن سمع الله تقرير عزرائيل باركه وكافأه بأن جعله ملاك الموت يقبض الأرواح ليصبح أداة خلق الإنسان هي نفسها أداة موته المتمثلة في ملاك الموت.

وتوجود حكاية إسلامية يلعب فيها إبليس دور عزرائيل بشكلٍ مدهش ملفتٍ للأنظار، منتمياً أكثر إلى الأسطورة الفلاشية من حيث أنها هي الأصل الأم.

هذه إلمامة المقارنة عن قصص خلق العالم والإنسان الطوطمية أو الحشرية للرسل الثلاثة من السلحفاة البرية لأبو جلمبو لدودة العلق، والتي انتهت بالرسل الثلاثة. - (شوقي عبد الحكيم: موسوعة الفلوكلور والأساطير).

كمرجّح لأغلب الأفعال، إذ لا غرابة أننا وجدنا أنّ كثيراً من الكتب التاريخية مثقلة بهذه المفاهيم التي كانت الدافع الأول للإنسان في التعبير عن مكنون ذاته عند تعاملاته مع الوعي والطبيعة، فكان من نتاج هذا التدافع بين الشعور بالذنب والتلبّسات العقائدية، نتيجةً للجهل بالطبيعة والخوف منها، أن نشأت الأسطورة في تاريخ الإنسان كحامل لمعتقداته ومخاوفه وتوجساته.[١]

ومع تحرّز العرب من بعض المرويات الأسطورية إلا أنهم لم يبتعدوا تماماً عن مغامرة الخوض في بداية الخلق[٢] إذ تناقلوا أساطير عدة من غير الجزم بأصالة أو

---

(١) الدكتور محمد شحرور: **القصص القرآني - قراءة معاصرة**.

(٢) وكانت أسطورة الخلق القرشية في ما قبل الإسلام أنّ لقريش طوطماً هو الحوت تقول «إنّالله خلق الأرض على الحوت، والحوت في الماء، والماء على ظهر صفا، والصفا على ظهر ملك، والملك على صخرة، والصخرة على الريح». ويقال إنها هي الصخرة التي ذكرها الحكيم لقمان، ليست في السماء ولا في الأرض، فتحرك الحوت فاضطربت وتزلزلت الأرض فأرسى عليها الجبال. -(موسوعة الفلولكلور والأساطير، شوقي عبدالحكيم).

ويقول الدكتور فاضل الربيعي عن نون أو الحوت في كتابه **رجال بلا تاريخ**: استلهم الإغريق لوقتٍ ما من تاريخهم القديم بحسب ما يقول هردت عقيدة من عقائد الفينيقيين وعقائد السكورية في بلاد ما بين النهرين. كذلك تولت في الواقع شرحها الألواح والمصورات الفنية. وتتأسس على الفكرة التالية: إنّ الإنسان الأول كان سمكة. ووجد رسم آخر للاسم أو أنس، وهذا الاسم له صلة حميمة بالمعبود العربي الجنوبي عميانس (عم انس) الذي سجّل ابن الكلبي اسمه في قائمة أصنام العرب ومعبوداتها. واستناداً إلى هردت فإن الإغريق كانوا يعتقدون أن الإنسان السمكة هذا جاء من الخليج العربي حاملاً معه الحضارة اليابسة.

لقد تمحورت أهم أفكار السومريين عن أصولهم وأنسابهم في الفكرة ذاتها، فهم من نسل هذا الإنسان السمكة القادم من الخليج إلى العراق القديم، ولكنه يدعى بدلاً من او انس انكي، وهذا الاسم مشترك مع نظيره الإغريقي الفينقي في وجود حرف النون في أصل الاسم.

كان الإله انكي الإله المحلي لمدينة أور التي تقع على ضفاف خور متفرع من الخليج العربي. وكما تخبرنا الوثائق والسجلات السومرية فإن أور كانت أول مستوطنة في العراق القديم يسكنها الإنسان جنوبي بابل، وقد عدت من المدن الخمس الأولى التي وجدت بعد الطوفان حسب معتقدات السومريين.

تعني كلمة حت في اللغة المصرية سمكة، ومكافئها العربي حوت. كان تحوت في أصله البعيد إلهاً للقمر انبثق من رأس إله الصحراء ست. ونحن أعلم أن الإله ست، وعند العرب القدماء شيت، هو ابن لآدم وكان معبوداً صحراوياً جلبه الهكسوس إلى مصر في حقبة =

= الاجتياح الشهيرة في التاريخ باسم حقبة ملوك الرعاة في عام ١٧٢٠ق.م تقريباً، وكان رمزاً للظلام؟ إن الإله تحوت انبثق من رأس سث، ورمزياً انبثاق القمر من رأس الظلام.

إنّ الإله تحوت، المماثل في مبناه ومعناه للكلمة العربية حوت بمعنى سمكة، كان كبير آلهة مصر ومعبودها الأعظم، وقد دعي بالاله المثلث العظمة لأنه كان إله الحكمة والكتابة والفلك.

والصلة بين جذر الاسم السومري انونون، وهما بمعنى واحد: سمكة / حوت فإنه يشير إلى إله عدّته الثقافات القديمة في بلاد مابين النهرين بالتعاقب إلهاً شديد القوة والجبروت، فهو الإنسان الأول المتصور على هيئة سمكة والذي خرج من الماء مجتازاً الأهوال والمخاطر حاملاً إلى اليابسة هديته الكبرى: الكتابة والمعرفة والدين.

تاريخ ثمود: إن هذه القبيلة ارتبط طعامها بعبادة الإله نون، وذلك ما يكشف عن حقيقة موطنهم القديم قرب سواحل البحر الأحمر في الجزيرة العربية، إذ أمكن العثور على رسوم فوق الصخور لسفن ثمودية كان رجال القبيلة يستخدمونها في عبور البحر للتجارة، ما يدعم الحقيقة الآثارية القائلة إنّ الثموديين عاشوا فعلاً في وقتٍ ما على ثروات البحر الأحمر وحصلوا منه على طعامهم الرئيس. وأصبح نون معبوداً طوطما عند القبائل العربية الأولى، ثم ليتحول فيما بعد، مع ظهورالمسيحية، إلى شعيرة دينية هي أساس من أساسات عقيدة الإخلاص، وهذا ما يفسر لنا على أكمل وجه رمزية العشاء الأخير في المسيحية، حيث دخلت السمكة في المائدة لتطعم الألف الجائعين.

نلمح أنّ المقصود بـ«نون» على وجه التحديد الإحالة على فكرة وجود إله الكتابة العربي القديم الذي خرج من البحر بعد أن صارع أهواله وتغلّب عليها ليوصل الهدية.

و في الأكدية نونو بمعنى السمكة وكتلة الماء.

وعن ابن عباس في تأويله لاسم قريش ومصدره يقدم تصوراً متسقاً مع الفكرة الآنفة، ففي رأيه أنّ اسم قريش مشتق من كلمة قرش وهي السمكة وليس معنى القروش أي النقود.

بكلامٍ آخر، هو تحوت، إله المعرفة، وهو الإنسان الأول، السمكة الأولى.

ونونٌ يضاهي تلقائياً الصورة القديمة للمعبود السومري الأكدي نون، وهو كتلة الماء الازلية.

(أبطال بلا تاريخ، فاضل الربيعي)

انتهى الاقتباس من الدكتور فاضل الربيعي، ويمكن القول إننا بهذه المعلومات يمكن لنا أن نصل إلى سرّ بعض الأحرف التي وردت في بدايات بعض سور القرآن الكريم. ففي سورة نون (ن والقلم وما يسطرون) يمكن أن يكون القَسَم كان المقصود به هذا الإله المعبود الذي كانت تعبده قريش، ويمكن أيضاً، ومن خلال المعلومة الانثروبولوجية أيضاً، أن نتعرّف على سرّ ياسين في سورة ياسين، إذ أنّ ياسين هو إله عُبد في الجزيرة العربية.

ولهذا يمكنني القول إنّ كل شيء جاء في القرآن سيتمّ الكشف عنه، بل أدّعي أنّ كلّ شيء جاء به القرآن سوف يتحقق يقيناً سواء كان معجزة أم لغزاً كونياً، فالله خلق العقل لكي يصل إليه بالتجربة والبرهان.

انتقال تلك التصورات إليهم من مواقع أخرى. وقد يعود ذلك إلى أنّ تأثيرات الأمم المجاورة للجزيرة العربية قد أوصلت إليها الكثير من المعتقدات التي تجذّر وجودها كمرويات، إن لم نشأ القول كإيمان بها. وقد حدث ذلك في جميع أطراف الجزيرة العربية المحاذّة للحضارات العريقة، وتمركز في مكة المكرمة ليس بسبب جوارها لأيّ موقع حضاري وإنما لوجود بيت الله الذي حظي بالاهتمام البشري منذ القدم[1] فكان محطة تلاقي الأجناس بما تحمله من أفكار ومعتقدات تنشرها ويتم تبادلها وتسويقها أيضاً.

إلا أنّ ظهور الرسالة الإسلامية فيما بعد حملت المؤرخين على تثبيت الأخبار المطمئنة، أي أنّ تنقية الأساطير من ما يتعارض مع الرسالة الجديدة كان هو الأساس في التسجيل والكتابة، حتى وإن حدث غير ذلك يتم الإشارة إلى كونها إسرائيليات. ولهذا نجد أنفسنا كمسلمين (متأخرين) نبتعد كثيراً عن تلك الأسئلة الوجودية التي أرّقت الكثيرين من الأوائل، ونجد أنفسنا في مأمن من كل تلك الزوابع المثارة عبر الانثروبولوجيا كون الإيمان ثبات واستقرار على ما تمّ الإخبار به من مصدره، ولذلك تكون أسئلتنا في ما بعد الخلق غالباً وليس في ما قبل الخلق.

وإذ يمكن أن تسرح المخيلة بأسئلة (وإن اعتبر بعضهم أنّ بها شططاً) متلازمة مع هبوط آدم عليه السلام (وزوجه ومعهما إبليس) إذ ما هي الأحداث الاولى التي قاموا بها على الأرض، وهي المكان الجديد الذي لا يعرفه آدم ولا يعرف كيف يعيش به أو يتعامل مع طقسه (بغضّ النظر عن معرفته للأسماء كلها، فمعرفة اسم الشيء لا يعني إتقان التعامل معه. هذا إذا أردنا أن نتجاوز عن ماهية معرفة الاسم: هل هي معرفة الاسم فقط أم معرفة ماهيته وكل ما يحيط به من أفعال ودوافع؟)، فهل يستقيم هبوط آدم عليه السلام مع فكرة أنّ الجنة لم تكن في السماء بل كانت على الأرض (جنّات عدن) وأن في الأرض أربعة أنهار من الجنة: النيل والفرات

---

(١) تذكر جميع الكتب التاريخية أنّ كلّ الأنبياء والرسل حجّوا إلى بيت الله الحرام بكة، وإن أردنا تثبيت البعد الزمني لهذه الزيارات يكفي ذكر قصة أبونا آدم وأمنا حواء، فالتقائهما حدث في عرفة، ثم توالت زيارات الأنبياء لهذا الموقع من المعمورة.

وسيحان وجيحان[1] مما يجعل الانتقال (الهبوط) هو انتقال من بيئة ذات مناخ بارد وظلال وافرة إلى بيئة أخرى ذات مناخ أشدّ وطأةً وقسوة.

وإذا كانت الجنة في السماء ففي أي سماء حدث العصيان؟ وكيف كان الهبوط؟ ويكون هذا السؤال مرعباً في ظل معلومات العلم الحديث، إذ أوقفنا العلم الحالي على المسافات الشاسعة في الكون والتي تقدر بمليارات السنوات الضوئية. وقبل العلم أخبرنا القرآن بالاختلاف الزمني المهول بين زمننا وبين الزمن عند الله جلّ في علاه.[2]

ومع بحث الإنسان في بداية الخليقة لم يكن يمتلك المعرفة عن الزمن، التي جاءت كالإعصار لتقلب كل ما يمكن رصده أو تخمينه.

بينما تعاملت الأسطورة مع الزمن بالاختصار اللفظي الذي يختصر الأزمان ويفقد الإنسان الشعور بوطأة الاختلاف الزمني المهول. فحين نقرأ (هبط آدم) نجد ملايين السنوات الضوئية قد قمنا باختصارها في زمنية نطق مفردة (هبط) ثم لا نتنبّه بتاتاً لما قد قمنا به من إسقاط لقيمة التدبر، وهي القيمة الجوهرية المطالبين باتّباعها في قراءة القرآن.

ولو كان لدينا قليل من التدبّر لتجمدت الدماء في عروقنا عند المرور بالآيات القرآنية التي ذكر فيها الزمن عند الله عزّ وجل.

ووفق ذلك الزمن المهول الذي لا نستطيع إدراكه تصبح أسئلتنا أسئلة مهتزّة وتقديرية.

كم عمر الأرض الآن؟

---

(١) روى مسلم عن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أنه قال: «أربعة أنهار من الجنة: النيل والفرات وسيحان وجيحان.»

(٢) ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإنّ يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدّون﴾ - (الحج: ٤٧).

﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ - (٣٢ سورة السجدة).

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۞ لِلْكَافِرينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ۞ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ۞ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ - (سورة المعارج)

وما هو نصيبنا من هذا الزمن كتواجد على سطحها؟

وكم هو زمن الله عز وجل بالنسبة لمخلوقاته؟

وعلى مستوى مضامين الآيات القرآنية وكذلك العلم الفلكي نحن هباء.

لا نصل في وجودنا إلى زمنية الثانية الواحدة.

وفي هذه الثانية نصوغ العالم، نقوّض ونبني، ولا يحدث هذا إلا من خلال كوننا حكاية، أسطورة صغيرة داخل أسطورة ضخمة، واستشعارنا بهذا الوجود المتسع وتغافلنا عن كوننا جزءاً من ثانية هي عظمة الوجود التي نستشعرها.

وهذه العظمة ليس لكونك تستشعر بأنك وريث ملايين السنوات وأنك تمثل زهرة الزمن في حينك، بل لأنّ مقدرتك العقلية قادرة على تمثل كل ما مضى وتخيّل نفسك في كلّ جزءٍ من هذا الزمن الفسيح.

هذه الثانية هي الحياة، فإن لم تتحرك داخل ميناء الزمن فأنت لم توجد.

أليس مفرحاً أن تعلم أنك كنت متواجداً في بداية الخلق[١] ومتواجداً في آخر الخلق. ها أنت بثانية وجودك تتمدد عبر الزمن الممتد؛ تكون في البداية والنهاية، وهو وجود لا تدرك منه الآن إلا لحظة تنفّسك، لكنه وجود أزلي تغيب عنك كيفيته، وهذا الغياب لا يجعلك تنفيه[٢]، كون إدراكك أو علمك تأسس على لحظة الفناء وليس البقاء.

وربما تصل إلى هذه المتعة من خلال المتخيل، أما اذا أخضعت الأشياء للمحسوس والحسابات والمعادلات فلن يمنحك عقلك المتواضع - الآن - تلك المتعة.

❊ ❊ ❊

الإيمان متعة.

لقد اختارك الله لأن تتنبّه لوجودك في زمنٍ ما (لتكون هي لحظة حياتك)؛ فكيف تكفر بهذه النعمة؟

---

(١) ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾.

(٢) ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ - (سورة ق: ٢٢)

وما ذاك الاختيار إلا حكمة، فلا تبطل الحكمة المطلقة بالانغلاق المطلق.

وإذا غاب علينا إحصاء ما مضى من زمن في حياتنا الدنيا، فمن باب أولى أن يغيب عنّا في ملكوت الله عزّ وجلّ؛ فلا تكن لحوحاً لأن تنهي الوجود بما تحمل من آلة حاسبة صنعت في القرن الحجري.

كما أنّ العقلية الباحثة عن الفناء مغرمة بالبحث عن النهايات. وهناك من هو شغوف بمعرفة البداية والنهاية قياساً بعدد سنوات عمره الضئيلة، فتجده متلهفاً لأن يغلق بوابة الزمن فيتنبّأ أو يخمّن بدنو نهاية الدنيا مستلهماً أحاديث كثيرة لهذا القرب.

وأقرب تلك الأحاديث (الأشهر في هذا الجانب) ما رواه أنس بن مالك أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بعثت أنا والساعة كهاتين». قال: وضمّ السبابة والوسطى. - **صحيح البخاري**[١].

ولو اتّبعنا العلم في هذا وقمنا برسم بيانات تقريبية (بواسطة تمثيل البيانات بالأعمدة) فسنجد أنّ المسافة المتبقية من الطول الوسطي على السبّابة يمثّل ما يقارب الربع، ولو أنّ عمر الأرض ٤,٥ مليار سنة فالمتبقي من حياة الأرض يصل إلى مليار وآلاف الملايين من السنوات (كنتيجة لحساب الفرق بين تمثيل بيانات ما مضى من زمن وما تبقّى منه) وهذا أدعى لأن يهتم الإنسان بعمارة الأرض وأن يعمل جاهداً على ذلك كاتّباعٍ لأمر الله سبحانه وتعالى.

نعم نحن ثانية من مليارات السنوات إلا أنّ حكمة الحكيم أرادت من هذه الثانية أن تكون غلافاً وجودياً يبدأ بسبحان الله وينتهي بسبحان الله.

فمن معاني التسبيح[٢] تنقيته وتنزيهه جلّ في علاه من شكوكنا وظنوننا القاصرة

---

(١) عن ابن عمر رضي الله عنهما أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إنما بقاؤكم فيمن سلف من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس. أوتي أهل التوراة التوراة فعملوا بها حتى انتصف النهار ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً، ثم أوتي أهل الإنجيل الإنجيل فعملوا به حتى صليت العصر ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً، ثم أوتيتم القرآن فعملتم به حتى غربت الشمس فأعطيتم قيراطين قيراطين، فقال: أهل الكتاب هؤلاء أقل منا عملاً وأكثر أجراً. قال الله: هل ظلمتكم من حقكم شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فهو فضلي أوتيه من أشاء. - **(صحيح البخاري)**

(٢) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «الأمْرُ بِتَسبيحِه يقتضي أيضًا تنزيهَه عن كُلِّ عيبٍ وسُوء وإثباتَ صفاتِ الكَمال له؛ فإنَّ التَّسبيحَ يقتضي التنزيهَ والتَّعظيمَ، والتَّعظيمُ يَستلزِمُ إثباتَ المَحامِدِ التي يُحمَد عليها، فيقتضي ذلك تنزيهَه وتَحميدَه وتكبيرَه وتوحيدَه»

والمرتبطة بزمنيتها، إذ مهما طال بنا الأمر فلن نصل بسنواتنا المحدودة إلى معرفة ذلك الكمال.

ومن يؤمن بالعلم عليه أن يكون علمياً، إذ كيف يمكن لك في ستين عاماً أو مائة عام أن تحيط بعلم مليارات السنوات؟ كيف؟

وإذا تفقّهت في علمٍ وأصبحت بحراً فيه فإنك جاهل ببقية العلوم أو تمتلك الجزء اليسير من المعرفة فيها، فهل من العلم أن تحكم على كلّ هذا الزمن وذلك التنوع والعمق بالجحود؟ العلمية تقتضي التواضع فمن يعيش ثانية لا يقدر أن يحكم على ما الذي حدث قبل أو بعد ساعة.

ومنذ دخول البعد الرابع في حساباتنا انقلب الكون، فليس هناك يقين تجاه المعارف السابقة التي سلّمنا بها لزمنٍ طويل، حتى إنّ الاتجاهات وتحديد مواقعنا في أو حول الأمكنة ليست إلا مصطلحات تواطأنا على تبادلها لكي نثبت وجودنا وفق ما نتخيله، بينما الحقيقة أنّ لنا صورة أخرى تناقض ما نحن عليه تماماً في مكانٍ آخر من هذا الكون.

أحدثت هذا الانقلاب الخطير نظرية النسبية لانشتاين، إذ طوّر مفهوم الأبعاد بإضافة الزمن كبعدٍ رابع (الطول والعرض والارتفاع) وأدخله في جميع حساباته لتأتي نتائجه مذهلة وغير متوقعة.

وقد كانت المقايس المطبّقة على المساحات والحجوم والكتل قائمة على المكان والزمن والسرعة اعتماداً على فيزياء جاليليو ونيوتن واعتبار أنّ تلك المقايس تقيس بدقّةٍ مطلقة، إلاّ أنّ نظرية النسبية لانشتاين قامت على أنه لا وجود لشيءٍ مطلق، إذ أنّ كل القياسات نسبية. ولو أردنا التقريب، لنقل بافتراض وجود أربعة أشخاص، ولدى كلّ واحد منهم متر، فالمتر العياري يكون طوله ١٠٠ سنتميتر عند الشخص الأول المتواجد على الأرض، وسيكون طول هذا المتر ٦٠ سنتيمتراً عند الشخص الثاني الذي يتحرك بسرعة أكبر، وسيكون طول المتر ٤٠ سنتيمتراً عند الثالث الذي سرعته تفوق سرعة الثاني، ولو كان الرابع يسير بسرعة الضوء سيكون طول المتر صفراً، ورغم اختلاف القياسات إلاّ أنّ كلّ قياسات الأربعة أشخاص قياسات صائبة.

إن ثبوت المقاييس والأبعاد في الكون لا وجود له حسب نظريته النسبية.[١]

وإذا جاءت هذه النظرية (النسبية) لتقلب الطاولة أمام معارف وحقائق سادت فترات زمنية، فمن المحتمل أن تأتي حقائق في أزمنة قادمة وتربك ما يتمّ التأسيس له أنه حقيقة.

وليست هناك حقيقة البتة إلاّ حقيقة الله عزّ وجل، فما تجهله اليوم سيكون واقعاً في المستقبل، ولهذا التبدّل والتغيّر آليات المعارف، إلاّ أنّ العلم لا يمتلك كلّ الحقيقة في كلّ الأزمان، فالعلم - مثلنا تماماً - يسير إلى الامام ليكتشف ما هو موجود، ولا ينشيء غير الموجود. فالالكترونات والذرة والفيروسات والأيونات والكواكب والمجرات والجزيئيات ومختلف السرعات كلها كانت موجودة منذ بداية الخلق، وفي كلّ مرحلة زمنية يقف العلم على مكتشف جديد بالنسبة إليه قديم بالنسبة إلى موجده وخالقه.

نحن ضيوف صفقاء في الثانية التي نوجد فيها على الأرض.

صفقاء حتى في حوارنا، فإن ينشأ جدل يبتعد عن الإيمان النصي ويقدّم الاحتكام للعلم كوسيلة للإقناع تكون منطلقات المتجادلين غير متكافئة، كما أنّ جدلهما يسبقه الرفض من الطرفين، ولهذا يكون الحوار ممتداً ليس للإقناع بل للاستعراض. هذا على مستوى الحوار الجدلي المباشر، وفي حقيقة أي جدل هو الصواب إذا علمنا المرتكزات التي ينطلق منها المجادل، فهو على صواب وفق معطياته وثقافته التي يتحرك بها، ولو تغيّر موقعه سيرى أنّ مجادله على صواب بما يحمله من معطيات وثقافة.

لذا لا تبحث عن إقناع مع من لا يريد أن يقتنع.

---

(١) تتلخص النظرية النسبية في هذه المعادلة: $E = CM^2$
E= الطاقة، M= الكتلة، C^2 = مربع سرعة الضوء، أي أنّ الطاقة التي ممكن أن ينتجها أي جسم مادي تساوي كتلته في مربع سرعة الضوء. ويمكن أن تتخيل حجم الطاقة الناتجة عن أي كتلة مهما كانت ضئيلة، وعلى أساس هذه المعادلة صنعت القنبلة النووية (الانشطارية)، ففي داخل ذرات اليورانيوم (الذي هو المادة الأساسية في القنبلة النووية) تلقح الذرة بنيوترون إضافي ما يجعلها تنشطر نصفين (ذرتين من الرصاص) بالإضافة إلى ثلاثة نيوترونات حرة مع فرق في الكتلة يتحول إلى طاقة. - ويكي الكتب - كتب مفتوحة لعالم حر.

وتصبح الكتابات والمؤلفات ما هي إلاّ تشكّل الروح في إظهار إيمانها بما تؤمن، وليست باحثة عن إقناع الآخر بما تؤمن، هي تستعرض مقدرتها في التحليل والاستنباط، وإن بدأت مستهدفةً إقناع الآخرين، إلا أنّ جوهرها يسعى إلى إقناع الذات المنشئة لفعل الكتابة قبل المطّلع على تلك الكتابة.

* * *

البشرية تسير فاقدةً جلّ ذاكرتها.

ولو أنّ إنساناً وقف أمامنا لا يتذكّر من تاريخه الطويل سوى ليلة البارحة التي ارتطم فيها رأسه بحجر فأنساه كلّ شيء وأبقاه كائنا يحمل ذكرى أربعٍ وعشرين ساعة فقط.

ونحن نعيش بذاكرة تلك الساعات المعدودات، أما ما قبل الارتطام فهو الجبل الغارق في الزمن.

وفي أجواء هذا الإغراق الحكائي الأسطوري تتخلّص من رغبة الدارس الباحث عن حكم وتعزف عن محاكمة الوجود أو محاكمة القيمة، إذ إنّ الحالتين تتماهيان وتفضيان إلى عجزٍ مريع: إذ كيف لك إصدار أحكام على زمنٍ يقدّر بملايين السنوات وليس لك نصيب منها سوى زمنٍ ضئيل عشته جامعاً معرفةٍ لم تتحقق من صحّة ساعة واحدة مما تتدعي معرفته؟ وعلى كلّ كتابة أن تعرض نفسها من غير ادّعاء اليقين الكامل، لأن الادّعاء هو محاولة إغراق إجباري.

ولا نستطيع الجزم على أيّ تنامٍ لفكرة أو اكتشاف ظاهرة أو تطور مهنة ومرشدنا في كلّ هذا رجلٌ يحمل ذاكرةً محدودة الزمن محدودة التذكّر. ولهذا لن يستطيع هذا الرجل الضعيف المسمّى بالتاريخ أن يحمل كلّ ما مرّ بهذه البشرية عبر ملايين السنوات التي كان شاهداً عليها، إذ أنه بحاجة إلى ذكر تاريخ زمنية وقوع أي حدث. ولأنه لا يستطيع أن يضع تاريخاً لما قبل التدوين فإنّ الإنسان لم يثق به كثيراً فانتدب الأسطورة لحمل ما عجز التاريخ عن حمله.

كما أنّ التاريخ[1] يسير بعلّةٍ قصمت ظهره؛ فهو يحمل تهمة الحمّال الذي

---

(١) لم ينفصل التاريخ عن الأسطورة إلا في زمنٍ متأخر نسبياً، مثل انفصال وظائف زعيم القبيلة في المجتمعات القديمة. فزعيم القبيلة هو الرئيس، وهو الكاهن، وهو الطبيب، وهو الساحر =

يحمل ما تريد السلطة أن يحمله، بينما الحكاية تحمل إرادة المجتمع ورغباته وأشيائه الصغيرة قبل الكبيرة. ولأنها تفلّتت من سطوة التاريخ السلطوي جاءت كما يشتهي سامعها أو قارئها. ولها سمة أخرى قائمة على الإضافة والزيادة والتحوير والإحلال والتوطين. ولأنّ تلك الحكايات والأساطير متخمة بالأحداث فقد وجد المؤرخون العرب كمّاً مهولاً من الحكايات التي أفرزتها الوقائع والمخيّلة البشرية من أساطير، ولحسن الحظ فقد تمّ نقلها وإدراجها في كتبهم في ظلّ غياب السلطة التي كان بالإمكان أن تمنعهم عن ذلك. إلاّ أنّ علّةً أخرى لازمت المؤرخين أنفسهم تتمثل في عدم نضوج فكرة الأساطير بمفاهيمها الحديثة في ذهنية الإخباريين والمؤرخين الناقلين لتلك الأساطير، ولم يجرّبوا إمكانية تعلّم أبجدياتها التي يسميها إريك فروم االلغة المنسية من أجل تفهّم أعمق لهذا التاريخ.

وهي علّة تُعدّ من علل عصرهم، ولا يمكن أن يُلاموا عليها كون العلم يسير وفق معارف تراكمية، ويكفي هؤلاء المؤرخين القدماء أن كان لديهم إحساس صلب بأنّ التاريخ يقبع في جوف الأسطورة وفي الروايةالخرافية وفي قلب كلّ خبر غير قابل للتصديق، ولذلك لم يتوقفوا عن نقل وتدوين كلّ ما كانت تقع عليه أعينهم، وهذا وحده يفسّر لنا سرّ انشغال مؤرّخين مسلمين عقلاء بنقل ما يبدو لأول وهلة مجرّد حكايات أسطورية أو خرافية. لقد كانوا ينقلون عن مصادر لم تصلنا قط، وفي هذا وحده ما يكفي للاعتراف بقيمة كثيرٍ مما أنجزوه[1]، ولو أنّ السلطة تدخلت حينها في منع وتدوين ذلك الكمّ المهول من الأساطير لكنّا الآن نجدّف في تلمّس ما تصل إليه قراءتنا في ما يكتبه الآخرون عنّا.

= معاً. ثم راحت هذه الوظائف ينفصل بعضها عن بعض بالتدريج كلما تقدم المجتمع في تنظيم شؤونه اليومية والدينية، لاسيما مع انتقال ذاك المجتمع من النسق البدائي إلى النسق القبلي، ثم إلى النسق الحضري الزراعي. وقد وجدت العلوم الإنسانية الحديثة في الأساطير مناجم معرفية غنية بالرموز والإشارات التي كثيراً ما حجبت خلف غلالاتها الرقيقة حقائق تاريخية شتى، فاتجهت هذه العلوم، لاسيما الأنثروبولوجيا، إلى كشف معاني تلك الرموز وإماطة النقاب عنها. وهكذا ظهر ميدان جديد من ميادين المعرفة هو «الميثولوجيا». - (صقر أبو فخر: بين الأسطورية والتاريخية مأساة أوديب وقصة أخناتون، مجلة نزوى، العدد السبعون).

(١) فاضل الربيعي: **أبطال بلا تاريخ**، دار الفرقد.

٦

التكاثر أحد مميزات الكائن الحي، ومنذ أن تواجد الإنسان وهو في حالة تناسل متواصلة أدّت الى التزاحم والاحتراب من أجل مصادر الغذاء، فتوزعت المجموعات في بيئات مختلفة واستوطنت وبدأت تفاعلها مع الحياة محدثةً تنامياً سكانياً وتراكماً في الخبرات المعيشية.

هذه هي الصورة النمطية التي يمكن تثبيتها كافتراض منطقي لابتعاد الأبناء عن الأجداد، وبالتالي ابتعادهم عن منبع التوحيد، وهذا المنبع يمثله آدم وأبناؤه من الجيل الأول إلى الثالث (أو العاشر) قبل أن يصلهم الانحراف التوحيدي إذا أردنا السير وفق ما أخبرتنا به الديانات السماوية المتأخرة، وهو افتراض متأخر عمّا حدث فعلاً، إذ أنّ التاريخ لم يخبرنا كيف انبثقت فكرة الهجرة عند الإنسان الأول، لكنه افتراض تمّ البناء عليه في حدوث تناسخ للهجرة الأولى وتحرّك المجاميع وتناثرها في مواقع مختلفة من العالم، ومن هناك بدأ التأقلم والتكيف مع ظرفية المكان، فزرعوا وصادوا وحاكوا ألبستهم لتقيهم ضراوة الطقس وصنعوا أدواتهم المختلفة، سواء كانت حراب الصيد أم أوانٍ لحفظ مائهم - كلّ هذه الأنشطة الاجتماعية حدثت خلال أحقاب زمنية متباعدة اكتسب فيها الإنسان الخبرة وراكم التجربة إلى أن وصل إلى إنتاج الحضارة.

والباحثون الجادّون لا يقنعون برؤية رأس الجبل، إذ هم تواقون إلى الغوص في أعماق الزمن، تواقون إلى الوقوف عند الجذر الأول لهذا الوجود. ومع أنّ دارسي الانثربولوجيا يجهدون أنفسهم لمعرفة عمر الإنسان (في مراحلة المختلفة) لكي يستطيعوا الاقتراب والإحاطة بما أنتجه العقل البشري مبكراً، إلاّ أنّ تلك الجهود تعود حسيرة عاجزة عن اختراق ملايين السنوات التي غمرت ذلك الوجود. ومع توفر الأدوات الحديثة، باستخدام الكربون المشع أو بواسطة معجّل الجسيمات، وصل الباحثون إلى تحديد أعمار كائنات عاشت قبل خمسين ألف سنة أو مائة ألف سنة، إلاّ أنّ كلّ مرحلة موغلة تقود شهيتهم لمواصلة التنقيب في الأعمق، إذ أنّ نهمهم المعرفي يبحث عن الوصول إلى الفكر الأول أو مغامرة العقل الأولى كما يقول فراس السواح.

وكما بحثت الأجساد عن مواقع لها من خلال هجراتها، فالبضرورة كان العقل

يبحث له عن موقع هو الآخر، وهذا التنقل والترحال بحاجة إلى إعمال العقل في الحركة والتنقل وفي تكييف البيئة لصالحه، وهي أفعال خاصة بالتدبّر، والتدبّر صفة عقلية وليست جسدية... ومن تنوع الاحتياجات بدأ العقل الأول في اكتشاف ما حوله واكتشاف نفسه ومقدرتها على التكيف بوسائط يتمّ تسخيرها أو صناعتها أو بناؤها.

وثمة اكتشافات ودراسات تتقافز من كلّ جهة يتمّ جمعها وتثبيتها (كما تُجمع عظام جثة) لإعادة تصوّر البداية الأولى للإنسان. ويكاد الفضول الحادّ يخترق كلّ السنوات السحيقة لكي يعرف ما هو النشاط الفكري الذي مارسه الإنسان الأول، وماهي الفكرة الاولى التي قدحت في مخيلته، وكيف تعامل مع محيطه، وبماذا فسّر وجوده، وكيف اهتدى إلى معضلات الوجود.

هي أسئلة ضخمة لمن يجذّف في الهواء، لكن ثمّة دراسات انثربولوجية بُذلت بمثابرة وعناد كبيرين قرّبت لنا الصورة.

ويمكن القول إنّ الإنسان تدبّر شؤونه الحياتية من مأكل ومشرب ومأوى وإشباع جسدي، إلا أنّ ثمّة إحساس بالخوف ظلّ يسيطر عليه، فاكتشف قوته وبراعة حيله في اصطياد الحيوانات والغوص في أعماق البحار وتسلّق الجبال واستئناس بعض الحيوانات، أي أنه استطاع تصريف قواه العقلية والجسدية في ما قدر عليه، بينما تواجد وسط عشرات الظواهر الطبعية، فشعر أمامها بالعجز والخوف وكان عليه البحث عمّا يحيدها أو يتصالح معها شعورياً حتى تستقرّ نفسه وتخضع جوارحه لها بالتسليم والانقياد شرط أن لا تؤذيه. ولأنه كائن مبرمج على الإيمان منذ الأزل أخذ يبحث عن إله، إله يلوذ به إن عجز عن التصرّف ويبتهل إليه طلباً لحاجة أو دفعاً لمكروه، إله يخاطبه في ضعفه وعجزه ويركن إليه في الملمّات العظيمة حتى وإن كان حجراً أو كوكباً أو شجرة. هو بحاجة إلى شيء ملموس يمنح لذاته استقراراً وتوازناً نفسياً.

وما الاشكال التي اتّخذها الإنسان كآلهة إلاّ صورٌ مشتتة ذهنياً بسبب عدم المعرفة ولكي يوقف جهده المبذول عن البحث عن الإله وإسكات نزعةٍ فطرية إنسانية زُرعت في أعماقه.

وقد دلت الأبحاث والدراسات الانتروبولوجية والأثرية على وجود معتقدات

دينية لدى هذا الإنسان القديم وتوجّهات روحية معينة، ولكن من الصعوبة بمكان تحديد الكيفية التي كان يفكر بها ذلك الإنسان (البيالوتي) ومعرفة التصرفات والمعتقدات الخاصة به والحياة الاجتماعية التي كان يحياها بشكل دقيق نظراً لعدم ظهور الكتابة في ذلك الوقت. وفي هذه الحالة لم يجد الدارسون من علماء الانثروبولوجيا أمامهم سوى المخلّفات التي تركها ذلك الإنسان فانطلقوا منها لدراسة المفهوم الديني لهذا الإنسان، سواء كانت رسومات أم منحوتات عثر عليها في الكهوف والمقابر العائدة له.[١]

إنّ تشكّل الآلهة وتعدّدها في مواقع مختلفة يشي بأنّ تلك الحياة طغت عليها مفاهيم عقدية أثّرت في النزعة التوحيدية لدى إنسان تلك المراحل، ونحمل سبب هذا التغيّر إلى التباعد المكاني والزماني عن أول وجود للإنسان ودخوله في تجمعات باحثة عن الأمان والاكتفاء الغذائي، فابتعادهم عمّن ربطهم بالتوحيد من خلال نبوّة أبيهم آدم جعل المخيّلة تنشيء تصورات جديدة للإله أو تضفي على الأصل تخيّلات ومفاهيم مستحدثة. ولعدم وجود سجّل مدون (كتاب مقدّس) تحولت التعاليم الدينية إلى مجموعة من الحكايات والأخبار، حتى إذا طال الأمد وكثرت الهجرات وتوزّع الناس في مشارق الأرض ومغاربها كان هاجس وجود الله حاضراً في أذهانهم، إلا أنه حضور مادي، فما يؤثر في حياتهم ولا يستطيعون التغلّب عليه يكون إلهاً. هذا ما يفسّر تعدد الآلهة للأجرام السماوية، ولذلك مثلت الظواهر الطبيعية، من رعد وبرق ومطر وقمر وشمس، آلهةً يُخشى بطشها وغضبها لعدم مقدرة الإنسان على السيطرة عليها أو معرفة أسباب حدوثها، فتنسب إلى غضب الإله. ولكثرتها تعدّدت صور الآلهة كأبناء وبنات، إذ لم تكن فكرة الإله الواحد حاضرة.

ويمكن ربط تفسير تعدّد الآلهة إلى العقلية المجسّدة التي يحملها الإنسان بحيث طبّق القوانين التي يخضع لها على الإله، فإذا كان قانون وجوده قد تمّ عن طريق التناسل فلا بدّ أن يوجد الإله بنفس الطريقة، وإذا حدث وأن تكاثر جنسياً فلا بدّ أن يتكاثر الآلهة بنفس الطريقة، وإذا كان يمرض فالإله يمرض، وإذا كان له جسم يتموضع في مكان فلا بدّ أن يكون للإله مكان يتموضع فيه. ولهذا نشأت الأساطير

(١) نزار يوسف: الحكمة بين الإله والسلطان.

عن الآلهة وفق القانون البشري وليس خارجاً عنه، ولهذا أيضاً تحفل أساطيرهم بالتزاوج بين الآلهة، ولأنّ ثمرة التزاوج أبناء فقد اكتسب كلّ ما لا يُلمس ويُرى صفة الإله.

وحين اطمأن الإنسان القديم لهذه الفكرة أراد أن يكون إلهه قريباً منه دائماً فجسّده من خلال منحوت (صنم) أو شجرة قريبة منه أو شيء يراه كالقمر أو الشمس أو الكواكب.

وفكرة تجسيد الإله في صور مادية ظلت سارية عبر العصور حتى تمثلت في ادّعاء أنّ عيسى عليه السلام هو الله أو ابن الله تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيرا.

وكلما عدنا إلى الخلف نجد أنّ حيرة البحث عن الإله المجسّد حاضرة منذ القدم، ولم يسلم من هذه الحيرة حتى الأنبياء، وقد ذكر القرآن هذه الحيرة في قصة إبراهيم عليه السلام.(1)

وحيرة النبي إبراهيم عليه السلام إزاء ثلاثة كواكب وفق الآية (كوكب - قمر- شمس) قد يكون قادماً من أثر الثقافات أو الديانات التي عبدت الكواكب أو القمر أو الشمس، وبسرد القرآن لهذه الحيرة هو بيان وإسقاط ألوهيتها بالحجّة، إذ لا يمكن أن يأفل الإله ويترك خلقه وقتاً من الزمن، فتصبح الآية دليل إسقاط أولوهيةٍ سادت في زمنيته. ونلحظ أيضاً من الآية الكريمة أنّ العقل السليم لا يقف عند إلهٍ تتمّ صناعته وحمله وتهشيمة كالأصنام مثلاً، حتى وإن كان رمزياً يحمل دلاله إله.

وقد كانت الآلهة تتشكّل وفق حجم الخشية من المعبود، ولكي يظهروا الخضوع المطلق للإله كان العبّاد يقومون بتجسيد المعبود كرمزية له وحمله معهم أو نصبه داخل الدار أو في المعبد الذي يختارونه للعبادة. وأرجّح أنّ صناعة الأصنام وعبادتها جاءت من هذا الطريق وليس من كون الصنم تجسيداً لرجلٍ صالح مات

---

(1) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ* وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ *إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ - (سورة الأنعام: ٧٤-٧٩).

فصُنع له صنمٌ للتذكير به ثم عُبد في مرحلةٍ تالية، أي أنّ المنشأ الأول لظهور الأصنام كان تشكيلاً للإله المتخيّل في أذهانهم.

وهذا ما نجده متمثّلاً في رمزيته عند الديانة الزرادشتية مثلاً، فزرادشت بشّر بالقوة الشافية للعمل الصالح والقوة الخيرة، وتمثّل النار والشمس رمزاً للمجوسية، ومن هنا يأتي تقديس المجوس للنار، ليس لكونها هي المعبود بل لكونها تمثيلاً لنور أو حكمة أهورامزدا (الإله)، ولذلك يحرص الزرادشتيون على ألاّ تنطفئ في معابدهم، وهو ما جعل أصحاب الكثير من الديانات الأخرى يفسّرونه على أنّ الزردشتيين يعبدون النار.

كما أنّ نقل الخبرات والمعارف كان بطيئاً بسبب ضعف الاتّصال واختلاف الألسن[1]، إذ كانت وسائل التواصل تعتمد على الحيوانات التي احتاج استئناسها زمناً طويلاً.

وأيّ نمو وتطور، مهما كان بسيطاً، لم يحدث بين ليلةٍ وضحاها، فقد تعاقبت أجيال كثيرة لنقل اكتشاف النار أو حكاية الملبوسات (إذ كان اكتشاف الإبرة ثورة صناعية ضخمة في حينها) أو الزراعة أو العمارة، وكانت كلّ مرحلة يتم فيها اكتشاف سرّ من أسرار الحياة في جهة ما من هذا الكون، وانتقاله كخبرة بشرية وتداولها والعمل بها يحتاج سنوات طويلة، إضافةً إلى تأخر انتقال الخبرات وتصديرها، إذ يمكن لتلك الخبرات أو الاكتشافات أن تقبع في رقعة جغرافية ما ولا تنتقل، خاصةً إذا كانت تلك المجموعات منغلقة على نفسها. وأعتقد أنّ الحروب أسهمت في تبادل الخبرات، إذ تصبح المجموعات باحثةً عن بسط نفوذ واكتساب موارد بينما تكون مجموعات أخرى في حالة دفاع عن مكتسباتها البسيطة، وبالتقاء حالتي البحث عن مكاسب والدفاع عنها تنشب الحروب، ولأنّ الطرفين يسعيان إلى الانتصار كان كلّ منهما يبحث عن الوسائل الرادعة لكفّ أذى الآخر، فتولدت خبرات عديدة تمّ تناقلها بين الناس، ويُضاف إلى تبادلية الخبرات إخضاع المهزوم لمعتقدات المنتصر.

وقد جاءت المؤثرات في معتقد الآخر من طرق عدة، فحين تناثرت البشرية في

---

(١) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ - (الروم: ٢٢).

الصحارى والجبال والأودية والبحار وفي السهول وفي كلّ فجاج الأرض، ومع تنوع الطقس في بيئات المجاميع البشرية وتأقلمهم معها، حتى إذا خرجت إلى محيطٍ أخر اكتسبت ثقافته، وهي ثقافة مفضية إلى تبادل الأفكار والمعتقدات أيضاً. وأي تجمّع بشري أسهم في تنامي المعتقدات الدينية وتباينها. وهناك أمم سادت وبادت، منها ما تمّ الوقوف على وجودها من خلال مدونات أو من خلال الحفريات، وتكاد جميعها تجمع على أنّ الإنسان لا يمكن له أن يتواجد من غير الانشغال بفكرة الإله.

ونحن كمسلمين نؤمن أنّ فطرة الإنسان هي التوحيد، وأنّ الله قد أخرج من ظهر آدم كل ذّريته[١] وأشهدهم على ربوبيته[٢] فشهدوا بذلك. والذين شهدوا بالتوحيد (من كان قريباً من عهد النبوة من أبناء آدم) حدث لهم اعتوار عقدي، فكان من فضل الله إرسال الرسل لتصحيح عقيدة التوحيد لدى البشرية جمعاء، فعدل الله يقتضي تبليغ رسالته إلى جميع البشر لكي لا تكون لأيّ أمّةٍ حجّة[٣]. وقد تفاوتت

---

(١) ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ - (سورة الأعراف: ١٧٢).

(٢) (وروى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سُئل عن هذه الآية فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها فقال: إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية، قال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره، فاستخرج منه ذرية، قال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون، فقال رجل: يا رسول الله ففيم العمل؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنّ الله عزّ وجل إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخل به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخل به النار. - (رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وابن جرير وابن حبان في صحيحه).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به؟ قال: فيقول: نعم، قال: فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي. - (متفق عليه).

(٣) قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ - (سورة يونس)

ويقول الله عزّ وجل: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ =

المرويات عن عدد الأنبياء والمرسلين، فوصل إحصاء بعضها إلى الآلاف[1]، ومهما كان العدد فلا بدّ من تحكيم العقل، فمع الأمم المتعاقبة والمبتعدة مكانياً وزمانياً يفترض أنّ لكلّ أمة رسولاً أو نبياً، وقد لاحظنا أنّ في زمن بني اسرائيل أنّ الأنبياء

= الْمُكَذِّبِينَ﴾ - (سورة النحل).

وقال تعالى: (وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) - (سورة النحل).

(١) عن أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَم الأَنْبِيَاءُ؟ قَالَ: مِائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفاً. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَم الرُّسُلُ مِنْ ذَلِكَ؟ قَالَ: ثَلاثُ مِائَةٍ وَثَلاثَةُ عَشَرَ جَمًّا غَفِيرًا. قُلْتُ: مَنْ كَانَ أَوَّلُهُمْ؟ قَالَ: آدَمُ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَبِيٌّ مُرْسَلٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، خَلَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وَسَوَّاهُ قَبْلا. يَا أَبَا ذَرٍّ: أَرْبَعَةٌ سِرْيَانِيُّونَ: آدَمُ وَشِيثُ وَأَخْنُوخُ، وَهُوَ إِدْرِيسُ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ خَطَّ بِالْقَلَمِ، وَنُوحٌ، وَأَرْبَعَةٌ مِنَ الْعَرَبِ: هُودٌ وَشُعَيْبٌ وَصَالِحٌ وَنَبِيُّكَ يَا أَبَا ذَرٍّ، وَأَوَّلُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُوسَى، وَآخِرُهُمْ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلامُ، وَأَوَّلُ الْمُرْسَلِينَ آدَمُ، وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَمْ كِتَاباً أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ؟ قَالَ: مِائَةُ كِتَابٍ وَأَرْبَعَةُ كُتُبٍ، أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى شِيثَ خَمْسِينَ صَحِيفَةً، وَعَلَى أَخْنُوخَ ثَلاثِينَ صَحِيفَةً، وَعَلَى إِبْرَاهِيمَ عَشْرَ صَحَائِفَ، وَأَنْزَلَ عَلَى مُوسَى قَبْلَ أَنْ يُنَزِّلَ التَّوْرَاةَ عَشْرَ صَحَائِفَ، وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَالزَّبُورَ وَالْفُرْقَانَ. قُلْتُ: رَسُولَ اللَّهِ، مَا كَانَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ؟ قَالَ: كَانَتْ أَمْثَالاً كُلُّهَا، كَانَ فِيهَا: أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمُسَلَّطُ الْمُبْتَلَى الْمَغْرُورُ، إِنِّي لَمْ أَبْعَثْكَ تَجْمَعُ الدُّنْيَا بَعْضَهَا إِلَى بَعْضٍ، وَلَكِنْ بَعَثْتُكَ لِتَرُدَّ عَنِّي دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنِّي لا أَرُدُّهَا وَلَوْ كَانَتْ مِنْ كَافِرٍ، وَكَانَ فِيهَا أَمْثَالٌ، وَعَلَى الْعَاقِلِ أَنَّ لَهُ سَاعَاتٍ: سَاعَةً يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ، وَسَاعَةً يُحَاسِبُ فِيهَا نَفْسَهُ، وَسَاعَةً يُفَكِّرُ فِي صُنْعِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ، وَسَاعَةً يَخْلُو فِيهَا بِحَاجَتِهِ مِنَ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ، وَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ لا يَكُونَ ظَاعِناً إِلا لِثَلاثٍ: تَزَوُّدٍ لِمَعَادٍ، أَوْ مَرَمَّةٍ لِمَعَاشٍ، أَوْ لَذَّةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ، وَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ بَصِيراً بِزَمَانِهِ، مُقبِلاً عَلَى شَأْنِهِ، حَافِظاً لِسَانَهُ، وَمَنْ يَحْسِبُ كَلامَهُ مِنْ عَمَلِهِ قَلَّ كَلامُهُ إِلاَّ فِيمَا يَعْنِيهِ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا كَانَتْ صُحُفُ مُوسَى؟ قَالَ: كَانَتْ عِبَراً كُلُّهَا، عَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْقَدَرِ ثُمَّ هُوَ يَلْهُو، وَعَجِبْتُ لِمَنْ رَأَى الدُّنْيَا وَتَقَلُّبَهَا بِأَهْلِهَا ثُمَّ اطْمَأَنَّ إِلَيْهَا، وَعَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْحِسَابِ غَداً كَيْفَ لا يَعْمَلُ. - (المنتظم في تاريخ الأمم لابن الجوزي).

وقال الشيخ الإمام عبد العزيز بن باز - رحمه الله - بعد ذكر حديث أبي ذر وأبي أمامة - رضي الله عنهما: وجميع الأحاديث في هذا الباب ضعيفة، بل عدّ ابن الجوزي حديث أبي ذر من الموضوعات، والمقصود أنه ليس في عدد الأنبياء والرسل خبر يعتمد عليه، فلا يعلم عددهم إلا الله سبحانه وتعالى لكنهم جمّ غفير . . . (مجموع فتاوى الشيخ: ٢/٦٦-٦٧).

يتجاورون مكاناً وزماناً، وقصّتا إبراهيم ولوط عليهما السلام خير دليل على هذا، وكذلك قصة موسى وشعيب عليهما السلام، وقصة زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام بها من المجاورة والتداخل ما يؤكد ذلك. وهذا التجاور والتزامن رحمةٌ من الله عزّ وجل، فإذا حدث هذا لأمةٍ واحدة فمن رحمته تعالى أن تصل إلى بقية المعمورة بإرسال الرسل والأنبياء.

لهذا لا يمكن اقتصار الرسالات السماوية على منطقتنا العربية فقط، فقد تناثرت المعلومات عن ديانات انتشرت في قارة آسيا بأعداد كبيرة (أُطلق عليها مصطلح الأديان الشرقية) مثل: الهندوسية والبوذية والسيخية والكونفوشيوسية والزردشتية والديانات الهندية والصينية بها من التنوع والكثرة ما يجعل إحصاءها ومعرفة مبادئها وقيمها بحاجة إلى مجلدات، وهناك أيضاً الديانات اليونانية والمصرية القديمة والديانات الأفروأمريكية والديانات الأفريقية، أي أنّ هناك مئات الديانات التي قدّمت نفسها وساهم في تقديمها - حديثاً - ثورة المعلومات والاتصالات، وعند استعراضها يؤكّد أصحابها أنّ دياناتهم سماوية[1]، فمثلاً تعامل الساميون الأوائل مع

---

(١) وقبل أن يعرف الناس الكتابة بزمان طويل كانت الصلوات تقام في المعابد للآلهة. ورغم ذلك فإنّ خاصة المصرين كانت تعتقد بوجود إلهٍ عظيم حكيم خالد لا يستطيع إنسان أن يدرك كنهه ولكنه يراقب الناس ويستمع إلى صلواتهم ودعائهم. وفي ما يلي جزء من ترنيمة كان الكهنة يرتّلونها كلّ يوم في معبد آمون بطيبة، ومعانيها تعطي صورة واضحة عن العقيدة الصحيحة للمصريين القدماء:

الله واحد أحد ولا شريك له
الله واحد وقد أبدع مخلوقاته وحده
الله روح غامضة لا يراها الإنسان، خفيّة عن كلّ شيء
الله روح الأرواح، روح مصر المقدسة
الله هو الله منذ البداية، هو الله قبل أن يكون شيء
هو سيد المخلوقات وأب الجميع، هو الإله الدائم
الله هو الموجود الخالد الذي لا يفنى، لابداية له ولا نهاية
الله لم تكن له بداية، وليس له نهاية، وسيظل كذلك
على الدوام. . . .
الله خفي، لا يعرف إنسان شكله ولا شبهه
لا تعلم الآلهة مداه ولا الناس. . .

الفرس على اعتبار أنهم أهل كتاب[١]، ولهم دين سماوي، مثلهم في هذا مثل اليهود العبريين، نسبة إلى ديانتهم الزرادشتية التي تنسب إلى الحكيم الخرافي زرادشت[٢]، وهناك تعاليم صينية[٣] وبوذية، وفي الفيدا - أقدم المصادر المدونة باللغة السنسكريتية - عديد من الأساطير التي تنتمي إلى الكيانات والأمم الآرية، ومن الخطأ افتراض أنّ الأساطير اللاتينية والسلافية والأجناس الشمالية بعامة - كقدامى الألمان والكلت - مأخوذة أو مستمدة مباشرةً من الأساطير الهندية[٤]، فلكلّ أمّةٍ رسالتها التي تقدّسها وتضعها في إطار ديني مقدّس.

وما تمّ تناقله كثقافة إسلامية واقتصار المعرفة على خمسة وعشرين رسولاً ونبياً ذُكروا في القرآن، واقتصارهم على رقعة جغرافية متقاربة تجعل الكثيرين (من المسلمين) لا يكترثون ببقية الرسالات التي ظهرت على أيدي أنبياء لم يذكروا في

= الله هو الحق، ويحيا على الحق، إنه الملك الحق
الله هو الحياة، ولاحياة للناس بدونه، هو البداية،
هو الواحد الأحد. . . - (كمال الحناوي: **أساطير فرعونية**، منشورات المكتبة العصرية).

(١) شوقي عبد الحكيم: **موسوعة الفلكلور والأساطير**.

(٢) عاش زرادشت بين ٦٦٠-٥٨٣ قبل الميلاد.

(٣) وهناك كتاب التاو تي تشينغ لحكيم صيني يدعى لاو-تسو وضعه في مطلع القرن الخامس قبل الميلاد. وقد قدّم الكاتب الكبير فراس السواح لهذا الكتاب ذي الحجم الصغير، إلا أنّ أثره كان تأثيراً واسعاً على الفكر الصيني والفكر الشرق أقصوي عموماً، ولا يقارن بأي إنجاز فكري آخر. لم يتّبع لاو-تسو الأسلوب الفلسفي التقليدي، وإنما صاغ أفكاره على شكل حِكَم قصيرة ومختزلة، وبأسلوب على درجة عالية من التجريد، الأمر الذي جعل الباحثين شرقاً وغرباً، وحتى يومنا هذا، في جدل بخصوص تفسير وتأويل مقولاته. - محاضرة أقيمت لفراس السواح في مركز تريم للعمارة والتراث في دمشق.

(٤) في الهند توجد أسرتان من الآلهة هي الآلهة الفيدية والبراهمية، والفيدية تنتمي للعصور المغرقة في القدم، وتبدو كما لو كانت قد عبدت من شعوب زراعية غير مستنيرة، أما اللاهوت البرهمي فمعظمه منبثق بشكل رفيع من سابقه الفيدي، وبالتدريج اتّخذ مكانته كأبسط عبادة من الفيدية بقرون قليلة قبل مولد المسيح .
ولم تمضِ أكثر من خمسة أو ستة قرون حتى اتّخذ هذا البناء الأسطوري تحويراً أو انشقاقاً جديداً تحت اسم البوذية وأصبح الدين الرئيس للهند. - (**موسوعة الفلوكلور والأساطير**، شوقي عبدالحكيم).

القرآن[1]، وهذا إغفال لتطور الفكر الديني، خاصةً مع شيوع العديد من تعاليم بعض الديانات ذات الجوهر التوحيدي. وكما حدث من تحريف للرسالات السماوية (في اليهودية والمسيحية) نال التحريف تعاليم الديانات الأخرى. وأعتقد أنّ السبب في تحييد كثير من الديانات البعيدة جغرافياً عن الرسالات المتأخرة كان بسبب الانتقاء، فكلّ ديانة سماوية تأتي حاملةً يقيناً بأنها النسخة النهائية تجعل معتنقيها يقومون بتنقية مصادرهم وكتاباتهم ممّا سبق، ولولا الأساطير وانتشارها كحكايات لغاب الكثير منها.

والتنقية شملت كتب التاريخ والسير لبعض الديانات التي لم يأتِ عليها القرآن بذكر وإن ذكرت فهي تذكر كحكاية أمّة وليس كديانة أمّة.

كما تمّ حصر الديانات برقعة جغرافية واحدة، ويعود ذلك لكون الرسالات الأممية المتأخرة الثلاث (اليهودية والمسيحية والإسلامية) تواجدت في رقعة متقاربة، بينما ما تباعد عنها أو ما سبقها من ديانات أممية لم تلتفت إليها بتاتاً واعتبرتها منسخوة، وحكم المنسوخ أن لا تُذكر تعاليمه.

إلاّ أنّ أثر تلك الديانات الأممية ظهر وانعكس على الديانات الثلاث، فكلّما استقرّت ديانة منها في أمّةٍ من الأمم أحدثت فيها تغييراً وصبغتها بثقافتها ودياناتها القديمة، وكلّما مضى الزمن متقدّماً كان من الصعب فصل الداخل على المدخول كممارسات معيشية وفي أحيان تعبدية.

وأعتقد أنّ ما كان قبل الطوفان قد مُحق تماماً، فلم تصل منه تعاليم مدونة، وربما توصّل الإنسان إلى حفريات، وهذا اتّساقٌ مع ما جاء في الرسالة الإسلامية، بينما هناك كتّاب يرون أنّ أسطورة الطوفان منسخوة وأنّ كلّ أمّة أُصيبت بالطوفان... وحين يقول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (النساء: ١٦٣) لايعني اقتصار النبوة على مكانٍ محدد، فقد يكون الرسل والأنبياء الذين أرسلهم الله بعد نوح شملوا المعمورة، كما أنّ الآية لا

---

(١) يقول الله عزّ وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ - (سورة غافر: ٧٨).

تحجر إرسال الرسل على فترة ما بعد نوح، إذ إنّ معرفتنا الدينية من خلال القرآن تؤكّد لنا أنّ الله عزّ وجلّ بعث رسلاً وأنبياء قبل نوح كآدم وإدريس مثلاً.

ورؤية خارطة أسماء الأنبياء الذين ذُكروا في القرآن الكريم يتوزعون على ما اصطُلح على تسميته بالشرق الأوسط - الذي نعرفه بخارطته الحديثة - لا يلغي وجود أمم ذات رسالات سماوية انقرضت بصورة أو أخرى، ويصبح اختيار الموقع الجغرافي للديانات المتأخرة الثلاث كتواجد يشبه الزمّ أو الضمّ والجمع في منطقة تقترب من أرض الميعاد، فبعد أن تناثرت الرسالات والديانات شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً حدث الزمّ والضمّ الذي يستوجب أن يكون في منطقة محدّدة لتحقيق نبوءة المعركة الفاصلة أو الوصول إلى أرض الميعاد ومن ثم المحشر (والمعركة الفاصلة تؤمن بها الديانات المتأخرة الثلاث).

والمحشر بحدّ ذاته هو تجمّع الخلائق على أرض غير هذه الأرض يوجدها ربّ العالمين: فهل يقتصر المحشر على أهل الشرق الأوسط فقط،[1] أو أصحاب الديانات الثلاث (اليهودية والمسيحية والإسلام)؟

وآيات القرآن الكريم المتعددة والمخبرة بما سيكون عليه الناس في المحشر

---

(١) قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً ۞ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً ۞ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً﴾ - (طه: ١٠٢-١٠٤).

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ۞ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ - (الروم: ٥٥-٥٦).

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ - (فاطر: ٣٧).

وقال تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۞ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ۞ قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ -(المؤمنون: ١١٢-١١٤).

وقد جاء في حديث «الصور» من رواية أبي هريرة: أنه قرن عظيم، الدارة منه بقدر السماوات والأرض، ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام. وجاء في الحديث: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنى جبهته، وانتظر أن يؤذن له. فقالوا: يا رسول الله، كيف نقول؟ قال: قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا.» - (تفسير ابن كثير).

ويوم الحساب ليست مقتصرة على صنفٍ من البشر أو محدّدة لأمّة دون أخرى، بل شملت كلّ البشر بخطابٍ أممي.

يقول الله عزّ وجلّ:

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً * أَوَلاَ يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً * فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً * ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً * ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيّاً * وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيّاً﴾ - [مريم: ٦٦-٧١].

ويقول جلّ في علاه:

﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ - [الرعد: ٥].

ويقول تعالى في سورة:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ - [يس: ٧٧-٨٠]. (١)

وقول العظيم الرحمن الرحيم:

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ - [الروم: ٢٧]

وقول رب الأرباب:

﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ - [الجاثية: ٢٨].

---

(١) نزلت هذه الآية في أبي بن خلف الجمحي حين جاء بعظم رميم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: يا محمد، أترى الله يحيي هذا بعدما قد رمّ؟ - (تفسير ابن كثير).

وقال عزّ من قائل:

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاَءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لاَ تَعْلَمُونَ ۞ وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ۞ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ - [الأعراف: ٣٨-٤٠].

لو محصنا الآيات السابقة فسنجد أنّ الخطاب عام وشامل لكلّ الناس مما يعني أنّ كل أمة من الأمم تمّ تبليغها برسولٍ أو نبي على وجه المعمورة، إلا إذا افترضنا أنّ ثمة قيامة جمعت كلّ الخلق مع وقوع طوفان نوح. وهذا الافتراض لا يمكن تبيان صحته، إذ لم يشر إليه القرآن الكريم، كما وأن الاحاديث النبوية تشير بوضوح كامل إلى أنّ في يوم القيامة يتحرك الناس إلى كثيرٍ من الأنبياء من أجل الشفاعة لبدء الحساب، ويذكر أدم عليه السلام. وهذا يعني أنّ الخلق جميعاً يجتمعون على صفحة مكانٍ واحد منذ أدم الى أمة محمد عليه الصلاة والسلام[١].

---

(١) حدثنا أبو الربيع العتكي حدثنا حماد بن زيد حدثنا معبد بن هلال العنزي حدثنا سعيد بن منصور، واللفظ له، حدثنا حماد بن زيد حدثنا معبد بن هلال العنزي قال: انطلقنا إلى أنس بن مالك وتشفعنا بثابت فانتهينا إليه وهو يصلي الضحى فاستأذن لنا ثابت فدخلنا عليه وأجلس ثابتاً معه على سريره فقال له: يا أبا حمزة إن إخوانك من أهل البصرة يسألونك أن تحدثهم حديث الشفاعة. قال: حدثنا محمد صلى الله عليه وسلم قال: إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلى بعض فيأتون آدم فيقولون له: اشفع لذريتك، فيقول: لست لها ولكن عليكم بإبراهيم عليه السلام فإنه خليل الله، فيأتون إبراهيم فيقول: لست لها ولكن عليكم بموسى عليه السلام فإنه كليم الله، فيؤتى موسى فيقول: لست لها ولكن عليكم بعيسى عليه السلام فإنه روح الله وكلمته، فيؤتى عيسى فيقول: لست لها ولكن عليكم بمحمد صلى الله عليه وسلم، فأوتى فأقول: أنا لها، فأنطلق فأستأذن على ربي فيؤذن لي فأقوم بين يديه فأحمده بمحامد لا أقدر عليه الآن يلهمنيه الله ثم أخرّ له ساجداً فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعطه واشفع تشفع، فأقول: رب أمتي أمتي، فيقال: انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من برة أو شعيرة من إيمان فأخرجه منها، فأنطلق فأفعل ثم أرجع إلى ربي فأحمده بتلك المحامد ثم أخرّ له ساجداً فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعطه =

٧

الحياة قائمة على الولادة والفناء ثم الولادة والفناء في دائرة لا يمكن الوقوف على نقطة معرفة المبتدأ والمنتهى. والحياة - مثلها مثل أيّ كائن حي - لها أطوار وتتمتع بخصائص الكائنات الحية في نموها وتخلّقها، ومن ثم الولادة وعبور أطوار مختلفة حتى تصل مرحلة الفناء الخاص بها. فالنبات يبذر ويفسق وينمو ويثمر ويحصد، وما يتفلت منه أو يحفظ للبذر يقوم بإعادة الدورة، والحيوان يتخلّق ويولد وينمو ويضعف ويموت ويمرّر وجوده عبر التناسل، وكذلك الإنسان إذا مات ترك من يواصل مسيرته، وإلى وقت قريب كانت هذه هي الصورة النهائية للإنسان التي نقف عندها كمنتهى لمسيرة حياتية، لكن ثمة بصيص من احتمالات للعودة أخذ يبشر بها العلم كغمزة تتطلب منا التريث في أحكامنا حول النهاية، إذ بالإمكان أن تكون هناك نهايات متعددة، وربما كانت بداية تلك الغمزة من خلال النعجة (دوللي) أو تنوعت بإعطاء العمر المديد من خلال سلوك الطبّ طريق الخلايا الجذعية، أو جنون بعض العلماء من خلال تجميد الخلايا، إذ يتوقعون أنّ مستقبل العلم يحمل لهم نبوءة إمكانية العودة إلى الحياة. المهم أنّ هناك دعوة للتريث حول النهاية، وهل يمكن لها أن تصبح متعددة المحطات.

وإذا تسللنا إلى هذه الفكرة فهل بالإمكان تخيّل انطباق النهايات المتعددة على الأفراد والأمم سابقاً، وتخيّل أنها كانت فكرة عظيمة أنتجها الإنسان في إحدى طفراته العلمية الضخمة التي ظهرت على سطح الأرض في زمنٍ ما ثم تلاشت واضمحلت من خلال كارثة كونية لم يبقَ من يسجّلها، وبذلك عادت الحياة إلى طور الطفولة الأولى وأعادت نموها مرة أخرى؟[1]

= واشفع تشفع، فأقول: أمتي أمتي، فيقال لي: انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها، فأنطلق فأفعل ثم أعود إلى ربي فأحمده بتلك المحامد ثم أخرّ له ساجداً فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعطه واشفع تشفع، فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقال لي: انطلق فمن كان في قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار، فأنطلق فأفعل. - (صحيح مسلم).

(١) يقول الله عز وجل: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ - [الأنبياء: ١٠٤]

لنبدأ مع المخيلة في التواجد الأول، وذلك مع هبوط أبوينا آدم وحواء عليهما السلام (وقد رحمنا الأوائل بتصور كيف حدث التناسل والتكاثر) ومع هذا التواجد الأول كان التوحيد حاضراً، إذ لم يكن الإنسان قد ابتعد مكانياً أو زمانياً عن ذلك، فالأب والأم هابطان من الجنة ويعلمان تماماً أنهما يقضيان عقوبة ذنبٍ اقترفاه، وكلاهما يحمل الندم ويداوم على الاستغفار، وبالضرورة فإنّ ذريتهما يتلقّيان نفس المبادىء والقيم، ولهذا فإنّ أول إثمٍ اقتُرف كان مبعثه حبّ التملك والتميّز[1]، أو ما

---

(١) قال الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ۞ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ۞ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ۞ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۞ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ - [المائدة: ٢٧-٣١].

وقد ذكر بن كثير في البداية والنهاية أن آدم كان يزوج ذكر كل بطن بأنثى الأخرى، وأن قابيل أراد أن يتزوج بأخت هابيل، وكان أكبر من هابيل، وأخت قابيل أحسن، فأراد قابيل أن يستأثر بها على أخيه، وأمره آدم عليه السلام أن يزوجه إياها فأبى، فأمرهما أن يقربا قربانًا.

وذهب آدم ليحج إلى مكة، واستحفظ السماوات على بنيه فأبين، والأرضين والجبال فأبين، فتقبل قابيل بحفظ ذلك.

فلما ذهب قربا قربانهما، فقرب هابيل جذعة سمينة، وكان صاحب غنم، وقرب قابيل حزمة من زرع من رديء زرعه، فنزلت نار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل، فغضب وقال: لأقتلنك حتى لا تنكح أختي، فقال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

وذكر أبو جعفر الباقر أنّ آدم كان مباشراً لتقربهما القربان، والتقبل من هابيل دون قابيل، فقال قابيل لآدم: إنما تقبل منه لأنك دعوت له ولم تدعُ لي، وتوعّد أخاه فيما بينه وبينه، فلما كان ذات ليلة أبطأ هابيل في الرعي، فبعث آدم أخاه قابيل لينظر ما أبطأ به، فلما ذهب إذا هو به فقال له: تقبّل منك ولم يتقبّل مني، فقال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ فغضب قابيل عندها وضربه بحديدة كانت معه فقتله.

وقيل: إنه إنما قتله بصخرة رماها على رأسه وهو نائم فشدخته.

وقيل: بل خنقه خنقاً شديداً وعضاً كما تفعل السباع فمات.

وبجبل قاسيون شمالي دمشق مغارة يقال لها مغارة الدم، مشهورة بأنها المكان الذي قتل قابيل أخاه هابيل عندها، وقوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ - [المائدة: ٣١].

يقال عليه (الحسد)، وهو ما يعني تغلّب المادي على الروحي وانتصار الرغبة في الاستحواذ على الزهد والعفاف، مما سهّل الطريق للإقبال على الدنيا وفق قانون الغلبة.

وإذ يمثّل قابيل روح الشر في البشر[1] إلاّ أنّ فعله صنع الحكاية الثانية (بعد حكاية الخروج من الجنة) ومن هنا نلحظ أنّ الحكاية هي التي تصنع الحياة، فهي في صورتها الأولى أحداث لكن سرعان ما تتحول مفردات الحكاية إلى حياة إذ تقوم بتجميع كل حدث وتضعه في زمنه وتُظهر فيما بعد كيف لذلك الحدث العابر تجاذب مع بقية الأحداث صانعاً حكاية وحياة.

ولو أنّ تواجد آدم عليه السلام في الجنة لم تقابله حكاية الإغواء بالأكل من الشجرة المحرّمة (أو المنهي عنها) لما نتج حدث أو فعل أو حكاية أو حياة، فالحكاية بحاجة دائماً إلى إغواء لكي تكمل سردها وتشويقها!...

ويغيب الجزم في سيرة البشرية قبل طوفان نوح عليه السلام، إذ تغرق أحقاب زمنية مهولة في التكهنات، ومع أنّ بعض المرويات الدينية تحمل أخباراً مشفّرة وموجزة تلغي كلّ شيء ما عدا خبر حلول الغرق والنجاة، وفي أحيان تُقارب الزمن لدرجة لا تتّسق مع معطيات العلم الحديث، كما يحدث إلغاء لوجود أمم أخرى أو رسل قبل نوح، وإذا كان آدم عليه السلام نبيّاً فهو أول الأنبياء، كما جاء في الحديث الذي أخرجه ابن حبان في صحيحه، أنّ النبي صلى الله عليه وسلم سُئِلَ عن آدم: أنبي هو؟ قال: نعم نَبِيٌّ مُكَلَّمْ. ولكنه ليس برسول لما جاء في حديث الشفاعة أنّ الناس يذهبون إلى نوح فيقولون: أنت أول رسول بعثه الله إلى الأرض. ويقول

---

(١) حدث عندما أيقن قابيل من قتل أخيه حمله على ظهره سنة. وقال آخرون: حمله مائة سنة، ولم يزل كذلك حتى بعث الله غرابين.
ويقال إنّ الغرابين أخوان فتقاتلا فقتل أحدهما الآخر، فلما قتله عمد إلى الأرض يحفر له فيها، ثم ألقاه ودفنه وواراه، فلما رآه يصنع ذلك قال: يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي، ففعل مثل ما فعل الغراب، فواراه ودفنه.
وقد ذكر مجاهد أنّ قابيل عوجل بالعقوبة يوم قتل أخاه، فعلقت ساقه إلى فخذه وجعل وجهه إلى الشمس كيفما دارت تنكيلاً به وتعجيلاً لذنبه وبغيه وحسده لأخيه لأبويه. (**البداية والنهاية** لابن كثير).

بعضهم إنّ في هذا النص تصريح بأنّ نوح أول الرسل[1]، فكم كان عدد الأنبياء الذين سبقوا ظهور أول الرسل بدءاً من آدم وصولاً إلى نوح عليهما السلام؟ وهل يمكن افتراض أنّ البشرية انقرضت تماماً مع الطوفان؟ وإذا كنّا نقول إنّ لكلّ إنسان قيامته وتكون بموته، فهل كانت للبشرية قيامات تنتهي بحلول كارثة طبيعية تزيل كلّ شيء وتمكّن الناجين من بدء حياتهم من البداية الأولى في أرض جديدة؟

إنّ هذا التخيل يعطينا تفسيراً للأمم التي بادت ولم يعد لها من ذكر.

ثم هل كان الطوفان مغرقاً كلّ الكون أم اقتصر على الرقعة الجغرافية التي نعرفها الأن بالشرق الأوسط يضاف إليها بعض الدول الواقعة في حوض البحر الأبيض المتوسط؟

وهو السؤال المباح الذي يمكن لأي انسان أن يسأله الآن حيال مواقع جغرافية تقع في أمريكا اللاتينية أو أمريكا الشمالية (قبل أن تُعرف بهذا الاسم) أو في قلب آسيا أو في أدغال أفريقيا أو في استراليا؛ فكلّ هذه المواقع بعيدة عن موقع طوفان نوح عليه السلام، ومع ذلك فالنص الإخباري عن الطوفان يقول إنه أغرق كلّ الأرض. . . أم ننقاد الى أنّ كلّ أمّة كان لها طوفانها الخاص، إذ تسجّل بعض المدونات في أمم أخرى قصة الطوفان الذي أغرق الارض، فإلى أيّ إخبار يمكن لنا أن ننساق؟ بمعنى، هل غرقت الأرض بكلّ ما عليها أم أنه غرق جزئي بحيث يسمح أن يكون لكلّ أمة غرقها الخاص ويجعل الانتقال إلى فكرة أنّ كلّ موقع جغرافي خضع لكارثة طبيعية أبادت كلّ الاحياء الذين عاشوا في ذلك الموقع وانتهت حياتهم بقيامتهم، ومع انتهائهم أخذت الحياة تتشكّل من جديد في أطوار مختلفة إلاّ أنّ الناجي من هؤلاء يبقي كالجين الوراثي لكلّ أمة لكي ينقل لخلفه مجمل الخبرات الإنسانية السابقة حتى وإن كان في حدوده الدنيا كون الحياة كانت فقيرة في وسائلها وتواصلها لدى الناجين (بعد أن تقوض كلّ شيء بفعل الكارثة الطبيعية)؟

ليس هناك يقين حتمي من شيء في هذا المفصل التاريخي، ولو مضينا مع فكرة أنّ الغرق عمّ الأرض وغمرها تماماً فلا بدّ من شمولية الدمار لكلّ ما أنجزه الإنسان قبل وقوع هذا الطوفان، عندها تظل اللغة هي الأداة السليمة التي لم يطلها

---

(١) مجموع فتاوى ابن عثيمين ١/ ٣١٧.

الدمار (من خلال الناجين) بل نمت وتعافت واستُخدمت في نقل الخبرات والمعارف. ومن هنا فقط تصبح الأسطورة هي الطوق الذي تعلق به الإنسان عبر مراحل التاريخ لينقل ما كان عليه سلفه.

والأسطورة على نقيض ما قاله عنها موللر بأنها «مرض من أمراض اللغة»[١] إذ تكون بمرضها استطاعت التخفي والمرور عبر الأيام بما تحمله من طيب زمنها. وحين يقول هوميروس «إن الأسطورة هي التاريخ في صورة متنكرة»[٢] أُحمّل قوله على أنّ الأسطورة استطاعت الهروب من جبروت السلطات المختلفة ومن دمار الطبيعة عبر ألسنة الناس الحاملين لها واستخدموها كزاد حقيقي مكّنهم من عبور مراحل الانقراض والفناء.

ويستقيم رأي العلامة ماكس موللر في تفسيره أنّ كثرة الأساطير يعود سببها إلى عجز اللغة الانسانية في نشأتها الأولى[٣] إذ أنّ العجز اللغوي وتلون الألسنة يجعل كلّ مجموعة تنشىء أسطورتها الخاصة بها فيحدث نوع من الاستقلالية لكلّ اسطورة، استقلالية في تصور الآلهة والمظاهر الكونية التي تحيط بكلّ قوم أو كلّ أصحاب لغة.

لكن ثمة سؤال حول هذا يتمحور مع فرضية فناء العالم ونجاة القلة في سفينة نوح: ألم يكن هذا موحِّداً للغةٍ خاصة؟ وأنّ الذين آمنوا بنوح يتحدثون لغةً واحدة، إذ هكذا يفترض لأنّ استجابتهم لدعوة نوح لأنها كانت بلغةٍ يفهمونها... فماذا حدث بعد رسوّ السفينة؟[٤] وهل مع رسوّها ونزول ركابها استمرّت الحياة القديمة

---

(١) الدكتور محمد عبدالمعيد خان: **الأساطير والخرافات عن العرب**، دار الحداثة.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الدكتور حسين الحاج حسن: **الأسطورة عند العرب في الجاهلية**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

(٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه لما خرج الناس من السفينة نزلوا طرف بابل وكانوا ثمانين نفساً فسمي الموضع سوق الثمانين، فمكثوا حتى كثروا وصار ملكهم نمرود بن كنعان بن حام. افترقت ألسنتهم على اثنين وسبعين لساناً ففهّم الله العربية منهم عمليق وطسم بن لوذ بن سام وعاداً وعبيلاً بني عوص بن إرم بن سام، فنزلت عبيل بيثرب ويثرب بن عبيل، ثم خرجوا منها فنزلوا الجحفة فجاءهم سيل فاجتحفهم فيه فسميت جحفة. وقيل: أول من سكنها يثرب بن قانية ابن مهلاييل بن ارم بن عبيل بن عوص بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام. قالوا: =

التي سبقت الطوفان؟ وإذا مات كلّ شيء خاص بالبشرية بعد الطوفان فهذا يعني أنها بدأت تحبو في طورٍ جديد يؤرّخ له بالبذرة الثانية لولادة حياةٍ جديدة، أما ما قبل الطوفان فقد قامت قيامته وانتهى.

هذا الاحتمال يعدُّ احتمالاً متسرّعاً، خاصةً وأنّ الكتب السماوية ترى اتّصال الأزمنة بعضها ببعض منذ نزول آدم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة.

وترجّح بعض المصادر أنّ الطوفان كان مقتصراً على قومٍ وفي جهةٍ محددة ولم يكن عامّاً شاملاً، وكان مصدر تفسير الهلاك الجماعي قد جاء من التوراة. وسواء حدث الفناء الشامل أم لم يحدث فإنّ الطوفان يعتبره الكثيرون واحداً أو (أيتيما) من أساطير الخلق المبكرة جداً عند مختلف الشعوب، فالطوفان بداية لخلق أرض موعودة جديدة، وموضوع الطوفان ليس بقاصر على تراث الآداب والأساطير السامية[1] بل تواجد عند مختلف الشعوب.

= كان سكان المدينة في سالف الأزمان قوم يقال لهم صعل وفالح، فغزاهم النبي داود عليه السلام فأخذ منهم مائة ألف عذراء. قال: وسلط الله عليهم الدود في أعناقهم فهلكوا، وقبورهم هذه التي في السهل والجبل، وهي التي بجانب الجرف، وبقيت منهم امرأة وكانت تعرف بزهرة وكانت تسكن بها، فاكترت من رجل وأرادت الخروج إلى بعض تلك البلاد، فلما دنت لتركب غشيها الدود فقيل لها: إنا لنرى دوداً يغشاك، فقالت: بهذا هلك قومي، ثم قالت: رب جسد مصون ومال مدفون بين زهرة ورانون. قال: وقتلها الدود. قالوا: وكان قوم من الأمم يقال لهم بنو هف وبنو الأزرق فيما بين مخيض إلى غراب الصائلة إلى القصاصين إلى طرف أحد فتلك آثارهم هناك، وكانت العماليق منتشرة في البلاد وكانت جرهم وقنطورا وطم وجديس باليمامه وبالشام.

وعن زيد بن أسلم أنّ ضبعاً وأولادها رابضة في حجاج عين رجل من العماليق، وكان يمضي أربعمائة سنة ولم يسمع بجنازة، وكانت العماليق قد انتشرت في البلاد فسكنوا مكة والمدينة والحجاز كله، وعتو عتواً كبيراً، فبعث إليهم موسى عليه السلام جنداً من بني اسرائيل فقتلوهم بالحجاز وأفنوهم. - (عمدة الأخبار في مدينة المختار لأحمد عبد الحميد العباسي (توفي قبل القرن العاشر الهجري) تحقيق الشيخ محمد الطيب الأنصاري، طبعة الاسكندرية الأميرية ١٣٣٤هـ).

(١) موسوعة الفولكلور والأساطير العربية.

وقد سجّل جامع الحكايات الباحث بول رادن نصّاً لخرافة طوطمية من أوتاريو يقول النص: «إنّ الإله المهذب نيبوجو الذي جاء بالأصداف الجميلة الباهرة وزيّن بها الأسماك غضب عندما أفشى له طائر عملاق بنبأ أنّ سباع البحر افترست أخاه، فانتقم منها نيبوجو بأن كمن لها =

وقصة نوح المتكررة في مواقع مختلفة من ذاكرة الأمم يمكن لها قلب قاعدة الهرم، بمعنى أنّ البشرية وصلت إلى الذروة ثم وقع حدث كوني ونسف معطيات تلك الحضارة فأعادت البشرية بناء وجودها حمّالة بذور من معارف سابقة لها وأنتجتها على صورة أساطير، وإنّ هذا البناء والتقويض قد حدث مراراً وعبر أزمنة متباعدة.

٨

توجد اختلافات في تعريف النبي والرسول إذ يتقدم الرسول على النبي مكانةً كونه مرسولاً بشرائع عليه تبليغها للعالمين (ونموذج هؤلاء الرسل أولي العزم عليهم السلام: نوح، إبراهيم، موسى، عيسى ومحمد عليه الصلاة والسلام، والملاحظ أنه لم يذكر من أولي العزم في الأمم التي كانت متواجدة قبل الطوفان سوى نوح) بينما النبي لديه تشريع وتبليغ لكنه محصور بتبليغ قومه، كما حدث مع شعيب ولوط مثلاً لكن رسالتهما لا يمكن لها أن تكون مقتصرة على قومهما من غير أن تعمم في الرسالات الكبرى، فإيفاء الوزن والتطفيف وكذلك تحريم واجتناب فعل قوم لوط محرّم في كلّ الرسائل السماوية، ولهذا ثمة اهتزاز دلالي في مفهوم الرسول والنبي، وربما يكون التفريق الذي قال به ابن تيمية رحمه الله والذي جرى بين الناس كتفريق وتعريف بهما، إذ يرى أنّ الرسول هو المرسول إلى قوم كفار مكذّبين، وأنّ النبي

= وقطع أشلاءها وألقى بها في مجاري المياه حتى فاضت وأغرقت الأرض، فصنع نيبوجو مركباً وأخذ من كل نوع (أو زوج) اثنين، وبعد فترة قال لنفسه: أعتقد أن طوفان الماء لن يتوقف، ومن الأفضل أن أصنع أرضاً جديدة.

وفي أحد النصوص التي جُمعت من الاسكيمو يرينا النص كيف أنّ حيوان الماموث الذي يوجد في الجليد هو حيوان مطرود لرفضه ركوب فلك نوح. أي أنّ كلّ بلد أو وحدة لغوية تضيف إلى القصة حيوانها المحلي، سواء في المكسيك أو في أوربا.

ويقدّم أفاناسييف أسطورة الفلاحين الروس عن نوح وزوجته والشيطان، وهي من نوع القصص الاستطرادية.

وفي عديد من النصوص يأخذ نوح مكان آدم ويتطابق معه، ويروح ابليس يغري الزوجة ويدفعها إلى أن تدفع نوح بدورها للأكل من الشجرة المحرمة حتى يدفع الله لأن يسلط عليهم الطوفان كعقاب. - (موسوعة الفلوكلور والأساطير العربية لشوقي عبدالحكيم).

من أُرسل إلى قوم مؤمنين بشريعة رسول قبله يعلّمهم ويحكم بينهم.

ونحن نعلم سلسلة أنبياء بني اسرائيل وأنهم توالوا في رسالاتهم، إلا أنّ هناك أنبياء لا نعلم عنهم شيئاً[1]. وفي هذا السياق، ماذا يمكننا القول عن هود وصالح ويونس مثلاً؟ فهم - وفق التعريف السابق - أنبياء، أي أنهم أُرسلوا إلى قوم مؤمنين بشريعة رسل قبلهم، وهذا التعريف يؤكد على وجود رسالات سابقة في بيئات هؤلاء الأنبياء لم نعرف عنها شيئاً[2]، إذ (كذبت عاد المرسلين)، وعاد قبيلة عربية بائدة تعود بنسبها إلى عاد بن ارم بن سام بن نوح وسكنت الأحقاف (شمال حضرموت) فأيّ الرسل ذُكروا أو عُرفوا في هذه المنطقة؟

كما أنّ النبي صالح[3] أُرسل إلى قوم ثمود (وثمود قبيلة من القبائل العربية البائدة وتعود في نسبها إلى ثمود بن عاد بن ارم بن سام بن نوح وسكنوا الحجر[4]) فأيّ الرسل هي التي تواجدت في المنطقة وسبقت النبي صالح عليه السلام؟

ثم نجد أنّ النبي يونس بن متّى[5] قد أُرسل إلى أهل نينوى في الموصل من أرض العراق، فهل سبقه رسول من الرسل إلى تلك المنطقة؟

وهناك أنبياء ذُكروا ولم تُذكر أحوالهم وقصصهم مع قومهم، مثل النبيين اليسع

---

(١) روي أنّ عمرو ابن العاص قدم من الإسكندرية على النبي فسأله عمّا رأى؟ قال: رأيت قوماً يتطلسون ويجتمعون حلقا ويذكرون رجلا يقال له أرسطوطاليس لعنه الله!! فقال له النبي: مه يا عمرو! إنّ أرسطوطاليس كان نبياً فجهله قومه. - (محبوب القلوب للديلمي).
وقال ابن القيم في الإغاثة: وكذلك أفلاطون كان معروفاً بالتوحيد وإنكار عبادة الأصنام وإثبات حدوث العالم، وكان تلميذ سقراط، ولما هلك سقراط قام مقامه وجلس على كرسيه وكان يقول: إنّ للعالم صانعاً محدثاً مبدعاً أزلياً واجباً بذاته عالماً بجميع المعلومات.

(٢) قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ۞ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ - [الشعراء: ١٢٣-١٢٧].

(٣) ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾- [الشعراء: ١٤١-١٤٢].

(٤) ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ۞ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۞ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ۞ فَأَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ۞ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ - [الحجر: ٨٠-٨٤].

(٥) وقال عزّ شأنه: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ﴾ - [الصافات: ١٣٩].

وذي الكفل[١]، وذكر القرآن الكريم قصة ثلاثة أنبياء من غير ذكر أسمائهم وهم انبياء (أهل القرية) إذ بعث الله عزّ وجلّ رسولين إلى إحدى القرى وعزّزهما بثالث يصدقهما، ولا يذكر القرآن أسماءهم أو مواقعهم، بل نلحظ أنّ القرآن ركّز على رجلٍ آمن بهم ودعى قومه للإيمان بما جاء به المرسلون، لكنّ أهل القرية قتلوه، فأدخله الله الجنة.[٢]

وهذا ما يجعل تعريف مفهوم الرسول والنبي لا يتّسق مع فكرة أنّ النبي لا بدّ وأن يكون سابقاً عليه رسول، فالنصوص القرآنية تؤكّد أنّ هؤلاء رسل، وتقترن بهم النبوة أيضاً من غير أن يكون في محيطهم رسول سابق.

الذي أريد الوصول إليه أنّ هناك أنبياء ورسل تناثروا على وجه المعمورة كلٌّ يبلّغ رسالته إلا أنّ كثيراً من تلك الرسالات لم تصلنا، وتجعل كلّ من نادى بالتوحيد

---

(١) وقد ورد اسم اليسع في القرآن مرتين، قال تعالى في سورة (ص): ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ﴾،
وقال عزّ وجلّ في سورة الأنعام: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.
ويقول كتاب السيرة النبوية وأخبار الخلفاء لابن حبان إنّ النبي اليسع قام من الموت كمعجزة خاصة به.

(٢) قال الله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ * قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَن مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُون * قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ * وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ * قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ * وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ * وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنقِذُونِ * إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ * إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ * قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ * وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ * إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ * يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنْ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ * وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ - [ياسين: ١٣-٣٢].

في الأزمان السحيقة أو الأماكن النائية يمكن أن يكون رسولاً أو نبياً لم يقصص الله خبره لنبيه[1] محمد صلى الله عليه وسلم.

وعدل الله يقتضي إيصال التبليغ لكلّ من على الأرض بواسطة رسول أو نبي لكي لا تكون هناك حجّة لأحد من خلقه[2]، وفي هذه الجزئية تحديداً تتجلّى عظمة الله عزّ وجلّ في عدلٍ مطلق من أنّ الخالق يقيم وزناً لحجّة المخلوق مع أنه سبحانه وتعالى منح الإنسان عقلاً لو أفناه متدبّراً لغدا رسولاً لنفسه.

وإيماننا بوجود رسل تناثروا على وجه المعمورة وظلّت تعاليمهم عابرة لزمانها يمنحنا دائرة كبرى للالتقاء والتلاقح وتنقية مجرى جريان المنبع الواحد إذ أننا جميعا نشرب نفس الماء.

وإذا آمنا أنّ الله أرسل لكلّ أمة رسول نكون نحن العرب آخر الأمم تبليغاً[3]، وهذا ما تفهّمه نجاشي الحبشة وقيصر الروم حين وصلتهما دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم. ويكون بتبليغنا (نحن العرب) قد مرّ الأنبياء والرسل بالأمم مبلّغين ومنذرين ومبيّنين الطريق الذي سيسلكه الإنسان في مستقبل الأيام.

وفي هذا السياق، وإن تباعدت الفكرة، يمكن القول إنّ الأسطورة ربما أسهمت في انحسار الديانات الهندية والآرية والصينية واليونانية والمصرية القديمة والديانات الأفروأمريكية والديانات الأفريقية، إذ تجوّفت كثير من الأساطير واتّسعت معدتها لهضم كلّ الإضافات والزيادات من عادات وتقاليد وإرث طوطمي مع إضفاء لمسات فلوكلورية احتفالية من غير حرص أصحاب تلك الديانات على تصفية ديانتهم والمحافظة على نقاء جوهرها، فتغلب الجانب الاحتفالي والإضافة عليه أكثر من الاهتمام بنقاء التعاليم والمبادىء، فخرجت من كونها ديانة إلى كونها إرثاً فولوكلورياً.

---

(١) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِن قَبْلِكَ مِنْهُم مَن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَن لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ - [غافر: ٧٨].

(٢) ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ - [يونس: ٤٧].

(٣) قال الله تعالى ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ - [الأحزاب: ٤٠].

أو أنّ تلك الديانات اضمحلّت في مواقعها لسببٍ ما، كأن تكون الديانة لا تحمل في جوهرها هاجس الانتشار أساساً، وأنها محصورة بمكانٍ محدد، ومع الحروب والانتصارات كان المنتصر يفرض ديانته من غير الاهتمام ببثّها خارج إطاره السلطوي.

وتجاور وتزامن الديانات المتأخرة الثلاث قد يكون بلوغاً للنهاية إذ جاءت جميعها كرسالات أممية وقام كلّ منها بنسخ سابقتها ليكون الإسلام حاوياً لجميع الرسالات السابقة للوصول إلى النهاية، إلا أن نهايتها معقودة بتحقق كل تلك الأساطير التي جاءت في زمنها كمعجزة لتكون خاتمةً وتأكيداً لـ(سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا) [الفتح:٢٣]. فمع بلوغ العقل مرحلة الرشد والنضوج فإنه سيمضي بعيداً حتى يصل إلى مرحلة الكبر والبطر والجحود والادّعاء أنه الصانع للحياة!

٩

«للتو عدت من الموت... لست واهماً» - هذه الجملة خرجت من فم بطل رواية **الطين**.

لقد رافقني هاجس العودة من الموت منذ أن كنت في مراحل الدراسة المبكرة، ولم يكن مراودة لمراهقة ذهنية آنذاك بل مستنداً على واقعة مررت بها حينما كنت طفلاً صغيراً، إذ كنت معلولاً وبلغت مرحلة متقدمة من الإعياء فقدت خلالها وعيّ تماماً واستشعرت أني أحلّق في فضاء المكان وأرى أمي وجاراتها يندبنني، كنت أرى نفسي معلّقا في الفضاء وخلال لحظات عاودت الارتطام بقوة إلى داخل ذلك الجسد المنهك وشهقت.

مشهد حاولت نسيانه خلال سنوات طويلة إلا أني كنت أحمله في تجاويف مخيلتي.

ومع كتابة رواية **الطين** انبعثت قضايا عدة كان أهمها:

هل يمكن العودة من الموت؟

وهو سؤال تجيزه مدرسة الواقعية السحرية في كتابة الرواية لكنه إجازة ادبية على أسطرة الواقع، بينما هناك عناصر في الأساطير هي حقيقة دُرست وطُمرت

تحت إهمالنا لها واليقين بعدم إمكانية تحقيقها على أرض الواقع، فتعاملنا معها من موقع الخيال أرجعناها إلى الأسطورة وفق تعريف أنها مضادة لما هو واقعي، وفي نفس الوقت آمنّا بما يخبرنا به العلم أو يتوقع حدوثه خلال السنوات القادمة، وبين إرجاعنا ما لا نستطيع تحقيقه إلى الأسطورة وتصديقنا بما يبشر به العلم نسقط معرفة الأسطورة بوقائع علمية لم تصل إلينا.

في رواية الطين أيضاً كان هاجس البطل البحث عن الأرضين السبع، ففي معتقدنا الإسلامي يقين راسخ بوجودها لكنّ هذا اليقين لم يتزحزح خطوات علمية للبحث عنها وظلّ الخيال الماء الوحيد الذي يروي الأرضين الست غير المعروفة.

ولأنّ الرواية جزء منها يقوم على المتخيل حدث معي ذلك في رواية الطين أيضاً، إذ أقام بطل الرواية فرضية السرعة وأن الأراضين السبع متواجدة في مكان واحد إلا أنّ لكلّ أرض منها سرعة مغايرة تجعل وجودها غائباً عن الآخرين بسبب اختلاف السرعات.

وهي فكرة وفق ما يقوله العلم ممكنة؛ فحين تصل سرعة جسم ما إلى سرعة الضوء مثلاً فإن الجسم لا يُرى، وسرعة الضوء هي السرعة التي وصلنا إليها في هذا الزمن، وهناك تباشير بوجود سرعات مختلفة تفوق سرعة الضوء.

ووفق اختلاف السرعات يمكن أن تتواجد سبعة أجرام (سبع أراضين) في مكانٍ واحد لكلّ منها حياتها الخاصة بها.

إلاّ أنها تظل فرضية منبعها الخيال والبحث عن الموائمة بين ما تؤمن به وبين ما تعيشه، إلا أنّ هاجس أين تقبع الأراضين السبع كان هاجساً بشرياً ملحّاً.

وفي كتب التاريخ الإسلامية جرى الحديث كثيراً عن الأراضين السبع والمرويات بها تضارب وبها اجتهادات عديدة[1]، فقد روى الضحاك عن ابن عباس

---

(١) أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنت مع رسول الله علية السلام في غزوة تبوك إذ عارضنا رجل مترجب - يعني طويلاً- فدنا من النبي صلى الله علية واله وسلم فأخذ بخطام راحلته فقال: أنت محمد؟ قال: نعم. قال: إني أريد أن أسألك عن خصال لا يعلمها أحد من أهل الأرض إلا رجل أو رجلان، فقال: سل عما شئت. قال: يا محمد ما تحت هذه - يعني الأرض؟ قال: خلق، قال: فما تحتهم؟ قال: أرض، قال: فما تحتها؟ قال: خلق، قال: فما تحتهم؟ قال: أرض، حتى انتهى إلى السابعة (أي عدّ سبع =

قال: في كلّ أرض آدم كآدمكم ونوح كنوحكم.[١] ومعنى هذا أنّ لكلّ أرض ساعة ويقوم كبيرهم ومتقدمهم مقام آدم ونوح فينا.

هذه المروية هي جزء من مرويات عديدة تتحدث أنّ هناك سبع أرضين تتجاور فيها الحياة في زمنية واحدة، إلا أنّ قصور المعرفة في زمنية ابن عباس جعل القول محرجاً في أحيان كثيرة عند المتحدثين في معرفة كيفية ذلك.

الوجود[٢]، وكلما مضى العلم في الزمن أمسك بشيء ما من معرفة يظل مبقياً عليها ريثما تستجدّ معارفه. والبحث عن الأراضين السبع ظلّ بحثاً قولياً في الغالب لم يسع العلماء على تأكيده بحثياً وإن اتجهت الدراسات إلى البحث الجيولوجي عن طبقات الأرض، وذهب بعضهم أنها تتكون من سبع طبقات وأنّ كل طبقة هي أرض، بينما النصوص القرآنية صريحة في الإشارة إلى وجود سبع أراضين:

فأين هي هذه الأراضين السبع؟[٣]

إن معطيات العلم عن اتساع الكون لم تكن معروفة لكن توفرت نصوص عديدة

= أراضين) ثم قال: فما تحت الثرى؟ ففاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء؟ فقال: انقطع علم المخلوقين عند علم الخالق أيها السائل، ما المسؤول بأعلم من السائل. قال: صدقت، أشهد أنك رسول الله يا محمد، أما إنك لو ادّعيت تحت الثرى شيئاً لعلمت أنك ساحر كذاب، أشهد أنك رسول الله، ثم ولّى الرجل. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيها الناس هل تدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: هذا جبريل. - (كتاب الحاوي في تفسير القرآن، وذكره الإمام السيوطي).

(١) تاريخ الأمم والملوك لأبي جرير الطبري.

(٢) قال أبو الشيخ في العظمة (٢/ ٦٤٤): حدثنا ابن الجارود حدثنا محمد بن عيسى الزجاج حدثنا عامر بن إبراهيم عن الخطاب بن جعفر بن أبي المغيرة عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ رجلا أتاه فسأله عن هذه الآية: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾، يسأله ثلاث مرات فلم يرد عليه شيئاً حتى إذا خف عنه الناس قال له الرجل: ما يمنعك أن تجيبني؟ قال: ما يؤمنك إن أخبرتك أن تكفر؟ قال: أخبرني. قال: سماء تحت أرض، وأرض فوق سماء، مطويات بعضها فوق بعض، يدور الأمر بينهن كما يدور هذا الجردناب الذي يدور بالغزل عليه .

(٣) قال عزّ وجلّ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ - [الطلاق: ١٢].

تشير إلى ضآلة الأرض مقارنةً بملك الله عزّ وجلّ[١]. هذه الإشارات ظهرت بجلاء في الديانة الإسلامية من خلال القرآن الكريم والأحاديث النبوية، بينما نلحظ في الأساطير المتوارثة من كلّ بقاع العالم أنّ الاله الاسطوري كان يقوم بدورة حول العالم السفلي الذي يمثل فيه الظلام الشر المطلق، ولم تكن المخيلة البشرية تبتعد كثيراً عن أرض واحدة تدور بها كلّ الصراعات. وقد ظلت الأرض هي الميدان الوحيد لاختلافات الآلهة، والبشر أيضاً، بالرغم من أنّ الكتب المقدّسة كانت تمنح الإنسان إشارات للبحث أبعد إلا أنه ظلّ أسير المرويات التي تسجنه داخل الصندوق الواحد، حتى إذا تزحزح العلم قليلاً ظهر تصور جديد للأرض بأنها مجوفة من الداخل، وأنها ليست مصمتة، وأنّ هناك مخلوقات حية تعيش داخل تلك التجويفات. وكان صاحب هذه النظرية هو الفلكي الإنجليزي البريطاني المشهور إدموند هالي فقد قال في خطاب له أمام أعضاء الجمعية الملكية البريطانية بلندن إنّ «الأرض مجوفة» hollow earth، وإنّ كلّ الأجرام السماوية مجوفة مثل تجويف الكرة الرياضية ولها نجم مضيء، وإنّ كوكب الأرض له قشرة سمكها يعادل ٤٠٠ ميل تقريباً أو أقل من ذلك، ومن ثم أرض جوفاء بجوفها أرض أخرى أصغر منها، مثل صندوق الاحجية الصينية (صندوق داخل صندوق) إلى خمس طبقات من كوكب الأرض بجوف بعضها بعضاً، وإنّ قطر الكرتين الداخليتين يعادل كلاً من كوكبي الزهرة والمرّيخ كلٌّ على حدة في حين أنّ النواة الداخلية الصلبة للأرض يعادل حجمها حجم كوكب عطارد. الاقتراح الأكثر دهشةً كان أنّ كلاً من تلك الكرات أو الكواكب التي في جوف الأرض لربما تحتوي على حياة في داخلها،

---

(١) روى الترمذي وابن ماجة واللفظ للترمذي: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ.
وعن أبي ذر الغفاري قال: دخلت المسجد الحرام فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده فجلست إليه فقلت: يا رسول الله، أيما آية أنزلت عليك أفضل؟ قال: آية الكرسي، وما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة .
وتمّ تضعيف هذا الحديث إلاّ أنّ اتساع الكون كمعطى علمي يؤكد أنّ الأرض هي جرم ضئيل جداً جداً مقارنةً باتّساع الفضاء اللامتناهي.

حضارات أخرى في باطنها الذي يستمدّ حرارته وضوءه بواسطة (شمس) يبلغ قطرها ٦٠ ميلاً توجد في وسطه.(١)

هذه النظرة عن تجويف الأرض انساق لها الكثيرون، ومنهم المسلمون، ويدللون على ذلك بأدلة عديدة(٢)، ولازالت نظرية تجويف الأرض تعمل كتفسير

---

(١) وأول من تكلم عن نظرية الأرض المجوفة بشكل عام هو الفلكي الإنجليزي البريطاني المشهور إدموند هالي - مكتشف مذنب هالي- المعاصر لنيوتن، مكتشف الجاذبية الأرضية. إذ توصل إدموند هالي من دراسته للمجال المغناطيسي الأرضي والجاذبية إلى أنّ كوكب الأرض مكوّن من خمس أراضين بداخل بعضها بعضاً، كرة أرضية أصغر من كرة، وجميها بجوف كوكب الأرض تحت أرضنا، لكلّ طبقة مجالها الجوي الخاص. - ويكيبيديا الموسوعة الحرة.

(٢) قال هشام بن محمد أخبرني ابن عبد الرحمن القشيري عن امرأة ضريك بن حباشة النميري قالت: خرجنا مع عمر بن الخطاب أيام خرج إلى الشام فنزلنا موضعاً يقال له القلت. قالت: فذهب زوجي شريك يستقي فوقعت دلوه في القلت فلم يقدر على أخذها لكثرة الناس، فقيل له: أخّر ذلك إلى الليل. فلما أمسى نزل إلى القلت ولم يرجع فابطأ وأراد عمر الرحيل، فأتيته وأخبرته بمكان زوجي فأقام عليه ثلاثاً وارتحل في الرابع. وإذا شريك قد أقبل فقال له الناس: أين كنت؟ فجاء إلى عمر وفي يده ورقة تواريها الكف وتشتمل على الرجل وتواريه، فقال: يا أمير المؤمنين إني وجدت في القلت سرباً - أي نفقا - وأتاني آتٍ فأخرجني إلى أرض لا تشبه أرضكم وبساتين لا تشبه بساتين أهل الدنيا، فتناولت منه شيئاً فقال لي: ليس هذا أوان ذلك، فأخذت هذه الورقة فإذا هي ورقة تين تواري الرجل وتشتمله - هذا من كبر حجمها - فدعا عمر بن الخطاب كعب الأحبار وقال: أتجد في كتبكم أنّ رجلاً من أمتنا يدخل الجنة ثم يخرج؟ قال: نعم، وإن كان في القوم أنبأتك به. فقال: هو في القوم. فتأملهم فقال: هذا هو. فجعل شعار بني نمير خضراء إلى هذا اليوم. - (**الإصابة في تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر العسقلاني**).

وتلعب قصة ياجوج وماجوج دوراً كبيراً في إذكاء تجويف الارض وأنّ الردم الذي قام به النبي ذو القرنين إنما هو ردم أفقي وليس رأسياً، أي أنّ ردمهم تمّ في تجويف الأرض وأدخلهم إلى أرض أخرى، أي أرض داخل أرض.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا * كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا * ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلا * قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ =

لوجود الأراضين السبع، ويمكن قبول هذه النظرية لو أنّ العلم قد أثبت محدودية الكون كما فهمه الأوائل، وبالتالي ليس من حل للموائمة بين الإشارات الدينية والواقع الضيق سوى تكييف ذلك الواقع بما ينسجم مع الإشارات الدينية.

وما روي عن ابن عباس يمنحنا بعداً متّسعاً أكثر من الحيّز الضيق بالأرض ذاتها[1]، أي يمكننا أن نتحرك بفرضية وجود سبع أراضين منتشرة في الفضاء الشاسع، إذ إنّ قدرة الله لا تعجزه في إيجاد حيوات متعددة في أماكن مختلفة من هذا الكون. وهذا ليس من الاستحالة، فالله خلق هذا الخلق العظيم، ومن محدودية تدبّرنا بأنّ ليس في الكون سوانا، نحن سكان هذه الأرض التي لا تساوي جناح بعوضة من ملك الله المتعالي.

فالمجال الكوني الذي تعرفنا عليه مؤخراً يشير إلى اتّساع مهول يمكن له أن تتعدد فيه الأراضين السبع في مكانٍ ما من هذا الكون المتسع، أي أنّ هناك وجوداً ما بصيغة ما لكائنات ما، وطبيعي أن يكون الخطاب القرآني موجّهاً إلينا نحن كون رسولنا ينتمي إلى الأرض التي نسكنها، بينما أشار الله عزّ وجلّ إلى وجود أراضين أخرى لها ظرفيتها الخاصة بها.

فملك الله الواسع بلا حدّ يجعل إمكانية نشوء حيوات أخرى في مواقع أخرى بالكيفية التي يريدها. ومع اتّساع هذا الكون يصبح من القصور الحكم بأنّ الله خلق كلّ هذا الخلق من أجل من يقطن أرضنا هذه فقط، فما وصل إليه علم الفلك يجعل العقل يتّسع لاستيعاب وجود حيوات لا نعلم عنها شيئاً.

والأولى بالعلماء المسلمين التحرّك نحو تحقيق ما تواتروه من معلومات دينية

= انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ۞ فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ - [سورة الكهف].

(١) قال ابن عباس حين سأله رجل عن قول الله: (الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن) ما هو؟ فسكت عنه ابن عباس حتى إذا وقف الناس قال له الرجل: ما يمنعك أن تجيبني؟ قال: وما يؤمنك أن لو أخبرتك أن تكفر؟ قال: فأخبرني، فأخبره. قال: سماء تحت أرض، وأرض فوق سماء، مطويات بعضها فوق بعض، يدور الأمر بينهن كما يدور بهذا الكردنا الذي عليه الغزل.

ففي هذه المروية ليس تحديد المكان بالأرض بل هي سابقة على العلم حين أخبرت بتعدد الكواكب، وما يقوله العلم الآن أنّ هناك مليارات الأجرام السماوية مقذوفة في الكون.

بقيت حبيسة الكتب، ومن اطّلع عليها تعامل معها تعامل أخبار الخرافة وسلّم بما جاء في القرآن من غير العمل على تحقيق ما جاء به أو ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم، وبقيت عبقرية المسلمين في انتظار إنجازات العلم لكي يقولوا: لقد جاء هذا في كتابنا المنزل!

ثمة أمور عديدة جاءت في القرآن الكريم ولازال العلماء المسلمون يتلون الآيات من غير التدّبر المفضي إلى العمل لتحقيق تلك الآيات علمياً.

١٠

أظنني لم أبرح مقولة بطل رواية الطين: للتو أعدت من الموت... لست واهماً.

وأجد أنّ فكرة العودة إلى الحياة فكرة دينية أصيلة يختلف تجسيدها في الواقع باختلاف ثقافة المجتمعات، وتظهر في الديانات بصورة حتمية من خلال يوم البعث والحساب ثم الخلود في الجنة أو النار، وهي فكرة تؤسس لحياة مخالفة لحياتنا الفانية، إلاّ أنّ العودة للحياة التي نعرفها ظهرت في العديد من القصّ الديني؛ فعلى سبيل المثال قصة النبي عزير الذي أماته الله مائة عام[1]، وقصة قتيل بني إسرائيل

---

(١) ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ - [البقرة: ٢٥٩].

وتشير جلّ المصادر التاريخية الإسلامية، وفي مقدمتها تاريخ الطبري والبداية والنهاية لابن كثير، أنّ من أماته الله مائة عام والوارد ذكره في سورة البقرة هو عُزير بن سروخا، وينتهي نسبه إلى نبي الله هارون بن عمران بن قاهات بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، ويعدّه بعض المؤرخين نبياً، ويراه بعضهم رجلاً صالحاً مثله مثل الخضر. من معجزاته أنه حدّث وهو غلام، ولما بلغ الأربعين أعطاه الله الحكمة فكان عبداً صالحاً حكيماً، فكان مستجاب الدعوة فيدعو للمريض ولصاحب البلاء بالعافية والشفاء فيستجاب له، ولم يبق في بني إسرائيل من يحفظ التوراة فألهمه الله حفظها فسردها عليهم ولم يكن أحد أحفظ ولا أعلم بالتوراة منه. قيل عنه إنّ الله أمر ملكاً فنزل بمعرفة من نور فقذفها في عُزير فنسج التوراة حرفاً بحرف حتى فرغ من قصة العُزير عليه السلام، والتي ذُكرت في سورة البقرة أنه خرج ذات يوم =

= على ضيعة له يتعاهدها ثم انصرف منها حين قامت الظهيرة فأصابه الحر فدخل إلى خربه ومعه حماره وكان معه سلتين بها عنب والأخرى بها تين فأخرج قصعة فاعتصر فيها العنب ثم أخرج خبزاً يابساً فاعتصره داخل القصعة ليبتل فيأكله، ثم استلقى على قفاه وأسند رجليه إلى الحائط ونظر إلى سقف البيوت ورأى ما فيها وهي قائمة على عروشها وقد باد أهلها، فقال: أنّى يحي هذه الله بعد موتها؟ فلم يشك أنّ الله يحييها ولكنه قالها تعجّباً، فأرسل الله ملك الموت فقبض روحه فأماته الله مائة عام، فلما أتت عليه مائة عام، وكانت فيما بين ذلك في بني إسرائيل أمور وأحداث، فبعث الله عُزير ملكاً فخلق قلبه وعينيه لينظر بهما فيعقل كيف يحيي الله الموتى ثم ركّب خلقه وهو ينظر، ثم كسا عظامه اللحم والشعر والجلد ثم نفخ فيه الروح، كل ذلك وهو يرى ويعقل، فاستوى جالساً فقال له الملك: كم لبثت؟ فقال له: لبثت يوماً، وذلك لأنه قد لبث صدر النهار عند الظهيرة ثم بعث في آخر النهار والشمس لم تغب. فقال له الملك: بل لبثت مائة عام، فانظر إلى طعامك وشرابك "العنب والخبز الذي أبتله" فلم يتغيرا، وكذلك التين غض لم يتغير من حاله. فتعجب عُزير وأنكر في قلبه، فقال له الملك: أنكرت فانظر إلى حمارك، فنظر إليه وقد بليت عظامه وصارت نخره، فنادى الملك عظام الحمار فأصابت وأقبلت من كل ناحية حتى ركبه وعُزير ينظر، ثم نفخ فيه الملك فقام الحمار رافعاً رأسه وأذنيه إلى السماء ناهقاً يظن القيامة قد قامت. فنزلت الآية ٢٥٩ من سورة البقرة ﴿وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. فركب حماره وأتى إلى منزله فإذا بعجوز عمياء مقعدة قد أتى عليها مائة وعشرون عاماً فقال لها: يا هذه أهذا منزل عُزير؟ قالت: نعم وبكت وقالت: ما رأيت أحداً من زمن يذكر عُزير، قد نسيه الناس. فقال لها: أنا عُزير، كان الله أماتني مائة سنة ثم بعثني، فقالت: سبحان الله فإن عُزير قد فقدناه منذ مائة عام فلم نسمع له ذكر. ثم قالت له: إن عُزير مستجاب له فادع الله أن يرد علي بصري حتى أراك فإن كنت عُزيراً عرفتك، فدعا ربه ثم مسح بيده على عينيها فرُدّ إليها بصرها وقال: قومي بإذن الله، فاخلق الله رجليها فقامت صحيحة فنظرت إليه فقالت: أشهد أنك عُزير، وانطلقت إلى بني إسرائيل وهم في أنديتهم ومجالسهم، وابن عُزير شيخ عنده مائة وثماني عشر سنة وأبناء أبنائه شيوخ في المجلس، فنادتهم فقالت: هذا عُزير قد جاءكم فكذبوها. فقالت: أنا فلانة مولاتكم دعا لي ربّه فردّ لي بصري وأطلق رجلي، فنهض الناس وأقبلوا إليه فقال ابنه: كان لأبي شامة سوداء بين كتفيه، فكشفا عن كتفيه فإذا هو عُزير، فقالت بني إسرائيل: فإنه لم يكن فينا أحد حفظ التوراة فيما حدثنا غير عُزير، وقد حرقت التوراة ولم يبقَ منها شيء إلا حفظ الرجال فاكتبها لنا. فجلس عُزير في ظل شجرة والتف حوله بنو إسرائيل فجدّد لهم التوراة ونزل من السماء شهابان حتى دخلا جوفه فتذكّر التوراة فجدّدها لبني إسرائيل، فبدأ الناس يقبلون عليه وعلى هذا الدين من جديد، وأحبوه حباً شديداً وقدّسوه للإعجاز الذي ظهر فيه، حتى وصل تقديسهم له أن قالوا عنه أنه ابن الله (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ). وسبب =

الذي اشترط عليهم النبي موسى لمعرفة قاتله شراء بقرة طال السؤال عنها حتى تمّ تخصيصها بعينها، وخذ جزءاً منها (يقال اللسان) وضرب الميت بها لينهض من الموت ويخبر بمن قتله[1].

= مقولتهم أنه ابن الله ما جاء من قول بني إسرائيل: فإنه لم يكن فينا أحد حفظ التوراة وقد حرق بختنصر التوراة ولم يبق منها شيء إلا ما حفظت الرجال فاكتبها لنا. فكتب عزير لبني إسرائيل التوراة من حفظه، فقال بني إسرائيل: لم يستطع موسى أن يأتينا بالتوراة إلا في كتاب وإنّ عزيراً قد جاءنا بها من غير كتاب، فقالت طوائف منهم: عزير ابن الله.

ومما يراودني أنّ هذه المقولة هي التأسيس الأول لادّعاء بعض الطوائف المسيحية بأنّ عيسى عليه السلام ابن الله، وأعتقد أنّ هذه الطائفة هي امتداد للطائفة التي قالت ببنوة عزير من خلال إيمانها بعيسى ونقل فكرة البنوة من عزيز إلى عيسى.

ومن أقواله حينما يناجي ربه: «يا رب تخلق خلقاً تضلّ من تشاء وتهدي من تشاء» فقيل له: أعرض عن هذا، فعاد، فقيل له: لتعرضنّ عن هذا أو لأمحون اسمك من الأنبياء، إني لا أسأل عما أفعل وهم يُسألون، وعندما مات بعثه الله شاباً كهيئته لأنه مات وهو ابن أربعين سنة، والقرية التي مات فيها يقال لها سايراباذ، وجاء في بعض الآثار أن قبره بدمشق.

(١) يقول الله في كتابه الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ۞ قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرونَ ۞ قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ۞ قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَاء اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ۞ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّشِيَةَ فِيهَا قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ۞ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۞ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ - [البقرة: ٦٧-٧٣].

تشير هذه الآيات إلى حادث وقع في بني إسرائيل [كما ذكره الإمام القرطبي في تفسيره] وهو أن رجلاً كان غنياً من بني إسرائيل ولم يكن له ذرية وكان له ابن أخ فقير فطمع في ميراثه فقتله وألقى به في حيٍّ من أحياء قومه [محلة بني فلان] وادّعى قتله على بعض الأسباط [قال عكرمة: وكان لبني إسرائيل مسجد له اثنا عشر باباً لكلّ قوم باب يدخلون منه، فوجدوا قتيلاً في سبط من الأسباط فادّعى هؤلاء على هؤلاء، فتدافعوا فيما بينهم قتله ثم أتوا موسى عليه السلام يختصمون إليه فقال: (إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً) فكان جوابهم لموسى عليه السلام أن قالوا: (أتتخذنا هزواً) فكان جوابه عليهم أن استعاذ بالله أن يكون من الجاهلين، لأنها صفة تنتفي عن الأنبياء وهذا قول لا يجوز أن يقال لنبي ظهرت معجزته لقومه]، وكان الواجب عليهم أن يمتثلوا للأمر ولكنهم لقلة طواعيتهم وتعنيتهم لم يمتثلوا، ولو أنهم امتثلوا =

وتتجلى فكرة العودة من الموت في معجزات سيدنا عيسى عليه السلام حيث كان يقوم بإحياء الموتى بإذن الله[١]. وحدثنا القرآن عن عودة أناس من الموت عودة جماعية[٢]، كما أنّ هناك حيوانات عادت إلى الحياة مرة أخرى كمعجزة، سواء

= للأمر وذبحوا أيّ بقرة كانت لحصل المقصود، ولكنهم شدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم. وعلى عادة بني إسرائيل في اللجاجة قالوا لموسى: ادعُ لنا ربك يبين لنا ما هي؟ فأجابهم بأنّ الله تعالى يقول: إنها بقرة لا كبيرة ولا صغيرة ولكنها متوسطة بين الأمرين. وحدّد لهم الأمر ونبّههم إلى ترك التعنت، وكما هو الشأن في بني إسرائيل أعادوا السؤال قائلين: ادعُ لنا ربك يبين لنا ما لونها؟ فأجابهم بأنّ الله تعالى يقول لهم: إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين؛ إنها بقرة لونها أصفر شديد الصفرة حين يراها الناظرون تدخل عليهم مسرة في نفوسهم لشدة ملاءمتها لمن يراها. فلما سألوا موسى بعد ذلك عن تحديد ماهية تلك البقرة لاشتباه كثيرٍ من البقر في تلك الأوصاف، أجابهم موسى عليه السلام بأنّ الله تعالى يقول: إنها بقرة لم يذللها العمل لأنها بقرة وحشية، فلا هي مذللة ولا هي مدرّبة على حرث الأرض أو سقي الزرع، وهي خالصة اللون لا تشوبها في لونها علامة. فأجابوه قائلين: الآن جئت بالحق، فكأنّ الذي قاله من قبل لم يكن حقاً ولم يستيقنوه إلا الآن. ولم يجدوا هذه الصفات في بقرة من البقر إلاّ في بقرة واحدة لولد من بني إسرائيل كان ابناً لرجل صالح منهم وكان يعمل حطّاباً، فولد له ولد وكانت له عجلة فأرسلها في غيضه في الجبل وقال: اللهم إني أستودعك هذه العجلة لهذا الصبي. ومات الرجل وابنه صغير، فلما كبر الصبي قالت له أمه وكان بارّاً بها: إنّ أباك استودع الله عجلةً لك فاذهب وخذها، فذهب، فلما رأته البقرة جاءت إليه حتى أخذ بقرنيها، وكانت مستوحشة فأخذ يقودها نحو أمه، فلقيه بنو إسرائيل ووجدوا البقرة التي على الصفة التي أمروا بذبحها، فساموه فاشتط عليهم وكانت قيمتها ثلاثة دنانير، فأتوا به موسى عليه السلام فقالوا: إنّ هذا اشتط علينا، فقال لهم: أرضُوه في ملكه، فاشتروها منه بوزنها عشر مرات ذهب، وقيل: بملء جلدها دنانير. فأخذوها وذبحوها وأخذوا لسانها وضربوا به القتيل فأحياه الله وأخبر عمّن قتله، فقيد منه وحاق به فكره السجاء، ولم ينل من دينه ولا من ميراثه شيئاً. وإلى هنا نقف لنأخذ العبر من القصة.

(١) يقول الله عزّ وجلّ: ﴿. . وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ - [آل عمران: ٤٩].

(٢) (ألم تَرَ إلى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيارِهِم وَهُم أُلُوفٌ حَذَرَ المَوتِ فَقَالَ لَهُم اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أحيَاهُم إنَّ اللهَ لَذُو فَضلٍ على النَّاسِ وَلَكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَشكُرُونَ) - [البقرة: ٢٤٣].
وذكر الموت الجماعي ثم العودة في قصة موسى مع بني اسرائيل حين قالوا له: ﴿لَن نُّؤمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] فأماتهم الله تعالى ثم أحياهم، وفي ذلك يقول الله =

بموتها الطبيعي كحمار النبي عزير أو بالذبح كما فعل سيدنا إبراهيم عليه السلام بذبح أربعة من الطير ونثر لحمها على الجبال ثم طلبهم فعادوا كما كانوا قبل الذبح[1]. كما أنّ هناك مكوثاً أشبه بالموت ثم العودة إلى الحياة كما حدث لأهل الكهف.

وانتقلت تيمة العودة إلى الحياة عبر المرويات والحكايات حتى دخلت حيز الإيمان فتبنّاها الفراعنة، ولهذا نجد أنّ ملوكهم عمدوا إلى دفن كنوزهم معهم حتى إذا عادوا إلى الحياة الدنيا وجدوا أموالهم ومتاعهم معهم.

كما أنّ الأسطورة احتفلت بالعودة من الموت بتفريعات مختلفة كما حدث مع آتوم[2].

وتمّ تناسخ فكرة العودة إلى أن وصلت إلى الشيعة، حيث يؤمن الشيعة الإمامية بالرجعة، وهي نظرة خاصة بهم دون الفرق الإسلامية الأخرى.[3]

= تعالى مخاطباً بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۞ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ - [البقرة: ٥٥-٥٦].

(١) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ - [البقرة: ٢٦٠].

(٢) آتوم إله فرعوني، وكان الثور حيوانه المقدس مينوس وأصبح في الميثولجيا اليونانية أدونيس، الإله الجميل الذي عشقته أفروديت، وقتله الخنزير المتوحش عندما كان يصطاد في الجبل، ومن دمه المهدور انتشرت شقائق النعمان أو زهرة الريح. وكان أدونيس يقضي نصف السنة على الأرض ونصفها الأخر في العالم الآخر. فهذه القصة عن الإله الممزّق أدونيس وبعثه يرمز إلى الموت الموسمي وعودة الاخضرار. وتظهر تنويعاتها في كلّ مكان من غرب آسيا والبحر الأبيض حتى أوروبا. وأغلب الأساطير الشرقية القديمة عن أدونيس هي التنوعات السورية الفينيقية التي تتبدى ميرها أو سميرنا ابنة الملك ثياس ملك أشور التي دبّرت وسيلة سحرية فأخذت شراب الساحر العجوز ثم سحرت نفسها إلى شجرة مرّ، ثم من جذع شجرة المرّ ولد أدونيس. والمؤمنون به يعتقدون أنّ أدونيس يُقتل في كلّ عام بواسطة حلوف الجبل ويذهب إلى العالم الآخر. - شوقي عبد الحكيم: موسوعة الفلوكلور والأساطير.

(٣) وهم يرون أنه لا يترتب على الاعتقاد بالرجعة إنكار أيّ حكم ضروري من أحكام الإسلام، وليس ثمة تضاد بين هذا الاعتقاد وبين أُصول الإسلام.
كما يؤكد الشيعة على الرجعة، وهي رجعة خاصة بدلالة قوله تعالى: (ويومَ نَحشُرُ مِن كُلِّ أُمةٍ فوجاً) وقوله تعالى: (وحرامٌ على قريةٍ أهلكنَاها أنهُم لا يرجِعُونَ) ويستفاد من مجموع الأخبار المستفيضة من طرق الإمامية أنّ الراجعين صنفان من المؤمنين والكافرين، فقد روي عن =

ومع التطور العلمي لم يغادر الإنسان فكرة العودة إلى الحياة الدنيا فها هي مجموعة من العلماء والباحثين الأميركيين يعتبرون أنّ الموت مجرد «مشكلة هندسية طارئة» من الممكن التوصّل مستقبلاً إلى حلّ لها، وبالتالي إعادة الجثمان إلى الحياة. العلماء والباحثون التابعون لـ«مؤسسة الكور لإطالة الحياة» يمسكون بزمام الريادة في مجال علم الـ«كريونيكس»، وهو علم يختصّ بحفظ الجثامين البشرية في درجات حرارة فائقة البرودة على أمل أن يتوصّل الطب في المستقبل إلى طريقة لإعادتها إلى الحياة بشكل طبيعي.

وفي مقابل دفع ٨٠٠ دولار كرسوم سنوية يتولى مسؤولو مؤسسة «الكور» حفظ الجثمان بطريقة الـ«كريونيكس» وهي الرسوم التي تشتمل أيضاً على حفظ مجموعة من متعلقات صاحب الجثمان الشخصية كي تتم إعادتها إليه إذا عاد إلى الحياة في المستقبل على أمل أن تساعده على أن يتذكّر ماضيه. وتستوعب كلّ أسطوانة تخزين ٤ جثامين.

ويتعيّن على من يرغب في حفظ جثمانه كاملاً أن يستخرج وثيقة تأمين بقيمة ٢٠٠ ألف دولار أميركي، بينما يتعين على من يرغب في حفظ رأسه فقط أن يستخرج وثيقة تأمين بقيمة ٧٥ ألف دولار.

ويبدأ الأمر بخطوات إجرائية علمية تبدأ بحقن جسم الشخص الميت بمادة مضادة للتجمّد بمجرّد أن تشير الأجهزة إلى أنه قد فارق الحياة، والهدف من الحقن بتلك المادة هو أن تصل سريعاً إلى كل خلية من خلايا الجسم عن طريق الدورة الدموية. ويقول العلماء إنّ عملية الحقن تلك تضمن عدم تجمد سوائل الجسم وتسمح تالياً بتبريد الجثمان مع استمرار سيولة الدم وغيره من السوائل الحيوية التي تفسد عادةً إذا تحولت إلى بلورات متجمدة.

وعقب عملية الحقن بالمحلول المضاد للتجمد، يتم وضع الجثمان في نيتروجين سائل في داخل حاوية أسطوانية مخصصة لذلك الغرض، وهي الحاوية التي يبقى الجسم محفوظاً فيها عند ١٩٦ درجة مئوية تحت الصفر.

= الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنَّ الرجعة ليست بعامة، وهي خاصة، لا يرجع إلاّ من محض الإيمان محضاً أو محض الشرك محضاً» أما سوى هذين الصنفين فلا رجوع لهم إلى يوم المآب. - الرجعة أو العودة إلى الحياة الدنيا بعد الموت، مركز الرسالة.

الرئيس التنفيذي لمؤسسة «الكور» ماكس مور يؤكد على أنّ هذا الأمر ممكن تحقيقه على أرض الواقع في المستقبل، منوّهاً إلى أنّ علم الـ«كريونيكس» يسير في طريقه حالياً نحو اكتساب شرعية ومصداقية في نظر شريحة لا بأس بها من العلماء.

وأشار مور إلى أنّ أعضاء فريقه ينسّقون مع مسؤولي المستشفيات ومع المرضى الراقدين على فراش الموت، وذلك بهدف الحصول على موافقة أولئك المرضى كي يتم حقن أجسامهم بالمحاليل المضادة للتجميد فور وفاتهم تمهيداً لتخزين الجثامين في النيتروجين السائل.

وتعليقاً على ذلك قال الدكتور مارك موريسون الذي يشغل منصب الرئيس التنفيذي لمعهد تكنولوجيا النانو في مدينة غلاسغو الاسكتلندية: «أستطيع أن أتفهّم أنه سيكون لعلم الكريونيكس تأثير كبير على أبحاث الخلايا الجذعية وعلى الأبحاث المتعلقة بوظائف أعضاء الجسم، لكنني أعتقد أنّ مسألة إعادة الوظائف والحياة إلى أعضاء معينة - كالمخ مثلاً - ستحتاج إلى وقت طويل جداً قبل أن تصبح ممكنة»[1]

إذاً، العودة من الموت ليست مسألة غير ممكنة في جانبها الديني حيث تأكّد من حدوثها كإيمان مطلق عند المؤمنين في الديانات السماوية المتأخرة، فقد نصّت الكتب المقدسة على حدوثها، وهي نظرية علمية مازالت في طور التشكّل يؤكّد العلماء إمكانية حدوثها مع توفر الظروف الملائمة.

وبينما كنت أتهيّأ لإنهاء مقدمة هذا الكتاب اطّلعت على برنامج بثّته قناة mbc كمفاجأة لجمهورها حين جلس طلال مدّاح - رحمه الله - على المسرح يغنّي أغنية (يا سارية خبّريني) وكان حاضراً فعلاً بواسطة تقنية متقدّمة تسمى الهولوغرافي[2]، حيث يتم إحضار شخص وتُسلّط عليه أشعة الليزر فتتحوّل صورته إلى الشخص الغائب أو الميت!

وهناك أفعال يقدم عليها العلم والعلماء لا تبتعد كثيراً عمّا كانت تفعله الأسطورة كأداة كشف لما مضى، إذ كانت تمثل جوهر العلم في زمنها، بينما العلم

---

(١) صحيفة الرأي الكويتية ٢٨ اغسطس ٢٠١٢.

(٢) الهولوغرافي (Holography): أو ما يسمى الذواكر الهولوغرافية تمتلك خاصية فريدة تمكّنها من إعادة تكوين صور الأجسام بأبعادها الثلاثة، تتم تلك العملية باستخدام أشعة الليزر. - يوكيبيديا الموسوعة الحرة.

الآن يمثّل دور المنشيء للأساطير حينما يخبرنا بأمور ستحدث مستقبلاً ولا نستطيع تخيّلها أو استيعابها.

ومع ذلك فإنّ الأسطورة تظل حاضرة، فإذا قلنا إنه لا ينبغي نكون أسرى الماضي، فإذا بالماضي هو المستقبل من خلال الأساطير التي وردت في الكتب المقدسة، وخاصةً القرآن حين يورِد أنّ نهاية العالم ستكون إشارتها دابة تخرج من مكة لتدفع الناس إلى المحشر.

١١

إنّ أول مفردة أنزلها الله عزّ وجلّ على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وبصيغة الأمر هي كلمة «اقرأ»[١]، ولم تأتِ مفردة غيرها كصلِّ أو صُم أو جاهد. لماذا كانت هي الكلمة الأولى التي يسمعها رسولنا الكريم؟ ولماذا تأتي كلمة «اقرأ» في مجتمع عُرف أنه أمّيّ لا يقرأ؟

كان من الأولى أن تاتي كلمة «وحّد»، فالتوحيد هو الغاية من نزول كلّ الأنبياء.

حدث ذلك لأنّ القراءة مفتاح للوصول إلى التوحيد والإيمان والانقياد، فإن كان الانقياد للرسول صلى الله عليه وسلم في زمنه انقياداً عاطفياً أو وقوفاً على معجزاته، فإنّ العصور اللاحقة ستقرأ ما أُنزل إليه وتُخضعه للعقل، والعقل بحاجه إلى إبهار وإقناع يقوده إلى الإيمان.

وجلّ الآيات القرآنية تقدّر العلم والعلماء وتؤكّد أنّ من يمتلك العلم والمعرفة يخشى[٢]، والخشية ليس بمعنى الخوف ولكن بمعنى الاستسلام والإيمان بما يصل إليه من حقائق أخبر بها الرسول الأمّيّ الذي نزل عليه كتابٌ يذكر علوماً لم تكن معروفة بتاتاً في زمنه ومحيطه.

ونجد بذرة الإهمال المريع في تدبّر القرآن قد ظهرت مبكراً جداً وذلك من

---

(١) قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ - [اقرأ: ١-٥].

(٢) يقول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ - [فاطر: ٢٨].

خلال الهجران[1]، والهجران له صور عدة، فمن صوره حفظ ما قيل لك مع عدم العمل به، أو حفظك ما قيل لك من غير دراية بفحوى ومغازي ما تحفظ، بينما شاع لدينا أنّ الهجران هو عدم قراءة القرآن (وهي القراءة السطحية التي تركض فيها العين على الحروف من غير تدبّر، وهي شبيهة بالحفظ عن ظهر قلب من غير تدبّر) وأيضاً اقتصرت قراءة القرآن على استنباط الأحكام الشرعية أو سرد وإعادة ما حدث للأنبياء سرداً قصصياً من غير الوقوف على ما تحمله من علوم، أما الآيات التي تشير إلى بقية العلوم فقد ظلّت تردّد خلال مئات السنوات (ومازال الترديد مستمراً) من غير أن نجد أنّ مسلماً قد توصّل إلى نظرية علمية من خلال قراءة القرآن، وقد يكون السبب في ذلك أنّ مصطلح العلماء عند المسلمين تمّ قصره على علماء الشريعة، وهو الخطأ الذي مازلنا نسير به، إذ أنّ كلّ علم له علماؤه، وخشية العلماء تأتي من معرفة أسرار الكون الموصلة إلى الإيمان الكامل بالله عزّ وجلّ، والعلوم ليست مقتصرة على علمٍ واحد.

وقد أدّى ذلك القصر (في وقتٍ سابق، وخاصةً في فترة ما عُرفت بالصحوة) إلى تناسل الطلاب من الكليات العلمية التطبيقية للالتحاق بكليات الشريعة وتكديس وتعطيل مجاميع من العقول الفاعلة والنشطة وتحويلها إلى ألات تسجيل تحفظ وتقول.

هذا السلوك يؤكد أنّ العقلية العربية عقلية حافظة حتى في نقل خبراتها ومواقفها، فما يحدث الآن هو نقل لتجارب مبكرة وقفت ضد العلم والعلماء (والعلماء هنا من هم خارج تصنيف علماء الشريعة) إذ كان يُجرِّم من يشتغل بالكيمياء أو الفيزياء أو علوم الفلك، فخلقت تلك المواقف أجيالاً من الحفظة الذين إذا قرأوا حفظوا.

وهي معضلة تتكرر في مواقع كثيرة جعلت القرآن مهجوراً تزوره الألسن يومياً ولا تخرج منه بفائدة علمية تحقّق مضمون «خير امة اخرجت للناس». ونجد ذلك أيضاً في ما خلّفه المؤرخون العرب ذخائر مهولة من الحكايات والأساطير، وظلت تلك الثروة المهولة متمسكةً بحبرها ولم يصاحبها من البحث الأرخيولوجي الآثاري

---

(١) ﴿إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ - [الفرقان: ٣٠].

شيء[1]، فقُبرت بين دفّات الكتب، وإن خرجت فهي تخرج للمسامرة أو للعظة، حتى أنّ هذا شمل كلّ ما جاء في القرآن الكريم من آيات تحمل شيفرات فكّ مغاليق الكون.

وظلت الأساطير الواردة في تلك الكتب مجرد حكايات تروى، فإن كانت دينية وقف أمامها وقوف الراضخ المستسلم الذي اكتفى بالمعلومة ولم يسعَ إلى تطبيقها، وإن لم تكن دينية استهلكها للتسلية أو لخلق الدهشة حين يرويها لمن لا يعرف.

هذه الشائبة التي اتّسم بها المؤرخون الاوائل ومن تلاهم من المؤرّخين والقرّاء جينة ثقافية عربية محض، فمن طبيعة المجتمعات الأمية الترديد والحفظ، مع أنّ الرسالة السماوية التي نزلت على رسولهم كانت تحثّ على القراءة بكلمة «اقرأ» وتؤكّد على أهمية الكتابة من خلال ذكر أداتها ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

مع أنّ هناك توجيه صريح بتكفّل الله عزّ وجلّ بحفظ القرآن[2]، وقد سبقه أمر إلهي بعدم الترديد[3] المفضي إلى الحفظ، ويظهر لي أنّ الأمر كان دفعاً إلى القراءة. وميزة القراءة أنها تقودك إلى التحليل، والتحليل يعني التدبّر، وهو المطلب الذي انساقت إليه كثير من الآيات القرآنية، وإن كان التوجيه لتدبّر فهذا يعني الثقة الكاملة بأنّ ما أُنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم يقبل دخول كلّ العقول السابقة واللاحقة إلى تحليل وتدبّر ما جاء في القرآن، ولا يقدم قائل قول على دفع الناس لتفنيد قوله إلا واثق، وهي الشهادة بأنّ ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم هو

---

(١) وما يعزّز هذا الغياب في مجال الأركيولوجيا والأسطورة هو حالة الثقافة العربية الإسلامية التي تنظر إلى الأسطورة باعتبارها خرافات وأساطير الأولين التي جبّها الإسلام منذ البدء، كذلك غياب الأبحاث الآركيولوجية عن معظم البلاد العربية باستثناء العراق، خاصةً وأنّ الأساطير هي من نتاج هذه الحفريات، فقد اكتشفت الرُّقُم الطينية مع بداية هذه الحفريات وتمّ فكّ رموزها لاحقاً- (تركي علي الربيعو: مضمون الأسطورة في خطابنا المعاصر، الأسطورة والأيديولوجيا: فراس السواح نموذجاً).

(٢) ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ - [الحجر: ٩].

(٣) يقول الله تبارك وتعالى: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۞ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۞ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۞ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ - [القيامة: ١٧-١٩].
ويقول عزّ من قائل: (وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) - [طه: ١١٤].

الحق، فالحقّ أبلج ولا يُثبت انبلاجه إلاّ المداومة على تحليله وتمحيصه، وهذا ما أراده الله عزّ وجل.

وقد عبرتنا حكايات من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم تدلّل على أهمية التعليم والعلم، وأول لبنة لإنشاء تلك المدرسة ما حدث عقب غزوة بدر، فالأسرى الذين لا يجدون فديةً يفتدون بها أنفسهم (ويجيدون الكتابة والقراءة) كان شرط عتق أسرهم أن يقوم كلّ فرد منهم بتعليم عشرة من المسلمين. . . والتعليم هنا ليس الحفظ، فلو كان حفظاً فهذا يقتضي أن يقوم الأسرى بقراءة القرآن وترديده على مسامع المسلمين، ولم تأتِ السيرة على ذكر هذه الطريقة، بل كان تعليماً حرفياً. ثم هناك الكثير من الأحاديث الحاثّة على العلم والتعلم[1]، وقبل ذلك جاء القرآن ممجِّداً العلم ومطالباً ذوي الألباب بالتبصّر والتدبّر، وكلّ هذا لا يتأتّى بالحفظ وإنما من خلال القراءة والكتابة، وليس بمفهوم أن تقرأ ما سُطِّر بل بمفهوم الباحث والمحلل والمستنتج والمطبِّق.

ولم يأتِ أمر القراءة عبثاً، فأمّة أميّة عليها دخول مضمار العلم بواسطة القراءة، خاصةً وأنّ الإنسان أعلن عن نضجه ومقدرته على الدخول في تحدٍّ من أجل بناء

---

(١) عَنْ مُعاويةَ رضيَ اللهُ عنهُ قال: قالَ رسول اللهِ صلى اللهُ عليْه وسلَم: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرَاً يُفَقِّهْهُ في الدِّيْن» - [متفق عليه].

وعن أبي هُريرةَ رَضيَ اللهُ قالَ: قالَ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عليْه وسَلّمَ: «إذَا مَاتَ ابنُ آدَمَ انقَطَعَ عمَلُهُ إلاَّ منْ ثَلاثٍ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أو عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أووَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ» - [رواه مسلم].

وعن أبي هُريرةَ رَضيَ الله قالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ صَلى اللهُ عليْه وسَلّمَ يَقُول: «مَنْ خَرَجَ في طَلَبِ العِلْمِ فهو في سَبِيْلِ اللهِ يَرْجِعَ» - [رواه الترمذي].

وعَن أبي أُمَامَةَ رضيَ اللهُ عنهَ أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليْه وسلمَ قالَ: «فَضْلُ العَالِمِ على العَابِدِ كَفَضْلِي على أدْنَاكُمْ».

وعَن أبي الدَّرداءِ رَضِيَ اللهُ عنهُ قالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليْه وسلَّمَ يَقُولُ: «مَن سَلَكَ طَرِيْقَاً يَبْتَغِي فِيْهِ عِلْمَاً سَهَّلَ اللهُ لهُ طَرِيْقَاً إلى الجَنَّة وإنَّ المَلائِكَةَ لَتَضَعُ أجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ رِضَاً بِما يَصْنَعُ وَ إنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغفِرُ لَهُ مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرضِ حَتَّى الحِيْتَانُ في المَاءِ وفَضْلُ العَالِمِ عَلى العَابِدِ كَفَضلِ القَمَرِ على سَائِرِ الكَوَاكِبِ وإنَّ العُلَماءِ وَرَثَةُ الأنبِيْاءِ وإنَّ الأنبِيْاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِيْناراً ولا دِرْهَمَاً وَ إنَّما وَرَّثُوا العِلْمَ فَمَنْ أخَذَهُ أخذَ بِحَظٍ وَافِرٍ» - [رواه أبو داود والترمذي].

حضارية إنسانية ناضجة قبل ظهور الإسلام، وقد تحقّق ذلك لأول مرة في تاريخ الإنسان بانتقال وادي الرافدين ووادي النيل من عصور ماقبل التاريخ، في أواخر الألف الرابع قبل الميلاد، إلى حياة التحضّر والمدينة بمختلف عناصر الحضارة الأساسية المميّزة، كظهور المدن وأنظمة الحكم والكتابة والتدوين والقوانين المنظمة للحياة الاجتماعية والفنون المختلفة والآداب والممارسات الدينية ومؤسساتها العامة كالمعابد والكهنة، وأسس العلوم والمعارف والممارسات التقنية وأجهزة الري والزراعة وبداية السيطرة على البيئة وتسخير إمكانياتها.[١]

قد تكون هناك أسباب عديدة انحرفت بأمّة القرآن عن جادّة التدبّر وظلّ الداء متفشياً من غير علاج أو المطالبة بالعلاج لهذا العجز العلمي الذي تعيشه الأمة.

وطبيعة العقل العربي في زمن التنزيل - كما يرى الدكتور محمد شحرور - اتّسم بالأميّة والعقلية التشخيصية واستفحال النظرة السكونية إلى التاريخ عند العربي الذي صنع تاريخه دون إدرك حركة التاريخ وتطوره. وعدم إدراك حركة التاريخ وتطوره هي التي أفضت الى السكونية وتمجيد الذات من خلال مكتسبات وقتية لم تمكن من مواصلة النمو الحضاري الذي جاء به الإسلام (وقد جاء به نصّاً من خلال القرآن الذي لم تُفتح أقفال أسراره).

بقيت نزعة التمجيد الذاتي (تذكّيها التشخيصية) غطاءً عن ما ماجت به حضارات الأمم وما أنتجته، وكان أولى برجال هذه الأمة الأوائل التنبّه إلى قصص الأنبياء التي وردت في القرآن إذ أنها تحمل حضارة دين سابق، إلاّ أنّ الأميّة الثقافية التي عاشوها غيّبت الجانب الحضاري لأمم الأنبياء السابقين وأبقت التركيز على كفريات ومعاصي تلك الأمم من غير معرفة منتجهم الحضاري «وأدّت طبيعة الحياة القبلية والبدوية إلى خلق حالتي الثبات والسكون والانشغال بالتفصيلات الجزئية نتيجة بطء حركية واقعه المحدود وانغلاقه على حدود نسقه الثقافي، فلم يتمكن العقل العربي المحدود من أن يدرك معاني التطور والترقّي في سيرورتها الحضارية، مما أثّر على طريقته ومنهجيته في التعامل مع التنزيل. . . ولذلك فإنّ منظومته التفسيرية للكون ولحركية التاريخ وحراك المجتمع لم تدرك أثر التراكم الحضاري الممتد والعابر للثقافات على

---

(١) طه باقر: ملحمة كلكامش.

تجربته الذاتية»[1]. وقد تنبّه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لهذه الفجوة الحضارية (على المستوى المادي) فقام بوضع تاريخ للأمة ونظّم الشأن الإداري والعسكري والسياسي، فدوّن الدواوين واتّخذ بيتاً للمال وأنشأ المدن (تمصير الأمصار)، وعقد مؤتمرات سنوية باجتماعه بولاته في كلّ موسم حجّ، ومهّد الطرق، وأقام المعسكرات وأمر بالتجنيد وحرس الحدود، ووضع نظاماً للحكم من خلال الشورى، وأسّس عشرات التنظيمات المستلهمة من حضارات سبقت تواجد الحضارة الإسلامية. . . كلها أفعال كانت تشير إلى أهمية الانفتاح الحضاري على الآخر. لكنّ ذلك الانفتاح اقتصر في البدء على شؤون الدولة، ومع الأيام حدث الخلط بين ما هو سياسي ويحقق الاستقرار وما هو ديني يثبت الانعزال وعدم الاندماج في الآخر مما جعل عملية التأثر والتأثير محدودة للغاية.

لقد أهملنا القرآن بالحفظ، وكان حريّاً بنا إحياء عقولنا بما جاء به من آيات بواسطة التدبّر والتمعّن والتنقيب في أسرار الكون. فالمسلم يؤمن إيماناً مطلقاً أنّ القرآن كلام الله، وكلام الله هادٍ، هادٍ بفتح مغاليق الكون من خلال الإشارات المتناثرة في آياته، فلماذا لم يتبع تلك الإشارات كي يصل إلى أسرارها الممنوحة له؟

لقد انغمس الأوائل (ذوي الأصول العربية) في علم البيان متخلّين عن أدوات البرهان التي تمثّل العلم في أنساقه المختلفة، ولهذا حدث تراكمٌ كمّي مهول من علوم البيان مع نبذ الفلسفة والعلوم التطبيقية وتجريم من يعمل بها، فتأخّرت الحضارة الإسلامية في منجزاتها العلمية تأخّراً أضرّ بها كثيراً وأفقدها ميزة أن تكون حضارة برهان أكثر من أن تكون حضارة بيان.

١٢

مع نزول الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم مضت الدعوة سرّاً لثلاثة أعوام إلى أن جاء الأمر الإلهي بالصدع[2] فبدأ الرسول صلى الله عليه وسلم بعشيرته

---

(١) الدكتور محمد شحرور: القصص القراني - قراءة معاصرة، المجلد الأول: مدخل إلى القصص وقصة آدم.

(٢) ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ - [الحجر: ٩٤].

الأقربين[١] حيث صعد الصفا[٢] وهتف: يا صباحاه![٣] وبعد هذا بدات المواجهة العلنية بين الإسلام والمشركين. وكانت مواجهة أهل مكة للرسول بالإيذاء وإلصاق

(١) قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ۝ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ - [الشعراء: ٢١٤-٢١٥].

(٢) الصفا أكمة صخرية تقع بوادي إبراهيم من الجهة الجنوبية تُجمع جميع كتب التاريخ الإسلامي أنّ السيدة هاجر قامت بصعودها والهبوط منها إلى أكمة مقابلة هي «المروة» وسعت بينهما سبع مرات. وقد تحولت الأكمتان إلى مكانٍ للسعي بعد أن دخلت في الشعائر لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ - البقرة: ١٥٨].

(٣) قال ابن عباس: لمّا نزلت (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) [الشعراء: ٢١٤] خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فصعد على الصفا فهتف: يا صباحاه! فاجتمعوا إليه فقال: يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف! فاجتمعوا إليه. فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أنّ خيلاً تخرج بسفح الجبل أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم، ما جرّبنا عليك كذباً. قال: فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تبّا لك! أما جمعتنا إلاّ لهذا؟ ثم قام. فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: ١].
وقال جعفر بن عبد الله بن أبي الحكم: لمّا أنزل الله على رسوله: ﴿وأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ اشتدّ ذلك عليه وضاق به ذرعاً فجلس في بيته كالمريض فأتته عمّاته يعدنه، فقال: ما اشتكيت شيئاً ولكنّ الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين. فقلن له: فادعهم ولا تدعُ أبا لهب فيهم فإنه غير مجيبك. فدعاهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ فحضروا ومعهم نفر من بني المطلب بن عبد مناف، فكانوا خمسة وأربعين رجلاً، فبادره أبو لهب وقال: هؤلاء هم عمومتك وبنو عمك فتكلم ودع الصباة واعلم أنه ليس لقومك في العرب قاطبةً طاقة، وأن أحقّ من أخذك فحبسك بنو أبيك، وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش وتمدّهم العرب، فما رأيت أحداً جاء على بني أبيه بشرٍّ مما جئتهم به. فسكت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يتكلم في ذلك المجلس، ثم دعاهم ثانيةً وقال: الحمد لله أحمده وأستعينه وأؤمن به وأتوكّل عليه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ثم قال: إنّ الرائد لا يكذب أهله، والله الذي لا إله إلا هو إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة، والله لتموتن كما تنامون ولتبعثنّ كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون، وإنها الجنة أبداً والنار أبداً. فقال أبو طالب: ما أحبّ إلينا معاونتك وأقبلنا لنصيحتك وأشدّ تصديقنا لحديثك وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون وإنما أنا أحدهم غير أني أسرعهم إلى ما تحب فامض لما أمرت به فوالله لا أزال، فقال أبو لهب: هذه والله السوأة! خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم. فقال أبو طالب: والله لنمنعنّه ما بقينا. - (ابن الأثير: الكامل في التاريخ).

التهم به شخصياً، فقيل: شاعر، وقيل: مجنون، وقيل: ساحر. ومع توالي نزول أيات القرآن احتاروا حيال ما يُقال، وقد وصف الوليد بن المغيرة القرآن وصفاً بليغاً[١]. وبعد أن استوطنتهم الحيرة حيال الآيات التي تخاطب عقولهم ووجدانهم وتذكر لهم ما حدث للأمم السابقة لم يجدوا ما يقولونه للرسول صلى الله عليه وسلم عن تلك الآيات إلاّ أنها (أساطير الأولين)، وقد وردت بهذه الصياغة في تسع مواضع[٢] وفي جميع تلك الآيات لم تعنِ الأساطير الأباطيل أو الكذب، بل جنحت

(١) وعن ابن عباس قال: إنّ الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: اقرأ علي، فقرأ عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى...﴾ فقال: أعد، فأعاد. فقال: والله إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه، وإنه ليحطّم ما تحته، وما يقول هذا بشر.

(٢) والآيات التسع التي وردت فيها كلمة أساطير مقترنةً بمفردة الأولين هي:

١-قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُالأَوَّلِينَ﴾- [الأنعام: ٢٥].

٢- قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُالأَوَّلِينَ * قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ - [الأنفال: ٣١-٣٢].

٣- قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ * قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُالأَوَّلِينَ﴾ - [المؤمنون: ٨١-٨٣].

٤- قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ - [النحل: ٢٤].

٥- قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً * وَقَالُوا أَسَاطِيرُالأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ - [الفرقان: ٤-٦].

٦- قال تعالى: ﴿بَلْ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُالأَوَّلِينَ﴾ - [النمل: ٦٦-٦٨].

٧- قال تعالى: ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُالأَوَّلِينَ﴾ - [القلم: ١٤-١٥].

٨- قال تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتْ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُالأَوَّلِينَ﴾ - [الأحقاف: ١٧]. =

كلّ المعاني (في الآيات) إلى الدلالة اللغوية عند العرب، إذ إنّ سطر هو السطر، والسطر الصفّ من الكتاب والشجر والنخل ونحوها. وقال الزجّاج في قوله تعالى ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[1]: «خبر لابتداء محذوف المعنى». وقالوا: الذي جاء به أساطير الأولين معناه سطّره الأولون، وواحد الأساطير أسطورة، كما قالوا: أحدوثة وأحاديث، وسطر بسطر إذا كُتب. قال الله تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أي وما تكتب الملائكة. وسَطر الكتاب يسطره سطراً، وسطره واستطره. وفي التنزيل: وكلّ صغير وكبير مستطر، وسطر يسطر سطراً كتب، واستطر مثله. قال أبو سعيد الضرير: «سمعت أعرابياً فصيحاً يقول: أسطر فلان اسمي، أي تجاوز السطر الذي فيه اسمي، فإذا كتبه قيل: سطره»[2]

ولو اقتفينا أثر تعريفات الأسطورة سنجد عشرات التعريفات، إلاّ أنّ أقرب تعريف ترسّخ في ذهنيّة الناس هو أنّ الأسطورة حاوية لكلّ شيء يناقض الواقع أو ليس له في الواقع وجود.

وقد تمّ ترسيخ هذا المفهوم في الأذهان من خلال الدراسات الغربية التي أحيت هذا الجانب وأبحرت فيه (الراجح أنّ هذا التفسير جاء من اجتهاد المترجمين في أوائل النهضة عندما جعلوا الأسطورة ترجمة لكلمة "Myth" التي كانت تعني «ما يناقض الواقع»).

= ٩- قال تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۞ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ۞ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۞ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ - [المطففين: ١٠-١٣].

(١) ثمة مقولات عديدة حول مفردة الأسطورة إذ تتقاسم هذه المفردة التعريفات بين كونها ما سطره الأوائل وبين كونها تشير إلى أكاذيب. ففي صحيح البخاري يرى أنها تعني الترهات، والبيضاوي يعدها من الأكاذيب، وفي كتاب فتح القدير وردت على أنها من الأباطيل والترهات والكذب، أما القرطبي فيدخلها في الأقاويل التي تكتب، وأبي السعود ينسبها إلى ما سطره الأوائل من خرافات.

وفي مجمل هذه الآراء التي تصم الأساطير بالأباطيل لم يلتفت هؤلاء العلماء إلى أنّ القرآن لم يصم تلك الأساطير بأنها كذب أو خرافات بل جاءت على لسان مشركي قريش كمواجهة وردّ على الآيات التي ذكرت أخبار الأنبياء السابقين ومعجزاتهم، فإذا كانت تلك المعجزات كذباً من وجهة نظر المشركين فهي حقيقة وواقع تثبتها الآيات القرآنية.

(٢) ابن منظور: لسان العرب.

ولو تتبعنا مفردة الأساطير في القرآن فهي لا تأتي بمعنى الأباطيل أو الأكاذيب، بل استُخدمت من قبل كفّار قريش بمعنى أنّ ما تقوله يا محمد استقيته من كتب الأولين[1]، ولهذا نجد الأساطير متلازمة مع ما سطر من أخبار الاولين.

كما نلحظ أنّ القصّ القرآني مجّد كثيراً من الأفعال المؤسطرة وأثبتها كحدث حقيقي وقع فعلاً لا كأباطيل يمكن التشكيك فيها، مثل عصا موسى وموت عزير وما فعله عيسى حين (يخلق من الطين كهيئة الطير وينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله)[2] وإحياء طيور ابراهيم بعد ذبحها وتوزيعها على قمم الجبال[3] ونزول المائدة من السماء[4] أو أن يكلّم سليمان عليه السلام الطيور ويسمع كلام الحشرات (النملة) أو يأمر الجن فتطيعه، وإن كانت قد جاءت كلّ هذه الأفعال كمعجزات للأنبياء عليهم السلام، إلا أنّ هناك وجوداً أسطورياً مستقبلياً سوف يقف عليه أناسٌ يعيشون في زمنه، كالدابّة التي تخرج من مكة المكرمة أو ظهور المسيخ الدجال وما يقوم به من أفاعيل (تدخل ضمن الخوارق) أو النار التي تخرج من عدن.

والمعجزات التي حدثت للأنبياء عليهم السلام تستقبلها الذهنية غير المؤمنة بالرفض والتهكّم واستحالة وقوعها، ومن هنا يطلق عليها أباطيل، بينما العقلية المؤمنة تؤمن بحدوثها حتى وإن عجز عقلها عن استيعابها، ومن هنا يتباين الموقف

---

(١) قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ - [الفرقان: ٤-٦].

(٢) قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الكِتَابَ وَالحِكمَةَ وَالتوراةَ وَالإنجِيلَ * وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسرائيلَ أني قَد جِئتُكُم بِآيَةٍ من ربكم أَنِي أَخلُقُ لَكُم منَ الطينِ كَهَيئَةِ الطيرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيرًا بِإذنِ اللهِ وَأُبرِئُ الأكمَهَ والأبرَصَ وَأُحيي المَوتَى بِإذنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأكُلُونَ وَمَا تَدخِرُونَ فِي بُيُوتِكُم إن فِي ذلِكَ لآيَةً لكُم إن كُنتُم مؤمِنِينَ﴾ - [آل عمران: ٤٨-٤٩].

(٣) يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ - [البقرة: ٢٦٠].

(٤) قال الله تعالى في محكم كتابه: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ. قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ - [المائدة: ١١٤].

من الخوارق التي تحدّث عنها القرآن في كثيرٍ من المواقع.

وحين يذكر القرآن أفعالاً تبدو للوهلة الأولى غير ممكنة ويؤكّد على وقوعها، فهذا يعني أنّ الفعل الأسطوري سيتكرر - بصورة أو أخرى - في زمنٍ آخر وبإذن الله عزّ وجلّ. ولم ترد كلّ الأفعال التي حدثت في زمن الأنبياء عليهم السلام كمعجزات وقتية، بل كانت نماذجَ لما قد يحدث في مستقبل الأيام.

وحين يقول تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1] يقصد أنّ تلك القصص لم ترد فقط لإخبار النبي وقومه بما حدث في الأمم السالفة وتأكيد بوقوعه وأنها ليست حديثاً مفترى، بل هي تفصيل لكلّ شيء. ولا أعرف لماذا أُخذت جملة (تفصيل لكل شيء) على ماضويتها وعدم تكرارها مع أنّ قدرة الله عزّ وجلّ حادثة في الزمان والمكان، أي أنّ ليس لها زمنية كي تعمل وزمنية كي تتعطل، ولهذا فما حدث في زمن الرسل والأنبياء كمعجزات فإنّ الله قادر على إحداثه في زمنٍ آخر ﴿. . . . قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ والقدرة الإتيان بالفعل الخارق في أيّ زمنٍ كان.

والله حين خلق الكون خلقه وفق نظامٍ جارٍ لا يتعطّل، فإن كان تعريف المعجزة أنها خرقٌ للنظام فهو تعريف أنتجته ثقّافة زمنية وقتية لم تكن تستوعب ما سوف يحدث من ثورات علمية متقدمة. والراسخون في العلم يدركون تماماً أنّ كلّ شيء في الأرض وفي السماء يسير على هدي شرائع لا استثناءات فيها ولا فوضى، ولو حدث الاستثناء لفسد كلّ ما في الأرض والسماء.[2]

والمعجزات التي حدثت لم تخرج خارج النظام بل كانت ضمن إطاره، إلا أنها حين ظهرت في تلك الفترة الزمنية حُسبت كاختراق للسنن الكونية، بينما هي تندرج ضمن معادلة إلهية أزلية متى ما تمّ تحقيق شروطها أوصلت إلى ناتجٍ قيمي واحد مهما اختلف المكان أو الزمان أو منفّذ شروط المعادلة ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا﴾[3].

---

(١) سورة يوسف: ١١١.

(٢) الدكتور عبد المحسن صالح: **الإنسان الحائر بين العلم والخرافة**، عالم المعرفة.

(٣) سورة الفتح: ٢٣.

الحكمة الإلهية من الخلق والوجود هي حكمة عميقة لم يشأ لنا الرحمن التعرّف إليها كاملةً وفي زمنٍ واحد، فما نجهله اليوم قد نعرفه في الغد، وقد تعهّد الله بالكشف عن أياته وأنه شهيدٌ على ذلك[1]. وهذا التدرّج ينتج من خلال التراكم المعرفي؛ فما كان يُعدُّ مستحيل الوقوع في زمنٍ سابق غدا اليوم من المشاهدات الطبيعية المألوفة.

الموجود موجود منذ الأزل، وعدم معرفتنا به لا يلغي وجوده، وقد أودع الله أسراره كلَّ شيء فإن عجزنا عن الوصول إليها فهو عجزٌ معرفيّ وليس عجزَ وجود.

ولم يخلقنا الله بلا وسيلة توصلنا إلى جوهر وعمق الأشياء، فقد روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أول ما خلق الله سبحانه وتعال العقل فقال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، فقال عزّ من قائل: وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً أعزّ علي منك، بك آخذ وبك أعطي وبك أحاسب وبك أعاقب». بموجب هذا الحديث فإنّ العقل كان الرابط بين الإنسان العاقل وبين الله.[2]

وإذا كان العقل هو الرابط فلا بدّ وأنّ لهذا العقل ميزة تتّسع لاستيعاب ما خلق الله وله ميزة البحث والاستدلال، أي أنه قوة لها مقدرة الوصول ومقدرة الكشف، يُضاف إليها مقدرة الرفض والترجيح. ولأنّ العقل يميّز فقد يأتي عليه زمان يكون رافضاً لشيءٍ حادث حتى إذا تكشّف له ما خلف ذلك الحدث يتقبّله.

العقل ينمو بالمعارف ومن خلالها يقيم الوشائج من أجل الكشف عمّا هو أبعد، وفي سبيل حصوله على المعارف يتحول إلى عقل جمعي، أي أنه يستفيد ممّا أنتجه الإنسان في أزمانٍ غابرة أو معاصرة ليكون من ذلك النتاج معارفه التي يسير بها في حياته، أو قد يطوّر ما كان ضامراً فيحيله ارتواءً، وقد يحقق في تجربةٍ قديمة فيجد مفاتيح تحقيقها مجدّداً.

وقد اهتمت الأسطورة اهتماماً بالغاً بما وراء الغيبيات كشارحٍ ومفسّرٍ لغموض الكون، وفي كلّ مرة يأتي العقل ناقضاً ما هو مغاير لخلق الله.

---

(١) ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ - [فُصّلت: ٥٣].

(٢) نزار يوسف: الحكمة بين الإله والسلطان.

وكانت رأفة الله بخلقه إرسال الرسل والأنبياء حين تشقّ البشرية طريقاً مظلماً مدلهمّاً، فتأتي الأنوار الربانية موجّهة إياها إلى الطريق الصائب، وهذا التوجيه ليس توجيهاً إجبارياً بل توجيه من يعرف لمن لا يعرف.

ولأنّ العقل هو ميزان الإدراك فقد جعله الله شرطاً في التكليفات، وبواسطته تحدّد المواقف من الأشياء موقف المستوضح، ودرجات الإدراك متفاوتة، وهي بهذا التفاوت تفرز التباين وتخلق القيادة وتخلق حالات التدافع(١). والتدافع يحدث باعتناق فكرة ما والتحلّق حولها، تقابلها قوة أخرى بيقينٍ مغاير، إلاّ أنّ الفيصل بين الفريقين هو الحكمة، والحكمة ليست واضحة للكل(٢)، والحقيقة أنّ مفهوم الحكمة، منذ بزوغ فجر الحضارات القديمة وما بعدها، ارتبط بأمرين اثنين: الأسطورة والإنسان قديماً، ثم الدين والسياسة أو الإله والسلطان لاحقاً أو حديثاً(٣). والأسطورة متقدّمة على الدين في تمدّدها وشيوعها، وليس في يقينها، حتى إذا جاء الدين وأراد نقضها استخدم أدواتها وخوارقها، إلا أنّ استخدامَه للأسطورة استخدامُ حقيقة، ولعجز العقل عن استيعاب المعجزة أدخلها ضمن الخوارق، بينما العلم يسعى دؤوباً الآن إلى تحقيق تلك الخوارق كون الوصول إليها لا يخرج عن دائرة إرادة الله، فالله خلق كلّ شيء بقدر(٤)، أي أنّ الكون مخلوق وفق معادلات متى ما تمّ تطبيق المعادلة بهدف ايجاد القيمة الغائبة منها - وكان التطبيق صائباً - فإنّ الغائب يتمّ استحضاره واستطاع المطبّق الوصول إلى القيم الغائبة بمعرفتها معرفة يقين.

والملاحظ أنّ الناس تعاملوا مع تلك الأساطير الواردة في القران تعاملاً ناقصاً، إذ آمنوا بها كحالة ذكرها القرآن لكنهم أضفوا عليها الكثير من الخرافات(٥) سواء

---

(١) قال تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ - [الحج: ٤٠].

(٢) ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ - [البقرة: ٢٦٩].
ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله».

(٣) نزار يوسف: المصدر نفسه.

(٤) يقول تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ - [القمر: ٤٩].

(٥) نظراً إلى أنّ عدن كانت تتكوّن من أخدودٍ هائل كان بركاناً ثائراً في الأزمنة القديمة فقد آلّفت القصص والأساطير حوله، ومن بين هذه القصص أنّ القديس بارثولوميو زار عدن وهو في =

كانت خرافات متعلقة بالقص الديني أو على مستوى الحياة الاجتماعية،[1] بينما كان من المفترض - في ظلّ وجود اليقين الكامل بحدوثها - العمل على استظهارها مرةً أخرى، واستظهارها من خلال العقل. فمع انتهاء زمن الرسالات أصبح العقل هو الرسول، ولهذا نجد أنّ كثيراً من الآيات تستنهض هذا العقل من أجل التدبّر والتمعّن لتحقيق المعجزات الخارقة، الموجودة أصلاً داخل النظام الذي أقامه الله عزّ وجلّ، ويكون الوصول إلى تلك الخوارق ليس خارج إرادة الله بل ضمن إرادته، ويكون بإذنه إن مكّن العقل (أو العلم) من الوصول إليها.

وإن كان أصل ومنشأ مفهوم الحكمة تاريخياً بدأ مع ظهور العقل في الإنسان[2]

= طريقه إلى الهند، وأنه رأى أهل عدن واقعين تحت سيطرة الجن، يعبدون النار والشيطان ويقدمون القرابين، وكان الشيطان يسكن بئراً يقال إنها تقع فوق جبل صيرة، ويقال إنها في شارع الزعفران، وكان الناس يحصلون على مائهم من هذه البئر. وحين اجتمع الناس حول البئر كان الشيطان يصرخ من بطنها ويقذف باللهب فيخرّ الناس سجّدا.

غضب القديس وقرر أن يحضر ويشاهد أعمال الشيطان، ولمّا رأى الشيطان القديس صرخ وقذف باللهب والماء فوضع القديس عباءته حول وجهه وتقدّم وهو يقول: «باسم المسيح المنقذ ابتعد أيها الشيطان وليتجمّد ماء هذه البئر» وفي الحال انطفأت النار وفرّ الشيطان إلى غير عودة وتجمّد ماء البئر. (حمزة علي لقمان: **أساطير من تاريخ اليمن**، ص١٨).

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «نار تخرج من قعرة عدن تطرد الناس إلى المحشر» - روى هذا الحديث الإمام مسلم.

(١) كثرت الخرافات في جانبها الاجتماعي بصورة طاغية، ومن تلك الخرافات - على سبيل المثال - الخشية من كوكب الزهرة، وقد حمّلوها تهمة فضّ بكارة الصبايا، فالفتاة التي تسهر وتطلع عليها نجمة الصبح (كوكب الزهرة) يقولون إنها فقدت بكارتها، حيث يتحول القمر إلى رجل يتربّع أشجار الأثل ويقوم بفضّ البكارة. ولكي يعالجوا هذا الوضع يمررونها على بندقية تلقى على الأرض لتخطوها سبع مرات لتعود إليها بكارتها، ولاختبار عودة البكارة يصوّبون بالبندقية فإن أصابت الهدف فهذا يعني أن بكارتها عادت وإن لم تصب الهدف فهذا يعني أن بكارتها لم تعد فيعيدون الكرّة.

وصفة البندقية التي تستخدم أنها تزين بإحدى عشر ناباً للوبر وتدهن بشحمه وترصّع بدبابيس لها لمعان الذهب.

(٢) نزار يوسف: المصدر السابق.

فهذا العقل أمضى سنوات طوال في نموه وتزوّد بكلّ أنواع المعارف ومازال يواصل نموه لكي يصل إلى الحكمة الإلهية التي خلقه الله من أجل تحقيقها.

١٣

طرفة عين، زمن لا نكترث به.. هذا الزمن جُلب فيه عرش بلقيس وغير التاريخ.

الكون فضاء يمنح الباحثين مفاتيح أبوابه المغلقة.

فمنذ أن وجد وهو يسرب أسراره يومياً، ومنذ أن وجد الإنسان وهو يبحث في تلك الأسرار، وكلما كشف عن سرّ زادت معرفته ورغب في كشف الطلاسم التي تحيط به.

إنّ الإنسان وجد نفسه جاهلاً بما يدور حوله وغير قادرٍ على السيطرة على ما يموج في الكون، فاستسلم للقوى التي لا يستطيع التغلّب عليها وعبدها. وكلّما مرّ الزمن واكتسب معرفةً تحوّل عنها إلى ما لا يعرف ماهيته. وكان يحارب جهله بالبحث في ماهية ما يحيط به من ظواهر الطبيعة، ويوجد لها الأسباب التي تقنعه، وهو اقتناع مرحلي قادته الأسطورة، لذا فإن الأساطير ما هي سوى تفسير بدائي للعالم والإنسان. وفي بحثه ذاك اكتسب خبرات ومعارف تسلّح بها في مواجهة القادم حتى إذا استعصى عليه «أخذ يُعمل عقله وجهده في التفكير بها وبدأ مفهوم الحكمة يأخذ له مكاناً في عقل هذا الإنسان»[1] وظلّ عقله في حالة نمو واكتساب خبرات تراكمية تمكّنه من اجتياز ما استعصى عليه سابقاً، وفي نفس الوقت كان الدين يوازي هذا النمو فكلّما حدث انحراف جاء الدين باثّاً نوراً يضيء جنبات حياة الإنسان ليوصله إلى مرحلة تالية، حتى إذا بلغ العقل رشده كان الدين قد بلغ رشده أيضاً، إذ لا يوجد من تفسير لتوقّف إرسال الرسل إلاّ أنّ العقل قد أصبح قادراً على اختراق ما تبقّى من وجوده الدنيوي بمفرده.[2]

واذا آمنّا بمقولة يوهان غوته التي يقول فيها «مع المعرفة يكبر الشك» فهو شكّ

(١) نزار يوسف: المصدر السابق.

(٢) يقول الثعالبي في قصص الأنبياء إنّ الحكماء قالوا: خلق الله تعالى الخلق ليظهر وجوده، ولو لم يخلق لما عُرف أنه موجود، وليظهر كمال علمه قدرته بظهور أفعاله المتقنة المحكمة.

البحث عن كمال العقل وليس شك الارتياب والارتكاس، وهو الشك الذي حفّزه القرآن الكريم بالبحث والتدبّر في الآيات المبثوثة في الكون[1] مع التحدي بأنّ معرفتك التي قادتك إلى الشك معرفة قاصرة عن الوصول إلى معرفة ماهية المطلق، وإنما يوصلك إلى عظمة تلك الماهية ما تمّ صياغته في الكون من عظمة تقف حيالها صاغراً.[2]

هل كان أحد ممّن عاش في الأزمنة السحيقة - مهما بلغ علمه - يفوق عِلم أحدنا في هذه الأيام؟

إنّ جريان الزمن يكسب المرء رؤيةً ودراية بما رآه أكثر وأعمق ممّن توقّف به الزمن، و الوصول إلى محطة متقدمة من خط سير أو سفر يكون فيها المسافر ملمّاً بما عبره في سيره وعلمه، أو درايته بالنقطة التي وصل إليها تفوق (وتكاد لا تقارن ب) دراية من توقف في نقطةٍ متأخرة من الزمن.

هذا المسافر هو العقل.

هو يعلم الآن حين تمنحه قياس سرعة وتقول له: أنت تسير بسرعة الصوت أو بسرعة الضوء، أن يقدّر الزمن الذي تحدّده بعداً أو قرباً، فلو قلت له: إنّ جرماً سماوياً يصل ضوءه إلى الأرض في مليار سنة ضوئية، سوف يبهت ويدرك كم هي مسافة عميقة وسحيقة في جوف هذا الكون. . .

ومع علم الفلك تستطيع أن تفهم المعجزة العظيمة التي فاقت كل معجزات الرسل حين أُسري بالرسول صلى الله عليه وسلم إلى السماء السابعة. وهي المعجزة التي لم يتنبّه لها من قبل المسلمين، وظلّت الدراسات تطوف حول ما حدث في تلك الرحلة، بينما الإشارة إلى الزمن الذي اخترق فيه الرسول صلى الله عليه وسلم كلّ هذه المسافات السحيقة.

---

(١) يقول سبحانه عزّ وجل: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ - [تبارك: ٣-٤].

(٢) ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ - [يوسف: ٧٦].
وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسيره لآية ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ قَالَ: يَكُونُ هَذَا أَعْلَمُ مِنْ هَذَا، وَيَكُونُ هَذَا أَعْلَمُ مِنْ هَذَا، وَاللَّهُ فَوْقَ كُلِّ عَالِمٍ. - (الأسماء والصفات للبيهقي).

وعدم الانتباه هذا متكرر، فآيات الزمن التي وردت في القرآن تخلع الفؤاد.

الآن، وبما نحمل من معرفة ضئيلة عن الكون والسرعة، نثمّن تلك الآيات التي جاءت لتتحدث عن الزمن في القرآن الكريم. فقصة سيدنا سليمان مع عرش بلقيس كانت آية الزمن هي الحاضرة ولم ينجز فعلها إلا صاحب علم[١]، وهي إشارة واضحة إلى أنّ من يمتلك العلم أكثر درايةً من الجن الذين نحسبهم خارقين للعادة، فالجنّي قال إنه قادر على الإتيان بعرش بلقيس قبل أن يقوم سليمان من مقعده، بينما صاحب العلم قال إني قادر أن آتي به قبل أن يرتد إليك طرفك.[٢]

هذا الفعل إشارة أخرى إلى أنّ هناك سرعات زمنية مختلفة سيصل إليها العلم بالتوالي، فإن كان صاحب العلم بالكتاب قد جلب عرش بلقيس في طرفة عين[٣] فهناك من سيأتي ويكون أعلم بالكتاب (والكتاب المقصود هنا علم الله) ليصل إلى ما لم يصله من سبقه من ذوي العلم. ولأنّ هذه الحادثة لم يستطع أن يستوعبها من سبقنا من المفسرين، فقد ذهب بعضهم إلى أنّ الإحضار لم يكن إلا صورياً وليس واقعياً، وهو نفس الجدل الذي حدث حول الإسراء والمعراج، إذ لم يتم استيعاب

---

(١) قال عطاء عن مجاهد عن ابن عباس: وكان سليمان رجلاً مَهيباً لا يُبتدأ بشيء حتى يكون هو الذي يُسأل عنه، فخرج يومئذٍ فجلس على سريره فرأى رهجاً قريباً منه فقال: ما هذا؟ قالوا: بلقيس يا رسول الله. قال: وقد نزلت منا بهذا المكان! قال مجاهد: فوصف لنا ذلك ابن عباس فحزَرْته ما بين الكوفة والحيرة قدْر فرسخ. قال: فأقبل على جنوده فقال: أيّكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين؟ قال عفريتٌ من الجن: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك الذي أنت فيه إلى الحين الذي تقوم إلى غدائك. قال: قال سليمان: من يأتيني به قبل ذلك؟ قال الذي عنده علمٌ من الكتاب: أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفُك. فنظر إلى سليمان فلما قطع كلامه ردّ سليمان بصره على العرش فرأى سريرها قد خرج ونبع من تحت كرسيه، فلما رآه مستقرّاً عنده قال: هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر إذ أتاني به قبل أن يرتد إليّ طرفي أم أكفُر إذ جعل من تحت يدي أقدَر على المجيء به منّي؟ قال: فوضعوا لها عرشها. قال: فلما جاءت قعدتْ إلى سليمان قيل لها: أهكذا عرشُكِ؟ فنظرت إليه فقالت: كأنه هو !- (ابن الأثير: الكامل في التاريخ)

(٢) قال تعالى: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ۞ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ۞ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ - [النمل:٣٨-٤٠].

(٣) تتجاوز سرعة طرفة العين العشرة آلاف كيلومتر في الثانية.

التنقّلات التي حدثت في ليلة الإسراء والمعراج، ولم يكن يشغلهم الإسراء إلى السماء بل يشغلهم بُعد مسافة بيت المقدس عن مكة، ولهذا عندما أراد المفسّرون تفسير هذه الرحلة العظيمة ولم يستطيعوا استيعاب التنقلات التي أخبر عنها الرسول صلى الله عليه وسلم، ومع إيمانهم الكامل بما أخبر، كانوا يبحثون عن تبرير أو تحليل يثبت إيمانهم بما هم مصدّقين، فذهبوا إلى أنّ الإسراء كان بالروح من غير الجسد، وأغفلوا أنّ هناك دابّة اسمها البراق كانت وسيلة نقله، إذ كيف ترحل الروح محرّرةً من الجسد في حين أنّ هناك دابّة أُعدت للنقل؟

والإشارة الزمنية التي ذكرها الله عزّ وجل في خلق السموات والأرض في ستة أيام[1] لم نتنبه إلى أنها من أيام الله[2] التي يقدّر فيها اليوم بألف سنة مما نعدّ، أي أنّ الخلق استمرّ ستة آلاف سنة، ومع يقيننا أنّ الله قادر على كلّ شيء وإذا قال لشيءٍ كن فيكن[3] إلا أنّ ذكره لستة أيام هي إشارة أخرى إلى أهمية العمل والإتقان فيه.[4]

وإشارة زمنية أخرى في صعود الملائكة إليه سبحانة وتعالى يمنحنا بعداً إضافيا للزمن، إلا أنّ كلّ تلك اللمحات كانت تعبرنا من غير البحث في ما أمرنا به الله من تدبّر، إذ إنّ الله قد منح الإنسان العقل والحكمة، وهما ميزتان مقدرتان حتى في

---

(١) قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ...﴾ - [الأعراف: ٥٤].

(٢) قول الله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ - [الحج: ٤٧].

(٣) قول الله عز وجل: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ - [البقرة: ١١٧].
وقال تعالى: ﴿...قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ - [آل عمران: ٤٧].
وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ - [غافر: ٦٨].
وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ - [القمر: ٥٠].

(٤) قال القاضي أبو السعود في تفسيره عن آية الأعراف: «وفي خلق الأشياء مدرجاً مع القدرة على إبداعها دفعة دليل على الاختيار، واعتبار للنظار، وحث على التأني في الأمور».

عهد النبوة، فموسى عليه السلام كان نبياً لكنّ الرجل الصالح صاحب علم، وفي قصتهما نموذجٌ حيّ لما يمتلكه صاحب العلم من دراية وعلم بما سيكون، وكل ذلك يحدث بمشيئة الله.

الآن، ونحن وجهاً لوجه مع الكون، علينا أن نُعمل عقولنا في آيات القرآن لنصل إلى الأسرار الغائبة ونحققها كما أراد الله، فديننا دين برهان قبل أن يكون دين بيان.

كلّه عفن

عاش صياد بجوار البحر مبتنياً كوخاً صغيراً في مواجهة الشاطئ، وظلّ يعيش بمفرده زمناً طويلاً. وذات يوم تحدّث معه صديق له عارضاً عليه الزواج من أخته، فقبل على الفور، ولم تمضِ أيامٌ حتى كانت زوجته تشاركه ذلك الكوخ، وكانت امرأة طيّبة عيبها يكمن في شيئين: إنها تتأفّف من الروائح الكريهة، ولا تحبّ السمك، ووجد الصياد مشقّةً كبيرة بين طبعها وعمله، فعمله يقتضي أن تفوح منه رائحة السمك، وكان يخرج كلّ صباح ليصطاد سمكاً ويبيعه داخل سوق المدينة ويشتري بما حصل عليه ما تحتاجه زوجته لتدبّر معيشتهم. وقبل أن يصل إليها يضع (زنبيله) على الشطّ ويدخل إلى أعماق البحر ويغتسل، متخلّصاً من روائح السمك الذي علق به، ويعود إلى زوجته مبتهجاً فتستقبله استقبالاً طيّباً.

مضت حياتهما على هذا النسق زمناً طويلاً، ولم يكن يكدّر عليها سوى انبعاث روائح عفن البحر؛ فتجدها متأفّفةً ساخطة تطالب زوجها بالانتقال إلى داخل المدينة، فكان يعتذر منها لضيق رزقه وعدم مقدرته على العيش داخل المدينة بسبب ضيقها واحتياجاتها الكثيرة التي لا يقدر على تلبيتها من خلال رزقه الضئيل.

وذات يوم عاد فوجد زوجته تغطّي خشمها وفمها بقطعة قماش تعطّرها في كلّ حين، ولم تخلع تلك القماشة إلاّ لتغيّرها، حتى إذا خلعتها كتمت أنفاسها ريثما تستبدلها بقطعةٍ أخرى. وضاق بها الحال على ما هي فيه، ولم تشأ مفارقة زوجها لأنها تحبّه حباً شديداً، فكانت تجبر نفسها على تحمّل بقايا «الزَّفَر» العالق بجسده بسبب صيد الأسماك. . . وكانت زياراتها لأهلها قليلة، فإذا خرج زوجها إلى الصيد تبعته تنظر إلى البحر واتّساعه، وتستغرب من مهارة زوجها في مواجهة الموج وثباته

حيال تدافع الأمواج العالية ومقدرته على اقتناص فرائسه من الأسماك الكبيرة، وإذا رأته يجذب سمكةً غطّت على وجهها وهي تصيح:

- كيف تقدر على شمّ رائحة السمك؟

فيتضاحك من فعلها ويتوعدّها بأنّه غداً لو رزقت بولد فسوف يعلّمه كلّ المهارات التي اكتسبها في صيد السمك، فتصيح مستنكرةً: لو رأيت ابني صاد سمكة لرميته في البحر.

مرّت الأيام ورُزقا بصبيٍّ في غاية الجمال فرحا به فرحاً عظيماً، وانشغلت أمه بتربيته وتأديبه وتحريضه على الابتعاد عن مهنة صيد السمك، وكان يستمع إليها ويعدها أن ينفّذ كل رغباتها، فكان يعتذر من أبيه كلّما حاول تعليمه صيد السمك؛ فإذا أصرّ عليه خرج معه وظلّ طوال الوقت يسبح ويغوص في الأعماق من غير أن يصطاد شيئاً. قال له أبوه:

- إذ لم تعجبك مهنة الصيد فتعلّم أيّ شيء يفيدك.

فوعده خيراً.

ذات يوم خرجت الأم إلى الشاطئ لتغسل الملابس فوجدت على الشاطئ سمكةً صغيرةً تتقافز وتصيح بها: أعيديني إلى البحر. فأصابها الفزع، ومن شدّة الخوف تناولت حذاءها وضربت السمكة على رأسها، وقضت عليها وعادت إلى البيت مسرعة.

تلقّاها ابنها، مستغرباً جزعها، وسألها عمّا أصابها، لكنّها لم تخبره بما حدث وبقيت في مكانها صامتة. وفي اليوم التالي كانت بها رغبة لرؤية تلك السمكة التي ضربتها على رأسها، فحملت مجموعة «مواعين» لغسلها واقتربت من المكان نفسه، فكادت أن تزهق روحها من شدّة العفن الذي طفح من رأس تلك السمكة الصغيرة، وكادت أن تعود مسرعة لولا أنها رأت سمكةً كبيرةً تجاورها وتتشمّمها وتقلبها يميناً ويساراً. شدّت الأم الكمّام على فمها وخشمها واقتربت أكثر، وفي لحظة صُعقت وأصابها البكم وهي تسمع السمكة الكبيرة تقول لها:

- سيردّ لك ما فعلتِه...

وانسحبت سريعاً إلى البحر وهي تجرّ سمكتها الصغيرة.

عادت الزوجة أكثر اضطراباً وخوفاً، فاستقبلها ابنها وحاول معرفة ما ألمّ بها إلاّ أنها - كالمرّة السابقة - لم تخبره بما حدث.

غدت الزوجة تتوجّس من كلّ شيء وتترقّب ما وعدت به السمكة الكبيرة، فلم تكن تخرج من الكوخ إلاّ في صحبة ابنها أو زوجها. . . وزادها همّاً على هَمّ إصابة ابنها بمرضٍ مفاجئ جعله طريح الفراش، فكانت تطبّبه، وفي كلّ يوم يزداد إعياؤه وتخرج من رأسه رائحة كريهة كتلك التي شمّتها من السمكة الصغيرة، فيسقط قلبها جزعاً. . .

أُصيب الأب بالحسرة ندماً على مرض ابنه وصمت زوجته المطبق، وكان يأتي بالطبيب تلو الطبيب من غير أن يعرف أحدٌ منهم سبباً محدّداً لعلّة ابنه، وقد نصحه أخيرهم بالصبر وأن يستعيض الله في ابنه، فكتم حزنه عن زوجته وظلّ يرقب ذهولها وجزعها ويتحسّر على ابنه الذي غدت رائحته لا تطاق، فكان يجد في خروجه سلوى ممّا هو فيه.

ذات يوم - وبعد خروج الأب - تحدّث الابن بصوتٍ واهنٍ طالباً من أمه إخراجه إلى الشاطئ لرؤية البحر وتغيير الجو الذي هو فيه، ففرحت وأخذت تسنده وتتشمّم رائحته التي مازالت تفوح بعفنٍ مضاعَف. خطت به عتبات الكوخ وسارا إلى الشاطئ، فطلب منها أن تجلسه في مواجهة البحر حتى تلامس الأمواج قدميه، ففعلت، ثمّ قال لها: اشتهيت أن آكل طعاماً به سمك.

فقالت له: أنت لا تأكل السمك.

فقال لها: لا أعرف، اشتهيت وحسب.

فقالت له: لا يوجد في بيتنا سمك ولم يتعوّد أبوك أن يأتي به إلينا.

فقال لها: أحسّ أنّ روحي سوف تخرج إن لم آكل سمكاً. . .

فقالت له: انتظر سوف أجلب أدوات الصيد من داخل البيت وأعود إليك.

وعادت مسرعةً إلى داخل البيت تبحث عن أدوات الصيد البديلة التي يتركها زوجها خلف الكوخ كي لا تشمّ فيها رائحة السمك. . . وفي هذه الأثناء عاد الأب من السوق بعد أن باع ما اصطاده في الصباح واشترى بثمنه سلعاً للبيت، وكعادته وضع الزنبيل في مواجهة البحر ونزل كي يغتسل، وفي سيره شمّ رائحة عفنٍ لا

تُطاق[1]، ولمح سمكةً كبيرةً ممدّدة على الشاطئ، فخشي أن تأتي زوجته وتجدها فيزداد كرهها للسمك وله، لذا أسرع بسحبها وقذفها إلى داخل البحر، وتراءى له أنه يسحب امرأةً وليس سمكة[2]، وقبل أن يتحقق منها أفلتت من بين يديه، ورآها تقفز بين الأمواج وتسبح بعيداً.

أصابته الدهشة وظلّ فاغراً فمه مستغرباً ممّا حدث، وفي هذه اللحظة قدمت زوجته، فحمد الله أنّه تخلص من عفونة تلك السمكة التي ظنّها ميتة بسبب رائحتها القاتلة.

جاءت زوجته، وعندما قلّبت بصرها على الشاطئ ولم ترَ ابنها صاحت به:

- أين ذهب؟

- مَن؟

- ابننا، تركته هنا.

وأشارت إلى المكان الذي قذف منه السمكة الكبيرة... فقال لها:

- لم يكن هنا إلاّ سمكة كبيرة كانت لها رائحة عفن لا تطاق، وخفت إن أنت جئت يزداد كرهك للسمك ولي فقذفتها بالبحر، لكنّ الذي أدهشني أنها عادت حية وأخذت تسبح إلى داخل البحر.

---

(١) هذه الحكاية تتداخل بشدّة مع الفتى السليمون، وقصة هذا الفتى حدثت في غابة الأمازون. فقد وجد طفل سمكة وكان بها عفن، فلم يمسح العفن ويأكلها كي يكون رجلاً طيباً، بل قام وقذفها بقرف، فوجد نفسه سابحاً في البحر مع أسماك السليمون، وسمّي نصف العفن وظلّ في البحار. وعندما حاول أن يقفز الشلالات لينتقل إلى المياه العذبة صاده أهله وعرفوا فيه ابنهم وعرفوا قيمة السليمون.

(٢) في هذه الجزئية نتذكّر الروح الشريرة للانجسوير «وهي روح شريرة مؤذية لامرأة تموت وهي تضع وليدها كما يعتقد أهالي الملايو. وتُعرف بأظافرها الطويلة وشعرها الطويل الفاحم، الذي يصل إلى كاحلها ويغطّي ثقباً في عنقها تمتصّ به دماء الأطفال، وثوبها الأخضر. ويلجأ الأهالي إلى وضع حبّات من الخرز في فم جثة المرأة وإبرٍ في كفنها وبيضٍ تحت إبطيها حتى لا تستطيع أن تصرخ أو تلوّح بذراعيها لمساعدتها على الطيران، وكي يحولوا بينها وبين أن تصبح لانجسوير. وهي مغرمة بالسمك وتجتمع مع رفيقاتها لسرقة السمك من الصيادين. وإذا قبض على الانجسوير تُقلَّم أظافرها ويُحشر شعرها في ثقبٍ موجودٍ في عنقها، وبهذا تصبح مثل أي امرأة عادية».

فصاحت وضربت خدّها وشقّت ثيابها وولولت:

- انتقمت منّي السمكة. . .

لم يفهم زوجها سرّ صياحها، وحاول تهدئتها، لكنّها لم تهدأ وأخذت تضرب صدره ووجهه وهي تصيح:

- لقد حرمتنا من ابننا، فالسمكة التي رميتها للبحر كانت ابنك.

وقصّت عليه حكاية السمكة الصغيرة وضربها إيّاها، وكيف رأت سمكة كبيرةً تقلّبها وتتشمّمها وتطلق الوعود بأن تنتقم لصغيرتها.

قفز الصياد إلى عمق البحر يسبح ويغوص باحثاً عن تلك السمكة التي قذف بها، وظلّ في البحر إلى أن دخل الغروب، لكنّه عاد خائباً، ووجد زوجته لا تزال تنتحب، فأخذها من يدها وعاد بها إلى الكوخ واعداً إياها أنه سيحرث البحر كي يعيد ابنهما. . . وبينما هي تصيح أقسمت أن تحرث معه البحر لتخرج ابنها.

ومن الصباح الباكر خرجا سوياً يغوصان في كلّ بقعة بحثاً عن تلك السمكة التي وصفها زوجها بأنّ لها ألواناً خلابة ولها رائحة نتن عظيمة.

عندما يئس الصيّاد من العثور على ضالّته طرأت بباله فكرة إرسال أبو جلبمو وأبو مقصّ ليغوصا إلى باطن البحر ويخبراه عن ولده، فعاد إلى الشاطئ وجمع أصداف (أبو جلبمو)[1] وأخذ يوشوشها، ثمّ أنزلها من يده فتحركت صوب البحر

---

(١) أبو جلبمو طوطم له علاقة بالخلق في الأسطورة الحبشية، حيث تذهب الأسطورة إلى أنّ الله حين أراد خلق آدم بعث الضفدعة وأبو جلبمو وحشرة العلق، ولم يفلح أبو جلبمو أو السلحفاة في جلب الطمي بل نجحت دودة العلق والتي صعدت إلى سينجابونجا، الإله الأعظم في النصوص الفلاشية الحبشية، وطرشت الطمي من معدتها في يد الإله الذي شكّل منه ومن فورة مادة الأرض آدم.
وبداية الخلق تتشكّل في كلّ ثقافة تشكّلاً يتّسق مع المعتقدات الثقافية التي يمتلكها الناس، وتختلف تسمية من غاص لجلب الطينة التي خُلق منها آدم، إلاّ أنّ أهم الرسل غالبت ثلاثة طيور، أو حيوانات، ثابتة تغوص وسط مياه المحيط الصاخب لإحضار مادة خلق الإنسان والعالم. وفي بعض الحالات يكون الهدف إحضار التربة من الأعماق، وغالباً ما يفشل الرسولان الأولان، والثالث فقط ينجح في إحضار الطمي أو التربة. ويكفي أن نلاحظ هنا أنّ كلّ الاحتمالات تشير إلى أنّ الأسطورة الأم منشؤها الهند، وهو ما تؤكّده أغلب المصادر الهندية، خاصةً في «البرجاباتي» عند البراهمة، وفيها يتّخذ المرسول هيئة الخنزير البري أو =

وغطست لساعات طويلة، وعندما عادت قالت له:

- لا أستطيع أن أخبرك بما رأيت فلو ترسل كائناً غيري. . .

تحرّك الصياد وأمسك بأبي مقصّ ووشوش له وأنزله من يده، فتحرّكت مجاميع أبو مقص وغاصت في البحر وعادت بعد ساعات وقالت مثلما قال أبو جلبمو.

مضى أسبوع وشهر وسنة والصياد يبحث في كلّ البحر عن ابنه من غير أن يجد تلك السمكة التي قذف بها للبحر، فكلّ الأسماك هجرت المنطقة ولم تعد موجودة في تلك الجهة.

ساء حالهما، ولم يعد الصياد يصطاد سمكاً، بل صار يخرج إلى السوق ليحمل البضائع للمتبضّعين ويعود إلى بيته مهدوداً ليجد زوجته في حالةٍ يرثى لها، حيث غدت تطالبه بجلب السمك الميت وتظلّ تتشمّمه في شرود.

كان الأب يخرج إلى السوق لمزاولة أيّ مهنة، وإن كانت الأقرب إلى نقل بضائع المتبضعين وحملها، وفي كلّ يوم يسمع تهامس المتسوّقين أنّ شيئاً حدث في المدينة جعل فتياتها يخرجن هائمات من غير إذن ذويهن ويعدن أكثر شروداً وسرحاناً.

ثم تعاظم الأمر؛ فغدت الفتيات يخرجن جماعات ويسبحن على شاطئ البحر

= السلحفاة. (شوقي عبد الحكيم: موسوعة الفلوكلور والأساطير)

بينما ثقافتنا الإسلامية تنفي هذا تماماً وتشير إلى أنّ الرسل ملائكة، حيث أمر الله الملاك جبريل أن ينزل إلى الأرض ويحضر حفنةً من تراب كي يخلق منها آدم، وعندما سمع إبليس عن مهمّة جبريل انطلق إلى الأرض، وتخفّى في ثياب رجلٍ صالح أو رجلٍ ناسك مقدّس، وأخبر الأرض أنّ الله يريد تشكيل مخلوقات من ترابها بهدف أن يسيّدها على كافة مخلوقات الأرض. قال إبليس: لكنّي خائف، إذ أنّ هذه المخلوقات ستجدّف ضد الله، لذا لا تسمحي أن يأخذ منك أيّ شيء. وبناءً عليه تصرّفت الأرض، ولكن عندما سمع جبريل برفض الأرض عاد إلى الله بلا تراب. ونفس القدر صادف الملاك الثاني ميخائيل، لكنّ الرسول الثالث عزرائيل لم يعطِ اهتماماً لبغي الأرض، مفضّلاً أمر لله. وكان أحضر حفنةً من مختلف الأتربة، ومن هذا خلق آدم. لكن عندما عاد عزرائيل من رسالته كان مأخوذاً حتى أنه ظلّ أربعين يوماً بلا حركة أو كلام. وبعد أن سمع الله ما وجده عزرائيل جعله ملاك الموت يقبض الأرواح. (ابن كثير: البداية والنهاية)

ونلحظ أنّ من قبض أول تربةٍ لخلق الإنسان هو نفسه المكلّف بقبض روحه، وهو ملاك الموت.

من غير أن تتحدث أيٌّ منهن. . . وفي كل يوم يزداد تزاحمهنّ على الشاطئ، بنات التجار والوزراء والأمراء والفقيرات: كلّ فتاة تجدها عند ذلك الشاطئ تقلّب بصرها في البحر.

وشاع بين فتيات المدينة أنّ ملاكاً غطس في الماء فابتلعه البحر، وكلّ ليلة يهرب من براثن الأمواج بحثاً عن حبيبة تخلّصه من عذابه.

هذه الشائعة حملتها كلّ فتاة كحلمٍ بأن تكون حبيبةً لذلك الملاك المحبوس داخل أمواج البحر.[١]

وقد علم والي المدينة أن ابنته من جملة الفتيات اللاتي يتسللن من بيوتهن ويقصدن الشاطئ، ولم يشأ أن يواجهها بما سمع؛ فهي ابنته الوحيدة ولا يُحبّ في هذه الدنيا إلاّها، فأرسل عيونه وجواسيسه ليعودوا إليه بالخبر.

بعد عشرة أيام جاء أحد وزرائه وقال له: هناك شابٌّ ماجنٌ استغلّ جماله الباهر وأخذ يتسلل إلى البيوت ويتغزّل بالفتيات ويتواعد مع كلّ فتاةٍ أن تأتيه إلى البحر قبل حلول الغروب[٢]. . . والغريب أنّ من تجالسه مرّةً لا تعود إلى مجالسته ثانية.

فأمره الملك: اقبضوا عليه وزجّوا به في السجن حتى نرى أمره.

---

(١) ربما هذه الأجواء تعيدنا إلى أسطورة النرجس وهي أنّ شاباً جميلاً يُدعى «نارسيس» (نرجس) اعتاد أن يذهب كلّ يوم لينظر إلى صورته ويتمتّع بحسنه على صفحة مياه البحيرة. وكان يستغرق في تأمل صورته بافتتان إلى درجة أن سقط ذات يوم في البحيرة و. . . غرق! وفي المكان الذي سقط فيه ذلك الشاب نبتت زهرة سُمّيت في ما بعد النرجس تخليداً لاسم ذلك الشاب. . . وعندما مات الشاب جاءت حوريات الغابات إلى ضفاف تلك البحيرة العذبة المياه فوجدنها قد تحوّلت إلى مستودعٍ لدموعٍ مالحة. . . سألت الحوريات هذه البحيرة: لِمَ تبكين؟! فردّت البحيرة: أبكي على نرجس. عندئذٍ قالت الحوريات للبحيرة: لا غرابة، نحن أيضاً كنّا نتملّى جمال هذا الشاب في الغابة. . . لم تكوني الوحيدة التي تتمتع بجماله عن قرب. سألتهن البحيرة: هل كان نرجس جميلاً؟! فردّت الحوريات في دهشة: من المفترض أنكِ تعرفين جمال نرجس أكثر منّا، فقد كان ينظر إليكِ ليرى جماله من خلال انعكاس صورة وجهه على مياهك الصافية. سكتت البحيرة لفترة ثم قالت: إني أبكي على نرجس، غير أني لم أنتبه قطّ إلى أنه كان جميلاً. أنا أبكي على نرجس لأنّي، في انحنائه فوق صفحتي، كنت أرى في عينيه طيف جمالي.

(٢) وهنا تداخلٌ مع أسطورة الدلفين الأعمى في نهر الأمازون، وتقول الأسطورة إنّ الدلفين يتحوّل في الليل إلى فتى وسيم جداً يتنقّل في القرى لإغواء الفتيات.

فتعهّد الوزير بتنفيذ أمر الوالي في الحال.

صارت الشُّرَط تخرج وتمشّط الشاطئ فلا ترى إلاّ فتيات سائحات بمفردهن، فتعود من حيث أتت.

وبردت همّة عناصر الشرطة حين لاحظوا أنّ أعداد الفتيات أخذ يتضاءل حتى لم تعد هناك إلاّ فتاة وحيدة تسير من أول الشاطئ إلى آخره تمشّط كلّ مكانٍ بالشاطئ.

لم تكن الفتاة سوى الأميرة المحبوبة، فلم يجرؤ أحد على إخبار الوالي بأنّ جميع الفتيات قد عزفن عن الخروج إلاّ الأميرة بقيت مداومةً على خرجاتها.

وذات يوم سأل الوالي عن خبر ذلك الشاب الماجن الذي يتشبّب ببنات المدينة فقال له الوزير: وصل إلى علمي أنّ جميع الفتيات اكتشفن فيه خصلةً تبعدهنّ عنه.

سأل الوالي: وما هي؟

قال الوزير: في بحثي عن وسيلة للإيقاع به كنت أستجوب بعضهن، وكلهنّ أجمعن أنّ له طلعة فاتنة، لكنّ له رائحة قاتلة تجعلهنّ يبتعدن عنه في الحال.

ضحك الوالي من هذه الحكاية وحمد الله أنّ هذا الشاب لم يكتمل له الحسن وإلاّ لانجرفت إليه كلّ نساء مملكته، وأراد أن يتأكّد من أنّ ما حدّثه به الوزير كان صدقاً، فقام وتنكّر في زيّ صياد وخرج إلى الشاطئ، فرأى من بعيد فتاةً تسير هائمةً على وجهها عرف فيها ابنته، فعاد إلى القصر مهموماً حائراً في ما هي عليه، خاصةً حين علم أنّ جميع الفتيات عزفن عن الخروج لملاقاة ذلك الشاب الماجن، وقرّر أن يكون صارماً معها كي لا تفضحه مع شعبه وكي لا تفسد حياتها مع شاب مستخفّ، فدخل عليها حجرتها، فنهضت من جلستها ووقفت في أدبٍ جمّ تسأله عمّا ألمّ به، حيث كان وجهه ممعَّراً، لكنّ أدبها ومبادرتها بالسؤال عن حاله أطفأ غضبه، فجذبها إليه وقبّلها في مفرق شعرها قائلاً:

- يا بنيّة ما الذي يجعلك تخرجين إلى الشاطئ يومياً. . .

نكست الأميرة رأسها للأرض ولم تجب، وعندما ألحّ عليها قالت له: يخرجني قدري.

- أيّ قدرٍ هذا مع شاب هربت منه كلّ الفتيات من رائحته المعفنة؟

ردّت بهدوء: من يحبّ لا يشمّ إلاّ ما يحبّ؟

فنهض غاضباً: أو تجرُئين على قول هذا؟!

وغادر غرفتها آمراً جنديين بالبقاء على بابها وعدم السماح لأحد بالدخول إليها إلاّ مربيتها...

كادت الأميرة تُجنّ، ومرضت وأصابها الهزال حتى أشفقت عليها مربيتها ووعدتها أن تتدبّر خروجها لملاقاة الشاب شريطة أن تحافظ على صحتها وتعاود تناول وجبات أكلها بانتظام...

لم تجد مربيتها من وسيلةٍ سوى المخاطرة بنفسها، فكانت تُلبسها ملابسها لتخرج من أمام الجنديين الحارسين غرفتَها وهي تظلّ في الداخل تكاد تموت خوفاً من أن يأتي الوالي لزيارة ابنته في وقت خروجها.

في أول مرّة خرجت الأميرة وانطلقت بكلّ سرعتها تبحث في الشاطئ علّها تلمح ذلك الشاب، وما هي إلاّ لحظات حتى لمحته يخرج لها من البحر تتقطّر المياه من ملابسه معاتباً إياها عن غيابها، فاعتذرت بأعذارٍ شتّى. وتكررت لقاءاتهما، وفي كلّ مرة يلحظ أنّ ثيابها غير متناسقة وتكاد تغوص داخلها لاتساعها، وصارحها بملاحظته، فادّعت أنّها ابنة رجلٍ يبيع الحطب، وأنّ هذه الملابس جلبها من زبائنه الذين يتصدّقون عليه بها. وفي اليوم التالي أخرج لها كميّة من اللؤلؤ الخالص، وقال لها:

- هذه لك، وهي ثروةٌ لا تُقدّر بمال، حتى أنّ الوالي لا يملك مثلها أو شبيهاً لها.

وعندما حاولت الرفض قال لها:

- لو لم تأخذيها فلن تريني.

أخذت الأميرة اللآلئ على حياء، وأصبح مع كلّ لقاء يأتيها بكميات كبيرة من اللؤلؤ الخالص.

استغربت الأميرة قول أبيها حين قال: إنّ رائحته كلّها عفن، فكانت تتشمّمه فتفوح منه روائح زكيّة مُسكِرة، وقد لاحظ ذلك وأخبرها أنّ رائحته الكريهة تغيب إن وجد فتاةً تحبّها، وأخذ يقصّ عليها قصة مرضه وكيف خرج إلى الشاطئ ورغب في أكل سمك، وعندما ذهبت أمه لجلب أدوات الصيد زمجر البحر وقذف بأمواجٍ

عالية، وخرجت منه امرأة شمطاء يصل طولها إلى السحاب[1] ووجهها كالح وهي تصيح: سأجعل أمك تندم بقية حياتها. . . وقبل أن أفيق من دهشتي وجدت نفسي سمكةً كبيرة، وتلك العجوز تُخرج أحذيةً لا أعرف من أين جلبتها وتضرب رأسي صائحةً: أنت وأمك العفن كله. . .

شعرت أنّي أدخل في غيبوبةٍ كاملة، وقبل أن أفقد شعوري رأيت أبي مقبلاً فاستغثت به، وعندما اقترب مني ظننت أنه يسمعني، لكنّه حملني وقذف بي داخل البحر، فعاد إليّ شعوري ووجدت نفسي أسبح بعيداً خلف تلك العجوز الشمطاء التي انقلبت إلى سمكة ذات أشواك وزعانف سامة ولا أقدر على الهرب منها، فقد أوكلت عشرات الأسماك بمراقبتي إن أنا حذوت أو اقتربت من بيتنا. ووجدت نفسي أقدر على الخروج من أيّ جهة، لكنّي لا أستطيع الوصول إلى بيتنا، وكلّما اقتربت منه أتحوّل إلى سمكة لها رائحة كريهة، وأشعر أنّ روحي ستزهق، فأظلّ أجاهد في إنقاذ نفسي قبل أن أموت، فأزحف إلى أن أصل إلى مياه البحر، فتعود إليّ روحي، فأسبح بعيداً عن بيتنا. . .

حزنت الأميرة على حبيبها ولم تعرف ماذا تصنع، فظلّت تبكي وهو يهدّئ خاطرها ويقول لها:

- سمعت تلك العجوز تحدّث سمكةً أخرى وتقول: شفيت غليلي من أمه ولن ينقذه إلاّ هي، وسوف أقتلها قبل أن تفعل ذلك. وقصّت عليها ابتعادنا عن كوخنا

(١) تتّسم الأسطورة بالمبالغة في الأوصاف، وهذا نتاج جذرٍ أسطوريٍّ حقيقيّ تواجد منذ القدم؛ فقد ذكر ابن الأثير في الكامل في التاريخ أنّ آدم حين أُهبط كان رأسه في السماء يسمع دعاء الملائكة وتسبيحهم، وكان يأنس بذلك، وكانت الملائكة تهابه فنقص من طول آدم. قال بن أبي رباح: لما أهبط الله عزّ وجلّ آدم من الجنة كانت رجلاه في الأرض ورأسه في السماء يسمع كلام أهل السماء ودعاءهم ويأنس إليهم، فهابته الملائكة حتى شكت إلى الله تعالى في دعائها وفي صلاتها، فخفضه إلى الأرض حتى فقد ما كان يسمع منهم واستوحش حتى شكا ذلك إلى الله عزّ وجلّ في دعائه وفي صلاته، فوجّهه إلى مكة فصار موضع قدمه قريةً وخطوته مفازة حتى انتهى إلى مكة، وأنزل الله تعالى ياقوتة من ياقوت الجنة فكانت على موضع البيت الآن، فلم يزل يطوف به حتى أنزل الله تعالى الطوفان؛ فرفعت تلك الياقوتة حتى بعث الله تعالى إبراهيم الخليل عليه السلام فبناه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ (ابن الأثير: الكامل في التاريخ)

بمسيرة عشرة أيام، وأنّي لا أقدر على الذهاب إلى ذلك الموقع إلاّ في أيام الهجرة الجماعية. وقد مررت ببيتنا سبعة مواسم كنت أرى فيها أمي تجلس في المكان نفسه الذي تركتني فيه.

أخذت الأميرة تبكي وتنوح وتسأله: كيف يمكن إنقاذك؟

فقال لها: لا أحد يقدر على إنقاذي إلاّ أمي.

قالت له: كيف؟

فقال لها: هل تساعدينني؟

قالت له: أفديك بروحي؟

فقال لها: اذهبي إلى ذلك الكوخ الذي على الشاطئ وأخبري المرأة التي هناك وقولي لها: لو أردتِ ولدك انتظري سرب الأسماك، فهذا موسم هجرتها، وأطعمي قدر ما تستطيعين كي تبقى في مواجهة بيتك. عندها سيأتي ابنك في آخر السرب... وأول ما يصل ستلحق به سمكةٌ ذات أشواك كثيفة ونافرة؛ فلا تنشغلي بابنك وقولي لزوجك «حلّفتك بابننا العفن أن لا تصيد هذه الأسماك، فقد نذرت أن لا أصيد سمكة، إذ كلّ السمك أبنائي وأخاف على هذه الأسماك إن خرجت تتعفّن مثله». وعليها أن تتنبه؛ فإذا تجمّع كلّ السمك حولها طلباً للطعام ستكون العجوز الشمطاء تبحث لها عن موقعٍ قريب منها كي تخزها بشوكةٍ من شوكها السام، أن تغمز أبي كي يخدج السمكةَ السامة، وإن أخطأ فلن أعود إلى حالتي الطبيعية أبداً...

فقالت له: سأحرص على نقل كلّ كلمة قلتها...

وتواعدا وهو يذكّرها بأنّ موسم الهجرة بقيت عليه ثلاث ليالٍ، وأن تخرج أمه وأبوه في صباح الليلة الثالثة، قبل وصول سرب الأسماك المهاجرة، وسيكون يوم سبت.

عادت الأميرة إلى القصر فوجدت الوالي واقفاً في غرفتها وقد أمر الجلاد بجلد مربيتها، فارتمت تقبّل قدميّ أبيها كي يرحم مربيتها. فقال لها الوالي: هذا شاب يريد أن يستغلك. فأرته كميات اللؤلؤ الكبيرة التي أهداها إياها ذلك الشاب، وقصّت عليه حكايته، فتعاطف الملك مع الشاب وذهب مع ابنته إلى بيت الصياد ووعد ابنته إن نجا الشاب فإنه هو من سيخطبه لها.

تحرّك الملك مع ابنته في سِريّةٍ تامّة، ولم يصطحب معه أحداً، وإمعاناً في التخفي لبس ملابس متواضعة وتحيّن حلول الليل وخرج مع ابنته إلى بيت الصياد.

طرق الملك الباب واستأذن الصياد بالدخول، فأدخلهما وهو لا يعرف مَن هما، ورحّب بضيفيه وقدّم لهما العشاء، وتسامروا، فحدّثتهما البنت بما أخبرها به ابنهما المسحور وعن الطريقة التي يخلّصانه بها من سحر السمكة السامة.

استمع الأبوان إلى ما قالته الأميرة، وقامت الأم بتقطيع بعض السمك إلى قطعٍ صغيرة وجلبت أقراص عيش وفتّتتها، وجمعت كلّ ذلك في زنبيل، وما إن أشرقتِ الشمس حتى كانت هي وزوجها في عرض البحر يستقبلان توافد الأسماك المهاجرة ويلقيان بالأطعمة وقطع السمك لتلك الأسراب المتدافعة، فحامت حولهما الأسماك تلتقم ما يرميانه لها، وفجأةً ظهرت سمكة كرويّة جلدها مغطّى بأشواك لا يكاد يبين لها جلد، فرفعت الأم صوتها تهيب بزوجها:

- حلّفتك بغلاوة ابننا العفن أن لا تصطاد هذه الأسماك، وقد خرجت للصيد بالأمس ولتكن إجازتك اليوم، فلا تصيد سمكة. . .

ثمّ تصنّعت البكاء وهي تحدّثه بأن يترك مهنة صيد السمك، وقالت له:

- أشعر أنّ كلّ السمك أبنائي، وأيٌّ منها لو خرج من البحر سيتعفّن مثل ابني. . . عدني أن لا تشتغل في هذه المهنة بعد الآن.

فردّ عليها:

- أعدك أن أترك صيد السمك نهائياً. . .

كانت الأم مركّزةً بصرها على السمكة الكروية ذات الأشواك الكثيفة، فرأتها تقترب منها كثيراً، عندها أشارت لزوجها بطرفةٍ من عينها، فهوى بالمخدجة على السمكة الشوكية بكلّ إتقان فأصابها مباشرةً. قفزت السمكة إلى خارج البحر تتمرّغ في التراب وتصدر صوتاً كالعواء، فلحق الصياد بها فقالت له: أعدني إلى البحر وسوف أعيد ولدك إليك. . .

هوى الصياد على رأسها بحجر ثقيل، فتوقفت حركتها وخرجت من بطنها سمكة صغيرة أخذت تتقافز نحو البحر، وبمهارة الصياد المحترف أخذ يركض خلفها وأمسك بها قبل أن تغوص في المياه وحفر حفرةً عميقة ودفنها داخلها.

وبينما كانت الأم تطعم الأسماك رأت سمكةً كبيرة تسبح باتجاهها، وما إن

وصلت إلى مقربةٍ منها إذ بها تتحول إلى شابٍّ نهض على قدميه؛ فعرفت فيه ابنها وصاحت بزوجها وتعانقا طويلاً وكلّ واحدٍ منهم يبكي.

وعندما دخلا البيت رأت الأم كيساً كبيراً معلّقاً بعنق ابنها، فاقتربت منه وسألته عمّا يحمله، فأنزل الكيس من عنقه فإذا به مليءٌ باللؤلؤ الخالص، فصاحت بزوجها أن يأتي ليرى الكنز الذي يحمله لهما ابنهما. لم يصدّق الأب ما رأى، وبعد أن استوعب المفاجأة أخذ يخطّط ما سوف يفعلونه بهذه الثروة.

أخذت الأم تقبّل ولدها وتحضنه فأحسّت بخشونة جسده، فكشفت عن ظهره وبطنه فرأت أنّ القشور تغطيه، فأرقدته على الأرض وأخذت «مقشرةً» لتنظيف جسده من تلك القشور التي علقت به حتى أزالتها جميعها.[1]

في المساء سمع الصياد طرقاً على الباب، وعندما فتحه وجد الملك (المتنكّر بزيّ الصيادين) وابنته، فأدخلهما، وعرف الابن محبوبته فنهض يشكرها على صنيعها

---

(١) الخروج من البحر له دلالات عميقة في الأساطير العالمية، إذ ثمّة يقين أنّ الحياة خرجت من الماء، ونحن كمسلمين نعرف تماماً أنّ الماء أصل الحياة ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (سورة الأنبياء، ٣٠). وثمّة بناءٌ أسطوري للحوت تراكمت حوله الحكايات، فظهرت حيناً وغابت أحياناً، إلاّ أنّ وجود سورة القلم «ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ» مبتدئةً بنون تعامل بعض المفسرين مع حرف النون على أنه حرف كبقية الأحرف التي يبدأ بها كثيرٌ من سور القرآن الكريم، إلاّ أنّ الباحثين الأسطوريين يصلون إلى أنّ «نون» هو الحوت وهو أصل الحياة الأولى، وأنّ كلّ من حمل جذر اسم نون هم منقذون للحياة والبشرية معاً. وها هو الدكتور فاضل الربيعي أحد هؤلاء الذين يتتبّعون النون (حوت) فيقول:

إنّ النبي يونان (يونه) في التوراة موجود في التراث الإسلامي بقصة النبي يونس، وتتمّ الرواية عنه وعن يونان بتكرار على نحو ما لأسطورة نوح، فهما خرجا من البحر أو الغمر الكوني، وكلاهما أنقذته سمكة - حوت وأوصلته إلى الشاطئ. إنّ رمزية السفينة والحوت في هذه الأساطير، التي يشترك في صنعها أبطال يحملون جذر الاسم نفسة، قابلة لأن تضاهي تلقائياً الصورة القديمة للمعبود السومري-الأكدي: نون، وهي بمعنى كتلة الماء الأزلية.

وهذا الخروج من الماء يكون هدفه إنقاذ البشر وتخليصهم من الشقاء. وهذا هو الإيقاع الداخلي الذي ينظم النصوص الأسطورية في سياقها المكاني المرتبط بالماء.

وانغماس العرب في البداوة أنساهم أنهم شعب بحري عاش على طول سواحل البحر الأحمر والمتوسط الجنوبي والخليج العربي وبحر العرب. (فاضل الربيعي: **أبطال بلا تاريخ**، دار الفرقد)

معه، وهمس لأبيه أن يخطبها له، فأمره بالتريث قائلاً له: تخطب فتاةً لا تعرف مَن هي؟

قامت الأم تساعدها البنت في تجهيز العشاء، وحينما اجتمعوا على السفرة قال الملك للصياد:

- ليس من العادة أن يخطب الأب لابنته، ولكنّي أفعلها وأتمنّى أن تقبل خطبتنا لابنك. . .

نظر إليه الصياد بتعالٍ وقال له:

- الناس مقامات وأنت تدّعي أنك صياد ولم أرك في سوق السمك بتاتاً، وربما تكون مقشراً أو موصلاً. . . فلنؤجّل خطبتك إلى أن يشهد لك أحد الصيادين بأنك صياد.

كان الصياد راغباً في رفض هذه الخطبة، خاصّةً بعد أن رأى كميات اللؤلؤ التي أحضرها ولده. أحسّ الابن بكدر وتدخل في الحديث قائلاً لأبيه:

- أنا أريدها حتى ولو كان أبوها مقشراً وليس صياداً. يكفي أنها أنقذت حياتي.

فغضب منه أبوه وقال له:

- تخرج على أمري.

صمت الابن ولم يتكلم بينما جلست الأم حائرةً بين زوجها وابنها.

التفت الملك إلى الصياد وقال له:

- غداً نلتقي في بيتي وسأجلب لك من يشهد بأنّي صياد.

وتواعدا على أن يمرّ عليه أحد أصدقائه الصيادين ليوصله إلى بيته.

عند عودة الملك إلى قصره أظهر غضباً كبيراً على الصياد وقال لابنته:

- لولا أنّ ابنه فضّلك في أيّ حالة تكونين لكنت قطعت رأس ذلك الصياد المتعجرف.

شكرته الأميرة وقبّلت يديه على ما يبديه من اهتمام بها. وفي الحال استدعى الملك وزيره وقال له:

- أريدك أن تتنكّر في زيّ صياد فقير، وتذهب إلى المكان (الفلاني) وتصطحب معك الصياد وزوجته وابنه. . . ولا أريد أن يعرف شيئاً عنك أو عني.

وفي الوقت الموعد طرق الوزير بيت الصياد وهو متنكر في زيّ الصيادين، وقال له:

- صديقي الصياد ينتظرك في بيته.
وعندما همّ بالخروج بمفرده قال له:
- لا لا، فصديقي يريدك أنت وزوجتك وابنك.
التفت الصياد إلى زوجته وقال لها:
- هذا الرجل (يقصد الملك) يريد أن يلصق ابنته بنّا، وأظنّه عرف بقصة اللؤلؤ... وربما تكون هذه مكيدة حتى إذا خرجنا جميعاً تسلّل هو وأعوانه وسرقوا الكيس، فدعينا نحمل الكيس معنا.
وبالفعل حمل الكيس وعلّقه برقبته وانطلقوا مع الوزير، وساروا في الطريق، وكلّما أراد الصياد أن يسأل الوزير عن أحوال صديقه لا يجد جواباً. عبروا كلّ بيوت المدينة واتّجهوا باتّجاه قصر الملك، فأمسك الصياد بيد الوزير وقال له:
- أين يسكن صاحبك؟ لم يعد متبقّياً في طريقنا إلاّ بيت الملك.
فقال له الوزير:
- صاحبي هو من يحضر السمك للملك وأراد أن يريك صدق قوله.
أظهر الصياد استغراباً وقال في نفسه: لو أنّ الأمر قبل الكيس لكنت سعيداً، أما بعد الكيس فلا يرضيني أن أزوج ابني ابنة صياد.
دخلوا جميعاً إلى داخل البلاط، وكاد الصياد أن يُغمى عليه حين رأى الملك جالساً على كرسيه والكلّ يقبّل الأرض بين يديه. لم يستطع الكلام لكنّه ركض يقبّل رداء الملك ويعتذر فتخرج كلماتٌ مقطّعة لا يُفهم منها إلاّ الفزع العظيم.
رفعه الملك من الأرض وقال له:
- الصياد هو من يصطاد الكلام الطيّب فهو زرعنا الوحيد.
وأُعلن عن الزواج وأُقيمت الاحتفالات في كلّ المملكة، وعاش ابن الصياد والأميرة حياة طويلة.
أمّا الصياد وزوجته فقد ابتنيا بيتاً بجوار ابنهما وعاشا في بحبوحةٍ من العيش، ولم ينسَ الصياد نصيحة الملك فكان لا يقول إلاّ خيراً ولم يتلفّظ لسانه بسوء منذ ذلك اليوم.

رواية حامدة حمدان

الطير الأخضر

يُحكى أنّ رجلاً ماتت زوجته وتركت له طفلين، ولداً وبنتاً. وجد هذا الرجل أنّ الحياة صعبة وأنه لا يستطيع الاعتناء بطفليه، فتزوّج بامرأةٍ كانت سيئة الطبع حقوداً أخذت تعامل ابنيه بقسوة وتسخّرهما للقيام بالأعمال الشاقة داخل البيت وخارجه، وعندما يكون موجوداً تعاملهما معاملةً حسنة، وكلّما اشتكى الابنان لأبيهما قسوة عمّتهما عليهما لا يصدّقهما ويتّهمهما بالجحود ونكران المعروف واصفاً زوجته بأنّها امرأة طيبة عطوف ومهتمة بشؤونهما، وكانت زوجته تستغلّ هذا القول وتستضعف وتظهر الحسرة لجحود الابنين لكلّ ما تقدّمه لهما من رعاية وحنان، وتظلّ تبكي حتى يقوم الأب باسترضائها، ولا تسكت إلاّ حين يسترضيها بضرب الابنين معاً فتتدخّل مقسمةً عليه أن لا يمسّهما وهي تردّد:

- ما أرضى لهما الضرب. يكفي... يكفي الله يخليك، ذول مثل أولادي.

فيصيح الأب بهما:

- شايفين اللي تشكو منها خايفة عليكم كيف.

ولم يعد الابنان يشتكيان من عمتهما مهما حدث، ويتحمّلان ضربها لهما وسخريتها منهما. وعندما تمادت في تعذيبهما قرّر الابن أن يفضح معاملة عمته لهما أمام أبيه، وكان يتحيّن الفرص كي يعرف أبوه تلك المعاملة السيئة التي تعامله بها عمته، هو وأخته، فكثر عناده وعاود الشكوى لأبيه، وفي كلّ الحالات لم يقدر على إثبات تلك المعاملة السيئة التي يشتكي منها، وكلّما عنّفه أبوه أعاد الشكوى. وعندما وجد أنّ أباه لا يصدّقه اتّفق مع أخته على طريقة تكشف سوء عمتهما، فذهب إلى أبيه وقال له:

- إحنا نشتكي من قسوة عمتنا وأنت ما أنت راضي تصدقنا... وعلشان تكتشف مين منا الصادق ومين منا الكاذب قل لعمتي إنك مسافر وغيب عن البيت يوم وتعال شوف أش تسوي عمتي ولو لقيتنا كذابين اقتلنا.

وافق الأب على هذا وتجهّز للسفر وقال لزوجته:

- عندي أشغال أبغى خلّصها ولازم أسافر ثلاثة أيام أو أربعة ولا أوصيك على الأولاد.

فرحت الزوجة كثيراً وقالت في نفسها: هذه هي الفرصة علشان أطفّشهم من البيت وأورّيهم نجوم الظهر. وتظاهرت لزوجها بالحزن لفراقه وأخذت تبكي وتنوح وهي تقول:

- أنا خايفة من أولادك... خايفة أنك تمشي من هنا يجتمعوا عليّ ويضربوني.

فقال لها:

- لو امتدت يد واحد فيهم عليك اذبحيه... حلال فيه الذبح.

فرحت عندما سمعت هذا القول وقالت في نفسها: رايحه أذبحهم وأقله ضربوني ودافعت عن نفسي وذبحتهم.

خرج الزوج وودّع أولاده واختبأ خلف البيت فسمع شتائم زوجته لابنيه وتهديدها لهما بالذبح وأنها فرصتها كي تتخلّص منهما، فاكتشف الأب سوء زوجته وخاصمها وهدّدها بالطلاق لو أنها أساءت معاملتهما مرّة أخرى.

حقدت العمة على الابن بعد أن عرفت أنّه هو الذي دبّر لها الكمين، وظلّت تفكّر في حيلة تقضي بها عليه، واهتدت إلى حيلة نفّذتها في الحال، فقد تصنّعت أنها حامل وأنها تشتهي لأكل لحم خروف لم يعاقر نعجة طوال حياته، وأوصت زوجها أن يرسل ابنه ليأتي لها بالخروف وتقوم بنفسها بذبحه.

فرح الأب بحمل زوجته وأوصى ابنه أن يلبّي لعمته كلّ طلباتها. وعندما حضر قالت له:

- أبغاك تروح معايه للسوق نشتري خروف.

فقال لها:

- حاضر على عيني وراسي.

فخرجت معه وقالت له:

- اسبقني عيب الحرمة تمشي قدام الرجال.

تقدّمها الابن، وعندما وصلا إلى مكانٍ مقفر قفزت باتجاهه وغرست سكينها في ظهره فسقط على الأرض يئنّ بتوجّع وينظر إليها متوسّلاً أن ترحمه، لكنّها لم تبالِ باسترحامه وشحذت سكينها وجزّت رأسه عن جسده وسلخته[1]، وقطعت لحمه قطعاً صغيرة وكبيرة وجمعتها في زنبيلها، ودفنت أطرافه، وأخذت السكين ومرّرته على صدرها ووجهها ويديها وتركت الدم يسيل من جسدها، وعادت تحمل اللحم المقطّع وهي تبكي وتنوح وتشتكي لزوجها ممّا فعل بها ابنه، فسألها:

- أش سوّى قليل الحيا؟

فقالت له:

- بعد ما اشترينا الخروف وذبحناه أمسك بي وضربني ضرباً مبرحاً، وكان يبغي يقتلني فتجمّع الناس على صراخي وفكّوني منه وتركني وهرب.

استشاط الأب غضباً وأقسم لو رآه ليذبحه ذبح النعاج. اطمأنّت العمة إلى أنّ حيلتها قد نجحت، فقامت وغسلت اللحم المقطّع وأمرت ابنة زوجها بتنظيفه وتتبيله لطبخه، فاستجابت البنت وقامت تغسل اللحم، وكانت مستغربةً من لون اللحم واختلافه فأخذت تتفحّصه فوجدت جزءاً من المرفق به خال وشعيرات فاحمة السواد، فعرفت أنّ عمتها قد ذبحت أخاها، فأخذت تبكي بحرقة وتتناشج، وكلّما دخلت عليها عمتها تصنّعت أنّ البصل أعمى عينيها، وهي خائفة أن تذبحها، واعتذرت عن طبيخ اللحم، فقبلت عمتها اعتذارها وتركتها تذهب، ثم قامت وتبّلت اللحم ببهارات مختلفة، ووزّعت لحم الابن على كثيرٍ من الأواني ووضعت بكلّ آنيةٍ

---

(١) ذبح الصبيان تواجد في الثقافة العربية الجاهلية من خلال مفهوم «المنفرات الخرافية». وكان الكلدانيون فلاسفة وكهنة حران يقولون إنّ للجنّ إلهاً، يضحّون له بنحر الخرفان، ويطبخون ماءً يستحمّون به سرّاً لرئيس الجن. كما كان من عادتهم التضحية بصبيٍّ طفل حين يولد، حيث يُذبح الصبي ثم يُدقّ لحمه حتى يهترئ، ويؤخذ ويعجن بدقيق السميد وزعفران وسنبل وقرنفل وزيت، وتُعمل منه أقراص صغيرة مثل التين، ويُخبز في تنور جديد، ويكون لأهل السرّ في الشمال، ولا تأكل منه امراة ولا ابن أمة (جارية) ولا مجنون. (شوقي عبد الحكيم: موسوعة الفلولكور والأساطير العربية، مكتبة مدبولي)

إداماً مختلفاً، ومدّت سفرة كبيرة فيها كلّ أنواع الإدامات، ودعت زوجها وابنته للأكل وقد بدا عليها الفرح:

- اليوم رايحين تاكلوا أكل عمركم ما أكلتم مثله.

تصنّعت البنت أنّ ألماً يعصف ببطنها وأنها لا تقدر على أكل أيّ شيء، فجلس الأب والعمة يأكلان مستمتعين، وقال الزوج لزوجته:

- عمري ما أكلت مثل هذا الأكل، تسلم يدك.

كانت البنت تتابع أكلهما بعيونٍ دامعة، وفي كلّ حين تتناشج فيصيح بها أبوها:

- لا تنكّدي علينا، كلّ الناس يجيهم مغص.

فتكفكف دموعها وتصمت.

بعد أن انتهوا من الأكل قامت البنت وجمعت عظام أخيها ودفنتها في فناء الدار بجوار أشجار الياسمين والليمون، وكانت كلّ يوم تزور ذلك المكان وتظل تبكي حتى تعود إلى داخل البيت...

بعد شهور تجمّعت السحب من كلّ مكان ونزل مطرٌ شديد وجرت المياه في كلّ مكان. وبعد أيام من نزول المطر نبتت شجرة صغيرة على هيئة طائرٍ أخضر بجوار شجرتي الياسمين والليمون، وفي كلّ يوم تنمو هذه الشجرة الصغيرة وتتخلّق: في البدء ظهر لها رأسٌ صغير بمنقار ثم عينان صغيرتان ثم جناحان اكتسيا بريش غامق الاخضرار فرجلان فذيل صغير. وعندما اكتمل نمو هذا الطائر حلّق في السماء وأخذ يطوف بأنحاء البلدة، وكان يرى كلّ ما يدور في المدينة من أسرار وحكايات، وكلّما سمع بظلم رفّ بجناحيه في السماء وأفشى سرّ الظالم؛ فتسمع المدينة بذلك السر ويتناقله الناس حتى خاف أهل البلد من فعل المنكرات فلا أحد يقوم بشيء خشية أن يراه الطائر الأخضر ويخبر الناس بحقيقته حينما يحلق في المساء ويذكر أسماء الظلمة والسارقين والمحتالين... فتواصى الناس بالخير، وكان بالبلد لصٌّ اسمه يوسف باني خرج منذ زمن وعاد إلى المدينة، وكان جائعاً ومحتاجاً إلى المال ففكّر بسرقة دكان أحد العطارين الذين اشتهروا بالغناء الفاحش، وأخبر أحد أعوانه القدماء بما عزم وطلب منه معاونته على ما عزم عليه، فقال له صديقه:

- خلاص، ما في سرقة في هذه البلد... اليوم تسرق بكرة تسمع الطائر الأخضر يتغنّى باسمك في كلّ البلد ويفضحك فضيحة ما بعدها فضيحة.

قال اللص:

- وأنت تصدّق هذا الكلام الفاضي.

فقال له صديقه:

- أيوه أصدّق. سمعت وشفت بعيني.

فقال له:

- أنا ما أصدّق ورايح أسرق دكان العطار وتشوف قد إيه صارت عقولكم مخرفة.

حاول صديقه أن يقنعه لكنه عجز عن ذلك. وفي الليل تسلّل اللص ودخل دكان العطار فوجد خزنته مليئةً بالذهب والفضة؛ فأخرج كيسه وملأه بكلّ تلك الأموال وخرج فرحاً ساخراً من عقول أهل المدينة.

وفي الليلة التالية حلّق الطائر الأخضر في المدينة يتغنّى:

حرامي سرق الغلة
وجاني أقلكم اسمه التاني
باني باني كيسه مليانى
سمعتوا والا أعيد ثاني.

سمع أهل البلد ذلك، فقام العطار ومعه رجاله وأمسكوا باللص يوسف باني واسترجع ماله وقاده إلى السجن، ثم قال لرجاله:

- أتمنى لو يجيني الطائر الأخضر علشان أشكره.

قبل الغروب، جاء الطائر الأخضر يرفرف بجناحه على باب العطار وهو يغنّي:

أنا الطائر الأخضر   أمشي أتبختر
أمي ذبحتني [١]   وبيّ أكل لحمي

---

(١) يلاحظ أنّ الطائر الأخضر يقول أمي، وليس عمتي... وربما لكون العمة زوجة الأب تأخذ مقام الأم، وهذا أول ما يتبادر إلى ذهننا. لكن في حكايات شعبية كثيرة تتحوّل الأم إلى خصم وعدو للأبناء تحيك لهم الدسائس وتسعى لإيقاعهم في مصائر مجهولة. وربما طغى الجانب الوعظي فاستعار الراوي الشخصية الأقرب إلى إيذاء الأبناء وهي العمة، بينما متن الحكاية يؤكّد أنّ من قام بكلّ المكائد هي الأم.

ومن يقرأ في الأسطورة اليونانية أو الفرعونية القديمة يجد أنّ الصراع في أحيانٍ كثيرة يكون بين =

أختي الحنونة تلمّ عظامي وتبكي.

اقترب العطّار منه وقدّم له آنية بها ماء محلّى بالسكر مخلوط بورق الزعفران، وقال له:

- ما هي قصتك يا طائر يا أخضر؟

حكى الطائر له القصة، فأعطاه العطّار سكراً وسماً وقال له:

- إذا قتلت عدوّينك تعود لحالتك الطبيعية.

أخذ الطائر الأخضر السمّ والسكر وذهب إلى عمته وغنّى لها:

أنا الطائر الأخضر أمشي أتبختر
أمي ذبحتني وبيّ أكل لحمي
أختي الحنونة تلمّ عظامي وتبكي.

قالت له العمّة: ما هي قصتك يا طائر يا أخضر؟

فقال لها: لا أخبرك حتى تغمضي عينك وتفتحي فمك.

ففعلت، وعندما فتحت فمها وضع لها السم فماتت، ثم ذهب إلى أبيه وغنّى له:

أنا الطائر الأخضر أمشي أتبختر
أمي ذبحتني وبيّ أكل لحمي
أختي الحنونة تلم عظامي وتبكي.

قال له أبوه: ما هي قصتك يا طائر يا أخضر؟

فقال له: ما أقلك حتى تغمض عينيك وتفتح فمك.

ففعل، فوضع له السم فمات ثم ذهب إلى أخته وغنّى لها:

أنا الطائر الأخضر أمشي أتبختر
أمي ذبحتني وبيّ أكل لحمي

= الابن والأم أو البنت والأم. وبهذا يكون قد حدث تزوير للحكاية المروية، لأنّ الراوي سوف يفصل أحداثاً أخرى كي يقيم سبباً لتأزّم العلاقة بين العمة وابن زوجها، ويغفل السبب الحقيقي لهذا التأزم الذي كان من المفترض أن ينصّ عليه لو كانت الأم هي التي تمثل الطرف السلبي في الحكاية.

أختي الحنونة تلم عظامي وتبكي
فقالت له: ما هي قصتك يا طائر يا أخضر؟
فقال لها: لا أقول قصتي حتى تغمضي عينك وتفتحي فمك.

فأغمضت عينها وأخرجت لسانها فوضع لها السكر، وعندما فتحت عينيها رأت الطائر الأخضر يسقط على الأرض وتنبت له يدان ورجلان ورأس، وأخذ يتشكّل حتى عاد إلى حالته الطبيعية.

فرحت أخته فرحاً كبيراً به... وذهب إلى العطار وشكره فأعجب به وزوّجه بابنته وطلب أخته لابنه وعاش الجميع في تبات ونبات وخلّفوا صبيان وبنات.

رواية منى الغامدي ـ مكة

نذرت نفسي لابني[1]

مات زوجها وترك لها ابناً وحيداً، وكلّما طلبها رجل لزواج امتنعت وقالت:

- نذرت نفسي لتربية ابني محمد.

وعاشت مع ابنها في بيتٍ متواضع تخيط للناس الثياب وتعيش مما تجد هي وابنها.

مرّت السنوات بطيئةً حالكة وهي صابرة متفانية في تربية ابنها، فأحبّها ابنها حبّاً كبيراً وحفظ لها صنيعها معه، وتفانى في طاعتها. وعندما كبر وأصبح قادراً على الاكتساب طلب منها أن تترك الخياطة وتنعم بالراحة، فسعدت به وعاشت هانئةً، ولم يكن يكدّر عليها هناءها سوى عزوفه عن الزواج، فقد كان يذهب إلى عمله ويعود إليها حاملاً لها كلّ ما لذّ وطاب من مأكلٍ ومشرب، وكانت في كلّ ليلة تجالسه وتقول له:

- نفسي أراك متزوّجاً وتملأ هذا البيت بالأبناء حتى تقرّ عيني.

فيواسيها ويعدها خيراً ولا يستجيب لمطالبتها الدائمة. وفي ليلة جلست معه وقالت له:

- لماذا أنت عازف عن الزواج، ألا تشعر برغبة في ذلك؟ صارحني.

وأخذت تجادله وهو صامت، وعندما أخذت في البكاء قبّل رأسها وقال لها:

- أخشى إن أنا تزوّجت أن تسيء زوجتي معاملتك.

---

(١) هذا الاسم من عندي، والغريب أنّ الحكايات في الحجاز يأتي بعضها دون اسم بينما حكايات الجنوب لا بدّ من أن يكون لبطل الحكاية اسم.

فرحت بردّه ودعت له بالخير وقالت له:

- لقد رأيت لك زوجة متعلمة وعارفة لأمور دينها، وسوف تراعي الله فيك وفي أمك.

وافق الابن إكراماً لها، ففرحت به فرحاً عظيماً وقامت من حينها وطلبت له يد تلك الفتاة، وكانت فتاة متعلّمة في أمور الدنيا، وأُقيمت ليلة الفرح، حضرها الأقارب والأصدقاء والجيران، وكانت ليلة مشهودة، ودخل محمد بزوجته وشعر بلذّة الحياة؛ فعاش أسبوعاً يتقلّب في النعيم دون أن يعرف ضوء الشمس من ضوء القمر. وبعد انتهاء الأسبوع عاد إلى عمله، فخرجت الزوجة من غرفتها لزيارة أمّ زوجها، وتحدّثتا، وعلمت الزوجة أنّ أم زوجها لا تعرف القراءة أو الكتابة، فتعجبّت أشدّ العجب وقالت لها:

- كيف تعيشين ولا تعرفين القراءة أو الكتابة... وكيف تؤدّين الفرائض... كيف تصلّين وتصومين وتزكّين وكيف تحجّين...؟

كانت أم الزوج تجيب إجابات ضعيفة وتقول:

- يكفي أنّي سهرت وتعبت من أجل تعليم وتربية محمد.

فأخذت زوجة ابنها تحصي لها فوائد العلم وتحثّها عليه، وقالت لها:

- أنا أعرف معلم الصبيان الذي يجاورنا، نذهب إليه ليعلّمك مع من يعلّم من صبيان المدينة.

وما زالت تلحّ عليها حتى وافقت، وذهبتا إلى معلم الصبيان، وانفردت به الزوجة وقالت له:

- لقد أعطاك الله منزلة في الدنيا والآخرة بتعليم هؤلاء الصبيان؛ فاكسب الأجر في هذه العجوز وعلّمها معهم.

قال لها: لكنّها امرأة كبيرة ولن تتعلم بسهولة.

فقالت له: عاملها كما تعامل الصبيان ونحن في البيت نضربها إذا استعصى عليها الفهم، فاضربها حتى تفهم.

استغرب المعلّم قولها وقال لها: لكن كيف أضربها وهي في هذه السنّ؟

فقالت له: لقد ألفت الضرب، وإذا لم تضربها فلن تفهم، وأريدها في أسرع وقت تكون قد أجادت القراءة والكتابة، وسوف أعطيك ما تشاء بشرط أن تضربها

كلّما أخطأت أو لم تفهم درسها.

ودفعت إليه بمالٍ كثير، فوافق وأدخلها في حلقة الصبيان وبدأت العجوز تتعلم القراءة والكتابة.

كانت الزوجة قد اتفقت مع أم محمد أن تذهب إلى معلم الصبيان بعد ذهاب ولدها إلى العمل وتعود قبل مجيئه، وقالت لها:

- لا أريد أن يعرف محمد أنك تدرسين حتى تصبحين متعلمة، ساعتها نخبره ويعرف مقدار معزتي لك.

وفي كلّ صباح كانت الأم تنتظر أن يخرج ابنها إلى العمل، وتذهب إلى معلم الصبيان. وفي كلّ يوم تتلقّى ضرباً مبرحاً لعدم تمكّنها من الحفظ أو الكتابة، فتعود إلى البيت منهكةً خائرة القوى، وتستردّ أنفاسها في يوم الجمعة، ولهذا كان ابنها يلحظ أنّها غدت تكره يوم السبت [1] ولا تطيقه، وسألها عن ذلك فقالت له:

---

(١) يمثّل يوم السبت إنهاكاً حقيقياً لكثيرٍ ممّن يعمل، وهو اليوم الذي تنطلق فيه دوامة الحياة، وبهذا نستذكر بداية الخلق حيث يقول: «يقول أهل التوراة: ابتدأ الله الخلق يوم الأحد، ويقول أهل الإنجيل: ابتدأ الله الخلق يوم الاثنين، ونقول نحن - المسلمون - فيما انتهى إلينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: ابتدأ الله الخلق يوم السبت، وهذا القول الذي حكاه ابن إسحاق عن المسلمين مال إليه طائفة من الفقهاء من الشافعية وغيرهم». (الحافظ ابن كثير: **البداية والنهاية**)

ويشير بعض المؤرخين إلى قول الله عز وجل: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ في غير ما آية من القرآن، إلى اختلاف المفسرين في مقدار هذه الستة الأيام، ومنهم الحافظ ابن كثير حين يرجع ذلك إلى قولين، فالجمهور على أنها كأيامنا هذه، وعن ابن عباس ومجاهد والضحاك وكعب الأحبار يقولون: إنّ كلّ يوم منها كألف سنة ممّا تعدون. رواها ابن جرير وابن أبي حاتم، واختار هذا القول الإمام أحمد ابن حنبل في كتابه الذي ردّ فيه على الجهمية وابن جرير وطائفة من المتأخرين. وروى ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم وغيره أنّ أسماء الأيام الستة أبجد هوّز حطّي كلمن سعفص قرشت...

وسواء كان البدء في السبت أم الأحد أم الاثنين فإنّ الانتهاء عند جمهور العلماء كان يوم الجمعة.

والله عزّ وجلّ منزّهٌ جلّ في علاه عن أيّ نقيصة تعتري البشر، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ (سورة ق: ٣٨) أي لم يمسسه إعياء أو سآمة أو إزحاف أو نصب أو عناء. =

- لأنه يوم يبدأ فيه كدّك وتعبك.

كانت تخفي عنه أنّ المعلّم في الدرس يجلسها بمجرد وصولها ليراجع معها ما أخذته طوال الأسبوع، وتكون النتيجة ضرباً مبرحاً لأنها لم تحفظ ما أخذته طوال الأسبوع.

لاحظ محمد الإجهاد والإرهاق البادِيين على وجهها فسألها عن حالها فلم تخبره وقالت له:

- تعب بسيط ويزول.

لم يقتنع، وفي يوم افتعل الذهاب إلى العمل ووقف خارج البيت يراقب ما يحدث، وما هي إلاّ لحظات حتى رأى أمه تحمل لوحاً وتسير بعجلة، فتبعها حتى رآها تدخل عند معلّم الصبيان، فوقف في مكانه يفكّر، وبعد لحظات سمع أمه تصيح بأعلى صوتها:

- أتوب يا معلم، سوف أحفظ... والله سوف أحفظ.

فدخل مسرعاً ورأى معلم الصبيان يجلدها والأطفال يتصايحون:

- اضربها... اضربها.

= وعن أبي بكر قال: جاءت اليهود إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقالوا: يا محمد أخبرنا ما خلق الله من الخلق في هذه الأيام الستة؟ فقال: خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء، وخلق المدائن والأقوات والأنهار وعمرانها وخرابها يوم الأربعاء، وخلق السموات والملائكة يوم الخميس إلى ثلاث ساعات، يعني من يوم الجمعة، وخلق في أول الثلاث الساعات الآجال، وفي الثانية الآفة، وفي الثالثة آدم، قالوا: صدقت إن أتممت، فعرف النبي - صلى الله عليه وسلم - ما يريدون، فغضب، فأنزل الله ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾. وقد كذب الله اليهود والنصارى وأهل القرى وذلك أنهم قالوا: إنّ الله خلق السموات والأرض في ستة أيام، ثم استراح يوم السابع، وذلك عندهم يوم السبت، وهم يسمّونه يوم الراحة.

وعن قتادة قال في قوله «من لغوب» قالت اليهود: إنّ الله خلق السموات والأرض في ستة أيام، ففرغ من الخلق يوم الجمعة، واستراح يوم السبت، فأكذبهم الله، وقال: ﴿مَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ حدثت عن الحسين قال: سمعت أبا معاذ يقول: أخبرنا عبيد قال: سمعت الضحاك يقول في قوله ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ كان مقدار كلّ يوم ألف سنة مما تعدّون. (تفسير الطبري)

فقفز وأخذ العصا من يده وألقاها على جسده، وضمّ أمه على صدره وأخذ يقبّل يديها ورأسها وخرج بها، وسألها عمّن دفع بها لأن تفعل هذا فأخبرته بالقصة كاملة، فاسترضاها وطيّب خاطرها، وعندما وصل البيت قال لزوجته:

- لن يجمعنا بعد اليوم سقف واحد. . . اذهبي أنت طالق.

وعاد يعيش مع أمه كسابق عهده. ومضت سنة، وعادت الأم تلحّ عليه بالزواج وتقول له:

- تاقت نفسي لأن أرى ذريتك قبل أن أموت.

فكان يواسيها ويقول لها:

- سأهبك من عمري سنين طويلة حتى تعيشي وتري أولادي.[١]

فتضحك من مداعبته إلاّ أنها تعود ملحّةً في طلبه، فكان يرفض وهي تعيد عليه

---

(١) درجت العادة أن يتمنى الآباء طول العمر لأبنائهم، وفي سبيل هذه الرغبة يقولون مقولات مختلفة، وكذلك الأبناء وجميعهم يهبون من أعمارهم إلاّ أنّها هبة قولية، وهذه الهبة لها جذر أسطوري، حيث ورد في كتب التاريخ أنّ أول من جحد أو نسي هبته كان آدم عليه السلام «فعن ابن عباس قال: لمّا نزلت آية الدّين قال رسول اللهّ صلى الله عليه وسلم: إنّ أول من جحد آدم عليه السلام. إنّ اللّه تعالى لمّا خلق آدم مسح ظهره فأخرج منه ما هو ذارٍ إلى يوم القيامة فجعل يعرض عليه ذرّيته فرأى فيهم رجلاً يزهَر فقال: أي ربّي، من هذا؟ قال: ابنك داود قال: أي ربّي، كم عمره؟ قال: ستون عاماً، قال: أي ربّي، زد في عمره. قال: لا، إلاّ أن أزيده من عمرك، وكان عمر آدم ألف عام، فزاده من عمره أربعين عاماً، فكتب اللّه عليه بذلك كتاباً وأشهد عليه الملائكة. فلمّا احتُضِر آدم وأتته الملائكة لتقبضه قال: إنه قد بقي من عمري أربعون عاماً، فقيل: إنك وهبتها لابنك داود، قال: ما فعلت، فأبرز اللّه له الكتاب وأشهد عليه الملائكة».

وقد رواه الحسن بن الأشيب عن حماد فزاد فيه «ثم أكمل اللّه لآدم ألف سنة وأكمل لداود مائة سنة». (ابن الجوزي: تاريخ الملوك)

وقيل: إنّ آدم حين مات دُفن في غارٍ في جبل أبي قبيس يُقال له غار الكنز، وقال ابن عباس: لمّا خرج نوح من السفينة دفن آدم ببيت المقدس، وكانت وفاته يوم الجمعة، وإنّ حوّاء عاشت بعده سنة ثمّ ماتت فدفنت مع زوجها في الغار (جبل أبي قبيس) إلى وقت الطوفان واستخرجهما نوح وجعلهما في تابوت ثم حملهما معه في السفينة، فلمّا غاض الماء عن الأرض ردّهما إلى مكانهما الذي كانا فيه قبل الطوفان، وكانت حواء، فيما ذُكر، قد غزلت ونسجت وعجنت وخبزت وعملت أعمال النساء كلها. (تاريخ الطبري)

طلبها في كلّ يوم وتدعوه لأن يلبي لها رغبتها ويتزوج، فقال لها:

- أخاف إن أنا تزوّجت أن تكون الثانية كزوجتي الأولى.

فقالت له: هذه المرة سوف أزوّجك بامرأة غير متعلمة.

فقال لها: إن كان هذا يرضيك فلا بأس.

فتقدّمت لخطبة فتاة غير متعلمة ومن أسرة جاهلة وزوّجته إيّاها، فأمضى معها أسبوعاً يتمرّغ في الهناء، وبعد انتهائه عاد إلى عمله، فخرجت الزوجة لتجالس عمتها، وقالت لها:

- محمد يوصيني بك، وأنا أحببتك وأريد أن أبرهن له على ذلك وأريد أن أغسلك.

شكرتها أم محمد وقالت لها:

- أنا قادرة على غسل نفسي... كثّر الله خيرك.

لكنّ زوجة الابن أصرّت على تغسيلها، وبعد إلحاح وافقت أم محمد ودخلت معها الحمام، وعندما تجرّدت صاحت زوجة ابنها:

- أذنك ليست مخرومة... عمرك ما لبستي حلق.

فقالت أم محمد: أهلي ما خرموها.

فسكتت زوجة الابن وأكملت فرك جسد عمتها، وفجأةً صاحت بها ثانيةً:

- وكمان بدون ختان.

خجلت أم محمد وسكتت، فقالت لها زوجة ابنها:

- قومي تنشّفي وتعالي معي.

سألتها: إلى أين؟

فقالت لها: إلى أمي تخرم أذنيك وتختنك.

فرفضت أم محمد لكنّ زوجة ابنها أخذتها بالقوة، وكانت أم محمد تصيح وتستنجد بالجيران فلم يسمعها أحد وأخذتها الزوجة إلى أمها، وقامت هي وأمها بخرم أذن أم محمد وتطهيرها وعادت بها إلى البيت. وعندما جاء محمد وجد أمه تنزف دماً من كلّ جسدها، فأصابه الخوف والفزع فسألها فلم تستطع أن تجيبه فقالت له زوجته:

- اليوم غسلت أمك ووجدت أنها لم تُختن وأذنيها لم تخرما، فذهبت بها لأمي وخرمنا أذنها وختناها.

فغضب غضباً شديداً وقال لزوجته:

- لن يجمعنا بعد اليوم سقف واحد. . . اذهبي فأنت طالق.

وعاد يعيش مع أمه كسابق عهده. ومضت سنة، وعادت الأم تلحّ عليه بالزواج وتقول له:

- نفسي أرى ذريتك قبل أن أموت.

فكان يرفض وهي تعيد عليه في كلّ يوم وتطالبه أن يلبّي لها رغبتها ويتزوج، وأخذت تبكي فقال لها:

- أخاف إن أنا تزوجت تكون الثالثة كالزوجتين السابقتين.

فقالت له: هذه المرة سوف أزوّجك بفتاة صغيرة لا تعرف شيئاً، نحن نعلّمها ما نريد.

فقال لها: إن كان هذا يرضيك فلا بأس.

فأخذت تبحث عن فتاةٍ صغيرة لتزوّج ابنها، وبعد فترة عثرت على فتاة صغيرة غاية في الجمال والرقّة، فتقدّمت لخطبتها لابنها وتمّ الزواج، ودخلت العروس بيت زوجها فهام بها وفتن برقّتها وجمالها ونسي الوجود من حوله، ومضى الأسبوع الأول والثاني والثالث وهو لا يغادر مكانه، فطرقت عليه أمه الباب وذكّرته بالعمل وأوصته أن لا ينسى نفسه مع زوجته الصغيرة، فكان يخرج إلى العمل ويعود مسرعاً إلى البيت ويغلق بابه ويظلّ مع زوجته، وفي كل مرّة تطرق عليه أمه الباب وتذكّره بموعد العمل، فيذهب متأخراً.

ضاقت الزوجة الصغيرة من أفعال أم زوجها وتنكيدها الدائم لها ولزوجها بكثرة طرق الباب وإخراج زوجها من عندها في كلّ حين. وكان بالمدينة رجل قرداتي[1]

(١) ظاهرة القرداتي اختفت من مدينة جدة، فقد عشت في حي شعبي وكان هناك من يسير في الشوارع ومعه قرد أو مجموعة قرود يلاعبها أمام الناس، لكنني لم أكن ألاحظ أنّ أحداً يمنحه نقوداً مقابل تلك العروض التي يقدمها، وربما كان يحدث ذلك لكنّ صغر السن غيّب هذا. والقرداتي هو أول تأسيس لمفهوم السيرك، فقد قرأت في كتب أنّ هذه المهنة قديمة، ولربما تكون هي بداية التفكير بتقديم عروض لسيرك الحيوانات.

يتجوّل في المدينة يلاعب قروده ويكسب بعض النقود من هذه المهنة، وفي يوم كان ينادي أسفل بيت محمد:

- سلّي على خاطرك وشاهد قرود تفعل العجب.

فنزلت إليه الزوجة الصغيرة وقالت له:

- يا قرداتي. . . أعطيك مالاً كثيراً وتأخذ معك امرأة عجوز تلبسها لبس قردة وتلعّبها في عروضك.

فقال لها:

- لا يمكن لإنسان أن يعمل عمل القرود حتى وإن ألبسته جلدهم.

فقالت له:

- أنت وشطارتك.

وما زالت تغريه بالمال حتى وافق، فذهبت إلى أم زوجها وقالت لها:

- أنا لا يرضيني أن يتأخّر محمد عن عمله كلّ يوم وأصبح أنا السبب في إهماله، ولقد رأيت لك ما يجعل محمد يهتمّ بعمله ويذهب إليه مبكراً.

فرحت الأم وقالت لها:

- أخبريني كيف؟

فقالت لها:

- الحل عند القرداتي، وقد أخبرته بقصة زوجي فقال إنه يعرف حيلة تجعل محمد يعود لسابق عهده.

فقالت الأم:

- ما هي؟

فقالت لها:

- ننزل ونتفاهم معه.

فنزلت الأم وكان القرداتي قد جهّز جلداً سميكاً، وعندما رأى المرأة العجوز قال لها:

- عليك بلبس هذا الجلد أولاً كي نخبرك بالحيلة.

فلبست الجلد، وما إن فعلت حتى خاطه وضربها بعصاه وقادها مع قروده، وعندما جاء محمد وسأل عن أمه قالت له زوجته الصغيرة:

- بعد أن خرجت إلى عملك لمّت بعض حوائجها وقالت أخبري محمد إنني

ذاهبة لأختي في المدينة المجاورة أقضي عندها بعض الوقت فلا يقلق عليّ.

أحسّ محمد بالسعادة، وعاش أياماً لا يفارق زوجته.

وكان القرداتي يدور بقروده ويعرضها على الناس، وكانت الأم تقفز مع القرود[1] وتغنّي وترقص والصبية يردّدون أواخر الكلمات التي تنطق بها؛ فكانت تقول:

أول زواجك يا محمد

ودّوني عند الكتاب... الكتاب

وثاني زواجك يا محمد

ختنوني وخرموا وذاني... ووذاني

---

(١) تتباين المفاهيم الشعبية في تقدير ذكاء الحيوانات، ويمثل القرد جانباً مهماً في إظهار هذا الذكاء، إلاّ أنّ الثعلب اكتسب ميزة المكر والدهاء في الحكايات الشعبية حتى غدا مضرباً للمثل، وربما كانت شهرة ذكائه مصدرها من حكايات كليلة ودمنة وحكايات عيسوب التي استخدمت الحيوانات في القصّ الشعبي لمواجهة ظلم واستبداد السلطة. وكان الثعلب يمثّل الدور الرئيس في تفتيق الحيل للتغلّب على المشاكل التي تواجهه. إلاّ أنّ ثمة مصادر أسطورية قديمة تبدأ من الخلق الأول تعطي راية الذكاء للثعلب؛ فها هو شوقي عبدالحكيم في موسوعة الفلوكلور والأساطير يسرد بداية تعليق هذه الميزة للثعلب حيث أورد تلك الحكاية التي تقول:

ما إن خلق الله العالم حتى أمر ملاك الموت أن يلقي مجموعة من الحيوانات من كلّ الأنواع في البحر كي يعيش كلّ حيوان مع من يخالفه، وعندما جاء ملاك الموت إلى الثعلب وجده يصرخ ويهلهل على شاطئ البحر، وما إن سأله عن السبب حتى قال إنه يبكي على صديقه الذي ألقاه في البحر، فاندهش ملاك الموت وترك الثعلب يمضي، لكنّ الذئب الذي خبر لعبة الثعلب نجح أيضاً في التهرّب، وفي نهاية السنة بعد أن أحصى الحوت (ملك البحار) جميع الحيوانات افتقد الثعلب والذئب وأرسل رسله من الأسماك ليكتشفوا ذلك. وعندما سمع الحوت بخبث الثعلب أراد أن يلتهم قلبه كي يزداد ذكاؤه وأرسل عدداً من الأسماك لتحضره. عندما وجد السمك الثعلب بجانب البحر أخبروه أنّ الحوت قد مات ويريد أن ينصب ملكاً بدلاً منه، فامتطى الثعلب ظهر إحدى السمكات فحملته إلى داخل البحر. وفي داخل البحر ارتبك فسأل عن حقيقة الأمر فقالت إحدى الأسماك إنّ الحوت حاقد على ما تتمتع به من دهاء وإنه يرغب في التهام قلبك ليصبح أكثر دهاءً منك. وهنا أجاب الثعلب أنّ من الواجب تذكيره مبكراً لأنّ الثعالب عادةً تترك قلوبها في منازلها عند الخروج. وهنا أعادته الأسماك إلى الشاطئ ليحضر قلبه، وعلى الشاطئ سخر الثعلب من الأسماك لاعتقادها أنّ مخلوقاً بدون قلب يمكنه العيش، فغضب الحوت من الأسماك والتهمها.

وثالث زواجك يا محمد
سرت قردة مع القرداتي
القرداتي. . . القرداتي

فيتضاحك الناس ويتعجّبون من قردة تتكلّم، وكسب القرداتي من حركاتها مكاسب كثيرة، وشاع خبرها في المدينة وأصبح الناس يقولون:

- آخر الزمن. . . قردة وتتكلم.

وفي يوم من الأيام كان محمد يتمشّى فرأى مجموعة كبيرة من الناس مجتمعين حول قردة تقفز هرباً من سوط القرداتي وهي تصيح وتردد:

أول زواجك يا محمد
ودّوني عند الكتاب
وثاني زواجك يا محمد
ختنوني وخرموا وذاني ووذاني
وثالث زواجك يا محمد
سرت قردة مع القرداتي
القرداتي. . . القرداتي

فانطلق إليها وأمسك يد القرداتي وأخذ يضربه ويسأله عن قصة هذه القردة ومن أين جاءت بهذه الكلمات، فاعترف له بالقصة كاملة، ففتق الخياطة التي خاطها القرداتي وأخرج أمه وأخذ يقبّل رأسها وقدميها وعاد بها إلى البيت فوجد زوجته تنتظره، وعندما رأته ممسكاً بأمه تظاهرت بالفرح واقتربت منها قائلة:

- الحمد لله على السلامة. . . طوّلتي الغيبة.

فقال لها محمد:

- لن يجمعنا بعد اليوم سقف واحد. . . اذهبي فأنت طالق.

وأقسم أن لا يتزوج مرة أخرى مهما كان السبب.[1]

رواية فاطمة علي هزاع

---

(١) تقول راوية الحكاية إنّ هذه القصة كانت ترويها كلّ أم لابنها قبل ليلة زفافه بيوم كي لا ينصاع لرغبات زوجته وينساها.

هذا المطرطر إيه؟[1]

خرجت وتركت زوجها نائماً، وعندما عادت وجدت لصّاً يصعد المنور ورآها وخافت إن هي صاحت أن يؤذيها، فالتقطت مرآةً وأخذت تتطلّع فيها وقالت:

يا ربّي، هذه عيني

وهذا خدّي

وهذه أذني

وهذا المطرطر إيه؟

فخشي اللص أن يسمعها أحد فردّ عليه:

- خشمك.

فرجعت مرة أخرى تقول بصوت مرتفع:

يا ربّي، هذه عيني

وهذا خدّي

وهذه أذني

وهذا المطرطر إيه؟

فيردّ عليها اللص بصوت أعلى:

- خشمك.

رفعت صوتها مرة أخرى بصوت أعلى:

يا ربّي، هذه عيني

(١) أيضاً هذا الاسم من عندي.

وهذا خدّي
وهذه أذني
وهذا المطرطر إيه؟
فردّ اللص بصوت مرتفع وكان يظن أنها صنجاء:
- خشمك... خشمك.
فاستيقظ زوجها وأمسكا باللص.

رواية فاطمة علي هزاع

يا جارنا الهندي!

فكّر بالحج ولكنه احتار ماذا يفعل بزوجته، وبعد تفكير وجد أنّ جاره الهندي رجلٌ صالح فقال أوصيه على زوجتي وأذهب إلى الحجّ، فذهب إلى جاره الهندي وقال له:

- يا جارنا الهندي أبغى أروح للحج ووصّيتك الجماعة.[1]

- فقال له الهندي: روح وهي مصانة.

فذهب الرجل إلى الحجّ وكان هناك عبد يتربّص بها في كلّ مرة، وعندما وجد أنّ زوجها مسافر قفز من فوق الجدار وراودها عن نفسها، فظنّت أنّها لا تقدر دفعه عن نفسها فقالت له:

- من زمان وأنا أتمناك.

فرح العبد وقال لها:

- من صحيح؟

فقالت له:

- من صحيح، بس مثل هذه الأمور ما تجي كذا. خلينا نتعشى ونسمر ونغني.

فرح العبد فرحاً عظيماً، فقامت وجهّزت له الطعام، وهو يتابع كل سكناتها، وبعد أن أكلا قامت وتناولت الطار وأخذت تضربه وتقول:

---

(١) بعض أهل الحجاز يطلقون كلمة الجماعة على زوجاتهم والبعض الآخر يقولون الأهل، والظاهر لي أنّ المسألة مستقاة أو مستلهمة من قصة موسى عليه السلام كما جاء في القرآن الكريم ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ (سورة القصص: ٢٩).

يا جارنا الهندي
عندي فرج عندي
فانتشى العبد وأخذ يردّد:
مرحباً ستي
قلبي يحبك أنتِ(١)
وكلّما اقترب منها ردّدت بصوت أقوى:
يا جارنا الهندي
عندي فرج عندي
فيردّ عليها:
مرحباً ستي
قلبي يحبك أنتِ
واستبدلت الطار بالضربِ على شباك جارها الهندي وهي تردّد:
يا جارنا الهندي
عندي فرج عندي
وهو يردّ عليها:
مرحباً ستي
قلبي يحبك أنتِ
فسمع جارها وجمع رجالات الحارة وقفزوا إلى البيت وأمسكوا بالعبد.

رواية فاطمة علي هزاع

---

(١) ربما هذه إشارة إلى عدم فهم العبد ما كانت تقوله السيدة وإلاّ ما جعلها تردّد هذه الأبيات الواضحة والتي تشي بأنها في خطر بعكس ما يذهب في كثير من الحكايات إلى غباء هذه الفئة من البشر لكونهم لا يفهمون ما يقال أو ما يقولون، بينما التفحص والإمعان يشير إلى أنّ هؤلاء البشر جلبوا كعبيد وهم قادمون من لغات أخرى لا يفقهون لغة أسيادهم، ولذلك فغياب اللغة هو غياب للفهم، ولن أشطط إذا قلت إنّ غياب اللغة هو غياب وجود.

التليسية

اشتهرت بتوليد النساء في جميع القرى، وكان جميع النساء يطلبنها أثناء الولادة، وفي يوم كانت تجلس هي وزوجة ابنها في فناء البيت تشربان الشاي فمرت من أمامهما تليسية[1] تتهادى ببطء وبطنها منتفخ، فقالت الداية لزوجة ابنها:

- كأن هذه التليسية حامل وإن شاء الله أولّدها معك.

وتضاحكتا، ومرّت الشهور وجاء المخاض لزوجة ابنها فولّدتها ولفّت حفيدها بمنشفة زرقاء جديدة اشترتها لهذا الغرض وأعطته لأمه، فوضعته بجوارها وانقلبت على الشقّ الثاني من جنبها. سمعت الداية طرقاً على الباب فاتجهت لتفتح فوجدت رجلاً يقول لها:

- زوجتي تولد وطلبتك لتوليدها.

---

(١) التليسية هي نوع من أنواع الزواحف يطلق عليها أهل جدة ومكة اسم (أم صالح) ويقال لها في الجنوب برمية. تسكن بين القمائم والجحور وشقوق البيوت... وكثير من الزواحف شكّلت عمقاً أسطورياً. ولا يخفى أنّ هناك من الزواحف ما عُبد ومُثّل إلهاً في التجمّعات النهرية، وبعضها كان طوطماً، وبعضها اعتقد الإنسان أنّ لها قوى سحرية. وما زالت الزواحف تلعب دوراً في حياتنا، بل انتقل بعضها إلى السينما، فها هي هوليوود تجعل إحدى الزواحف بطلة لأفلامها، كالأناكوندا.

ويذكر شوقي عبدالحكيم في موسوعة الفلوكلور والأساطير أنّ العرب والعبريين قدّسوا الحيوان وتسمّوا باسمه، لكنهم لم يكونوا ينطقون اسم الحيوان مباشرةً بل يستبدلونه بكنية أخرى، ولهذا كثرت أسماء الحيوانات... وفي هذا السياق نلحظ أنّ كنية الحمار صابر وكنية الثعلب أبو الحصين وكنية الذئب أبو جعدة وكنية الضب أبو الحسل وكنية الهدهد أبو الأخبار وهكذا...

فقالت له:

- أبشر.

وتحرّكت معه وأخذها إلى مكان بعيد عن البيوت، وعندما أصبحا في الخلاء رفع حجرة ودخلوا من تحتها، فعرفت أنه جنّي وليس إنسياً، فلم تخف ودخلت معه فوجدت التليسية تتوجّع من الألم وعندما رأت الداية قالت لها:

- لا تخافي أنا التليسية اللي مرّت من قدامك فقلت كأن هذه التليسة تتولد وقلت لزوجة ابنك أولّدها معاك.

فقالت لها الداية:

- هذا نذر والحمد لله أني حوّفي بنذري.

وقامت وجهّزت ماءً حارّاً وخروقاً بالية ووضعتها تحتها وأخذت تساعدها حتى ولدت ولداً فلفّته الداية ووضعته بجوار أمه، فكان يصيح صياحاً قوياً أزعج أبويه فقالت التليسية لأبيه:

- شيل هذا الولد ودور عن أنسية معطية ولدها ظهرها وحطّ مكانه ولدنا.

وكانت الداية تستمع إليهما وتنتظر أن يخرجاها من تحت الأرض.

وفي لحظات أخذ الجنّي ابنه وعاد بولدٍ أنسي عندما شاهدته الداية عرفت أنه ابن ابنها من خلال المنشفة التي لفّته بها، فقالت لهما:

- هذا أحسن من ولدكما، هادئ. خلّوني أشوفه.

ونزعت مشبكاً كانت تضعه على صدرها وغرسته في قدم ابن ابنها فصرخ صراخاً حادّاً ولم يسكت، فقالت لهما:

- هذا الطفل أكثر إزعاجاً من ولدكما.

فقالت التليسية الجنّيّة لزوجها:

- صحيح، هذا الولد أكثر إزعاج من ابننا. رجّعه وجيب ولدي.

فأخذه وأرجعه وعاد بابنه فاطمأنت الداية، فأعطوها صرّة مليئة بالذهب[1]

---

(١) روت لي فاطمة علي هزاع هذه الحكاية، لكنها ليست بهذه الحبكة، كما أشارت إلى أنّ الجنّي أعطى الداية كيسين من بصل وثوم، وتضايقت الداية من هذه العطيّة، وعندما عادت إلى البيت قالت: ما في بالدنيا إلاّ بصل وثوم حتى يعطيني. وأخذت قليلاً من البصل وقليلاً =

وشكروها ورجعت إلى دارها فوجدت زوجة ولدها مستلقية ومعطية ابنها ظهرها فأيقظتها وأخبرتها بالقصة، فقالت لها زوجة ابنها:

- أنت تكذبين.

وكان الطفل لا يزال يصرخ، فأخرجت الداية الدبّوس من رجله وقالت لزوجة ابنها:

- هذا المشبك أنا اللي غرسته في رجله لما جابه الجني لزوجته.

رواية حامدة حمدان الحربي - جدّة

= من الثوم ورمت الباقي في مرمى القمامة، وعندما استيقظت في الصباح وجدت البصل قد تحوّل إلى فضة وتحوّل الثوم إلى ذهب، فندمت على الكمية الكبيرة التي رمتها في القمامة وخرجت تبحث عنها فلم تجدها.

عشيق الجنيّة

اشتهر بالشجاعة والفروسية ولم يكن يخاف أيَّ شيء، وكان يُقدم على المغامرات التي يعجز أقرانه على الإتيان بها. وقد ذاع صيته بين القبائل وتمنّت كلّ فتاة أن يكون من نصيبها وقسمتها، ولم يكن يلتفت إليهن ويقول:

- أنا لا أتزوج إلا آمرأة جميلة الجميلات والبلد كلها ما فيها المرأة التي في خيالي.

سمعت نساء الإنس والجنّ بقولته، وكانت كلّ واحدة تتفنّن في زينتها لينقل إليه من يراها أنها جميلة الجميلات، ولكنه كلما رأى من يتحدثون عنها قال:

- زوجتي لن تكون مثل هذه.

ومع رفضه كان أهله يصرّون عليه بالزواج، ولكي ينفكّ من إلحاحهم قال لهم:

- اجمعوا النساء اللاتي ترون أنهنّ يصلحن لأن يكنّ زوجات لي.

فقامت أمه من حينها وجمعت كلّ الفتيات، وأعطته تفاحة وقالت له:

- ارمي تفاحتك على من تراها جميلة.

وفي ليلة الحفل أخذ التفاحة[1] وكتب عليها:

---

(١) في كلّ موقع من الحكايات المجموعة، سواء كانت الحكايات الجنوبية أم الحجازية، نجد موتيفة ما مأخوذة من أسطورة عالمية قد تعتمد عليها الحكاية تماماً، وقد تذكره وتهمله لتبني على موتيفة أخرى. وهنا نجد أنّ التفاحة هي نفسها التي استخدمها الشاعر هوميروس في رائعته الألياذة. واختصار أسطورة الألياذة، كما يرويها جمال خالد الطريفي، بأنها خليط ما بين البشر والآلهة، فيحكى أنه كان لإله البحر «بوسايدون» ابنة حورية تُدعى «ثيتيس» أعجب بها كبير الآلهة عند الإغريق «زيوس»، ولكنه علم إن هو تزوج بها فإنها ستنجب ابناً يكون =

= أعظم من أبيه، وهذا لا يرضي زيوس على الإطلاق، ولذا قرر أن يزوجها أحد الملوك، وحضر حفل الزواج هذا مع زيوس كلّ الآلهة الأخرى ما عدا آلهة الخصومة والنزاع كي لا تفسد عليهم هذا العرس، فاغتاظت من ذلك وقررت إفساد العرس بأيّ طريقة وبأيّ شكل، فأخذت تفاحة ذهبية وكتبت عليها جملة «إلى أجمل الحاضرات»، كي يدُبّ الشقاق بين الآلهات أيهنّ الأجمل، وبالفعل حدث الشقاق بين زوجة زيوس «هيرا»، إلهة الزواج، وابنتها «أثينا»، إلهة الفكر، و«أفروديت» إلهة الجمال، فاحتكمن إلى زيوس، إلاّ أنّ زيوس أرسلهنّ إلى شاب راعٍ في جبال «إيدا» يُدعى «باريس» قائلاً إنه أعلم منه بأمور النساء، وهو بذلك لا يريد أن يكونَ في موقفٍ محرج بين زوجته وابنته والأخرى، فلمّا ذهبن الإلهات إلى باريس واحتكمن عنده قامت كل واحدة منهن بإغرائه لتكسب التفاحة الذهبية: هيرا وعدته بأن تجعله ملكاً ثرياً، وأثينا وعدته بأن يكون قائداً عسكرياً عظيماً، وأفروديت وعدته بأن تزوّجه من أجمل النساء في ذلك الزمان، فمال إلى رشوة أفروديت على سواها، فقام بإعطائها التفاحة، فباتت هي المنتصرة. وبعد هذا أخبرته أفروديت أنه من نسل الملوك وأنّ حاكم طروادة «بريام» هو أبوه وأنّ زوجته «هيكوبا» هي أمه، ولكنها حين كانت حاملاً به رأت في المنام حلماً فسّرته عند أحد العرافين الذي تنبّأ لها بأنّ مولودها سيجلب الخراب لطروادة بأسرها، فقرّر والده ووالدته أن يتخلّصا منه، فأمرا أحد الخدم أن يأخذه ويقتله في أحد الجبال، إلاّ أنّ الخادم هذا كان رحيماً به فتركه من دون قتله لعلّ الظروف القاسية هي من تقتله، كأن يأتيه أحد الحيوانات المفترسة فيلتهمه، أو يموت جوعاً، إلا أنّ أحد الرعاة رأى باريس وعطف عليه وقام بتربيته، هو وزوجته، حتى كبر وشبّ وهو يعتقد أنّ هذا الراعي وزوجته هما أبواه. وبعد أن أخبرت أفروديت باريس بقصّته دبّرت له خطّة يعود بها إلى أهله، وبعد أن عاد وفرح به والداه متناسين ما قاله العرّاف. وبخطةٍ أخرى دبّرتها أفروديت أيضاً جعلت باريس يبحر نحو اليونان إلى مدينة إسبرطة التي يحكمها «مينلاوس» والمتزوّج من أجمل النساء على الإطلاق، وتُدعى «هيلين»، فأكرمه مينلاوس أيّما كرم وفتح له قصره. ولكن حدثت ثورة بسيطة اضطرّ على إثرها أن يغادر مينلاوس إسبرطة تاركاً ومؤتمناً باريس على بيته، إلاّ أنّ باريس هرب بهيلين إلى دياره. فلمّا عاد مينلاوس وعرف ما عرف حتى أجمع كلّ ملوك اليونان على أن يحاربوا طروادة وينتقموا من باريس ويسترجعوا شرفهم الذي دُنّس، فغادر مينلاوس بجميع ملوك اليونان يتزعّمهم عسكرياً أخوه «أجامنون»، إضافةً إلى قائدٍ عسكري آخر هو ملك إيثاكا «أوديسيوس» الذي أقنع أحد الأبطال، وهو «أخيل»، بأن يشاركهم الحرب. وآخيل هو ابن الحورية «ثيتيس»، وقد تنبّأت له الأقدار بأنه حين يكبر سيحارب مملكة طروادة ويقتحمها إلاّ أنهُ سيقتل في آخر الأمر. لذا حاولت والدته أن تحميه، فحينما كان صغيراً بللت جسده بنهر الخلود كي لا يموت، ممسكةً به من كعبيه ومدخلةً بقية جسده في الماء، ناسيةً أن تغسل الكعبين أيضاً. وحينما انتشر خبر رغبة أوديسيوس بضم أخيل أدخلته والدته مع نساء القصر متخفياً بزيّ امرأة كي لا يكتشفه أحد وكي لا يضطر لخوض هذه الحرب معهم، إلاّ أنّ أوديسيوس دخل القصر =

- من ترى نفسها جميلة فلتقضم هذه التفاحة.

وكان قد غرس دبوساً في تلك التفاحة، وعندما دارت التفاحة بين المدعوات لم تتمكن أي منهن على قضم التفاحة، فتفرق الجمع ولم يختر أياً منهن.

وسمعت بقصته جنية من الجن كانت آية في الجمال، وكان الجنّ يقولون: لم تُخلق في الدنيا شبيهةٌ لها. سمعت هذه الجنية بقصّة الشاب فخرجت من باطن الأرض لترى هذا الرجل الذي لم تعجبه أيّ امرأة في الكون، وعندما رأته أُعجبت به إعجاباً شديداً وأحبّته حبّاً ملك عليها شغاف القلب، ولم تعد تقدر على فراقه، فما أن يأتي الليل حتى تستعد للخروج من باطن الأرض وتذهب إلى مرقده وتشاغله بحركات متعدّدة، فتقلب له فراشه، وتطفئ الأنوار عليه، وتفتح الأبواب وتغلقها بقوة. كانت تقوم بأفعالٍ كثيرةٍ مزعجة، وعندما ضاق بهذه المضايقات صاح:

- لو أنك جنّي رجّال ظهر لي وشوف أش أسوّي فيك.

فظهرت له امرأة فاتنة ما إن رآها حتى افتتن بها، وجالسها ولاعبها ووقع أسير

= متخفياً بزيّ بائع أقمشة وأخرج سلاحه فبانت حركة من إحدى النساء تنبئ بأنّ هذه الحركة لا تخرج إلاّ من فارس كبير، فاكتشف أوديسيوس أمر أخيل وأجبره على خوض الحرب معهم.

ومؤلف الألياذة والأوديسة هو هوميروس، الشاعر الإغريقي الذي عاش في حوالي القرن الثامن قبل الميلاد، ويُعتبر من أشهر الشعراء الإغريق على الإطلاق، أصيب بنهاية عمره بالعمى فأصبح ضريراً لا يرى، عاش مسكيناً فقيراً، يجوب المُدن ينشد الأشعار لمن يعطيه أجراً لأشعاره. كانت ملحمتاه اللتان كتبهما، وهما ملحمتا الألياذة والأوديسة، من أشهر الملاحم الشعرية، وقد تحدّثتا عن حرب طروادة ومغامرات أوديسيوس بعد هذه الحرب.

ومثل باريس عقدة في أسطورة أغاممنون، وهو زوج كليتمنسترا ابنة ملك إسبارطة التي أنجب منها أوريست وإيفيغيني وإلكترا وخريسوتميس. ولمّا خطف باريس، ملك طروادة، هيلينا زوجة مينيلاس (شقيق أغاممنون) ورفض إعادتها إلى زوجها، هبّت مدن اليونان إلى محاربته. وبينما الأساطيل تستعد للانطلاق سكنت الريح تماماً واستحال الإقلاع. فقام أغاممنون ليضحّي بابنته إيفيغيني للإلهة أرتميس كي تطلق الريح، غير أنّ أرتميس ما لبثت أن هدأ غضبها، واكتفت بالتضحية بغزالة بدلاً من ابنة أغاممنون. لكنّ زوجته كليتمنسترا غضبت بشدّة على زوجها لقراره التضحية بابنتها، وفي أثناء غيابه في حروب طروادة عشقت إيغستوس، وبعد عودة زوجها من الحرب ضاقت حياتها، فدبّرت له مكيدة وقتلته. (صقر أبو فخر: بين الأسطورية والتاريخية، مأساة أوديب وقصة أخناتون، مجلة نزوى، العدد السبعون)

هواها واتفقا على الزواج[1] فقالت له:

---

(١) تذهب الأسطورة العربية إلى أنّ «هناك ملوكاً هم نتاج تزاوج من إله أو جنّي، وخاصة الملكات التي تجمع الأساطير على انحدارهنّ من رحم أمّهاتٍ سماويات اتصلن برجالٍ بشريين ذكور فجئن إلى الوجود، مثلما حدث مع الملكة البابلية سميراميس التي تقول الأسطورة إنّ أمها معبودة سماوية أرادت أن تستر زلّتها فتركتها في الخلاء. وهي الحكاية المتصلة بفكرة الإلهة القمرية.

وهناك شخصيات معروفة في التاريخ تزعم الأساطير أنها أبناء جنيات، وتأتي في مقدمتهم بلقيس ملكة سبأ وأمها الجنية رواحة بنت مسكن، وهناك الجنية التي انحدر من رحمها الملك الحميري الصعب ذو القرنين، والصعب بن ذي مرائد الحميري وعمر بن يربوع بن حنظلة التميمي وجذع بن سنان وعمرو ذو الأذعار بن أبرهة ذي المنار وأمه الجنية العيوف ابنة الرائع. وهناك قبائل تقول الأسطورة إنها انحدرت من رحم بشر تزوّجوا بملائكة، كقبيلة جرهم وكذلك قبائل جديس وثمود والعماليق. وهو تصوّرٌ لا يبتعد عن تصوّر العبريين من أنّ الملائكة هم أبناء الله، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

وهناك من ينتسب إلى الجن مثل بني مالك وبني شيصان وبني يربوع الذين تسمّوا ببني السعلاة والأحباش ينتسبون جميعاً إلى الحيّة، والحيّة تتوحّد مع الجن... وهناك من العرب من عبد الجن أيضاً (شوقي عبد الحكيم: موسوعة الفلوكلور والأساطير العربية، مكتبة مدبولي)

وحكايات الجن ومواطنهم ومصاهرتهم للإنس وقبائلهم، وكذلك الغيلان والسعالي والعفاريت والرياح والندهات والمنفرات وسكّان ماتت الأرض، ترجع بكاملها من المتعرّبة البائدين من الألف الثاني قبل الميلاد، وبشكل أخصّ سكّان جنوب اليمن القحطانين نظراً ليسر اتصالاتهم المبكرة بالفرس المجوس في إيران، والتي يرجعها البعض إلى الألف الثانية. وهذه الحكايات انتقلت فيما بعد إلى بقية شعوب العالم، ومنهم عبرت إلى أوروبا.

وقد عبد العرب الجنّ، ولهذا نجد أنهم حرموا المكوث في أماكن شاسعة بكاملها، وكان ذلك اتّقاءً لشرور الجنّ، وكانوا إذا نزلوا إليها قالوا: اعموا ظلاماً! وهي التحيّة التي تحوّرت وأصبحت تقال: مسّيكم بالخير ومرادفاتها المختلفة.

وذكرت الأساطير العربية أنّ هناك تواصلاً كلامياً بين الجنّي والإنسي، يبدأ الإنسي بإلقاء تحية السلام ويقابلها قول الجني أو الغول على البطل الإنسي: «لولا سلامك غلب كلامك لكنت أكلت لحمك قبل عظامك...» وكانت خرافات الغيلان وسيرها منتشرة بكثرة شديدة في الجزيرة العربية. ويُنسب للشاعر تأبّط شرّا أنه قتل غولة بضربة واحدة من سيفه، وأنّ الغولة عندما ضربها أول ضربة طلبت منه أن يضربها ثانيةً، لكنّه رفض، وهي تلك التضمينة الأسطورية المعروفة في خرافات الجان، ومؤدّاها أنّ ضربة الرجال لا تُثنّى. (نفس المصدر السابق بتصرّف)

ومن تزوّج بالجن من العرب عمرو بن يربوع بن حنظلة التميمي وجذع بن سنان وعمرو ذو =

- قبل الزواج لي شرط.

فقال لها:

- ما هو شرطك؟

قالت:

- أن تعيش معي في دنيتي.

فقال:

- موافق.

فقالت له:

- لا تستعجل. فكّر وردّ لي الجواب الليلة المقبلة، بس أقلك من الآن لو عشت معي في دنيتي بباطن الأرض فلن تخرج إلى أهلك أبداً، وإذا فكّرت بالخروج فستخرج وأنت خسران خسارة كبيرة.

واختفت عنه، وظلّ لأيام لا يعرف النوم، يفكّر بها ويناجيها، وفي اليوم السابع ظهرت له وقالت له:

- أش ردك؟

قال لها: موافق.

وفي لمح البصر حملته إلى منطقة بور موحشة[1]، وهناك خسفت به الأرض

= الأذعار بن أبرهة ذي المنار وأمه الجنية العيوف ابنة الرائع.

كما أنّ الحروب طويلة ودامية بين قبائل الجن وقبائل الإنس من العرب، منها حروب بني سهم الذين كانوا قد قتلوا ابن امرأةٍ من الجنّ عقب حجّه وطوافه بالبيت، فوقعت الوقيعة بين قبيلة الجنّي المنوفي وبني سهم، وقتل الجن من بني سهم خلقاً كثيرين، وكان أن نهض بنو سهم وحلفاؤهم ومواليهم وعبيدهم وركبوا رؤوس الجبال وشعابها فما تركوا حيّةً ولا عضاضةً ولا عقرباً ولا خنفساء ولا هامةً تدبّ على الأرض إلاّ قتلوها حتى ضجّت الجنّ فصاح صائحهم يطلب وساطة قريش بينهم وبين بني سهم فتوسّطت قريش فانتهى النزاع بينهم وبين بني سهم.

وهم الذين زعموا في أنّ جوف الماء ريح، وفي الريح الرحم، وفي الرحم المشيمة، وفي المشيمة بيضة، وفي البيض الماء الحي، وفي الماء الحي ابن الأحياء العظيمة الذي ارتفع إلى العلو فخلق البريات والأشياء والسموات والأرض والآلة.

(١) كلّ الحكايات تختار موقعاً للجن هي الأماكن الفضاء أو في الخرابات أو في البحار. وهذا =

= الاعتقاد هو اعتقاد مؤسَّس له ضمن الثقافة العربية، فعن ابن عباس «أنّ الجنّ لما أفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء بعث الله إليهم إبليس ومعه جندٌ من الملائكة فقتلوهم وأجلوهم عن الأرض إلى جزائر البحور». (ابن كثير: البداية والنهاية)

وحتى في قصة إيمان الجنّ تذكر بعض الروايات أنّ الله أراد أن يسلي على رسوله بعد ما وجد من أهل الطائف، فنزل إلى وادٍ (يُقال هو وادي النمل) فقرأ القرآن فاستمع إليه نفرٌ من الجنّ وآمنوا برسالته، وكانوا في منطقة خلاء. وهناك رواية أخرى، وهي القصة رواها البخاري ومسلم في صحيحيهما، وهي من رواية ابن عباس رضي الله عنهما قال: «انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم في طائفةٍ من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب. قال: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلاّ ما حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الأمر الذي حدث. فانطلقوا فضربوا مشارق الأرض ومغاربها ينظرون ما هذا الأمر الذي حال بينهم وبين خبر السماء. قال: فانطلق الذين توجّهوا نحو تهامة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنخلة وهو عامد إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلمّا سمعوا القرآن تسمّعوا له فقالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك رجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً﴾. وأنزل الله عزّ وجلّ على نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ (سورة الجن: ١) وإنما أوحي إليه قول الجن».

وإن كان في هذه القصة سؤال حائر في التفريق بين الجنّ والشياطين، فكلّ المرويات تفصل بين صنفي الجن والشياطين، وهو الأمر المختلط حوله، فها هو ابن عباس يقول: «إنّ اسم إبليس قبل أن يرتكب المعصية عزازيل، وكان من سكان الأرض ومن أشدّ الملائكة اجتهاداً وأكثرهم علماً، وكان من حيٍّ يقال لهم الجن». وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير: «أنه كان اسمه عزازيل وكان من أشرف الملائكة من أولي الأجنحة الأربعة». وقد أسند عن حجاج عن ابن جريج قال ابن عباس: « كان إبليس من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة». (ابن كثير: البداية والنهاية)

وقد عُبدت الجن، وكانت بنو مليحٍ من خزاعة (وهم رهط طلحة الطلحات) يعبدون الجن. وفيهم نزلت: «إنّ الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم». (الأصنام لأبي المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي)

ونجد أنّ الجاحظ في كتاب **الحيوان** يفصل في الفروق ويقول: «روى إسماعيلُ المكّي عن أبي عَطاءِ العُطارِدي قال: سمعت ابن عبَّاس يقول: السُّود من الكلاب الجِنّ، والبُقْع منها الحنّ، ويقال إنَّ الحنَّ ضَعفة الجنّ، كما أنَّ الجنيَّ إذا كفر وظلَم وتعدَّى وأفسد قيل شيطان؛ وإن قوي على البنيان والحمل الثقيل وعلى استراق السمع قيل مارد، فإنْ زاد فهو عِفريت، =

فوجد نفسه في قصرٍ كبير مؤثّث بأحسن الأثاث وكلّ أوانيه من الذهب والفضة، تحفّ به أشجار لها ثمار غريبة، وبه خدم وحشم يملؤن القصر، وكان من الجنّ من يزيّن رأسه بالياقوت أو المرجان أو الفيروز، وبعضهم يغطّي وجهه بثيابٍ بالية ممزقة، وهناك وجوهٌ مشوّهة، فوجهٌ بعين واحدة وثاني بلا موقع لعيون وثالث استقرّت أنفه بصدره ورابع له أطراف كثيرة وخامس نبت في جذعة ولد أو بنت وسادس فمه في يده. . . أشكال متعدّدة غريبة ومرعبة كلّها لها أقدام تنتهي بحوافر كحوافر الحمار، فلم يخف أو يرتبك، وكانت الجنيّة تمسك بيده وتطمئنه، وعندما استقرّا في باطن الأرض قالت له الجنيّة:

- الآن أنت في دنيتي وإن كنت رغبان بالزواج مني فاطلبني من أبويه.

ودلّته على مكان أبيها في داخل القصر، فدخل عليه ووقف أمامه قائلاً:

- يا ملك الجن، أنا من خيرة الإنس وقد تخلّيت عن دنيتي وجيت طالب بنتك زوجة لي.

فقال له أبوها: وافقت على شرطها؟

قال: نعم وافقت.

فقال أبوها: وأنا وافقت إنّي أزوجك بنتي.

وأُقيم حفل الزفاف، وحضره مردة الأرض من كلّ مكان، وتناقل الجنّ خبر الزواجِ بين مصدّقٍ ومكذّب، وحضر بعض الجنّ بأطفالهم لرؤية أحد الإنس، وكانوا أطفالاً غرباء؛ فقاماتهم طويلة تقاس بالأمتار، بعضهم أشبه بالخيوط ليس له من حياة سوى طولٍ متناهٍ، كما أنّ النساء أخذن يحدّقن في العريس وكلّ واحدة منهن تتمنّى أن يكون زوجها، ولكنّ زوجته الجنيّة أخذت عليهنّ مواثيق أن لا يأتينه.

وعاش مع زوجته سعيداً، وولدت له ولدين وبنتين. وبعد سنوات ضاق من عيشة الجنّ فقال لزوجته:

- اشتقت أن أرى أهلي.

= فإن زاد فهو عبقريّ، كما أنّ الرجلَ إذا قاتل في الحرب وأقدم ولم يحجم فهو الشجاع، فإن زاد فهو البطل، فإن زاد قالوا: بُهْمة، فإن زاد قالوا: أَلْيَس، فهذا قول أبي عبيدة».
وبعض النَّاس يزعم أنَّ الجِنّ والجنَّ صِنفان مختلفان.

فقالت له: نسيت الشرط؟

قال لها: أي شرط؟

فقالت له: اتفقنا لو عشت معي لن ترى أحداً منهم.

فقال لها: ولكنّي ضقت واشتقت لرؤية أمي وأبي وأخواني.

فقالت له: فكّر وتذكّر الشرط... خروجك يعني خسارة كبيرة لك.

وأعطته مهلة شهر للتفكير كان خلالها لا يعمل شيئاً سوى تخيّل نفسه وهو يسير في شوارع قريته وبين حقولها مصافحاً أهل بلدته التي غاب عنها مدّة ثماني سنوات. وبعد مضي المهلة جاء إلى زوجته وأطفاله قائلاً:

- أشمّ هوى الأرض وأسلّم على أهلي وأعود.

فقالت له:

- هذا قرارك الأخير؟ -

قال لها: نعم.

فقادته إلى المكان نفسه الذي جاء منه منذ ثماني سنوات وقالت له:

- في النهار، عندما تصل الشمس إلى المنتصف، امشِ في هذا النفق ومع نهايته ستجد نفسك قريباً من بلدتك... بس لا تنسى أنك ستخسر خسارة عظيمة.

فقال لها: أبغى أولادي.

فقالت له: بعد ما تخرج روح لبير أم السباع ونادي عليهم فمن يخرج منهم فهو لك ومن لا يخرج لا تسأل عنه أبداً... لك ثلاث صرخات لكلّ ولد من أولادك، وإذا صرخت ثلاث مرات ولم يظهر لك أحد فقم من ساعتها... فهمت؟

قال لها: فهمت.

ومدّت يدها وأعطته حبوباً من الحنطة[1] وقالت له:

---

(١) الحنطة من الحبوب التي دارت حولها أساطير كثيرة، ويُقال كان ممّا أخرج آدم معه من الجنّة صرّة من حنطة، وقيل إنّ الحنطة جاءه بها جبرائيل عليه السلام بعد أن جاع آدم واستطعم ربه فبعث الله إليه مع جبرائيل عليه السلام سبع حبات من حنطة فوضعها في يد آدم عليه السلام فقال آدم لجبرائيل: ما هذا؟ فقال له جبرائيل: هذا الذي أخرجك من الجنة. وكان وزن الحبة منها مائة ألف درهم وثمانمائة درهم. فقال آدم: ما أصنع بهذا؟ قال: انثره في الأرض. ففعل فأنبته الله عزّ وجلّ من ساعته، فجرت سنّة في ولده البذر في الأرض. ثم أمره فحصده، ثم =

- لو احتجت للمال ازرع هذه الحبوب.

وعندما حاول أن يحضنها تملّصت من بين يديه وانطلقت عائدةً دون أن تلتفت، فبقي في مكانه ينتظر حتى أصبحت الشمس في منتصف السماء فسار داخل النفق، وكان نفقاً مظلماً فيه حيّات طائرة وسباع وغيلان ومردة، أنصافهم السفلى حجارة وأنصافهم العليا نمور وأسود. ضجّ النفق بأصواتٍ متداخلة كلّها تعده بالموت فيعبرهم غير مبالٍ بأصواتهم أو مخالبهم التي تمتد إلى جسده وتتخاطفه. وبعد مسيرة ثلاثة أيام وجد نفسه في مكانٍ مقفر ووجد طائراً يحلّق على رأسه وكلّما اتجه اتجاهاً ضربه على وجهه، لكنّه لاحظ أنّ الطائر يكفّ عن ضربه عندما يسير باتجاه الجنوب، فسار مسيرة يومين في صحراء ليس بها شيء سوى رمال يسفّها الهواء في كلّ اتجاه، وكلّما أرهقه التعب وحاول أخذ قسطٍ من الراحة نقره الطائر على هامته، فنهض وأكمل سيره، ومع فجر اليوم الثالث وجد نفسه على مشارف قريته، وقبل أن يدخل تذكّر أولاده فذهب لبير السباع واستلقى على فوهة البير وأخذ يصيح:

- يا بحر!

فتشقّقت السماء بأصوات رعدٍ قاصف ووميض بروقٍ متلألئة وهطل مطر غزير بلّل كلّ شيء وسعت مياه الأرض هادرة وجارفة كلّ ما تصادفه في طريقها، بينما ظلّ ممدداً على فوهة البئر ويصيح:

- يا بحر!

= أمره فجمعه وفركه بيده، ثم أمره أن يذريه، ثم أتاه بحجرين فوضع أحدهما على الآخر فطحنه، ثم أمره أن يعجنه، ثم أمره أن يخبزه ملة. وجمع له جبرائيل عليه السلام الحجر والحديد فقدحه فخرجت منه النار فهو أول من خبز الملة.

وقيل إنّ من الثمار التي زوّد الله عزّ وجلّ آدم عليه السلام بها حين أُهبط إلى الأرض ثلاثين نوعاً: عشرة منها في القشور وعشرة لها نوى وعشرة لا قشور لها ولا نوى، فأما التي في القشور منها فالجوز واللوز والفستق والبندق والخشخاش والبلوط والشاهبلوط والرانج والرمان والموز، وأما التي لها نوى منها فالخوخ والمشمش والإجاص والرطب والغبيراء والنبق والزعرور والعناب والمقل والشاهلوج، وأما التي لا قشور لها ولا نوى فالتفاح والسفرجل والكمثرى والعنب والتوت والتين والأترج والخرنوب والخيار والبطيخ. (الكامل في التاريخ لابن الأثير)

فظهر ابنه بحر فخطفه من رأسه وألقاه أسفل قامته وغطّاه بجسده وأنكفأ مرّة ثانية على فوهة البئر وصاح:

- يا رعدا!

فظهر ابنه رعد فخطفه من غرّته وغطّى عليه بجسده وانكفأ مرّة ثالثة على فوهة البئر وصاح:

- يا ياقوتة!

فتردّد صدى صوته في ذلك الجو الموحش ولم تظهر، فعاد الصياح:

- يا ياقوتة!

فتردّد صوته مضخّماً ولم تظهر، فانكفأ على البئر للمرة الثالثة وصاح:

- ياقوتة!

فجاوبته الجبال والأودية بترديد:

- ياقوتة... ياقوتة!

وضجّ المكان يردّد معه بأصوات مرتفعة:

- ياقوتة... ياقوتة!

وفجأةً صمت كلّ شيء وعادت ريح باردة تزمجر على أوراق الأشجار المبتلّة وجرى ماء الأمطار قوياً صاخباً. تلمّس ولديه القابعين أسفل منه، وتاق إلى بنتيه فانكفأ على البئر وصاح:

- يا ياقوتة!

فظهر رأسها فأمسك بجديلتها، وقبل أن يسحبها إليه انطبق البئر على نصفها الأسفل فخرجت نصف حمامة ونصف إنسانة، وعادت السماء ترعد وتبرق ونشطت الريح فقلبت كلّ شيء فتدفّق سيلٌ كبير جرف ابنيه (صخر ورعد) وأطبقت عليهما جوفها. أصيب الرجل بإغماء، وبعد زمن استيقظ فوجد نفسه مرمياً على مدخل بلدته وليس بجواره سوى كائن غريب نصفه الأعلى لفتاة جميلة ونصفه الأسفل لحمامة بيضاء... تذكّر ما حدث وندم ندماً كبيراً وحمل ابنته ودخل بلدته. لم يستقبله أهل البلدة في أول الأمر، وعندما عرفوه جاؤوا يسألونه عن حاله فلم يحدّث أحداً منهم، ودخل بيتهم فوجد أنّ أباه وأمه قد ماتا كمداً عليه، فبقي وحده يرعى تلك الحمامة، وكلّ من رآها أُعجب بها وكان الكلّ يقول:

- الزين ما يكمل.

وكان بالبلد شاب دميم لم تقبل به أيّ فتاة زوجاً لها، فكان يخرج إلى البرية لرعي الأغنام ويمسك بنايٍ يظلّ طوال الوقت يعزف عليه ألحاناً شجية تدمع العين، وكلما جاء ذئب أو ثعلب لافتراس ماشيته وسمع تلك الألحان بكى وعاد من حيث أتى.

وكانت الحمامة تسمع ذلك العزف فتترقرق عيناها بالدمع وتتمنّى أن تشاهد صاحب الناي، فأخذت تقفز من مكانٍ إلى آخر حتى وصلت مراعي البلد وجلست على شجرة تستمع إلى ألحان ذلك الشاب، وكلّما عزف سمعت الشجر والحجر والرمل يتناشج. ظلّت تخرج يومياً لسماعه، وفي يوم من الأيام رآها فأعجب بها عجباً شديداً، وعندما اقترب منها حطّت من الشجرة وجلست بجواره، فكان يرعاها ويخفّف عنها. ومع مرور الأيام تعلّق بها وتعلّقت به، ورغب في الزواج منها فقالت له:

- تتزوّج حمامة؟

فقال لها:

- أنت تعتذري من الزواج مني بهذه الحجّة!

فقالت له:

- لا، ولكني كائن غريب نصفه حمامة ونصفه إنسان ولا أحد يقبل يتزوّجني.

فقال لها الراعي(١):

---

(١) أشهر قصص الرعاة هي القصة التي حدثت مع عشتار (وهي ذات جمال باهر لم يشهد له مثيل، حتى أوزيس عشقها). كانت عشتار تدور بين عالم البشر بحثاً عن الضحايا حتى وصلت إلى ملوك البشر، فكانت تأخذ كلّ ما يملكون وتعدهم بالزواج حتى إذا ما أخذت أعزّ ما يملكون تركتهم وهم يبكونها ليلاً ونهاراً. وذات يوم وصلت عشتار إلى راعي أغنام فذهلهُ جمالها وأغوتهُ عيون الفتاة، فقام بذبح شاةٍ لها كي تبقى معه أطول وقت ممكن، فأخذت عشتار تأكل ثم رحلت، وفي اليوم التالي ذبح لها وفي الثالث فعل الشيء نفسه، حتى لم يبقَ لدى الراعي شيء يقدّمه لعشتار سألها البقاء معه، لكنّها رفضت وقالت إنه لا يملك شيئاً يُغريها بالبقاء معه، فقام الراعي بسرقة شاةٍ وأخذ يبحث عن عشتار ليقدّم لها ما سرق، ومن يومها أصبح الراعي ذئباً يسرق من الرعاة على أمل أن تعود عشتار لتجلس معه. =

- أنا أقبل أتزوّجك... تتزوجيني؟

فوافقت، فذهب الراعي إلى أبيها وطلب الزواج بها، فوافق الأب... وقبل ليلة الزفاف بليلة كان الراعي ينام في المراعي واستيقظ على يد تهزّه هزّاً، وعندما فتح عينيه رأى امرأةً غاية في الجمال تشبه الحمامة، لكنّها أسنّ منها. نهض فزعاً فقالت له:

- لا تخف أنا جيت أساعدك.

فقال لها:

- تساعديني في إيه؟

قالت له:

- إذا بغيت زوجتك تصير مثلها مثل الأوادم خذها لبئر السباع المهجورة وصيح:

توت توت

يا ياقوت يا ياقوت

أخوانك يموت

وأبوك يفوت

عودي توت توت

وقبل أن يسألها اختفت كما ظهرت، فعاد إلى بيت الحمامة فرحاً وأخبر عمه بمّا سمع ورأى. فرح الأب كثيراً وسار مع الراعي وهو يحمل ابنته، وعندما وصلا بئر السباع وجدوه مطموراً، فقام الأب ورسم دائرة كبيرة تمثّل فوهة البئر وقال للراعي:

- اجلس هنا ونادي بالكلام اللي سمعته.

فجلس الراعي واستلقى وصاح:

توت توت

يا ياقوت يا ياقوت

= ويقول المؤرخون الإسلاميون، أمثال ابن كثير وابن الأثير: إنّ أهل نينوى كان لهم صنم يعبدونه اسمه عشتار، وهم قوم يونس عليه السلام.

أخوانك يموت

وأبوك يفوت

عودي توت توت

فجأةً تشقّقت السماء برعود وبروق وهبّت ريح عاصفة قلعت كلّ شيء وحملت الحمامة في جوفها وابتلعتها، وبعد أن هدأ كلّ شيء نظر الراعي إلى عمّه فوجده ملقياً بجواره ولا أثر للحمامة، فحزن حزناً عظيماً ونهض وأنهض عمه الذي ما إن علم بالخبر حتى أخذ يصيح ويبكي بكاءً حارّاً ويردد:

- حرمتني من كلّ أولادي.

وأخذ يمزّق ثيابه والراعي يحضنه ويبكي معه. وبعد لحظة رأى البئر يفتح وتخرج منه فتاة رائعة الحسن والجمال وهي تنادي:

- أبويه أنا هنا.

وعندما رآها قفز إليها وأخذ يقبّلها ويحضنها وهو غير مصدّق، فقد عادت فتاةً ليس في الأرض أجمل منها... كان الراعي ينظر إليها غير مصدّق أنّ هذه الفتاة ستكون زوجته، وأمسكت البنت بيد أبيها وعادا إلى منزلهما... بينما ظلّ الراعي في مكانه متحسّراً وهو يقول لنفسه:

- مش رايحة تقبل بيك... أولاً قبلت بك لأنها حمامة، أما الآن فهي جميلة الجميلات.

وأحسّ بحزنٍ كبير فأخرج النأي وأخذ يصفّر به فتخرج منه ألحان تبكي الشجر والحجر، وسمعت كلّ البلد تلك الألحان التي هيّجت نفوسهم وجعلتهم يذرفون الدموع... وسمعت البنت تلك الألحان فعادت إلى الراعي وقالت له:

- أنت حزين لأنّي رجعت زي الناس.

فقال لها: لا.

فقالت له: أجل ليه ما أنت فرحان؟

فقال لها: اسمعي، أنت في حلّ من عهدنا السابق.

حزنت البنت وسالت دموعها وقالت له: حرام عليك... ليه؟

فقال لها: في الأول إنت قبلتي بي لأنك حمامة، أما الآن فأنت لا يصلح لك

إلاّ ملك أو أمير أو وزير وش تبغى براعي ما عنده شيء ولا واحدة من البنات تقبل به؟

فقالت له: إن كان هذا هو السبب فأنا أفضّلك على كلّ من في الدنيا فقد قبلت بي وأنا كائن غريب. إن ما كان السبب شيئاً آخر فأنا موافقة.

عندما سمع كلامها تناول الناي فرحاً وصفّر به فخرجت ألحان جذلى رقص وغنّى لها الطير والشجر والحجر وسمع أهل البلد بتلك الألحان فتغنّوا ورقصوا فرحين.

وعاد الراعي وحبيبته الحمامة إلى بيت أبيها، وكان مقرّراً أن يكون الزواج بعد أسبوع. كان الراعي خجلاً وهو يحدّث عمه ويقول له:

- يا عمّي، الزواج بعد أسبوع وأنا ما عندي شيء، لا مهر ولا بيت ولا شيء من هذه الدنيا، فلو تصبر عليّ حتى ارتزق وبعدين نتزوج.

فقال له عمه:

- ولا يهمّك، أنا عندي أموال ما لها حصر واللي تبغاه قول عليه.

رفض الراعي عرض عمه واعتذر، لكنّ الحمامة قالت له:

- أنا قابلة أعيش معك في أيّ مكان.

فتدخّل عمه وقال له:

- يا ولدي، المال اللي رايح أعطيك مش حقي. هذا المال هدية من أم ياقوت لزوج ابنتها، والرسول قبل الهدية.

وبعد إلحاح قبل الراعي، فناوله عمّه كمية من الحنطة وقال له:

- خذ هذه الحنطة واشترِ كلّ ما هو نفسك فيه.

ظنّ الراعي أنّ عمّه قد جُنّ، وتناول حبيبات الحنطة ودسّها في جيبه وشكر عمه وأراد أن ينصرف فقال له عمه:

- فين الأموال اللي عطيتك؟

فقال له الراعي:

- سلامة عقلك يا عمّ، أي أموال؟ أنت أعطيتني حبيبات حنطة، وهذه هي التي أعطيتني!

وأخرجها من جيبه، فتناولها عمّه وذرى بعضها على الأرض فغبرت وتصاعد

غبارٌ كثيف، وعندما استقرّ وجد الراعي سبائك ذهب كثيرة، ففرح فرحاً عظيماً وقبّل عمّه وشكره بحرارة. . . وخرج إلى المدينة واشترى قصراً كبيراً أثّثه بأحسن الأثاث وجلب الخدم والحشم. . . وأقيم زواجه على الحمامة حضره كلّ أهل المدينة ومُدّت سُفَر الطعام لأسبوع في كلّ الشوارع.

وعاش الراعي وزوجته في سعادةٍ غامرة وخلّفا أولاداً وبنات. . . وطلب العمّ من ابنته وزوجها الراعي أن يتركا له أكبر أبنائهما ليربّيهما على الفروسية والشجاعة فقبلا وأعطياه الابنين الكبيرين فدرّبهما على فنون القتال والفروسية حتى أصبحا من أشهر قادة البلد. . . وإذا حدثت غزوات أو حروب قال الناس نادوا على. . . صخر ورعد.

رواية حامدة حمدان

الطمع فرّق ما جمع

كان في زمن من الأزمان حطّاب فقير لا يملك من حطام الدنيا إلاّ حبلاً وفأساً يحتطب بهما، فكان يخرج من الصباح الباكر إلى أطراف البلد ويقتطع من الأشجار المترامية هناك ويضع ما يقتطعه في الحبل ويعود إلى سوق البلد فيبيع حزمة الحطب بقروش لا تكفيه هو وأسرته. وفي أيام مواسم الأمطار كان يخرج من بلد إلى بلد بحثاً عن الأشجار اليابسة كي يبيعها، وكان يعود في أغلب الأوقات من غير أن يحصل على شيء.

جاءت زوجته وهو جالس في مكانه حزيناً يفكّر في حاله وقالت له:

- العيد على الأبواب ونحن ليس معنا شيء والأولاد يريدون ملابس.

فقال لها:

- خير إن شاء الله.

وخرج يدبّ في الأرض يبحث عن أشجار يقتطعها ويبيعها وكان يوماً ماطراً فلم يجد شجرة يابسة، فخرج من مكان لمكان حتى أظلمت عليه الدنيا فجلس في مغارة - وكانت ليلة سبعة وعشرين من رمضان - جلس يفكّر كيف يستقبل العيد وهو ليس عنده شيء، فقال في نفسه: ربك لا يضيّع عبده. وتذكّر أنّ الليلة السابعة والعشرين من رمضان فقام يصلي ويدعو الله، وعندما فرغ من الصلاة رأى السماء تنفرج وتتدلى منها خيوط نورانية وتصبح بقعة ضوء واسعة فوق هامته[1]، فرفع يده داعياً:

(١) تتخذ المخيلة الشعبية صوراً مختلفة لليلة القدر، ومعظمها يجسّد تلك الليلة في أشكال مادية، فمنهم من يقول إنه رأى نوراً ساطعاً، ومنهم من يربطها بهطول المطر في الليلة نفسها، ومنهم =

- يا ربّ حوّل كلّ ما ألمسه ذهباً.

وأخذ يردّد هذا الدعاء ثلاث مرات، وبعد أن انتهى من دعواته نهض وأمسك بحبله وفأسه فرأى أنهما يلمعان فعرف أنّ الله قد استجاب لدعائه، فعاد إلى البيت سعيداً، وعندما دخل البيت وجد زوجته وأولاده نائمين فلم يشأ أن يزعجهم، وفي الصباح استيقظ فوجد أنّ مخدّته تحوّلت ذهباً وسريره تحوّل ذهباً وكلّ ما لمسه تحوّل ذهباً، ومن فرط سعادته أيقظ زوجته فرحاً، وما إن لمسها حتى تحوّلت قطعةً من ذهب وكذلك جميع أولاده.

وعندما أراد أن يأكل تحوّل أكله ذهباً ومات من الجوع، لأنّ كلّ ما يلمسه يتحوّل ذهباً[1].

رواية حامدة حمدان الحربي ـ جدة

= من يرى ضوءاً شفافاً يغمر الكون، ومنهم من يرى أنه حلم في الليلة نفسها... فالذاكرة الشعبية تبتعد من كون ليلة القدر تحمل الجزاء والمغفرة وتحوير نزولها بشيء مادي يحصل عليه الفرد، كما يذهب بعضهم إلى أن ليلة القدر تتنزّل على الفرد وليس على الجماعة.

(١) هذه الحكاية استنساخ لأسطورة ميداس، وإن كانت قد اتخذت من المعتقدات الإسلامية قوة الدفع في تحقيق الأمنية من خلال التنصيص على أنها ليلة السابع والعشرين من رمضان، وهي الليلة التي يتوخّى فيها المسلمون نزول ليلة القدر، وهو تصوّر مادي لتلك الليلة بأنّ نزولها يعني تحقيق الأمنيات المادية في أغلب الحكايات.

وأسطورة ميداس ملك فريجيا وابن غورديوس وسيسيلي، فعندما ضاع سيلينوس صديق ديونيسيوس اهتم به ميداس وأكرمه وأعاده سليماً، وكمكافأة له قال له ديونيسيوس إنّه سيلبّي له أيّ طلب يطلبه، فطلب ميداس أن يتحوّل كلّ ما يلمسه إلى ذهب. ولكن لمّا صار طعامه وشرابه يتحولان إلى ذهب رفض هذه الهدية، وطلب أن يعود إلى حالته الأولى فقيل له: ستشفى إذا استحممت في نهر باكتولوس. وعندما فعل هذا تغلغلت كل قوى ميداس السحرية في الرمل النهري حيث يوجد الآن الذهب. (ماكس شابيرو رودا هندريكس: معجم الأساطير. ترجمة حنا عبود، دار الكندي، الطبعة الأولى)

الحلاق والسلطان

كان حلاق المدينة يتوق لأن يصبح حلاق السلطان، فقد أشيع بالبلد أنّ السلطان لا يثق بأيّ مزيّن خشيةً على نفسه من أمواسهم المثلومة وما يتركونه من قروح في فروة الرأس، ممّا يؤدي إلى انتشار القمل وما يعقبه من هرش مستمرّ يؤدّي إلى إظهار حركات لا تليق بالسلطان. وبسبب هذه الشائعة التي شاعت يبرّر الناس إطلاق السلطان شعر رأسه وذقنه وتركه سائباً بلا تهذيب، ولم يكن أحد يعرف سبباً آخر يعلّل إطلاق السلطان شعر رأسه وذقنه، وقد ألفوا رؤيته بهذه الصورة. . . وجهٌ كلّه شعر، يتساقط الشعر من كلّ مكان فيغطّي ملامحه ولا يبين منه إلاّ وجنتان محمرّتان تذكّران بالتفاح الناضج. وقد روى أحد وزرائه أنه لم يعرفه إلاّ على هذه الهيئة منذ أن كان أميراً. . . هذا الشعر الكثيف أصبح شغل الناس ومحطّ استفسارهم الدائم. ومع مرور الأيام زاد نمو شعره وغطّى وجهه تماماً واستطال شعر ذقنه وشاربه بصورة تدعو للرثاء. وكما انشغل الناس بهذا الشعر أصبح السلطان منشغلاً به، فاستطالته أخذت تعيق حركته أثناء لبس حلته الفاخرة أو أثناء جلوسه على كرسي العرش أو في الحروب، ولم يعد أمامه سوى البحث عن حلاّق، ليس مهمّاً أن يكون ماهراً بقدر ما يكون أميناً، وكان يفضّل لو وجد حلاقاً أبكماً، ولم يوكل أحداً من رجاله بهذه المهمّة وإنما أخذها على عاتقه، وعندما يئس أن يجد ضالته في بلدته فكّر في أن يرسل منادياً يجوب سلطنته بحثاً عن حلاقٍ أبكم، لكنّه خشي أن يثير هذا الطلب تساؤل الناس فخنق رغبته داخله على مضض وأخذ يتقصى أخبار الحلاقين والمزيّنين علّه يعثر على بغيته. وفي إحدى جولاته وجد في طريقه ذلك الحلاق الذي كان يتمنّى لو يجود عليه الزمان ويصبح حلاق السلطان، وعندما رآه تذكّر وصية أحد وزرائه حين أشار إليه بإيكال شعره لمهارة هذا الحلاق، وقد وصفه

بأمهر حلاقي السلطنة وأعمقهم لحفظ الأسرار، وعندما رآه السلطان قال له:

- ما رأيك لو تعمل عندي؟

طفحت السعادة على وجه الحلاق وقبّل يد السلطان ممتناً وقال:

- أنا رهن أمرك يا مولانا السلطان.

فأمره أن ينضمّ إلى الموكب، وعندما انفرد به قال له:

- أن تعمل عندي يجب عليك أن تكون كتوماً ولا تبيح بأيّ شيءٍ تراه لأحد... حتى لنفسك.

فقال الحلاق:

- يا مولانا السلطان، لقد تربّيت على كتمان كلّ ما أراه، وستجدني بئراً عميقة.

فقال له السلطان:

- سوف ترى أشياء لم يرها أحد من قبلك، ومتى ما شاع خبرها فسأعرف أنك أنت الذي أفشى السر، ساعتها ستكون رأسك هي الثمن لإفصاحك بما رأيت.

- ستجدني كاتماً كلّ ما أرى.

قال السلطان: هذا لا يكفي، عليك أن توافق على الشرط.

قال الحلاق: وما هو الشرط يا مولانا؟

فقال السلطان: متى ما انكشف السرّ ستكون أنت الوحيد المسؤول أمامي.

قال له الحلاق: وما هو هذا السر؟

فقال له: ستعرفه في حينه... هل أنت موافق؟

قال الحلاق: موافق.

قال السلطان: تبقى أمر آخر.

قال الحلاق: ما هو يا مولاي؟

قال السلطان: لا تسأل عن شيء، وما تراه كأنك لم تره!

قال الحلاق: موافق.

أخذ السلطان الحلاق إلى القصر وأدخله غرفته الخاصة. كان الحلاق مرتبكاً وخائفاً، فهدّأ السلطان من روعه وقال له:

- لا تخف ما دمت كتوماً... والآن أريدك أن تحلق لي رأسي وذقني.

قام الحلاق بتحضير عدّته، وجلس السلطان على كرسي أمامه وأزاح جبّته

فأصيب الحلاق بالذهول وتسمّر في مكانه غير قادرٍ على قول شيء، وكانت تتنازعه رغبة ملحّة في الضحك، فقد كانت للسلطان أذنان طويلتان ومرتفعتان للأعلى كأذني الحمار، وعندما بدأ في الحلاقة كانت أذنا السلطان تتحركان إلى الأعلى والأسفل وتتقوّسان، فاعترت الحلاق رغبة الضحك مرة أخرى، لكنّه خشي أن تُقطع رأسه فواصل الحلاقة صامتاً.

وبعد أن أنهى الحلاق تهذيب شعر السلطان وتزيينه أعاد السلطان جبّته على رأسه والتفت إلى الحلاق قائلاً:

- لقد عرفت السرّ فإياك والبوح به، وإلاّ رأسك ستكون هي الثمن!

وطلع السلطان على حاشيته وقد شذّب شعره وذقنه، فبهرهم منظره وقد بدت عليه وسامة كانت تختفي خلف ذلك الشعر الكثيف، واستغربوا بقاءه طوال تلك السنوات خلف شعره الكثّ لكنّ أحداً لم يجرؤ على الإفصاح عن هذه الملاحظة، وسمع الناس أنّ السلطان قد حلق شعره وذقنه، وتناقلوا الخبر، وكان كلّ واحد يسأل:

- لماذا حلق السلطان شعره؟

عاد الحلاق إلى بيته ولديه رغبة كبيرة في أن يقول لمن حوله إنّ أذني السلطان طويلتان كأذني الحمار، لكنّه خاف وظلّ محتفظاً بالسر واستمرّ يحلق للسلطان، وفي كلّ مرة يرى فيها أذني السلطان تعتريه رغبة البوح بسرّ هاتين الأذنين اللتين تشبهان أذني الحمار، وبدأ يحسّ أنه يحمل سرّاً ضاق به صدره، وتضخّم إحساسه حتى أصابه المرض ورقد في بيته، فعاده صديقه وأخذ يواسيه ويقول له:

- ليس بك شيء.

فقال لصديقه: أنا متعب من سرٍّ أحمله وأريد أحداً يشاركني حمل هذا السرّ.

فقال له صديقه: أخبرني به.

فقال الحلاق: لا أستطيع إخبارك.

فقال له: السرّ الذي لا تستطيع أن تخبر به أحداً اكتمه في صدرك، وإن ضاق صدرك بحمله اذهب إلى منطقة نائية واحفر حفرةً وقل سرّك وادفن عليه التراب.[1]

---

(١) من يضيق صدره بسرّ توصيه الخرافة الأوروبية أن يذهب إلى الخلاء ويدفن سرّه في حفرة، وتنصّ الوصية على: =

استحسن الحلاق هذا الاقتراح فنهض وذهب إلى قرب الوادي وحفر حفرةً عميقة وأخذ يصيح:

- أذن السلطان طويلة... طويلة كأذن الحمار.

ثم دفن تلك الحفرة، وأحسّ أنه قد تخفّف من سره، وعاد إلى عمله في قصر السلطان كأنّ شيئاً لم يكن. وجاءت مواسم الأمطار ونزل مطر غزير، فنبتت شجرة في الحفرة نفسها التي دفن بها الحلاق سرّه. نمت تلك الشجرة وكانت لها أذنان طويلتان. وبينما كان السلطان يتنزه في الوادي في إحدى المرات رأى تلك الشجرة ذات الأذنين الطويلتين فعرف أنّ الحلاق قد أفشى سرّه[1] وأمر بقتله، وعندما جاء الحرس إلى الحلاق استشعر بنهاية أجله وطلب منهم مهلةً لرؤية صديقه، فتساهلوا معه ومكّنوه من الالتقاء بصاحبه، فانفرد به جانباً وقال له:

- لقد أشرت عليّ أن أودع سري في الأرض، وها هي الأرض قد أفشت سري على ما يبدو!

فقال له صاحبه:

- قل لي، ما هو هذا السر؟

فقال له الحلاق:

- لو عدت من عند السلطان سليماً فلن أخبرك، وإذا سمعت بموتي فاذهب إلى وسط الوادي وستجد شجرة هناك بها السرّ الذي أخفيه عنك وعن الناس جميعاً.

= «إذا كان السر حملاً ثقيلاً أمكننا إيداعه بئراً في الليلة المقبلة، ويجب أن يتم ذلك لدى اكتمال البدر ليتمكّن الشخص من رؤية صورة وجهه في ماء البئر خلال الوقت الذي يستغرقه بوحه لنفسه. ويجب الامتناع عن البوح إذا نبتت شجرة صفصاف إلى جوار البئر، فهي تسمع كلّ شيء وتعيد التحدّث به كلّما اشتدّ الهواء». (بيار كانافاجيو: **معجم الخرافات والمعتقدات الشعبية في أوروبا**)

(١) لم تورد الحكاية كيف عرف السلطان أنّ الحلاق قد أفشى بالسر، ولا بدّ أنها كانت متّكئة في أساسها الحكائي على تلك المعلومة السابقة التي هُمّشت في البدء، وهي أنّ أوراق الصفصاف أعادت إفشاء السر. ولكون الراوي لا يعرف جذر الحكاية فقد اكتفى بالإشارة إلى أنّ السلطان عرف أنّ الحلاق قد أفشى بالسر لكون الشجرة تحمل أذنين. وأتصوّر أنّ هذا أجمل كحكاية من أن يعرف من شكل الشجرة، لا أن تعيد شجرة الصفصاف سرد السرّ، ولو كان السلطان سمع من شجرة الصفصاف لتقوّض البناء الدرامي للحكاية منذ البدء.

ذهب الحلاق إلى قصر السلطان فوجد السيّاف جاهزاً، وقاده إلى النطع وقطع رأسه. سمع الناس أنّ السلطان أمر بقطع رأس حلاقه، وتناقلوا الخبر متسائلين عن الجرم الذي اقترفه الحلاق حتى يكون مصيره الموت. وتعدّدت الروايات عن مقتل الحلاق وكلّها تؤكّد أنّ مقتله كان لأمرٍ جلل.

سمع صديق الحلاق بمقتل صاحبه فذهب إلى وسط الوادي فوجد شجرة لها أذنان طويلتان مكتوب[1] عليها: أذن السلطان طويلة كأذن الحمار. فعاد إلى المدينة، وكان الناس لا يزالون يتساءلون:

- لماذا أمر السلطان بقطع رأس الحلاق؟

وأخذته النشوة ونسي أن يحفظ السرّ الذي عرفه وقال:

- أنا أعرف السبب.

اقتربوا منه ليعرفوا السبب، لكنّ رجال السلطان كانوا منتشرين وسمعوه فقادوه إلى السلطان قبل أن يقول شيئاً. وعندما وقف أمام السلطان وتحقّق من معرفته بذلك السرّ أمر بقطع لسانه[2]. عاد صديق الحلاق مقطوع اللسان، فتقوّل الناس عمّا يحدث من السلطان من أفعال لم يألفوها منه، وذهب كثيرٌ من الناس إلى صديق الحلاق لمعرفة سبب قطع لسانه، لكنّهم لم يقدروا على معرفة أيّ شيء. شعر صديق الحلاق بالحسرة لضياع لسانه وعجزه عن إخبار الناس بالسرّ الذي لا يعلمه أحد، فذهب إلى المكان نفسه وحفر حفرة وهمس للأرض:

---

(١) وهنا لا يستقر الوضع، فالراوي لم ينصّ على أنّ السلطان قرأ ما هو مكتوب على الشجرة، وإنّما عرف من شكلها، أما صديق الحلاق فيجد شيئاً مكتوباً، وهذا التبدّل في الإخبار إنّما محرّك لكي تواصل الحكاية تصاعدها الدرامي... وربما يكون الراوي قد حرّف في سردها لكي تستقيم حكايته أثناء سرده لها، ممّا خلق هذا التضارب الواضح.

(٢) لماذا قطع لسانه ولم يقتله قصاصاً كما فعل بالحلاق... هنا يمكن لنا التاويل فنقول: ربما لعدم وجود اتفاق مبرم بين السلطان وصاحب الحلاق حول إفشاء السر. وبهذا نقدّس القانون ونجعل السلطان رجلاً يحترم القانون... ويمكن القول: كي لا يزيد فضول العامة عن الأسباب التي أدّت إلى قتل الشخصين دون وجود سبب منطقي، لذلك اكتفى السلطان بقطع لسانه كي لا يقدر على البوح بالسرّ. وهذا الافتراض يستوجب افتراضاً صعب التحقيق لكون هذا الصاحب يمكن أن يكتب سبب مقتله، وإذا افترضنا أنّ الحكاية كانت تقال في مجتمعات غالبيتها أميّة، إلاّ أنّ هذا لايمنع من الاتّكاء على الرسم لشرح السبب... ومهما كان التأويل إلاّ أننا ملزمون بسرد الحكاية كما جاءت، بغضّ النظر عن فجوات الأحداث التي بها.

- أذن السلطان طويلة كأذن الحمار.

وجاء المطر فنبتت شجرة بها أذنان طويلتان، وإذا اقترب منها أحد صاحت:

- أذن السلطان طويلة كأذن الحمار.[1]

فأصبح الناس جميعاً يرددون:

- أذن السلطان طويلة كأذن الحمار.

فأمر السلطان رجاله بجلب كلّ من يسمعونه يردّد:

- أذن السلطان طويلة كأذن الحمار.

وفي كلّ يوم كان سيّاف السلطان يقتل أناساً بالآلاف، حتى جاء ذات يوم ووقف السيّاف بين يدي السلطان وقال له:

- يا مولاي، لقد انتهى الشعب ولم يعد هناك أيّ شخص يقول إنّ أذنك طويلة كأذن الحمار.

فقال له السلطان: وكيف أصبح سلطاناً بلا شعب ... أحكم على مَن؟

فقال السياف: احكم عليّ يا مولاي.

فقال له: ادخل السجن.

دخل السياف السجن وأصبح السلطان الحاكم والسجّان ورئيس الشرطة.

وعندما تعب من هذا الدور قتل السجين، فمُسخ حماراً وكان يخرج ويأكل من تلك الأشجار التي تصيح في كلّ أنحاء البلدة:

- أذن السلطان طويلة كأذن الحمار.[2]

رواية لطفي شاهين - جدة

---

(١) هل هذه الأشجار هي أشجار الصفصاف كما وردت في الخرافة الأوروبية... وربما عندما همس صديق الحلاق بسرّه في الحفرة همس عندما كانت أشجار الصفصاف حاضرة، لتستقيم الحكاية المروية مع الجذور الأسطورية لها.

(٢) ورد في الأسطورة اليونانية أنّ مباراة أقيمت بين بان وأبولو، وقد أعطيت الجائزة لبان فجعل أبولو له أذني حمار فغطّاهما الخجل، ولكنه لا يستطيع أن يمنع الحلاق من أن يهمس بالسرّ في ثقب حيث نمت القصبات ونشرت الخبر كلّما حرّكتها الريح... (معجم الاساطير، ترجمة حنا عبود، دار الكندي، الطبعة الاولى)

السلطان ومرافقوه

أصاب السلطان ضيقٌ شديد فقال لوزيره:

- أخرج بنا علّنا نجد ما يسلّينا خارج القصر.

فقال له الوزير: سمعاً وطاعة يا مولاي.

وخرجا يتمشيان في المدينة، وبينما هما سائران وجدا رجلاً يتلمّس الطريق بعصاه، فقال السلطان لوزيره:

- تعال نساعد هذا الأعمى.

اقتربا منه وأمسكا بعصاه فقال الأعمى:

- من أنتما؟

قال له الوزير: معك السلطان ووزيره.

فقال الأعمى: مرحباً بكما وجزاكما الله خيراً لمساعدتكما إياي.

فقال له السلطان:

- منذ متى وأنت أعمى؟

فقال الأعمى:

- قبل أن أبلغ الشباب.

فقال له السلطان:

- أعرف أنّ كلّ صاحب عاهة يمنحه الله ميزة عن سواه، فما هي ميزتك؟

فقال الأعمى: ميزتي يا مولاي السلطان أنّي أرى ما لا يراه إنسان.

فقال له السلطان: أنت أعمى وترى ما لا يراه المبصر...! كيف؟

فقال الأعمى: أنا أرى الأشياء البعيدة التي لا يراها المبصر.

فضحك السلطان وقال لوزيره:

- لنأخذه معنا يسلي علينا.

أمسك الوزير بعصا الأعمى وقاده ليرافقهما، وفي الطريق رأى السلطان رجلاً ينادي عليه الناس فلا يسمع نداءهم، فاقترب منه وأمسك به وقال له:

- ما بالك الناس ينادون عليك فلا ترد؟

فقال الرجل: هه؟

ووضع يده على صيوان أذنه ليسمع، فعرف السلطان أنّ سمعه ثقيل (أطرش)، فوضع السلطان فمه في أذن الأطرش وقال له:

- منذ متى وأنت أطرش؟

فقال الأطرش: منذ زمن بعيد.

فقال له السلطان:

- أعرف أنّ كلّ صاحب عاهة يمنحه الله ميزة عن سواه، فما هي ميزتك؟

فقال الأطرش: أنا أسمع ما لا يسمعه أحد.

فاستغرب السلطان وقال له:

- كيف تكون أطرش وتسمع ما لا يُسمع؟

فقال الأطرش: أنا أسمع الأصوات المنخفضة جداً التي لا يسمعها أحد.

فضحك السلطان وقال لوزيره: لنأخذه معنا يسلي علينا.

انضمّ الأطرش إليهم ومضوا في طريقهم، وبينما هم يسيرون رأى السلطان رجلاً متبرّماً وساخطاً من أحوال الناس، فقال له السلطان:

- ماذا بك؟

فقال الرجل: وما شأنك أنت؟

قفز الوزير صائحاً به:

- تأدّب، فالذي يحدّثك هو السلطان.

اعتذر الرجل، فقال له السلطان:

- لماذا أنت غاضب؟

فقال الرجل: أنا هكذا... ألعن وقت ما يستوجب اللعن.

فقال السلطان لوزيره: إنّ أمر هذا الرجل لغريب، لنحمله معنا وسوف أتعرّف على ما يغضبه لاحقاً.

ركب السلطان ومن معه في سفينته وأمر قبطانها أن ينطلق إلى عرض البحر، وعندما ابتعدت السفينة كثيراً عن المدينة أخذ الأعمى يمدّ بصره في اتّجاهات مختلفة وتنفرج أساريره بين لحظةٍ وأخرى، فقال له السلطان:

- ماذا ترى الآن؟

ركّز الأعمى بصره في المدى وقال:

- أعزّ الله السلطان وأيّده بنصره، لو قلت لك لما صدقت.

قال له السلطان:

- قل ماذا ترى واترك لي الحكم في التصديق.

فقال الأعمى:

- أرى الآن ابنتك الكبرى تخيط ثوباً بخيط أحمر.

فضحك السلطان وقال للأطرش:

- وأنت، ماذا تسمع الآن؟

قال الأطرش: صدق والله صاحبنا الأعمى، فقد سمعت سقوط الإبرة من يدها.

فقفز الرجل الثالث صائحاً:

- لعنكما الله في كلّ كتاب.

فالتفت إليه السلطان سائلاً:

- لماذا تلعنهما؟

فقال: ألم أقل لك يا مولاي أنني ألعن وقت ما يستوجب اللعن... وهذان يستحقان اللعن، فهما أكذب من رأيت وسمعت.

رواية لطفي شاهين ـ جدة

بلّ السعف عليكِ

كان يعمل في بيع الزنابيل، وفي كلّ يوم يقوم ببلّ الخسف وتشقيره وجدله وصناعة زنابيله التي يرتزق قوته وقوت عياله من بيعها. وذات ليلة عاد متعباً فقال لزوجته:

- أنا تعبان، بلّي الخسف حتى أرتاح وأقوم بتشقيره.

فقالت له: وأنا تعبانة، بلّه أنت.

أصرّ أن تبلّه هي فقالت له:

- لن أبلّه، بلّه أنت.

غضب الرجل غضباً شديداً وكاد الأمر أن يتطور ليصل إلى الطلاق، لكنّه تمالك نفسه، ولمعرفته بثرثرة زوجته اشترط شرطاً عليها حينما قال لها:

- من يتكلم يبلّ السعف.

واتفقا على هذا، وظلّ كلٌّ منهما صامتاً.

نهق الحمار فقال في نفسه: الحمار لم يأكل طوال اليوم، ولو تركته لمات من الجوع. وخرج إلى السوق يبحث له عن شعير فلم يجد، فأخذ يبحث عن حشيش، فوضع يده على حزمة الحشيش دون أن يتكلم، فظنّ صاحب الحشيش أنّه سارق، فنادى على الشرطة فقبضوا عليه وسألوه فلم يجب، وبات في السجن. افتقدته زوجته وخرجت تبحث عنه دون جدوى.

وفي السجن ظنّوا أنّه أبكم فأمر رئيس السجن أن يخرج به عسكري ويدور به في السوق علّ أحداً يتعرّف عليه. وكانت زوجته تبحث عنه فرأته فصاحت به:

- ماذا عملت يا مخبول حتى يقودك الشرطي؟
فصاح بها:
- بلّ السعف عليك... بلّ السعف عليك.

رواية حامدة حمدان الحربي ـ جدة

رزقك هللة ورزق زوجتك هللة

كان هناك صياد رقيق الحال، يصطاد من البحر ويبيع صيده بهللتين ويعود إلى بيته فيعطي زوجته هللة ويبقي هللة له.

وذات يوم مرّ عليه النبي الخضر[1] فسأله الصياد:

---

(١) وجود النبي الخضر في الذاكرة الشعبية طاغٍ، وهناك حكايات كثيرة تروى عن ظهوره ومساعدته المحتاجين والملهوفين... وحضور الرجُل الصالح (الخضر) في الذاكرة الجمعية هو تسرّب من حكاية النبي موسى معه، ولمعرفته بما لا يعرف من علوم الغيب، كما ظهر في قصة النبي موسى عليه السلام معه... وهنا يقول ابن كثير في كتابه البداية والنهاية: «حدّثنا أبيّ بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إنّ موسى قام في بني إسرائيل خطيباً فقيل: أيّ الناس أعلم؟ فقال: أنا. فعتب الله عليه حين لم يردّ العلم إليه، فقال: بل عبدٌ لي عند مجمع البحرين. فقال: يا ربّ كيف به؟ قال: تأخذ حوتاً فتجعله في مِكْتل فحيث تفقده فهو هناك».
والعامّة تؤكّد أنّ الخضر نبيٌّ من أنبياء الله وأنه رُفع للسماء ولم يمت، ويقرنون صعوده للسماء، كما حدث للنبيين إدريس وعيسى عليهما السلام، والفرق بينه وبين النبيين الأخيرين أنّ الخضر يظهر للناس ويساعدهم ويخبرهم بما سيحدث لهم في المستقبل، ولا يظهر لكلّ الناس، ولكنّ ظهوره مرتبط بكرامة - هذا ما صنعه المعتقد الأسطوري.
وتروي قصة حمزة البهلوان أنه شرب ماء الحياة من يد الخضر، وهو ذلك الماء الذي لا يعطش من شرب منه. وحين اختفى الخضر هتف حمزة: إنه لغوث!
وربما تكشف لنا قصة حمزة البهلوان سرّ العداء «الممتد بين العرب والفرس، والذي امتدّ منذ مطلع قرون الجاهلية على طول آسيا الصغرى ثم اتّسعت رقعته فشمل الجزيرة العربية والشام وفلسطين ومصر والمغرب بعامته، ومن منطلق قنوات الاتصالات الحضارية التي مدخلها التنازع والحرب بين العرب والساميين ومتاخميهم الفرس الإيرانيين الآريين يمكن الجزم بأنّ سيرة الأمير حمزة البهلوان واقعة بكاملها تحت تأثير خصائص محددة السمات للتراث الفارسي المجوسي، بدءاً، بالطبع، من أخصّ هذه السمات، وهي الثنائية، أو الانقسامية، التي موجزها انقسام العالم والإنسان إلى خير وشر مباشرين أو مطلقين، وهو انقسام العالم ذاته إلى =

- اسألك يا الخضر عن رزقي.
ردّ عليه النبي الخضر:
- رزقك هللة ورزق زوجتك هللة.
عاد إلى زوجته قانعاً برزقه، وفي الليل قام ليغتسل بعد أن جامع زوجته، وأثناء رفع الدلو من البئر خرجت في الدلو صرّة كبيرة بها ذهب، وعندما فتحها ووجد الذهب صرّها وقال لزوجته:
- هذا الذهب ما هو لنا فقد قلّي الخضر اليوم إنّ رزقي هللة ورزقك هللة خلينا نصرّها لما يمرّ النبي الخضر أسأله عن هذه الصرّة.
فوافقته زوجته، واحتفظ بالصرّة عنده. وراحت أيام وجاءت أيام ومرّ الخضر على الصياد فقال له:
- يا سيدنا الخضر، أنا سألتك عن رزقي فقلت لي: رزقك هللة ورزق زوجتك هللة، لكنّي وجدت صرّة مليانة ذهب فهل هي رزقي؟
فقال له الخضر: لا، رزقك هللة ورزق زوجتك هللة.
فقال له الصياد: اسأل ربّك لمن هذه الصرّة؟
فقال له الخضر: سأسأله.
راحت أيام وجاءت أيام وعاد الخضر وقال للصياد:
- يقول ربّي إنّ صرّة الذهب هي رزق من قمت لتغتسل بعد أن وضعته في بطن أمه.
فعاد الصياد إلى زوجته فرحاً وقال لها:
- إنّ هذه الصرّة هي رزق ابننا اللي أنت حاملة بيه.
وقاما من حينهما وبنيا له بيتاً واشتريا له مركباً وأغناماً، وعندما جاء إلى الدنيا كانت أمواله ما لها حدّ.

رواية حامدة حمدان الحربي ـ جدة

= نور وظلمة. وعلى هذا فالثنائية ومأثورتها تتبدّى بكثرة كمؤثّر آري فارسي في تراثنا العربي، منذ بذورها الأولى في تراثهم الأسطوري، جاءت بها الأفستا أو الشرائع، ومن رحمها تواترت إلى شهنامات الفرس وسير ملوكهم القياصرة أو الأكاسرة أنه ذاك الصراع الأزلي المتّصل لإله قوى الخير المطلق أهورا مزدا ونقيضه الشرير المتآمر أهريمن أو الشيطان» (الموسوعة)

عدس ولا راس بصل

كان زوجها يؤكلها عدساً، ويومياً تسمع جارها يصيح بزوجته:

- هاتِ الراس.

فضاقت بزوجها وقالت في نفسها: «هذا لا يؤكلني إلا عدس بينما جارتي سعيدة مع زوجها، كلّ يوم تأكل لحمة راس».

وطلبت الطلاق من زوجها فطلّقها، واعترضت جارها فتزوّجها، وعندما حان وقت الغداء سمعته كعادته يصيح بزوجته الأولى:

- هاتِ الراس.

فجاءت ضرّتها برأس البصل.

فضربه بقبضةٍ من يده وأخذ يأكله بنهم على كسرة عيش يابسة، فصاحت:

- عدس ولا راس بصل.[1]

رواية حامدة حمدان الحربي - جدة

---

(١) يمكن لهذه الحكاية أن تدرج في قصة مثل، حيث يستخدم البعض هذا القول «عدس ولا راس بصل» حين يجدون الجديد أسوأ من القديم، وتستخدمه غالباً النساء.

زوّجوني راعي غنمكم

كانت جميلة جمالاً خلاّباً، لذلك كانت تتدلّل على أهلها وترفض أي رجل يتقدم لخطبتها، وتقول:

- أنا لا يستحقني أحد من البشر.

وقد تقدّم لخطبتها أبناء الوزراء والتجّار إلاّ أنّها كانت في كلّ مرة ترفض من يتقدّم لها، فيقوم أهلها بتزويج القادم بإحدى أخواتها اللائي كنّ أقلّ جمالاً منّها وأصغر سنّاً، ولم يتبقَّ معها من أخواتها سوى أخت واحدة، فقدم أمير لخطبتها فتمنّعت كالسابق، فقام أهلها بتزويج الأمير بأختها المتبقية، فقامت حزينة، ورفعت صوتها أمام أهلها:

- غصبوني واتغيصب وزوّجوني راعي غنمكم.[1]

رواية حامدة حمدان الحربي - جدة

---

(١) الجملة تدلّ على رغبة البنت في الزواج، ولكنها كانت تريد من أهلها غصبها على الزواج، وعندما لم تتبقّ إلاّ هي قالت جملتها السابقة، أي زوّجوني حتى ولو كان راعي غنمكم.
هذا ما تقوله الراوية ويمكن للنص أن يأخذ دلالات أخرى كأن تكون هذه البنت تريد راعي الغنم بعينه.

اضربنا بيد أمنا

لها عدد من الأولاد، وعندما حضرتها المنية قالت لزوجها:

- أريد منك عهداً.

قال لها: ما هو؟

قالت له: إذا متّ اقطع يدي وإذا رغبت ضرب أبنائي فلا تضربهم إلاّ بها.

حاول أن يثنيها، لكنّها قالت له:

- لقد أعطيتني العهد والميثاق.

وعندما ماتت قطع يدها، وكلّما صدر شغب من أحد أولاده أخرج يد أمهم وضربهم بها. وفي أحيان يخرج خيزران ويضربهم بها، فيتصايحون:

- اضربنا بيد أمنا.

وعندما كبروا سألهم:

- عندما كنت أضربكم بيد أمكم ماذا كان يحدث لكم؟

فقالوا له:

- كنّا نراها كأغصان الشجر تزغزغنا وتعتب علينا وتأمرنا بترك الأذى، وعندما تضربنا بالخيزران نراها كشواظ النار.[1]

رواية حامدة حمدان الحربي - جدة

---

(١) يشاع عند كثيرٍ من الناس أنّ يد الأم هي غصن من شجرة، ولا شكّ في أنّ لها جذراً أسطورياً له الدلالات نفسها.

الابن الخبيلة

مات زوجها وترك لها ابناً كسولاً غبياً لا يعمل ولا يستطيع التدبير في أيّ شأنٍ من شؤون حياته، وكانت أمه دائماً تقول له:

- يا ابني، شقيت عليك وتعبت علشان لما تكبر تشتغل وتساعدني، لكنك جالس أمامي كالحرمة لا شغلة ولا مشغلة، يا ولدي روح أبحث لك عن عمل.

وظلّت كلّ يوم تحاول فيه أن يخرج للعمل، وبعد إلحاح متواصل خرج وغاب لنهاية النهار، وعندما رجع قال لها:

- لقد وجدت عملاً.

فرحت به وأصبحت توقظه من وقت مبكر، فيذهب ويعود في نهاية النهار، وكلّما سألته:

- أين رزقك الذي عملت به اليوم؟

يقول لها:

- لم يعطوني شيئاً.

ومرة يقول لها:

- سوف يعطوني مع نهاية الأسبوع.

ذهب أسبوع وأسبوع ولم يستلم قرشاً واحداً، وبعد مرور شهر قالت الأم في نفسها: «لا بدّ أن أذهب لأرى أين يعمل، ويمكن أن يكون عمّه يستغله ويسخّره دون مقابل».

أيقظته من الصباح الباكر وقدّمت له الإفطار وعندما خرج تبعته فرأته يقف أمام شجرة تقف على أغصانها حمامة وسمعت ابنها يقول:

- يا عمة الحمامة أشيل الحجرة من هنا إلى هنا؟

فتقول الحمامة: غاغ غاغ.

فينقل الحجرة من مكانها إلى مكان آخر ويعود سائلاً الحمامة:

- يا عمة الحمامة أنقل الحجرة من هنا إلى هنا؟

فتردّ الحمامة: غاغ غاغ.

فينقل الحجرة إلى مكانٍ آخر، فخرجت عليه أمه من خلف الشجرة صائحة:

- ماذا تفعل؟

فقال لها: هذا هو العمل الذي أقوم به وخشيت أن أقول لك فتغضبي.

فصاحت به تؤنّبه وترثي لحالها، فسمعت الحمامة تصيح:

- غاغ غاغ.

فرفعت رأسها صوب الحمامة وقالت لها:

- أنت التي سخّرتِ ولدي يخدمك كلّ هذه الشهور... أخرجي.

وهشّت الحمامة فطارت من وكرها فتساقط من عشها صرّة ذهب، وعندما رأت الأم الصرّة فرحت وأخذت تقبّل ولدها، وجمعت الذهب المتناثر من عشّ الحمامة وعادت هي وابنها إلى البيت وقالت له:

- هذا المال يكفينا لسنة كاملة نصرف منه كالأغنياء ولا داعي أن تعمل هذا العام، استرح.

وقامت وصرّت الذهب في صرر صغيرة وقالت:

- هذه الصرّة لرجب وهذه الصرّة لشعبان وهذه الصرّة لرمضان وهذه لشوال...

وأخذت توزّع الصرر على بقية شهور السنة وابنها يسمعها، وبعد أن فعلت ذلك وضعتها في سحّارتها وقالت لابنها:

- أنا سأخرج عند جارتي لأتنفس وأنت ابقَ في البيت.

وبينما هو في البيت سمع رجل يصيح:

- رمضان يا رمضان.

فخرج على عجل ووجد رجلين يتحدّثان انصرف أحدهما وبقي الآخر، فقال له:

- مَن رمضان؟

فقال له: أنا رمضان.

فردّ عليه الشاب: تعالَ خذ نصيبك من الذهب.

وقاده إلى البيت وأخرج الصرّة التي قالت عنها أمه «هذه صرّة رمضان» وقال الابن للرجل: هذه لك، وأسألك بالله إن كنت تعرف شعبان دعه يأتي ليأخذ نصيبه.

فهم الرجل أنّ الشاب أخرق فجاء بأخيه وقال له: هذا شوال؛ فأعطاه صرّة شوال وأوصاه قائلاً:

- بالله عليك لو رأيت رجب وشعبان دعهما يأتيان ليأخذا نصيبيهما.

ذهب الرجل وجاء بعمه فأعطاه، وهكذا كلّ مرة يغيب ويأتي بأحد أقاربه ويسمّيه باسمَ الشهور حتى أخذ كلّ الصرر الموجودة.

عندما أتت الأم رقص لها ابنها وقال لها: لقد عملت عملاً سيفرحك تماماً.

فقالت له: قل يا نور عيني.

فقال لها: لقد وزّعت الذهب على أصحابه، وقد تعبت حتى لقيت أصحابه.

هرعت الأم إلى سحّارتها فلم تجد صرر الذهب فضربت نفسها ولعنت حظها بأن رزقها الله بفتى لا يقدر على تدبّر أمره.

رواية حامدة حمدان - جدة

كبّر راسي

كان منظره مدعاةً للسخرية بسبب رأسه الصغير جداً، فقد ولد بهذا الرأس وكبر جسمه وظلّت عظام رأسه أصغر مما يتوقّع أيّ خيال، ورافق هذا الصغر المتناهي تفكيرٌ محدود وطيبةٌ لامتناهية[1].

عاش هذا الرجل حياةً حزينة بسبب سخرية الناس من صغر حجم رأسه، وفي ليلة سبع وعشرين من رمضان كان ساهراً[2] وفجأةً انفتحت السماء ونزلت عليه ليلة القدر[3] فسمع صوتاً يقول له:

- ادعُ.

---

(١) ذُكرت هذه الصفة تحديداً أو زُجّ بها كصفة ملازمة لهذا الشخص لاعتقادٍ سائد أنّ ليلة القدر لا تنزل إلاّ على الطيّبين وتمنحهم بركاتها. . .
وربما انتشر هذا الاعتقاد من خلال المتصوفة الذين يشاع أنّ لهم كرامات يختصّون بها دون سواهم، ويقترن الأمر بأولئك المتصوفة الزهّاد الذين يطلق عليهم بين العامة الدراويش، حيث يسبحون في ملكوتٍ آخر غير مهتمين بما يدور حولهم.
والصياغة التي اخترتها لهذه الحكاية لا تتوافق كلياً مع صياغة الراوية لهذه القصة، حيث ذكرت أنّ الرجل أهبل (متدروش) وأكّدت على طيبته كي تتوافق مع الفهم الشائع بين الناس بأنّ ليلة القدر لا تنزل إلاّ على الطيّبين.

(٢) في الذاكرة الشعبية نزول ليلة القدر ليس مرتبطاً بالعبادة كشرط أساسي وإنما بمقدار الطيبة والتسامح اللذين يتمتع بهما الرجل أو المرأة.

(٣) يختلف وصف نزول ليلة القدر من شخصٍ لآخر، والنزول في الذاكرة الشعبية نزول مادي، كأن يرى الشخص حبالاً من نور تتدلّى منّ السماء أو بقعةً ضوء تتركّز على الشخص المقصود بالنزول أو ريحاً طيبة وسلاماً داخلياً وشعوراً برغبة في الطلب.

فقال: يا ربّ كبّر راسي.
وفي الحال صار رأسه كبيراً للغاية فأصابه الهلع وصاح:
- يا ربّ صغّر راسي.
فصغر رأسه حتى أصبح كالليمونة.
فقال: يا ربّ رجّع راسي زيّ ما كان.
فرجع راسه كما كان وخسر ليلة القدر.[1]

رواية حامدة حمدان الحربي - جدة

(١) في الحكايات ينتفي المنطق الذي نعيش به ونزن الحقائق من خلاله... فالسامع في الوقت الراهن يخضع ما يسمع لمنطقية العقل ويرفض الانقياد لأصول الحكاية كما تروى، فقد رويت هذه الحكاية لشخص فتقافزت أسئلته وفق منطقية لا تتعامل مع الحكاية كجذور بدائية للتفكير الإنساني حين يسأل وكيف رأى رأسه في الظلام أو في النور معاً... ومثل هذه الأسئلة ممنوعة في الحكايات الشعبية الأسطورية أو المقتربة من الأسطورة وحتى في الحكايات الملحمية.

سعيد وسعيدة[1]

كان هناك عبد - وكلّنا عبيد الله - اسمه سعيد. تزوّج سعيد بزوجه اسمها سعيدة، وكانت لهما بقرة هي كنزهما في الحياة. وفي إحدى السنوات قرّر سعيد أداء فريضة الحج، لكنّه احتار ماذا يصنع ببقرته، وفكّر بحملها معه إلى الحجّ، لكنّ طول المسافة ومتابعتها طوال الوقت سيشغلانه عن أداء فريضته وتدخله في الانشغال بهموم الدنيا، وعندما بلغت حيرته مداها أجلس زوجته سعيدة وأخذ يستشيرها:

- سعيدة بنت عمي، نروح الحج فين نودي بقرة.

قالت له: سعيد بن عمي نشيلوه معنا للحج.

قال لها: سعيدة بنت عمي فلوس كثير.

قالت له: سعيد بن عمي اش نسوّي بالبقرة.

قال لها: سعيدة بنت عمي أنا أقلك نشتري برسيم كثير وحطّ مويا برميل داخل زريبة روحي حج.

واتفقا على هذا الاقتراح وخرج سعيد واشترى برسيماً يكفي لسنة وملأ برميلين بالماء وأدخل البقرة داخل الزريبة وأغلقا عليها وذهبا إلى الحج - وكان الحج بالشهور - وبعد أن حجّا رجعا من الحج، وفي الطريق قالت له زوجته سعيدة: كيف بقرة ذحين ابن عمي.

---

(١) هذه الحكاية تروى للأطفال، وقد حضرت روايتها لمجموعة من الأطفال وكانت مثيرة بالنسبة لهم ومحرضة على الضحك، وتعتمد في إثارتها للضحك على إصدار حركات معينة أثناء السرد، كما أنّ اللهجة المكسرة تحفّز الصغار على الضحك، إذ يكفي أن يضحك طفل ليتبعه الآخرون مقهقهين.

فرد عليها: أوه سعيدة بنت عمي ذحين بقرة بطران أكل برسيم أنا نسيته (يقصد أنّ البقرة نسيت وجهه)، لما نصل البيت نفتح باب بشويش عشان ما يفكّرنا غرباء.

فأشارت عليه زوجته سعيدة:

- إحنا ما نفتح باب إحنا نضع خرم في زريبه ونشوف بقرة.

وعندما وصلا بيتهما وخشيا أن تنفر منهما البقرة لطول البعاد وليقينهما أنها لن تعرفهما قرّرا خرق السور الزنكي الذي يسوّر الزريبة، وعندما قربا من الزريبة فاحت رائحة نتنة كريهة.

فقال سعيد لزوجته: سعيدة بنت عمي هذي ريحة مش كويس، هذا بطران بقرة.

فردّت عليه: سعيد ابن عمي أنت ما تفتح باب أنت شيل سقف الزريبة هي شوفك تعرفك.

استحسن اقتراح زوجته وقام بقشع سقف الزريبة وأنزلا سلّماً ونزلا إلى داخل الزريبة فوجدا بقرتهما متعفّنة، وقد بدأ جسمها يتحلّل والذباب يحوم حولها ودويبات الأرض تنهش من ذلك اللحم المنتن.

حزنا حزناً عظيماً لموت بقرتهما، وكان سعيد يبكي بحرقة على بقرته وظنّ أنّ الذباب هو الذي قتل بقرته فأقسم لزوجته قائلاً:

- ذبان هذا أكل بقرتنا، أنا أشوف أي ذبان أموته اخذ ثار بقرة حقي.

وأصبح ليس هناك همّ للزوجين سوى التفكير والتدبير لقتل الذباب الذي قتل بقرتهما، وكلّما رأيا ذبابة تعاونا عليها وقتلاها. ومرّت الأيام على هذه العداوة دون أن يتركا مهمتهما الأساسية، وهي القضاء على أيّ ذبابة طائرة.

خلال هذه الفترة حملت سعيدة بأول مولود وكلّ يوم تقترب من موعد الوضع، وقد أصبحت بطنها كبيرة. وبينما هي جالسة مع زوجها حطّت على بطنها ذبابة فجمدت سعيدة في مكانها وأخذت تتكلّم بصوتٍ منخفض، وقالت:

- سعيد بن عمي...

وأشارت له بيدها إلى الذبابة وأصدرت صوتاً تحريضياً (صغ صغ) منبّهةً إيّاه إلى الذبابة التي حطّت على بطنها، فأخذ الخنجر واقترب من زوجته وبعج بطن سعيدة فخرّت على الأرض والدماء تتطاير من بطنها، فاقترب منها زوجها قائلاً:

- سعيدة بنت عمي بطل مزاح قومي.
وكلّما حاول إيقاظها لا تتحرّك. أثناء ذلك مرّ ببيتهما مغنٍّ فقال له سعيد:
- يا مغنّي لا تغنّي، سعيدة بنت عمي قتلها الذبان.
ومن يومها حلف أن يأخذ ثأر البقرة وسعيدة من الذباب، وظلّ طول حياته يتابع الذبان ويقتلها.[1]

رواية حامدة حمدان الحربي - جدة

(١) ترجع الحكاية وجود الذباب في البيئات الفقيرة، وخاصةً عند أولئك الذين على شاكلة سعيد وسعيدة، بسبب العداء القديم بينهما، وأنّ أشباه سعيد وسعيدة لا يتركون الذباب أبداً ويتابعونه للقضاء عليه، ولذلك فكّر الذباب بالانتقام منهم فتواجد في بيئتهم بكثرة ليقضي على أشباه سعيد وسعيدة قبل أن يقضوا عليه.

تقضي حاجتي

كان لرجل حاجة عند الخليفة هارون الرشيد فتوسّط بأبي نواس ليشفع له عند الخليفة فأبدى أبو نواس الترحيب وقال لمن تشفّع به:

- أبشر.[1]

ذهب أبو نواس وحدّث الخليفة بشأن حاجة الرجل فأشاح وجهه عنه، فقال أبو نواس: «لم تجد شفاعتي في نفس الخليفة قبولاً». وعندما جاءه من تشفّع به وسأله عن حاجته قال له أبو نواس:

- والله لقد حدّثت الخليفة بحاجتك فقلب وجهه، لكن يومين وأعيد له الطلب قد يكون حين حدّثته مزاجه متقلباً.

شكره الرجل وألحّ عليه أن يعيد شفاعته، فوعده أبو نواس بذلك. وبعد يومين عاد طلبه للخليفة هارون الرشيد فأشاح بوجهه عنه، فقال أبو نواس في نفسه: «والله لن أعيد طلبي للخليفة بشأن هذا الخصوص». وعندما جاءه الرجل مستفسراً عما حدّث قال له أبو نواس:

- حدّثته مرّة أخرى وقلب وجهه عني، وقد خجلت من كثرة إعادة الطلب على الخليفة ولن أحدّثه بهذا الأمر مرّة أخرى.

كان الرجل المحتاج ملحاحاً فأخذ يسأل الناس عمّن يمكن له أن يتشفّع لدى الخليفة دون أن يردّ طلبه، فقيل له: حدّث زبيدة زوجة الخليفة. فوصل إليها

---

(١) عندما تروى الحكايات المتعلّقة بشخصيات تاريخية فإنّ الراوي يقوّل تلك الشخصيات كلاماً عامياً دارجاً دون أن يلجأ إلى الفصحى، ولا يجد في ذلك غضاضة. وفي هذه الحكاية دمج ما بين المسموع والمكتوب.

وحدّثها بحاجته وطلب منها أن تتشفّع له عند الخليفة، فحدّثت زوجها، وعندما أراد الاعتذار ألحّت عليه فنفّذ لها أمرها وقضى حاجة الرجل.

التقى الرجل بأبي نواس في اليوم التالي فبادره أبو نواس:

- ماذا فعلت في حاجتك؟

فقال له: ما يجيبها إلاّ نسوانها.[1]

استفسر أبو نواس عن سرّ قوله هذا فأخبره بالخبر، فغضب وذهب إلى مجلس هارون الرشيد وقال له:

- لقد توسّطت في أمر فلان ورددتني مرتين. . . تردّني أنا الرجل وتقبل شفاعة امرأة.

فقال له هارون:

- قضيت لها حاجتها، لأنها تقضي حاجتي.[2]

استنكر أبو نواس[3] الردّ وعلّق:

---

(١) كنت في إحدى الجلسات وكان الحوار دائراً حول أنّ النساء يُنجزن أيّ مهمة صعبة وذكر بعضهم المثل القائل «ما تجيبها إلاّ نسوانها»، وبمناسبة هذا المثل رويت هذه الحكاية لتدليل صدق قول من ذكر المثل.

(٢) هذا الجواب يذكّرنا بما حدث للشاعر الفرزدق، فالقصة كما أوردها أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني تقول: غَضِبَتْ النَّوارُ زوجُ الفرزدقِ منه، فخرجت إلى عبد الله بن الزبير ونزلت على زوجه خَوْلة بنت منظور، وسألتْها الشفاعة لها، بينما نزل الفرزدقُ على حمزة بن عبد الله بن الزبير، فوعده الشفاعة. وتكلمت خَوْلة في النَّوار وتكلّم حمزة في الفرزدق، فأُنجِحَتْ خَولة.

وأمر ابنُ الزبير الفرزدقَ ألاّ يقربَ النَّوار. فقال الفرزدقُ في ذلك:

أمّا بنوه فلم تنجح شفاعتُهم ... وشُفِّعَتْ بنتُ منظور بن زَبّانا

ليس الشفيع الذي يأتيك مُتَّزِراً ... مثلَ الشفيع الذي يأتيك عُريانا!

(٣) علق أبو نواس بالذاكرة الشعبية كإحدى الشخصيات الهزلية الماجنة التي لا تتورّع عن قول أو فعل أي شيء في حضرة الخليفة دون موانع أو عوائق. . .

ويقابلها في الذاكرة الجمعية شخصيات مشابهة، وقد تكون استنساخاً لشخصية أبي نواس. ففي الحكايات الشعبية في تهامة، وخاصةً في منطقة جازان، هناك شخصيتان متقابلتان لأبي نواس، فقط تمّ تحوير الاسم ليصبح علي زنية أو علي ابن الجارية. =

- خليفة وتقضي لك حاجتك، كيف؟
- زبيدة تقضي حاجتي بالليل؛ فهل تقدر أنت أن تقضيها.[1]

رواية عبدالكريم محمد

= وتحفل الذاكرة الشعبية بالعديد من قصص أبي نواس مع الخليفة هارون الرشيد، وغالباً ما يلصقونها بمثل. فعلى سبيل المثال قصة المثل المشهور «عذر أقبح من ذنب». وقصته أنّ أبا نواس كان يسير في الطرقات ويبعص من يجده في طريقه، وذات يوم بعص رجلاً من عليّة القوم فاستنكف هذه الفعلة وشكا أبا نواس للخليفة هارون الرشيد، فغضب هارون الرشيد من فعلة أبي نواس واستدعاه وسأله: هل فعلاً قمت ببعص فلان؟ فاعتذر أبو نواس بحجّة أنه لم يقصده وإنما ظنّه زبيدة (زوجة الخليفة)، لذلك يُقال: عذر أقبح من ذنب.

وتجسيد شخصية أبي نواس بهذه الصورة الهزلية الماجنة هو انتصار المروي عنه من قبل خصومه على المقروء أو المسموع من شعره. وواقع أبي نواس أنه شخصية ممتلكة للفراسة والشاعرية والدراية. وهذه قصة ذكرها الزبيدي الأندلسي في كتاب طبقات النحويين واللغويين حول بعض ملكات أبو نواس:

كان عباس بن ناصح، الشاعر الأندلسي، لا يَقْدم من المشرق قادمٌ إلاّ سأله عمَّن نَجَمَ هناك في الشعر، حتى أتاه رجلٌ من التجار فأعلمه بظهور أبي نواس، وأنشده من شعره قصيدتين؛ إحداهما قوله: جَرَيْتُ مع الصِّبا طَلْقَ الجُمُوحِ . . . والثانية: أما ترى الشمس حَلَّت الحَمَلا . . . فقال عباس: هذا أشعرُ الجنّ والإنس، واللّه لا حبسني عنه حابس. فتجهَّز إلى المشرق. فلمّا حلَّ بغداد نزل منزلة المسافرين، ثم سأل عن منزل أبي نواس، فأُرشِدِ إليه، فإذا بقصرٍ على بابه الخُدَّام، فدخل مع الداخلين، ووجد أبا نواس جالساً في مقعدٍ نبيل، وحولَه أكثرُ متأدّبي بغداد، يجري بينهم التمثل والكلام في المعاني. فسلّم عباس وجلس حيث انتهى به المجلس، وهو في هيئة السفر. فلمّا كاد المجلس ينقضي قال له أبو نواس: مَن الرجل؟ قال: باغي أدب. قال: أهلاً وسهلاً. من أين تكون؟ قال: من المغرب الأقصى. وانتسب له إلى قرطبة. فقال له: أتَرْوي من شعر أبي المخشيّ شيئاً؟ قال: نعم. قال: فأنشِدني. فأنشده شعره في العمى. فقال أبو نواس: هذا الذي طَلَبَتْه الشعراء فَأَضَلَّتْه. أنشِدني لأبي الأجرب، فأنشده. ثم قال: أنشدني لبكْر الكنانيّ، فأنشده. ثم قال أبو نواس: شاعر البلد اليومِ عباسُ بن ناصح؟ قال عباس: نعم. قال: فأنشِدني له، فأنشده: فَأَذتُ القَريض ومَنْ ذا فَأَذْ. . . فقال أبو نواس: أنت عباس؟ قال: نعم! فنهض أبو نواس إليه فاعتنقه إلى نفسه، وانحرف له عن مجلسه. فقال له مَن حضَر المجلس: من أين عرفْتَه أصلحك اللّه؟ قال أبو نواس: إني تأمّلته عند إنشاده لغيره فرأيته لا يُبالي ما حدث في الشعر من استحسان أو استقباح، فلمّا أنشدني لنفسه استَبَنْتُ عليه وَجْمَةً، فقلت: إنه صاحبُ الشِّعر!

(١) دخل أبو نواس الذاكرة الشعبية ليس كشاعر بل كماجن تقال على لسانه القصص المنحلة. والمرويات عنه كثيرة جداً، وفي معظم تلك المرويات يظهر براعةً في التخلّص من المواقف =

= الحرجة، وغالباً ما تهرب الحكاية الشعبية من سبك الأسلوب المفخّم وتدخل حياة العامة بأسلوبهم وليس بالأساليب الكتابية، وحين يتم نقل تلك المرويات ونحاول كتابتها نجد أنفسنا ننمّق الأسلوب ونخرجه من عاميته لنعيده إلى التنميط الكتابي...

ومن الحكايات التي يتداولها العامة هذه القصة وإن كانت منقولة وفق صياغتها الكتابية وليست الشفاهية:

أراد الرشيد ذات يوم أن يمازح أبا نواس ويحرجه فاستحضر بيضاً وطلب من جلسائه أن يخبّئوه في ثيابهم واتّفق معهم أنّه عندما يحضر أبو نوّاس سيعنّفهم ويطلب منهم أن يتحولوا إلى فراخ ويبيض كلّ منهم بيضة فيخرجون البيض عندئذٍ من ملابسهم ويفحَم أبو نواس ويخاف من غضب الرشيد. فلمّا حضر أبو نواس المجلس بدأت اللعبة، فقال أحدهم كلمة غضب منها الرشيد فصاح:

يا لكم من جبناء، لستم إلاّ فراخاً، فليبض كلٌّ منكم بيضة وإلاّ قطعت رقابكم. فأخرج الجميع البيض من ملابسهم، فما كان من أبي نواس إلاّ أن صاح كيكي كيكي كا... فقال الرشيد: ماذا تفعل يا أبا نواس؟ فأجاب: عجباً! هل رأيت يا مولاي فراخاً تبيض من غير ديك، فهؤلاء فراخك وأنا ديكهم!!

أخت الحطاب

يُحكى أن حطاباً رزقه الله بذريّةٍ كبيرة من البنات، وكان يسعى لرزقهم طوال اليوم، فيذهب إلى أطراف البلد ويقتطع الأشجار اليابسة ويعود ليبيعها داخل المدينة، فيحصل على ما تيسّر من رزق، ويمرّ على السوق فيشتري لبناته وزوجته ما تشتهيه أنفسهم على قدر الحاجة، وكان يجد مشقّةً في مواسم الأمطار، حيث تبتلّ الأشجار ولا تعود صالحةً للبيع، فكان يحتاط لمثل هذه الأيام بقطع أخشاب كثيرة وتخزينها في بيته وبيعها حين تهلّ مواسم الأمطار فيكسب منها، ويجتاز هذه الفترة من الموسم بمشقة.

وفي سنة من السنوات، وقبل نزول الأمطار، أصيب بمرض منعه من ادّخار أخشاب لفصل الشتاء، وعندما نهض من فراش المرض كانت مواسم الأمطار قد حلّت، فكان يخرج إلى أطراف البلد بحثاً عن الأخشاب اليابسة فلا يجد، وكلّما توغّل في الغابة كانت الأشجار أكثر بللاً، فيعود إلى منزله حسيراً.

وذات يوم، بينما هو عائد إلى بيته، قابلته امرأة هاشّةً ومرحّبةً به، وحضنته وهي باكية:

- أهلاً بأخي الذي فرّقتني عنه الأيام.

دهش الحطاب وحاول أن يتملص من بين يديها وهي لا تزال ترحّب، وقال لها:

- يا ستّي، أنا ليست لي أخوات.

فقالت له:

- كنت صغيراً عندما تهت من أبي وقد أوصاني قبل أن يموت أن أبحث عنك، والحمد لله أننا التقينا بعد طول فراق.

- لا أذكر أنني ضعت من أهلي.

- بل ضعت وربّتك فاعلة خير ونسبتك لزوجها.

واستطاعت أن تقنعه بحبك قصة طويلة عن ضياعه وكيف قدّر له أن يعيش في شظفٍ من العيش بسبب هذا الضياع، وقالت له:

- تعال معي إلى بيتي؛ فأنا غنية جداً وأريد أن تشاركني متعة النعيم الذي أعيشه، وأعوضك عن الأيام المرّة التي شفتها في حياتك.

ذهب معها فأدخلته قصراً كبيراً تحفّه الحدائق، وأخذت تريه القصر وكلّ ما بداخله من ثروات، وقالت له:

- اذهب وأحضر أولادك وتعال نعيش هنا جميعاً.

وعندما تراجع قالت له:

- هذا الغنى والنعيم الذي أعيش فيه ليس له طعم بدون ناس، وزي ما يقولوا جنة من غير ناس ما تنداس.

عاد الحطاب إلى بيته سعيداً وأخبر زوجته وقال لها:

- لقد وجدت أختي.

قالت له:

- أنا أعلم أنك مقطوع من شجرة فمن أين جاءت هذه الأخت؟

فقال لها:

- تقول أختي إنني ضعت من أبي وأنا لا أزال صغيراً، وقد عرفتني.

وعندما حاولت زوجته أن تثنيه عن عجلته اتّهمها بأنها لا تحبّ الخير له ولبناته، فوافقته وانتقلوا إلى القصر، فرحّبت بهم أخت الحطاب وأخذت تقبّل الواحد تلو الآخر وتقول:

- الحمد لله الذي جمعني بأبناء أخي قبل أن أموت.

وقادت زوجة أخيها وبناتها وأخذت تريهم القصر وتشير لهنّ على المخازن: هذا مخزن الذهب، وهذا مخزن الياقوت، وهذا مخزن المرجان، وهذا مخزن اللؤلؤ، وهذا مخزن الأطعمة، وهذا مخزن الفحم...

فرحت زوجة الحطاب وبناتها بهذا العزّ، وأصبحت البنات يحضنّ عمتهنّ ويقلن:

- عمتنا. . . عمتنا.

وفي المساء قالت أخت الحطاب:

- أنا عشت طوال العمر وحيدة في هذا القصر وألفت الوحدة وسوف أطلع لأعلى طابق بالقصر وأعيش هناك أما أنتم فاستمتعوا بكلّ ما في القصر.

حاولوا أن يثنوها عما عزمت عليه لكنّها أصرّت وصعدت إلى السطح لتعيش به، وكانت في كلّ صباح ومساء تنزل لتسلّم وتطمئن عليهم فتستقبلها البنات بالترحاب وتحضنّها وتصرّ كلّ واحدة منهن على أن تجلس عمتها بجوارها، فكانت تقول لهنّ:

- سوف ألتقي بكلّ واحدة منكن عن قريب.

عاشوا عيشة الأغنياء ونسوا أيام الفقر والحاجة، وذات يوم قالت زوجة الحطاب في نفسها: «كل يوم تأتي حماتي لتسلّم علينا، وأنا لم أصعد إليها أبداً، من الواجب أن أطلع لأتفقدها». وصعدت إلى أعلى القصر، فرأت حماتها تمصمص عظام طفل صغير وهي تقول:

- سوف أصبّر بك جوعي حتى تسمن بنات الحطاب، وسوف أمصمص عظامهنّ جميعاً.

نزلت زوجة الحطاب خائفةً ترتعد ووجدت زوجها فقالت له:

- يا راجل جايبنا عند سعلية وتقول إنها أختك؟

فقال لها الحطاب:

- الإنسان ما يحمد الله، أختي تحبك وأنت تقولي عليها إنها سعلية.

فقالت له:

- اسمع، طلعت للدور الأعلى بالقصر فوجدتها تمصمص عظام طفل وتقول سوف أمصمص عظام بنات الحطاب. قوم وخلينا نهرب بأنفسنا وبناتنا.

فقال لها:

- بلا تخريف. أنا وبناتي باقين، تبغي تروحي وحدك الباب مفتوح.

قامت الزوجة وهمست لبناتها واتفقن على مغادرة القصر، ومع الغروب، وقبل

أن تأتي السعلية، خرجوا إلى بيتهم القديم، وكان لهم جار يحب ابنتهم الكبرى، فذهبت إليه زوجة الحطاب وقالت له:

- إذا بغيت تتزوّج بنتي فمهرها قتل السعلية.

فقال لها:

- أي سعلية هذه؟

فأخبرته بالقصة من طقطق إلى السلام عليكم وقالت له:

- إذا ضربتها بسيفك وقالت لك ثنّي ضربتك لا تثنّيها... تفهم؟

قال لها: خلاص اتفقنا.

وفي المساء نزلت السعلية لتفقّد بنات الحطاب فوجدت الحطاب وحده جالساً في بهو القصر، فقالت له:

- فين البنات يا أخي؟

فقال لها:

- اسكتي... زوجتي تقول إنك سعلية، وقد هربت بالبنات لبيتنا القديم لكنها ستعود.

فقالت له:

- صدقت زوجتك. أنا سعلية ولا يمكن أن يكون لي أخ مثلك، والآن جهّز نفسك للموت، فأنا جائعة وكنت نازلة من أجل أن آكل واحدة من بناتك... فمن أين تريدني أن أبدأ مصمصة عظامك؟

فقال لها:

- من ذقني اللي ما سمعت نصيحة زوجتي.

فأقبلت عليه وأكلته ومصمصت عظامه، وتحرّكت إلى بيت الحطاب القديم وطرقت الباب ففتحوا لها الباب واستقبلتها البنات فرحات ومرحّبات بها:

- أهلاً بعمتنا حبيبتنا.

قالت لهم: لماذا تركتوا القصر؟

فقالت زوجة الحطاب:

- اشتقنا لجيرانا القدماء وقلنا نأتي نسلّم عليهم.

فقالت السعلية:

- كذبت. أنت عرفتي أني سعلية وهربتي ببناتك، وأنا جيت علشان آكلهم وآكلك، فقد سمّنتكم زمن طويل وحرمت نفسي من أكل أناس كثيرين بسببكم، فبمن أبدأ؟

فقالوا لها:

- نحن عارفين أنك ستأكلينا، وبدل أن نموت ونحن خائفين وكلّ واحدة منا تصرخ وتجمع عليك أهل الحي. . . كلينا ونحن نضحك ونرقص.

فقالت لهم: مادام أنتم مقتنعين، طيّب.

فقالوا لها: نحن ندقّ لك الطار وأنت ترقصين، وعندما تنتهي رقصتك الأقرب عليك ابدئي بأكلها.

فقالت: موافقة.

أحضروا الطار وبدأوا دقّه وهنّ يغنين:

ياجارنا ياجارنا

السعلية عندنا

ترقص رقصنا

وتبغى تاكل لحمنا

فسمع جارهم الغناء وعرف أنّ السعلية جاءت فأخرج سيفه وتسلّل إلى بيت جيرانهم وفاجأها وضرب رأسها بسيفه، فكانت من بين دمائها تصيح به:

- ثنّي ضربتك وأرحني.

فقال لها: ضربتي ضربة واحدة ما أثنّيها.

فماتت في الحال وتزوّج الجار بأكبر بنات الحطاب وانتقلوا وعاشوا في القصر وفتحوا خزائنه فوجدوا أموالاً كثيرة وتزوّجت البنات الأمراء والوزراء.

وعاشوا أحسن عيشة.

رواية حنان الجهني

سلطان لمدة ربع ساعة

جلس السلطان مع أحد ندمائه الخلّص يتسامران، وأخذ السلطان يشكو لنديمه ثقل المسؤولية التي على كاهله والصعوبات التي يواجهها لحلّ مشاكل البلاد، فقال له نديمه:

- لو أنني أجلس مكانك لمدة ربع ساعة فقط لرأيتك العجب، ولحللت كل الصعوبات التي تعترضك.

فقال له السلطان:

- وماذا تفعل بالحكم لمدة ربع ساعة وأنا أتربّع على العرش من سنوات طويلة ولم تحلّ مشاكل البلاد؟

فقال له نديمه:

- سوف أريك العجب إن مكّنتني من ذلك، بل أجزم أنني سأحلّ كلّ المشاكل خلال هذه المدة.

فقال الملك لنديمه:

- سوف أمنحك الحكم لمدة ربع ساعة، وأرني ماذا تستطيع أن تصنع خلال هذه الربع الساعة.

وأمر حاجبه أن يعلن للملء أنّ السلطان تنازل عن الحكم لنديمه لمدة ربع ساعة فقط، وعلى الجميع تنفيذ أوامر نديمه خلال تلك الدقائق.

وعندما امتلك نديم السلطان الحكم لمدة ربع ساعة كان أول قرار اتّخذه أن نادى على السيّاف وأمره بقطع رأس السلطان في الحال، وتربّع على عرش الحكم ما بقي من حياته!

حنان الجهني

خنفس خنافس

كانت خنفساء صغيرة تعيش مع أمها في بيتهما، وكانت الخنفساء تتزيّن في كلّ لحظة وتقول لأمها:

- أبغى أتزوج يا أمي.

فتقول لها: عندما تكبرين أزوّجك.

وفي كلّ يوم تقف الخنفساء أمام المرآة وتقول لأمها لقد كبرت، فتقول لها:

- اوقفي على الباب وشوفي مين يطلب يدك.

وقفت الخنفساء الصغيرة على الباب فمرّ جمل فقال لها:

- تتزوجيني يا خنفس![1]

فأجابته:

خنفس خنفس أمك

---

(١) الخنفساء من الحشرات التي لا تحمل في سجّلات تاريخها إلا التحقير «وسنقولُ في هذه المحقرات من حشرات الأرض، وفي المذكور من بغاث الطّير وخشاشه، مِمَّا يقتات العذِرة ويُوصف باللؤم، ويُتَقزَّزُ من لمسه وأكلِ لحمه، كالخنفساء والجعل، والهداهِدِ والرَّخم، فإنَّ هذه الأجناس أطلبُ للعذرة من الخنازير.

فأوَّل ما نَذْكُر من أعاجيبها صداقةُ ما بين الخنافس والعقارب، وصداقة ما بين الحيّات والوزَغ، وتزعمُ الأعراب أنّ بين ذكورةِ الخنافس وإناث الجعلان تسافداً وأنهما ينتجان خلقاً ينزع إليهما جميعاً.

وأنشد خَشْنامُ الأعور النحويُّ عن سيبويه النَّحويّ عن بعض الأعراب في هِجائهِ عدوّاً له كان شديد السَّواد:

عاديتنا يا خُنفساً كأُم جُعلْ عداوة الأوعالِ حيَّاتِ الجبَلْ». (كتاب الحيوان للجاحظ)

والبقرة تنطح أمك
هات مهري في كمي
أطلع أشاور أمي
وضع لها مهرها في كمّها وطلعت وقالت لأمها:
جاني عريس.
فقالت لها أمها: هه، كيف شكله؟
فقالت الخنفسانة:
راسه كبير كبير
ورجله كبير كبير
ويده كبير كبير
وبطنه قد البرميل
فقالت لها: يا لطيف... لا لا، امشي رجعيله مهره وقولي له روح لسبيلك أنا ما أتزوجك.

نزلت الخنفساء وأعطت الجمل مهره وقالت له مثل ما أخبرتها أمها، ووقفت على الباب فمرّ بها الحمار وقال لها:

- تتزوجيني يا خنفس!
فقالت له:
خنفس خنفس أمك
والبقرة تنطح أمك
هات مهري في كمّي
أطلع أشاور أمي
وضع لها مهرها في كمها وطلعت وقالت لأمها:
- جاني عريس.
فقالت لها أمها: هه، كيف شكله؟
فقالت الخنفسانة:
راسه كبير كبير
ورجله كبير كبير

ويده كبير كبير
وبطنه قد البرميل
فقالت لها: يا لطيف... لا لا، امشي رجعيله مهره وقولي له روح لسبيلك أنا ما أتزوّجك.

نزلت الخنفساء وأعطت الحمار مهره وقالت له مثل ما أخبرتها أمها، ووقفت على الباب فمرّ بها الثور وقال لها:

- تتزوجيني يا خنفس!

فردّت عليه:

خنفس خنفس أمك
والبقرة تنطح أمك
هات مهري في كمي
أطلع أشاور أمي

وضع لها مهرها في كمها، وطلعت وقالت لأمها:

- جاني عريس.

فقالت لها أمها: هه، كيف شكله؟

فقالت الخنفسانة:

راسه كبير كبير
ورجله كبير كبير
ويده كبير كبير
وبطنه قد البرميل

فقالت لها: يا لطيف... لا لا، امشي رجعيله مهره وقولي له روح لسبيلك أنا ما أتزوّجك.

نزلت الخنفساء وأعطت الثور مهره وقالت له مثل ما أخبرتها أمها، ووقفت على الباب فمرّ بها فأر وقال لها:

- تتزوجيني يا خنفس!

فقالت له:

خنفس خنفس أمك

والبقرة تنطح أمك
هات مهري في كمّي
أطلع أشاور أمي
وضع لها مهرها في كمها، وطلعت وقالت لأمها:
- جاني عريس.
فقالت لها أمها: هه، كيف شكله؟
فقالت:
راسه صغير صغير
رجله صغير صغير
يده صغير صغير
وبطنه قد المنديل
فقالت لها: أيوه، هذا اللي يناسبك!
فنزلت الخنفساء للفأر وقالت له:
- احنا موافقين. روح جيب ناسك وتعال.

وأحضر الفار أهله وجيرانه، وخطبوا الخنفساء الصغيرة وتحدّد موعد الزواج، وأقاموا عرساً كبيراً حضرته كلّ الفئران والخنافس، وزفّ العروسان لبيتهما، وعندما جلسا في أحد شقوق الجدران عجز الفار أن يتعامل مع الخنفساء الصغيرة فجلس حائراً يفكّر في وسيلة تمكّنه من الاستئناس بزوجته، وبعد جهد قال لها:

- نبغى نروح في الصبح للبحر.
فقالت له:
- ليه البحر؟
فقال لها:
- أبحث لك عن وجبة دسمة ترمم عظامك وتسند جسمك حتى تسمني قليلاً، وكمان أغسل جسمك علشان أقلل من سوادك.

وافقته الخنفساء، ومع الصباح الباكر توجّها إلى البحر، وكان البحر هائجاً، فوقفا أمام أمواجه وقال لها:

- أنا أبحث لك عن وجبة وأنت اغسلي جسمك بماء البحر.

وافقته، وتحرّك هو على جانب من الشاطئ يبحث عن أيّ كائن بحري يقدّمه وجبةً دسمةً لزوجته بينما اقتربت الخنفساء من أمواج البحر لتغتسل. وفي إحدى دفعات الأمواج القوية سحب البحر الخنفساء للداخل فأخذت تستغيث بزوجها الفأر الذي سمع صراخها فركض نحوها بسرعة لإنقاذها، وفي محاولاته سقط هو أيضاً وأخذهما البحر للأعماق وغابا عن الأنظار.

ومن يومها لم تعد الفئران تتزوّج الخنافس واستمرّ بينهم العداء.

رواية فاطمة علي هزاع ـ جدة

السمكة وابن الصيّاد

كان هناك صياد غليظ مع ابنه يضربه لأتفه الأسباب ويتّهمه بأنه لا ينفع لشيء، وكان الابن يخاف خوفاً شديداً من أبيه، فخرج ذات يوم معه إلى شاطئ البحر وقذف الصياد بصنارته فأمسكت بسمكة كبيرة كلما شدّها إليه راوغته، فقال الصياد لابنه:

- أمسك الجلب ريثما أحضر جلباً أقوى منه، ولو فلتت منك سأقتلك. فهمت؟

قال الابن بخوف: فهمت؟

تحرّك الأب يبحث عن جلب أقوى، فظهرت السمكة على سطح البحر وقالت للابن:

- اسألك بالله أن تتركني!

ترك الابن الجلب لتغوص السمكة في أعماق البحر، وخاف الابن من أبيه أن يضربه لتركه الجلب فركض هارباً وهو يتلفّت خلفه خشية أن يكون أبوه يركض خلفه، وكان يلمح شخصاً يركض خلفه من بعيد فأسرع هارباً وظلّ يركض حتى خرج خارج بلده، ودخل عليه الليل وهو يسير في ظلام دامس، وخشي أن يقع في بئر أو يظهر له سبع فيفترسه فتوقف. وفجأةً لمح ناراً توقد من بُعد[1] فأخذ يسير

---

(١) تحضر النار كعلامة إرشاد في الأساطير العربية بكثافة، وتركّزت كإشارة للهداية في قصة سيدنا موسى عليه السلام، حيث يقول الله عز وجل: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ (سورة طة: ٩-١٠).

=

باتّجاهها، وكلّما سار ابتعدت، ولازال يسير حتى ظهر نور الصباح ووجد شجرة كبيرة فجلس ليرتاح أسفلها، ومن شدّة التعب نام، وبعد فترة أحسّ بيدٍ توقظه فنهض فرأى رجلاً يقف على رأسه ويقول له:

- انهض يا صاحبي.

فنهض فزعاً وقال له:

- من أنت؟

قال له:

- أنا السمكة التي أطلقت سراحها.

خاف الشاب فقال له الرجل:

= وكانت للعرب نيران تعرف بمواقعها أو بأصحابها، كنار حاتم الطائي التي يوقدها ليلاً لاستجلاب الضيوف، وكذلك نار الحرّتين التي ذكرها الجاحظ في كتاب الحيوان وقال: هي نار خالد بن سنان، أحد بني مخزوم، من بني قُطَيْعَةَ بْنِ عَبْس، ولم يكن في بني إسماعيل نبيٌّ قبلَهُ، وهو الذي أطفأ اللّه به نار الحَرَّتَينِ، وكانت ببلاد بني عبس، فإذا كان اللّيلُ فهي نارٌ تسطَعُ في السَّماء، وكانت طيِّئٌ تُنْفِشُ بها إبلها من مسيرةِ ثلاث، وربّما نَدَرَتْ منها العُنُق فتأتي على كلِّ شيء فتحرقُه، وإذا كان النهارُ فإنما هي دخانٌ يفور، فبعث اللّه خالدَ بنَ سنانٍ فاحتفَرَ لها بئراً، ثمّ أدخلها فيها، والنَّاس ينظرون؛ ثمّ اقتحم فيها حتى غيَّبها، وسمع بعض القوم وهو يقول: هَلَكَ الرَّجُلُ، فقال خالدُ بن سنانٍ: كذب ابنُ راعية المعز، لأخرجنَّ منها وجبيني يَنْدَى. فلمَّا حضَرَتْهُ الوفاة قال لقومه: إذا أنا متُّ ثمَّ دفنتموني فاحضُروني بعدَ ثلاثٍ؛ فإنَّكم تَرَوْنَ عَيراً أبترَ يطوفُ بقبري، فإذا رأيتم ذلك فانبشوني؛ فإني أخبرُكم بما هو كائن إلى يوم القيامة. فاجتمعوا لذلك في اليوم الثالث، فلمّا رأوا العَيْرَ وذهبوا ينبشونه اختلفوا فصاروا فرقتين، وابنُه عبد اللّه في الفِرقة التي أَبَتْ أن تنبشه، وهو يقول: لا أفْعَلُ إني إذاً أُدْعَى ابنَ المنبوش. فتركوه.

وقد قدِمَتْ ابنَتُهُ على النبيّ صلى الله عليه وسلم، فَبَسطَ لها رداءهُ وقال: هذه ابنةُ نَبِيٍّ ضيَّعهُ قومُهُ.

قال: وسَمِعتْ سورَةَ: «قُلْ هُوَ اللّهُ أَحَدٌ»، فقالت: قد كان أبي يتلو هذه السورة.

والمتكلّمون لا يؤمنون بهذا، ويزعمون أنَّ خالداً هذا كان أعرابياً وبَرِيّاً من أهل شَرْج ونَاظِرَة، ولم يبعث اللّه نبيّاً قطُّ من الأعرابِ ولا من الفدَّادِينَ أهلِ الوَبَرِ، وإنما بعثهم من أهل القرَى وسُكَّانِ المُدُنِ.

وحضور النار ليس حضوراً عابراً بل حضور أسطوري، لكونها كانت إلهاً يُعبد في مواقع مختلفة.

- لا تخَف. أنا جنيّ مسلم وسأكون صديقك.

وظلاّ تحت الشجرة يتحدّثان، وأراد الجني أن يصلح الأمر فقال لصديقه الشاب:

- لماذا لا تعود إلى أبيك وتعتذر منه؟

فقال الشاب:

- أنت لا تعرف أبي؛ فهو لن يسامحني أبداً، وأفضّل أن أغيب عن وجهه لزمن ولا أعود إليه إلاّ رجلاً امتلك المال.

فقال له الجنيّ:

- طيّب، ندخل هذه المدينة ونتاجر وكلّ ما نكسبه منها نتقاسمه، نصفاً لي ونصفاً لك.

وافق الشاب على هذا الشرط، ودخلا المدينة وبدآ في المتاجرة ببيع الحطب، وكان الجنّي يجلب أكواماً من الحطب فتنفد في الحال. وعندما أصبح عندهما بعض المال افتتحا دكّاناً صغيراً لبيع الأواني الفخارية، وكان الجنّي يعمل في اللحظة الواحدة مئات الأواني الفخارية المتنوّعة، فكسبا أموالاً كثيرة، وتنوّعت تجارتهما بداخل البلد حتى أصبحا من أثريائها.

وكان لسلطان هذه البلد ابنة رائعة الجمال، وكلّ من تزوّجها مات قبل أن يصل إليها، وتناقل الناس خبر جمالها وحظّها العاثر مع أزواجها الذين يموتون ليلة العرس.

وفي يوم من الأيام كان الشاب يسير بالقرب من قصر الأميرة فرآها وجُنّ بها وأصبح لا ينام ليلة وفي نهاره يفكّر بها، وعندما رآه صاحبه الجنيّ على هذه الحالة سأله عمّا به، فقال:

- لقد عشقت الأميرة وأريد الزواج بها.

فقال له صديقه الجني:

- لا تفكّر بها؛ فمن يقترن بها يموت في ليلة عرسه.

فقال الشاب: مستعدّ لأن أموت، فقط أكون قريباً منها لحظة الموت.

عجز الجني عن أن يثنيه عمّا عزم عليه ووافقه، فذهبا إلى بيت السلطان وطلب الشاب من السلطان أن يزوّجه ابنته، وقد أعجب السلطان بجماله ورجولته فقال له:

- أنا خائف عليك يا بني، فلم يتزوّجها أحد إلاّ ومات في ليلة دخلته. . .

فقال الشاب: سمعت بهذا، وأنا مستعد لأن أموت من أجل أن أكون بقربها.

قال له السلطان:

- يا بني، لقد تزوّجها الأمراء وأبناء الوزراء وقوّاد البلد، وكلّ مرّة نخسر أفضل رجالنا، وقد قررت أن لا أزوّجها بأحد كي لا نخسر رجالنا، ومشورتي لك أن تصرف النظر عن طلبك، فقد سمعت أنك من أفضل تجار بلدتنا.

فقال له الشاب:

- ليكن أنا آخر من يطلبها، ولو متّ لا تزوّجها أبداً.

ومع إصرار الشاب وافق السلطان على طلب الشاب بالزواج من ابنته، وتحدّد موعد الزواج بعد أسبوعين، وتناقل الناس أنّ الغريب التاجر سوف يتزوّج ابنة السلطان، وأشفق عليه الكثيرين من النهاية المحتومة، وتقوّل بعضهم على السلطان:

- السلطان لا همّ له إلاّ إمتاع ابنته ولا يهمّه من يموت.

- السلطان يريد أن يفني شباب البلد.

- السلطان ما في قلبه رحمة.

- السلطان إذا أراد أن يتخلّص من أحد زوّجه ابنته.

أقوال كثيرة تقوّلها الناس، وذهب بعضهم إلى الشاب وحاولوا أن يثنوه عن الزواج بالأميرة وأخبروه أنّ من يتزوّجها يموت في ليلة عرسه، فشكر لهم شعورهم الطيّب تجاهه، وأفهمهم أنه قراره ولن يتراجع عنه.

وأُقيمت ليلة من أجمل الليالي حضرها كلّ أهل البلد، غنيّهم وفقيرهم، وزُفّت العروس للشاب. وقبل أن يدخل الشاب على زوجته أمسكه صديقه الجنّي وقال له:

- خذ هذه السبع تمرات وامضغها جيداً[1] وإذا دخلت على زوجتك فلا تنم أبداً

---

(١) يذهب بعض العامة إلى القول إنّ الجن والشياطين تكره التمر لكونه يؤذيها ولا يمكّنها من التماسّ مع الإنس، وربما جاء هذا الاعتقاد من حديث رواه سعد بن أبي وقاص عن الرسول صلى الله عليه وسلم «من تصبّح بسبع تمرات من عجوة لم يضرّه ذلك اليوم سمٌّ ولا سحر». (صحيح البخاري) =

= وقد دار اختلاف كبير بين العلماء حول هذا الحديث الذي رواه سعد بن أبي وقاص، وهذا الاختلاف بدأ منذ الأزمان الأولى. وفي ملتقى البشارة الدعوي http://www.albshara.com/showthread.php?t=19286 آراء متباينة تذهب في مجملها إلى أنّ رواية حديث سعد بن أبي وقاص المطلقة وردت مقيّدة، فيحمل المطلق على المقيّد لاتّحاد المناسبة. قال القرطبي، رحمه الله، في هذا الحديث بعينه: «و المطلق منها محمول على المقيّد، وهو من باب الخواص التي لا تدرك بقياس ظنّي».

١- «من تصبّح» فهذا هو الإطلاق الأول بالأكل، وتمّ تقييده بأمرين:

- الأكل صباحاً، لقوله صلى الله عليه و سلم في هذا الحديث «من تصبّح».

- الأكل على الريق، لقوله صلى الله عليه و سلم: «في عجوة العالية أول البكرة على ريق النفس شفاء من كل سحر أم سم».

٢- «سبع تمرات عجوة» فهذا هو الإطلاق الثاني بالتمر، وتمّ تقييده بأمور:

- التقييد بالعدد، لقوله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث: «سبع تمرات».

- التقييد بالنوع، لقوله صلى الله عليه و سلم في هذا الحديث «تمرات عجوة». و العجوة هي «نوع من تمر المدينة أكبر من الصحياني يضرب إلى السواد» (النهاية في غريب الأثر).

- التقييد بالمكان، لقوله صلى الله عليه وسلم في رواية أبي ضمرة للبخاري «سبع تمرات عجوة من تمر العالية»، ولقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم «في عجوة العالية شفاء في أول البكرة»، والعالية موضع بالمدينة.

- التقييد بالمدة، وهذا التقييد مستفاد من فعل السيدة عائشة، رضي الله عنها، أنّ التمر لا يظهر أثره إلاّ بعد سبعة أيام من أخذه بالصفة السابقة. قال الحافظ ابن حجر، رحمه الله: «أخرجه الطبري من رواية عبد الله بن نمير عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها «كانت تأمر بسبع تمرات عجوة في سبع غدوات»، وأخرجه ابن عدي من طريق محمد بن عبد الرحمن الطفاوي عن هشام مرفوعاً، وذكر ابن عدي أنه تفرّد به، ولعلّه أراد تفرّده برفعه. وهو من رجال البخاري لكن في المتابعات».

٣- «لم يضرّه سمٌّ ولا سحر» فهذا الإطلاق الثالث بعدم الضرّ من أثر السمّ والسحر، وتم تقييده بالتالي:

- تقييد مدة عدم الضرر بقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري «لم يضرّه سمٌّ ولا سحر ذلك اليوم إلى الليل».

فالحاصل «تناول سبع تمرات عجوة من تمر العالية في المدينة في أول البكرة على ريق النفس يقي من السمّ والسحر ويبدأ الأثر بعد ٧ أيام».

هل هذا الأمر خاص بزمانه صلى الله عليه وسلم؟

الظاهر من النص ومن فعل السيدة عائشة، رضي الله عنها، أنه ليس خاصاً بزمانه صلى الله عليه وسلم. =

= ما العلاقة بين التمر والوقاية من السم والسحر؟
هي علاقة الدواء بالداء، لقوله صلى الله عليه وسلم «في عجوة العالية شفاء في أول البكرة».
قال القاضي عياض رحمه الله «تخصيص ذلك بعجوة العالية وما بين لابتي المدينة يرفع هذا الإشكال ويكون خصوصاً لها، كما وجد الشفاء لبعض الأدواء في الأدوية التي تكون في بعض تلك البلاد دون ذلك الجنس في غيره لتأثير يكون في ذلك من الأرض أو الهواء». فهل العلاقة بين الدواء والداء لا تتأثر بأيّ عامل خارجي؟!!
بل بضرورة الحس يعلم الجميع أنها تتأثر، ولذلك حمل المازري، رحمه الله، الحديث على الغالب بضرورة الحسّ. وهو أمر مفهوم من العلاقة الدوائية المستنبطة من قوله صلى الله عليه وسلم «في عجوة العالية شفاء...» (الحديث).
وتجد قوله صلى الله عليه وسلّم «شفاء العي السؤال» وليس كلّ جاهل يزول جهله بالسؤال، بل قد يزيد جهلاً إن سأل جاهلاً مثله، وقد يظل على حاله من الجهل أو يزيد إن سأل من لا يدري أو سأل سؤالاً لا يرفع جهله وإن أجيب!!
قال ابن القيم رحمه الله: «ها هنا أمر ينبغي التفطّن له، وهو أنّ الأذكار والآيات والأدعية التي يُستشفى بها ويرقّى بها هي في نفسها نافعة شافية، ولكن تستدعي:
- قبول المحل.
- و قوة و همة الفاعل وتأثيره.
فمتى تخلّف الشفاء كان:
- لضعف تأثير الفاعل.
- أو لعدم قبول المنفعل.
- أو لمانع قوي فيه يمنع أن ينجع فيه الدواء.
كما يكون ذلك في الأدوية و الأدواء الحسية بأنّ عدم تأثيرها قد يكون لعدم قبول الطبيعة ذلك الدواء، وقد يكون لمانع قوي يمنع من اقتضائه أثره».
فعلى المعترض أن يجيب عن السؤال التالي: هل يوجد دليل ينفي «الأثر الوقائي الدوائي لتناول سبع تمرات عجوة من تمر العالية في أول البكرة على ريق النفس من السم و يبدأ الأثر بعد ٧ أيام»؟. وإن لم يستطع نفي الفرض الجدلي الأكبر «كل تمر يقي ضد كل سمّ» فكيف سينفي الأضيق؟!! لكن إن عاد إلى الاعتراض - كائناً من كان - فالحوار سيبدأ معه من هنا: هل يوجد دليل ينفي «الأثر الوقائي الدوائي لتناول سبع تمرات عجوة من تمر العالية في أول البكرة على ريق النفس من السم ويبدأ الأثر بعد ٧ أيام»؟
يا عائشة! بيت لا تمر فيه جياع أهله يا عائشة! بيت لا تمر فيه جياع أهله - أو جاع أهله - قالها مرتين أو ثلاثاً.
الراوي: عائشة. المحدّث: مسلم. المصدر: صحيح مسلم. الصفحة أو الرقم: ٢٠٤٦.
خلاصة حكم المحدّث: صحيح. =

= وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من تصبّح بسبع تمرات من عجوة لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر».
في حديث رسول الله هذا نجده أنه مقسم إلى قسمين: تأثير التمر على شيء مادي وهو السم، ثم تأثيره على شيء غير مادي وهو السحر.
١- قال صلى الله عليه وسلم: «من تصبّح بسبع تمرات من عجوة لم يضرّه ذلك اليوم سمّ».
لقد أعطانا رسول الله صلى الله عليه وسلّم الجرعة أو الكمية التي يجب أخذها وهي سبع تمرات، حيث أنّ هذه الكمية كفيلة برفع السكر في الدم من ٦٠ إلى ١١٠، وذلك يعتبر المستوى الطبيعي للسكر.
يقول الدكتور عبد الباسط محمد السيد: إنّ هيئة الإعجاز العلمي للقرآن والسنّة قد صرفت أموالاً كثيرة لتحديد نوع السمّ: هل هو داخلي أم خارجي؟ فبحثوا في السمّ الداخلي، وذلك بإجراء بحوث على الأشخاص الذين يعيشون في المدن الصناعية، حيث أنهم دائماً يصابون بالتلوث، وهذا ما يجعل تسمّماً في الجسم، ونحن نعلم أنّ الكبد هي المسؤولة عن مضادات السموم، حيث إنه هناك إنزيم معين موجود في الكبد هو المسؤول عن مظاهر التسمّم، فيكون هذا الإنزيم بالنسبة للذين يعيشون في المناطق الصناعية مرتفعاً لوجود السموم داخل الجسم، فأُعطي لـ١٠٠ من هؤلاء الأشخاص ٧ تمرات عجوة كلّ يوم، ثمّ تمّ قياس هذا الإنزيم في الأيام الأولى ثم في وسط أيام الدراسة ثم في آخر ١٥ يوماً الأخيرة فوجد أنّ هذا الإنزيم ينخفض حتى يدخل في الوضع الطبيعي. وقد وجد أنه وبالرغم من أنّ إعطاء السبع تمرات كان لمدة ١٥ يوماً فقط إلاّ أنّ هؤلاء الأشخاص يبقى لهم هذا الإنزيم في حدوده الطبيعية لمدة سنة، وبالتالي صدق رسول الله أنه «من تصبّح بسبع تمرات من عجوة لم يصبه سم».
٢- لقد قال رسول الله صلى اله عليه وسلم: «لم يصبه سمّ ولا سحر». والسحر شيء غير مادي، حيث إنه يوجد ما يُسمى استجلاء البصر واستجلاء السمع أو ما يعرف بالتخاطب عن بعد والموجودة في أوروبا، حيث إنهم يقولون عن التخاطر عن بعد، حيث إنّ الإنسان يمكن أن يلقي في روع إنسان آخر شيئاً ما عن بُعد، وبالرغم من أنهم لا يعترفون بالإسلام لكنهم في أوروبا يحذون حذو سيدنا عمر بن الخطاب الرائد في مجال telepathy في رواية سارية الجبل، على اعتبار أنه استجلاء بصري أعقبه استجلاء سمعي. ويقولون إنّ العين تسحر أو تحسد فتتحول إلى عين شيطانية تمتصّ كلّ الألوان إلاّ اللون الأزرق، لذلك يقولون في أوروبا إنه لتمنع السحر يجب أن تلبس خرزاً لونه أزرق، وقد ثبت علمياً أنّ العين التي تسحر وتتحول إلى نظرة شيطانية تمتصّ جميع ألوان الطيف إلاّ اللون الأزرق. قال تعالى: «فإذا من سحرهم يخيّل إليهم أنها تسعى»، أي أنهم سحروا أعين الناس لأنّ الحبال والعصي لم تتحوّل إلى تعابين، حيث إنّ السحر يدخل في جسم الإنسان أو يؤثر في الجسم الداخلي للإنسان ويجعل كلّ ألوان الجسم الداخلية عشوائية، وبالتالي يوعز في روع الشخص ما يريد، فوجد أنّ نواتج هضم تمر عجوة خط طيفه لونه أزرق، أي عندما يصل التمر إلى حالة الهضم النهائي =

= قبل الامتصاص عندما تصور بجهاز المطياف تعطي اللون الأزرق، وبالتالي فإنّ تمر عجوة يقاوم عملية السحر الداخلي لأنه يسبغ الجسم ويعطيه خط طيف لونه أزرق، ويستمر هذا لمدة ١٢ساعة. فصدق رسول الله

الإعجاز العلمي: التمر يبطل مفعول السم والسحر.
قال رسول الله صلي الله عليه وسلم: «من تصبّح بسبع تمرات لم يضره في يومه سمّ ولا سحر»/ وقال أيضاً: «إنّ في عجوة العالية شفاء وإنها ترياق أول البكرة». التفسير العلمي للحديث الشريف توصّل إليه العلماء في عصر العلم الحالي فقط. السبع تمرات هي نحو مئة غرام من التمر، وفيها مواد كيميائية عضوية وأملاح معدنية و فيتامينات توصل إليها العلماء بكلّ دقّة وتفصيل. وثبت أنّ عمليات الأيض بالجسم ينتج عنها ما يسمّى (الجزئيات الحرة)، وهي تسبّب تسارعاً في عمليات الهدم بالجسم، وبالتالي تسبّب شيخوخة مبكرة بجسم الإنسان. واكتشف العلماء أنّ بالكبد أنزيماً مسؤولاً عن إبطال مفعول السموم بالجسم.
ووجدوا في الأشخاص الذين وضعوا في تجربة علمية، وتناول كلّ منهم سبع تمرات في صباح كلّ يوم لمدة شهر أنّ مستوى ذلك الإنزيم لم يرتفع مع تناول الطعام، ممّا يدلّ على أنّ التمر قد أحدث في جسمه وقاية من السموم الداخلية.
وجاء في السيرة أنّ النبي صلي الله عليه وسلم لمّا أكل شاة خيبر التي وضع اليهود فيها سمّاً، وأوحى الله تعالى إليه بذلك، أكل منها ولم يصبه ضرر لأنه كان قد تصبّح بسبع تمرات في ذلك اليوم. وفي الجمعية البريطانية التي يطلق عليها اسم التليباتي، وهي التي تبحث في قدرات الروح، أجرت تجارب علمية مستفيضة علي متطوعين تعرضوا للتسمّم بمادة الرصاص من دخان عوادم السيارات، وأعطوا كلّ واحد منهم سبع تمرات كلّ صباح، فوجدوا أنّ التمر قلّل كثيراً من مستوى السموم بالجسم.
وثمة اختلافات وحوارات حول أثر التمر على صحة الإنسان، وتناقل الناس أنه تمّ الإعلان عن دراسة حديثة عن تناول التمر (لم أطّلع عليها ودوري هنا في جمع الأساطير هو نقل ما يتناقله الناس) أنه تم اكتشاف أنّ أكل التمر أو البلح يولد هالة زرقاء اللون حول جسم الإنسان، ووجد أنّ تلك الهالة الطيفية ذات اللون الأزرق تشكّل درعاً واقياً وحاجزاً مانعاً أمواجاً كهرومغناطيسية لامرئية عدة من الجن والحسد والسحر والعين الحاسدة وخلافه...
والجن يصبحون غير قادرين على اختراق هذا الحاجز الذي ولّدته الطاقة المنبثقة من العناصر الموجودة في التمر، وخاصةً عنصر الفوسفور الغني بالالكترونات التي تزيل الشحنات الموجبة التي يحبّها الجن ومظهرها الإثارة والتهيّج لدى الإنسان...
ومن المعروف أنّ لمركبات هذا العنصر إشعاعات تألقية فوسفورية تدعم الطيف الأزرق وتمنع اختراق الجن لهذا الحاجز الطيفي في حين أنهم قادرون على اختراق الأطياف كافة والتعامل معها.

وأعطاه فأساً صغيرة وقال له:

- خذ هذا الفأس وخليه جنبك يمكن تحتاجه ولا تنسى لا تنام مهما حصل.

شكره الشاب وتناول الفأس وخبّأه تحت قميصه ودخل على زوجته فرآها أجمل ممّا توقّع، وقبل أن يصل إليها أصابتها حالة نعاس شديدة وارتمت على سريرها في نوم عميق. استلقى بجوارها وكلمّا داعب النوم جفونه انشغل بالتفكير في أمور حياته ليبعد النوم عن عينيه. وبعد منتصف الليل رأى فم زوجته يَصرّ كالأبواب القديمة الصدئة ويخرج منه ثعبان قصير يصدر فحيحاً:

- من ذا الذي يريد أن يأخذك مني؟

وفي الحال تناول الشاب فأسه وضرب رأس الثعبان وقطعه نصفين، فاستيقظت الأميرة تصرخ، وعندما وجدته حضنته وقبّلته وقالت له:

- الحمدلله على سلامتك كنت خائفة عليك أن تموت، فهذا الجنّي - وأشارت إلى الثعبان - يعيش في جوفي، وما إن أتزوّج بأحد حتى يصرعني ليلة الدخلة، وعندما ينام العريس يخرج إليه ويلدغه فيموت العريس في الحال.

فرح الشاب بسلامة زوجته وتعانقا للصباح.

استيقظ السلطان مع الفجر واتّجه إلى غرفة ابنته ومعه بعض الحرس وقال لهم:

- جهّزوا القبر لدفن عريس ابنتي وأعلنوا في البلد أنّ السلطان يمنع أيّ كائن مَن كان بالزواج من ابنته التي أفقدت البلد أفضل رجالها.

كان يتوقع أنّ الشاب قد مات، لذلك لم يطرق الباب واقتحم الغرفة فوجدهما متعانقين، ولفرحه بنجاة الشاب قفز معهما على السرير يقبّلهما بفرح.

وأُعلن في كلّ السلطنة أنّ الشاب زوج الأميرة دخل بها وأنّ الأميرة حامل. فرح الناس بنجاة الشاب وأقيمت الليالي الملاح.

بعد شهور وضعت الأميرة طفلاً جميلاً فرح به أبواه وجدّه. وفي السنة التي تلتها حملت الاميرة وأنجبت ابناً ثانياً لا يقلّ عن أخيه في الجمال والكمال.

كان الشاب لا يزال يعمل في المتاجرة وكلّ ما يكسبه يقتسمه مع شريكه الجني، وبعد مرور سنوات قال الشاب للسلطان:

- يا مولاي السلطان، اشتقت إلى أبي وبلدي وأستأذنك في حمل زوجتي وأبنائي معي.

حاول السلطان أن يثنيه، لكنه وعده أن لا يغيب كثيراً فوافق السلطان على سفرهم وجهّز لهم القوافل المحمّلة بكلّ غالٍ ونفيس وودّعهما. . . وقبل السفر أخبر الشاب صديقه الجنّي بما عزم عليه. حاول الجني أيضاً أن يثنيه، لكنّ الشاب قال له:

- لم أعد أطيق البعاد عن أبي.

فقال له الجنّي:

- حسناً، لن أودّعك الآن ولكن نلتقي عند آخر شجرة في البلد كي أودّعك.

خرج الشاب وزوجته وأبناؤه، وكان في وداعهم السلطان والوزراء وعليّة القوم، وعندما مرّت القوافل بآخر شجرة بالبلد بركت جميعها. حاول الشاب أن يُنهض تلك الجمال فأبت جميعاً، فسأل زوجته:

- أهذه آخر شجرة بالبلد؟

فقالت له: نعم هذه آخر شجرة بالبلد.

وما هي إلاّ لحظات حتى رأى صاحبه الجنّي مقبلاً وقال له:

- أنا أعتب عليك.

قال له الشاب:

- ولماذا العتب؟

قال له: تريد أن تسافر دون أن تعطيني حقي؟

فقال الشاب:

- وما هو حقك؟

قال الجنّي:

- ألم نتّفق أن نقتسم كلّ ما نملكه من البلد التي نزلنا فيها للتجارة.

اعتذر الشاب من صديقه وقال له:

- لك ما تريد. . . وهذه عشرة جمال محمّلة بكلّ غالٍ ونفيس، فخذ خمسة منها.

وفي الحال تحرك الجني واختار خمسة من الجمال المحمّلة، وعندما أراد أن يتحرّك قال له الجنّي:

- ما زال لي عندك.

فقال الشاب: وماذا بقي؟

قال الجنّي:

- أولادك، لي فيهم النصف.

دهش الشاب وقال له:

- يا رجل، تقتسم معي حتى أبنائي؟

فقال الجني: هذا هو الشرط؟

وعلى مضض أعطى الجني أحد اولاده وهو في شدة غضبه، وأراد أن يتحرّك فأمسك به الجنّي وقال له:

- يا صاحبي، ما زال لي عندك؟

فقال له الشاب بغضب:

- وماذا بقي لك؟

قال الجنّي:

- زوجتك، لي فيها النصف.

كاد الشاب أن يجنّ وأخذ يصيح:

- وكيف أعطيك نصفها؟

فقال الجنّي: نقسمها نصفين؟

وأخرج منشاراً، فأراد الشاب أن يدافع عن زوجته لكنه لم يقدر. وقال له الجني:

- الشرط شرط. أنسيت عندما دخلنا البلد قلنا كلّ ما نكسبه نقتسمه، فارضى بالشرط.

لم يجد الشاب بدّاً من الاستسلام للجنّي، فأخرج الجني منشاره وقرّب الأميرة ووضع على مفرق رأسها المنشار، وفي الحال انفتح فمها وخرج منه ثعبان ضخم، فتناوله الجنّي بساطوره وقسّمه نصفين، والتفت إلى الشاب وقال له:

- حلال عليك مالك وزوجتك وأبناؤك، فهذا الثعبان كان مارداً كبيراً يسكن داخل زوجتك وخشيت أن يعكّر عليك حياتك ففعلت ما فعلت.

شكره الشاب على صنيعه وتعانقا وودّع بعضهما بعضاً، ثم قال له الجنّي:

- هذه شعرة من شعري، متى ما احتجتني احرقها وسأكون في خدمتك في الحال.

مضت قافلة الشاب ودخل بلدته فوجد أباه شيخاً كبيراً فعرّفه بنفسه. فرح الأب بعودة ابنه فرحاً عظيماً، وتناقل الناس عودة ابن الصياد حاملاً كلّ الخير لبلده وأهلها، فأقاموا له احتفالاً كبيراً حضره كلّ أهل البلدة، وبعد شهور عاد إلى بلد زوجته فوجد السلطان قد مات وبايعه أهل البلد سلطاناً عليهم.[1]

رواية حنان الجهني

---

(١) تحتفي الأسطورة العربية بالجنّ احتفاءً منقطع النظير، فالجنّ في الأسطورة العربية هو محرّك الأحداث ومبدّل الأحوال. وأعتقد أنّ الجن في الأساطير والحكايات العربية تقابل الآلهة في الأسطورة الإغريقية؛ فعندما وصلت البشرية إلى التوحيد مع بقاء تراث حكائي مهول يتم استهلاكه كان لا بدّ للراوي أن يحدث انتقالاً لشخصيات الآلهة المسيطرة على مسرح الأحداث فتمّت استعاضة ذلك بالجن والسحرة.

والذاكرة العربية متخمة بقصص الجن بيقينٍ كامل من كونها كائنات لها أثر مباشر في حياتهم، حتى أنّ مدرسة فقه وقفت موقفاً تفصيلياً من هذه الكائنات، كما وقفت المعتزلة من هذا الأمر.

وكتب الأستاذ يوسف أبا الخيل مقالاً حول مسألة تأثير الجن في الكون وتلبّسه بالإنسان كأمرٍ ينكره الإسلام ـ وفقاً لرأي المعتزلة ـ فقال إنّ حكايات تأثير الجن في بعض الأحاديث المنسوبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليست صحيحة لسببين: أولهما، أنّ جميع ما ورد في شأن الجن جاء بأحاديث آحاد، وأحاديث الآحاد لا يعوّل عليها في العقائد؛ وثانيهما، أنّ تلك الحكايات مستعارة ـ بعضها على الأقل ـ من الفكر اليهودي والفكر النصراني.

١ . ليس لدى المعتزلة إشكالية فيما يخصّ الإيمان بوجود عالم الجن. والذي ينكره السادة المعتزلة إنكاراً قطعياً ينحصر في إمكانية التواصل مع الجن ـ عبر أيّ واحدة من الحواس ـ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ﴾ (الأعراف: من الآية ٢٧) ولقوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ (الجن: ١). فقوله تعالى «قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ» دليلٌ على أنّ الله تعالى هو الذي أعلم نبيّه باستماع الجن إليه، إذ لم يتمكن (ص) من سماع حديثهم للمانع الطبيعي الذي جعله الله تعالى في الإنسان، ولهذا لا بدّ، عقلاً وشرعاً، من ردّ حديث اجتماع الرسول بالجن.

٢ . بناءً على ما سبق، ينكر المعتزلة قدرة الجن على التأثير في حياة الناس، خاصةً في موضوع المرض والشفاء منه، أو التدخل بحياتهم بأي شكل من الأشكال.

٣ . كما ينكر المعتزلة أيضاً إمكانية قيام أحد من الناس بتسخير الجن لمصلحته، مع إيمانهم =

= بما ورد في القرآن الكريم من تسخير الجن لسليمان عليه السلام على سبيل المعجزة الخاصة بسليمان، والمعجزة لا تتكرر، إذ أيّ تكرار لها يسحب عنها ـ وفقاً للمنهج الاعتزالي ـ برهان المعجزة، حتى لو كان تكرارها للنبي نفسه صاحب المعجزة. ذلك أنّ التكرار يحمل شبهة تشير إلى أنّ من ظهرت على يده أكثر من مرة إنما يدرك سراً علمياً فيها يعرفه هو، ولذلك استطاع إظهارها مرة أخرى. والله تعالى لا يجعل معجزاته لأنبيائه موضع الشبهة. وقد تساءل بعض الناس عن عصا موسى التي تحوّلت إلى حية تسعى ثلاث مرات. والجواب: أنّ المرات الثلاث مترابطة تماماً، فهي مكمّلات لبعضها، ومثل ذلك معجزات عيسى، فهي متعدّدة وبإذن الله. ولا يُفهم من القرآن التكرار وإنما التنوع. قال تعالى: ﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ٤٩).

٤. ينكر المعتزلة إمكانية معرفة الجن الغيبَ، والقرآن الكريم أنكر ذلك بوضوح بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ (سبأ: ١٤) فالجن لا يعلمون الغيبَ، كُلاً أو بعضاً، فها هم في زمن سليمان مسخّرون على خلاف طبيعتهم، وكانوا في أشدّ الشوق للعودة إلى طبيعتهم، ويموت سليمان وهم يشاهدونه قائماً ومع ذلك لا يعلمون أنه ميت.

٥. ينكر المعتزلة وجود قدرة للجن للتحوّل أو التمثل بالناس أو الحيوانات. وهو أمر ليس عليه دليل قاطع، بل مجردُ إدّعاء. وكلمة الجنّ تعني الستر، أي عدم الظهور... والمشاغبة بأحاديث الآحاد لا ينهض دليلاً وحده، فكيف إذا تعارض مع القرآن الكريم وتعارض مع الحسّ الظاهر!؟

٦. ينكر المعتزلة إمكانية التزاوج بين الجن والإنس، والقول بهذا الأمر الخارق للسنن الكونية جاء بسبب فهم خاطئ للآية ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ﴾ (الجن: ٥٦). فليس في الآية دليل على التزاوج، ذلك أنَّ الآية لم تأت لهذا الموضوع بل نزلت لموضوع آخر هو إثبات العذرية وتأكيدها. وعليه لا بدّ من ملاحظة التركيب القرآني (لم يطمثهن إنسٌ قبلهم) إذ نفى عن الحور الطمثُ الممكن وهو طمث الأنس، ثم أضاف إلى النفي نفياً آخرَ هو نفي الطمث المستحيل. فأتى بفاصل بين الإنس والجان، وهو الظرف [قبلهم]، فالنفي متوجّه للطمث، ولا يستدلّ بدليل الإشارة على إمكانية الطمث من الجن، إذ لو كان ذلك هو المراد لكان من الضروري عدم الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه، أي لكان النص [لم يطمثهن إنس ولا جان قبلهم]. ولم يأت الفصل للغرض البديعي، ذلك أنَّ البديع في القرآن تابع للمعنى وليس غرضاً بحدّ ذاته. ومن يقل بذلك فإنه يتّهم القرآن في أسلوبه. ومن ذلك يتبين استحالة طمث الجن للإنس في الدنيا والآخرة.

٧. وأمر آخر، إنَّ الحيات ليست من الجنّ، لا جنساً ولا تمثلاً، واستعمال اسم الجان =

= للحيّة، أو بالحقيقة لنوعٍ معين من الحيّات، وهي الحيّات الرفيعة السريعة الحركة، وهي بالتالي لا تستقر بمكان، جاء لها من العرب على سبيل التوسّع، أي المجاز، لتشابهٍ بينها وبين الجنّ. ولذلك فالحيّة التي في البيت أيام بيوت الطين لا علاقة لها باسم الجنّ، إذ يقال لها في اللسان العربي: عامر وعامرة. قيل: سُمّيت عوامر لطول عمرها. ولا عبرة في حديث «إنّ لهذه البيوت عوامر فإذا رأيتم منها شيئاً فحرّجوا عليها ثلاثاً»، فالحديث حديث آحاد ولا يقبل بأمور عقائدية. هذا من جهة، ومن وجهٍ آخر مسألة تطبيقه، فالعجب من القائلين بصحة هذا الحديث، مع الامتناع عن تطبيقه في حياتهم، إذ من المعلوم من حالهم أنّهم يسارعون إلى قتل حيّات البيوت مباشرةً دون تحريج عليها.

٨. يؤكّد السادة المعتزلة - من خلال تطبيقهم الصحيح للنصوص: نصوص الشعر ونصوص الواقع - أنّ الجنّ في حالة عجز مزرية؛ فلا يمكنهم إمراض أحد، ولا شفاء مريض، ولا قتل فرد من الأحياء، ولا إحياء ميت؛ فكلّ هذه سنن كونية تخضع لنظام كوني دقيق صنعه رب الكون. ومن المعلوم - عقلاً وشرعاً - أنّ الكون مبني على ثنائية الأسباب والمسببات، فمن عرف الأسباب واستخدمها تمكّن من الوصول إلى المسببات، سواء كان ذلك في قانون الطبيعة ذي الصفة السببية الصارمة أم كان في الإنسان باستعمال سنن النفس والآفاق. أمّا قدرات الأحياء الأخرى أو العوالم الأخرى فهي قدرات مختلفة عن قدرة الإنسان اختلافاً كلياً، فقدرات الإنسان ملائمة لكونه مستخلَفاً.

٩. الجنّ ليس مستخلفاً، فهو عاجز عن استعمال الأشياء، أو تغيير حقائقها، أو تشكيلها أو تصنيعها، أو نقلها من مكانها إلى مكان آخر. والعفريت من الجن الذي قال للنبي سليمان (قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أنْ تقوم من مقامك وإني عليه لقويٌّ أمين) فهو لم يقل ذلك بسبب قدرته الذاتية، بل بسبب المعجزة، وهي تسخيره للنبي سليمان، قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (النمل: ١٧) والآية مصرّحة بأنواع ثلاثة من الجنود للنبي سليمان، من الجن والإنس والطير، و[من] هنا للتبعيض، أي بعضهم من الجن وبعضهم من الإنس وبعضهم من الطير. وعلى فرض أنها للبيان، فهي لا تفيد الاستغراق لكلّ الجنس، بل مجرد طائفة من الجنس، وأُضيف إلى ما خصّ الله سليمان به مظهر واحد من مظاهر الطبيعة هو الريح، وهؤلاء الجند المحشورون هم فاعلون بقدرة الله القادر، أي أنَّ الأمر معجزة، ومثل ذلك الريح المسخَّر.

١٠. الجن لا يدخل جسم الإنسان، ولا يقدر على لمسه، ولا يدخل عقل الإنسان أو دماغه أو قلبه أو صدره أو أيّ جزء من جسم الإنسان، فالجن عالَمٌ مفصولٌ تمام الفصل عن الإنس.

١١. إنَّ أحاديث الجن التي وردت في أمهات كتب الحديث، وفي غير الأمهات، كلها بلا استثناء، في محل التعارض مع القرآن الكريم، فالواجب ردُّها، ومن لم يَرُدَّها وجعَلها من إيمانه فإنّه يكون قد أقام إيماناً على الأسطورة، لا على الخبر الظني، إذ الخبر الظني، لا بدّ أن لا يعارض القرآن، ولا يعارض المعقول الحسي، وليس فيه دعوة لقبول الجور، ولا ينافي التنزيه، أي لا بدّ أنْ يكون موضوعه ممكناً على الاحتمال.

خائنة العهد

مات رجل وترك خمس بنات مع أمهن، واحتارت الأم في توفير ما يسدّ جوعهن، فنصحتها إحدى جاراتها بأن تعلمّهن الخياطة ليكسبن من جهدهن، ولكن المرأة قالت لجارتها:

- ومن أين لنا بثمن مكنة خياطة؟

فقالت لها جارتها:

- علّميهن الغَزْل فهو لا يكلف إلاّ إبرة وخيطاً.

وبالفعل اشترت الأم خمس إبر وخمس مكرات خيوط وأخذت تعلّم بناتها الغزْل، وبعد مدة أتقنّ الغزل فكنّ يغزلن الكوفيّات والطرّاحات وأغطية المخدّات فتقوم أمهنّ بحمل ما غزَلنَه وتعرضه في السوق وتبيعه وتتصرف بتلك النقود لتدبير شؤونهن. وذات يوم قلنَ لها:

- لم نذق طعم اللحمة منذ زمن وقد تاقت نفوسنا لتذوقها.

فقالت لهن:

- ما نكسبه لا يكفي لشراء اللحم.

فقالت أصغرهن:

- لو تشتري لنا رأس خروف فالرأس به اللحم والدسم.

وعدتهن خيراً وخرجت إلى السوق وباعت مشغولات بناتها واشترت احتياجاتها الأساسية، لكنها لم تتمكّن من شراء رأس خروف فأخذت تلوم نفسها قائلةً:

- بناتي يقضين فترات طويلة في غزل المنسوجات ولا أحقّق لهنّ رغبتهن في رأس خروف!

وكلما خطت صوب بيتها أحسّت بقدميها تثقلان ولا تطاوعانها في السير، فعادت إلى السوق لتعيد ما اشترته وتشتري رأس خروف، لكنّ الباعة رفضوا أن يُعيدوا ما اشترت فعادت كسيفة. وبينما هي تسير في طريقها رأت على بعد رأس خروف تخرّ من حنجرته دماء طازجة، فالتقطته من الأرض وقالت:

- الله لا يضيّع عبيده ويرزقهم من حيث لا يحتسبون.

وحملت رأس الخروف وعادت إلى بيتها فوجدت بناتها نائمات وقد أنهكهنّ التعب. حملت رأس الخروف ووضعته جانباً وأخذت تتهيّأ للنوم، وفجأةً سمعت حركةً في داخل بيتها فنهضت من رقدتها واتّجهت صوب تلك الحركة وذهلت عندما رأت شاباً جميلاً يقف في وسط الغرفة، وأخذتها المفاجأة قبل أن تستغيث.

قال لها الشاب:

- استريني يسترك الله.

ظنّت المرأة أنه جاء إلى إحدى بناتها فصاحت به:

- من أنت؟

فقال لها:

- أنا رأس الخروف، وأنا ابن ملك الجنّ، في النهار أتحوّل إلى رأس خروف وفي الليل أعود إلى حالتي الطبيعية...

فأخذت منها الخوف مأخذه وتلعثم لسانها وراحت تعتذر له قائلةً:

- لم آخذك من الطريق إلاّ أنّ بناتي اشتقن لأكلة لحمة راس ولم يكن عندي مال اشتري به لهنّ لحمة راس، وعندما وجدتك قلت: الله لا يضيّع عبيده ويرزقهم من حيث لا يحتسبون.

فقال لها:

- لا تراعي وسوف أعطيك من الأموال ما يكفيك مدى الدهر بشرط أن تلبّي لي طلبي.

فقالت له:

- وما هو طلبك؟

فقال لها:

- أولاً سوف أحكي لك حكايتي.

فقالت له: وما هي حكايتك؟

فبدأ بسرد حكايته قائلاً:

- أبي ملك الجن ولم يرزق بأبناء منذ ألف سنة، وبعد هذا العمر كله ولدت له في آخر العمر فأحبّني ودلّلني دلالاً كبيراً وظلّ يرعاني ويعلّمني حتى نشأت قوياً لا أهاب أحداً. وكان لأبي عدوّ من الجن يتربّص بي، وعندما لم يقدر على إيذائي تسلّط عليّ وظلّ يتّصل بالسحرة والمشعوذين حتى وصل إلى أكبر السحرة؛ فعقد ونفث له وعلّمه جملاً وأعطاه خروفاً مليحاً وقال له: قدّمه هدية إلى ملك الجن وتمتم بقولك: زخ نيش ثيف[1]، وجاء بالخروف وهو يتمتم بجملته تلك، وقال لأبي: «هذا الخروف لا يذبحه إلاّ ملك».

---

(١) نلحظ أنّ الحروف التي علّمها الساحر هي من الحروف المعجمة، ولا نعرف هل الراوي على علم بهذا أم أنّ الحكاية تمّ تناقلها بنفس التيمة ذات الأثر الفاعل، كما يدّعي البعض، فالحروف المعجمة مثلاً لها الحظوة عند البوني مؤلف كتاب شمس المعارف، فهو يرى أنّ فيها من الأسرار والإضمارات الشيء الكثير، وقد أفرد لها فصلاً ذكر فيه أنّ الحروف المعجمة هي أصول الكلام وأساسه وبها يرتفع بناؤه، ويقول: واعلم أنّ للأعداد أسراراً كما للحروف آثاراً، وأنّ العالم العلوي يمدّ العالم السفلي، فعالم العرش يمدّ عالم الكرسي وعالم الكرسي يمدّ بقية الأفلاك التي تؤثر في البشر. (شمس المعارف)

والحروف إما معجمة أو مهملة، وجاء هذا التصنيف بعد مرحلة التنقيط وكي لا تتداخل الحروف في ذهنية القارئ فلم تكن منقطة. وكان القارئ العربي يعرف وصف الحرف من غير تنقيط، ومع اتّساع رقعة العالم الإسلامي وانتشاره كلغة (لغة القرآن ولغة العرب) ودخول الأعاجم الإسلام استوجب التنقيط للتمييز، فعندما يقال حروف مهملة يُقصد الحروف التي لَيس لها نقاط وهي: ا ح د ر س ص ط ع ك ل م هـ و. أما الحروف المعجَمة فهي الحروف التي يأتي فيها تنقيط، وهي: ب ت ث ج خ ذ ز ش ض ظ غ ف ق ن ي.

وظلّ العلماء يؤكدّون حين يذكرون الكلمة أنها منتمية إلى كذا أو كذا؛ فمثلاً يُقال بالصاد المعجمة ويقصدون (= ض) أو المهملة ويقصدون (= ص) حرصاً منهم على الدقة ولئلا يُساء فهم المعنى عند القراءة. وكان ذلك على زمن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، رحمه الله تعالى، ثم تلى ذلك التقسيم الإضافي لتمييز أنواع التنقيط: الموحّدة، أي بنقطة واحدة، إما موحدة تحتيّة: مثل «ب»، أو موحّدة فوقيّة مثل: ف ن، أو مثنّاة، يعني بنقطتين: إما مثنّاة تحتيّة (نقطتان من تحت) وهي: ي، أو مثنّاة فوقيّة (نقطتان من فوق) وهما: ت ق، أو مثلثة فوقية (ثلاث نقط من فوق) وهي: ث.

=

قدّم أبي الخروف لكلّ شباب الأسرة لذبحه فلم يقدر على ذبحه أحد، فقد كان الرجل يتمتم بتلك الكلمات ويزيد عليها كلّما أحسّ أنّ هناك من سينهي المهمّة، فيجفل الخروف وينهض، وعندما لم يبق إلاّ أنا تقدّمت للخروف ومررت عليه بشفرة فانفصل رأس الخروف في الحال[1]. فضحك عدو أبي وقال له: «ستُحرم الآن من ولدك وسيكون نهاره عذاباً». فكنت في الليل ابن ملك وفي النهار رأس خروف مقذوفاً في الطرقات.

وفي الليل عندما ينام الناس أخرج من مملكة أبي وأظلّ سائراً أتنزّه وأظلّ أتنقّل من مكان لآخر، فإذا ظهر النهار تحوّلت إلى رأس خروف وأظلّ في مكاني حتى يأتي الليل وأعود إلى حالتي الطبيعية وأكمل مغامراتي ومشاهداتي لما في الدنيا من غرائب وعجائب، وفي مسيرتي رأيت عجوزاً تحمل صخرة على ظهرها وأحببت أن أساعدها فركضت وحملت عنها الصخرة فإذا بها تبكي وتنوح وتدعو عليّ بالويل والثبور وعواقب الأمور، فاستغربت من مقابلتها صنيعي بجفاء وقلة المعروف، فجلست إليها وقلت لها: «يا عمة، لقد فعلت بك صنيعاً لو فعلته مع سواك لشكرتني، فما هي قصتك حتى تردّي الجميل بالنكران والجحود؟» فأخذت تبكي وتنوح وتصيح بي: «ربّي يقتصّ منك برؤية قوت القلوب... ربّي يقتصّ منك برؤية قوت القلوب» وأخذت تحاول رفع الصخرة على ظهرها مرّة أخرى فلم تقدر،

= وثيمة القلب أو المسخ ترد في كثيرٍ من الأساطير، وهذا ما حدث في أسطورة جلجامش حيث «تتحدث الملحمة عن محاولة الإلهة عشتار وصال جلجامش، بعد أن عاد وخلّه انكيدو من مغامراتهما التي نحرا بها «خمبابا» الشيطان الذي يحرس غابة الأرز. ترنو الإلهة عشتار ربة الجمال والولادة والخصب إلى جمال جلجامش «تعال يا جلجامش وكن عريسي»، لكنه يصدّها ويعيب عليها هنّاتها وتعدّد عشاقها الذين مسختهم على مذبح شهوتها، في «تموز» إلى «طائر الشقراق» الذي لا يزال يندب جناحه إلى «ايشولنو» بستاني أبيها الذي مسخته ضفدعاً». (طه باقر: بحثاً عن الأسطورة الخالدة؛ وتركي الربيعي: الريادة في عالم مجهول، مجلة نزوى، العدد التاسع والثلاثون)

(1) من العادات العربية أنّ شخصاً لو ذبح خروفاً ولم يخرج الخروف لسانه استعدّ الذابح للموت وكتب وصيته. وتفسيرهم أنّ الكبش حين يخرج لسانه فهذا يعني الاستتباع، أي أنّ الذابح سوف يذبح كبشاً آخر، فإذا لم يخرج الكبش لسانه فهذا يعني أنّ الذابح لن يذبح كبشاً بعده. وكان كل فرد يذبح كبشه ومن العيب أن يذبح له.

وطلبت مني أن أساعدها على حمل الصخرة فانحنيت لرفع تلك الصخرة فلم أقدر على حملها، وأخذت أجاهد جهاداً فعجزت عن رفعها، فجلست بجوار الصخرة ألهث... وقلت لها: «أسألك بربّ العباد أن تخبريني بقصة هذه الصخرة» فقالت: «هذه الصخرة ولدي، قد أحبّ قوت القلوب وخرج ليتزوّج بها، وفي طريقه استعان برجل للوصول إلى قصر قوت القلوب، فقال له: قوت القلوب من نصيب رأس الخروف ولن يصل إليها إلاّ بعد أن تسودّ هذه الشعرة، وإذا كنت رأس الخروف فخذ هذه الشعرة وسر إلى بلدتها، وعليك أن تجدَّ في سفرك قبل أن تبيضّ هذه الشعرة؛ فإذا ابيضت فأنت هالك وسوف تتحوّل في الحال إلى صخرة تقذف في بلدك، وعلى من يحبّك أن يسير بك سنتين من دون أن تسقط عن ظهره ولو لحظة، وإذا سقطت فعلى من يحملك أن يعود من جديد[1]. وقد مضيت أسير به سنتين إلا ثلاث ليال فإذا بك تزيحه عن ظهري، وعليّ الآن أن أعود للسير به سنتين إضافيتين... لا سامحك الله أبداً».

وقع كلامها في داخلي كما يقع الحجر في المياه الساكنة، فارتعدت وتحرّك قلبي هياماً بقوت القلوب، وتركت تلك العجوز بعد أن اعتذرت منها قائلاً: «ما حدث مقدّر ولا رادّ للمكتوب» ومنحتها أموالاً وغادرتها وحديثها يتردد في داخلي.

ظللت أسال عن قصر قوت القلوب في كلّ الأرض التي مشيت فيها، وكلما سألت عنها سمعت جواباً واحداً: «من يصل لقوت القلوب إلا رأس خروف».

وذات يوم، وبينما كنت أتمشّى في بلادكم، دخل عليّ النهار فتحوّلت إلى رأس خروف وكنت بوسط الطريق، وجاء كلب أسود[2] يلعق من دمائي وينهشني

---

(١) وهذا تذكير بأسطورة سيزيف... ... ...

(٢) اكتفت الحكاية بالقول: كلب أسود، ولم تشر إلى أنه الجنّي الذي تسبّب في سحر الشاب ومسخه إلى رأس خروف، وربما يكون هذا إشارة إلى الإيمان المبطّن بأنّ الكلاب السوداء هي من الجان، ويقول الجاحظ في كتاب الحيوان: عن أبي عنبسة عن أبي الزبير عن جابر قال: أمرنا رسول اللّه صلى الله عليه وسلم بقتل الكلاب، حتى أنّ المرأة التي تقدم بكلبها من البادية فنقتله، ثم نهانا عن قتلها وقال: عليكم بالأسود البهيم ذي النكتتين على عينيه؛ فإنه شيطان.

وعن أبي الزبير عن جابر قال: أمرنا رسول اللّه صلى الله عليه وسلم بقتل الكلاب، فكنّا =

نهشاً وليس لي حول ولا قوة للتخلص من أنيابه وكدت أهلك فإذا بفتاة لم أرَ أجمل منها ولا أكمل قد ظهرت من أول الشارع وقد حفّت بها الفتيات وتقدّمها العبيد، وعندما رأت الكلب ينهش عظامي صاحت بعبيدها: «اقتلوا هذا الكلب الأسود فهو ينهش رأساً لن يقدر عليه، فإما أن يكون مارداً أو يكون سارقاً، أبعدوه فربما خطف من إنسان غذاءه. . .» فانطلق العبيد خلف الكلب الأسود هامّين بقتله فهرب منهم، واستكمل الموكب مسيرته، وقد سمعت إحدى وصيفاتها تقول لها: «يا قوت القلوب متى يأتي من ترَيْنه في منامك؟» فقالت: «رأيته بالأمس في منامي يقول أنا ببابك وقد اسودّت الشعرة البيضاء».

وقد ملأت قلبي هياماً بها. . . وهذه قصتي وطلبي عندك أن تذهبي إلى قصر قوت القلوب وتقولي لها:

- مَن ترينه بمنامك جاء يطلبك زوجةً له.

فقالت له المرأة:

- أنا لا أقدر أن أذهب إلى بيت الملك وأطلب منه أن يزوّج رأس خروف بقوت القلوب التي شغلت الملوك والأمراء.

فقال لها:

- اذهبي وقولي لقوت القلوب: اسودّت الشعرة البيضاء، وسوف توافق.

= نقتلها كلّها حتى قال: إنّها أمة من الأمم؛ فاقتلوا البهيم الأسود ذا النكتتين على عينيه؛ فإنه شيطان.

وعن عبد اللّه وأبو بكر ابنا نافع عن ابن عمر، ونافع عن أبي رافع قال: أمرَني رسول اللّه صلى الله عليه وسلم أنْ أقتلَ الكلاب، فكُنّا نقتُلُها؛ فانتهيت إلى ظاهر بني عامر، وإذا عجوزٌ مسكينة معها كلب وليس قربها إنسان، فقالت: ارجعْ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فأخبره أنَّ هذا الكلبَ يُؤنِسني، وليس قربي أحد، فرجع إليه فأخبره، فأمر أن يقتلَ كلبها فقتله. وقال في حديثٍ آخر: إنّه لمَّا فرَغ من قتل كلاب المدينة وقتلِ كلْب المرأة، قال: الآنَ استرحْت، قالوا: فقد صحَّ الخبرُ عن قتل جميع الكلاب، ثمَّ صحَّ الخبر بنسخ بعضه وقتل الأسود البهيم منها، مع الخبر بأنّها من الجنّ والحنّ، وأنَّ أمّتين مُسِختا، وهما الحيّات والكلاب.

قال: ومن أعاجيب الجعل أنّه يموت من ريح الورد، ويعيش إذا أعيد إلى الرَّوث، ويُضرب بشدَّة سوادِ لونِه المثل.

ذهبت المرأة إلى قصر الملك وطلبت رؤية قوت القلوب، وعندما وقفت أمامها سألتها:

- ما الذي جاء بك؟

فقالت لها المرأة:

- اسودّت الشعرة البيضاء!

اهتزّت قوت القلوب وقفزت تقبّل المرأة وتقول لها:

- مَن الذي أخبرَك؟

فقالت لها:

- شاب جاء لبيتي وقال لي أن أخبرك بهذا الخبر.

فمنحتها هدية من جواهر ولؤلؤ وذهب وقالت لها: أخبريه أنّي أنتظر.

عادت المرأة إلى بيتها فوجدت رأس الخروف مرمياً داخل مطبخها والدمّ يسيل من حنجرته، كما رأته أول مرة، فقالت له:

- تبلّغك قوت القلوب السلام وتقول فرغ صبرها من انتظارك.

فأخذ يتقافز وتهطل دماؤه في كلّ مكان، وفي الليل عاد شاباً وسيماً وقال للمرأة:

- خذي هذه الأموال واطلبي من الملك أن يزوّجني بابنته.

فقالت له:

- لا أستطيع أن أقف أمام الملك وأطلب ابنته زوجةً لك.

فقال لها:

- قبل أن تذهبي إلى الملك أخبري قوت القلوب وسوف يوافق.

ذهبت المرأة إلى قوت القلوب وقالت لها:

- جئت لخطبتك وكلّ ما أخشاه أن يقطع الملك رأسي لتجرُّئي على طلب يدك زوجةً لمن بعثني.

فقالت لها قوت القلوب:

- لا تخافي، سوف أجعل أبي يوافق على طلبك.

وتقدّمت خاطبةً فوافق الملك على خطبتها ورغب في رؤية العريس، وعندما أخبرت رأس الخروف برغبة الملك قال لها:

- في الصباح احمليني إلى الملك وإيّاك أن تخبريه أو تخبري قوت القلوب بحالي.

وافقت وعادت تحمله في يدها، وعندما رأى الملك رأس الخروف صاح:

- تسخرين مني حين تطلبين أن أزوّج ابنتي برأس خروف؟!

انتفضت المرأة وكاد يغشى عليها من الهلع حين سمعت الملك يطلب من سيّافه أن يقطع رأسها، وجاءت قوت القلوب على صراخ أبيها مستفسرةً وقالت له:

- مَن أغضب ملك الزمان؟

فقال لها:

- انظري إلى المرأة التي جاءت لتخطبك... فقد جاءت لتخطبك لرأس خروف؟

فتحت قوت القلوب فمها دهشةً وقالت لها:

- يا عمّة، هل كان حديثك كلّه عن رأس خروف؟

فقالت لها:

- نعم يا ابنتي!

وتابعت قوت القلوب:

- ومن أعطاك الشعرة البيضاء المخلوطة بالسواد؟

فقالت المرأة:

- هذا الرأس، وكان يكلّمني عنك؟

نظرت قوت القلوب إلى الرأس وعرفت فيه ذلك الرأس الذي أنقذته من الكلب الضالّ، فأخذت تفكّر وقالت في نفسها: «هذا هو القدر والمكتوب ولا مفرّ من المكتوب!» ثم قالت لأبيها:

- لا تغضب يا أبي فقد قبلت بالزواج من رأس الخروف.

فقال لها:

- أنت التي طلبك الملوك والأمراء تتزوّجين برأس خروف تسيل دماؤه من كلّ مكان فيه!؟

فقالت له:

- إذا أردت لي السعادة وافق على رغبتي.

كان الملك يحبّها حباً عظيماً ولم يستطع معارضتها فوافق وحدّد يوماً للعرس، وانتشر خبر رأس الخروف وقوت القلوب في كلّ المملكة وتناقل الناس:

- قوت القلوب سوف تتزوج برأس خروف.

وتشفّى فيها أولئك الشباب الذين رغبوا الزواج منها وقالوا:

- تستاهل، فقد رفضت الجميع وعسى أن ينكسر غرورها بمثل هذه الزيجة!

وفي يوم الزواج مدّت الموائد وأقيمت الأفراح في كلّ المملكة وحضر الملوك والوزراء والناس أجمعين لمشاهدة العريس، وقد أعجبوا من الشرط الذي طلبه العريس بأن تقام مراسم الحفل في وضح النهار قبل الغروب...

وقبل الغروب بساعة زفّت الأميرة قوت القلوب لزوجها، وكانت تحمله بيدها والدمّ يسيل على ملابسها البيضاء ويلطّخ يدها وهي تسير راسمةً بسمةً على فمها كي لا يشمت بها من حضر الزواج... وتمّ إيصالها إلى قصرها، وعندما وصلت إلى غرفتها وضعت رأس الخروف على سريرها وانشغلت بالتخفّف من ملابسها، وبينما كانت منهمكة في ذلك التفتت فرأت شاباً جميلاً يجلس مكان الرأس فذُعرت وصاحت به:

- مَن أنت؟

فقال لها:

- أنا زوجُك!

فأخذت تتلفّت إلى مكان رأس الخروف فلم تجده، وتردّدت وهمّت بالصراخ لكنّ رأس الخروف نهض من مكانه وقال لها:

- لقد اسودّت الشعرة البيضاء تماماً.

نظرت إليه مرة أخرى فرأت فيه ذلك الشاب الذي يأتيها في منامها والذي أحبّته وظلّت تنتظره كلّ هذا الزمان، فابتسمت له واقترب منها وضمّها إلى صدره وأخبرها بكلّ ما حدث له، فقالت له:

- الحمد لله الذي جمعنا على خير!

وعاشا حياةً سعيدة لا تكدّرها إلاّ سخرية الناس منها وقولهم:

- زوجة رأس الخروف!

وكلّما أرادت أن تقول لهم «إنّ رأس الخروف ما هو إلاّ شابٌّ في غاية الجمال»

تراجعت وتذكّرت قول زوجها «لو أخبرت بقصتي قبل الأوان فلن تريني»، فصبرت وعاشت مع زوجها عيشةً هنية. . .

وذات يوم تعرّضت مملكة أبيها للغزو وكادت أن تسقط، وبينما هي تبكي رأت رأس الخروف يتجهّز للحرب لابساً ملابس خضراء ومتلثّماً فقالت له:

- إلى أين؟

فقال لها:

- لنصرة عمّي أبو حبيبتي، ووصيتي لك إن ظفرنا أن لا تخبري أحداً بخبري.

وخرج إلى ساحة المعركة يجول ويصول ويفرّق جيوش الغزاة ويردّهم عن قصر عمّه حتى تمكّن من إسقاط قائد الجيش فتناثر الجند في كلّ مكان وولّوا هاربين، بينما كان الملك يرقب ذلك الفارس مع جيشه ويسألهم: مَن هذا الفارس؟ فلا يجد جواباً، وهلّل له الجميع ولم تقدر قوت القلوب على كتمان سرّها فدخلت على أبيها وقالت له:

- تريد أن تعرف مَن هو الفارس الذي أنقذ ملكك؟

فقال لها:

- نعم!

فقالت له:

- هذا زوجي رأس الخروف!

لم يصدّق أبوها الخبر وضمّها على صدره وصرفها، وكان الجميع في انتظار الفارس أن يعود، لكنه لم يعد وانطلق بخيله حتى ابتلعه المدى. انتظرت قوت القلوب أن يعود زوجها لكنه لم يعد؛ فتذكّرت وصيته وندمت ندماً كبيراً. وبعد ثلاث ليال أخبرت أبيها بكلّ القصة فندم لندمها، وقالت له:

- علي أن أخرج للبحث عن زوجي وأطلب منك الأذن أن تسمح لي بالخروج.

فأذن لها ومنحها من المال الكثير ووضع في خدمتها مئة عبد يسيرون على أمرها حتى لو قالت لهم: ارموا أنفسكم في النار، وخرج لوداعها؛ فخرجت مع قافلتها وظلّت تسير في الصحراء حتى وصلت إلى وسطها، فنصبت خيامها هناك وأرسلت عبيدها لإغاثة أيّ هالك وجلبه إلى هذه الخيام، وكان شرطها لإغاثة أيّ

ملهوف أن يقصّ عليها أغرب حكاية مرّت به. . . وكانت يومياً تجلس لتسمع الحكايات من الناس المتوافدين على مكانها، وكانت تسجّل كلّ الحكايات التي تسمعها في لوحٍ كبير. وبعد أن سجلت ألف حكاية أيقنت أنّها لن تصل إلى زوجها فأمرت عبيدهاً بتطبيق الخيام في صبيحة اليوم التالي والعودة إلى قصر أبيها، وجلست في مكانها دامعة العين. وبينما هي على حالها رأت صبيّتين تتقدّمان نحو خيامها تطلبان الماء، فقالت لهما:

- لا نقدّم شيئاً هنا إلاّ بعد سماع حكاية غريبة.

فقالت أكبرهما:

- مررنا بحكاية لها العجب.

فقالت لهما:

- احكياها لي.

فقالتا:

- امنحينا رشفةً من الماء؛ فإن طاب لك ما نحكيه فأكرمينا وإلاّ دعينا وقد بللنا حلوقنا الجافة.

فأمرت لهما بكأسٍ صغيرة من الماء ارتشفاها بالتقاسم وجلستا تحكيان قصتهما:

- خرجنا من بلدتنا بعد أن قتلنا مائة رجلٍ، فقد اشترطنا أن يتزوجنا أخوان وأن نعيش سوياً، وكلّما تزوجنا بأخوين طمع كلٌّ منهما بزوجة أخيه فنقتلهما ونواري جثتيهما بداخل البيت ونخرج نهيم في الأرض علّنا نجد زوجين قانعين بما رزقهما الله. وفي طريقنا أصابنا الجوع والعطش كحالتنا التي نحن عليها، وأخذنا نتلفت علّنا نجد شيئاً نشربه أو نأكله فوجدت أختي رأس خروف مرمياً بالأرض ودماؤه تخرّ من حنجرته وكأنه ذُبح للتوّ، فأخذنا نتلفّت علّ ساكناً قريباً منّا، وبحثنا في كلّ مكان فلم نجد أحداً، فقررنا أن نشوي رأس الخروف ونأكله ليسدّ جوعنا، فهيّأنا النار وقلنا: نتدفأ بها ونشوي الرأس عليها وتبعد عنا الحيوانات الجائعة. ومع الغروب انتفض رأس الخروف وغبر المكان ومُدّت مائدة طعام كبيرة وقد جلس شاب وسيم أمام ما لذّ وطاب من المأكل والمشرب دامع العين، وتناول سكيناً وقطع تفاحةً خمس قطع، وقذف بقطعةٍ باتجاه الشمال قائلاً: «هذه لك يا ريح الشمال، وهذه

لك يا ريح الجنوب، وهذه لك يا ريح الشرق، وهذه لك يا ريح الغرب، وبقيت معه القطعة الخامسة رمى بها عالياً وهو يصيح. . . وهذه لقوت القلوب خاينة العهود» وظلّ يبكي حتى أغشي عليه. فجلسنا إلى مائدته وأكلنا وشربنا، وعندما أفاق أخبرنا قصته فعلمنا أنّ سحره يزول بشرطين: أن تتزوّجه امرأة وهو على هيئة رأس الخروف؛ وأن تبحث عنه إن غاب، وهي تردّد:

يا شعرة يا سوداء
طال الغياب
وحان اللقاء

فإن وجدت رأس الخروف عليها أن تضع سكيناً في بلعومه وتردّد:

يا شعرة يا سوداء
طال الغياب
وحان اللقاء
شيب شيب
ينيب ينيب[1]

عندها سيتخلّص من سحره. وقد طلبنا من رأس الخروف أن يدلّنا على بلد قوت القلوب لنخبرها فأبى وقال: إن لم تخرج بنفسها فلن ينفكّ سحري.

فرحت قوت القلوب بحكايتهما وقالت لعبيدها:

- اسقوهما حتى ترتويا وأعطوهما ما تريدان من المال والجواهر ولتبقيا عندكم حتى أعود. وطلبت من الفتاتين أن تخبراها بمكان رأس الخروف فوصفتا لها المكان، فخرجت من حينها وظلّت تمشي سبعة أيام، وعندما وصلت إلى المكان الذي وصفته لها الفتاتان جلست تبحث عن رأس الخروف، تصعد جبالاً وتهبط أودية وهي تردّد:

يا شعرة يا سوداء
طال الغياب
وحان اللقاء

(١) نلحظ هنا أيضاً أنّ الحروف معجمة.

ومن كثرة ترديدها للجملة جفّ حلقها وزاغت عيناها، فتماسكت وواصلت سيرها وبحثها، ودخل عليها الليل فقالت في نفسها: «أبيت الليلة هنا وفي الصباح أواصل بحثي» وقبل أن تسترخي سمعت نواحاً وبكاءً شديداً؛ فتحرّكت صوب الصوت فرأت شاباً يجلس أمام مائدة مُدّ عليها ما لذّ وطاب من المأكل والمشرب، وعرفت فيه زوجها وحبيبها، وكان يجلس دامع العين وقد تناول سكّيناً وقطّع تفاحةً خمس قطع وأخذ ينثرها في كلّ الاتجاهات وهو يقول: «هذه لكل يا ريح الشمال، وهذه لك يا ريح الجنوب، وهذه لك يا ريح الشرق، وهذه لك يا ريح الغرب. وبقيت معه القطعة الخامسة رمى بها عالياً وهو يصيح... وهذه لقوت القلوب خاينة العهود» وأخذ يهتز في مكانه. فكّرت في أن تركض إليه وتضمّه وتعتذر له، لكنّها تذكّرت أنّ عليها تخليصه من السحر، كما حكت لها الفتاتان، فمكثت في مكانها لا تبرحه وعيناها على حبيبها وزوجها، ومع أول خيوط الشمس انتفض الشاب كذبيحة تذبح وأخذ يرفس الهواء بقوة وتصاعد دخان وتحوّل رأس خروف مرمياً في مكان الشاب يشخب بالدم وتخرّ الدماء من حنجرته وكأنه ذُبح للتو، فأسرعت على عجل ووضعت خنجراً في بلعومه فهطل الدم غزيراً وانتفض في يدها فصاحت:

يا شعرة يا سوداء

طال الغياب

وحان اللقاء

شيب شيب

ينيب ينيب

طفر الرأس من بين يديها وتصاعد غباراً إلى عنان السماء وانجلى عن شابٍّ وسيم عرفت فيه زوجها، فظهرت له معتذرةً تقبّل رأسه، ففرح بها وسامحها، وطلبت منه أن يصحبها إلى بيت أبيها لتكمل عملاً نذرته، وبعدها تتبعه أينما يريد، فوافقها وسارت إلى أن وصلت إلى خيامها وعبيدها ووجدت تلك الفتاتين وقالت لهما:

- لقد قدّمتما لي خدمةً لن أنساها وارتأيت أن أكافئكما على معروفكما معي. وسارت هي وزوجها وخدمها إلى قصر أبيها، وقبل أن تصل أرسلت الرسل لإخبار

أبيها بمقدمها فاستقبلتها كلّ المملكة التي رأت زوجها والفارس الذي أنقذ المملكة من الغزاة، وبعد أن سلّمت على أبيها توجّهت إلى أخويها وقالت لهما:

- هاتان فتاتان، وأريد أن أزوّج كلّ واحدة منهما بواحدٍ منكما على أن تصوناهما.

وافق أخواها وتزوّجا بتلك الفتاتين، وبعد الأفراح والليالي الملاح قالت لزوجها:

- أنا رهن أمرك أينما أردت سرت معك.

وعاشت مع رأس الخروف وخلّفا صبياناً وبنات.

رواية حامدة حمدان

ضيف الله

توفي شخص وكان بعيداً عن أداء واجباته الدينية ويأتي المحرّمات في كلّ حين، فأساء الناس الظنّ به وجزم كثيرون أنّه مقدم على عذاب أليم، وعندما مات أدّوا عليه الصلاة وهم مستكثرون أن يقوموا بهذا، وكان إمام المسجد يشعر بحرج أثناء الصلاة عليه لمعرفته بسيرته المعوجّة، فأدّى عليه صلاة الميت على عجل ولديه يقين داخلي بأنّ ملائكة جهنم تنتظر أن يدسّ جسده في القبر كي يلقى صنوف العذاب، وكان هذا شعور بقية من حضر الصلاة، فما إن خرجت جنازته من المسجد حتى تفرّق المشيّعون ولم يسر في جنازته إلاّ قلّة قليلة من أهل البلدة، وفي ليلة وفاته حلم به إمام المسجد ورآه في أجمل صورة[1]، تحفّ به حور العين ويتنقّل بين أنهار الجنة ونعيمها، وبينما كان إمام المسجد ينظر إليه بدهشة سمعه يقول له:

---

(١) من أهم الأشياء في حياة الإنسان الأحلام، ولا يجوز أن يكون تفسيرها اعتباطياً، بل لذلك أسباب وقواعد خاصة بها يجب اتّباعها.
وابن سيرين يسوق في ذلك حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلّم أكّد على صحة إسناده. يقول الحديث: «إنّ هذا العلم (علم تفسير الرؤيا) دين، فانظروا عمّن تأخذون دينكم»، وهكذا ورد في حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني.
ويرى علماء تفسير الرؤيا أنّ هذا العلم أعطاه الله آدم، ثم أعطاه آدم ابنه شيث، فانتقل إلى أنبياء الله ورسله، ثم إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلّم، ثم إلى الثقات من أمته. (آنّا ماري شيمل: أحلام الخليفة، الأحلام وتعبيرها في الثقافة الإسلامية، منشورات دار الجمل)

- أنا في عليين.

فقال له:

- كيف تكون في عليين وقد كنت تأتي المحرمات ولم تكن تصلّي بانتظام.

فردّ عليه:

- إذا أردت أن تعرف اسأل فلاناً.

وكان هذا الـ«فلان» دائم السفر ولا يحضر إلى المسجد إلاّ في أوقات متقطّعة، لذلك خرج إمام المسجد يبحث عنه لأيام من غير أن يعثر عليه. وفي يوم الجمعة لمحه بين المصلّين، وبعد انقضاء الصلاة ذهب إليه وسأله:

- ماذا تعرف عن فلان (المتوفى).

فردّ عليه:

- لا أعرف عنه شيئاً!!

- ألم تكن تسمع ما كان يفعله وما يرتكبه من محرّمات؟

- تعوّدت أن لا أتبع عورات الناس.

فقال إمام المسجد:

- كان فلان (الميت) يأتي المحرّمات ولا يصلي بانتظام.

وقصّ عليه حياة الميت وما كان يقترفه في حياته من آثام وأكمل:

- وعندما مات جاءوا بجنازته فشعرت بتحرّج وأنا أصلي عليه، وكنت أجزم أنّ ملائكة العذاب تنتظر وصوله للقبر. وفي يوم وفاته حلمت به ورأيته في أجمل صورة يكون عليها إنسان، ينعم بنعيم الجنة ومن حوله حور العين ويتنقل بين أنهار الجنة سعيداً، وعندما أظهرت دهشتي سمعته يقول لي: «أنا في عليين»، وحينما سألته كيف أصبحت في عليين أشار إليّ أن أسألك، وها أنا أسألك وأنت تقول إنك لا تعرفه... فكيف تفسّر هذا؟

فقال له:

- أذكر أنّي حضرتُ دفنه، وكان يوماً حاراً يشوي الوجوه، فقلت: يا ربّ الأرباب لو كان هذا الميت نزل عليّ ضيفاً في هذا اليوم القائض لأكرمته وأحسنت

استقباله، فكيف به وهو ضيفك يا أكرم الأكرمين.[1]

رواية عبدالعزيز الصفراني ـ جدة

(١) أغلبنا يحصر رحمة الله وفق مقاييسه الخاصة بينما رحمته وسعت السموات والأرض، وكم حملت لنا الكتب أحاديث وقصصاً وعظية تشير إلى اتّساع رحمته جلّ جلاله، وهذه قصة أوردها ابن عساكر في كتاب تاريخ دمشق: يروى أنّ بعض أصحاب الشبلي رآه في النوم بعد موته، فقال له: ماذا فعل الله بك؟ قال الشبلي: أوقفني الله بين يديه وقال: يا أبا بكر، أتدري بماذا غفرت لك؟ قلت: بصالح عملي؟ قال: لا. قلت: بإخلاصي في عبوديتي؟ قال: لا. قلت: بحجّي وصومي وصلاتي؟ قال: لا، لم أغفر لك بذلك. قلت: بهجرتي إلى الصالحين وإدامة أسفاري في طلب العلوم؟ قال: لا. قلت: فهذه يا ربّ هي المنجيات التي كنت أعقد عليها خنصري وظنّي أنك تعفو عنّي وترحمني. قال: كلّ هذه لم أغفر لك بها. قلت: فَبِمَ يا ربّ؟ قال: أتذكر حين كنت تمشي في دروب بغداد فوجدت هرّةً صغيرة قد أضعفها البرد، وهي تنزوي من جدار إلى جدار من شدّة البرد والثلج، فأخذتها رحمةً بها وأدخلتها في فروٍ كان عليك وقايةً لها؟ قلت: نعم! قال: برحمتك لتلك الهرة رحمتُك.
وأمثال هذه القصص مليئة في تراثنا الإسلامي.

الجارية والعابد

كان لأحد العبّاد جارية تعمل لديه لا تعرف من أمور دينها أيّ شيء، تظلّ في خدمة سيدها وسيدتها إلى وقتٍ متأخّر من الليل، وبعد أن تنتهي من عملها تخرج ولا تعود إلاّ بعد وقتٍ طويل، فتنبّه سيدها لغيابها في مثل هذا الوقت، فساورته الظنون وقال في نفسه: «أين تذهب هذه الجارية، لا شك في أنها تذهب لمنكر!» وأضمر على معاقبتها، لكنّه تريث وفضّل معرفة أين تذهب قبل معاقبتها. وبعد أن انتهت من خدمته وخدمة سيدتها تناولت بقجةً وخرجت على عجل، فتبعها سيدها وأخذ يسير خلفها، وكلّما ابتعدت ساورته الظنون وتغلغل يقين بداخله أنّها تسعى لإحداث منكر، وظلّ يتبعها وهي تسير واثقةً حتى بلغت بريّةً تحفّ بها أشجارٌ كثيفة، وهناك خلعت ملابس العمل وفتحت البقجة التي حملتها معها من بيت سيدها وأخرجت ملابس نظيفة فلبستها واستقبلت القبلة وأخذت تصلّي، فكانت إذا سجدت سجد كلّ ما يجاورها من شجر. ذهل سيدها، وبعد أن انتهت ركض باتجاهها يقبّل يدها ويقول لها:

- بأيّ دعاءٍ كنت تدعين الله في صلاتك؟

فقالت له:

- لا أعرف شيئاً كما تعلم يا سيدي.

فقال لها:

- ماذا كنت تقولين أثناء صلاتك؟

فقالت له:

- كنت أقول: أدّيت واجب سيدي وواجب ستّي وذحين أؤدّي واجبك يا ربّي.

فقال لها:

- اذهبي فأنت حرّة لوجه الله ولك ما يقيم حالك ما تبقّى لي من عمر.

رواية لطفي شاهين ـ جدة

اختلاف النية

كان هناك أخوان أحدهما عابد يتعبّد فوق جبل والآخر فاسق يسكن أسفل الجبل، وظلا على هذه الحال زمناً طويلاً، وفي أحد الأيام قال العابد:

- ماذا استفدت من العبادة، كلّ يوم صلاة وذكر دون فائدة وأخي يعيش في نعيم وحبور ويتنعّم بالدنيا ومباهجها... لا بدّ أن أنزل عنده وأعيش حياتي، وعند الموت سألاقي كريماً يغفر لعباده.

وفي الوقت نفسه ندم أخوه الذي يسكن أسفل الجبل وقال مؤنّباً نفسه:

- أنا طول عمري عايش على الذنوب وأخاف أن أموت عليها فتُذهب دنيتي بآخرتي، بينما أخي يعيش عيشةً قانعةً مطمئنّة ينتظره نعيمٌ لا يزول، وكلّ الخير أن أصعد إلى أخي وأشاركه حياته وأتقرّب إلى الله عسى أن يغفر لي ذنوبي.

وفي أثناء صعود وهبوط كلٍّ منهما جاءهما الموت، فكان الناس يمرّون بالذي عُرف بالمعصية ويزدرونه ويقولون: عاش عاصياً ومات عاصياً، بينما يلتفتون إلى العابد ويقولون: عاش عابداً ومات عابداً. وحملوهما وغسلوهما وخرجوا لدفنهما وحفروا قبرين لكلٍّ منهما، فكان قبر العابد يصطلي بحرارةٍ شديدة بينما قبر العاصي تفوح منه روائح طيّبة وتراب أرضه باردة، فقالوا: «لا بدّ أننا أخطأنا؛ فهذا قبر العبد الصالح والآخر قبر أخيه» وعندما حملوا جثة العابد للقبر الذي تفوح منه روائح طيبة تحوّلت روائحه إلى نتن واستعرت أرضه، بينما تحوّل القبر الآخر إلى أرضٍ رطبة باردة تفوح منها روائح كريهة. وظلّوا على هذه الحال لوقت حائرين ينقلون الجثتين بين القبرين، وعندما أعياهم حمل الجثتين قال أعلمهم:

- ادفنوا كلّ واحد في قبره.

فدفنوهما، ووضعوا على قبر العابد أغصاناً خضراء ووضعوا على قبر العاصى غصناً يابساً ومضوا. وبعد أيام مرّوا على القبرين فوجدوا الأغصان الخضراء التي وضعوها على قبر العابد قد تحوّلت أغصاناً يابسة، بينما تحوّل الغصن اليابس الذي وضعوه على قبر العاصي إلى غصنٍ مخضرٍّ ومزهر[1].

رواية أحد المسنين وقد رفض ذكر اسمه ـ جدة

---

(١) هذه التيمة تتكرر بصيغ مختلفة ابتغاء وأملاً في مغفرة الله عزّ وجلّ، وقد ورد عن أَبِي بُرْدَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: لَمَّا حَضَرَ أَبَا مُوسَى الوَفَاةَ قَالَ: يَا بَنِيَّ اذْكُرُوا صَاحِبَ الرَّغِيفِ، قَالَ: كَانَ رَجُلٌ يَتَعَبَّدُ فِي صَوْمَعَةٍ - أَرَاهُ قَالَ-: سَبْعِينَ سَنَة، لاَ يَنْزِلُ إلاَّ فِي يَوْمِ أَحَد، قَالَ: فَنَزَلَ فِي يَوْمِ أَحَد، قَالَ: فَشَبَّهَ أَوْ شَبَّ الشَّيْطَانُ فِي عَيْنِهِ امْرَأَة، فَكَانَ مَعَهَا سَبْعَةَ أَيَّامٍ أَوْ سَبْعَ لَيَالٍ، قَالَ: ثُمَّ كُشِفَ عَنِ الرَّجُلِ غِطَاؤُهُ فَخَرَجَ تَائِباً، فَكَانَ كُلَّمَا خَطَا خُطْوَةً صَلَّى وَسَجَدَ، قَالَ: فَآوَاهُ اللَّيْلُ إلى مَكَانٍ عَلَيْهِ اثْنَا عَشَرَ مِسْكِيناً، فَأَدْرَكَ الإعْيَاءَ فَرَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ مِنْهُمْ، وَكَانَ ثَمَّ رَاهِبٌ يَبْعَثُ إِلَيْهِمْ كُلَّ لَيْلَةٍ بِأَرْغِفَةٍ، فَيُعْطِي كُلَّ إنسان رَغِيفاً، فَجَاءَ صَاحِبُ الرَّغِيفِ فَأَعْطَى كُلَّ إنسان رَغِيفاً، وَمَرَّ عَلَى ذَلِكَ الذِي خَرَجَ تَائِباً، فَظَنَّ أَنَّهُ مِسْكِينٌ فَأَعْطَاهُ رَغِيفاً، فَقَالَ المَتْرُوكُ لِصَاحِبِ الرَّغِيفِ: مَالَكَ، لَمْ تُعْطِنِي رَغِيفِي، مَا كَان لَكَ عَنْهُ غِنَى، قَالَ: تَرَانِي أُمْسِكُهُ عَنْكَ، سَلْ هَلْ أَعْطَيْتُ أَحَداً مِنْكُمْ رَغِيفَيْنِ، قَالُوا: لاَ، قَالَ: إِنِّي أُمْسِكُ عَنْكَ وَاللهِ لاَ أُعْطِيكَ شَيْئاً اللَيْلَةَ، قَالَ: فَعَمَدَ التَّائِبُ إلى الرَّغِيفِ الذِي دَفَعَهُ إِلَيْهِ، فَدَفَعَهُ إلى الرَّجُلِ الذِي تَرَكَ فَأَصْبَحَ التَّائِبُ مَيْتاً، قَالَ: فَوُزِنَتِ السَّبْعُونَ سَنَةً بِالسَّبْعِ اللَّيَالِي فَلَمْ تَزِلْ، قَالَ: فَوُزِنَ الرَّغِيفُ بِالسَّبْعِ اللَّيَالِي، قَالَ: فَرَجَحَ الرَّغِيفُ، فَقَالَ أَبُو مُوسَى: يَا بَنِيَّ اذْكُرُوا صَاحِبَ الرَّغِيفِ». (أخرجه ابن أبي شيبة (٧ / ٦١)، قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ١٧٣): وقد صحّ من رواية أبي بردة. ا. هـ. وقال الشيخ أبو اسحق الحويني: إسناده صحيح).

رجل من أهل الجنة

يقال إن أحد الأشخاص من أهل تونس كان نائماً وسمع في نومه هاتفاً[1] يقول له:

- لو رغبت في رؤية شخص من أهل الجنة فاذهب إلى مكّة في الحيّ الفلاني وفي الشارع الفلاني وفي البيت الفلاني وستراه.

استيقظ الرجل التونسي متعجباً والهاتف لا يزال يرنّ في أذنه ولا يزال المكان يراه كأنّه يعرفه تماماً، وحاول طوال اليوم أن يتناسى هذا الحلم، لكنّه ظل عالقاً بمخيلته[2]. وفي الليلة الثانية استعدّ للنوم، وبينما هو بين اليقظة والنوم سمع الهاتف نفسه يقول له:

---

(١) ثمة علاقة بين الرؤيا وزمنيتها، وكان المسلمون لهم قواعد ثابتة في تحديد علاقة الرؤيا باليوم والساعة؛ فالنبي يقول: «أصدق الرؤيا بالأسحار» وفي رواية البطل المصرية بيبرس، المكتوبة في العصر الوسيط، عبّر مفسّرو الأحلام عن رؤياه قائلين له: «ما دامت رؤياك قد جاءت في الليلة السابعة من الشهر في طالع البدر فهي رؤيا صادقة».
وكما جاء في ملحمة شاه نامه، كتاب الملوك، للفردوسي فإنّ ساعة السحر كانت تُعدُّ في إيران القديمة بمثابة موعد لحدوث الأحلام الجليلة.

(٢) مثّل الحلم في الثقافة الإسلامية حضوراً طاغياً، ومع إيراد قصة النبي يوسف عليه السلام ومقدرته على تفسير الرؤيا أصبح الحلم هاجساً لدى الكثيرين. وقصص الحلم لا تخلوا في أيّ زمن من الأزمان، ولذلك أوجد المفسرون لهذه الرؤيا تفسيراً. وقد يكون أهم من وثّق أساسيات التفسير هو محمد بن سيرين في كتابه تفسير الأحلام. وهناك شخصيات تدور حولها الحكايات العجيبة الغريبة في تفسير الرؤيا، وهما شق وسطيح.

- لو رغبت في رؤية شخص من أهل الجنة فاذهب إلى مكة في حيّ القرشي[1] في الشارع الفلاني وفي الشارع الفلاني وفي البيت الفلاني وستراه.

وفي الليلة الثالثة رأى الحلم نفسه، فذهب إلى إمام المسجد وأخبره بما يرى فقال له:

- الحلم يقول لك إذا رغبت في رؤية شخص من أهل الجنة، فإذا رغبت بالفعل في رؤية شخص من أهل الجنة فاذهب إلى الموقع نفسه وجرّب.

حجز الرجل التونسي في رحلةٍ وسافر، ولمّا صل مكة ركب سيارة أجرة وذكر له اسم الحي الذي سمعه في الحلم، وعندما وصل أحسّ أنه يعرف المكان تماماً، فأخذ يرشد السائق:

- اذهب من هنا... اتّجه يميناً... يساراً.

ووقف أمام منزلٍ يعرفه تماماً، فقد رآه في منامه، فنزل من سيارة الأجرة وطرق الباب، فخرج له رجل وفي يده سيجارة أخذ ينفث دخانها في الهواء ويرحّب بالطارق، فاستأذنه الرجل التونسي بالدخول، فأدخله مرحّباً به وأجلسه في المجلس وتحرّك إلى داخل البيت وأحضر القهوة والتمر، بينما كان الرجل التونسي في أشدّ حالات الارتباك والدهشة، فالرجل الذي أمامه ليست به أيّ سمة تدلّ على التقوى والصلاح، فالرجل حليق الذقن، شارب للدخان، ليست به علامات الخشوع...

(١) «القرشي» نسبةً إلى قريش، ويقول الدكتور فاضل الربيعي في كتاب **أبطال بلا تاريخ** إنّ قريشَ لم تُعرف، في واقع الأمر، باسمها هذا الغريب المثير للجدل إلاّ في زمن هاشم بن قصي، جدّ الرسول صلى الله عليه وسلم، عندما بدأ حملته الدبلوماسية البارعة على خطى والده قصي لعقد معاهدات أمن القوافل التجارية بين مكة والشام ومكة واليمن مع أمراء غسان والحِمْيَريين، التي عُرفت بـ«الإيلاف»، نحو العام ٤٥٠ م. ولقد كان اسم قريش في عهد بنو النضير بن كنانة، وقد اكتسبت بطون من كنانة، جمعها قصي بن المنتصر على خزاعة وقام بطردها ونفيها خارج مكة والحرم المكي، هذا الاسم إثر مجاعة كبرى ضربت مكة فقام قصي بإطعام الإبل الجائعة التي اجتمعت في بطن الوادي. هذه المروية التي يختلط فيها التاريخي بالأسطوري تقول بلغةٍ واضحة، مع ذلك، إنّ قبيلة قريش لا تظهر باسمها هذا إلاّ نحو العام ٤٠٠ م، أما قبل ذلك فكانت تُعرف باسم البطنِ القلبي الذي ولدها بنو كنانة. وما يقوله نقش (ذمار الإخباري) يتضمّن التاريخ، ولكنه قولٌ متلعثم، لأنه كُتب بلغة الأسطورة لا بلغة التاريخ.

تناول الضيف قهوته وسأل الرجل الذي استقبله:

- ألا يوجد شخص سواك في هذا البيت.

فقال له:

- لا.

صمت الرجل التونسي بعض الوقت، بينما كان صاحب البيت يحدّثه عن أمور الدنيا ويسأله عن تونس وأهلها. تململ الرجل التونسي وظنّ أنه أخطأ في دخول البيت، فطلب من الرجل أن يخرجه إلى الشارع مرّةً أخرى ليتعرّف على البيت، فقاده إلى الخارج. استرجع الرجل التنوسي تفاصيل ما كان يراه في حلمه، فتأكّد من أنّ البيت الذي كان يراه هو البيت نفسه، فدخل مرّةً أخرى وقال للرجل:

- أصدقني القول، ماذا تعمل في حياتك؟

فقال له:

- لا شيء... مثلي مثل كلّ الناس.

فقال الرجل التونسي:

- تذكر أيّ عمل تقوم به غير عن سواك؟

فقال له الرجل:

- لا أذكر أنني أعمل شيئاً يُغضب الله، وليست لي أعمال أفاخر بها.

وبعد أن أنهى كلامه أتبع حديثه بجملة قصيرة:

- أنت تبحث عن ماذا؟

حكى الرجل التونسي قصته مع الهاتف الذي جاءه في منامه لثلاث ليال، وقال:

- كلما دخلت في النوم سمعت هاتفاً يقول: «لو أردت أن ترى رجلاً من أهل الجنة فاذهب إلى مكة في الحي الفلاني والبيت الفلاني»، وكنت أرى تفاصيل المكان، وعندما وصلت كان البيت الذي رأيته في الحلم هو بيتك، وعندما رأيتك لم أرَ فيك ما يعزّز حلمي، فأسألك بالله: ما هو العمل الذي تقوم به؟

تفتّحت أسارير الرجل وشكر الله، ثم قال لضيفه:

- هذه بشرى خير، لكنني لا أذكر أيّ عمل خارق، فأنا أصلّي وأصوم مثل الناس.

فقال له الرجل التونسي:

- تذكّر!

جلس الرجل يعصر ذاكرته، وبعد لحظة قال للرجل التونسي:

- منذ شهور مات جاري ولديه أطفال صغار، وأنا لدي سيارة أجرة أخرج يومياً لاكتساب رزقي ورزق عيالي، وعندما أعود أقتسم ما كسبته بيني وبين أبناء جاري المتوفّى.

فقال له الرجل التونسي:

- عرفت السبب الآن، ليبارك لك الله في رزقك.

رواية عبدالعزيز الصفراني

الملافظ سعد

في زمنٍ من الأزمان تصادق اثنان من الحكماء، وقد تطابقا في خصالٍ كثيرة؛ فكان كلٌ منهما صادق القول عفيف اللسان، وكان الفرق بينهما أنّ أحدهما يقول الحقيقة بصورة مباشرة بينما الآخر يقولها بصورة غير مباشرة. وذات يوم قال الحكيم الثاني لصديقه:

- أنا لا أنكر عليك شيئاً سوى أنك تصدم الناس بقول الحقائق، والنفس البشرية لا تحبّ أن تُصدم، وتستطيع أن تقول ما تريد من غير أن تصدمهم بما يكرهون.

فقال الحكيم الأول:

- الحقيقة ليس لها وجوه، هي وجه واحد، ولا أستطيع أن أتلوّن.

فقال الحكيم الثاني:

- أنا لا أطلب منك أن تتلوّن وإنما ترفق بنفسك وبمن يطلب الحقيقة.

فقال الحكيم الأول:

- سوف أعيش وأموت على هذه الصورة.

عجز الحكيم الثاني أن يصلح ما في صاحبه من حدّةٍ في القول، وعاشا سوياً، وقد ذاع صيتهما كأعلم أهل زمانهما وسمع بهما ملك البلاد فقرّبهما إلى مجلسه ولم يختبرهما خشية أن يظنّا به الجهل، فكان يستمع إليهما وينعم عليهما بالهدايا.

وذات يوم حلم الملك[1] أنّ جميع أسنانه تساقطت؛ فطلب أن يفسّر له حلمه، فقال له وزيره:

---

(١) أحلام الملوك عادة ما تكون المحرك للقصص والملاحم ونتذكر جميعاً قصة الملك الذي رأى السبع البقرات السمان التي تلتهمها السبع البقرات العجاف وتفسير سيدنا يوسف لذلك الحلم.

- يا مولانا، إنّ خير من يفسّر الأحلام هما الحكيمان اللذان يجالسانك.
فطلبهما الملك في الحال ودخل عليه الحكيم الأول، فقال له الملك:
- لقد حلمت أنّ جميع أسناني تساقطت؛ فماذا ترى في هذا الحلم؟
فقال الحكيم الأول:
- جميع أهل بيتك سيموتون وتنجو أنت يا مولاي.
غضب الملك وأمر رجاله بجلده.
ثم أمر بإدخال الحكيم الثاني وقال له:
- لقد حلمت أنّ جميع أسناني تساقطت، فماذا ترى في هذا الحلم؟
فقال الحكيم الثاني:
- سوف تكون أطول أهل بيتك عمراً.
راق هذا التفسير للملك فأمر له بجائزة وأبقاه في بلاطه، وجيء بالحكيم الأول وجُلد أمام الجميع، فأشفق عليه صاحبه، وكلّما جلده الجلاد ردّد الحكيم الثاني:
- الملافظ سعد.
والحكيم الأول يردد:
- والكذب ما له رجلان.
أراد الملك أن يعرف سبب ترديد كلٍّ منهما لمقولته، فأمر بإيقاف الجلد وأحضرهما سويّاً فحكى كلٌّ منهما قصته مع الآخر، فقال الملك:
- كلّ واحد يعيش بعقله.
وصفح عن الحكيم الأول وأبقاه في بلاطه وبقي كلّ واحد منهما يقول الحقيقة كما يراها.

رواية عبدالله المحلبدي ـ خليص

كسر عين الحاسد

اشتهرت المدينة برجالها المعينين[1]، ولم يأتِ تاجر إلى هذا البلد إلاّ ومُنيت تجارته بخسارة فادحة، حيث يتجمّع أعين رجالات البلد ويمحقون تجارة أيّ تاجر، وعرف التجار القادمون إلى هذه البلدة بقصّة العيون، فتراجع كثيرٌ منهم عن مزاولة التجارة في هذا البلد، وظلّ تاجرٌ واحد محتكراً التجارة في هذا البلد دون أن تُصاب تجارته بخسارة، وتعجّب أهل البلد وظنّوا أنهم فقدوا ميزتهم، ولم يتبقّ أمامهم إلاّ التجربة، وقد شاع في البلد أنّ هذا التاجر سترسو باخرته على الشاطئ محمّلةً بكلّ أنواع التجارة، فدبّروا أمرهم واختاروا أشدّ ثلاثة معينين كي يصيبوا باخرته بالتلف.

---

(١) قلّة من الرجال كانوا يوصفون بأنّهم معينون، وجرت العادة، في المجتمع الجنوبي تحديداً، إلصاق العين الشريرة بالمرأة، وغالباً ما تكون امرأة عجوز. ويبدو أنّ الاختلاف المعيشي وعدم تواجد المرأة كسابق عهدها في الحقل والسوق وفي مناشط الحياة جعل الناس يلصقون بالرجال هذه الصفة بصورة غالبة عمّا كانت عليه.
وفي المنطقة الجنوبية من المملكة يُطلق على المرأة المعينة (بُدَة) بضم الباء وفتح الدال. ويقول الدكتور حمزة لقمان عن هذه الكلمة إنها «كلمة حبشية يوصف بها الشخص الذي يحمل عين الشرّ ويتحوّل في الليل إلى ضبع يعتدي على الناس والحيوان. وكلّ هذه رواسب معتقدات القبائل الكوشية القديمة وأيضاً القبائل السامية». (حمزة علي لقمان: **أساطير من تاريخ اليمن**، دار المسيرة، ص٣٣)
وهناك أسطورة متداولة في تهامة موازية لصاحب عين الشرّ حينما يتحول إلى ضبع في الليل يُقال له النبّاش... وهذا يقوم بنبش قبور من يتقصّدهم في حياتهم؛ فإذا مات قبل أن يصل إليه يتوعّده ويخرج له ليلاً قائلاً: حلالتي بك وبعقب عقبك (أي أنت وذريتك حلّ لي أن آكل لحومكم حتى وأنتم موتى). ولذلك نجد من سمع صوت النبّاش متوعّداً به يخرج ذووه لحماية قبره لثلاث ليال متّصلة بعدها لا يستطيع النبّاش نبش القبر.

وفي اليوم الموعود جلس الثلاثة الحسّاد أمام البحر لتصويب عيونهم على السفينة المقبلة، وقد تجمهر أهل البلدة لمشاهدة هذا الحدث، وعندما ظهرت السفينة في الأفق أخذ الحاضرون يحفّزون المعينين، فحدّق الأول ببصره في السفينة. . . حدّق وحدّق وتراجع قائلاً:

- أنا لا أقدر على حسدها، فقد أخبرني شيطاني أنّها محمّلة بالحبّة السوداء.[١]

تصارخ به الحاضرون وحفّزوا المعين الثاني، فقال واثقاً:

- أما أنا فسأقدر.

وحدق ببصره صوب السفينة، وبعد لحظات من التحديق تراجع وقال:

- لا أقدر على حسدها فقد قال لي شيطاني إنها محمّلة بالحبّة السوداء.

زاد قلق أهل البلد ولم يعد أمامهم إلا المعين الثالث، فأتوا يحفّزونه ويقولون له:

- سمعة البلد بين يديك!

فقال لهم:

- أنتم تعرفون أنني افضل معين بالبلد، ولن أتراجع عن إتلاف هذه السفينة وكلّ ما تحمل.

وركّز بصره باتّجاه السفينة وعمّق بصره وردّد:

- إني أسمع شيطاني يحذّرني من حسد السفينة، ولكنني سأجعلكم تتأكّدون أنني الوحيد بالبلد وقت الشدائد وأكثركم حسداً.

وركّز بصره بكلّ قواه، وفجأةً طقّت عينيه فصرخ صرخةً سُمعت من داخل البلد.

عندما وصلت السفينة وأفرغت حمولتها وجدوا أنّها محمّلة بالحبّة السوداء، وكان التاجر يضعها في كلّ شيء يتاجر به.[٢]

رواية عبدالله المحلبدي ـ خليص

(١) يُشاع أنّ الحبّة السوداء تمنع العين، ويبدو أنّ هذه الحكاية حُكيت للتدليل على هذا المعتقد.

(٢) يقال إنّ الحبة السوداء تقلع عين الحاسد، ويستشهد راوي هذه المعلومة بالقصة السابقة.

لماذا ابتسمت؟

يقال إنّ الناس في الماضي كانوا يرون ملك الموت[1]، فإذا جاء لقبض إحدى الأرواح رأوه رؤية العين. وذات يوم نزل ملك الموت ليقبض روح أحد الأشخاص، وبينما هو داخل المجلس يقبض روح الميت نقل بصره في اتّجاه شخصٍ آخر وابتسم، ففزع ذلك الرجل وعاد إلى بيته خائفاً مرتعداً وقال لأهل بيته:

- لقد رأيت الموت اليوم وهو يقبض روح فلان، وقد ابتسم لي فأصابتني ابتسامته، وأخشى أن يكون دوري قد حان.

فقالت له زوجته:

- ربما ابتسم لأنه افتكر شيئاً ما فلا تخف.

فقال لها:

- لا، علي أن أغادر هذا البلد، وأهرب منه بعيداً كي لا يصل إليّ.

---

(١) حدثنا أبو كريب قال: حدثنا مصعب بن المقدام عن حماد بن سلمة عن عمار بن أبي عمار مولى بني هاشم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنّ ملَك الموت كان يأتي الناس عِياناً حتى أتى موسى فلطمه ففقأ عينه، قال: فرجَع، فقال: يا ربّ إنّ عبدَك موسى فقأ عيني ولولا كرامَته لشققت عليه، فقال: آتِ عبدي موسى فقل له: فليضع كفّه على متن ثور فله بكلّ شعرة وارت يدُه سنة وخيّره بين ذلك وبين أن يموت الآن. قال: فأتاه فخيّره فقال له موسى: فما بعد ذلك، قال: الموت، قال: فالآن إذاً، فشمّه شمّةً قبض روحه. قال: فجاء بعد ذلك إلى الناس خُفية. (ابن كثير: البداية والنهاية)

ونلحظ الأسطرة من خلال جملة «فجاء بعد ذلك (الموت) إلى الناس خفيةً»، أي أنّ قصة تخيّر النبي موسى في الموت كانت تأسيساً لفكرة قاعدة ظهور ملك الموت، وبعد فقئ عينه أصبح يحضر متخفياً...

حاولت زوجته أن تثنيه عمّا عزم، لكنه أصرّ وحمل كلّ غالٍ ونفيس وسافر، وظلّ مسافراً من بلد إلى بلد، ومن ميناء إلى ميناء، ومن سهل إلى سهل، ومن جبل إلى جبل حتى وصل الصين؛ فابتنى هناك بيتاً وأثثه وبدأ بمزاولة تجارته، ولم تمضِ عليه سوى ثلاثة أيام حتى جاءه ملك الموت وقال له:

- استعدّ، جئت لأقبض روحك.

فقال له الرجل:

- بالله عليك، قبل أن تقبض روحي أريد منك أن تجيبني على سؤال محيّرني؟

فقال له ملك الموت: اسأل؟

فقال الرجل: لماذا ابتسمت عندما رأيتني في بلدي؟

فقال له ملك الموت:

- كنت مكلّفاً بقبض روحك في الصين، وعندما رأيتك في بلدك قلت في نفسي كيف أمرني ربي بقبض روحك في الصين وأنت تعيش في بلد بعيد عن الصين، لذلك ابتسمت.

وقبض روحه في ساعتها.[1]

رواية عبدالرحمن البريك ـ جدة

(١) هذه الحكاية ما أن يوردها قائلها حتى يذكر الآية القرآنية ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاَءِ الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (سورة النساء: ٧٨).

دعاء إبطال الحسد

جلس حاسدٌ متقصّداً حسد ناقة عبدالله، وكان مشهوراً بقوة عينه، وعرف عبدالله بمقصده فلجأ إلى شيخٍ علّمه هذا الدعاء: «حبس حابس وشهاب قابس وحجر يابس رديت العين عليه وعلى أعزّ الناس إليه، فرجع البصر كرتين ينقلب عليك البصر خاسئاً وهو حسير».

عندما وقف الحاسد لحسد ناقته سقطت على الأرض فأسرع عبدالله بترديد ذلك الدعاء، فعميت عين الحاسد وقامت ناقته.[1]

رواية عبدالله المحلبدي

---

(١) هذه القصة هي إعادة لما ذُكر عن أبي عبد الله الساجي، وكان مجاب الدعوة وله آيات وكرامات، فبينما كان في بعض أسفاره للحجّ أو الغزو على ناقةٍ فارهة، وكان في الرفقة رجلٌ عائن فما نظر إلى شيء إلاّ أتلفه وأسقطه!! فقيل لأبي عبد الله: احفظ ناقتك من العائن، فقال: ليس له إلى ناقتي سبيل، فأخبر العائن بقوله فتحيّن غيبة أبي عبد الله فجاء إلى رجله فنظر إلى الناقة فاضطربت وسقطت، فقيل له: إنّ هذا العائن قد عان ناقتك وهي كما تراها تضطرب، فقال: دلّوني عليه، فدُلّ عليه فوقف عليه وقال: بسم الله حبس حابس وحجر يابس وشهاب قابس ردّدت عين العائن عليه وعلى أحبّ الناس إليه في كلوتيه رشيق وفي ماله بليق (فأرجع البصر هل ترى من فطور ثم أرجع البصر كرّتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير)، فخرجت حدقتا العائن وقامت الناقة لا بأس بها.

بيع وشراء النصائح

توفّي رجل وترك لابنه ثلاثمائة ريال[1]، وكان قد أوصاه أن يشتري بها نصائح - أيام كانت النصائح تباع وتشترى[2] - وبعد موت أبيه خرج الولد مسافراً[3]، وفي طريقه سمع رجلاً يصيح في الشوارع:

- أبيع النصائح... أبيع النصائح.

تذكّر الابن وصية أبيه فذهب للرجل وقال له:

- أبغى نصيحة، بكم تبيعها؟

فقال الرجل:

- النصيحة بمائة ريال.

---

(١) ربما يكون المبلغ ثلاثة ريال مجيدية أو (فرانصة) لأنّ مبلغ ثلاثمائة ريال كبير في زمن انتشار الحكايات. ويمكن ملاحظة أنّ تغيّر العملة بما يتوافق مع زمنية الحكي هو ما يحدث للحكايات من تحوير بالزيادة أو التغيير، وقد يؤدي ذلك إلى انحراف الحكاية بالزيادة أو الحذف.

(٢) الذاكرة الشعبية تقدّس النصيحة، وهي تظنّ أنّ في زمن من الزمان كانت النصائح سلعة تباع وتشترى، وربما تكون هذه الحكاية تدلّ على حقيقةٍ لم تُبحث إلى الآن، وهي أنّ النصيحة بالفعل كانت تباع وتشترى.

(٣) هناك رواية أخرى تقول إنّ الأب ترك للابن مزرعة وأعطاه وصية أوصاه أن لا يفتحها إلا عند الحاجة، ومضت الأيام والابن لاهٍ عن العمل حتى أجدبت أرضه ولم يجد شيئاً يأكله فباع المزرعة وأخذ يقتات من ثمنها، وعندما لم يعد لديه شيء تذكّر وصية أبيه ففتحها ووجد بها ثلاثة ريالات (فرانصة) ومعها كتاب يوصيه بترك بلده وأن يسافر في أرض الله علّ تجواله يعلّمه شيئاً يفيد به نفسه بعد أن خسر كلّ شيء.
والفرق بين البدايتين لنفس الرواية يدلّل أيضاً على أنّ الراوي يحدث تغييراً في الحكاية بالزيادة أو الحذف أو توجيه السرد من البداية إلى الغاية من الحكاية.

فأعطاه مائة وقال له:

- اعطيني بهذي المائة نصيحة.

تناول الرجل المائة ريال وقال له: من أمّنك لا تخُونه ولو كنت خاين.

قال الشاب: طيب وبعدين.

قال الرجل: خلاص، هذي النصيحة بمائة ريال.

الشاب: زوّدني.

الرجل: لا أزودك ولا شي. كلّ نصيحة بمائة ريال.

فناوله الشاب المائة الثانية وقال له: اعطيني بهذي المائة نصيحة ثانية.

تناول الرجل المائة الريال وقال له: حبيبك اللي تحبّ... ولو كان دبّ لا تكب.

فقال الشاب: طيب وبعدين.

فقال الرجل: خلاص، هذي النصيحة بمائة ريال.

فقال الشاب: زودني.

فقال الرجل: لا أزودك ولا شي. كل نصيحة بمائة ريال.

فناوله الشاب المائة الثالثة وقال له: اعطيني بهذي المائة نصيحة ثالثة.

تناول الرجل المائة الريال وقال له: يوم الفرح لا يفوتك ولو كان على قطع راسك.

فقال الشاب: زودني.

فقال الرجل: عندك فلوس.

فقال الشاب: لا.

فقال له: خلاص، بعتك نصائح على قد فلوسك.

تركه الشاب وظلّ يمشي حتى وصل إلى مدينة وطلب العمل فلقيه رجل وقال له:

- أريدك أن تعمل في بيتي وتساعد زوجتي في شؤون البيت.

وافق الشاب وذهب معه، وكان لهذا الرجل زوجة وابن. مضى زمن وهو يعمل عندهم، فكان يذهب إلى السوق ليشتري الخضروات والفواكه واللحم والسمك، ويساعد عمته في تنظيف البيت. وفي يوم من الأيام قال الرجل للشاب:

- أبغى أروح الحج وأمانتك زوجتي وولدي.[1]

فقال الشاب:

- ستكون زوجتك وولدك في عيني وربنا يودّيك ويجيبك بالسلامة.

سافر الرجل إلى الحجّ، وظلّ الشاب يعمل في بيت عمّه بتفانٍ وإخلاص، وكانت زوجة الرجل قد أُعجبت به إعجاباً ملك عليها عقلها فراودته عن نفسها فامتنع عندما تذكّر أنه اشترى نصيحة بمائة ريال تقول: «لا تخن من اتمنك ولو كنت خاين».

غضبت عمّته وخشيت إن جاء زوجها يخبره بالقصة، وأخذت تفكّر في وسيلة تخلّصها منه قبل مجيء زوجها، وكان بالبلد بئر يسكنها جنيّ ومن نزل للبئر لا يخرج منها، وكان الشاب لا يعرف قصة هذه البئر، وقالت له:

- أبغى منك تجيب لي مويه من البير اللي في طرف القرية.

فقال لها:

- حاضر.

وأعطته قِرَباً من غير دلو[2] كي ينزل لتعبئة القِرب من داخل البئر.

خرج الشاب حتى وصل البئر وعندما أراد النزول رآه أهل البلد فحذروه، وقالوا له:

- بداخل البير جني ما في أحد نزل وطلع مرّة ثانية.

فلم يستمع إلى كلامهم ونزل، وعندما وصل إلى قاع البئر ظهر له جنّي ضخم وهو يضمّ فتاتين، واحدة سمينة والأخرى نحيلة، وقال له:

---

(١) إنّ غياب أيّ شخصية عن مسرح الأحداث في الحكاية الشعبية في الجزيرة العربية غالباً ما تذهب إلى الحج، وقد سجّلت أكثر من أربعين حكاية إذا أراد الراوي تغيّب شخصية من الشخصيات كي يتنامى الحدث يقول: خرج للحج. وربما يدلّ هذا على الاستقرار أو الانغلاق لكون الرواة لا يعرفون السفر إلاّ إلى مكة. ونجد أنّ غياب الشخصية في الحكاية المصرية الموازية لهذه الحكاية ذهابها إلى منطقة لا تذكر، ولكن يذكر أنّ صاحبها ذهب للتجارة.

(٢) تركيبة القصة لا تتناسب مع المدينة، بل هي أقرب إلى الأجواء الريفية أو القروية. ويبدو أنّ الراوي حاول بصورة ما أن يمدّنها فتداخلت البيئتان (المدينية والقروية) فأحدثت ارتباكاً بين هذين العالمين. وقد وجدت هذه الحكاية في جنوب المملكة وسجّلتها في أساطير الجنوب.

- جاي أش تسوي.

فقال له: جيت أملّي قِرب المويه.

فقال الجني: ما نت خارج من هنا حتى تقلي مين من البنتين أجمل؟

نظر الشاب إلى البنتين وكاد أن يستعجل بالردّ لكنّه تذكّر النصيحة الثانية التي اشتراها بمائة ريال فقال للجنّي:

- حبيبك اللي تحبّ... ولو كان دبّ لا تكبّ.

ارتاح الجني لهذه الإجابة وقال له:

- والله ما في أحد نزل إلى هذا البير وطلع منه، وكلما نزل واحد أسأله السؤال اللي سألتك فيجيب إلاّ وأغضبتني إجابته، فالبنتان أحبّهما ولا أرضى أن يفضّل أحد واحدة على الأخرى.

وتركه يصعد. وعندما وصل إلى عمته أصابتها الدهشة وقالت له:

- نزلت البير.

فقال لها:

- نعم وهذه المياه من البير.

وأخذت تفكّر في وسيلة تقضي بها عليه قبل عودة زوجها، وما هي إلاّ أيام حتى جاء زوجها من الحجّ محمّلاً بالهدايا ووزّعها على زوجته وابنه، وأخذ يسأل عن الشاب ليعطيه هديته فتباكت زوجته وقالت له:

- أنت تحبه وتجيب له الهدايا، لكنه ما يستاهل.

فقال لها: أش سوّى؟

فقالت له: عندما كنت في الحج تهجّم علي وظللت طوال سفرك محبوسة داخل غرفتي وأنا خايفة منه.

غضب الرجل غضباً شديداً، لكنه لم يظهره، وكان له صديق في بلد قريب بينهما اتّفاق على تنفيذ ما يأمر به كلّ منهما، فكتب رسالة إلى صديقه قال فيها: «اقطع رأس حامل الرسالة»، ثم نادى على الشاب وأظهر له اشتياقه وقال له:

- هذه رسالة حملتها من مكة لرجل بالبلد الفلانية أبغاك توصلها له.

رحّب الشاب بطلب سيده وكان ينوي أن يخبره بفعلة عمته، لكنّه تراجع وقال في نفسه: «أسترها عسى الله يهديها»، وحمل الرسالة وخرج إلى البلد التي ذكرها

عمه، وبينما هو مسافر دخل عليه الليل فمر ببلد كانت تحتفل بفرح أحد أبنائها. وفي الصباح أراد أن يسافر، لكنّ أهل البلد قالوا له:

- تأخّر شويه واحضر فرحنا وبعدين الله يسهلّك.

أراد أن يعتذر لكنّه تذكر النصيحة الثالثة التي اشتراها بمائة ريال «يوم الفرح لا يفوتك ولو كان على قطع راسك»؛ فجلس وشارك الناس فرحتهم، وكان الفرح مستمرّاً لثلاثة أيام. وبعد مرور يومين أرسل الرجل ابنه ليأتي بردّ الرسالة، فخرج ابن الرجل ومرّ بالبلد التي يوجد بها الشاب فقال له:

- ما ودّيت رسالة أبويه.

فقال له: لا أنا جالس لمشاهدة الفرح.

فقال له الابن: هات الرسالة أنا أودّيها ذحين وأنت جيب الرد.

فقال الشاب: طيب.

وأعطاه الرسالة وكمّل اليوم الثالث في مشاهدة الفرح. وعندما وصل الابن إلى صاحب أبيه وناوله الرسالة وقرأ ما بها قام من حينه وقطع رأس الابن وصرّه في منديل كبير ودسّه في غرفته. وعندما انتهى الزواج واصل الشاب سفره إلى البلد التي ذكرها عمّه، وعندما وصل سلّم على صاحب عمّه وقال له:

- لقد أرسل عمّي برسالة وأنا جيت آخذ الرد.

ناوله صاحب عمّه منديلاً كبيراً لفّ به رأس ولد عمّه، فأخذه ورجع إلى بيت عمّه، وعندما شاهده عمّه وزوجته صعقا، واكتشف العمّ أنّ ابنه هو الذي انقطع رأسه.

فأمسك بالشاب وقال له: قريت الرسالة اللي اطيتك.

- فقال الشاب: لا.

- فقال له: تعرف أش هو الردّ؛ الردّ اللي جبته معك في المنديل؟

- فقال: لا.

- فقال له: أبغاك تكون صريح معاي وتقلّي قصتك؟

فأخبرته بقصته كاملة، فعرف الرجل أنّ زوجته كانت تكذب، فقام فقطع رأسها وقال للشاب:

- أخرج وابحث لك عن مكان آخر واحفظ النصائح اللي اشتريتها.

رواية أم ياسر بليلة

أبو وجهين

كان هناك رجل متزوج من امرأتين إحداهما سمينة والأخرى نحيلة، فإذا ذهب إلى النحيلة قال لزوجته السمينة:

- أنا رايح غصب عني ولا أقدر أنام بعيد عنك أعطيني مسفعك علشان أشم رائحتك.

فتفرح زوجته السمينة وتعطيه مسفعها، فيأخذه ويركب حماره وينطلق إلى بيت زوجته النحيلة، وعندما يصل يعرج إلى مربط الحمير ويربط مسفع زوجته السمينة في رقبة حماره ويربط الحمار في مربطه ويدخل على زوجته النحيلة مرحّباً بها وهو يردّد:

يا سهيفة يا نحيفة

يا عويد الخيزران

دسيني عن بطابط لا تجيني

فتفرح لهذا الوصف وتقابله مقابلةً حسنة. وفي المساء، عندما يحين وقت زوجته السمينة يقول لزوجته النحيلة:

- غصباً عني أفارقك وأروح لزوجتي الثانية وأنا لا أطيقها اعطيني مسفعك علشان أنام على رائحتك.

فتقول له:

- معليش أصبر ليلة وتعدّي وأنا أنتظرك بفارغ الصبر.

وتعطيه مسفعها، فينزل من عندها ويمرّ على مربط الحمير ويركب حماره ويأخذ مسفع زوجته السمينة من على رقبة الحمار وينطلق إلى بيت زوجته السمينة،

وقبل أن يدخل عليها يقوم بربط مسفع زوجته النحيلة في رقبة حماره ويدخل على زوجته السمينة وهو يردّد:

يا دكة ويا دكاكين

ويا مركز السلاطين

دسيني عن عصاعص لا تجيني

فتفرح به وتقدّم له كلّ ما يريد. وعندما يحين وقت عودته إلى زوجته النحيلة يعيد عليها نفس الكلام الذي كان يقوله لها ويطلب مسفعها فتعطيه، ويدخل على زوجته النحيفة ويقول لها:

يا سهيفة يا نحيفة

يا عويد الخيزران

دسيني عن بطابط لا تجيني

استمرّ على هذه الحال وقتاً طويلاً وهو سعيد مع زوجتيه دون أن يكدّر أحد عليه هذا الصفو. وفي يوم من الأيام انفكّ الحمار من مربطه وعاد إلى بيت السمينة فرأت مسفعها مربوطاً على رقبة الحمار فقالت في نفسها: «كيف جى مسفعي في رقبة الحمار، والله لا بد أن أعرف» وقامت وجرّت الحمار إلى بيت ضرّتها وربطت الحمار في مكانه، وتركت مسفعها على رقبة الحمار وعادت إلى بيتها. وفي المساء خرج الزوج من بيت زوجته النحيلة وفكّ مسفع السمينة من رقبة الحمار وربط مسفع زوجته النحيلة ودخل على زوجته السمينة مرحّباً ومهللاً وأخذ يقول لها:

يا دكة ويا دكاكين

ويا مركز السلاطين

دسيني عن عصاعص لا تجيني

رحّبت به كالعادة وجهّزت له الأكل وتزيّنت له وقدّمت له ليلة استأنس بها، وفي المساء قال لها:

- أنا مش قادر سيبك لكن أش أسوّي لازم أروح لزوجتي الثانية أعطيني مسفعك علشان أنام على رائحتك.

فلم تُظهر له أيّ شيء وأعطته مسفعها وودّعته، فركب حماره واتّجه صوب

زوجته النحيلة، فقامت من حينها وتبعته ورأته يفكّ مسفع زوجته النحيلة ويربط مسفعها في المكان نفسه وتبعته حتى وصل إلى بيت ضرّتها وصعدت خلفه فسمعته يقول لزوجته النحيلة:

يا سهيفة يا نحيفة

يا عويد الخيزران

دسيني عن بطابط لا تجيني

فعادت إلى بيتها والحرقة تأكل قلبها وأضمرت أن تلقنّه درساً لن ينساه، وفي الوقت المحدّد لمجيئه ذهبت إلى ضرّتها وأخذت تنتظر نزوله، وعندما نزل دخلت على زوجته النحيلة، فاستغربت من مجيئها فقالت لها:

- أنا جيت علشان أكشف لك سرّ زوجنا اللي يلعب علينا.

فقالت لها:

- زوجي يحبني ولا يرضى بغيري وأنت غيرانه.

فقالت لها:

- وكيف عرفتي.

فقالت:

- ما يطيق فراقي ولما يروح عندك يأخذ مسفعي علشان يشمّ رائحتي طوال الوقت.

فقالت لها:

- مسفعك يربط به رقبة حماره.

فكذّبتها فقالت لها:

- ذحين حيكون عندي تعالي معاية وشوفي أش يصير.

خرجت الزوجة النحيلة معها، وعند مربط الحمير وجدت مسفعها مربوطاً في رقبة الحمار، فقالت الزوجة السمينة:

- هذا أول دليل على أنه يضحك علينا. ثم قالت لها: انتظري وشوفي أش يقلّي.

بقيت الزوجة النحيلة تترقّب ودخلت الزوجة السمينة فوجدته ينتظرها، وعندما رآها قال لها:

يا دكة ويا دكاكين
ويا مركز السلاطين
دسيني عن عصاعص لا تجيني
فقالت له: يا كذّاب انفضح أمرك.

وخرجت زوجته النحيلة واشتركت هي والسمينة في ضربه وإخراجه من البيت وطلبت الزوجتان الطلاق ورفضتا العودة إليه.[1]

رواية حامدة حمدان الحربي ـ جدة

---

(١) توازي هذه الحكاية حكاية من جنوب المملكة بمسمى غصن وادي وشل. الفرق بين الحكايتين اختلاف البيئة والقول الذي يقوله الزوج، وسوف أوردها في أساطير الجنوب.

ورقة الحنا

كان هناك رجل لبّان تزوّج بامرأة وعاشا سعيدين، وزادت سعادتهما حين رزقهما الله ببنت رائعة الجمال فسمّاها أبوها اسماً غريباً (ورقة الحنا) وكان يحبّها حبّاً عظيماً. وبعد سنوات ماتت زوجته فندم على موتها وظلّ يربّي ابنته، لكنّه وجد أنّه بحاجة إلى امرأة تهتم بشؤون ابنته، فأخذ يبحث عن امرأة ليتزوّجها وتهتم بتربية ابنته، وشار عليه بعض الناس على إحدى النساء مات زوجها وترك لها ابنة فقال في نفسه: «هذه المرأة مناسبة، فلديها بنت وسوف تقدّر شعوري وحبي لابنتي» وتقدّم لخطبتها وتزوّجها، وعندما انتقلت إلى بيت زوجها كانت تعامل ورقة الحنا معاملةً سيئة وتدلّل ابنتها إكرام القبيحة وتترك كلّ أعمال البيت على ورقة الحنا، وقبل أن يأتي أبوها تجعلها تترك العمل وتنادي على ابنتها إكرام بأن تمسك المكنسة أو تنظّف الأواني، ومع دخوله تقول:

- يا إكرام، قومي بكلّ العمل إنت واتركي ورقة الحنا ترتاح من عمل البيت.

يسمع الأب هذا القول فيفرح ويشكرها على معاملة ابنته معاملة حسنة ويقول لها:

- ما أبغى ورقة الحنا تبقى على هذا الحال، أبغاك تعلميها علشان لما تتزوج تنفع نفسها.

فتقول له:

- بدري على البنت، خليها تستمتع بسنها وترتاح والشغل جاي جاي.

وإذا دخل الأب غرفته أخرجت ورقة الحنا وقالت لها: هيا قومي اشتغلي. وتناولها القدور لتجليها وتنظف البيت وتقوم بكلّ الأعمال، بينما تظل إكرام في

غرفتها تتزيّن، وكلما تزينت زادت بشاعة، بينما ورقة الحنا تزداد جمالاً على جمال، فيزداد حقد عمتها عليها وأخذت تفكّر في طريقة تتخلّص بها من ورقة الحنا، فقالت في نفسها: «ما في طريقة تخلّصني منها إلا الغولة» وفي الحال نادت على ورقة الحنا وقالت لها:

- الدقيق كلّه مسوّس وما في عندنا منخل. روحي للغولة وجيبي من عندها المنخل.

فقالت ورقة الحنا: طيب يا عمتي.

خرجت ورقة الحنا متّجهةً إلى بيت الغولة وكانت جائعة، وفي طريقها رأت بائع سمسم ينادي على بضاعته فاقتربت منه واشترت سمسماً وأخذت السمسم وقالت: آكله عندما أصل إلى البيت، وأخذت تسأل الناس عن بيت الغولة فكانوا يستغربون منها، وعندما وصلت إلى بيت الغولة دقّت الباب ففتحت لها الغولة الباب وقالت لها:

- أش جابك؟

فقالت لها:

- جيت أستعير منك المنخل.

فقالت لها الغولة:

- ما أعطيك المنخل حتى تفلّيني.

فقالت ورقة الحنا:

- من عيوني.

جلست الغولة أمامها وأخذت ورقة الحنا تفلّيها، وكلما أخرجت قملة من رأس الغولة رمتها على الأرض وتناولت حبة من حبات السمسم وتقول للغولة:

- قملك سمسم وحلو.

وتضعه في فمها وتأكله بلذة، فتقول لها الغولة:

- الله يحلّي أيامك ويزيدك جمال على جمال.

وبعد أن انتهت من تفلية الغولة قالت لها:

- يا أمي الغولة عيرينا منخلك.

فقالت لها الغولة:

- قبل ما أعطيك المنخل أبغاك تسقي زرعي اللي قدام البيت.

فقالت ورقة الحنا: من عيوني.

فقالت لها الغولة: شيلي هذا السطل واسقي الورود اللي في الحوش.

أخذت ورقة الحنا السطل وخرجت للحوش، وعندما رأتها الأشجار والورود صاحت بها:

- اسقينا يا ورقة الحنا إحنا عطشانين.

فقالت لها:

- من عيوني، مش رايحة أروح حتى أسقيكم كلكم.

بدأت بسقاية الورد الأبيض فقال لها:

- شكراً يا ورقة الحنا يجعل بياضي في جسمك.

وفي الحال أصبح جسدها أبيض، وانتقلت لتسقي الورد الأحمر، وبعد سقايته قال لها:

- شكراً يا ورقة الحنا يجعل حَماري في خدودك وشفايفك.

وفي الحال تحوّلت خدودها وشفايفها إلى اللون الأحمر، وانتقلت لسقاية الخرنوب فقال لها:

- شكراً يا ورقة الحنا يجعل سوادي في شعرك.

فزادت ورقة الحنا جمالاً على جمال، وعادت إلى الغولة فأعطتها المنخل وودّعتها وخرجت عائدةً إلى بيتها، وعندما دخلت رأتها عمتها فأصابتها الدهشة لمجيئها ولكونها أصبحت أجمل ممّا مضى، فقالت لها:

- أش سويتي في نفسك حتى صرتي حلوة كذا.

فقالت لها ورقة الحنا:

- ولا شي، طلبت الغولة تفليتها ففليتها وطلبت أن أسقي ورودها فسقيتها.

فنادت زوجة أبيها على ابنتها وقالت لها:

- يا إكرام خذي المنخل ورجّعيه للغولة وسوّي زي ما سوّت ورقة الحنا. ثم قالت لورقة الحنا: وانت روحي بيت الدرج وادهني جسمك بالفحم، شكلك صار وحش.

أخذت إكرام المنخل وخرجت باتجاه بيت الغولة، وفي طريقها قابلها بائع السمسم فقال لها:

- اشتري مني سمسم تسعدي.

فصاحت فيه: روح لحالك ما أحبّ السمسم.

وظلّت تسير حتى وصلت إلى بيت الغولة. دقّت الباب ففتحت لها الغولة وقالت لها:

- أش تبغي.

فقالت: جيت أرجع لك المنخل.

فقالت لها: فليني قبل ما تروحي.

فصاحت إكرام:

- الله يقرفك أش تمشي أنت وقملك وبعدين أنا ما أحب أفلّي لأحد.

لكنّ الغولة قالت لها:

- لو ما فليتيني ما انت خارجة.

فجلست إكرام تفليها وهي تصيح:

- الله يقرفك، كل راسك قمل أخلي أيه وأفلي أيه.

فقالت الغولة:

- الله يزيدك وحاشة على وحاشتك.

فقالت إكرام:

- قومي، ما في أوحش منك.

فقالت الغولة:

- ما انت خارجة حتى تسقي الأشجار اللي في الحوش، خذي هذا السطل واسقي الأشجار.

حملت إكرام السطل وخرجت للحوش فتصايحت الأشجار بها:

- اسقينا يا إكرام.

فصاحت بهم: اسكتوا، وجع يوجع بطونكم.

فذوت الأشجار واقتربت إكرام من الورد الأبيض ورشّت عليه الماء فقالت لها الورود البيضاء:

- هذا الماء لا يكفيني زوّديني.
فقالت إكرام:
- يكفيك هذا العمر كله.
فقالت لها شجرة الورد الأبيض:
- الله يجعل بياضي في لون شعرك.
وفي الحال تحوّل شعرها إلى اللون الأبيض، وتحركت صوب شجرة الورد الأحمر فقالت:
- اسقيني يا إكرام.
فأجابتها:
- رايحة أصب المويه في أي مكان وأنت مدّي عروقك.
فقالت لها:
- الله يجعل حماري في لون عيونك.
وفي الحال تحوّلت عيون إكرام كلون الجمر، وعندما وصلت إلى شجرة الخرنوب رفضت إكرام أن تسقيها فقالت لها شجرة الخرنوب:
- الله يجعل سوادي في جسمك.
وفي الحال تحوّل جسمها إلى سواد كسواد الفحم، وعندما عادت إكرام إلى أمها صاحت بها:
- أش اللي حصل حتى صرتي أبشع من أول.
وقامت تفرك جسمها بالدقيق وكلّما دلكت جسم ابنتها ازداد سواداً وكلما وضعت حناء في شعرها زاد بياضه، فحزنت على ابنتها حزناً كبيراً ومنعت ورقة الحنا من الخروج وحبستها في بيت الفحم، وكلّما زارتها وجدت جسمها يبرق بالبياض وجمالها يزداد فلم تعد تعرف ماذا تصنع بها، فتركتها في بيت الفحم ومنعتها من الخروج.
وأراد ابن السلطان أن يتزوج فدعا إلى زواجه كلّ أهل المدينة، وكان من بينهم بيت اللبّان، فقامت زوجته تزيّن ابنتها طوال شهر كامل، وكلّما زينتها ازدادت قبحاً على قبح، وفي ليلة الزفاف خرجت ورقة الحنا وقالت لعمتها:
- نفسي أروح معاكم لزواج ابن السلطان.

فقالت لها عمتها:

- أش تروحي تسوّي إنت خليك هنا نقي كيس الرز وكيس العدس.

وخرجت هي وابنتها للزواج وجلست ورقة الحناء أمام كيسي الرز والعدس حزينة، فسمعت طرقاً على الباب فقامت وسألت:

- مَن على الباب؟

فسمعت صوتاً يقول لها:

- أنا أمك الغولة.

ففتحت لها الباب، فقالت لها الغولة:

- البلد كلها فرحانة وراحوا لزواج ابن السلطان وأنت قاعدة هنا ليه؟

فقالت لها ورقة الحنا:

- عمتي رفضت تاخذني معاها وقالت لي اقعدي نقي الرز والعدس.

فقالت لها الغولة:

- أنا أجلس أنقي الرز والعدس وأنت روحي لزواج ابن السلطان.

فرحت ورقة الحنا وقالت:

- كيف أروح وأنا في هذي الحالة.

فقالت لها الغولة: ما عليك؟

وقامت غسلتها وألبستها أحسن الثياب وجزمة بيضاء تلمع كالبرق، ثم أوصلتها إلى الزواج وقالت لها:

- قبل الزفّة ترجعي البيت، فهمتي.

فقالت لها ورقة الحنا:

- طيب.

كان الناس في قصر السلطان مزدحمين وكلّ البنات متزينات بأحسن ما عندهن، وعندما ظهرت ورقة الحنا غطّت على جميع النساء وكان جمالها يشدّ كلّ الأبصار عليها، وكلّ من حضر الزواج راح يسأل:

- بنت مين هذي... بنت مين؟

لم يكن أحد يعرف فأسرعت أخت الأمير لأخيها وقالت له:

- بين البنات اللي في الزواج بنت أجمل منها ما شفت؟

أخذ الأمير يتطلع فرآها وعشقها، فخرج ليحدّثها، لكنّها خرجت تجري فجرى خلفها، لكنّه لم يلحق بها وسقطت منها فردة حذائها فتناولها الأمير وقال:

- لا أريد زوجة لي إلاّ صاحبة هذه الفردة.

وطلّق عروسه قبل أن يصل إليها، وخرج خدمه يدورون على البيوت بداخل المدينة يبحثون عن صاحبة ذلك الحذاء.

ركضت ورقة الحنا حتى وصلت إلى بيتها، وكانت الغولة قد أنجزت تنقية الرز والعدس، فخلعت عن ورقة الحنا ملابسها ودهنتها بالفحم وتركتها، فدخلت عمتها ووجدتها منكبّة بين الكيسين، فقالت:

- إنت خرجتي الليلة.

فقالت ورقة الحنا: فين أروح وأنا قاعدة أنقي الرز والعدس.

وعندما نظرت عمتها إلى الرز والعدس وقد نقّته قالت:

- الليلة جات بنت لقصر السلطان جمالها يسرق القلب وكنت أفكرك إنت لكن أش جاب لجاب.

وكان الناس يتحدثون عن حرس الأمير الذين يدورون على البيوت وبيدهم فردة الحذاء، وكلّ امرأة تتمنّى أن تأتي فردة الحذاء على مقاس رجل ابنتها.

دار الحرس على كلّ البيوت ولم يعد باقياً إلاّ بيت اللبّان فدخلوا فاستقبلتهم أم إكرام وقالت:

- مقاس هذي الجزمة على قد قدم بنتي.

فقالوا: فينها؟

قامت وأخرجت إكرام، وعندما رآها الحرس قالوا:

- لا يمكن.

فقالت: نحاول. وظلت لوقت طويل تحاول إلباس ابنتها إكرام فردة الحذاء وكلما حاولت كانت إكرام تصيح من الألم وقد تجرّحت قدمها، فقال لها الحرس:

- لقد درنا البلد كلها وما لقينا صاحبة هذه الجزمة، ما في بنت غير هذه.

فقالت لهم أم إكرام:

- لا ما في.

وكان هناك ببغاء أخذ يصيح:

- ورقة الحنا في بيت الفحم.
فكانت أم إكرام تهشّه والحرس يسألون:
- أش يقول هذا الطير؟
فكانت تقول لهم: ولا شيء... ولا شيء.
لكنّ الببغاء أخذ يصيح مرة أخرى:
- ورقة الحنا في بيت الفحم.
تحرّك الحرس إلى بيت الفحم ووجدوا هناك فتاة جميلة ملطّخة بالفحم، فقالوا لها:
- جرّبي هذه الجزمة.
وما أن وضعت قدمها حتى جاءت الجزمة على مقاسها تماماً، فحملها الحرس إلى قصر الأمير، وعندما رآها فرح بها كثيراً وقال لها:
- من أول ما شفتك حبيتك... تتزوّجيني.
وافقت ورقة الحنا على الزواج، وأُعلن في كلّ البلاد عن زواج الأمير بستّ الحسن والجمال، وتمّت دعوة كلّ البلاد واستعدّ الناس لرؤية هذه الفتاة التي قلبت قلب الأمير وجعلته يطلّق زوجته قبل أن يدخل عليها.
وكانت أم إكرام تتحرّق وتقول: «والله ما خلّيها تفرح»، وقامت من حينها ومرّت على ساحر وقالت له:
- أبغى منك تسويلي سحر ينفذ في وقته.
أعطاها الساحر السحر فانطلقت بسرعة إلى قصر ابن السلطان ودخلت غرفة ورقة الحنا فوجدت الوصيفات يسرّحن شعرها فقالت:
- والله ما يزيّنها إلاّ أنا، فهذه بنتي.
وطردت الوصيفات وقامت تسرّح شعر ورقة الحنا، وفي كلّ مكان تغرس دبوساً وورقة الحنا تصيح وهي تشدّ على شعرها وتغرس الدبابيس برأسها، ومع الدبوس السابع تحوّلت ورقة الحنا إلى حمامة بيضاء طارت ووقفت على شرفة القصر، وأحضرت ابنتها إكرام وألبستها الملابس الحريرية وزيّنتها وأجلستها في مكان ورقة الحنا، وعندما دخل الأمير ورأى إكرام أخذ يسأل:
- فين ورقة الحنا.

فكانت أم إكرام تقول له: هذه ورقة الحنا.
لكنه سقط مريضاً وبين أنينه ظلّ لسانه يسأل:
- أبغى ورقة الحنا.
وزداد مرضه حتى يئس أبوه من شفائه ونادى في المدينة:
- مَن يعالج الأمير له ما يريد؟
وسمعت الغولة بالخبر فخرجت إلى قصر السلطان وقالت:
- أنا أعالج الأمير.
وعندما دخلت ورأت الحمامة البيضاء التي تقف في الشرفة تقفز من مكان لآخر دون أن تطير قالت للحرس:
- أمسكوا بهذه الحمامة وجيبوها لي.
أمسك الحرس بالحمامة وسلّموها للغولة، فأمسكتها من رأسها وأحسّت بشيء حاد تحت أصابعها فنزعته فخرج دبوس كبير وأخذت أصابعها تتنقل وتنزع الدبابيس من رأس الحمامة، ومع خروج الدبوس السابع عطست الحمامة وعادت ورقة الحنا إلى حالتها الأولى، وقالت الغولة لورقة الحنا:
- علاج الأمير أن يشمّ رائحتك.
فاقتربت منه وأخذ يتشمّمها فعادت إليه روحه فنهض من مرضه وسألها عن قصتها فأخبرته بها من طقطق إلى السلام عليكم، فقام الأمير بإرسال الحرس، وسجن إكرام وأمها، وأقيمت الأفراح وعاشوا في نبات وبنات... ولو كان بيتكم قريب كنا أرسلنا لكم صحنين زبيب.

الراوية أم فواز - مكة

ابن التفاحة

كان زوجان لم يرزقهما الله بالخلف، وسعيا بكلّ الوسائل للحصول على خلف لكنهما لم يعثرا على بغيتهما، فقنعا بهذه الحال وعاشا حياتهما سعيدين لا تنغّص عليهما هذه السعادة إلا حينما تأتي سيرة الأطفال.

كانت الزوجة تسهر الليل تناجي القمر، وكلما رأت ضوءه منكسراً[1] علمت أنّ حظها العاثر لن يتخلى عنها، وفي ليلةٍ مقمرة، تحققت فيها من استدارة القمر، تخيّلت طفلاً معلّقاً بضوء القمر يبكي ويمدّ يداً واحدة وكأنه يناديها، فاستبشرت خيراً وظلّت تنتظر أن تتحقق أمانيها.

ذات يوم كانت الزوجة تقف أمام نافذتها فرأت امرأة غريبة تمشي في الطرقات وتصيح:

---

(١) يعتقد بعض الناس في بعض مناطق العالم أنّ القمر عريان، لأنه لا يتلاءم معه أي لباس، نتيجة تقلّبه بين الزيادة والنقصان. وبعضهم يعتقد أنّ القمر كان يلاحق الشمس من غير انقطاع، بمطارحات الحب، حتى غضبت الشمس في النهاية فلطّخت وجهه المستدير بالرماد كي يدعها في هدوء، ومنذ ذلك الحين والقمر يحتفظ بتلك البقع السوداء. وفي بعض الأحيان يفسّر هذا السواد على أنه أرنب أو أطفال. وكان الناس في العصور الوسطى يفسّرون تلك البقع بأنها تمثل صورة قابيل وهو يحمل تقدمة مؤلفة من حزمة عصي. (محمد توفيق السهلي وحسين الباش: المعتقدات الشعبية في التراث العربي، دار الجيل، ص٢٨)
وأرى أنّ حضور القمر في هذه الحكاية هو استجلاب لعبادة قديمة حين كان الناس يعبدون القمر كإله، وتمّ تغييب هذه العبادة أثناء الحكي وهذا ما يجعلني أكرّر دائماً أننا بقايا أساطير، فكلّ أسطورة تتوغل في الزمن من غير أن تضمحل إلا أنها تتخذ شكلاً جديداً ويتمّ ممارستها قولاً أو فعلاً من غير معرفة مصدرها وأصلها الأسطوري.

- أبيع تفاح الحمل... أبيع تفاح الحمل!

فنادت عليها فجاءت المرأة منادية:

- تفاح الحمل.

فقالت لها:

- أش قصة تفاح الحمل هذا؟

فقالت المرأة الغريبة:

- أنا أبيع تفاح والمرأة اللي ما تحمل تأكل تفاحة واحدة كاملة تحمل على طول.

قالت الزوجة في نفسها: «جرّبت كل شيء وما يضر أجرب هذه التفاحة» واشترت منها تفاحة وأكلتها كاملة، وبعد مضي شهر أحسّت بالوحم وحملت وولدت ولداً جميلاً، وبعد سنة مرّت المرأة الغريبة تنادي:

- أبيع تفاح الحمل... أبيع تفاح الحمل.

اشترت الزوجة منها تفاحة ثانية وأكلتها وحملت وولدت ولداً. وبعد سنة ثانية مرّت المرأة الغريبة تنادي على تفاحها، فاشترت منها تفاحة وأكلت نصفها وشعرت بالشبع فلم تكملها، فحملت، وعندما ولدت ولدت ولداً ناقصاً في كلّ شيء؛ فله يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة وأذن واحدة... كلّ شيء فيه ناقص جزءاً، فتذكّرت أنّها لم تأكل التفاحة كاملة وندمت ندماً كبيراً، ولكنها استحكمت لحكم الله وأخذت تربّي ولدها الناقص وتعتني به وتخاف عليه خوفاً كبيراً فكانت لا تسمح له بالخروج للشارع، وقد امتاز الابن الناقص بأنه شجاع لا يخاف أيّ شيء، وعندما كبر أصبح من شجعان البلد.

وفي سنة من السنوات مرض السلطان ووقف على حالته أطباء كثيرونُ فلم يعرفوا علاجاً له... فأرسلوا إلى حكماء في البلدان الأخرى يطلبون منهم معالجة السلطان، فجاء حكيم يعرف دواء كلّ مرض، وعندما رأى حالة السلطان قال:

- إذا بغيتم تعالجوا السلطان جيبوا له عشبة الليل.

فقال وزراؤه:

- ومن فين نجيب عشبة الليل؟

فقال الحكيم:

- هذه العشبة لا توجد إلاّ في قمة جبل الموت، ولم يصل إليها إلاّ قلة قليلة من أهل الأرض.

فخرج المنادي ينادي في شوارع المدينة: «الحاضر يبلغ الغايب... بأمر من السلطان شفاه الله يعلن أنّ من يحضر له عشبة الليل من قمة جبل الموت يزوّجه ابنته»، وواصل المنادي إعلان الخبر حتى شمل نداؤه كل المدينة.

سمع الخبر القاصي والداني وتحفّز الشباب، كلّ واحد منهم رغب في الأميرة التي ذهب جمالها مضرب الأمثال، وخرج شباب كثر قاصدين جبل الموت لجلب عشبة الليل، وكلما غاب واحد منهم أياماً عاد خائباً، وبعضهم لم يعد، وقيل إنه مات.

كان جبل الموت محاطاً بالغيلان والسباع والأشجار السامة، ولكي يصله الشخص عليه أن يقطع صحراء موحشة تنتهي بطريقٍ ضيق يجلس به رجل مسن كلّما عبره شاب حذّره من صعود الجبل، ومضت أيام وشهور دون أن يعود أحد بعشبة الليل.

كان (النص) يتابع أخبار الشباب الذين ذهبوا وعادوا دون أن يعثروا على عشبة الليل، فقال لأمه:

- أنا رايح أجيب العشبة.

فضربت على صدرها خوفاً عليه وقالت له:

- ما قدر أحد يجيبها وأنت رايح ترمي نفسك للموت؟

فقال لها:

- رايح أجيبها... أجيبها!

حاولت أن تمنعه لكنّه أصرّ على الخروج وسمع به أهل المدينة فسخروا منه ووقفوا في طريقه يضحكون عليه، فلم يلتفت إليهم ومضى في طريقه. سار يوماً كاملاً، وعندما غربت الشمس صعد شجرةً ونام، وفي منتصف الليل سمع أصوات تتشاجر ففتح عينيه فرأى ذئبين كلّ منهما قابض على خصمه، فقال لهما:

- لو ما تسكتوا أقوم أسلخ جلد كلّ واحد منكم.

خاف الذئبان من تهديده وقالا له:

- احكم بيننا.

فقال لهما:

- وما هي قصتكم.

فقال الذئب الأكبر:

- أقلّك قصتنا: إحنا أخوين ترك لنا أبونا قطعة أرض كبيرة نصطاد أي شيء يكون فيها، وعشنا على هذا الحال، لكن أخويه الصغير هذا قال أنت تأكل أكثر مني تعال نقسم الأرض وكل واحد يأكل من أرضه. وافقته وقسّمنا الأرض، وبعد أيام جاء غاضباً ويقول إني غششته وإنّ الأرض اللي هو جالس فيها قلّ رزقها، وعلشان كذا نتخاصم.

نزل النص وقال لهما:

- الرأي عندي تبقوا على أرضكم بدون قسمة.

فقال الذئب الصغير: ولكن أنا اتضرّر، فهو يأكل أكثر مني.

فقال له النص: اليوم يأكل أكثر منك وأنت بكرة تأكل أكثر منه.

فقال الذيب الصغير: كيف؟

فقال النص: بكرة أخوك يصير كبير في السن فيأكل أقل منك.

رضي الذئبان بحكم النص وأعادا الأرض بينهما، وشكرا له رجاحة عقله وأعطياه بذوراً من أرضهما وقالا له:

- هذه البذور ما يشمّها كائن من كان إلاّ وينام، وعلشان ما تنام حطّ حبة تحت لسانك ينام كلّ من حولك إلاّ أنت. وانتبه تستخدمها مرتين في وقت واحد، فلو استخدمتها مرتين تنقلب عليك وتنام أنت.

أخذ النص البذور ووضعها في جيبه وعاد إلى النوم، وقبل أن تشرق الشمس نهض وسار باتّجاه جبل الموت، فاعترضه الرجل العجوز وقال له:

- فين رايح؟

فقال النص: أنت عارف فين أبغى.

فقال له: ما في أحد مشي في هذا الطريق ورجع سالم، فارجع قبل ما يعود ينفع الندم.

فقال النص: أنا طالع طالع.

وتابع طريقه، فلحق به الرجل العجوز وحاول أن يمنعه، فدفعه النص فوقع على الأرض وأخذ يصيح وينادي:

- يا حماة الجبل... يا حماة الجبل.

فخرجت من الجبل الغيلان والسباع والثعابين فوجد النص نفسه محاطاً من كلّ جانب، لكنه لم يخَف، وجلس على الأرض ونثر جزءاً من البذور التي حصل عليها من الذئبين بعد أن وضع حبة تحت لسانه، ففاحت رائحة زكية[1] وانتشرت في كلّ مكان، وما هي إلاّ لحظات حتى نامت كلّ تلك المخلوقات التي خرجت من الجبل، فقام واتجه إلى أعلى الجبل وأخذ يبحث عن عشبة الليل، ولم يكن يعرف شكلها فاحتار أي عشبة يمكن أن يقطفها، وظلّ لوقت طويل حائراً، وخشي أن تنهض تلك المخلوقات التي نامت، وكلما مضى الوقت زادت حيرته، فقرر أن يأخذ من كلّ النباتات التي على قمة الجبل، وعندما بدأ كانت النباتات تبتعد عن يده، وكلما أمسك بإحداها هربت باتجاه آخر. ظلّ يحاول الإمساك بأي نبتة، لكنّ كلّ محاولاته فشلت، ورأى أنّ تلك المخلوقات بدأت تتململ في رقدتها فقرر النزول بأسرع ما يمكن، وبينما هو يسير متخيّراً الطريق التي سيسلكها في عودته رأى نبتة

---

(١) الروائح الزكية مطلب بشري منذ الأزل، وقد وجدت الطيوب في الذاكرة البشرية منذ هبوط آدم عليه السلام، وقد ذكرت كتب التاريخ أنّ آدم عليه السلام أهبط إلى الأرض وعلى رأسه إكليل من شجر الجنة، فلما صار إلى الأرض ويبس الإكليل تحات ورقه فنبتت منه أنواع الطيب.

وقال بعضهم: بل كان ذلك ما أخبر الله عنهما أنهما جعلا يخصفان عليهما من ورق الجنة، فلما يبس ذلك الورق الذي خصفاه عليهما تحات فنبتت من ذلك الورق أنواع الطيب.

وقال آخرون: بل لما علم آدم أنّ الله عزّ وجلّ مُهبطه إلى الأرض جعل لا يمرّ بشجرة من شجر الجنة إلاّ أخذ غصناً من أغصانها، فهبط إلى الأرض وتلك الأغصان معه، فلمّا يبس ورقها تحات فكان ذلك أصل الطيب.

وقد نسب لعبدالله بن عباس قوله: إنّ آدم حين خرج من الجنة كان لا يمرّ بشيء إلاّ عبث به، فقيل للملائكة: دعوه فليتزوّد منها ما شاء، فنزل حين نزل بالهند، وإنّ هذا الطيب الذي يجاء به من الهند ممّا خرج به آدم من الجنة. وعن الربيع بن أنس عن أبي العالية قال: خرج آدم من الجنة فخرج منها ومعه عصا من شجر الجنة وعلى رأسه تاج أو إكليل من شجر الجنة، قال: فأهبط إلى الهند ومنه كلّ طيب بالهند. (ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**)

ووفق هذا السياق يرى آخرون أنّ الله زوّد آدم من ثمار الجنة، فثمارنا هذه من تلك الثمار. (المصدر نفسه)

غامقة السواد ملتصقة بالأرض ولها بذور لامعة كالنجوم، فاقترب منها وأمسك بها فلم تفلت من بين يديه[1]، فقطع منها كمية ووضعها في زنبيله، وكان يفكر بأخذ كميات كبيرة لكنه أحس بحركة تلك المخلوقات تتحرك وتستعد لأن تستيقظ، فاكتفى بما أخذ من تلك العشبة السوداء ونزل من الجبل مسرعاً.

ووصل إلى المدينة وشاع خبره وكانت كلّ الألسن تردّد:

- النص جاب عشبة الليل. . . النص جاب عشبة الليل.

دخل النص قصر السلطان وأعطى الحكيم العشبة، فأخذها منه وغلاها وشرب السلطان ماءها ودلك جسده بها، وكان كلّ يوم يستخدم جزءاً منها حتى تعافى السلطان وعادت إليه صحته. وبعد أيام جاء النص وقال للسلطان:

- أنا جبت لك العشبة وفاضل عليك توفي بوعدك.

فقال السلطان:

- كلام السلاطين وعد، أزوجك بنتي بشرط أنها توافق.

فدخل عليها وقال لها:

- هذا النص جا يطلب إيدك وأنا وعدت أنه من يجيب عشبة الليل أزوّجك له.

فقالت الأميرة:

- أنا أتزوّج هذا المخلوق الغريب اللي كلّ شيء فيه واحد. . . عين واحدة وأذن واحدة ويد واحدة، لا ما أتزوّجه، أعطيه اللي يبغى بس ما أتزوجه.

نزل السلطان، وكانت عليه إمارت الخجل، وقال للنص:

- يا ولدي أنا وعدت بشيء ما أملكه والأميرة رافضة تتزوّجك فاطلب اللي تبغاه.

---

(١) حدث في هذه الأسطورة عكس ما حدث في أسطورة بياض زهرة الياسمين التي تقول حكايتها إنّ عاشقاً كان يتبع عشيقته من كوكب إلى آخر حتى وصلت الأرض، وكانت تبكي حبيبها الغائب، ومع انسكاب أدمعها كانت تنبت زهرة بيضاء مكان كلّ دمعة حتى امتلأت الأرض بالزهور البيضاء، ومن ثم غادرت المكان فوصل بعدها حبيبها ورأى المكان مُزهراً وعلم أنّ حبيبته كانت هنا؛ فأخذ يعانق زهور الأرض، وكلّما قبض على زهرة انحنت له فلوّنها. . . ويقبض على أخرى تنحني له فيلوّنها. . . وأبت إحداها أن تنحني فكانت «الياسمين» بيضاء حتى الآن. . .

فقال النص:

- ما أبغى إلاّ الأميرة، وأنت في حلّ من وعدك ليه؟

وعاد حزيناً للبيت وأخذ يبكى وأمه تواسيه فقال لها:

- ليه أنا من دون الناس كلّ شيء فيَّ واحد؟

قصّت عليه أمه القصة كاملة وقالت له:

- أنت راجل مؤمن وهذا قدرك!

سمع الناس بقصة النص وتردّد الكلام على السلطان وابنته وأنّ السلطان ليس له عهد ولا وعد... وراحت أيام وجاءت أيام ومرّت تلك المرأة الغريبة في المدينة تصيح:

- أبيع تفاح الحمل... أبيع تفاح الحمل.

وعندما وصلت إلى الشارع الذي به قصر السلطان جلست متعبةً، فرأتها الأميرة ونادت عليها، فذهبت لتجيبها فسألتها الأميرة:

- تبيعي أيه؟

فقالت المرأة الغريبة: أبيع تفاح.

فقالت الأميرة: أعطيني تفاحة.

فناولتها واحدة وقضمتها للنصف.

فقالت لها المرأة الغريبة: أنت متزوجة؟

فقالت الأميرة: لا.

فضربت المرأة الغريبة على رأسها وقالت لها:

- البنات اللي ياكلوا مثل هذه التفاحة تسخط.

وركضت هاربةً وهي خائفة، وفجأةً تحوّلت الأميرة إلى نصفين: نصفها الأعلى إنسان ونصفها الأسفل حمامة، وعندما علم السلطان بحالة ابنته حزن حزناً عظيماً وطلب الحكماء من كلّ البلدان طلباً لعلاجها، فلم يعرف أحد دواءً لحالتها، وبعد زمن جاء الحكيم نفسه الذي عالج أبيها، فقال:

- الأميرة محتاجة تلوك عشبة الفجر، وهذه العشبة ما توجد إلاّ في جبل الموت.

فنادى منادي في البلد:

- مين يحب الأميرة ويبغاها زوجة له يجلب لها عشبة الفجر من جبل الموت.
تذكّر الناس قصة النص وقالوا:
- مين يضمن لنا أننا لمّا نجيب عشبة الفجر ما تسوّي فينا مثل ما سوّت في النص.
ولم يذهب أحد لجلب عشبة الفجر، وعلم السلطان بما يقوله أهل البلد فأرسل مناديه ينادي:
- من أراد الذهاب لجبل الموت يجي للسلطان يكتب له على الأميرة وإذا ما جاب العشبة خلال عشرة أيام يصير كتابه على الأميرة لاغي ويروح واحد ثاني.
توافد الشباب على قصر السلطان، وكل عشرة أيام يخرج شاب، بعضهم يعود وبعضهم لا يعود، وجرّب شباب البلد كلهم حتى أخوة النص راحوا ولم يفلحوا... وبقي النص الوحيد من شباب البلد الذي لم يخرج. وفي يوم جاء إليه السلطان متوسّلاً إليه أن يذهب ليجلب عشبة الفجر، فقال له النص:
- قبل ما أروح أبغى أشوف الأميرة.
رحّب السلطان بطلبه وأدخله على الأميرة، فقال لها:
- أنا النص وهذا شكلي تقبلي بي زوج لك لو جبت عشبة الفجر؟
فقالت: أقبل بك.
خرج النص من قصر السلطان لوداع أمه وكانت خائفة عليه فقال لها:
- لا تخافي ووحّدي الله، واللي يريده الله يكون.
وأخرج البذور التي حصل عليها من الذئبين واتّجه صوب جبل الموت، فاعترضه الرجل العجوز وقال له:
- فين رايح؟
فقال النص: أنت عارف فين أبغى؟
فقال له: ما في أحد مشي في هذا الطريق ورجع سالم، فارجع قبل ما يعود ينفع الندم، ولا تفكر أنك نجوت في المرة الفايتة رايح تنجا هذه المرة.
فقال النص: أنا طالع، طالع.
وتابع طريقه فلحق به الرجل العجوز وحاول أن يمنعه فدفعه النص فوقع على الأرض وأخذ يصيح وينادي:

- يا حماة الجبل... يا حماة الجبل!

فخرجت من الجبل الغيلان والسباع والثعابين ووجد النص نفسه محاطاً من كلّ جانب، لكنه لم يخف وجلس على الأرض ونثر جزءاً من البذور التي حصل عليها من الذئبين بعد أن وضع حبّة تحت لسانه، ففاحت رائحة زكية وانتشرت في كلّ مكان، وما هي إلا لحظات حتى نامت كلّ تلك المخلوقات التي خرجت من الجبل.[1] فقام واتجه إلى أعلى الجبل ولم يضيّع وقتاً طويلاً فقد بدأ بالاقتراب من النباتات والأعشاب وكلما هربت من بين يديه عشبة تركها، ورأى عشبة الليل فحاول أن يمسكها فهربت من بين يديه، وأخذ يبحث بجوار جذورها فرأى عشبة مزهرة ببياض ناصع وبوسطها قرص كأشعة الشمس، وعندما أمسكها بيده تلوّت بين أنامله فقطف منها ما شاء وعاد سريعاً من حيث قدم، وسمع أهل المدينة بعودته وتحدّث الجميع:

- النص عاد بعشبة الفجر... النص عاد بعشبة الفجر.

عندما سمع السلطان بذلك استقبله كما يستقبل السلاطين، وكان في استقباله الوزراء والأمراء، وقبل أن يعطي الحكيم العشبة قال للسلطان:

- أبغى أشوف الأميرة.

فسمح له برؤيتها، فجاء ووجدها متهيئة لاستقباله فقال لها:

- أنا جبت العشبة وأنت في حلّ من وعدك إذا ما تبغيني.

فقالت له:

- بالعشبة بدون العشبة أنا قابلة بيك.

فرح النص كثيراً وكاد من فرحه أن يطير، وقبل أن يخرج قال لها:

- أش اللي صار حتى صرت على هذه الحالة؟

فأخبرته بالقصة وقالت له:

- وهذه النص الثانية من التفاحة.

فالتقطها منها وقضمها فأخذت تصيح به:

---

(١) نلحظ تكرار الأسلوب والكلمات والطريقة.، وهو نهج تنهجه الأساطير الشعبية في اتباع أسلوب واحد عندما يتكرر الحدث.

- لا تأكلها... لا تأكلها.

سمع السلطان صراخ ابنته فخاف أن يكون النص قد أساء إليها، فجرّد سيفه ودخل عليهما وصعق عندما رأى النص تنبت له رجل ويد وعين وأذن ويعود إنساناً كاملاً، وجاء الحكيم وأخذ من النص عشبة الفجر وغلاها وأشرب الأميرة ماءها ودلك الجزء الأسفل منها فعادت كما كانت... وانتشر خبر النص والأميرة في كلّ البلاد وخارجها فتعجّب الناس كلّ العجب من حالتهما... وأعلن عن يوم الزواج وحضره الملوك والأمراء والأغنياء والفقراء، وعاش النص والأميرة في تبات ونبات وخلفوا صبياناً وبنات... ولو كان بيتكم قريب كنا أرسلنا لكم صحنين زبيب.

رواية أمل محيسن - مكة

فاطمة الغالية تندب السنين الخالية

كانت فاطمة مدلّلة عند أبيها الذي كان يحبّها حبّاً كبيراً، وكانت أجمل بنات القرية، وكل يوم والخطّاب واقفون على باب أبيها يطلبون يدها، وكلما شاورها أبوها قالت:

- نصيبي ما جا يا بويه.

فيردّ على الخطّاب ردّاً حسناً، وكلّ ما يمضي يوم تزداد فاطمة حلا على حلا، وتناقل الناس خبرها وتمنّى كلّ شاب أن تكون فاطمة من نصيبه، وكان عند أبي فاطمة جمّال شاب اشتهر بالأمانة والشجاعة، وكلّ يوم يرى فاطمة عندما يعود ويخرط حمولة جمله، فيظلّ يتطلّع إليها متشوّقاً من غير أن تعيره اهتماماً، وزداد تعلقه بها ولم يقدر أن يصبر على هذا العشق فذهب إلى أبيها خاطباً فقال له أبوها:

- خطبها الأمراء وأبناء الوزراء ورفضت، تبغاها تقبل بك؟

فقال لها الجمّال: من حقي أنّي أخطبها ومن حقها تقبل أو ترفض؟

فقال له أبوها: صدقت، خلّيني أشاورها.

دخل أبوها إليها وأخبرها أنّ الجمّال خطبها، فأخذت تضحك من كلّ قلبها وتقول:

- جمّال؟ . . .

قال لها أبوها: نعم، الجمّال.

فقالت لأبيها: إحسانك معه قابله بطمع في بنتك. ردّ عليه ردّ قاسي واطرده من بيتنا.

كان الجمّال يسمع الكلام، فتجرّأ ودخل عليهما فقال له أبوها:

- أنت ما تحترم نفسك، داخل على بنتي في غرفتها!

فقال الجمّال: من صغري وأنا أخدمك بأمانة وإخلاص، وبعد ما سمعت كلام فاطمة جيت أقلك إني مسافر.

والتفت إلى فاطمة وقال لها:

- يا فاطمة، لا أمير ولا وزير يخلّيك سعيدة. اللي يتحرك له قلبك تلاقي معاه السعادة بس لا تحتقري من يحبك.

وخرج. أحسّت فاطمة أنّها أخطأت في حقه، وأخذت تنادي عليه فلم يجبها. انتظرته في صباح اليوم التالي فلم يحضر، وسألت عنه فقالوا لها:

- سافر ولا أحد يعرف أين كانت وجهته.

حزنت وأصبحت تشعر أنّ الحياة لم تعد كالسابق، فهي دائمة التفكير في الجمّال، وأصبحت تجد سلواها حينما تخرج إلى خارج القرية، حيث كان الجمّال يعمل، وتظلّ هناك تناجيه وتبكي حتى وقت الغروب ثم تعود إلى البيت.

في إحدى العصاري كانت تجلس في الخلاء بجوار أشجار الأثل تترقّب في الطرقات وتمنّي نفسها أن يظهر جمّال أبيها، فمرّ بها صقر ورآها فأعجبته فهبط والتقطها بمخالبه وحلّق بها بعيداً وأنزلها فوق جبلٍ عال. كانت خائفة وتبكي بشدة، فقال لها الصقر:

- ما شفت أجمل منك طوال حياتي، فقد طرت في كلّ الدنيا لكن مثلك ما شفت وأبغى أتزوّجك، أش تقولي؟

أخذت تبكي وتصرخ وتقطع شعرها، فقال لها الصقر:

- اللي تبغي تسوّيه سوّيه، ما في أحد حا يسمعك وحتكوني زوجتي بالمروة أو بالقوة.

ثم تركها الصقر على قمة الجبل بعد أن وضع لها الماء والأكل وقال لها:

- أنا مسافر لآخر الدنيا ولما اجي استعدي للزواج.

وحلق بعيداً عنها، ووجدت نفسها معلقة فوق قمة الجبل، وكلما حاولت النزول وجدت أنّ الصخور ملساء وأنها لن تستطيع فتعود إلى مكانها حزينة وتتذكر الجمّال بحسرة وتظلّ تردّد:

جمّال أبي... جمّال أبي

فاطمة الغالية

تندب السنين الخالية

فوق الجبال العالية

أما الجمّال، فبعد أن قال لفاطمة: يا فاطمة، لا أمير ولا وزير يخليك سعيدة اللي يتحرك له قلبك تلاقي معاه السعادة بس لا تحتقري من يحبك؟ خرج والدنيا مسودّة في عينيه ولم يكن يعرف إلى أين يتجه، فكان يسير ويجرّ جمله خلفه وهو لا يدري إلى أين تقوده قدماه. ظل يسير لأيام وليالٍ حتى وصل بريّةً لا يسكنها الطير، وبقي هناك يشارك جمله أكل الحشائش، واستمر على هذا الحال... وفي يوم هبّت ريح قوية قادمة من الجبال البعيدة مثرثرةً:

جمّال أبي... جمّال أبي

فاطمة الغالية

تندب السنين الخالية

فوق الجبال العالية

قال في نفسه: «هذا صوت فاطمة» وفكّر ما الذي يأتي بصوت فاطمة من جهة الجبال العالية، وحاول أن يقنع نفسه أنّ شدّة تعلقه بها جعله يتخيّل صوتها في كلّ حين. وأصبحت تهبّ في كلّ يوم، قبل الغروب، ريح قوية قادمة من الجبال البعيدة حاملةً صوتاً يردّد:

جمّال أبي... جمّال أبي

فاطمة الغالية

تندب السنين الخالية

فوق الجبال العالية

أيقن الجمّال أنّ هذا ليس وهماً فقاد جمله من خطمه واتّجه صوب الجبال العالية، وكلما قرب سمع صوت فاطمة واضحاً حتى وصل إلى أعلى جبل بين الجبال، فبقي بجواره يستمع إلى نداء فاطمة. وفي الصباح رأى الجمّال أناساً يسيرون بسرعة وهم يحملون أوانيهم وحاجياتهم ويرتحلون، ومرّ راعٍ يهشّ على غنمه مستعجلاً فسأله الجمال:

- لو أبغى أطلع هذا الجبل كيف أطلع؟

فقال له الراعي:

- أنت مجنون؟

فقال له الجمّال: ليه تسأل هذا السؤال؟

فقال له: ما تشوف الناس كلها هاربة.

فقال له الجمّال: هاربين من ايه؟

فقال الراعي: هذا الجبل اللي تسأل عنه فيه جنّي يجيه من السنة للسنة وقرب وقت جيته والناس خايفة وهاربة لأنه لو جا ولقى أحد يمصّ دمه ولو كانوا ألف ويعيش على هذا الدم بقية السنة.

فقال له الجمال: واش قصة الصوت اللي يجي من فوق؟

فقال الراعي: يقول الناس إنّ الجني خطف بنت ما في أجمل منها، خطفها وهي تدور على جمّال ابوها.

هرب الناس كلّهم ولم يعد أحد موجوداً في تلك الناحية إلاّ الجمال وجمله. وبعد يومين تغطّت عين الشمس وجاء من بعيد صقر يضرب بجناحيه ونزل على قمة الجبل وصرخ صرخةً هزّت أركان الوادي، ولم يعد هناك طائر أو حيوان إلاّ وهرب، حتى جمل الجمّال فكّ عقاله وأخذ يركض في البرية، فلحق به الجمّال وأمسك به وأخذ يمسّد على شعره حتى هدأ، وما هي إلاّ لحظات حتى هبط الصقر بالقرب من الجمّال وصاح به:

- كل مَن في الوادي هرب وأنت باقي، يعني تتحدّاني؟

فقال الجمّال:

- يا ملك الطيور، جيت أهرب مع الناس فقرصني عقرب فبقيت في مكاني من شدّة المرض.

فقال الصقر: هذا ما هو عذر، راح مصّ دمك.

فقال له الجمال:

- دمي فاسد ومسمّم ولو مصيته حتموت، لكن أنا عندي لك حاجة لو أكلتها تعيش بقية الدهر لا تجوع ولا تعطش.

فقال له الصقر: اش هي هذه الحاجة؟

فقال الجمّال: قبل ما أقلك عليها خلّصني من السم اللي في دمي.

فقال الصقر: وكيف أخلصك من السم؟

فقال الجمّال: في نبتة على رأس الجبل لو مضغتها راح السمّ. شيلني على جناحك علشان أقطف منها وبعدين أقلّك على هذه الحاجة؟

فكّر الصقر وبعد لحظة وافق وقال الجمال: اطلع على ظهري.

طلع الجمال على ظهر الصقر وحلّق به إلى أعلى قمة الجبل، وعندما رأته فاطمة كادت تصيح به فرحة فأشار إليها أن تصمت فصمتت، وتصنّع أنه يبحث عن العشبة وأخذ بعضاً من أعشاب الجبل وقال للصقر:

- هذه العشبة تشفيني. هيا نزّلني علشان أعطيك الحاجة اللي وعدتك بها.

فقال الصقر: الحاجة اللي تبغى تعطيني تكفي واحد ولا اثنين؟

فقال الجمال: ليه تسأل؟

فقال الصقر: شايف هذه البنت عجبتني وأبغى أتزوّجها وأبغاها تعيش معي بقية الدهر.

فقال الجمّال: الحاجة اللي أبغى أعطيك تكفي واحد، ولكن لو كان معاك واحد ثاني لازم يكون معاك في نفس الوقت.

فقال الصقر: خلاص ناخذها معانا.

فقال له الجمّال: هذا أحسن.

فقال الصقر للجمّال وفاطمة: هيا اركبوا على ظهري.

ركبا على ظهره وحلّق بهما ونزل إلى بطن الوادي. تظاهر الجمّال أنه يمضغ تلك العشبة التي جاء بها من أعلى الجبل، فقال له الصقر:

- أنا أوفيت باللي عليّ وجا دورك. . . فين الحاجة اللي تقول عليها؟

فقال الجمّال:

- احفر لنا حفرة تشيل سفينة.

فقال الصقر: وليه الحفرة؟

فقال الجمّال: علشان ندفن الجمل.

فقال الصقر: وليه ندفن الجمل؟

فقال الجمال: أصل الحاجة اللي أبغى أعطيك هي في بطنه، نذبحه ونطلعها من بطنه، ولازم ندفنه، لو ما دفنّاه ما تحقق غرضها.

أخذ الصقر يضرب الأرض بجناحيه حتى فتح حفرةً عميقة تتّسع لسفينة، وتحرّك الجمّال فأمسك بجمله وبرّكه ونحره وقام وشق بطنه، ثم قال للصقر:

- تعال ساعدني ما أنا قادر أوصل للحمة اللي أبغى أعطيك هيه.

فجاء الصقر وهو يقول:

- فين هذه اللحمة اللي تقول عليها؟

فقال له: هنا، لازم تقطعها بنفسك.

أخذ الصقر يقفز بداخل بطن الجمل حتى دخل إلى جوف الجمل، فقام الجمّال في الحال بإطباق بطن الجمل وخياطته بمخرز، وكان الصقر يصيح من داخل بطن الجمل:

- خدعتني، رايح أمصمص عظامك مش دمك.

خاط الجمّال بطن الجمل وجرّه إلى تلك الحفرة العميقة، ثم صاح بفاطمة:

- ساعديني نردم الحفرة.

وردما عليه الحفرة، وانطلقا في الوادي يجريان حتى وصلا إلى بلادهما. اعتذرت فاطمة منه فتقدّم لخطبتها وتزوّجا وخلّفا صبياناً وبنات.

رواية حامدة حمدان

بنت الحطاب

رُزق أحد الحطابين بسبع بنات فكان يشعر بحملٍ ثقيل ويظلّ طوال الليل يفكّر كيف يربيهن وهو في آخر العمر وليس له ولد يساعده في الاحتطاب أو يرعاهن لو مات قبل تزوّجهن، فجاءته ابنته الصغيرة، وهي أكثر أخواتها جمالاً وحكمة، وكانت تحسّ به، وقالت له:

- إحنا سبع بنات وما في عندنا أخ ولا خال[1] خلينا نخرج معك نحتطب ونساعدك في حملك.

---

(١) العرف في الثقافة العامة أنّ أبناء المرأة يستندون على أخوالهم وليس أعمامهم، ولذلك نجد أنّ البنت قالت: ليس لنا أخ أو خال، كون العم يأتي في الحكايات الشعبية خصماً لأبناء أخيه، ولذلك فالمثل القائل «الخال والد» منتشر، حيث يحتل الخال موقعاً رفيعاً في حياة أبناء أخته. وكذلك المرأة تفضّل أخاها على زوجها وأبنائها لكونه سندها. وهناك حكاية مشهورة تنسب أنّ بطلها الحجاج بن يوسف الثقفي والي أمير المؤمنين عبدالملك بن مروان على العراق، ولما عرف عن الحجاج من بطش وفتك إلاّ أنه حكيم فطن. وتروي الحكاية قصة امرأة جميلة، حيث تذهب الحكاية إلى أنّ الحجاج بن يوسف الثقفي قبض على ثلاثة في تهمة وأودعهم السجن، ثم أمر أن تضرب أعناقهم. وحين قدموا أمام السياف لمح الحجاج امرأة ذات جمال تبكي بحرقة فقال: أحضروها. فلما أحضرت بين يديه سألها ما الذي يبكيها؟ فأجابت: هؤلاء النفر الذين أمرت بضرب أعناقهم هم زوجي وشقيقي وابني فلذة كبدي، فكيف لا أبكيهم؟! فقرر الحجاج أن يعفو عن أحدهم إكراماً لها وقال لها: تخيّري أحدهم كي أعفو عنه، وكان ظنّه أن تختار ولدها. خيّم الصمت على المكان وتعلقت الأبصار بالمرأة في انتظار من ستختار؟! فصمتت المرأة هنيهة ثم قالت: أختار أخي! فوجئ الحجاج من جوابها وسألها عن سر اختيارها هذا فأجابت: أما الزوج فهو موجود «أي يمكن أن تتزوّج برجل غيره»، وأما الولد فهو مولود «أي أنها تستطيع بعد الزواج إنجاب الولد»، وأما الأخ فهو =

رفض في بداية الأمر، وعندما وجد نفسه لا يقدر على الاحتطاب اليومي وافق على رأي ابنته الصغيرة، فكانت البنات يخرجن معه ويحتطبن ويبعن ما احتطبوه ثم يعُدن لبيتهن، وكانت الصغيرة تمرّ على بيت السلطان وتتطلّع على بنائه وحدائقه وتظلّ تحلم بأن تكون سيدة القصر. وذات يوم رأتها السلطانة فاستنكرت وجودها بثيابها الممزقة وهيئتها الحقيرة فسألتها:

- مين إنت... وش جابك هنا؟

فقالت لها بنت الحطاب:

أنا أسطب حبيبة الرب

نجمي تعلى ونجمك طبّ

غضبت منها السلطانة وأمرت الحرس بطردها من جوار القصر، فكانت تذهب مع أخواتها للاحتطاب وعندما يعدن تمرّ على قصر السلطان وتدق على باب زوجة السلطان وتقول لها:

أنا اسطب حبيبة الرب

نجمي تعلى ونجمك طبّ

غضبت السلطانة غضباً شديداً وقالت لها:

- حَيتّمك وخليك خادمة تغسلي رجولي صبح وليل.

ثم دخلت على السلطان وقالت له:

- أبغاك تقتل الحطّاب.

فقال لها السلطان: وليه أقتله؟

فقالت السلطانة: أنا أبغي كذا.

فقال لها السلطان: وكيف أقتله بلا سبب؟

فقالت السلطانة: أطلب منه طلب ولو ما نفّذه يكون سبب لقتله؟

فقال لها السلطان: وش أطلب منه؟

فأخذت تفكّر ثم قالت له: قله يجيب لك حملين حطب من غير حبال.

= مفقود «أي لتعذّر وجود الأب والأم». فذهب قولها مثلاً؛ وقد أُعجب الحجاج بحكمتها وفطنتها فقرّر العفو عنهم جميعاً.

ضحك السلطان وقال: والله فكرة!

أرسل السلطان الحرس إلى بيت الحطّاب فجاؤوا به، وكان الحطاب يرتعد من شدة الخوف، وقدّم التحيات للسلطان، فبادر السلطان:

- تعرف ليه طلبتك؟

قبّل الحطاب الهواء أمام السلطان وقال له:

- يا سلطان الزمان، مين أنا حتى أعرف مقاصد سلطان مثلك حكم الشرق والغرب؟

فقال له السلطان: وعلشان أنا أحكم الشرق والغرب أبغى منك طلب وما في بسلطنتي أحد يسوّيه غيرك؟

انحنى الحطاب أمام السلطان وقال:

- رايح أنفّذ اللي تأمر بيه؟

فقال له السلطان: ولو ما نفّذته أقطع راسك عن جسدك.

فقال الحطاب: كلنا عبيد لمولاي السلطان.

فقال له السلطان: أبغى منك حملين حطب بلا حبال.

اندهش الحطاب وقال: يا سلطان الزمان، وكيف أجيب حملين حطب بلا حبال؟

فقال السلطان بصوت غاضب: أنا أبغى حملين حطب بلا حبال ولا تسألني كيف... ولو ما جيت بطلبي بكرة في الصباح سأقطع رأسك.

عاد الحطاب إلى بيته حزيناً يفكّر في طلب السلطان، وعندما أعيته الوسيلة في جلب حزمتي حطب بلا حبال قرّر أن يفاتح بناته بالأمر ويودّعهن ويوصيهنّ أن يتدبّرن أمرهنّ بعد مماته، وخشي أن يقول لهنّ الخبر مجتمعات فيتصارخن ويجمعن عليهن أهل البلد، فذهب إلى كبرى بناته فاستقبلته استقبالاً حاراً وقالت له:

- هه، إش يبغى بك السلطان؟

- ......

- عسى جبتلنا طوق طوق ولا زوج زوج!

فقال لها:

- إحنا فين وإنت فين؟

أحسّت به مهموماً فقالت:

- ليه مهموم؟

فقال لها: إنت أكبر بناتي ورايحة تفهمي وتعقلي أخواتك.

فالتفت إليه مستفسرة: واش اللي رايح تقوله؟

فقال لها: بكره في الصباح رايح السلطان يقطع راسي وجيت أقلك بالخبر وأبغاك تنتبهي لأخواتك وتتعاونوا في حياتكم بعد موتي.

فقالت له ابنته الكبرى:

- وليه يقطع السلطان راسك؟

فقال لها: طلب مني طلب واشترط لو ما نفّذته يقطع راسي.

فقاللت له: ما هو طلبه؟

فقال لها: يبغى حملين حطب بلا حبال[1].

أخذت البنت الكبرى تفكّر في كيفية جلب حملين حطب بلا حبال، وعندما لم تصل إلى وسيلة لتحقيق ذلك أخذت تبكي وتضمّ أبيها إلى صدرها، فكان يهدّئها ويقول لها:

- إنت الكبيرة وسويتي كذا، كيف بقية أخواتك؟

فقالت له: لازم يعرفوا بالقصة ويودعوك الوداع الأخير.

وافقها أبوها على رأيها ودخل عليهن الواحدة تلو الأخرى وأخبرهن بالقصة، فكانت كلٌّ منهن تحضنه وتبكي بكاء حاراً، وعندما وصل إلى ابنته الصغرى وأخبرها بالخبر أخذت تفكّر في الأمر ثم قالت له:

---

(١) قصص الألغاز غالباً ما تأتي كحبكة درامية ينجح البطل في حلّ عقدتها؛ وهي حكايات نمطية يكون حلّ اللغز دليلاً على نباهة البطل وأحقيته بأن يكون في موضع متميز . .
ومن أشهر الحكايات في هذا الشأن لذّة اللذّة، وهي حكاية مصرية يطرح فيها الملك سؤاله على رجل بسيط عن لذة اللذة، وتقوم ابنته بتقديم الحل وإنقاذ أبيها من القتل قائلةً للملك: حكمك لرعيتك لذة، لكن نومك مع حريمك لذة اللذة. وعندما عرف منها الملك أنها لا تزال بنتاً صغيرة لم تتزوج، حينئذٍ سألها الملك: كيف عرفت أن نومي مع حريمي لذة اللذة؟ فحدّثته عن آلام ولادة أمها ومعاناتها، فعرفت من ذلك أنّ الدافع لهذا العذاب لا بدّ أن يكون لذة اللذة.

- بسيطة.

فقال لها: كيف؟ اسعفيني بالحل الله يخليك.

فقالت له: جيب الحطب ومعه رطلين غرا.

فقال لها: وش أسوّي بيهم؟

فقالت له: بس أنت جيب اللي طلبت.

ذهب الحطاب إلى السوق واشترى رطلي غراء ومرّ على فناء منزله وجلب الحطب وأعطى ابنته الصغرى وهو يسخر منها:

- هذا اللي طلبتي، يلّلا حلّيها.

قامت ابنته الصغرى بتشبيك الحطب وتغريته بعضه ببعض حتى كوّنت حملين من الحطب بلا حبال، وعندما رأى الحطاب ما قامت به ابنته فرح فرحاً كبيراً وذهب للنوم مطمئناً، وفي الصباح توجّه إلى قصر السلطان وأعطاه حملي الحطب بلا حبال. استغرب السلطان من هذه الفكرة ولم يجد بدّاً من تركه يذهب لحال سبيله.

ومع الضحى خرجت ابنة الحطاب الصغرى إلى قصر السلطان ودقّت باب السلطانة وقالت لها:

أنا اسطب حبيبة الرب

نجمي تعلى ونجمك طبّ

فقالت لها السلطانة:

- والله ليتّمك وأخليك تغسلي رجولي ليل ونهار.

ثم دخلت إلى السلطان غاضبةً وقالت له:

- ليه ما قتلت الحطاب؟

فقال لها السلطان: طلبت منه الطلب اللي قلت عليه ونفّذه، وما أقدر أقتله إلاّ بسبب.

فقالت له السلطانة: نطلب منه طلب ثاني.

فقال لها السلطان: شوفي طلب يعجزه علشان يكون سبب قتله.

أخذت السلطانة تفكّر، ثم قالت له:

- اطلب منه عيش ما هو عيش وماء ما هو ماء.

وفي الحال قام السلطان باستدعاء الحطّاب، وعندما قدم كان يرتعد خوفاً، وانحنى مسلّماً فقال له السلطان:

- ما لقيت أحسن منك في سلطنتي واشتهيت شيء ما يحققه إلاّ أنت.

فقال له الحطاب:

- يا سلطان الزمان، أنا خادمك واللي في مقدوري أسوّيه.

فقال له السلطان:

- طلبي اللي اشتهيته تقدر عليه.

فقال له الحطاب: أمر على رقبتي.

فقال له السلطان: أبغى عيش ما هو عيش وماء ما هو ماء، ولا تنسى الشرط لو ما حققته أقطع رأسك.

خرج الحطاب مثقل الخطى يسير مفكّراً ويردّد:

- في المرة الأولى ربّي سلّم وذحين كيف الحيلة؟

وأخذ يفكّر طويلاً وعندما لم يجد حلاً دخل على بناته لوداعهن، فأمسكن به باكيات وعندما مرّ لوداع أصغر بناته قال لها:

- في المرة الأولى دبّرتيني لكن هذه المرة ما أظن!

فقالت له: اش طلب منك؟

فقال لها: يقول يبغى عيش ما هو عيش وماء ما هو ماء.

فقالت له: استنى خليني أفكر.

وبعد صمت طويل قالت له:

- بسيطة.

فرح الحطاب وقال لها: قولي لي كيف يا حبيبتي.

فقالت له:

- روح السوق وجبلي كل الحبحب اللي فيه وتعال.

خرج الحطاب إلى السوق وهو لا يعرف بماذا تفكر ابنته، واشترى كل الحبحب الموجود بالسوق وعاد إليها، فقامت وقالت لأخواتها:

- تقوم كل واحدة منكم وتطلع بزر الحبحب وتصب مويته في السطل.

فعلت أخواتها ما أمرت به، وأخذت بزر الحبحب المجموع وقالت لأخواتها:

- اطحنوا هذا البزر.

وبعد أن طحنوه قامت بخبزه ووصنعت منه أقراص وضعتها في التنور، وبعد نضوج تلك الأقراص أخرجتها ووضعتها في سلة وناولته السطل الذي ملأته بماء الحبحب وأعطته أباها وقالت له:

- قل للسلطان هذا عيش ما هو عيش وهذا ماء ما هو ماء.

فرح الحطاب وخرج من حينه إلى قصر السلطان واستأذن بالدخول فسمح له ووقف أمام السلطان وقال له:

- هذا طلبك يا سلطان الزمان.

نهض السلطان عن عرشه غير مصدّق واقترب من تلك الأقراص وأخذ يلوكها فوجدها عيش وما هو عيش وشرب من ماء الحبحب ووجده ماء ما هو ماء، فشكر الحطّاب وأمره بالانصراف... فرح الحطاب بنجاته وعاد إلى بيته، فاستقبلته بناته بالزغاريد، وعند الضحى خرجت ابنته الصغيرة ودقّت على باب السلطانة، وعندما رأتها قالت لها:

أنا اسطب حبيبة الرب

نجمي تعلى ونجمك طب

غضبت السلطانة وقالت لها:

- والله يا كلبة لأخليك يتيمة وتجي تغسلي رجولي ليل ونهار.

ثم دخلت غاضبة على السلطان وقالت له:

- ليه ما قتلت الحطاب؟

فقال لها السلطان:

- كيف أقتله وقد جاب الطلب اللي طلبته منه.

فقالت: هذه المرة نطلب منه طلب ما يقدر يسويه لو طلع السما.

فقال لها السلطان: اش هو هذا الطلب؟

فقالت السلطانة: اطلب منه أن يحضر بيناته البكور حوامل[1].

---

(١) تيمة العذراء التي تحمل بمولود زخرت بها الأساطير، ويعود ذلك إلى المرجعية الدينية في قصة عيسى عليه السلام. =

فقال لها السلطان: ما أظنه هذه المرة يسلم.

فأرسل حرسه وراء الحطاب فجاؤوا به، فقال الحطاب:

- أمر سلطان الزمان.

قال له السلطان: أعجبني تفانيك على طاعتي وتنفيذ ما أطلبه منك.

فقال له الحطاب: كلنا في خدمتك ورهن إشارتك.

فقال له السلطان: طلبي الأخير أن أرى بناتك البكور حوامل ولا تنسى الشرط: إذا ما نفذت الطلب يكون راسك الثمن!

خرج الحطاب من قصر السلطان حزيناً يفكّر في هذه المصيبة وعاد إلى بناته كأول مرة دخل عليهن وأخذ يودّعهن ويقول لهن:

- هذه المرة ما في خلاص.

وبعد أن ودع جميع بناته وقف عند ابنته الصغرى وأخبرها بالخبر فقالت له:

- لا تهتم.

فقال لها: كيف لا أهتم وراسي أشوفه يفصل من على جسدي؟

فقالت له: خليني أفكّر شوية.

فتركها تفكّر، وبعد لحظات قالت له:

= و«ثمة تماثل يصل إلى حدّ الإدهاش في قصة المسيح وقصة كريشنا الهندي. فقد تزامن ميلاد كريشنا بظهور نجم في السماء مثل نجم المجوس في قصة يسوع. وولد كريشنا من أم عذراء في ٢٥ كانون الأول (ديسمبر) مثل المسيح تماماً، وتعمّد المسيح بمياه الأردن، وتعمّد كريشنا بماء الغانج. عاش كريشنا بين الرعاة ردحاً من الزمن وهربت به أمه مايا (مريم) إلى قرية تدعى ماطورة (المطرية بحسب قصة المسيح). واسم كريشنا الكامل هو كريشنا زيوس، واسم المسيح Christ ولقبه يسوع، مثل كريشنا تماماً. وقد صُلب كريشنا في الهند بين لصّين سنة ١٢٠٠ ق.م، مثل المسيح تماماً. والاثنان لم يتزوّجا. وحتى الإله الفارسي ميثرا ولد في ٢٥ كانون الأول في كهف من أم عذراء وصُلب في سنة ٦٠٠ ق.م.

وعلاوةً على ميثرا هناك الإسكندر المقدوني الذي حملت به أمه العذراء أوليمبياس من الإله زيوس، وفيثاغوراس الذي حملت به أمه العذراء من الإله أبولو، وحتى أفلاطون حملت به أمه العذراء بريتونيا من الإله أبولو أيضاً. وفي قائمة من حملت بهم والدتهم العذراء نعثر على بروميثيوس وكيرينيوس وكثيرين غيرهما.» (صقر أبو فخر: بين الأسطورية والتاريخية مأساة أوديب وقصة أخناتون، مجلة نزوى، العدد السبعون).

- روح جبلي قرع وغرا ولا يهمك من شيء.

خرج الحطاب إلى السوق وعاد بالقرع والغراء فقامت البنت الصغيرة بتغرية القرع على بطون أخواتها وتغريتها وثبتتها وأثبتت قرعة على بطنها وقالت لأبيها:

- في الصباح تحملنا للسلطان وكلنا حوامل وبكور.

فرح الحطاب لهذه الحيلة ونام مستقرّ البال، وفي الصباح توجّه هو وبناته إلى قصر السلطان ودخلن عليه فرآهنّ حوامل وهنّ بكور.

شكر السلطان الحطاب وقال لبناته:

- تمنّوا اللي تشتهونه أنفذه لكم.

فقالت الكبيرة: أتمنى أكل فالوذج.

وقالت الثانية: أتمنى ألبس فستان ما في بنت في البلد لابسة مثله.

وقالت الثالثة: أتمنى أحصل على عقد ذهب ما في زيه.

وقالت الرابعة: أتمنى خاتم فصوصه من الحجار الكريمة.

وقالت الخامسة: اتمنى أحصل على شيلة مطرزة باللولو.

وقالت السادسة: أتمنى أحصل على عطور ما في أحد عنده مثلها.

وعندما جاء دور البنت الصغرى سكتت فقال لها السلطان:

- وأنت اش تتمني؟

فقالت الصغيرة: أنا ما عندي أمنية... عندي طلب.

فقال لها السلطان: اطلبي.

فناولته حبوب دخن وقالت له:

- أبغاك تزرع حبوب الدخن هذه وتحصده وتطعمنا منه ذحين.

فنظر إليها السلطان وقال لها:

- أنت مجنونة... أزرع الدخن وأحصده وأطعمكم في نفس الوقت؟

فقالت له: وكيف تطلب من أبي حملين حطب بلا حبال وتطلب عيش ما هو عيش وماء ما هو ماء وآخرها تطلب جية بناته البكور حوامل؟

وطلبت من أخواتها أن يرمين القرع من على بطونهن وطالبتهم بالخروج، ثم قالت للسلطان:

- ما تقدر تنفذ طلبي وإحنا ما نقدر نقبل هداياك.

ولحقت بأخواتها اللواتي لمنها على تصرفاتها فقالت لهن:

- أنا أعرف أش أسوّي.

عندما خرج الحطاب وبناته قال السلطان:

- البنت الصغيرة هي اللي كانت تخرجه من المآزق اللي أطلبها منه وهذه تصلح تكون زوجة سلطان.

وأرسل يخطبها من أبيها فقالت للمراسيل:

- أكون خدامة تحت رجوله بس لي شرط واحد إذا نفذه يا مرحبا بيه.

ذهب المراسيل إلى السلطان فقال لهم: قالوا لها كل شروطها مقبولة. فقالوا لها يقول لك السلطان: كل شروطك مقبولة بس اشرطي.

فقالت: شرطي يطلّق زوجته فأنا ما أقبل تكون لي ضرّة.

وافق السلطان على شرطها، وفي يوم دخولها القصر كانت السلطانة تخرج منه، وعندما رأتها ابنة الحطاب قالت لها:

أنا اسطب حبيبة الرب

نجمي تعلى ونجمك طبّ

وعاشت مع السلطان بقية حياته تشير عليه وتحلّ المشاكل التي تعترض حكمه، وأصبح أبوها وزيراً للسلطان وتزوّجت أخواتها على وزراء وأبناء ملوك.

رواية حامدة حمدان

ثلاث وصايا

اشتهر رجل بالحكمة، وكان الناس يستشيرونه في أمور دنياهم وآخرتهم، ولم يكن لديه في الدنيا سوى ابن واحد، ولم يكن يعرف قيمة أبيه فلم يكن يصغي لحكمه أو يستفيد من مشورته، وعندما حضرت المنية الشيخ أحضر ابنه وقال له:

- كنت تستند عليّ وأنا الآن ملاقي كريم فاحفظ عني وصيتي.

فقال ابنه: قل يا اااابي وسأحفظها هذه المرة.

فقال له:

- إياك وإفشاء أسرارك لزوجتك أو أن تصاحب عسكرياً أو تزرع في بيتك شجرة نبق.

مات الشيخ وظلّ الابن لاهياً في حياته، وبعد زمن تزوّج بامرأة كانت تنتقصه دائماً وتقول عليه إنه رجل جبان لا يُعدّ من الرجال، فسيرته خاملة وليس له ما يميّزه بين الرجال، وكان الشاب يشعر بالحزن لكون زوجته لا تعتدّ به.

وفي يوم من الأيام قُتل أحد تجار البلد المشهورين ونُهبت أمواله، ولم يترك القاتل أثراً يدلّ عليه، وضجّت المدينة بخبر القاتل الذي خلّصهم من التاجر المرابي، ويذكرون فطنة وذكاء القاتل بشيء من الإكبار، ووجد الشاب في هذه الحادثة بغيته ليكبر في عين زوجته، فجاءها وقال لها:

- فيك مين يكتم السر.

فردت عليه ببرود:

- وهل لديك أسرار، فأنا أعرف أن ليس لديك شيء يذكر.

فقال لها:

- هذه خطّة ياغبية أن أظل بعيداً عن العيون فأنا أقوم بأعمال لا يقدر عليها أحد.

جذبها كلامه فاستزادته وطلبت منه أن يخبرها بسرّه، وأقسمت له أن تكون ستراً وغطاءً عليه، فقال لها:

- تعرفين مَن قتل التاجر؟

فقالت له:

- البلد كلها لا تعرف من القاتل.

فقال لها:

- أنا الذي قتلته وأخذت أمواله كلها.

فرحت الزوجة وقبّلته وقالت:

- لم أكن أعرف أنك تحمل كلّ هذا الدهاء.

وغدت تبجّله وتحترمه، وكل يوم تطالبه أن يأتي بأموال التاجر، فكان يقول لها:

- لا تجعليني أندم لإخباري إياك بسري، فلو ظهرت أموال التاجر فسوف أقاد للحبس في نفس اليوم... أصبري.

وافقته على كلامه وظلّت تسمع كلام نساء البلد وهن يتحدثن عن القاتل الذي غدا (فصّ ملح وذاب)، وفي كل مرة تنازعها نفسها أن تقول لهنّ إنّ الذي دوّخ رجال الشرطة في البحث عنه هو زوجها، ولكنها تتراجع في آخر لحظة.

وفي يوم جاءت إليها صديقتها المقربة وأخذت تتحدث عن القاتل الذي لم يستطع أحد العثور عليه وأوشك رجال الشرطة أن ينسوا القضية، فقالت لها:

- أعرفك يا صديقتي أنك كاتمة أسراري، فلو أخبرتك بسر هل تحفظينه؟

فقالت لها:

- هل أفشيت سراً لك في يوم من الأيام؟

فقالت لها: لا ولكن هذا السر لو عُرف فسوف يُقاد زوجي للسجن.

فقالت لها:

- سرك في بير... أخبريني.

فقالت لها:

- الذي قتل التاجر هو زوجي وهو محتفظ بأمواله في حفرة خارج البلد.
ضربت صديقتها على صدرها دهشةً وقالت:
- كل هذا يخرج من زوجك الساكت والذي لا يظن به أحد!
فقالت لها: أمانة عليك لا تقولي لأحد.
أكّدت لها صديقتها أنّ سرّها سيكون في مكان لا يصل إليه أحد. وما إن خرجت هذه الصديقة من بيت جارتها حتى دخلت إلى بيت آخر وجلست مع صاحبة البيت وبدأ الحديث حتى قالت لها:
- أنا عندي سرّ لو قلته لك هل تكتمينه؟
وعدتها هذه الجارة بكتمانه، فقالت لها:
- الذي قتل التاجر هو زوج صديقتي فلان.
وفي أسرع وقت انتشر الخبر في كلّ المدينة.
وكان ذلك الشاب له علاقة صداقة بعسكري تصل إلى درجة الأخوة، وقد وصل خبر قاتل التاجر إلى الشرطة فتمّ تكليف ذلك العسكري بالقبض على صديقه، فخرج مع نفرٍ من العسكر إلى بيت صديقه وطرقوا الباب فاستوضح الشاب:
- مَن الطارق؟
فقال العسكري:
- أنا فلان جئت لأقبض عليك لأنك قتلت التاجر.
ارتعد الشاب وخاف أن تدقّ عنقه لجرمٍ لم يرتكبه فقفز سور بيته من الخلف، وكان قد زرع شجرة نبق في فناء بيته، وبينما هو يتسلق الجدار أمسك به شوك شجرة النبق فاختلّ توازنه وسقط عن السور على رقبته... ومات في الحال.

رواية سليمان إبو ستين

الفقر والمرأة

كان يا مكان، كان في رجل حكيم عاش ألف سنة ورأى ما لم يُرَ، وفي آخر حياته أحضر ابنه وقال له:

- يا بنيّ، أنا عشت وشفت ووصيتي لك أن لا تتزوج إلاّ بامرأة تعينك على الزمن ولا تعين الزمن عليك. واهرب من الفقر، فالفقر مذلة للرجال.

حزن الابن وقال لأبيه: أفديك بعمري يا أبي.[1]

---

(١) يقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الزمر: ٤٢).

ويقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ (سورة الرعد: ٣٨).

والمقصود بالكتاب هو الميقات والأجل المقدَّر فلكلّ ما قدّر ميعاد.

حلم إطالة العمر لازم الإنسان منذ الأزل، وهناك قصص كثيرة حول الدعاء لمن نحب بإطالة الأعمار وتمنياتنا بأن نهبهم من أعمارنا حينما نكون في بداية أعمارنا حتى إذا خضعنا للتجربة تراجعنا. ويقال إنّ آدم أول من جحد في هذا الأمر، حيث تقول الحكاية: إنّ الله عز وجل عرض لآدم صور أبنائه فرأى صورة أحدهم متوهجة ومنيرة فسأل عن صاحب هذه الصورة فقيل له: هذا ابنك داود، فقال: كم عمره؟ فقيل له: ستون عاماً، فأشفق عليه ووهبه أربعين عاماً من عمره واستكتبه الله على هذا، وعندما حان أجل آدم نزل عليه ملك الموت ليقبض عمره فقال: بقي لي أربعون عاماً، فقال له ملك الموت: لقد وهبتها لابنك داود، فجحد فأراه تعهده. (عرائس المجالس لأبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري المعروف بالثعلبي). وكثير مما ورد في هذا الكتاب لا يؤخذ به من قبل أهل السنة والجماعة متّهمين أنّ قصصه بها من الإسرائيليات الشيء الكثير، ويقول عنه ابن تيمية - رحمه الله - في منهاج =

فقال له: كلّ إنسان وله نهاية وأريدك أن تنفذ وصيتي التي أخبرتك بها.

بعد زمنٍ قصير مات الرجل وظلّ الابن كلّما رغب في الزواج يتذكّر وصية أبيه فيتراجع ويظلّ يفكّر: كيف أحصل على امرأة تعينني على الزمن ولا تعين الزمن عليّ؟ وعاش زمناً طويلاً أعزب، وفي إحدى رحلاته وجد رجلاً مسناً فتصادق معه وسأله:

- كيف أجد امرأةً تعينني على الزمن ولا تعينِ الزمن عليّ؟

فقال له الرجل المسنّ:

- إنسان لا يعرف الإنسان الآخر إلا إذا عاشره وأخشى أن أقول لك تزوج وعاشر زوجتك فلا تجدها كما تريد... وأنا عاشرتك ووجدتك شاباً خيّراً ولذلك أقول لك لديّ بنت ربيتها طوال الوقت أن تكون عوناً لزوجها فإذا رغبت بها زوّجتك؟

وافق الشاب على الزواج من ابنة الرجل المسنّ، ودخل بها، وعاش معها حياة هانئة. وفي إحدى رحلاته خسر الشاب كلّ تجارته فأخذ يبحث عن وسيلة يستعيد بها بعض خسائره، وكان يرافقه ابن عم زوجته الذي كان يرغب بالزواج منها لكنها كانت ترفض طلبه كلما تقدم لها، فقال للشاب:

- أنا أقرضك مبلغاً من المال تسترجع به خسائرك وعليك أن ترد الدين خلال شهر وإذا لم تقدر على السداد أقتطع رطلاً من لحمك.

تردّد الشاب في قبول هذا العرض، وعندما وجد نفسه مضطراً كي لا يذوق الفقر ومرارته ومنّى نفسه أنه قادر على استعادة أمواله خلال فترة قصيرة وافق على شرط ابن عم زوجته، وكتبا بينهما على الشرط الذي اشترطه، وأقرضه المبلغ.

اشترى الشاب بضاعة نادرة مؤملاً أن يستعيد بها أمواله التي خسرها، واتفق مع أحد البحّارة أن يحمل له بضاعته في البحر ويوصلها إلى بلدته خلال أسبوع، وعاد

= السنة: أجمع أهل العلم بالحديث أنّ الثعلبي يروي طائفة من الأحاديث الموضوعات - أي المكذوبات - ويقولون: هو كحاطب ليل،... والثعلبي فيه خير ودين، لكنه لا خبرة له بالصحيح من الأحاديث، ولا يميز بين السنّة والبدعة في كثير من الأقوال.

هذا قول فقهاء إلاّ أن الباحث في الأسطورة يجد في كتابه عرائس المجالس ثروة مهولة من الأساطير.

لاستقبالها. وبعد مضي أسبوع جاءه الخبر أنّ السفينة التي تحمل بضاعته قد غرقت بحمولتها، فعاش مهموماً يفكّر في وسيلةٍ يتخلّص بها من التهديد الذي ينتظره، وأخذ يفكّر كثيراً ولم يجد بدّاً من أن يرمي حمولته على زوجته فأخبرها بالخبر، فضاق صدرها وأعطته كلّ حليها وما تملك كي يسدّد دينه، لكنّ هذه الحلي لا تكفي لسداد الدين. وبعد مضي شهر تقدّم ابن عم زوجته للقاضي طالباً أن يفي الشاب بدينه أو ينفّذ الشرط الذي كتبه على نفسه. قرأ القاضي الشرط المكتوب، ثم قال للشاب:

- ليس أمامك إلاّ أن تدفع الدين الذي عليك أو تمكّن صاحبك من اقتطاع رطل من لحمك.

طلب الشاب مهلة يوم أو يومين لتدبّر أمره، لكنّ ابن عم الزوجة رفض المهلة وقال له:

- يمكن أن أتنازل عن الشرط بأن تطلق زوجتك وتزوجني بها.

تعاطف القاضي مع الشاب لكن لم يكن بيده شيء للمساعدة، فقال للشاب:

- ليس أمامي شيء سوى تنفيذ الشرط أو تتنازل له عن زوجتك.

قال الشاب:

- أنا لا أتنازل عن زوجتي وله أن يأخذ من لحمي رطلاً.

بينما كان القاضي يتحدث مع الخصمين دخل حاجبه وهمس له في أذنه، فخرج القاضي إلى الخارج فوجد زوجة الشاب تقف بالباب وقالت له:

- يا سيدنا القاضي، لو تمنحني الفرصة لأن أحكم في هذه القضية أكون شاكرة لك.

فقال لها القاضي:

- وكيف يكون الأمر؟

قالت له:

- حدّد أن يكون الحكم ليلاً حتى لا يعرفني أحد منهما.

وافق القاضي على طلبها، وعاد إلى الخصمين وقال لهما:

- عودوا بعد صلاة العشاء لتسمعوا الحكم.

خرج الخصمان، وعاد الشاب إلى زوجته مهموماً وأخبرها أنّ ابن عمها سوف يتخلى عن شرطه لو طلّقها وزوّجها إياه، فقالت له:

- إذا وجدت أنّ زواجي منه يخلّصك ممّا أنت فيه فأنا موافقة.

غضب منها وقال لها:

- اظهري على حقيقتك، أنت تريدين ابن عمك وقبولك بي كان إرضاءً لأبيك، لكن لن أمكّنك من رغبتك وسأجعله يقتطع رطلاً من لحمي على أن أبلّغك أمنيتك.

وخرج غاضباً وهو يردّد:

- صدق أبي. على الإنسان أن يتزوج امرأةً تعينه على الزمن لا أن تعين الزمن عليه.

ومع دخول الغروب تسلّلت الزوجة إلى بيت القاضي فوجدته في انتظارها، وطلبت منه أن يعيرها جبّته وعباءته، وارتدتها وجلست في مكان معتم، وعندما وقف الخصمان أمامها قال ابن عمها:

- أيها القاضي، أنا أريد أن تحكم بيننا وفق الشرط المكتوب ولن أتنازل عن حقي إلاّ أن يقوم خصمي بتطليق زوجته وتزويجي بها.

فتحدثت الزوجة بصوت أجشّ للشاب:

- هل توافق أن تطلّق زوجتك وتنجو من العقاب؟

فقال الشاب:

- لا، ليأخذ رطلاً من جسمي.

فقالت الزوجة:

- خصمك رافض تطليق زوجته ويصبح من حقك أن تقتطع من جسمه رطلاً بالتمام والكمال لا يزيد ولا ينقص، فإذا زاد أو نقص تدفع له كلّ أموالك.

ارتبك ابن عمها ولم يكن يتوقع هذا الحكم وأراد أن يتملّص منه، فقالت له الزوجة:

- هيا خذ رطلاً من جسم خصمك أو أعطيه أمواله التي دبّرت خسارته.

فأخذ يتململ، فقالت له بحزم:

- لقد جاء من أخبرني أنك السبب وراء خسارته لتصل إلى زوجته.

حاول أن يُنكر فصاحت بالحاجب:

- يا حاجب، جهّز سيفك لتقطع عنق هذا الغشاش.

ارتعد ابن عمها وصاح معترفاً بذنبه، وقال:

- سأعيد إليه ما كنت سبباً في خسارته.

وكتب على نفسه بذلك، وبعد أن كتب أمرته بالخروج وأبقت زوجها في مكانه، فأخذ يشكرها على أنها القاضي، لكنه فوجئ بالقاضي يخرج من مكانٍ آخر وهو يقول له:

- أهنيك على كبر عقل زوجتك.

وعندما رآها تخرج من مكانها حمدالله أنه رزقه بامرأة تعينه على الزمان ولا تعين الزمان عليه.

رواية أحمد السفري

دعوة أمّها

كان يا مكان في قديم الزمان، كان هناك تاجر رزقه الله بالمال والأولاد، وظلّت زوجته تتمنى أن يكمل الله عليهما نعمته ببنت، وكلّما حملت وولدت جاء المولود ذكراً حتى صاروا سبعة رجال، وفي آخر حمل حملته الزوجة قالت:

- يا رب اجعل هذا البطن بنتاً حتى ولو كانت غولة.

بعد انتهاء التسعة الأشهر ولدت بنتاً يغطّي وجهها الشعر ولها نابان صغيران. فرحت الأم والأب بالمولودة وسمّياها (دعوة أمها)، ومع الأيام اختصروا اسمها واصبحوا ينادونها (دعوة)، إلاّ أخوها الصغير كان يناديها (ضبة).

وكان لهذا التاجر اسطبل به مجموعة خيول كثيرة، وكلّ يوم يكتشف أنّ خيلاً من خيوله ميت وبطنه مبثوثة وليس هناك أثر لدم، فيستغرب أشدّ الغرابة ويقول:

- لو أنّ سبعاً افترس الحصان لأبقى آثار دم أو أننا سمعنا نفرة الخيول.

وعندما تكرّرت الحادثة جمع أولاده وقال لهم:

- في اسطبل الخيول كلّ يوم نخسر خيلاً ولكن لا نعرف من يقوم بهذه الفعلة، فالجاني لا يترك أثراً على الخيل، فقط يبقر بطنه ويأكل أحشاء الحصان ولا يترك قطرة دم، وأريد من كلّ واحد منكم يسهر ليلة من أجل أن نتعرّف على الجاني.

وافق الأبناء على اقتراح أبيهم، وفي كلّ ليلة يقوم واحد منهم بالسهر داخل إسطبل الخيول. بدأ بالمراقبة أكبرهم فدخل الإسطبل وظلّ مستيقظاً إلى منتصف الليل ولم يستطع مقاومة النوم فنام، وفي الصباح جاء أبوه فوجد خيلاً من خيوله ميتاً بالطريقة نفسها فسأل ابنه عمّن فعل الفعلة فقال لأبيه:

- بقيت إلى منتصف الليل وغلبني النوم فنمت ولم أعرف من فعل فعلته.

غضب الأب وأحضر فراشاً خلط قطنه بشوك حتى إذا أراد المراقب أن ينام وخزه الشوك فاستيقظ، وقال لابنه الأكبر:

- لأنك نمت فستعيد المراقبة مرة أخرى.

وعندما حلّ المساء دخل الابن الأكبر الإسطبل، وعندما انتصف الليل وضع رأسه على الفراش ونام متحمّلاً وخز الشوك، وفي الصباح وجد الأب خيلاً ميتاً فسأل ابنه فقال:

- لم أرَ أحداً.

استمرّ الأخوان يتناوبون في السهر وفي الصباح يجدون خيلاً ميتاً ولا يعرفون الفاعل، وبقي دور أخيهم الأصغر، وعندما عرف أنّ دوره قرب غيّر نظام نومه فكان ينام النهار بأكمله ويظلّ طوال الليل مستيقظاً، وعندما حان دوره دخل الإسطبل وظلّ يدور بداخله حتى انتصف الليل، وسمع حركة أقدام مقبلة على الاسطبل، فاستلقى على السرير متصنّعاً النوم، فرأى أخته دعوة تمشي حتى تقف عند أحد الخيول، فأراد أن ينهض ويقول لها:

- عودي للبيت.

وقبل أن ينهض رآها تحمل الحصان حملاً وتقرض وريده وتمصّ دمه مصّاً حتى لم تبقَ في عروقه قطرة دم، ثم تجندله وتنبش بطنه وتلتهم أمعاءه كاملةً وتمسح فمها وتعود من حيث أتت، وفي الصباح عندما حضر أبوه قال له:

- هه، عرفت من يفعل فعلته؟

فقال الابن الأصغر:

- نعم يا بويه، عرفت.

فقال له:

- مين؟

فقال:

- أختي ضبة، شفتها ترفع الحصان وتقرض وريده وتمصّه مصاً ثم تنبش أمعاءه.

فلم يصدقه وقال له:

- أنت تكره أختك وعلشان أقول عنك إنك أحسن إخوانك قلت ألصقها بأختي.

أخذ الأبن الأصغر يقسم أنّ من يقوم بهذه الأفعال ضبّة، فصاح به أبوه:

- ضبة طفلة صغيرة، هل يُعقل أن تحمل حصاناً وتمصّ دمه... لا، لا، أنت تكره أختك؟

ذهب الابن يخبر أمه بما رأى فغضبت منه وقالت له:

- دعوة بنت صغيرة ولا تقدر تشيل نفسها... لكن أنت تكرهها.

حاول الابن أن يقنع إخوانه فلم يقتنع أحد منهم بقوله، فاستأذن أباه وقال له:

- أنا أبغى أسافر قبل ما تاكلنا ضبة.

غضب أبوه منه وطرده، فركب خيله وتزوّد بأكل وشرب وسافر، وفي أثناء سفره سمع صوت ضبة تقول له:

- سأدقّ عظامك يا ابن أمي وبويه.

فشعر بالخوف وظلّ يضرب خيله حتى قطع بلاداً وبلاداً، ووجد نفسه في أماكن موحشة، وأثناء سيره وجد نمرة تعذّرت ولادتها، وكانت تصيح:

- مين يخلّصني من ولادتي وياخذ ولدي؟

فاقترب منها وظلّ يساعدها حتى ولدت، وقبل أن تنهض حمل ولدها وطار بخيله، فركضت وراءه ولم تلحق به. وصل إلى مغارة فربط مهرته واستحلبها في طاقيته، وأشرب النمر حليبها، وظلّ هناك يخرج لاصطياد الغزلان وشويها وأكلها. وفي إحدى جولاته رأى سبعة تعسّرت ولادتها وكانت تصيح:

- مين يخلّصني من ولادتي وياخذ ولدي.

فاقترب منها وساعدها وقبل أن تنهض خطف ولدها وضرب مهرته، فانطلقت به بعيداً، ووصل إلى المغارة التي يسكن بها واستحلب مهرته وأسقى النمر والسبع وشوى غزالاً كان قد اصطاده وأكل وشرب ونام، وفي إحدى جولاته رأى لبوة قد تعسّرت ولادتها وسمعها وهي تصيح:

- من يخلصني وياخذ ولدي؟

اقترب منها وساعدها وقبل أن تنهض حمل ولدها وركض بمهرته بعيداً،

ووصل إلى مغارته فاستحلب مهرته وأسقى النمر والسبع والأسد واسترخى فسمع صوتاً يتردّد داخل المغارة:

- سأدقّ عظمك يا ابن أمي وبويه.

نهض وحمل النمر والأسد والسبع وامتطى مهرته وانطلق بعيداً، ومن بلد إلى بلد حتى وصل إلى قرية صغيرة، ووجد رجلاً مسناً فسلّم عليه وقال له:

- يا عم، أنا غريب وأبغى أبات الليل عندك.

رأى الرجل النمر والسبع والأسد فخاف وقال له:

- أنا عندي بنت تخاف من ظلها ولو شافت هذه الحيوانات ربما تموت.

فقال له:

- هذه تحبّ من أحبّ ولا تؤذي إلاّ من يؤذيني.

اعتذر منه الرجل وقال له:

- بنتي قبل كلّ شيء.

شكره الشاب وركب مهرته وقبل أن تتقافز حيواناته على ظهر المهرة سمعوا صوت بنت يصيح مستغيثاً، فقال الشاب:

- سبع، أسد، نمر الحقوا الصوت.

تقافزت الحيوانات بسرعة كبيرة، وحين وصلوا وجدوا البنت تقف وأفعى ضخمة تحوم حولها، فتخاطفوا تلك الحية[1] ومزّقوها قطعاً، وعندما وصل الأب

(١) الحية من الكائنات الملعونة في الثقافة الإسلامية إذ ترتبط في المخيلة أنها هي من أدخل إبليس الجنة حين وسوس لآدم بأكل الشجرة، كما أنها العدو الذي يجب قتله. وقد روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم «اقتلوا الحية والعقرب وإن كنتم في صلاة».
وهناك حيوانات تُقتل حتى ولو كان الإنسان محرماً، وهو ما ورد في حديث عائشة رضي الله عنها أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: «خمسٌ من الدّوابّ كلّهنّ فاسقٌ، يُقتلن في الحرم: الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور». وحديث ابن عمر رضي الله عنه أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: «خمسٌ من الدّوابّ ليس على المحرم في قتلهنّ جناحٌ: الغراب والحدأة والفأرة والعقرب والكلب العقور». وفي رواية أخرى صحيحة عند مسلم ذكر فيها الحية وقيّد الغراب الأبقع والكلب العقور.
ويورد كثير من كتب التاريخ قصة تسلل إبليس إلى الجنة عن طريق الحيّة. قال مجاهد وقتادة: =

والشاب ورأوا ما حدث شكروا الله وقال الرجل المسنّ للشاب:

- أشكرك لمساعدة حيواناتك لبنتي ولكن لا أقدر أن أستضيفك.

كانت البنت تقف بجوار الحيوانات التي أنقذتها وهي تمسّد على رؤوسها، فقالت لأبيها:

- يا بويه، ردّ الجميل واجب.

وافق الأب أن ينزل الشاب ضيفاً عليه، وكلّما أراد أن يمضي ترجّته البنت أن يبقى، وأحسّ الأب بميل ابنته إلى الشاب فقال لها:

- غريبنا يصير صهرنا.

ضحكت البنت ودخلت لداخل البيت، فذهب الرجل المسنّ إلى الشاب وقال له:

- العاقل من يخطب لابنته وقد رأيت منك أفعال الرجال وأنا خايف أموت قبل ما أطمئن على بنتي، فإن كان لك رغبة تتزوّجها زوّجتك وإن لم تكن لك رغبة عاهدني أن تكون أختاً لك.

فقال له الشاب:

- أنا راغب الزواج منها.

فزوّجه وأقيمت ليلتهما وعاش مع زوجته سعيداً، وذات ليلة سمع صوت أخته يتردّد في البيت:

- سأدقّ عظمك يا ابن أمي وبويه.

شعر بالخوف وذهب إلى زوجته وقال لها:

= فلمّا أسكن الله آدم وزوجته الجنة أطلق لهما أن يأكلا كلّ ما أرادا من كلّ ثمارها غير ثمرة شجرة واحدة ابتلاءً منه لهما وليمضي قضاؤه فيهما وفي ذريتهما، فوسوس لهما الشيطان وكان سبب وصوله إليهما أنه أراد دخول الجنة فمنعته الخزنة، فأتى كلّ دابة من دواب الأرض وعرض نفسه عليها أن تحمله حتى يدخل الجنة. فكلّم آدم وزوجته فكلّ الدواب أبى عليه حتى أتى الحية وقال لها: أمنعك من ابن آدم فأنت في ذمتي إن أنت أدخلتني فجعلته بين نابين من أنيابها. ثم دخلت به وكانت كاسية على أربع قوائم من أحسن دابّة خلقها الله كأنها بختيّة فأعراها الله وجعلها تمشي على بطنها.

قال ابن عباس: اقتلوها حيث وجدتموها واخفروا ذمّة عدوّ الله فيها. (ابن الأثير: الكامل في التاريخ)

- جهّزي نفسك نبغى نسافر.
فقالت له:
- فين؟
فقال لها:
- ما عرف.
أخذت تسأله عن سبب سفر لا يعرف وجهته فامتنع عن إخبارها في البداية وعندما ألحّت عليه وقالت له:
- أروح معاك لآخر الدنيا بس أعرف ليه تسافر؟
أخبرها بخبر أخته، فقالت له:
- إلى متى وأنت تهرب، عليك تروح وتشوف أش اللي صار... خذ معاك حيواناتك علشان تساعدك لو صار شيء.
اقتنع برأي زوجته فحمل حيواناته وسافر من بلد إلى بلد حتى اقترب من بلدته، فوضع حيواناته في البرية وقال لها:
- لو سمعتم صوتي اعرفوا أنّي في محنة فساعدوني.
انطلق بمهرته ودخل مدينته فوجد الشوارع خالية من الناس والبيوت مغلقة. استغرب أشدّ الغرابة وتابع سيره إلى أنّ وصل إلى بيتهم فوجد أختة دعوة جالسة تمصمص عظام رجل حمار وتقول:
- إش هذا النصيب، ما بقى إلاّ العظام أمصمصها؟
فكّر أن يعود قبل أن تراه، ولكنها شمت رائحته، فدسّت رجل الحمار ونهضت سائلةً:
- مين خارج البيت؟
ارتعد وردّ عليها مرتبكاً:
- أنا أخوك.
هلّلت به ورحّبت وقالت له:
- فينك، من زمان وأنا أدور عليك، ما بقى لي أحد من أهلي، كلهم ماتوا وفضلت وحدي.
وحضنته فشمّ رائحة نتانة تطلع من جسمها، فقال لها:

- أنا جئت علشان آخذك.

فقالت له:

- استريح أروح أسوّيلك أكل.

تبعها بحيث لا تراه وكان يتلفّت بحرص فوجد عظام وجماجم آدميين منتشرة في فناء البيت، وضبة تسير وتقول:

- جاء من يسدّ جوعي بعد فاقة الليلة سأرتوي من دمه ودم مهرته.

وأثناء سيرها رأت مهرته مربوطة فمرّت عليها ونهشت إحدى قدميها ووضعتها في فمها كالمسواك، وانتقلت إلى داخل المطبخ ورآها تعجن دقيقاً وتخبزه، وبعد أن انتهت تحرّكت إلى حيث تركت أخوها، فتحرّك قبلها وعاد إلى مكانه، فقالت له:

- مال مهرتك بثلاث أرجل؟

فقال لها:

- المهرات في بلادنا بثلاث أرجل.

اطمأنت وخرجت فتبعها فرآها تمسك بمهرته وترفعها عالياً وتقرض وريدها وتمصّ دمها، ثم أتت عليها وأكلتها بنهم ومسحت فمها وعادت إلى المطبخ. استشعر الخوف وانطلق راكضاً، فأحست برائحته تبتعد فخرجت تركض وراءه وتصيح:

أخويه يا ابن أمي وبويه

آكلك بالضرس ذا أو بالضرس ذا

ركض الشاب بقوة، وعندما وصل إلى أطراف المدينة رأى النخيل ممتداً فتوسل إلى أقربها:

يا نخلة يا أم الجدايل الفضة

احميني من أختي ضبة

قصرت شجرة النيم وحملته وأخذت ترتفع عالياً، وعندما وصلت ضبة أخذت تحوم حول شجرة النيم وتردّد:

أخويه يا ابن أمي وبويه

آكلك بالضرس ذا أو بالضرس ذا

ومن شدة الخوف طقع أخوها فالتفت ورأته، فقالت للنخلة:

يانخلة السين والجيم
رجعي أخويه سليم
فأخذت الشجرة تقصر فصاح بها الشاب:
يا نخلة يا أم الجدايل الفضة
احميني من أختي ضبة
عادت ترتفع فصاحت بها ضبة:
يانخلة السين والجيم
رجعي أخويه سليم

أخذت النخلة تقصر وظلّ الشاب يطلب من النخلة أن ترتفع وضبة تطلب منها أن تقصر، وتنبّه إلى أنّ الليل اقترب، وإذا حلّ ستمتلك أخته قوة تكسر بها جذع النخلة وتمصّ دمه وتدقّ عظامه، فقال لها:

- يا دعوة يا حبيبة أمي وأبويه، ما أبخل عليك بدمي بس أبغاك تعطيني مهلة علشان أنزل.

فقالت له:

- أش تبغى؟

فقال لها:

- وأنا نازل أبغى أصيح بأسماء الحيوانات علشان أشجّع نفسي.

فقالت له:

- صيح زي ما تبغى، كلّ أهل البلد أكلتهم وما في أحد حيسمعك... صيح يا حبيبي.

فتظاهر بأنه ينزل وأخذ يصيح:

- يا سبع يا أسد يا نمر... يا سبع يا أسد يا نمر... يا سبع يا أسد يا نمر...

وفي لمح البصر كانت حيواناته تقف عنده فصاح بها:

- كلوها قبل ما تاكلكم.

فالتفوا حولها، فكانت تقول لأخيها:

- أنا كنت عارفة أن نهايتي حتكون على يدك وطلبي إنك تخليني أموت في الليل. . . قل لحيواناتك تنتظر علي حتى يدخل الغروب.

فصاح الشاب بالحيوانات:

- لو دخل الغروب وهي حية حتاكلنا جميعاً. . . كلوها.

فتخاطفها الأسد والنمر والسبع وقطعوها أوصالاً، ونزل الشاب وركب ظهر السبع وانطلق عائداً إلى زوجته، وحملها هي وأبوها على ظهر الأسد والنمر وعاد إلى بلدته وقال لزوجته:

- كل هذه المدينة لنا.

وعاشوا في سلام وخلفوا صبياناً وبنات وعادت المدينة مليئة بالناس.

رواية حامدة حمدان

شهوة أمي

في أحد البلدان البعيدة كان يعيش أحد المزارعين وحيداً، فهو لم يرزق طوال حياته بذرية، رغم أنه تزوّج مرات عدّة، وعندما يأس فضّل أن يعيش وحيداً، وكلّما عاد إلى البيت تذكّر وحدته وحاجته إلى الأبناء، وكانت لديه كلبة تعيش معه، وذات ليلة أخذ المزارع يدعو ربه بتضرّع ويقول: يا رب ارزقني ببنت حتى لو من كلبتي.

راحت أيام وجات أيام فإذا الكلبة حامل تتوجّع، فكان المزارع يرعاها ويتفقد حالها، وعندما حانت الولادة جلس يراقبها من بعيد، فولدت أربعة جراء وطفلة واحدة. صُعق المزارع وجاء يعامل المولودة، فحملها وغسلها ونظفها وبدأ يعتني بها عناية فائقة، فشبت البنت وكلّما كبرت زاد جمالها ودلالها.[١]

كانت البنت تهتم بأبيها اهتماماً بالغاً وتعتني بشوؤنه وتزوّده بأكله وشربه عندما يكون في الحقول. وذات يوم، بينما هي تسير إلى حقل أبيها لتقدّم له وجبة الغداء، رآها السلطان ففتن بها وأخذ يتتبعها حتى وصلت إلى حقل أبيها، فتركها وعاد إلى

(١) الكلب من الحيوانات التي رافقت الإنسان منذ زمن مبكر، ويتواجد في الأساطير والحكايات بصور شتى، وشعب الموسو بالصين لديهم أسطورة تقول إنّ الكلب كان عمره ٦٠ عاماً ولم يكن قادراً على الاعتناء بنفسه كلّ هذه الفترة الزمنية الطويلة، وكان الإنسان عمره ١٣ عاماً فقام الكلب بعملية تبادلية مع الإنسان فأعطاه عمره مقابل أن يقوم الإنسان برعايته طوال هذه الفترة.

ولذلك نجد أنّ من الطقوس الصينية عندما تكبر البنت وتصل إلى سنّ ١٣، سنّ النضوج، تقدّم طقساً طويلاً على مدار يوم الاحتفال ينتهي بطقس الاعتناء بكلب العائلة بتقديم اللبن له وإظهار الاهتمام به.

ومن اعتقادات شعب الموسو أنّ الدخان يصعد بدعواتهم إلى آلهتهم.

قصره وأمر حراسه أن يأتوه بالمزارع، وعندما جاؤوا به أكرمه السلطان واستقبله استقبالاً حافلاً بينما كان المزارع في دهشة من أمره وظلّ صامتاً ينظر إلى السلطان منتظراً أن يفاتحه. أحسّ السلطان بدهشة المزارع فقال له:

- كان من المفروض أجيك أنا ولكن عذرني...

ارتبك المزارع ورفع صوته مستغفراً وقال للسلطان:

- إحنا اللي نجيك نحبي.

فقال له السلطان: أنا لي طلب عندك.

فقال المزارع: أش عند الفقير يعطيه لسلطان الزمان؟

فقال له السلطان: أبغى أتزوج بنتك.

أصيب المزارع بالارتباك وأخذ يتلفّت لعلّ السلطان يحدّث أحداً غيره، وعندما استحثّه على الردّ قال المزارع:

- يا مولاي السلطان، ما عندي بنت ولا ولد فكيف أزوّجك ببنتي وأنا ما عندي بنات.

غضب السلطان ونهض عن عرشه وقال للمزارع:

- ترفض مصاهرتي؟

اعتذر المزارع اعتذاراً حاراً وقد أحسّ بفورة غضب السلطان، وقال له:

- مَن يرفض مصاهرة مولانا السلطان؟ لكن أنا ليست لديّ بنات!

زاد غضب السلطان واقترب منه صائحاً:

- واش تقول في البنت اللي كانت عندك في الظهر وجابت لك الغدا... تتنكّر لها؟

ارتبك المزارع وقال للسلطان:

- بس يا مولانا ...

وقبل أن يكمل حديثه قاطعه بقسوة:

- أبغى بنتك زوجة، يا تقول أيوه أو لا.

خشي المزارع غضب السلطان فوافق على تزويجه ابنته. وأُقيم زواج حضره الملوك والسلاطين والأمراء والوزراء وكبار أهل البلد، وكانت كلّ البلاد فرحة بهذا

الزواج إلاّ امرأة السلطان وأمها فقد بقيتا بداخل القصر تمضغان الحسرة وتتمنيان أن لا يتم هذا الزواج.

أقيمت مراسم الزواج ودخل السلطان على ابنة المزارع فوجدها أكثر جمالاً وفتنةً عمّا رآها أول مرة، وسعد بها ونسي كلّ شيء وبقي مجاوراً لها معلّقاً بصره على وجهها، وكاد يطير من الفرح عندما أخبرته أنّها حامل. وبعد مضي ثلاثة أشهر بدأ عليها الوحام فعافت أكل كلّ شيء، وكلّما قدّم لها طعام رفضته، فاحتار السلطان وسألها:

- ليه ما تاكلي؟

فقالت له: نفسي عافت كلّ شيء وراحت نفسي على شهوة أمي.

فقال لها: وش هيه شهوة أمك؟

فقالت له: لا يعرف شهوة أمي إلاّ أبويه.

استغرب كلّ من بداخل القصر وداخلهم الفضول في معرفة شهوة أمها، وراج في القصر خبرها. ويقوّل الخدم والعبيد إنّ شهوة أم سيدتهم هي فاكهة من الجنة، وبعضهم قال إنّ السلطانة حنّت إلى فقرها وتشوّقت لأكل الفقراء... المهم أنّ كلّ من بداخل القصر رغب في معرفة شهوة أم السلطانة، ومن بين من اعتراهم الفضول لمعرفة هذه الشهوة زوجة السلطان الأولى وأمّها، فقالت أمها: لا بدّ أن اكتشف سرّ شهوة أمها.

ضاق السلطان من حالة زوجته فأرسل حرسه لإحضار المزارع، وعندما وقفوا على بابه خشي أن يكون السلطان قد عرف بقصة ابنته فيقتله، فكان يسأل الحرس في جزع:

- أش يبغى مني السلطان؟

فلا يردّون عليه، وعندما وصل أدخلوه على السلطان فاستقبله مرحباً مما خفّف عن نفسه ذلك الخوف، وقال له السلطان:

- ابنتك ما أكلت من ثلاث ليال وكلّ ما جبنا شيء تقول ما أبغى إلاّ شهوة أمي ولا يعرف شهوة أمي إلاّ أبويه، وأبغاك تجيب لها شهوة أمها.

حاول المزارع الاعتذار لكنّ السلطان أصرّ أن يلبّي الأب رغبة زوجته، فخرج المزارع حزيناً وهو يقول في نفسه: «أش هذه الورطة، ذحين لو جبت لها شهوة أمها

رايحين ننفضح، عندها سيقطع السلطان رأسي ورأسها»، ولم يجد بدّاً من تلبية أمر السلطان فخرج إلى البرية وهناك وجد حماراً ميتاً ومنتناً سعى بين لحمه وعظمه الدود وفاحت نتانته حتى لا يقدر المرء على الاقتراب منه، فكمّم على خشمه وتناول سكينه وقطع رجل الحمار الميت ولفّها في شاله، وكانت تتابعه عمة السلطان لزوجته الأولى، وعندما رأت ما قام به المزارع استغربت أشدّ الغرابة لكون شهوة أم زوجة السلطان هي أكل اللحم الميت المنتن، وأسرّت ما شاهدت وأقسمت على معرفة حكاية السلطانة.

عاد المزارع إلى قصر السلطان وهو خائف أشدّ الخوف من أن يطلب السلطان رؤية شهوة أم زوجته، وبالفعل ما إن دخل المزارع حتى استقبله السلطان وقال له:

- خلّينا نشوف أش هي شهوة أم زوجتنا.

كان جميع مَن بالقصر حاضراً لمشاهدة تلك الشهوة، فخاف المزارع وأخذ يدعو الله أن ينجيه مما هو فيه، وعندما تناول السلطان الشال الذي كان يحمله المزارع وفيه رجل الحمار التي قطعها كاد المزارع أن يُغمى عليه، فحين رفع السلطان الشال إذا به يرى فجلاً ذا أوراق خضراء ورؤوس بيضاء ناصعة، فقال السلطان:

- طيب ليه ما قالت إن شهوة أمها هي الفجل. كنت أحضرت لها أفضل الأنواع.

حمد المزارع الله وقال للسلطان:

- ابنتي تتوحّم على الفجل اللي أزرعه وليس على أيّ فجل.

قام السلطان وناول زوجته الفجل فأخذت تأكله بنهم، وبعد لحظات تجشّأت فخرجت منها رائحة كريهة هي رائحة رجل الحمار الميت.[1]

لم يلفت الأمر أحداً سوى عمّة السلطان التي استغربت حينما تحوّل ساق الحمار إلى فجل، وأضمرت أن تعرف قصة المزارع وابنته مهما كلّفها الأمر من

---

(١) لهذا ترى العامة أنّ من يأكل الفجل إنما يتجشّأ رائحة كريهة تعود في الأصل لرائحة الحمار المنتن الذي جزّ المزارع ساقه ليقدّمه لابنته التي اشتهت شهوة أمها، تلك الشهوة المتمثّلة في أكل الميتة المنتنة التي تأكلها الكلاب.

عنت، فما أن خرج المزارع من قصر السلطان حتى تبعته وأمسكت به وقالت له:

- أنا أعرف قصة ابنتك كاملة... وكنت أتابعك، فبعد أن خرجت من قصر السلطان قطعت ساق الحمار ولفيته بشالك، وأبغى أعرف منك كيف حوّلت ساق الحمار المنتن إلى فجل وإلاّ أخبرت السلطان بكلّ الحكاية؟

خاف المزارع من عمة السلطان وقال لها:

- استريني الله يسترك... وكما تعرفين، فبعد أن توحّمت ابنتي على شهوة أمها الكلبة خرجت مهموماً لا أعرف كيف أتدبّر أمري، وفي الأخير قررت أقطع لها من أيّ جيفة تصادفني وقلت ألفّها في شالي ولا أخلّي السلطان يشوفها، ولما وصلت كان السلطان في استقبالي فدعوت الله أن يسترها معي وقد سترها، وهذي كلّ الحكاية.

وأخذ يترجّاها أن لا تبوح بسره فقالت له:

- سرك في بير.

راحت الأيام وجات أيام وولدت زوجة السلطان توأمين جميلين، وكانت تقف معها أثناء الولادة عمة السلطان، فقامت من حينها وأحضرت ثلاثة جراء وقطعت واحداً منهم ومسحت بدمائه فم ابنة المزارع وأبقيت تحتها الجروين الآخرين ونادت على عبدها وقالت له:

- خذ هذين الولدين واقتلهما ولك هذه الصرّة من الذهب. وأمرته أن يغادر القصر في الحال، وعندما تأكّدت أنه غادر القصر أخذت تصيح بالسلطان وبالحاشية في القصر: زوجة السلطان ولدت كلاب وأكلت واحد منهم.

فزع كلّ من بداخل القصر وسمع السلطان صراخ عمته فحضر في الحال ووجد زوجته ملطّخةً بالدم وأسفل منها جروين يتلمّسان صدرها، بينما كانت مجهدة من أثر الولادة وغير قادرة على النطق، وعندما استوضح الأمر صاحت عمته:

- زوجتك ولدت كلاب وأكلت واحد لتتقوّى به.

فقال لها السلطان: أش تقولي؟

فقالت له: كما سمعت، وأصل الحكاية ان المزارع خدعك وزوّجك ابنة كلبته؟

غضب السلطان غضباً شديداً وأمر بإحضار المزارع في الحال وإدخال زوجته

وجرويها إلى مخزن الفحم، وعندما حضر المزارع علم السلطان بكلّ الحكاية، فأمر بطرد المزارع وسجن ابنة الكلبة داخل مخزن الفحم ما تبقى لها من عمر، وأرجع زوجته إلى عصمته وعاش معها محاولاً أن ينسى مصيبته التي حلّت به.

أما العبد فعندما خرج لقتل المولودين لم يقدر، فقد نظر إليهما وهما يتلمّظان أصابع يده ويبكيان بشدّة، فرقّ قلبه لهما وقرّر أن يعيش معهما بعيداً عن بلاد أبيهما، وظلّ يربّيهما على الفروسية والقتال فشبّا أقوياء ولهما مراس في الطعن والفرّ والكرّ.

مضت سنوات طويلة والسلطان لا يزال يعيش في حسرة على أنّ ملكه سيضيع لأنّ ولده من زوجته الأولى يظهر عليه الغباء وإن كان يومياً يمسك بعصاته ويقول:

يالله بغوشة

يالله بهوشه

يتشجع فيها الحج أحمد

وقد نسي زوجته التي حبسها في مخزن الفحم، والتي كان أهل القصر يرمون لها بقايا الأكل الذي لا يؤكل، وقد عرف أبوها مكانها ففتح في جدار المخزن فتحةً كان يزودها من خلالها بالطعام عندما يكون الحراس غافلين عن مخزن الفحم.

أما الشابان فقد كبرا وأصبحا من أشهر القوّاد وأجلدهم على منازلة الخصوم وإيقاع الهزيمة بجيشٍ جرّار، وكان لا يعرفان عن حياتهما السابقة أيّ شيء، فقط يعرفان العبد الذي ربّاهما. وعندما حانت منيته جمعهما وقال لهما:

- أنا عندي سرّ ما تعرفونه ونفسي أقوله لكم قبل ما أموت.

فقالا له:

- أش هوه هذا السرّ؟

فقال لهما:

- أنتم أولاد سلاطين وأبوكم سلطان الناحية الشمالية وصار كيت وكيت وأنا خايف أموت قبل ما أخلّص ذمتي.

شكره الأخوان على مروءته معهما وظلاّ معه حتى مات، فدفناه وخرجا إلى سلطنة أبيهما، وعندما دخلا ظلاّ يتجوّلان ويسألان عن مخزن الفحم في قصر السلطان، وفي طريقهما وجدا رجلاً مسنّاً يجلس في حقله فسألاه:

- فين مخزن فحم السلطان؟

فقال لهما: واش تبغوا بمخزن الفحم؟

فقالا: دلّنا عليه ولك اللي تبغى.

فقال لهما: ما أدلكم عليه حتى تقولوا أش تبغوا؟

فقالوا له: لنا فيه حاجة غالية.

فقال لهما: وأنا لي في داخله حاجة غالية مثلكم، قولوا حاجتكم وأقلكم حاجتي.

فقالا له: لنا في هذا المخزن إنسانة غالية.

فقالا لهما: ولي فيه إنسانة غالية، كلّموني بصراحة.

فأخذا منه المواثيق والأيمان أن لا يفشي ما سيقولانه له، وأخبراه بالقصة فصعق وأخذ يضمّهما إلى صدره ويجهش بالبكاء وأخبرهما أنّ المرأة التي بداخل المخزن هي ابنته، وأنها مسجونة منذ ثلاث وعشرين سنة، وأنه فتح فتحة في المخزن ليطعمها، فأخذا يقبّلانه ويشكران الله على جمعهم، وخرجوا باتجاه المخزن، وعندما وصلوا قام المزارع بإزالة الخشب عن الفتحة التي أحدثها بالمخزن ودخل منها الابنان، وعندما رأتهما أمهما خافت واستعاذت بالله منهما وصاحت بهما:

- إنس والا جن؟

فقالا لها: نحن إنس من خيار الإنس.

وأخبراها أنهما ابناها، فقالت:

- أنا ولدت كلاباً وليس أدميين.

فقالا لها:

- أنت ولدتي رجالاً وليس كلاباً بس عمة السلطان أخذتنا منك وانت في حمى النفاس وجابت بدلاً عنا جراء قطعت واحداً منها ولطخت فمك بالدم وأعطتنا لعبدها ليقتلنا وقالت لأبونا إنك ولدت كلاب وحنّ علينا العبد ولم يقتلنا، وها نحن عدنا لك.

فرحت بهما وأخذت تقبّلهما وتحمد الله على نعمته، فظلا معها يأتيان لها بما لذّ وطاب من المأكولات والمشروبات حتى أنّ الحرس استغربوا لأنّ السجينة لم تعد

تأكل ما يقدّم لها من أكل وشراب، وبلّغوا عمّة السلطان أنّها لا تأكل ولا تشرب، فأخذت تبحث في الأمر فكانت تسمع أصوات رجال بداخل المخزن، وكلّما فتحت المخزن اختبأ الابنان بين أكياس الفحم فلا تجد أحداً سوى السجينة وأمامها ما لذّ وطاب من المأكولات، فتقول لها:

- من فين لك كلّ هذا الأكل؟

فتقول: الله أسقاني وأطعمني.

وظلّت تحاول معرفة سرّ أصوات الرجال التي تسمعها كلّما كانت خارج القصر.

وفي تلك الأيام استيقظت السلطنة على غزو وجيوش تزحف على قصر السلطان، فكان الملك حائراً لمن يسلّم قيادة عسكره لصدّ العدو، وعندما فكّر في ابنه الحج أحمد ندم كثيراً حينما رآه يدس عصاته ويولول:

يالله بشجرة

يالله بمجرى

يتدرّج فيها الحج أحمد

وقد بلغ منه الخوف حتى تبوّل على نفسه.

أيقن السلطان أنّ ملكه زائل حينما سمع أصوات جيش العدو على مقربةٍ من القصر، وبينما هو في هذه الحالة خرج من داخل المخزن الابنان ودارا بخيلهما وسيوفهما وفرّقا جيش الغازين وردّوهم إلى الخلف وجمعا الجيوش وقادا الجيش حتى كان لهما النصر. كان السلطان يرى كلّ أفعال هذين الشابين وكان يتمنّى في نفسه لو أنهما ابناه، وبعد انتهاء المعركة تقدّم إليهما وقال لهما:

- صنعتم بي جميلاً لن أنساه فاطلبوا اللي تبغوه.

فقالا: ما نبغي شيء إلاّ نصرتنا ممّن ظلمنا.

فقال لهما: أنا نصيركم، أش قصتكم ومين ظلمكم؟ وإن كان في سلطنتي الآن آخذ لكم حقكم.

فقالا له: في قصرك.

فقال لهما: في قصري... من يكون؟

فقالا له: أنت؟

تراجع السلطان ووقف وزراؤه وتهيّأ جنوده للبطش بالشابين، فاستوقفهم السلطان وسأل الشابين:

- أنتم مين؟

فقالا له: إحنا أبناء الكلبة؟

تذكّر السلطان زوجته التي سجنها منذ ثلاث وعشرين سنة ولم يسأل عنها في ما تبقّى من زمن، وبعد صمت قال لهما:

- أبناء الكلبة. . . أيّ كلبة؟

فقالا له: الكلبة اللي سجنتها في المخزن، والقصة كيت وكيت.

لم يتمالك السلطان نفسه فقز إليهما وأخذ يقبّلهما وهو يصيح:

- أولادي فرسان.

ثم قام معهما وفتح مخزن الفحم وأخرج زوجته وقبّل رأسها معتذراً منها وقادها إلى غرفته وأمر حرسه بإيقاد النار ووضع صاج به زيت وألقى فيه عمّته، وعاش مع زوجته وابنيها في سعادة، وبقي ابنه الحج أحمد يدور في الشوارع وهو يردّد:

يالله بغوشة

يالله بهوشة

يتشجّع فيها الحج أحمد.

رواية حامدة حمدان

فرط الرمّان ذهب

في ذلك الزمان كانت الغيلان تتشبّه بشكل الإنسان، وكانت هناك بنت سلطان سبحان من خلق وسوّى، جمالها ما كان وقدّها ريّان وعينها تترك من ينظر إليها حيران، اسمها فرط الرمان ذهب، وكانت أمها تدللها وتسمّيها: رمّان الذهب.

أراد أبوها أن يعلّمها ويفقّهها فأدخلها عند سيد يعلّم الصبيان، وأبدت فرط الرمان ذهب اجتهاداً وأدباً قرّبها من زملائها وزميلاتها في الكتّاب.

وكان سيدهم يطلب كلّ يوم وجبة غذاء من أحد طلابه، فيقدّمون له ما لذّ وطاب من مأكل ومشرب، وفي يوم قال لفرط الرمان:

- يا فرط الرمان ذهب عليك الدور.

فقالت له:

- على العين والرأس يا سيدنا.

وعادت إلى قصر أبيها وأخبرت أمها أنّ سيدها يريد منها أن تقدّم له وجبة الغذاء، فرحّبت أمها وقالت لها:

- سأقدّم له غذاء لن ينساه.

وقامت من حينها وأمرت الخدم أن يجهّزوا ما لذّ وطاب من المأكولات وقالت لهم:

- هذا الأكل للسلطان وأريد كلّ واحدة منكم أن تتفنّن في الصحن الذي تقدّمه.

اجتهدت الخادمات في تقديم أفضل أنواع المأكولات التي يجدنها، وبعد الانتهاء أخذت أم فرط الرمان من كلّ نوع مقداراً ووضعت كلّ تلك الأطعمة في

صحن من ذهب وأعطتها ابنتها، فحملته وذهبت إلى سيدها، وقبل أن تدخل رأت سيدها معلّقاً كلباً ميتاً[1] ينبش أمعاءه ويأكل من لحمه، فأصيبت بالفزع والخوف وانطلقت خائفةً فسقطت منها أواني الطعام الذي تحمّله فتنبّه السيد لوجودها وخرج وأمسك بها وقال لها:

- لو أخبرتي أحداً سوف آكلك.

وأخذ منها الأكل الذي أحضرته، وأخذ يتفحّصه ويقول لها:

- نسيتي أن تحضري كذا وكذا.

وهي تردّ عليه برعب:

- سوف أحضر لك ما تريد.

وأمرها بالانصراف وهو يذكّرها:

- لو أخبرتي أحداً سوف آكلك فهمتي.

فقالت له: فهمت، لن أخبر أحداً.

وعندما عادت إلى قصر أبيها كانت ذابلة وشاردة الذهن، وقالت لها أمها:

- ما لك، عسى أكلنا لم يعجب سيدك؟

فقالت لها: أكلنا أعجب سيدنا بس أنا أحس ببرد.

فخافت عليها وطلبت من الخدم أن يحضروا لها شرشفاً جديداً يقيها البرد الذي تشعر به، فخرج أحد الخدم إلى السوق وأحضر شرشفاً جديداً وقدّمه لسيدته، فأخذته وغطّت به فرط الرمان ذهب، وعندما خرجت أمها تحوّل الشرشف إلى سيدها الغول وأخذ يقول لها:

- يا فرط رمان ذهب.

فتردّ عليه:

- لبيك يا سيد القصب

فيقول:

ماذا رأيت من سيدك من عجب

---

(١) في السودان، في الدنكا تحديداً، لا يضربون الكلب لكون معتقدهم أنّ الكلب هو من جلب لهم النار.

حتى نسيتي صحن الذهب

هل لك من عتب؟

فتقول له:

ما في هناك من سبب

حتى يكون عليك العتب

فيغيب وتذهب هي في غيبوبة طويلة. أحست بها أمها وحاولت كثيراً أن تعرف سبب ضمورها والحمّى التي تعتريها في كلّ حين، وكلّما سألتها:

فرط رمان ما بال خاطرك حيران؟

تردّ عليها:

الجسم ذبلان

والصدر به خفقان

ومطلوب مني الكتمان

وكلّما حاولت معرفة ما تخفيه ابنتها عنها لا تقدر. وذات يوم أرادت أن تفرحها فأحضرت لها أسوارة من العقيق الأحمر وطوّقت به عنقها. فرحت فرط رمان بالأسوارة وأخذت تتطلّع إليها في المرآة فرأت تلك الأسوارة تتحول إلى سيدها الذي أخذ يقول لها:

- يا فرط رمان ذهب.

فتردّ عليه:

- لبيك يا سيد القصب.

فيقول:

ماذا رأيتي من سيدك من عجب

حتى نسيتي صحن الذهب

هل لك من عتب؟

فتقول له:

ما في هناك من سبب

حتى يكون عليك العتب

وتذهب في إغماءة لثلاثة أيام، وتظلّ أمها بجوارها تطبّبها، وعندما تفيق تقول لها:

فرط رمان ما بال خاطرك حيران؟

فتردّ عليها:

الجسم ذبلان

والصدر له خفقان

ومطلوب مني الكتمان.

ضاقت فرط الرمان من الغول الذي يظهر لها في كلّ حين، وقالت لأمها:

- علاجي أن أترك هذا البلد وأسافر.

فقالت لها:

- يقدر أبوك يسفرك لأي بلد وأنا معك.

فقالت لها:

- أبغى أسافر لوحدي وما أبغى أحد معي.

وافقت الأم على سفر فرط الرمان ذهب، وأخبرت أبيها بما عزمت عليه ابنته، فقال لها:

- لو أنّ السفر يشفيها اتركيها تسافر.

رفضت فرط رمان أن تأخذ أي شيء من الأموال، وأخذت طريقها من بلد إلى بلد، وكانت تفكر أن تغيّر شكلها حتى لا يتعرّف عليها الغول. وفي طريقها وجدت شحاذاً فأعطته خاتمها مقابل أن يمنحها ملابسه، وارتدت تلك الملابس وأخفت شعرها تحت العِمّة، وسافرت من بلد إلى بلد حتى وصلت إلى مدينة بعيدة وهي متعبة وبحاجة للنوم، فدخلت سوق تلك البلدة ووقفت بجوار بائع السمن والعسل، وما إن وقفت حتى انهال المشترون لشراء السمن والعسل، وكان هذا البائع لا أحد يصله أو يشتري منه، فاستغرب هذا الإقبال المفاجئ على سمنه وعسله، وقرن ذلك الإقبال بوجود هذا الشاب الذي وقف على بابه (فرط الرمان ذهب) فقال له:

- يبدو عليك أيها الشاب أنك مبارك، فهل تعمل عندي مقابل أن تأكل وتنام داخل مخزن السمن والعسل؟

فقالت له فرط الرمان ذهب:

- موافقة.

وعندما حلّ المساء دخلت فرط الرمان إلى مخزن السمن والعسل وأغلق عليها بائع السمن الباب وذهب إلى داره، فسمعت صوت سيدها الغول يقول لها:

- يا فرط رمان ذهب.

فتردّ عليه:

- لبيك يا سيد القصب.

فيقول:

ماذا رأيتي من سيدك من عجب

حتى نسيتي صحن الذهب

هل لك من عتب؟

فتقول له:

ما في هناك من سبب

حتى يكون عليك العتب.

وفجأة كانت ترى يداً تتحرك في الهواء وتكسر قوارير العسل والسمن، وتحوّل ذلك المخزن إلى سيل من السمن والعسل. وعندما جاء الصباح وفتح صاحب المحل دكانه أصابه الذهول وأخذ يصرخ ويضرب فرط الرمان ذهب ويقول لها:

- أرسلك خصومي علشان تكسر قوارير السمن والعسل.

فهربت من بين يديه، وواصلت السفر، ومن بلد إلى بلد حتى وصلت إلى مدينة تبعد عن قصر أبيها مدناً وجبالاً وبحوراً، فدخلت سوق تلك المدينة ووقفت على بائع قماش، وكانت منهكة متعبة وجائعة، فطردها صاحب المحل ظاناً أنّ هذا الشاب الذي يقف على باب محله يستجدي، فقالت له:

- سأجلب لك الرزق لو جعلتني أعمل عندك.

أخذ البائع يدفعها من أمام الباب، وبينما هو يفعل ذلك انهال عليه المشترون من كلّ مكان في السوق، فاكتشف أنّ الشاب صادق في قوله فقال له:

- أدعك تعمل عندي مقابل أكلك وشربك ونومك.

وافقت فرط الرمان ذهب، وفي ذلك اليوم باع من القماش ما لم يبعه طوال سنة كاملة، وعندما حلّ المساء قال القمّاش لفرط الرمان ذهب:

- ادخل لداخل الدكان ونم بداخله.

وما إن أغلق البائع دكانه وأرادت فرط الرمان ذهب أن تنام ظهر لها سيدها الغول وسمعته يقول لها:

- يا فرط رمان ذهب.

فتردّ عليه:

- لبيك يا سيد القصب.

فيقول:

ماذا رأيتي من سيدك من عجب

حتى نسيتي صحن الذهب

هل لك من عتب؟

فتقول له:

ما في هناك من سبب

حتى يكون عليك العتب.

وما إن أنهت جملتها حتى رأت يداً تتحرك في الهواء تحمل مقصّاً وتمزّق كلّ الأقمشة الموجودة بداخل الدكان. وفي الصباح عندما فتح القمّاش الدكان ورأى حال أقمشته الممزقة جنّ جنونه وأمسك بفرط الرمان وضربها ضرباً مبرحاً، وعندما تدخّل أهل السوق استطاعت فرط الرمان أن تتخلّص من يديه ولاذت بالفرار.

وأخذت تسير من مكان لآخر وقد تمزّقت ملابس الشحاذ التي ترتديها وبانت ملابسها التي تظهرها كبنت، فخلعت ملابس المتسوّل وعرجت على أحد الأنهر القريبة واغتسلت وسرّحت شعرها، وكان في المكان نفسه سلطان تلك البلد وقد عطش حصانه فمال به ليشرب، وكان الحصان يمدّ عنقه ويتراجع فنزل السلطان ليرى سبب تراجع حصانه عن الشرب فرأى شعراً طويلاً يترك في مياه النهر، ونظر فرأى فرط الرمان ذهب وهاله جمالها، فاقترب منها وسألها:

- إنسية ولا جنية؟

فقالت له:

- إنسية.

فصارحها بحبه لها ورغبته في الزواج منها فوافقت، فأخذها معه وأمر الخدم أن

يغسلوها ويلبسوها أحسن الملابس، وبعد أيام أعلن عن زواجه وحضر السلاطين والوزراء وأقيمت ليلة لم يرَ الناس مثلها، وعاش معها السلطان سعيداً هانئاً، وزادت فرحته عندما أخبرته بأنها حامل. وبعد مضي تسعة أشهر ولدت فرط الرمان ذهب بنتاً في غاية الجمال سمّاها أبوها غاية القلوب، وما هي إلاّ أيام حتى سمعت فرط الرمان صوتاً يسألها:

- يا فرط رمان ذهب.

فتردّ عليه:

- لبيك يا سيد القصب.

فيقول:

ماذا رأيتي من سيدك من عجب

حتى نسيتي صحن الذهب

هل لك من عتب؟

فتقول له:

ما في هناك من سبب

حتى يكون عليك العتب.

فجأةً رأت يداً تخطف ابنتها من بين يديها وتجلب كلباً ميتاً يسيل الدم من جسمه ويلطّخ فمها بالدم ويغادر بابنتها، فأصيبت بالإغماء وظلّت على حالها، وعندما دخل السلطان ليسلّم على غاية القلوب وجد زوجته مغميً عليها وفمها ملطّخ بالدم وبجوارها جثّة ممزقة، فهاله الأمر وأحضر الأطباء ووقفوا على حالة زوجته، وعندما أفاقت سألها السلطان:

- ماذا حدث؟

فقالت له: لا أعرف.

وسألها عن ابنته فقالت له:

- لا أعرف.

أصابه الهم والحزن فأخذ وزيره يخفّف عنه وقال له:

- ربما تكون الأميرة تعرّضت لمن قتل ابنتها.

استنكر السلطان وقال:

- من يجرؤ على قتل ابنتي وترويع زوجتي؟

وعاد محاولاً أن يفهم من فرط الرمان عما حدث، لكنها لم تزد على قولها السابق شيئاً، فقال الوزير للسلطان:

- استعض الله في ابنتك وعش مع زوجتك عسى الله يرزقك بالأبناء.

وكم كان السلطان سعيداً عندما علم أنّ فرط الرمان حامل. وبعد مضيٍ تسعة أشهر وضعت فرط الرمان غلاماً لم يرَ أحد أجمل منه، ففرح السلطان فرحاً عظيماً وسمّاه جابر الخواطر، ونادى به خليفة له قبل أن يختنه. وبينما كانت السلطنة تستعدّ لمبايعة السلطان ومعاهدته على الولاء لابنه، وبينما كانت فرط الرمان ترضع جابر الخواطر سمعت صوتاً يسألها:

- يا فرط رمان ذهب.

فترد عليه:

- لبيك يا سيد القصب.

فيقول:

ماذا رأيتي من سيدك من عجب

حتى نسيتي صحن الذهب

هل لك من عتب؟

فتقول له:

ما في هناك من سبب

حتى يكون عليك العتب.

فجأةً رأت يداً تخطف ابنها من بين يديها وتجلب كلباً ميتاً يسيل الدم من جسمه ويلطّخ فمها بالدم ويغادر بابنها، فأصيبت بالإغماء وظلّت على حالها، وعندما دخل السلطان ليسلّم على جابر الخواطر ويحمله إلى كرسي العرش وجد زوجته مغميّ عليها وفمها ملطّخ بالدم وبجوارها جثّة ممزقة، فهاله الأمر وأحضر الأطباء ووقفوا على حالة زوجته، وعندما أفاقت سألها السلطان:

- ماذا حدث؟

فقالت له: لا أعرف.

وسألها عن ابنه جابر الخواطر فقالت له:

- لا أعرف.

أصابه الهم والحزن فأخذ وزيره يخفّف عنه وقال له:

- ربما تكون الأميرة تعرضت لمن قتل ابنك كما قتل ابنتك.

استنكر السلطان وقال:

- من يجرؤ على قتل أبنائي بهذه الصورة وترويع زوجتي؟

وعاد يسأل فرط الرمان عن سرّ اختفاء ابنه وتلطّخ فمها بالدم فلم تزد أن قالت:

- لا أعرف.

وكانت أخت السلطان غير راضية عن فرط الرمان فقالت لأخيها:

- أخاف أن تكون زوجتك جنيّة تأكل أولادها.

لكنّ أمه تدخّلت ولامت ابنتها وقالت:

- مسكينة زوجة أخيك، يكفيها ما بها وليست ناقصة أن تتهميها بأكل ابنيها.

وظلت تواسي ابنها وتقول له:

- هذا حكم الله وعليك أن ترضى به.

ظلّ السلطان حزيناً لأيام على فراق ابنه، وعندما التأم جرحه عاد إلى زوجته، وكم كان فرحاً عندما سمع أنّ زوجته حامل، وبعد تسعة أشهر ولدت فرط الرمان غلاماً فاق بجماله أخيه جابر الخواطر، وفرح السلطان به فرحاً عظيماً وأخفى هذا عن كلّ الناس، ولم يعرف به إلاّ أمه وأخته وخادمة فرط الرمان، وقد سمّاه بلسم القلوب. وبينما كانت فرط الرمان ترضعه سمعت صوتاً يسألها:

- يا فرط رمان ذهب.

فترد عليه:

- لبيك يا سيد القصب.

فيقول:

ماذا رأيتي من سيدك من عجب

حتى نسيتي صحن الذهب

هل لك من عتب؟

فتقول له:

ما في هناك من سبب

حتى يكون عليك العتب.

فجاةً رأت يداً تخطف ابنها من بين يديها وتجلب كلباً ميتاً يسيل الدم من جسمه ويلطّخ فمها بالدم ويغادر بابنها، فأصيبت بالإغماء وظلّت على حالها، وعندما دخل السلطان ليسلّم على بلسم القلوب ويلاعبه وجد زوجته مغميّ عليها وفمها ملطّخاً بالدم وبجوارها جثّة ممزقة، فهاله الأمر وأحضر الأطباء ووقفوا على حالة زوجته، وعندما أفاقت سألها السلطان:

- ماذا حدث؟

فقالت له: لا أعرف.

وسألها عن ابنه جابر الخواطر فقالت له:

- لا أعرف.

أصابه الهم والحزن فأخذ وزيره يخفف عنه وقال له:

- ربما تكون الأميرة تعرضت لمن قتل ابنك كما قتل غاية القلوب وجابر الخواطر.

استنكر السلطان وقال:

- من يجرؤ على قتل أبنائي بهذه الصورة وترويع زوجتي؟

وعاد يسأل فرط الرمان عن سرّ اختفاء ابنه وتلطّخ فمها بالدم فلم تزد أن قالت:

- لا أعرف.

لكنّ أخت السلطان قالت له:

- هذه المرة تأكّد ظني فزوجتك جنيّة تأكل أبناءها.

أراد السلطان أن يقطع رأسها فقالت له أمه:

- لو كانت جنيّة سوف تقتلك، ونصحيتي لك يا ولدي أن تتركها في القصر المهجور لا تصلها ولا تصلك حمايةً لنفسك.

وافق السلطان على اقتراح أمه وأمر الخدم بأن يذهبوا بزوجته إلى القصر المهجور الذي غدا خرابة[1] وأن تبقى معها خادمتها وأن لا تخرج من القصر لأيّ

(١) جاء تحديد سكن الجن في الخرابات وظهورهم ليلاً من أسطورة جلجامش وشجرة الصفصافة، إذ كانت شجرة الصفصافة مغروسة على شاطئ نهر الفرات، فهبّت العواصف =

سبب من الأسباب. حمل الخدم فرط الرمان وخادمتها وأدخلوهما القصر وتركوهما هناك وعادوا، وفي كلّ يوم كانت خادمة فرط الرمان ترى سيدتها تذبل وتكثر إغماءاتها، فأخذت تعتني بها وتسألها عن السر الذي تخبئه فتقول لها:

- هذا نصيبي وما أقدر أبوح لأحد.

أما السلطان فأخذ يفكّر بالزواج، وقد استقرّ أمره وخطب ابنة أحد الشيوخ الذين يعلّمون صبيان البلد، وكانت فتاة رائعة الجمال وإن كانت صغيرة في السن، وقد أعلن عن يوم الزواج، ووصل الخبر لفرط الرمان أنّ زوجها على وشك الزواج من فتاة صغيرة في السن، فتذكّرت كلّ مصايبها وأخذت تنوح، فجاءتها خادمتها تواسيها وخرجت لتجلب لها شربة ماء، وقبل أن تخرج سمعت سيدتها تردّد:

- لبيك يا سيد القصب

-...........

- ما في هناك من سبب

حتى يكون عليك العتب.

فعادت إليها عجلةً وقالت لها: سمعتك تردّدين

- لبيك يا سيد القصب.

= وفاض الماء فأخذتها الإلهة إنانا إلى مدينة أرك أو الوركاء وغرستها في بستانها المقدّس حتى إذا كبرت الشجرة أرادت الإلهة إنانا أن تأخذ منها خشباً لتصنع لنفسها سريراً وكرسياً إلاّ أنّ حية شيطانية تدعى ليليث سكنت في شجرة الصفصاف ومنعت الإلهة إنانا من الوصول إلى بغيتها إلى أن جاء البطل الأسطوري جلجامش فقطع الشجرة وهمّ بذبح الحيّة (ليليث) التي فرّت إلى الأماكن الخربة المهجورة.

وليليث كلمة بابلية أشورية معناها أنثى العفريت أو الريح، كما أنها ذكرت مرة أخرى في إحدى القصائد الجلجامشية البابلية حوالي ٢٠٠٠ ق.م، وتحوّل هذا اللفظ بعد ذلك من ليليث إلى ليل، وهي ما أصبحت تظهر في الليل وعرفت بالجنية ليل، تسكن الأماكن الخربة وموارد المياه وتظهر كخارقة ليلية يغطّي الشعر كلّ جسدها العاري. وهذا هو ظهورها في الفولكلور السامي المعاش، ويبدو أنّ ليليث أو ليلى أو ليل السومرية هذه منذ ٤ آلاف عام ق.م هي نفسها التي أصبحت تصادفنا في الشعر والأغاني الشعبية - يا ليل يا عين - كما أنّ ليليث أو ليل توجد بكثرة هائلة في الأغاني الدينية الشعبية المعروفة بأغاني التخمير والزار. شوقي عبد الحكيم: موسوعة الفلوكلور والأساطير)

-. . . . .

- ما في هناك من سبب

حتى يكون عليك العتب.

أنكرت فرط الرمان فقالت لها خادمتها:

- أنا أعرف كلام الغيلان وأنت كنت تحدثي غول، أصدقيني أساعدك.

وجدت فرط الرمان نفسها تخبر خادمتها بكلّ الحكاية وقالت لها إنه أخبرها في آخر مرة أنه سيزوج ابنتها من أبيها، فقالت لها:

- عندما يقول لك:

- يا فرط رمان ذهب.

ردّي عليه:

- الموت قرّب يا سيد القصب.

فيقول:

ماذا رأيتي من سيدك من عجب

حتى نسيتي صحن الذهب

هل لك من عتب؟

فقولي له:

هناك ألف سبب وسبب

حتى تتحمّل كل العتب.

ساعتها سيظهر، وعندما يظهر أعرف كيف أخلّصك منه.

جلست فرط الرمان قلقة منتظرة أن تسمع صوته لكنّه لم ينادها، فأخبرت خادمتها فقالت لها:

- وسوسي في نفسك أنك خارجة علشان تخبري السلطان بكلّ الحكاية وتمنعيه من زواجه من ابنته.

أخذت فرط الرمان توسوس بما قالته لها خادمتها، وفجأةً سمعت صوتاً يناديها:

- يا فرط رمان ذهب

فردّت عليه:

- الموت قرّب يا سيد القصب.

انتفض الصوت وصاح:

ماذا رأيتي من سيدك من عجب

حتى نسيتي صحن الذهب

هل لك من عتب؟

فقالت له:

هناك ألف سبب وسبب

حتى تتحمّل كلّ العتب.

هاج الصوت واغبرّ المكان وتصاعد الدخان وظهر سيدها بصورته الحقيقية: غول كثيف الشعر وأنيابه ملطّخة بالدماء، فخرجت الخادمة من مخبئها ودلقت عليه ماءً توضّأت به، فأخذ يصيح:

- أحرقتيني!

فقالت له الخادمة:

- يا ملعون، لو ما عادت غاية القلوب وجابر الخواطر وبلسم القلوب لأحرقك أبد الدهر.

فصاح: سوف أجلبهم، ارفعي عني ماءك.

فقالت له الخادمة: سأظلّ أدلق عليك الماء حتى تموت لو ما أظهرتهم في الحال.

فأخذ يتمتم بكلمات فإذا بغاية القلوب وجابر الخواطر وبلسم القلوب واقفون أمام أمهم، فحضنوا بعضهم وقامت الخادمة بصبّ المياه على الغول، وكلما صبّت الماء فار دخان من رأس الغول، فأمرت فرط الرمان أن تضع زجاجة على رأس الغول، حتى امتلأت تلك الزجاجة بدخان أخضر واختفى الغول، فقامت الخادمة وأغلقت تلك القارورة، وقالت لفرط الرمان:

- خلاص، وضعت الغول في هذه القارورة وسوف نحفر له حفرة عميقة وندفنه بها.

وقاموا جميعهم وحفروا حفرة عميقة ووضعوا بداخلها تلك القارورة وطمروا

عليها التراب وعادوا إلى داخل القصر فرحين، وأخذت فرط الرمان تشكر خادمتها وتقول لها:

- أنا خادمتك العمر كله.

فقالت لها:

- استغفر الله، أنا اللي خادمتك ولم أقم بشيء.

كان صوت الاحتفال بعرس السلطان يتعالى، فقالت فرط الرمان لأبنائها:

- انزلوا للعرس وانتفوا شعر عمّتكم واقلبوا كلّ صحون الأكل ولو أحد تكلم عليكم قولوا:

العروس أختنا

والعريس أبونا

وأنتم مالكم تضربونا؟

ثم ألبستهم أحسن الحلل ونزلوا إلى العرس، وكان منظرهم لافتاً، لجمالهم وحسن هندامهم، وانطلقوا يقلبون الصحون وينتفون شعر عمتهم، وكلّما نهرهم أحد ردّدوا:

العروس أختنا

والعريس أبونا

وأنتم مالكم تضربونا؟

فيتساءل الحاضرون عمّا يقولون، وعندما يسمعون كلامهم يستغربون، وظلّوا على هذه الحال حتى بلغ السلطان أخبار الولدين والبنت الذين يقلبون الصحون ويردّدون:

العروس أختنا

والعريس أبونا

وأنتم مالكم تضربونا؟

فقال: أحضروهم لي!

وعندما وقفوا أمامه أحسّ بالميل إليهم وسألهم عن سبب ترديدهم تلك الجملة فقالوا له:

- نحن لا نعرف ولكن أمنا تعرف.

فقال لهم: وأين أمكم؟

فقالوا له: تعال معنا.

خرج السلطان معهم ومن خلفه الحراس، وكلّما ساروا اكتشف أنه يسير صوب القصر المهجور الذي سجن فيه زوجته، وعندما وصل كانت زوجته تنتظره في أجمل ما كانت، فقال لها:

- ما القصة؟

فأخبرته بالقصة من طقطق للسلام عليكم.

وكم كانت فرحته كبيرة، وضم أولاده لصدره وأمسك بغاية القلوب وقال لها:

- أراد الملعون أن يزوّجني بابنتي.

وأخذ يقبّل أولاده وشكر الخادمة على صنيعها، ونادى في السلطنة بولاية العهد لجابر الخواطر ومن بعده لأخيه بلسم القلوب، وعاشوا في سعادة. وفي يوم قالت فرط الرمان:

- اشتقت لرؤية أمي وأبي.

فأرسل رسولاً يخبر أباها بقدوم ابنته لزيارته وخرج معها لرؤية أبيها وأمها مع أبنائهم، وعندما علم أبو فرط الرمان بقدوم ابنته خرج لمقابلتها بوزرائه وقواده، وعاش الجميع في سعادة وهناء.

رواية حامدة حمدان

حكمة أب

كانت يومياً تشتكي من زوجها وتصفه بكلّ الصفات السيئة وتعمل على إغضابه وتذهب غاضبةً إلى بيت أبيها فيستقبلها أبوها بالترحاب والتهليل ويقول لها:

- سوف أجعله يندم على فراقك يا أغلى بنت في الدنيا.

فتسعد بكلام أبيها وتقبّله وتدعو له بطول العمر وأن يعزّها الله بأن يطيل في عمره، فيطلب منها أبوها أن تذهب إلى غرفتها، وعندما تغيب ينادي على زوجته ويقول لها:

- لم تربّي ابنتك التربية التي يجب أن تكون عليها الزوجة وعليك الآن أن تحمليها كلّ مهام البيت، من طلوع الشمس إلى غروبها، ولا تساعديها في شيء، وإذا طلبتِ مالاً قولي لها: لم يعد ببيت أبيك قرش واحد وعليك أن تعملي بلقمتك.

استمعت زوجته إليه في إصغاء وقالت له:

- كما ترى.

وفي الحال توجّهت إلى ابنتها وناولتها المكنسة وقالت لها:

- قومي نظّفي البيت.

فقامت البنت ونظّفت البيت، وكلما انتهت من مكان أشارت إليها أمها بأن تقوم بتنظيف جهة أخرى، وبعد أن انتهت قالت لها:

- جهّزي طعام الغذاء.

فقامت وطبخت ونفخت وبعد أن انتهت قالت لها:

- أبوك وإخوتك على وصول قومي قرّبي لهم الأكل.

فقامت وجهزت سفرة الطعام وبعد أن انتهى أبوها وأخوتها من الأكل وأرادت أن تأكل قالت لها أمها:

- عليك أن تنظفي الأواني وتجعليها تبرق.

فغسلت الأطباق وكلما غسلت طبقاً وجدت أمها تمدّها بأطباق أخرى متسخة، وعندما انتهت كان الغروب على وشك فأرادت أن تأكل فقالت لها أمها:

- أبوك وإخوانك سوف يأتون بعد قليل ولا بدّ من تجهيز طعام العشاء.

فاشتغلت بتجهيز الطعام وقرّبت السفرة وغسلت الأواني، وعندما أوت إلى غرفتها كان التعب قد هدّ حيلها فنامت على هيئتها. ومع الصباح الباكر أنهضتها أمها لتقوم بالدور نفسه الذي قامت به في الأمس.

بعد غيابها بأسبوع عن بيتها جاء زوجها كي يعيدها إلى البيت واعتذر لعمه قائلاً:

- لم أخطئ معها أبداً، ولكنها تنظر إلى ما في يد الآخرين وأنا غير قادر على توفير كلّ طلباتها.

فقال له عمّه:

- تغيّب شهر وعُد.

وعندما خرج من دون أن تسمع من أبيها أنّ زوجها طلبها لتعود إلى بيتها حزنت كثيراً وحاولت أن تعرف من أبيها ماذا جرى مع زوجها، فجاءت إليه متصنّعةً الغضب وقالت:

- ماذا جاء به بعد ما فعل بي؟

فقال لها أبوها:

- لم يتحدّث عنك بتاتاً وجاء ليسلّم فقط، وقد نويت أن ألقّنه درساً وأن لا يُغضب ابنتي قرة عيني، وأنت معزّزة مكرّمة في بيت أبيك.

ونادى على زوجته وقال لها:

- أجهديها أكثر.

استمعت إليه زوجته وقالت له:

- كما ترى.

فكانت تخرج إلى جاراتها وتقول لهم:

- من لديه ثياب لم تُغسل أو أواني لم تُنظّف أحضروها لي لأساعدكم.

فقامت كلّ جارة بإعطائها ثوباً أو قدراً أو صينية أو فستاناً حتى تجمّعت بالبيت ثياب كثيرة وأواني لا حصر لها، فذهبت إلى ابنتها وقالت لها:

- بعد زوجك لم تعودي نشيطة كما كنت، هيا قومي وراك غسيل وتنظيف مواعين.

هال منظر الثياب والأواني البنت، ولكنها لم تتكلم، فقامت ونظفت وغسلت، وأصبح من عادة الجيران إرسال ثيابهم وأوانيهم المتّسخة إلى بيت هذه المرأة. وبعد مضي شهر عاد زوجها، وحين سمعت صوته فرحت كثيراً وقالت في نفسها: «لو طلبني أن أعود فسوف أعود في الحال».

وعندما دخل الزوج قال له عمّه:

- غب شهراً آخر وعُد.

خرج الزوج في الحال وكانت زوجته تنتظر أباها أن يناديها أو يأتيها ليقول لها إنّ زوجها طلبها، لكنه لم يأت فانتظرت حتى سمعت الباب يغلق وسمعت أباها يودّع زوجها فكادت تجن وخرجت لأبيها غاضبة:

- ما الذي جاء به بعد فعلته معي؟

فقال لها أبوها:

- طلبك لأن تعودي فرفضت، وأردت أن أعلمه أنك غالية.

سكتت على مضض وعادت إلى شغل البيت، وكانت تتمنّى أتفه الأشياء فلا تجد من يحقّق لها رغبتها، وقد تقطّعت ملابسها فلم تشتري لها أمها ثوباً، وعندما تسألها أن تشتري لها تقول:

- أبوك لم يعد معه قرش واحد لشراء أي شيء، يكفي أنك تاكلي وتشربي.

وإذا أرادت أن تخرج تقول لها:

- لم يعد ناقصاً إلاّ الخروج، أكملي شغلك وبعد ذلك فكّري في الخروج.

فكانت تعود إلى عمل البيت وقد هدّها التعب. وبعد مضي شهر طرق زوجها الباب فسمعته فقامت من حينها وحزمت حقيبتها وخرجت إليه تقول له:

- ما وحشتك!؟

فرح زوجها بها واستسمح عمّه للعودة بزوجته فقال له:

- هي زوجتك.

وعندما ودّع ابنته قال لها:

- إذا أغضبك فبيت أبوك مفتوح لك على الدوام.

فقالت له:

- لو ذبحني ما عتبت عتبة بيتي.

رواية عبدالرحمن البريك

لا يسترك إلا زوجك

غضبت من زوجها وغادرت إلى بيت أبيها وكلما جاء زوجها لطلبها امتنعت وقالت:

- لا أعود إليه ما دام فيّ عرق ينبض.

حاول أبوها أن يثنيها عن عزمها لكنها رفضت، فخرج إلى صهره وقال له:

- يا ولدي، زوجتك لا تزال غاضبة. عُدْ اليوم وتعال بكرة.

- فقال له:

- أمرك يا عم.

وفي اليوم التالي دعا الأب أعمامها وأخوالها وإخوانها وزوجها إلى وليمة وقال لزوجته:

- عندما يأتي ضيوفنا أدخلي ابنتك الحمام وأعطيها منشفة ولا شيء غير المنشفة، سمعتي!

قالت له زوجته:

- سمعاً وطاعة.

ومع الظهيرة تجمّع إخوانها وأعمامها وأخوالها وزوجها وجلسوا في الضيافة، فجاء الأب ورحّب بهم ودخل على زوجته وحدثها سرّاً وقال لها:

- خلي بنتك تخشّ الحمام.

فقامت الأم إلى ابنتها وقالت لها:

- يا بنتي، جسمك متّسخ وعيب أن يروك أعمامك وأخوالك وإخوانك على هذا الحال، ادخلي واغتسلي كي تقابليهم في منظر حسن.

وافقتها ودخلت معها أمها وسحبت جميع ملابسها وأعطتها منشفة وخرجت، وعندما تأكّد الأب من دخول ابنته الحمام طلب من ضيوفه أن يجلسوا في مكان مواجه للحمام مباشرةً، وبعد أن انتهت البنت من الاغتسال لفّت منشفتها على جسدها وخرجت فتفاجأت أنها وسط إخوانها وأعمامها وأخوالها وأبيها وزوجها في تلك الحال، فأرادت أن تعود إلى الحمام لكنّ أباها سبقها وجذب منشفتها فإذا بها عارية تماماً. تلفتت وركضت واندسّت خلف زوجها... فقال لها أبوها:

- هؤلاء أخوالك وأعمامك وإخوانك وأنا أبوك، تركتينا كلنا واندسيتي خلف زوجك، وهو الغريب عنك... يا بنتي هو سترك في الدنيا والآخرة.

فهمت البنت الدرس وعادت مع زوجها ولم تغادر بيتها قط.

رواية عبدالرحمن البريك

ميا ومي

كان يا ما كان، كان في قديم الزمان رجل متزوج بامرأة طيبة يعيشان عيشة طيبة وهانئة، وقد ولدت له بنتاً جميلة سمّياها ميا وفرحا بها فرحاً كبيراً. والحال لا يدوم، فما هي إلاّ أيام حتى مرضت الزوجة وماتت، وبقي الأب وابنته ميا يعيشان سوياً. وبعد مضي أشهر عدّة اشتكى الرجل لصديقه صعوبة تربية البنات وحكى له مشكلته مع ابنته ميا وأنه غير قادر على تربيتها كما تفعل النساء، فنصحه صديقه أن يتزوّج كي تكون هناك امرأة بالبيت تهتمّ بشؤون ابنته ميا. ورأى الرجل أنّ هذا هو الحل الأمثل، فتزوّج بامراة أرملة كانت معها بنت وحيدة اسمها مي، وعاش الجميع في بيت واحد، وكبرت ميا ومي وأصبحتا عروسين فتقدّم لخطبتهما شابان من شباب القرية، وفي تلك الفترة قال الرجل لزوجته:

- نحن لا بدّ أن نرحل بعد زواج البنات.

فقالت له زوجته:

- إلى أين؟

فقال: إلى بلد ثانية نعيش بها.[1]

وافقت الزوجة على اقتراح زوجها وأخذت تستعدّ للرحيل، وجلست مع ابنتها مي وقالت لها:

---

(١) عادةً، الحكاية الشعبية لا تبرّر أحداثها، فربما يسرد لك الراوي حدثاً ليس له مبرّر سوى تهيئة أحداث الحكاية لمغزاها الذي يرغب في إيصاله من دون التمحيص في منطقية ذلك السرد... ورحيل الرجل وزوجته، كما سمعته من الراوية، لم يكن مبرّراً البتة، فقد ذكرت أنّ الزوجين رحلا دون أن تذكر سبباً للرحيل، وما أوردته جاء من عندي كي تستقيم الأحداث.

- أنا حسافر وأوصيك بالنظافة في بيتك وفي نفسك، وأبغاك كلّ يوم تغزلي جعاميص[1] الصوف ألوان وأشكال وتزيني بيتك وتسمعي كلام زوجك.

فقالت لها مي:

- حاضر يا أمي.

كانت ميا جالسة خارج البيت وتسمع عمتها توصي ابنتها بما يجب أن تفعله لزوجها وأولادها إذا رزقت بالأولاد، فدخلت على عمّتها وقالت لها:

- تعرفي يا عمّة أني يتيمة وأبغاك توصيني.

وكانت تقف معها ابنتها مي، فقالت لها:

- أوصيك مثل ما وصيت مي.

فقالت مي:

- لمها نفس الوصية يا أمي.

فقالت لها أمها:

- لا يا مجنونة، وذيك وصية، وصيتي أن تكوني وسخة... لا تكنسي البيت ولا تطبخي، ولا تسمعي كلام زوجك ولفي الجعاميص بين المخاد والفرش وملي البيت جروان.

فقالت لها مي:

- ولكنك قلت كلام غير هذا الكلام.

فصاحت بها أمها:

- هذه هي نصحيتي وبس.

كانت الأم تظنّ أنّ ابنتها مي على مقدرة من الذكاء كي تعرف أنّ هذا الكلام فقط موجّه لميا، وبعد أيام أُقيم فرح ميا ومي وانتقلت كلّ واحدة منهما إلى بيت زوجها، وقام الأب بزيارته ابنته ميا لتوديعها، فقالت له:

(١) جعاميص في اللهجة الدارجة تطلق عادة على الخراء وكلّ ما هو مكوّر وممتدّ، ويمكن أن تُطلق على شيء آخر بإضافة كلمة أخرى، فتقول جعاميص الصوف أو جعاميص القطن، وإذا أطلقت بمفردها دلّت على الخراء.

- تعرف يا بويه أني يتيمة وطلبت من عمتي النصيحة وما عجبني كلامها وأبغاك توصيني.

فقال لها أبوها:

- أنا رجل يا بنتي وما عرف إش تسوي الحريم، ولكن أقول لك انثري الدقيق يجيك ألف صديق.

سافر الأب وزوجته وقامت مي وجمعت خريان القرية ولفّتها بالمخاد والفرش، وجمعت جروان القرية وأدخلتها البيت، وكان بيتها وسخاً وغير نظيف، وعندما جاء زوجها أُصيب بالذهول عندما رأى بيته قذراً وممتلئاً بالكلاب ورائحته تفوح بالقاذورات، فتشاجر مع مي وخرج غاضباً، وكلما عاد وجد بيته يفوح بالروائح النتنة، وكلما حاول أن يفهمها أبدت تجاوباً، وإذا عاد وجد البيت كما هو، فاستحكم لأمر الله وعاش معها متقزّزاً منها ومن بيتها.

أما ميا فقد كانت تخرج يومياً ومعها زنبيل مليء بالدقيق وتنثره في الطرقات، وكانت لها جارة لاحظت هذا الفعل فسألتها:

- ليه تنثري الدقيق يا ميا؟

فقالت لها:

- هذه وصية أبويه، قال لي: انثري الدقيق يجيك ألف صديق.

فقالت لها جارتها:

- أبوك ما يقصد تنثريه كذا.

فقالت لها ميا:

- وكيف أنثره؟

فقالت لها جارتها:

- تعجينيه وتخبزيه وتوزّعيه على جيرانك.

عملت ميا بنصيحة جارتها، فكانت من الصباح الباكر تقوم بعجن الدقيق وخبزه وتوزيعه على جاراتها، وفي كلّ يوم تكسب محبّة جارة من جارتها، وكلّ واحدة تأتيها وتنصحها بأن تكون نظيفة في بيتها وفي نفسها وأن تسمع كلام زوجها وأن تقوم بلفّ جعاميص الصوف وتزيّن المخاد والفرش، فكانت تعمل ما يقلنه لها، وكثيرات منهن كنّ يساعدنها في تنظيف وتزيين بيتها.

مضت أيام ورُزقت مي بولد وكذلك ميا، فكان ابن مي قذراً للغاية، ثيابه ممزّقة وروائح ثيابه تفوح بالخراء، ويجري خلف الكلاب في كلّ مكان، أما ابن ميا فقد كان نظيفاً مرتّب الهندام ومسرّح الشعر.

وفي يوم من الأيام عاد الأب وزوجته من غربتهما ووقفا على البئر التي بخارج القرية، وكان ولد مي وولد ميا يسقيان من البئر فسألتهما جدتهما:

- مين أنتما؟

فقال ولد ميا:

- أنا ابن ميا.

وقال الآخر: أنا ابن مي.

فرح الرجل وقال لزوجته:

- هذان الصبيان حفيدانا.

فقالت الزوجة:

- الولد النظيف ولد بنتي أما الوسخ فهو ولد بنتك ميا.

فقال لها:

- النظيف المرتّب ولد ميا والوسخ ولد بنتك مي.

وتخاصما عند البئر فقال لها زوجها:

- نمرّ على ميا وعلى مي ونشوف.

وعرّجا على بيت ميا فوجدا البيت في غاية الترتيب والنظافة والروائح الزكية تفوح من كلّ مكان وقد زيّنت المخد والفرش بأشكال وألوان مختلفة من الصوف، فابتهج الأب وقال لزوجته:

- هذه بنتي ميا، تعالي نشوف بنتك مي.

وانطلقت زوجته إلى بيت ابنتها مي فوجدت الدنيا حايسة، البيت وسخ والكلاب في كلّ مكان وروائح الخراء تفوح من بين الفرش والبطاطين وحالتها بالية، فأخذت تصيح:

- وش سويتي في نفسك؟

فقالت: مثل ما وصيتيني.

- وفين زوجك؟

- هجّ من ثلاث سنوات.

فشدّتها من شعرها وأخذت تضربها وتأمرها بتنظيف البيت من الخيران والقمائم المكدّسة وإخراج الكلاب التي ملأت البيت وتوالدت به، وكانت تشيل الخريان وتصيح:

وصيت مي فهمت ميا.

وليت مي ما ولدتها ولادة.

عندما سمع زوجها كلامها طلّقها وعاد وعاش مع ابنته ميا وعاشت زوجته مع ابنتها مي وسط الكلاب والقمائم.

رواية حامدة حمدان

الحظ من الله

كانت جميلة جمالاً يسبي العقول تقول للقمر انزل لأجلس مكانك[1]، وكانت تحب ابن عمها وظلّت تحاول أن يكون من نصيبها حتى تزوّجها، وبعد مضي مدة تزوّج عليها جاريةً سوداء قبيحة المنظر ليس لها من الجمال أيّ شيء، وكان مفتوناً بها يدلّلها ويحبّها على ابنة عمه، فغدت ابنة عمه مقهورة وتسأل:

- اش اللي محببه فيها؟

---

(١) كان الناس يعبدون الأفلاك السماوية: القمر وقرينته الشمس وابنهما كوكب الزهرة. وكان ملوك دول معين وسبأ وقتبان وحضرموت وأوسان وحمير يطلقون على رئيسهم لقب (مكرب) الذي يعني رئيس الكهنة الذي كان يتمتع بسلطة دينية وسياسية، أي أنه كان رئيساً دينياً وملكاً دنيوياً... وكان يعتبر الابن الأكبر للإله القمر بينما بقية أفراد الشعب الأبناء الصغار الذين كان خضوعهم للابن الأكبر خضوعاً للإله.

وكانوا يرمزون إلى إله القمر بقرني الوعل أو الثور لأنهما أقرب شبهاً بالهلال، وكان كوكب الزهرة يعبد على أنه ابن القمر والشمس والزهرة ورمزها نجم مخمّس كانوا يسمونه عثتر. (حمزة علي لقمان: أساطير من تاريخ اليمن، دار المسيرة، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٨، ص ٢١)

عُبد القمر في فترات زمنية متقدّمة، ومع التحولات الدينية وصولاً إلى عبادة الواحد الأحد تحوّل القمر من إله يُعبد إلى وصف جمالي للمرأة، فيقال: جميلة كالقمر، أو تختصر فيقال للفتاة الجميلة: قمر! وتمدّد وصف المرأة الجميلة بالقمر في كلّ الثقافات، وفي الحكايات الجنوبية يقولون: تقل القمر بحز وأنا أجلس مكانك. ووصف المرأة بالقمر ليس حضوراً لسطوة الجمال بل حضور لسطوة العبودية القديمة.

كما ظلّ حضور الجانب التعبّدي للقمر من خلال وضع الهلال على المآذن أو في أعلام الدول جنباً إلى جنب مع النجوم المخمّسة.

وكانت كلّ يوم تتزيّن له فلا ينظر إليها وينطلق إلى تلك الجارية القبيحة، وكانت ابنة عمّه تحبّه حبّاً كبيراً فأخذت نفسها وذهبت إلى إحدى العجائز وقالت لها:

- أنا أحب ابن عمي وهو هاجرني وأبغى أعرف أش اللي ناقصني علشان اسوّيله.

فقالت لها المرأة العجوز:

- تزيّني في أحسن زينة لك واعترضي طريقه.

عادت إلى بيتها وتزيّنت فغدت أجمل ممّا كانت، وانتظرت عودته، واستلقت في الطريق الذي يعبره إلى بيت الجارية، وعندما مرّ رأى جدايلها المرمية على صدرها وعنقها الطويل وجسدها البضّ الأبيض، فرفع صوته قائلاً:

الخد بارق

والشعر وارد

والحظ بارد

ومضى وتركها كما هي، ودخل على زوجته القبيحة فرحاً برؤيتها، فتبعته ابنة عمه لترى ما يميّز تلك الجارية عنها، فرأت امرأة قبيحة جداً، وعندما رأتها الجارية ورأت جمالها وفتنتها قالت لها:

- أش اللي جابك؟

فقالت:

- جئت علشان أشوف أش اللي عندك ومش عندي علشان يتركني زوجي ويجيلك؟

فقالت لها الجارية:

الوجه جيفة

والشعر كيشة

والحظ من عندالله.

فتركتها وعادت إلى العجوز وقالت لها:

- سوّيت اللي قلتي عليه... تزينت وانسدحت له في طريقه، ولمّا شافني قال:

الخد بارق
والشعر وارد
والحظ بارد.
وتبعته علشان أشوف أش اللي عند الجارية، فقالت لي:
الوجه جيفة
والشعر كيشة
والحظ من عندالله
وأنا مانا عارفة أش ناقصني؟
فقالت لها العجوز:
- قالت لك الجارية... ناقصك الحظ. روحي ابحثي عن الحظ[1].

---

(١) توقفت الراوية هنا، وسياق الحكاية يشي بأنّ الحكاية لم تكتمل، وكي تدخل في الحكاية الأسطورية أو الملحمية، كما ألفنا في الحكايات الشعبية، فإن الزوجة كانت يجب أن تخرج باحثة عن الحظ لتنتهي الحكاية نهاية سعيدة غالباً ما تنتهي بها مثل هذه الحكايات... ويبدو أن الراوية أرادت أن تقف بهذه الحكاية للتدليل على أنّ الحظ من الله فقط، من دون أن تستكمل الحكاية في جذرها الأسطوري... وربما توجد هذه الحكاية في مجتمع آخر يكملها، كما ينبغي للحكاية الشعبية أن تكون.
كنت راغباً في استكمال الحكاية وفق البناء الحكائي الشعبي إذ بالإمكان القيام بهذا الدور وهو الدور الذي سلكه الرواة للحكايات التي يشعرون أنها لم تكتمل بعد، ومثل هذا التدخل يحدث كثيراً مما يجعل الحكايات تنتقل من مكان لآخر بزيادات مقحمة على النص الأصلي.

الالتزام بالنصائح

كان لأحد الفلاحين حقل مبارك تظهر به المعجزات؛ ففي أيام الصيف تنبت به ثمار الشتاء وفي مواسم الشتاء تنبت به ثمار الصيف، ولم يخبر أحداً بهذا الحقل وظلّ سرّاً من أسراره التي لا يبوح بها لأحد.

وكان يومياً يذهب إلى حقوله متزوّداً بثلاثة أقراص من حبوب الذرة ليأكلها حين يداهمه الجوع، وبينما كان سائراً ظهر له شيخ يتلوّى من الجوع فصاح بالفلاح متوسّلاً:

- لو عندك رغيف أعطني وأعطيك نصيحة تفيدك ما عشت.

قذف له الفلاح بقرص من أقراص الذرة كصدقة وليس طلباً لنصيحته، وعندما تناول الشيخ الرغيف قال له:

- إذا وجدت أي شخص في أي مكان تعرّف على اسمه.

وقضم رغيف الذرة والتهمه بسرعة وعاود طلب الفلاح:

- ما زلت جائعاً، أعطني رغيفاً فأعطيك نصيحة.

ناوله الفلاح القرص الثاني فالتهمه الشيخ وهو يقول له:

- لا تخبر زوجتك بسرٍّ من أسرارك.

كان الفلاح يسير غير مكترث بالنصائح التي يسمعها، وسمع الشيخ يقول له للمرّة الثالثة:

- ما زلت جائعاً، أعطني رغيفاً بنصيحة ثالثة.

ناوله الفلاح آخر رغيف معه فقال له الشيخ:

- سلاحك خبّئه عن الناس.

والتهم الرغيف الثالث بعجلة، ثم قال للفلاح:

- ما زلت جائعاً، أعطني رغيفاً فأعطيك نصيحة.

فقال له الفلاح:

- لم يعد معي شيء.

فتركه الشيخ ومضى، وقبل أن يبتعد سقط حمار[1] الفلاح في حفرة وعجز عن الخروج، وأخذ الفلاح يساعد الحمار على النهوض من كبوته، لكنه لم يستطع فصاح بالشيخ ليساعده، وكان لا يعرف اسمه، فظلّ يصيح به:

- أنت... يا رجل... يا شيخ... يا من أخذ مني الأرغفة...

وعندما لم يردّ عليه ركض خلفه حتى وصل إليه وقال له:

- ما بالك أصيح بك فلا تردّ؟

فقال الشيخ:

- ألم تشترِ نصيحة برغيف؟

فقال الفلاح:

- أي نصيحة؟

فقال له الشيخ:

---

(١) الحمار من الحيوانات الأكثر شيوعاً ورسوخاً في الثقافة العربية بوصفه حيواناً غبياً، ويكاد يكون المتصدر في تلقّي الإهانات والشتائم، وربما يعود الأمر لأسباب متعددة قد يكون أهمها ورود ذكره كمثال لعدم التنبّه لما يحمل، كما شبّه الله عزّ وجلّ به في سورة الجمعة (٥):
﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.
وكذلك استقباح صوته المنكر في قول الله عزّ وجل: ﴿... وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (سورة لقمان: ١٩).
وتواترت حوله هاتين الصفتين.
ونجد أنّ الجاحظ في كتاب الحيوان يؤسّس لهذا من خلال أسطورة، فهو يروي أيضاً أنّ إبليس قد دخل جوف الحمار مرَّة؛ وذلك أنّ نوحاً لمَّا دخل السفينة تمنَّع الحمار بعسره ونكَده، وكان إبليسُ قد أخذ بذَنَبه. وقال آخرون: بل كان في جوفه فلمّا قال نوح للحمار: ادخل يا ملعون! ودخل الحمار دخل إبليس معه؛ إذ كان في جوفه. فلمّا رآه نوحٌ في السفينة قال: يا ملعون، من أدخلك السفينة؟ قال: أنت أمرتني. قال: ومتى أمرتك؟ قال: حين قلت، ادخل يا ملعون، ولم يكن ثَمَّ ملعون غيري.

- ألم أقل لك: إذا وجدت أيّ شخص في أيّ مكان تعرّف إلى اسمه، وأنا لم أجب على صراخك لأنك لم تنادِني باسمي، ولو تعرّفت إلى اسمي لكنت أجبتك مع أول نداء.

فاعتذر منه وتعاونا على إخراج الحمار ومضى كلّ واحد منهم في سبيله.

وذات يوم من أيام الشتاء كان الفلاح يجالس أصدقاءه وأخذ أحدهم يستفسر عمّن يمكن أن يجلب له بطيخاً ويعطيه ما يشاء ثمناً لبطيخة واحدة، فقال له جلساؤه:

- هل تجننت... تطلب بطيخ في الشتاء؟

فردّ عليهم أنّ زوجته تتوحّم ونفسها ارتمت على البطيخ... وكان الفلاح يستمع إلى حديثه فردّ عليه:

- لو جلبت لك بطيخاً ماذا تعطيني؟

فقال له:

- اطلب ما تريد.

فقال الفلاح:

- آخذ ثلاثة أشياء ألمسها من بيتك.

فقال الرجل:

- وإذا لم تحضر البطيخ آخذ ثلاثة أشياء ألمسها من بيتك.

اتّفق الاثنان على هذا الشرط وأشهدا الحاضرين على هذا الاتفاق.

عاد الفلاح إلى بيته مسروراً فقالت له زوجته:

- أشوفك فرحان، إيه الحكاية؟

فقصّ عليها القصة، فضربت على صدرها وقالت له:

- من فين تجيب له البطيخ في مثل هذه الأيام؟

ولأول مرة في حياته تخلّى عن سرّه وأخبرها بقصة الحقل المبارك (نسي النصيحة الثانية التي اشتراها برغيف الحنطة) وأخبرها أنّ البطيخ سيكون حاضراً من الصباح الباكر... فرحت زوجته بما أخبرها به وقالت له:

- إذا كسبت الرهان أبغاك تلمس خزانة صاحبك وخيله وراس زوجته.

فقال لها:

- وماذا نستفيد؟

فقالت له:

- خزانته بها أمواله وحجج وصكوك حقوله ودوره، وخيله تقدّر بمبالغ طائلة، أما زوجته فأريدها خادمة لي.

وافقها على ما أرادت وخرج لقضاء بعض شؤونه، أما زوجته فخرجت إلى جارتها وأخذتا تتحدثان، فاشتكت إليها جارتها من عجرفة وتكبّر فلانة (زوجة الرجل الذي تراهن مع زوجها) فقالت لها:

- ولا يهمّك، بكرة أخلّيها تقبّل قدمك.

فسألتها: كيف يكون هذا؟

فأخبرتها بالخبر، وقالت لها:

- لقد تراهن زوجي مع زوجها على جلب البطيخ، وأوصيت زوجي لو كسب الرهان أن يلمس ثلاثة أشياء من بيت مراهنه وهي خزينته وخيله وزوجته، وغداً أجعلها تقبّل رجلك.

فقالت لها جارتها:

- ومن أين يأتي زوجك بالبطيخ؟

فأخبرتها عن الحقل المبارك، وقامت هذه الجارة بنقل الحكاية لجارة أخرى، وانتشر الخبر بين النساء حتى وصل إلى زوجة الرجل الذي راهن على البطيخ، فقامت وأخبرت زوجها، وفي الحال تحرّك إلى حقول جاره الفلاح وأخذ يبحث عن هذا الحقل، وعندما رأى البطيخ ممدّداً على الأرض قام واجتزّ شجرته من جذورها وحمل البطيخ وحفر له حفرة عميقة ودفنه بها وخرج دون أن يلمحه أحد.

في الصباح حضر الجميع لمشاهدة البطيخ الذي وعد الفلاح بإحضاره، فطلب منهم مهلةً كي يقوم بإحضار البطيخ الذي وعد به، وانتظروه طويلاً، وعندما عاد لم يكن معه بطيخ، فقالوا له:

- عليك أن تمكّن خصمك من أخذ ثلاثة أشياء يلمسها من بيتك.

وأعطوه مهلة يومين كي يمكّن جاره من لمس ثلاثة أشياء من بيته ليمتلكها.

حزن الفلاح حزناً شديداً وخرج إلى البرية يبحث عن وسيلة تخلّصه من هذا الشرك الذي وقع به.

أما الرجل الذي كسب الرهان فقد عاد إلى زوجته فرحاً وقال لها:

- ماذا تودّين أن ألمس من بيت جارنا حتى يصبح ملكاً لنا؟

فقالت له:

- أبغاك تلمس زوجته علشان أخلّيها خادمة عندي، وخزنته علشان ما يصير عنده شيء، وولده علشان يصير عبد عندنا.

واتّفقا على هذا.

كان الفلاح يسير في البرية مهموماً يقلّب فكره علّه يتعرف إلى وسيلة تنجيه من الرجل الذي تراهن معه، وبينما هو يسير أصابه التعب فأنزل سيفه من على عاتقه وجعله بجواره ونام، فمرّ به رجل وأخذ سيفه ومضى إلى أحد الرعاة وقتله وسبى أغنامه، وما هي إلاّ لحظات حتى تنبّه أهل القرية المجاورة أنّ راعيهم قتل، فتحرّكوا وأمسكوا بالفلاح واتّهموه بقتل الراعي، ولم يجدِه نكرانه... وبينما هم ممسكين به ظهر الشيخ الذي قدّم له ثلاث نصائح فاستغاث به صائحاً:

- يا شيخ علي المنجي نجّني مما أنا فيه.

اقترب منه وقال له: ما قصتك؟

فأخبره القصة كاملة، فقال له الشيخ:

- لم تحفظ النصائح التي اشتريتها. ألم أقل لك لا تخبر زوجتك بسرّ من أسرارك، وقلت لك لا تظهر سلاحك لأحد.

فقال الفلاح:

- حدث ما حدث.

فقال له الشيخ: سأقف معك مقابل صنيعك الذي قمت به.

وتحرّك مع مَن يُمسكون به إلى شيخ القرية، وقال له:

- لا تضيّعوا الوقت. لو كان صاحبي الذي قتل راعيكم لما بقي في مكانه ولوجدتم معه السلاح الذي قتل به الراعي، والرأي عندي أن ترسل رجالك في كلّ اتجاه ليلحقوا بالسارق القاتل قبل أن يبتعد.

وافق شيخ القرية على هذا الرأي وأرسل رجاله، وما هي إلاّ ساعات حتى عادوا بأغنامهم ومواشيهم وبرجلٍ بيده سيف يقطر دماً، واعترف أنه سرق السيف

وقتل الراعي، فأكرم شيخ القبيلة الفلاح والشيخ علي المنجي وودّعهما، فقال الشيخ علي المنجي للفلاح:

- تبقّى أن أخلّصك من الرجل الذي راهنته، وإذا خلّصتك لا تنسَ الوصايا التي اشتريتها بأرغفتك الثلاثة.

شكره الفلاح ووعده أن لا ينسى شيئاً من تلك النصائح. تحرّك الشيخ علي المنجي معه إلى داره وحوّط الدار من الداخل بجدار ورفع سلّماً عليه وقال للفلاح:

- إذا جاء خصمك فأدخله من باب الدار وقل له: أنت الآن داخل بيتي، ولأني أخشى السرقة فقد حوّطت بيتي بهذا الجدار، وكي أدخل للداخل فأنا أصعد من هذا السلّم إلى داخل البيت، واطلب منه أن يصعد السلّم ليدخل إلى بيتك، وأول ما يمسك بالسلّمة الأولى والثانية والثالثة قل له: يكفيك، فقد لمست ثلاثة أشياء من بيتي.

فرح الفلاح بهذا الحلّ وانتظر خصمه الذي وصل بمعيّة من حضر الاتفاق، وعندما رأى الفلاح قال له:

- جئت لتنفّذ الشرط الذي بيننا.

رحّب به الفلاح وبمن معه وقال لهم: تفضلوا.

فدخلوا من الباب ووجدوا جداراً محيطاً بالبيت وعليه سلّم فقال الفلاح للحضور:

- خشيت السرقة فحوّطت البيت وأنا أصعد من هذا السلّم لأدخل إلى بقية بيتي.

فقال الرجل:

- أنا لا أريد أن ألمس شيئاً من هنا.

فقال له الفلاح:

- لك ثلاث لمسات، خذها كما تريد.

تحرّك الرجل ليصعد السلم فأمسك بالسلمة الأولى والثانية والثالثة، فصاح به الفلاح:

- انزل، فقد لمست ثلاثة أشياء من بيتي.

وعندما حاول الرفض أشهد الحضور قائلاً:

- ألم يلمس ثلاث لمسات؟

فقالوا:

- نعم لمسها.

فنزل من على السلم غاضباً ومتّهماً الفلاح أنه أأأخذه بالحيلة.

وسلم الفلاح من تلك المراهنة وحفظ تلك النصائح التي اشتراها بالأرغفة الثلاثة.

رواية حامدة حمدان

كيد النسا كيد جبار

كان يا ما كان، كان في رجال همّه أن يتزوج وأن لا يتحمّل مسؤولية هذا الزواج، فما أن يدخل على زوجته وينام معها ليلتها الأولى وفي الصباح يفتعل أي خصام ويقوم بقلع عينها اليمنى ويطلّقها.

واستمرّ على هذه الحال حتى أصبح نصف نساء القرية عوراوات بسبب فعلته، ولم تعد هناك امرأة توافق على الزواج منه، وكلّما يطلب امرأة للزواج تقول:

- والله ما أنا مستغنية عن عيني.

وتحدّثت النساء عن طلبه وكانت هناك فتاة متواجدة بينهن قالت:

- لو طلب الزواج مني لوافقت عليه!

فقالوا لها:

- هذا راجل ما يصلح، كلّ يوم يتزوّج ويقلع عين زوجته.

فقالت لهن:

- أنا موافقة، خلّوه يتقدّم لطلبي.

سمع الرجل بخبر هذه الفتاة فذهب إلى أخوتها طالباً أن يزوّجوه أختهم، فقالوا له:

- نشاورها.

وعندما استشاروها قالت:

- لي شرط واحد وأبغاه يسمع شرطي.

فجاء وقال لها:

- ما هو شرطك؟

فقالت له:

- أنا أعرف أنك تقلع عين زوجتك في صباحيتك، وشرطي أنك ما تقلع عيني إلاّ بسبب ويكون عليه إخواني شهود، أما من غير سبب فما لك حق تسوّي شيء، وإذا وافقت على هذا الشرط أنا موافقة على الزواج منك.

فقال لها:

- أنا موافق.

تمّ الزواج ودخل بها، وفي الصباح همّ بقلع عينها فقامت تصيح:

- يا ناس، الحقوا شوفوا الراجل يبغى يخلع عيني بلا سبب.

وأخذت تصيح وتشهد الجيران، فاجتمع عليهما الناس، وكان الرجل يصيح بها:

- خلاص يا بنت الناس مش حأخلع لك عينك... خلاص اسكتي.

فسكتت ودخلت بيتها بينما كان زوجها يغلي من الغضب ويقول في نفسه: «اش اللي ورّطني مع هذه الحرمة؟ كلّ اللي تزوجتهم خلعت لهم عيونهم وطلّقتهم ولازم اخلع لهذي المرة عينها» وأخذ يفكر في وسيلة يقيم عليها الحجّة ويستطيع قلع عينها بشهادة إخوتها. وأثناء سيره عرّج على السوق واشترى كلّ الخضار، من كوسه وباذنجان وملوخيا ورجلة وفاصوليا وخيار من كلّ أنواع الخضار، واشترى كلّ اللحم الموجود عند الجزارين، واشترى كيسين رز وفواكه، وأحضر كلّ ما بداخل السوق وأمر الحمالين بحمله إلى داره، وقال لزوجته:

- سوّي الغدا عندي ضيوف، قبل ما أوصل أبغى الغدا يكون جاهز ويكون أصناف، وأبغاك تسوي من كلّ حاجة جبت منها وإلاّ ترى الحجّة عليك.

وخرج وهو موقن أنها لن تقدر على طبخ كلّ ما جاء به في الوقت المحدّد، وبهذا تكون له حجّة لقلع عينها. وما إن خرجت حتى نادت على جميع جاراتها وقالت لهن:

- ما أبغى تجي ساعة إلاّ نكون طبخنا كلّ هذه المقاضي وأكلناها.

وقامت كلّ واحدة منهن بعمل، وقد أحضرن مواقدهنّ وبناتهنّ للمساعدة، ولم تأتِ ساعة إلاّ وتلك المقاضي قد طُبخت وأُكلت، والفائض من الأكل وزّعته بينهنّ،

وقامت كلّ واحدة بغسل الصحون وتجفيفها ووضعها في مكانها، وعندما انتهين من كلّ هذا قالت لهن:

- يالله مع السلامة ما أبغى أشوف واحدة منكن.

وقامت وأخذت قدراً كبيراً ووضعته على النار وملأته بالماء وأسقطت فيه كيس الخيار الذي استبقته وجلست بجوار القدر تحرّكه، وما هي إلاّ لحظات حتى دخل زوجها ومعه مجموعة كبيرة من الضيوف من بينهم إخوتها، وبعدما استقبل ضيوفه ورحّب بهم دخل عليها فلم يجد آثاراً لتلك المقاضي الكبيرة التي جلبها، فسألها:

- أين الغداء؟

فقالت له:

- ما في إلاّ خيار وتبغاني أقدّم لضيوفك خيار مسلوق؟

فصاح بها:

- والمقاضي اللي جبتها فين راحت؟

فأنكرت وقالت له:

- فتّش البيت، ما جبت إلاّ هذا الخيار وذحين أقدّمه لك ولضيوفك.

فاقترب منها هائجاً فأخذت تصرخ بأعلى صوتها:

- يا ناس يا أهل الخير الحقوني زوجي يبغى يخلع عيوني.

فتقافز إخوتها إلى داخل الدار يسألون عن سبب صراخها، فقالت لهم:

- الراجل هذا ما جاب شيء لضيوفه وجاب هذا الخيار وقال أبغاك تسوّيه لضيوفي وذحين يقول إنه جاب كل المقاضي ولو لقيتم حبة رز في البيت يقوم يخلع عيوني قدامكم.

كان زوجها ينظر إليها غير مصدّق ويتلفت لكلّ زوايا البيت وليس هناك أثر لما أحضره من وقت مبكر، فلامه أرحامه على سوء نيته وسعيه لقلع عين أختهم، فلم يجد بدّاً من أن يعتذر منهم ومن الضيوف الذين حضروا لتناول الغداء.

وأضمر النية على خلع عين زوجته مهما كلّفه ذلك من جهد، فكان يتحيّن الفرص ليوقع بها. وذات ليلة أُقيم عرس بجوار بيتهم فقال لها:

- أبغاك تروحي زواج الجيران وتشرّفينا معاهم وتقومي بالواجب.

فقالت له:

- الجار للجار ولا بدّ من وقفتنا معهم.

وفي الليل تزيّنت ولبست أحسن ملابسها وخرجت للعرس، وكانت طوال الوقت تفزع هنا وهناك، وقام زوجها وسلّط امرأة عجوزاً وقال لها:

- أبغاك تقصّي جدايل مراتي وتجيبيها لي.

فقالت له العجوز:

- على العين والراس.

أخذت العجوز المقصّ والمال الذي أعطاها ودخلت للعرس، وكانت تسير خلف الزوجة، وفي زحمة الناس قصّت لها جديلة شعرها وتركتها وعادت إلى زوجها وناولته جديلة زوجته، وكي يتأكد أنّ هذه الجدائل لزوجته تطلّع من الثقب الذي وضعه في الصوان ورأى جديلة زوجته مقصوصة، ففرح فرحاً كبيراً وأطلق بالجديلة لإخوتها.

تنبّهت الزوجة إلى أنّ جديلتها انقصّت فخرجت بسرعة من الزواج ومرّت على زريبة الخيول وقصّت ذيل حصان يشبه شعرها وعادت إلى البيت وفسخت ملابسها ولبست ثوباً متّسخاً وضفرت ذيل الحصان بجديلتها ونامت.

أما زوجها فقد حمل جديلتها وذهب إلى إخوانها وقال لهم:

- يرضيكم أختكم تكسر كلامي وتذهب للعرس من غير أذني، ومش كذا وبس وتعطي جديلتها لرجل.

تقافز إخوتها من أماكنهم وكلّ واحد يقسم أن يقطع رقبتها لو صدق كلامه، فقال لهم:

- هذه جديلة أختكم أعطاني هي أحد الشباب وقال إنّ صاحبة الجديلة أعطته برهان حبها له.

أقسم الإخوان مجتمعين على قطع رأسها لو صدق كلامه وتحرّكوا معه في الحال، فأحسّت بدخولهم وتصنّعت النوم وقد أسدلت جديلتيها على المخدة ليراها إخوتها، وعندما دخلوا رأوا شعرها كما كان، ففتحت عيونها وقامت مرحبة:

- أهلاً بإخواني خير إش جابكم في مثل هذا الوقت المبكر من النهار؟

فقالوا لها:

- جئنا نسلّم عليك.

رحّبت بهم وجهّزت لهم الإفطار، وعندما تأكّدوا أنّ شعرها كما هو لاموا زوجها الذي أخذ يعتذر منهم، ووقفت هي بعد الإفطار تقول لهم:

- اشهدوا على زوجي يبغى يقلع عيني وبس.

فقالوا لها: خير، إش اللي صار؟

قالت لهم:

- البارحة كان في زواج عند جيراننا وكنت متعبة، وقلّي روحي الزواج فقلت متعبة وما أقدر، فراح جاب حرمة في البيت وقلّي: إذا ما خلعت عينك، وقصّ شعر الحرمة اللي جابها، وقال أنا رايح لإخوانك أقلّهم إنك أعطيتي جديلتك لرجل.

فقام إخوتها يشتمونه ويحقّرونه وهو يعتذر ويقسم أن لا شيء حدث من هذا، وتركوه وهم يتوعّدونه لو أنّه لمس شعرة من شعرات رأسها.

شعر بالغيظ والقهر ولم يعد يعرف كيف يتصرّف معها، فكان يترك البيت ويخرج ويظل ساهراً خارج البيت، ولشدّة خوفها طلبت من جارتها أن تترك ابنها الصغير ينام عندها حتى يرجع زوجها، فقبلت الجارة وأمرت ابنها أن يذهب لينام عندها حتى يعود زوجها، وعندما أحسّت بزوجها قادماً تأبّطت الغلام وهو نائم وأخذت تقول له كلاماً معسولاً ناعماً، فشكّ زوجها في أنّ عندها رجل، فأخذ يتنصّت عليها فسمعها تتحدّث مع رجل وتضمّ جسداً إليها، فقرّر أن يضبطها بالمجرم المشهود، فتركها وأيقنت هي أنه رآها وهي تضمّ ذلك الجسد فتظاهرت بالنوم، فدخل زوجها وأخذ الغلام وأسقطه داخل السحّارة وأغلق عليه بالمفتاح وانطلق لإخوتها، وما إن خرج حتى نهضت وتناولت المفتاح الذي تخبّئه للسحارة نفسها وأخرجت الغلام وقالت له:

- انطلق لأمك.

وسحبت الجحش الذي في الزريبة وألقت به بداخل السحارة وأغلقت عليه بالمفتاح، واستلقت في فراشها كما كانت...

وصل زوجها وإخوتها محتدّاً:

- يرضيكم أن تخونني أختكم وتبيّت رجل في فراشي؟

فتصايحوا به مكذّبين فقال لهم:

- أنا عندي الدليل وجيت من البيت بعد أن ضبطتها في حضنه، واللي ضبطتها معه أدخلته السحارة وهذا المفتاح معايه، وذحين يا تجوا معايه وتقتلوها بأنفسكم يا أنا أقتلها وأريحكم من شرّها.

خرج معه إخوتها غاضبين وقالوا له:

- لو جا كلامك كذب ترى مش حنفكّك هذه المرة.

فقال لهم:

- يا رقبتي يا رقبة أختكم.

وخرجوا مصمّمين على قتلها لو صدق قوله، وعندما وصلوا وجدوها نائمة فهزّوها هزّاً وأيقظوها، فقالت لهم:

- خير يا إخواني إش جابكم في مثل هذه الساعة من الليل؟

فقالوا لها:

- زوجك يقول إنك كنت نايمة مع شخص.

فصاحت:

- يبغى يخرق عيني.

فقالوا لها:

- لو صدق إحنا الي حنقتلك ما نخرق عينك.

فقالت:

- ولو كذب.

فقالوا: نقتصّ لك منه.

تقدّم زوجها واثقاً وفتح السحارة فإذا بالجحش ينهض منها ناهقاً، فأصيب الرجل بلوثة وأخذ يجري في الشوارع ويصيح ثلاث صيحات متوالية:

الصرخة الأولى

كيد النسا كيد جبار

جبت لها اللحم والخضار

انقلبت مسلوق خيار

الصرخة الثانية
كيد النسا كيد جبار
قصيت شعرها في الليل
طلع في النهار

الصرخة الثالثة
كيد النسا كيد جبار
حطيت الرجل في الصندوق
طلع لي جحش حمار

وأصيب بالجنون وظلّ طوال الوقت يصرخ بتلك الصرخات الثلاث، وعاشت زوجته في سعادة بعد أن استولت على كلّ أمواله وبنت بيتاً كبيراً لكلّ زوجاته اللاتي قلع لهنّ عيونهن وأخذت تصرف عليهنّ ما تبقّى لها من عمر.

رواية حامدة حمدان الحربي

هدية الصياد للملك

الخائن[1] يخونه الله. . .

---

(١) الخيانة صفة مذمومة، وأشهر شخصية أسطورية عربية التصقت بها الخيانة هي شخصية أبي رغال، وهي الشخصية التي دار حولها جدل كبير من خلال كتابات عديدة. وأسطورة أبي رغال ظهرت من خلال حملة أبرهة (عام الفيل) لهدم الكعبة، فهل عرف العرب حقاً في تاريخهم البعيد ما قبل الإسلام خائناً باسم أبي رغال؟
وقد ورد خبر خيانة أبي رغال في إطار حملة أبرهة الحبشي على مكة نحو عام ٥٧٠ م، ويُفهم من السيرة أنّ أبرهة خاض حرباً مع العرب لإخضاعهم لسلطته، وفي بادئ الأمر أراد اجتذابهم من خلال بناء دار عبادة كي يقلب توجّههم من زيارة الكعبة إلى زيارة (القُلَّيس) التي بناها، إلاّ أنّ الروايات تقول إنّ أحد العرب استنكر ما فعله أبرهه فتسلل إلى داخل القُلَّيس وتبوّل بها. وفي رواية أخرى أنّ مخمورَين لعب الخمر برأسيهما فذهبا إلى القُلَّيس وقضيا حاجتهما هناك استهجاناً بقداسة القُلَّيس، فلمّا علم أبرهة بهذه الفعلة استشاط غضباً وقرّر أن يهدم الكعبة نكايةً بالعرب، وكي يعاقبهم ويجبرهم على التنصّر، فجهّز الجيوش بالفيلة وذهب لهدم الكعبة المشرّفة يتقدمهم فيل ضخم اسمه محمود، وانطلق بجيشه قادماً من صنعاء، وعندما بلغ الطائف خرج إليه سادتها وقالوا له: ليس عندنا لك خلاف وليس بيننا هذه الذي تريد (يعنون اللات) وهي بيت العرب القديم المنافس للكعبة على الطريق إلى مكة، وقدّموا له دليلاً يوصله إلى مكة هو أبو رغال، فخرج أبرهة ومعه أبو رغال حتى أنزله المغمّس، وهناك توفّي أبو رغال ودفن فيها فرجمت قبره العرب، فهو قبره الذي يرجمه الناس بالمغمّس. وعن هذا المكان يقول الدكتور فاضل الربيعي في كتابه أبطال بلا تاريخ: «المغمّس دارت فيه أحداث أسطورية عربية قديمة ألهبت خيال العرب عن مساعد للنبي صالح (نبي ثمود) اسمه أبو رغال أيضاً، فهل كان هناك في الأصل شخصان يحملان الاسم نفسه وفي المكان عينه مع اختلاف العصر».
لقد دوّن المؤرخون اليونانيون الكثير من أخبار اليمن في حقبة أبرهة، بما أنّ الحملة الحربية =

قولوا آمين

آمين

كان ياما كان في قديم الزمان، كان في بلد بها سلطان عادل يحبّ شعبه وشعبه يبادله الحب ولم يكن يبخل على أحد من شعبه بطلب يطلبه، وكان بالبلد صياد لديه بنت وحيدة جميلة وذات عقل راجح، وكانت تقول لأبيها:

- مَن يهادي الكبار يتذكرونه في الشدائد.

فيقول لها:

= ضد الكعبة كانت جزءاً من الصراع العنيف لنشر المسيحية في الجزيرة العربية، والتي أخفقت في مسعاها وانهار معسكر الغزاة على مقربة من مكة حيث مات أبرهة جراء الحمّى.

ويضع ابن الأثير (في كتابه الكامل) شخصية أبي رغال في عصر ثمود والنبي صالح، وليس في إطار حملة عام الفيل.

والمغمّس هذا هو الموضع ذاته الذي توقفت عنده الحملة الحربية لتلقي مساعدة القبائل العربية المستعدّة والمتهيئة بفعل تنافساتها المريرة وبفضل توترات دينية وعصبية مع القبائل الأخرى المسيطرة على الحجاز، لأن تعرض خدمتها على اليمنيين وأسيادهم الأحباش، وطبعاً من أجل العمل سوياً في إطار تحالف حربي فضفاض هدفه المباشر انتزاع السلطة الدينية من عرب الشمال. وقد وجد ابن هشام في أبي رغال (وهو يكتب السيرة النبوية) اسماً مناسباً لبطل أسطوري يتم وصمه بالخيانة ويحتمل وزرها نيابةً عن القبائل المستسلمة أمام المحتالين الأحباش.

ويروي يقوت الحموي (معجم البلدان ٣: ٦١) أسطورة أبي رغال بينه وبين النبي صالح فيقول: «أبو رغال هذا كان ملكاً في الطائف وكان يظلم رعيته فمرّ بامرأة ترضع صبياً يتيماً بلبن عنزة لها فأخذها (أي العنزة) فبقي بلا مرضعة فكانت سنة مجدبة، فرماه الله بقارعة أهلكته فرجم العرب قبره ويقع هذا القبر بين مكة والطائف في مكان يُقال له المغمس.»

ويرى الأستاذ شوقي عبدالحكيم أنّ في هذا وضوحاً في ثقل ثقيف والقبائل القحطانية داخل الإسلام الوليد، والذي أدّى إلى ضغط بين اتجاه الواقعة التاريخية، أي تخاذل ثقيف وتواطؤها بدوافع دينية أساسها التنافس بين مكانين مقدسين قديماً الكعبة الشمالية واللات الجنوبية.

مما نتج عنه إلقاء تهمة الخيانة على شخصية خيالية لا وجود لها، ولكنها عاشت كجزء من التاريخ هو تاريخ الحملة الحبشية ضد الكعبة.

ولكلّ راوٍ طريقة في بدء حكايته، وحين يقول الراوي:

الخائن يخونه الله . . قولوا أمين

هو استهلال للحكاية وتحذير من مغبة الخيانة.

- يا ابنتي، وماذا أملك حتى أهادي الكبار؟

فقالت له:

- الهدية محبّبة ولو كانت قشر حوت.

فقال لها:

- وهل في الدنيا من يقبل قشر الحوت هدية.

فقالت له:

- يا أبي، أنت تعيش في البحر وتمرّ عليك عجائب الدنيا، فإذا رأيت شيئاً لافتاً خذه وقدّمه هدية لملكنا المحبوب.

وعدها أبوها خيراً وظلّ طوال سنة كاملة يتابع ما يراه في البحر من أصداف ومرجان وحجارة فلم يجد فيها ما يلفت النظر، فظلّ مهموماً كلما تذكر لو أنه مات وترك ابنته الوحيدة بدون عائل أو قلب يحنّ عليها، وقال في نفسه: «صدقت ابنتي فهي تريد أن تضمن لو أنني متّ أن لا يتركها من حولها في وحدتها» فقرر أن يكسب كلّ من حوله من الجيران، فكان يصيد ويعود إلى البيت ويُقسم ما اصطاده بينه وبين جيرانه، يومياً يختار عدداً يتناسب مع صيده ويهاديهم، فأحبّه جميع جيرانه وأخذوا يبادلونه هدية بهدية...

وذات يوم ظلّ في البحر معلّقاً شبكته دون أن تعلق بها سمكة واحدة فحزن حزناً عظيماً، وقبل الغروب سحب شبكته فعلقت بها سمكة عجيبة وغريبة في لونها وحركتها ولم يسبق له أن رأى مثيلاً لها. فرح بها فرحاً عظيماً ونسي يومه الحزين وخشي أن تموت تلك السمكة العجيبة فملأ صينية بماء البحر ووضع بها تلك السمكة وعاد فوجد ابنته تنتظره فزعة، وعندما رأته مقبلاً احتضنته وقالت له:

- ما الذي أخرّك اليوم؟

فأخبرها بالخبر، وعندما رأت البنت تلك السمكة ذهلت لروعتها وجمالها وقالت لأبيها:

- لو تعيد هذه السمكة للبحر كي تنعم بالحياة فمثل هذا الجمال حرام أن يموت.

فقال لها أبوها:

- لن أعيدها فإذا لم أصدها فسوف يصيدها شخص آخر.

فقالت له ابنته:

- إذاً، مثل هذه الأسماك تحتاج لعناية، ومشورتي أن تتقدّم بها كهدية للملك[١].

فتح الأب فمه وقال لها:

- للملك؟!

فقالت له:

- إنّ ملكنا رجل يحبّ فعل الخير، ومثل هذه الهدية ستدخل السرور إلى قلبه.

وظلّت تحاول به حتى وافقها على رأيها، ومن الصباح الباكر لبس أفضل ملابسه وتوجّه إلى قصر الملك فردّه الحرس فقال لهم:

- أحمل هدية للملك وأريد أن أسلّمها بنفسي.

حاولوا أن يبعدوه لكنه لم يبتعد وظلّ يرفع صوته منادياً الملك، وكان الملك يسير في حديقة قصره وعندما سمع الصوت أمر أحد الحرس باستقصاء ما يحدث، وعاد الحارس يخبره بالخبر فأمر بأن يحضروا له ذلك الرجل، وفي الحال جذبوه من عروة ثيابه وقادوه إلى الملك، وعندما رأى حرسه يمسكون به على تلك الهيئة غضب وصاح بهم:

---

(١) الحكاية الشعبية لا تفرّق بين لقب ملك أو سلطان فكلا اللقبين يعنيان ملكاً شاسعاً يسيطر عليه فرد له مميزات لا تُقارن ببقية الشعب، وفي الثقافة الإسلامية أنه ظلّ الله على الأرض. ويذكر جيمس فريزر في الغصن الذهبي أنّ الاعتقاد الشائع في بعض مراحل التطور للمجتمع البدائي أنّ الملك أو الكاهن قد وُهب قوى خارقة أو أنه تجسيد لأحد الآلهة، ووفقاً لهذا الاعتقاد فإنه يفترض أنّ مجرى الطبيعة تحت سيطرته على نحوٍ ما، وأنه لذلك يعتبر مسؤولاً عن سوء الطقس وقلّة المحاصيل وغير ذلك من الكوارث التي كان يُعاقب عليها بوضعه في القيود والجلد، فإذا استمر على عناده عاقبه رعاياه بالإعدام والموت. ولمّا كان شخصه يُعتبر مركز الكون فإنّ أي حركة تصدر عنه قد تؤدي إلى تعكير بعض عناصر الطبيعة، ومن ثم فقد كان من الواجب توخّي الحذر منه وعليه، ومن ذلك نشأت محظورات معينة بالنسبة إلى الملك.
على سبيل المثال: كان يفرض على إمبراطور (اليابان) في القديم أن يجلس ساعات على عرشه، ساعات طويلة كل صباح وعلى مفرقه التاج، دون أن تبدو منه أية حركة.

- لا أسمح أن يُقاد أيّ أحد من شعبي بهذه الصورة، ولو رأيت مثل هذا الفعل فسوف يكون عقابكم شديداً.

وتقدّم للصياد متودداً ومعتذراً، فتمالك الصياد نفسه وقال له:

- يا ملك الزمان، وجدت إحدى عجائب الدنيا في البحر وأحببت أن تكون لك دون الناس أجمعين، وهي هديتي إليك.

نظر الملك إلى السمكة فأعجب بها إعجاباً شديداً، فشكر الصياد على هديته الفريدة وأمر حاجبه أن يعطى الصياد كيساً من الذهب الخالص، فقال له الصياد:

- يا ملك الزمان، لم آتِ بها من أجل المال ولكن حبّاً بك ولا أريد شيئاً مقابلاً لها.

أُعجب السلطان بردّه فأمر أن يُمنح كيساً آخر، وعندما رفض قال له الملك:

- لقد أهديتني السمكة وأنا أهديتك المال فإذا لم تقبل بهديتي فلن أقبل بهديتك.

تناول الصياد كيسي الذهب وغادر قصر الملك شاكراً له فضله، وفي الطريق اعتراه فرح عظيم وكاد يطير بما في يديه وأخذ يقول:

- لن تجد ابنتي نفسها وحيدة فسوف أجعل هذا المال يقيها نوائب الدهر.

ودخل عليها وأخبرها بالخبر فشاركته فرحته.

أما الملك فقد أمر الحراس بحمل السمكة إلى بيت الملكة وصنع لها حوضاً من الزجاج يكفي لأن يكون بحراً صغيراً لهذه السمكة، ودخل على زوجته قائلاً:

- لقد جلبت لك أجمل وأروع سمكة يمكن أن تقع عليها عين، وصنعت لها حوضاً كبيراً كي تريها من أيّ مكان تجلسين به في الحديقة.

شكرته زوجته على هديته واستأذنته للخروج لرؤية السمكة فأذن لها، فتحركت معها وصيفاتها جميعاً، وعندما وصلن إلى حوض السمكة لم يصدقن عيونهن لجمالها وروعتها، واقتربت منها الملكة مع إحدى وصيفاتها فقفزت السمكة من الحوض ومزّقت فستان الملكة ووصيفتها ولطّخت ثوبيهما وعادت وقفزت داخل الحوض. غضبت الملكة غضباً شديداً وكادت تأمر وصيفاتها بقتلها في الحال لكنّ وصيفتها التي تلاصقها كظلها والتي تمزّق ثوبها معها قالت لها:

- هذه سمكة لا تعرف شيئاً، وإذا أرادت مولاتي أن تقتص لنفسها فليكن قصاصها من الذي أحضرها للقصر.

صعقت الملكة وصاحت بوصيفتها:

- تقصدين الملك؟

فقالت لها وصيفتها:

- لا يا مولاتي، ولكن من الشخص الذي جلبها للملك.

عادت الملكة غاضبة تبكي، وكانت أثيرة لدى الملك فهاله بكاؤها، فنهض من مكانه مستفسراً عمّا أبكاها ومزّق ثوبها فقالت له:

- خرجت لرؤية السمكة ولكنها قفزت من حوضها ومزّقت ثيابي ولطّخت وجهي بقاذوراتها، ولن أرضى حتى تقتصّ لي منها.

فقال لها الملك:

- وكيف أقتصّ لك من سمكة ؟ . . . هل تريدينني أن أقتلها؟

فقالت له:

- لا، ولكن الذي أحضرها لا بدّ أنه يعرف سرّها.

فقال لها:

- لقد أحضرها أحد الصيادين وسوف أرسل من يحضره في الحال.

وأمر حرسه بأن يأتوه بالصياد، وفي الحال عادوا به ليقف بين يدي الملك مرتعداً، فقال له الملك:

- لقد أهنتني بهديتك أيها الصياد!

ارتبك الصياد كثيراً وقال له:

- يا ملك الزمان، وكيف أهنتك؟

فقال له:

- إنّ السمكة التي أحضرتها قامت بتمزيق ثوب الملكة وتلطيخ وجهها بالقاذورات، وإذا لم توجد سبباً لفعلة السمكة قتلتك.

ازداد ارتباك الصياد وتلعثم قائلاً:

- أنا أعتذر منك بشدة ولا أعرف ماذا أقول.

فقاطعه الملك محتدّاً:

- لا يكفي اعتذارك، أريد سبباً لما فعلته سمكتك وإلاّ قطعت رأسك.

فقال الصياد:

- أطال الله عمرك يا ملك الزمان، لو أمهلتني بعض الوقت حتى أتمكّن من معرفة السبب.

فقال له:

- أمامك يوم واحد وبعدها يكون رأسك هو قبول اعتذارك.

خرج الصياد حزيناً وطاف بالبلدة يفكّر في سبب فعلة السمكة ولم يهتدِ لشيء ذا بال يمكن أن يقوله للملك، وظلّ سائراً إلى الغروب، وعندما أظلمت الدنيا قال لنفسه: «لا فائدة من السير بلا هدى ومن الأفضل أن أعود إلى البيت وأوصي جيراني خيراً بابنتي وليفعل الله ما يريد».

عاد فتلقّته ابنته مستفسرةً عن طول غيابه وما الذي يريده منه الملك، فلم يردّ عليها وظل يبكي بحرقة، وكلما حاولت أن تعرف منه السبب زاد بكاؤه، فظلّت تلاطفه حتى أخبرها بالخبر. حاولت أن تجد مبرّراً لفعلة السمكة ولكنها لم تجد، فقالت لأبيها:

- لقد تأخّر الوقت. دعنا ننم ويجعل الله مخرجاً ممّا نحن فيه.

أخذ الصياد يتقلّب على فراشه دون أن يغمض له جفن، ومع دخول أول شعاع من النهار وجد الحرس يقفون على بابه ويطلبونه للمثول بين يدي الملك. تحسّر لأنه لم يوصِ أحداً من الجيران بابنته واستحكم بحكم الله وطلب منهم أن يودّع ابنته فسمحوا له. كانت البنت تقف وتسمع كلّ شيء فخرجت على أبيها وقالت له:

- لن أتركك، سوف أذهب معك.

حاول أن يمنعها فقالت له:

- عندي الحلّ إن شاء الله.

وتحرّكا مع الحرس إلى قصر الملك فوجدوه بين وزرائه في أشدّ حالات الغضب، وعندما أخبره الحرس بقدوم الصياد استعجل دخوله، فدخل ومن خلفه ابنته وعندما رآها الملك تعلّق بصره بها ورفّ قلبه لمرآها وحاول أن يضمر ما بداخله فصاح بالصياد:

- هل وجدت سبباً لما فعلته سمكتك؟

وعندما أراد أن يتحدث كان صوت ابنته قد سبقه، فقالت:

- أدام الله عزّ ملكنا، فنحن من شعبك ونبادلك حبّاً بحبّ، وكنت قد أشرت على أبي أن يبادل الناس الهدايا لأنها تدخل المحبة للقلوب، وعندما وجد أبي هذه السمكة قلنا لا تصلح هذه السمكة العجيبة إلاّ للملك وحدث ما حدث وأظن أنّ في ذلك الخير.

تخدّر الملك لحلاوة صوتها وبراعة حديثها، وكان ينظر إليها بشغف، وتدارك نفسه فحدّثها: «لقد أحضر هذا الصياد الخبيث ابنته كي لا يقع عليه سخطي، ولو عرف الناس تسامحي معه فسوف يطمعون في عطفي...» ثم انتشل نفسه من خدره صائحاً:

- وأيّ خير في أن تُهان زوجتي؟

فقالت ابنة الصياد:

- ما عاش مَن يهين الملك أو الملكة، ولكنني أقول لك يا ملك الزمان إنّ الحادثة حدثت مرة واحدة وربما لا يكون هناك سبب لفعلة السمكة، فربما قفزت السمكة لتلهو وعندما وجدت نفسها ليست في محيطها أمسكت بثوب الملكة ووصيفتها كالغريق عندما يتعلّق بقشة، والرأي عندي أن تعود الملكة ولنرَ ماذا تفعل السمكة؛ فإذا فعلت الفعل نفسه فسوف يكون هناك سبب لما حدث، وإذا لم تقم به فعذرنا أننا أحببناك وهديناك أغلى ما نملك.

استحسن الملك رأي ابنة الصياد وأمر إحدى الوصيفات بأن تدعو الملكة لتخرج لرؤية السمكة. تحرّكت الملكة ومن خلفها سارت جميع الوصيفات، حتى دنت من حوض السمكة، وكان يقف الوزراء وكبار حرس القصر، وعندما اقتربت الملكة قفزت السمكة من حوضها ومزّقت ثياب الملكة ووصيفتها السابقة نفسهما ولطّخت وجهيهما بالقاذورات.

صُعق الملك وصاح بالصياد وابنته:

- وماذا بعد معاودة السمكة فعلتها؟ والله لأقطعنَّ رقبتك ورقبة أبيك.

(وعندما أقسم ندم على قسمه خشية أن تموت هذه الفتاة الجميلة، ولكي لا يظهر متخاذلاً أمام رجاله أكّد قسمه مرة أخرى وهو نادم)

أخذ الصياد يرتعد من الخوف حتى كاد يُغمى عليه بينما ظلت ابنته شاخصةً ببصرها نحو الملكة ووصيفتها التي تمزّق ثوبها مع الملكة ورأتهما يتبادلان النظر بارتباك، وعندما سمعت قسم الملك قالت له:

- يا ملك الزمان، كي نعرف سبب تصرف السمكة أريد أن تأمر جميع الموجودين بالامتثال لما آمر أنا، وإذا لم نكتشف السبب اقتلني قبل أبي.

تعجّب السلطان من طلبها وبعد التردّد قال:

- ليستجب لطلبها كلّ الموجودين.

وفي الحال أمرت ابنة الصياد جميع الوصيفات بخلع ملابسهنّ والارتماء في حوض السمكة عاريات، ففعلن جميعاً باستثناء وصيفة الملكة التي تمزّق ثوبها، فقالت لها:

- اخلعي ملابسك وارتمي في حوض السمكة.

فامتنعت وتدخّلت الملكة غاضبةً:

- ما هذا الذي تفعلينه، تكشفين ستر وصيفاتي؟

فقالت لها:

- لقد وضعت رأسي ورأس أبي ثمناً لهذا الكشف، وإذا لم أجد السبب فسوف تتشفّين مني برؤية رأسي يتدحرج على الأرض.

فقالت لها:

- لا نريد أن نعرف السبب ويكفينا ما حدث، فلتحملي سمكتك وأبيك وتغادروا القصر في الحال.

فقالت ابنة الصياد:

- لقد منحني الملك أمراً بأن يلبّي الجميع طلباتي، وآمرك أن تصمتي وتتركي وصيفتك تخلع ملابسها وترتمي في الحوض.

غضبت الملكة وتوجّهت إلى الملك آمرةً إياه بطرد الصياد وابنته، فقال لها الملك:

- احملي سمكتك وأبيك وارحلي من القصر.

فقالت له:

- عفوك يا مولاي، لقد أعطيتني حقّ أمر الحاضرين جميعاً وأنت من الحاضرين، فهل تمكّنني من طلبي؟

استغرب الملك جرأة تلك الفتاة ووافق على طلبها، وأمر الوصيفة أن تخلع ملابسها وترتمي في الحوض، فزاد صياح الملكة، ومع الإلحاح خلعت الوصيفة ملابسها فإذا بها رجل. . . ذُهل الملك لرؤية وصيفة الملكة الأثيرة لديها رجلاً وصاح: ماذا يعني هذا؟

فاقتربت منه ابنة الصياد وقالت له:

- يا ملك الزمان اعذرني فما سوف أقول؟

فقال لها: تحدّثي بما تشائين.

فقالت له:

- الأمر لا يحتاج مقولة فاضحة فهو بيّن، وما فعلته السمكة من تقطيع الثياب وتلطيخ وجهيهما إلاّ لكشف ما كان يحدث في غفلةٍ عنك.

جُنّ جنون الملك وأمسك بالوصيفة الرجل وقال له:

- أخبرني بقصتك وإلاّ قطعت رأسك في الحال.

فأخبره بخيانته له مع الملكة فأمر الملك في الحال أن يُجزّ رأسا الملكة وعشيقها[١]، وقدّم هدية سنية لابنة الصياد. وبعد أيام وجد الصياد الملك يقف على باب كوخه ويطلب الزواج من ابنته، وأُقيم لهما عرس تحدثت به الأيام على مرّ الأزمان.

ومين يخون يخونه الله.

رواية آمنة يوسف ـ جدة

(١) هذه القصة هي إعادة عقدة شهريار وخيانة الزوجة وما تخلفه من كوارث في حياة شهريار، ولكنها تنحرف بأن يتقدم الملك للزواج من تلك الفتاة التي تمثل رأس المعرفة (شهرزاد).

حبة عنب من الجنة

كان ياما كان. . . كان في قديم الزمان رجل صالح يدعو الله فيستجيب له، وكانت بالبلد امرأة فاسقة سيرتها على كلّ الألسن وكلّ من يمرّ بها يلعنها لفجورها ومجونها، وكان هذا الرجل الصالح يدعو عليها في الليل والنهار، فجاءته ذات يوم بعد أن نزل عن منبر الخطبة وقالت له:

- الله سترني وأنت تفضحني وكان الخير أن تدعو الله أن يهديني.

فغضب منها غضباً شديداً وقال لها:

- أنتِ للنار ولن يغفر الله لك فجورك!

فردّت عليه:

- جئتك لتفتح لي باب الرحمة فإذا بك تغلقه، ومادمت تدعو عليّ فأنا أدعو ربّ الأرباب أن يفرّق شملك ويحرق قلبك.

وخرجت غاضبة فلم يكترث بها.

وكانت لهذا الشيخ بنت وحيدة يحبّها حبّاً شديداً، وإذا دخل البيت لا يفارقها ويظلّ يمازحها ويلاعبها إلى أن تنام.

ذات يوم استيقظ الشيخ فوجد وحشاً ضارياً يقف أمام بيته، وعندما رآه الوحش جأر بكلّ قوته، فقال الشيخ: لا حول ولا قوة إلاّ بالله. ونادى على زوجته وقال لها:

- هذا الوحش جاء ليتزوّج بابنتك.

فقالت له:

- هل جننت حتى تزوّج ابنتنا الوحيدة لوحش.

فقال لها:

- هذا ليس وحشاً فجهّزي ابنتك لتذهب مع زوجها.

وعندما امتنعت قال لها:

- لو لم تجهزيها بنفسك فسوف أطلب من أختي أن تجهزها وسيكون آخر عهدك معي اليوم وبدلاً من أن تفقدي ابنتك ستفقدين زوجك أيضاً.

فقامت حزينة وجهزت ابنتها وألبستها أفخر الثياب، وخرج الشيخ للوحش وقال له:

- نحن نجهّز عروسك ولكن أمهلنا يوماً أو يومين وتعال بعد ذلك لاصطحاب زوجتك.

فقال له الوحش:

- سأمهلك ثلاثة أيام وبعدها آتي لاصطحاب زوجتي.

واختفى الوحش من أمام الشيخ كأنه لم يكن.

تذكّر الشيخ دعوة المرأة الفاسقة خيرية بأن يفرّق الله شمله فقال في نفسه: «لقد استجاب الله دعوتها وعليّ أن أخرج لأستسمحها عسى أن يرفع الله عني هذا البلاء» وخرج يبحث عنها، وكلّما سأل عنها لامه الناس وقالوا له: كيف يسأل رجل صالح مثلك عن امرأة فاسقة؟ وظنّ به بعضهم الظنون، وظلّ يبحث لثلاثة أيام من دون أن يعثر لها على أثر فعاد إلى بيته حزيناً فوجد الوحش يقف على بابه، فنادى على زوجته وقال لها:

- أخرجي بنتك لزوجها.

فأخرجتها، وسار الوحش ومن خلفه الشيخ وابنته حتى وصلوا إلى مكان مقفر، فقال الوحش للرجل الصالح:

- أنا الملك رضوان، وإذا اختفيت أنا وزوجتي فضع علامة لتعرف مكانها إذا رغبت في زيارتها.

وتوادعا، وقبّل الشيخ ابنته وأوصاها بزوجها خيراً، وفي لمح البصر ضرب رضوان الأرض فانفلقت وغاب في داخلها هو وزوجته. وضع الشيخ حجراً في ذلك المكان وأقفل عائداً إلى بيته حزيناً على فراق ابنته. وبعد شهر، وبينما هو يتهيأ للخروج، رأى على باب بيته وحشاً كبيراً يقف متأمّلاً الشيخ وزوجته، فقال:

- لا حول ولا قوة إلاّ بالله... ليست لدي بنات.

وعندما رأت زوجته تغيّر حاله قالت له:

- ما بك؟

فقال لها:

- هذا الوحش يطلب الزواج من ابنتي.

فقالت له:

- قل له كانت لدينا ابنة واحدة وزوّجناها لوحشٍ مثلك.

فقال لها:

- هذا الوحش من الجان وليس من الملائكة، وعندما أخبرته قال: زوّجني ابنتك حتى لو كانت كلبة.

ظلّ هذا الوحش قابعاً أمام بيته لأيام، فقام الشيخ وتوضأ وصلّى ودعا الله أن يحوّل كلبته إلى بنت، وفي الحال انتفضت الكلبة وتحوّلت بنتاً جميلة، فقال لزوجته:

- جهّزي ابنتك لتزفّ على زوجها.

فقامت زوجته وألبست الكلبة أفخر الثياب وطيّبتها ودفعت بها إلى الشيخ، فسار خلف الوحش الذي ظلّ سائراً إلى أن بلغ مكاناً مقفراً يقترب من مكان ابنة الشيخ، والتفت الوحش إلى الشيخ وودّعه وقال له:

- لو اختفينا ضع علامة لتزور ابنتك لو رغبت.

وضرب الوحش الأرض فانفلقت وغاب هو والبنت الكلبة لداخل الأرض، فوضع الشيخ حجراً في المكان نفسه الذي اختفى فيه الوحش والبنت الكلبة وعاد إلى بيته. وبعد ثلاثة أشهر رأى وحشاً ثالثاً يقف على باب بيته فقال:

- لا حول ولا قوة إلاّ بالله... ليس لدي بنات.

فقال له:

- لقد جاء أخي وقلت ليس لديك بنات وزوّجته جميلة الجميلات فزوّجني حتى لو كانت حمارتك.

توضأ الشيخ ودعا الله أن يحوّل حمارته بنتاً، وفي الحال انتفضت الحمارة وتحوّلت بنتاً رائعة الجمال، فالتفت إلى زوجته وقال لها:

- هيّئي بنتك لزوجها.

فقامت الزوجة وألبست البنت الحمارة أجمل الثياب وسلّمتها للشيخ الذي سار خلف الوحش، وظلوا سائرين إلى أن بلغوا مقربةً من مكان اختفاء البنت والكلبة، وقال الوحش للشيخ:

- ودّع بنتك وضع إشارة في المكان الذي ندخله حتى إذا رغبت في زيارته عرفت مكانها.

وضرب الوحش الأرض فغاب داخل الأرض وعاد الشيخ إلى بيته وعاش حياته. ومضت الأيام سنة تجرّ سنة، وذات يوم أخذت زوجته تبكي بحرقة فجلس إليها يواسيها ويحاول معرفة سرّ بكائها، فقالت له:

- لقد سلّمت بنتي الوحيدة لوحش ولم تسأل عنها وأنا متحرّقة شوقاً لرؤيتها أو معرفة أخبارها. اذهب واسأل عنها وعد وطمئنّي على ابنتي.

وعدها خيراً، وبعد يومين استعدّ للخروج لرؤية ابنته. سار في الطريق الذي عبره ثلاث مرات، وعندما وصل إلى المنطقة نفسها لم يعثر على علامة ابنته، وظلّ يبحث عن تلك الصخرة التي وضعها فوجد صخرة غطّتها الأتربة ولم يبقَ ظاهراً منها إلاّ نتواءت بسيطة، فأخذ يقتلعها فلم يستطع، وبقي يحفر حولها، وبعد أيام استطاع زحزحتها فانكشف له ممرّ طويل فنزل به وجذب الصخرة فأغلقت المكان وسار في طريقه لأيام، يوصل الليل بالنهار، وفي اليوم السابع وجد نفسه في قصرٍ كبير تحفّه الأشجار فمكث بالقرب منه، وبينما هو جالس رأى فتاةً تقف في إحدى نوافذة فاقترب منها، وعندما رأته صاحت به:

- أنت تشبه أبي، هل جئت لزيارتي؟

فقال لها: نعم.

فأرسلت له جدائلها ليتعلق بها إلى أن وصل إليها، فتعانقا وأخذت تسأله عن أمها فأخبرها باشتياقها لها ولهفتها إليها، ومع الغروب خافت على أبيها فقالت له:

- بعد قليل يأتي زوجي وهو مارد من المردة الكبار وإذا رآك هنا سيأكلك وأفضل أن تختبئ.

وقامت وخبّأته بين الفرش... وبعد قليل ارتجّ القصر وجاء المارد يحمل أشجاراً في يد وفي الأخرى ثلاث بقرات وصاح بزوجته:

- أشمّ رائحة إنسي.

فقالت له: أنا إنسية وهذه رائحتي.

فقال لها: لا هذه رائحة جديدة وإذا لم تخبريني فسوف أبحث عنه وآكله.

فقالت له: وله الأمان.

فقال لها: وله الأمان.

فأخرجت أبيها وفرح المارد برؤية عمه واستقبله استقبالاً كبيراً وأشعل الأشجار التي جاء بها وشوى عليها البقرات الثلاث التي كان يحملها بيده اليمنى وظلاّ يتحدثان إلى وقت متأخّر من الليل.

فقال له الشيخ:

- كيف تعاملك ابنتي؟

فقال المارد:

- هي بنت طيبة، ولكن لها طبائع الكلاب فكلّما تحدّثت عوت.

عرف الشيخ أنّ هذه ليست ابنته وإنما كلبته فصمت، وفي الصباح استأذن المارد وقال له:

- أريد رؤية ابنتي الثانية.

فقال له:

- هي على مقربة من هنا.

وأشار له إلى قصر يبعد كثيراً عن القصر الذي هو به، فطلب منه مساعدته للوصول إليه فرحّب المارد بذلك، وقام الشيخ وودّع كلبته وأوصاها بحسن معاملة زوجها، وبعد الوداع حمله المارد على ظهره حتى أوصله القصر وتركه هناك وعاد. ظلّ الشيخ يحوم حول القصر حتى رأى فتاة تطلّ من إحدى نوافذة، فاقترب منها فصاحت به:

- هل أنت أبي جئت لزيارتي؟

قال لها: نعم.

فألقت إليه بجدائلها فارتقاها إلى أن صعد القصر وتعانق مع ابنته، وقبل حلول الغروب قالت له:

- زوجي مارد كبير ولا بد أن أخفيك قبل أن يأتي ويأكلك.

وقامت وخبّأته فوق الرف، ومع الغروب ارتجّ القصر وظهر المارد يحمل أشجاراً بيده وباليد الأخرى ثلاث بقرات، وعندما دخل القصر قال لزوجته:

- أشمّ رائحة إنسي.

فقالت له: أنا إنسية وهذه رائحتي.

فقال لها: لا، هذه رائحة جديدة وإذا لم تخبريني فسوف أبحث عنه وآكله.

فقالت له: وله الأمان.

فقال لها وله الأمان.

فأخرجت أبيها وفرح المارد برؤية عمه واستقبله استقبالاً كبيراً وأشعل الأشجار التي جاء بها وشوى عليها البقرات الثلاث التي كان يحملها بيده اليمنى وظلاّ يتحدثان إلى وقت متأخر من الليل.

فقال له الشيخ:

- كيف تعاملك ابنتي؟

فقال المارد:

- هي بنت طيبة، ولكن لها طبائع الحمير فكلما حدثتها نهقت.

عرف الشيخ أنّ هذه ليست ابنته، وفي الصباح ودّعهما وسأل عن أختها فقالت له:

- أختي تسكن بعيداً عنا.

فطلب منها أن تطلب من زوجها أن يساعده لبلوغ قصرها، فقالت لزوجها فردّ:

- قصر أختك هذا لا يصله أمثالي، ولكنني سوف أساعده بأن أقرّبه من القصر، وهذا كلّ الذي أستطيع فعله.

وأركب الشيخ على ظهره وطار به إلى مقربة من القصر وأنزله وقال له:

- اعتذر منك فهذا المكان محرم علينا، ولكن أمثالك يصلون.

دُهش الشيخ لرؤية القصر وما تحفّ به من أشجار وظلّ يسير بداخله حتى رأى فتاةً تقف في نافذتها فاقترب منها وعندما رأته صاحت به:

- أبي... أبي.

وألقت إليه بجدائلها فارتقى حتى وصل إليها وتعانقا، وظلّ الشيخ يبكي وهي تقبّله على رأسه، وبعد فترة من الزمان قالت له:

- بعد قليل يأتي زوجي وعلي أن أخبّئك.

وخبّأته تحت السرير، ومع الغروب هلّت ريح طيبة وظهر رضوان في أحلى حلله، وعندما دخل على زوجته قال لها:

- بالبيت رائحة إنسان.

فخشيت منه فقال لها:

- إن كان أبوك أو أحد إخوتك فمرحباً به، ولماذا تخبئينه؟

فأخرجت أباها وتعانق مع رضوان وظلّ ضيفاً عنده لثلاثة أيام وفي اليوم الرابع قرّر الأب الرحيل والعودة إلى بيته واطمئنان زوجته على ابنته، فقال له الملك رضوان:

- ما دمت قد وصلت إلى هنا تعال أريك الجنة، ولكن بشرط أن لا تأخذ منها شيئاً ولا تأكل من فواكهها أو تشرب من أنهارها.

وحمله على جناحيه وطاف به الجنة فرأى ما لم يُرَ، وبينما كان سائراً رأى قصراً كبيراً تدلّت على جوانبه الفواكه من كلّ نوع فأعجبه عنقود عنب كانت حبيباته كلؤلؤ فقطف حبّة ووضعها في جيبه، فعلم رضوان وغضب منه وقال له:

- ألم أقل لك لا تأخذ شيئاً.

فقال له:

- قدّر الله وما شاء فعل.

فقال له رضوان:

- لقد أخذت حبّة من عنقود العنب ولا نستطيع إعادتها إلى عنقودها، وهذا قصر العبدة التائبة الصالحة خيرية، فاذهب إليها واستسمحها علّها تسامحك.

فقال الشيخ: ومن خيرية هذه؟

فقال له رضوان: هي المرأة التي جاءتك في المسجد.

فنزل الشيخ وظلّ لأيام يبحث عن خيرية، وكلّما لعنها أحد قال لهم:

- لا تلعنوها فقد رأيت قصرها في الجنة.

ومازال يبحث عنها حتى وجدها في إحدى الحانات، وعندما رأته خجلت، فاقترب منها وقال لها:

- لقد أخذت حبة عنب من قصرك في الجنة وأريدك أن تسامحيني على أخذي هذه الحبة.

وعندما أراها الحبة أغشي عليها وقالت:

- أشهد الله أنني تبتُ ولن أعصيه ما حييت.

وانقطعت في الخلاء للعبادة إلى أنّ توفاها الله.

رواية فاطمة حجر

أبو خيشة[١]

كان ياما كان في قديم الزمان، كانت هناك امرأة مغرورة لا تقيم وزناً لكبيرٍ أو صغير، تسير بعجرفة بين الصبايا ولا تتورّع عن قول ما يجرح الناس من دون أن تكترث بما قالت. وذات يوم، بينما كانت تسير في الطريق، اعترضتها امرأة مسنّة تحمل كيساً صعُب عليها حمله، وكانت تسير مردّدةً:

- مَن يشيله من على ظهري أشيل عنه حمل الدنيا.

وعندما وجدت تلك المرأة تسير في الطريق نادت عليها:

- ساعديني يا بنتي الله يساعدك.

فأفحشت لها القول وشتمتها شتماً بذيئاً، فردت المرأة العجوز:

- قادر الله يجعل اللي فوق ظهري فوق ظهرك.

وافترقتا، وما أن ابتعدت المرأة عن الطريق حتى حطّت العجوز كيسها وفتحته فظهر غول كبير يصيح منفعلاً:

- مَن أغضب أمي.

فقالت له: تلك المرأة التي تسير هناك.

وأشارت له إليها، فتحرّك يتبع المرأة، وعندما أصبحت الطريق خاوية اختطفها[٢] وعاد بها مسرعاً، وقال لأمه:

---

(١) وردت هذه الحكاية في كتاب الدكتورة لمياء باعشن التبات والنبات، وإن كانت الراوية التي روت لي الحكاية فيها اختلاف ربما يعود مردّه لاختلاف ذائقتي الراويتين للحكاية.

(٢) جرى السرد لبعض الأساطير على عادة أن يتم الخطف أو التغيب من قبل كائنات مسخوطة أو من صنف الجن، وغالباً ما يتم اختطاف الحبيبة أو الزوجة لتصعيد الخط الدرامي داخل =

- هي جاريتك من الآن.

فقالت له:

- حمّلها ما حمّلتني.

فجأر بالمرأة وقال لها:

- سوف أدخل الكيس وعليك أن تحمليني حتى تصلي بي إلى الجبل الأسود وإذا رفضتي أكلتك وإذا هربتي أكلتك، فهمتي؟

فهزت رأسها والحسرة تأكل صدرها.

دخل الغول داخل الكيس وانحنت المرأة لحمله، وكانت تسير بتثاقل ومن خلفها المرأة العجوز تردّد:

- قادر يا كريم تفضح اللئيم.

وتضرب المرأة على ظهرها وتقول لها:

- لو ساعدتني كنّا تخلّصنا سوياً من هذا الغول.

فقالت لها: وما هي قصتك مع هذا الغول؟

فقالت لها: قصة طويلة أخبرك بمختصرها:

كنت في شبابي جميلة ومغرورة ولا أقيم لأحد وزناً، وقد تقدّم لخطبتي الملوك والوزراء وكنت لا أرى أحداً منهم يناسبني، وسمع بي ملك الغيلان وجاء لخطبتي فحقّرته وشتمته على الملأ، فذهب مغضباً وأقسم أن يذلّني ما تبقّى لي من عمر، فلم أقم لتهديده وزناً، فغاب سنوات وعاد في صورة فتى جميل وأخذ يشاغلني ويغازلني وأينما ذهبت وجدته في طريقي يبثّ نجواه، فاستمالني بالقول والهدايا الثمينة ووقعت أسيرة هواه، وعندما تقدّم لي كدت أطير فرحاً، وتمّ زواجنا. وفي ليلة الزفاف أدخلني غرفةً وانشغلت بالتخفّف من ملابسي، وعندما عدت وجدت

= الأسطورة، ويحدث الاختطاف عقب رحلات الملوك عن أزواجهم إما لخوض معارك أو لزيارة مملكة أخرى أو الذهاب إلى الحج.

وثمّة جذر أسطوري لهذا الاختطاف ذكره شوقي عبدالحكيم في موسوعة الفولكلور والأساطير عن أسطورة الإله البعل الفلسطينية المنشأ الذي كان يحيا عند قمم الأشجار، والذي كان يحيا في خوف دائم من أن يتم اختطاف بناته الثلاث.

ذلك الغول الذي حقّرته وأغلظت له في الشتم، فأصابني الرعب ولم أقدر على الكلام. سمعته يقول:

- جئت لأفي بنذري وأجعلك تندمين ما تبقّى لك من عمر أنت وأمثالك من بنات جنسك.

وفي لمح البصر انخسفت الأرض فإذا بي في أرض غير الأرض وسما غير السما، وكان يأتيني مرة في السنّة يضاجعني ويترك لي مؤونة سنة كاملة ويتركني فوق جبل لا يصل إليه أحد، وفي كلّ زيارة يقول:

- ألم يأتِ الذي يتعبك؟

فأردّ عليه:

- ما في تعب إلاّ تعب الوحدة.

فيقول: وتعب الذلّ.

ويغادر الجبل. وبعد سبع سنوات حملت بهذا الغول الذي تحملينه، وعندما جاء أبوه قال لي:

- هذا الذي سيتعبك ويتعب أمثالك.

وغادر ولم يعد إلى الجبل، وظللت لوقت طويل حتى نفذ الزاد والماء، فتحركت من فوق الجبل فتعلّق بظهري ابني هذا، فأسقط وأتكسّر وأظلّ أتداوى حتى أشفى، وكلّما سرت قفز على ظهري وهو يردّد:

- أريد أكمل نذر أبي.

ولم أعرف ماذا يقصد إلاّ بعد مسيرة سنة كاملة وأنا أحمله، فسألته ذات يوم:

- وكيف تكمل نذر أبيك؟

فقال: تزوّجني بامرأة متكبّرة أحرق قلبها وأذلّها بقية العمر.

فقلت له: كيف؟

قال: احمليني في كيس واعرضي على كلّ امرأة تقابلينها أن تساعدك في حمله، فإن ساعدتك فهي لا تصلح لي وإن لم تفعل فهي المرأة المقصودة. وكنت اعترض النساء وأردّد:

- ساعديني يا بنتي الله يساعدك.

فإذا أقبلت لمساعدتي تحوّل الكيس إلى ذهب رنّان فتأخذه وتمضي، والتي

ترفض يتزوّجها ابني الغول ويُذلها ما تبقى لها من العمر. وكان مقدّراً أن يتزوج بمائة امرأة حتى يعتقني من هذا الدور الذي لعبته ثلاثين سنة، وأنت غلاق المائة، وقد أراحني الله لتحملي الشقاء من بعدي، وسوف أودّعك وأمضي لحالي.

أخذت المرأة تتوسّل إليها أن لا تتركها مع هذا الغول، فقالت لها:

- المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين، وكان الله في عونك.

وعندما وجدت تلك المرأة نفسها تحمل الكيس خافت وحاولت الهرب، فتركت الكيس وأخذت تجري حتى انقطع نفسها، وعندما توقفت لتأخذ قسطاً من الراحة وجدت الغول يقف بجوارها ويمدّ لها بالكيس قائلاً:

- لا تهربي من قدرك.

وعاد إلى داخل الكيس، وأخذت تجذبه مرّة ومرّة تحمله فتقع، ولا زال هذا حالها حتى دخل الليل فظهرت زوبعة عصفت بها وأفاقت لتجد نفسها فوق الجبل الأسود ودخل بها، وقال لها:

- البطن اللي يشبهك آكله واللي يشبهني أخلّيه يعيش مع أجناسه.

وكان في كلّ سنة لها بطن ما إن تلد حتى يكون الغول واقفاً على رأسها، فإذا جاء المولود شبيهاً بأمه التهمه بدمائه.[1]

رواية ليلى مغربل

---

(١) ليس من عادة النص الشعبي ترك نهايات مفتوحة إلا أنّ هذا النص يدخل ضمن النصوص مفتوحة النهايات.

عقاب

بسبب سيلٍ عمّ القرية مات الرجال ولم يتبقّ إلاّ عشرة منهم، وقضى قاضيهم بأن يتزاوجوا بالمحارم ليتكاثروا (سِفاحاً). وتكاثروا وكسبوا ذهباً كثيراً بالتجارة، وظهرت دودة كانت تأكل رؤوسهم فتميت الشخص في الحال.

وبقي واحد هرب إلى مدينة (الحكاية تقول مكة) وعاش بها خمس عشرة سنة ثم عاد إلى قريته ليحصد الذهب وحده، وعندما حصل عليه كانت دودة وحيدة تنتظره، وعندما وضع يده على الذهب أكلت رأسه فمات.

رواية حامدة حمدان

اختلاف الحال

يقال إنّ سيدنا عيسى كان يسير في الطريق فاعترضه قومه وقالوا له:

- كلنا نعبد الله ولا نرتكب ذنباً، فلماذا يوجد بيننا الغني والفقير؟ ولماذا لا نتساوى في كلّ شيء؟

فقال لهم:

- وماذا تريدون؟

فقالوا:

- كما نحن متساوون في العبادة لا بدّ أن نتساوى في حياتنا اليومية ونكون كلنا سواسية، فلا يوجد بيننا فقير ولا ينقص أحد منّا حاجة.

فقال لهم سيدنا عيسى: سوف أكلّم الله في هذا.

وأخبر سيدنا عيسى الله بما يقول قومه - والله عالم بما قالوا - فقال له:

- يا عيسى، سوف أجعلهم متساوين في كلّ شيء ولا ينقص أحدهم شيئاً من الدنيا بشرط أن لا يطلبوا تغيّر حالهم بعد تنفيذ هذا الطلب.

نقل سيدنا عيسى ما قاله الله له لقومه فوافقوا على الشرط، وما هي إلاّ لحظات حتى تساووا في كلّ شيء ولم يعد أحد محتاجاً شيئاً، ولم يعد أحد يثابر من أجل أكله أو شربه أو مسكنه.

ومضى يوم وأسبوع وشهر وسنة. وبعد السنة مرّ عليهم سيدنا عيسى فوجد كلّ واحد منهم حافراً قبراً ومستلقياً على شفى ذلك القبر، فقال لهم:

- ما بكم على هذا الحال؟

فقالوا له:

- لم نعد ننتظر سوى الموت، فكلّ شيء محقّق ومتساوون جميعاً في كلّ شيء، ونحن الآن ننتظر الموت، وهو الحلم الوحيد الذي نتسابق أيّنا يكسبه قبل الآخر.

رواية هاني الجهني

عمر اليتيم

يُحكى أنّ ملكاً تزوج من ابنة عمّه، وكانت متواضعة الجمال وقد عوّضها الله بطيبة قلب متناهية، فكانت تحبّ الناس وتعطف على الفقراء وتعامل الخدم معاملةً حسنة.

وكانت محبّة لزوجها تتفانى في إرضائه، ودرجت على الذهاب إلى سوق النخاسة وشراء الجاريات وتقديمهنّ هديةً لزوجها. وذات يوم عُرضت جارية فائقة الحسن والجمال فاشترتها وهمّت أن تهديها لزوجها الملك إلاّ أنّ إحدى وصيفاتها حذّرتها من ذلك وقالت لها:

- لو أهديت هذه الجارية للملك فسينساك وينسى دولته، والأفضل أن تبقيها بعيدة عن عين الملك.

استمعت الملكة للنصيحة وغيّبت الجارية الحسناء بين خدمها ومنعتها منعاً باتاً من الظهور في أيّ مكان يتواجد فيه الملك.

وقد سمعت الجارية الحسناء قصصاً عن طيبة الملكة وعادتها التي لم تقطعها بشراء الجواري وإهدائهن لزوجها، فاستغربت وقالت لإحدى رفيقاتها:

- إذ كانت الملكة تهدي الجواري للملك، فلماذا ترفض علي الظهور في أيّ مكان يكون الملك موجوداً فيه؟

فقالت لها رفيقتها:

- أنت أجمل امرأة دخلت هذا القصر ولا شك في أنّ الملكة أحسّت بهذا فخافت إن هي أهدتك للملك أن ينساها.

حاولت الجارية الحسناء اعتراض طريق الملك وتمكينه من رؤيتها فلم تفلح محاولاتها، إذ أوكلت الملكة إحدى وصيفاتها بمراقبتها وعدم تمكينها من رؤيته لها.

وكان الملك سعيداً في حياته حتى وقف أمامه أحد المنجمين[1] فسأله عن حكمه فقال له:

- حكمك باقٍ لو حميت ابنك من ابنتك...

وعندما أراد الاستفسار لم يخبره المنجم واعتذر بأنّ ما يراه في النجوم[2] والكواكب لا يبين، وإن قال له:

---

(١) التنجيم ظاهرة قديمة جداً وقد ظهرت مع عبادة الكواكب، وأساس التنجيم ظاهر البطلان، وما انتشر قديماً إلاّ بين الأمم الوثنية التي كانت تقدّس النجوم وتسجد لها، كما قال الله عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (فصلت: ٣٧).
وعن زيد بن خالد (قال: خرجنا مع رسول الله (عام الحديبية فأصابنا مطر ذات ليلة فصلّى بنا رسول الله (الصبح، ثم أقبل فقال: «أتدرون ماذا قال ربكم؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: قال الله عز وجل: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي، فأما من قال: مطرنا برحمة الله وبرزق الله وبفضل الله، فهو مؤمن بي كافر بالكواكب، أما من قال: مطرنا بنجم كذا وكذا فهو مؤمن بالكواكب كافر بي» (رواه البخاري)[2].
وعن محمد بن علي عن أبيه عن علي أنّ رسول الله (قال: «ولا تجالس أصحاب النجوم» (أخرجه أحمد).
ولما تأهّب الخليفة المعتصم لفتح عمورية ظهر المذّنب هالي في السماء فتشاءم الناس منه ونصح المنجّمون الخليفة ألاّ يخرج للحرب، إلاّ أنه تذكّر أحاديث رسول الله (وخرج للحرب وانتصر.
وفى ذلك قول أبي تمام:

السيف أصدق أنباءً من الكتب ... فى حدّه الحدُّ بين الجد واللعب

(الموسوعة الفهمية، المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية بمصر).

(٢) إنّ كتلة النجوم الدقيقة التي تشبه الضباب وتظهر بعد منتصف الليل سمّيت بنات نعش لأنها تحمل نعش أخيها المقتول منذ الأزل وتدور باحثةً عن قاتله، وطوافها في السماء دائم أبدي، وتمثل لدى بعضهم أنها إلهة أخرى، لأنها تتبدّى للإنسان في أوقات محددة فيقدّسها ويحزن لهدوئها وحملها هذه الكتلة التي تشبه النعش.
وفي الأسطورة الفرعونية نجد أنّ صراعاً يحدث بين الآلهة يُقتل على أثره أوزيريس، فتقوم زوجته بالبحث عنه حتى تجده، فتحمل أجزاء جثته زمناً طويلاً، ثم تدفنها، وبعدها تنتصر على سيث قاتل أخيها وزوجها. وتطوافها باعتبارها إلهة يكون بين السماء والأرض. (محمد توفيق السهلي وحسن الباش: المعتقدات الشعبية في التراث العربي، دار الجيل، ص ٣٣).

- لو رزقت بنتاً فحذّرها من صيد طيور النخيل.

تكدّر الملك من هذه النبوءة، وعندما رأته زوجته على هذه الحال استفسرت عن سبب كدره فقصّ عليها ما قاله المنجم فهوّنت عليه وقالت له: كذب المنجمون ولو صدقوا.

ومضت الأيام والملك يتقلّب من نعيم إلى نعيم، وقد نسي نبوءة المنجم واهتم بشؤون مملكته.

وذات يوم انقلب القصر بالغادين والآتين لمباركة وتهنئة السلطان بقدوم مولوده الأول، وقد وجدت الجارية الحسناء مدخلاً إلى قلب الملكة، فقد تفانت في خدمتها في فترة الحمل وأخذت منها عهداً أن تكون مربية للمولود سواء كان ذكراً أو أنثى.

وعرفت نساء القصر أنّ الجارية الحسناء ستكون مربية ولي العهد فحسدوها على هذه المكانة وحاولوا ثني الملكة كي تتراجع عن قرارها، إلاّ أنها قالت:

- لقد وعدتها ولن أحنث بقسمي لها.

أبدت الجارية الحسناء العناية الكاملة بالمولود وكانت تتوق لمقدم الملك لتحمل المولود إلى أمه من أجل الرضاع. وذات يوم رآها الملك ففتن بها وسأل عنها فقيل له: هي من أملاك الملكة.

دخل الملك على الملكة للسلام عليها بوجهٍ متغير وروحٍ متقلّبة، فاستغربت تصرّفه وسألته:

- ما الذي يكدّر خاطر الملك؟

فقال لها: لم أكن أتصوّر أن تخفي عني شيئاً وأنت من أنت؟

فقالت له: لم أخفِ عنك شيئاً منذ أن عرفتك فلماذا تقول هذا القول؟

فردّ عليها: والجارية التي تربّي ابننا؟

فأحسّت بأنّ الملك تعلّق بجاريتها الحسناء، وكي لا تزيد من عتابه قالت له:

- تعلم أنّي أهديك كلّ جارية أشتريها، وهذه أردتها أن تربّي ابننا، فإن أردتها أهديتك إياها.

انبسطت أسارير الملك وقال لها: نعم أريدها.

لم تجد الملكة مناصاً من إبعاد الجارية الحسناء عن الملك فوهبتها له، فجُنّ

بها جنوناً وانشغل بالجلوس والحديث مع الجارية حتى نسي ما حوله، ولم يعد يسمع أو يرى سوى تلك الجارية التي عرفت كيف تسوسه وتوصله إلى اتّخاذ القرارات التي ترضيها من غير أن تطلب ذلك صراحةً، ولا زالت تُكرّهه باقترانه بزوجته القليلة الجمال والدهاء وتظهر استغراباً كيف لملك أن يقترن بامرأة ليس لها من مواصفات الأنوثة شيء، وكلّما دفع عن نفسه تهمة الغفلة بالزواج من الملكة لكونها ابنة ملك وأخت ملك وأصبحت زوجة ملك، تقول له:

- المرأة ملكة في ذاتها حين تمتلك الأنوثة والعقل الراجح.

ثم انتقلت إلى تحقير مولودها وقالت للملك بعد أن امتدحته ودعت له بالعمر المديد:

- لقد أنجبت لك طفلاً تشير ملامحه إلى أنه سيكون غبياً وسيضيّع ملكك وملك آبائك.

ولا زالت به حتى كره زوجته وابنه كرهاً مقيتاً فلم يعد يسأل عنهما أو يهتم لأمرهما، وكلما أقبل على الخادمة الحسناء جذبته إليها من غير أن تروي ظمأه، فلم يطق بعداً عنها وقرّر الزواج بها، فأعتقها وأعلن زواجه منها ومنحها لقب الملكة.

وأشارت عليه أن يتخلّص من زوجته وابنه لكونهما يقللان من مكانته وأظهرت خشيتها من أن يكبر ابنه وتظهر عليه علامات الغباء والعته فتلصق التهمة به.

بعد محاولات عديدة نجحت في انتزاع أمر ملكي بإيكال مهمة التخلّص من الملكة وابنها إليها، فأشاعت خبراً بأنّ الملكة وابنها مصابان بداءٍ خطيرٍ مُعدٍ سيقضي على كلّ المدينة، ولذلك قرّر الملك تغييبهما في مكان لا يعلمه أحد.

انتشر الخبر في كلّ المملكة وأسف الناس لحال الملكة وطفلها الصغير، ومع اختفائهما لم يعد أحد يذكرهما.

أما الجارية الحسناء فقد استدعت أحد خدمها وأمرته بتقييد الملكة وحملها مع طفلها وقتلهما وموارة جثتيهما، وقالت له:

- عليك أن تظل سائراً إلى أن تسمع جملة «اشتهيت دم الملوك»، وفي هذا المكان تقتلهما وتقول: هذه هدية ملكة الإنس والجان.

أبدى العبد السمع والطاعة وقام بجرّ الملكة في قيدها وحمل الوليد على كتفه ومضى في طريق يوصل إلى البرية، وكلّما همّ بقتل الملكة وابنها تذكر وصية الجارية

الحسناء (الملكة الجديدة): لا تقتلهما إلاّ حين تسمع مقولة: اشتهيت دم الملوك.

وكانت الملكة ترجوه أن يعتقها وابنها وتُمنّيه بأن تهب له مالاً يغنيه مدى الدهر، لكنّه كان يسكتها دائماً ويضربها بقسوة قائلاً:

- اسكتي حتى أسمع إشارة مقتلك.

ومازال يجرّ الملكة إلى أن وصل خارج المدينة وقد اتّسع الخلاء على مدّ البصر وليس هناك إلاّ نخلة وافرة الرطب، فرغب في الجلوس تحتها وأخذ قسطٍ من الراحة، وظلّ في مكانه إلى أن دخل الليل فإذا بهاتف يردّد:

- اشتهيت دم الملوك...

فنهض العبد واستلّ سيفه ودار حول الملكة وهو يردّد:

- هذه هدية من ملكة الإنس والجان...

ثم رفع سيفه من غير أن ينصت لاسترحام الملكة وهوى بسيفه على رقبتها فشخب دمها وتطاير ووقع في عيني العبد الذي أخذ يصيح ويدور في مكانه ثم انطلق يركض من غير هدى، وبقي الطفل الصغير قابعاً بجوار جثة أمه بينما كان القمر يرسل أشعته صافية مضيئة.

وفي الحال اختفت جثّة الملكة إذ كان هناك جنيّ يلتهم جثث الموتى من الملوك ولا يقدر على التهام الأحياء منهم. وكان هذا الجني هو أب للجارية الحسناء التي خرجت من سابع أرض لتحقّق نبوءته في أن تصبح ملكة الإنس والجان.

رابط الجني بجوار النخلة منتظراً موت الطفل كي يلتهمه إلاّ أنّ تساقط الرُّطب من النخلة أسعف الطفل، فكان يمدّ يده ويتناول حبات الرّطب ويمصّها، بينما بقيت أشعة القمر مضيئة تمنع ظهور الجني.

مضت أيام شبّ فيها الطفل وغدا صبيّاً لا يعرف من الدنيا إلاّ النخلة وضوء القمر. وذات يوم مرّ به مسافر فزوّده بالرّطب، وكان اسم المسافر عمر، ولم يكن الصبي يعرف له اسماً فاختار أن يكون اسمه كاسم المسافر الذي عبر به، وكلّما مرّ به أحد وسأله عن حاله أجاب:

أنا عمر اليتيم

أبويه النخلة

وأمي القمر

أما ما كان من أمر الجارية الحسناء، فقد نودي بها ملكةً على البلاد وأصبحت هي المتحكّمة والمنفّذة لشؤون البلاد، وقد ارتضى الملك أن يبقى ظلاً لأوامرها ولم يتدخل في نقض أي أمر تصدره حتى حين أعلنت الحروب على بلدان كثيرة رغبةً منها في أن تصبح ملكة الإنس والجان... فكان يسمع لها ويرسل جيوشه شمالاً وجنوباً وإخضاع الدول لملكه.

وفي هذه الأثناء حملت الجارية الحسناء وأنجبت طفلة رائعة الحسن والجمال كانت سلوى أبيها، يمضي الوقت معها يلاعبها ويداعبها حتى كبرت وهي لا تعرف من الحياة إلاّ النعيم والدلال.

وكانت تسمع أباها دائماً يقول لها:

- حذاري يا بنتي أن تصطادي طيور النخيل!

فكانت تضحك من قوله وتردّ عليه:

- لم أصطد في حياتي طيراً فلماذا تحذرني؟

فيردّ عليها: هذه وصيتي لك.

وذات يوم خرجت تتنزّه مع بعض خدمها واعترتها رغبة ملحّة أن تتعلّم صيد الطيور وأخبرت أمها برغبتها فوعدتها أن تخرج معها.

وتمّ تجهيز أدوات الصيد وخرجت الجارية الحسناء وابنتها وبعض الخدم، وعند مشارف المدينة نصب الخدم الخيام وجهّزوا أدوات الصيد للأميرة التي رغبت في التنقّل بمفردها من غير حرس، فسمحت لها أمها بالتنقّل، وأمرت الخدم بمراقبتها من غير أن تشعر.

خرجت الأميرة حاملةً قوسها ونبلها باحثةً عمّا يمكن صيده، فإذا بها تصادف شابّاً يجلس أسفل نخلةٍ ويتناول حبّات من الرّطب، ودُهشت للشبه القريب بينها وبينه، فسلّمت عليه وسألته عمّن يكون فردّ عليها:

أنا عمر اليتيم
أبويه النخلة
وأمي القمر

عادت الأميرة وأخبرت أمها عن ذلك الشاب، ولم تكن الجارية الحسناء مهتمة لولا أنّ هاتفاً استمعت إليه (وكان صوت أبيها):

خادمك المملوك
حرمني من دم الملوك
وعمر تحرسه نخلة
وقمر ظاهر مصكوك

عند سماعها الهاتف أصابها الغضب وطلبت من ابنتها أن تذهب إلى خيمةٍ أخرى، وما إن غادرتها حتى زاد هياجها وغضبها وأخذت تلعن الخادم الذي لم ينفّذ أمرها بقتل ابن الملك، وتبدّلت حالتها إلى إعصار قلب الأتربة من أول الأرض لآخرها، فلم يعد أحد قادراً على الرؤية، وغارت إلى باطن الأرض فوجدت أباها حزيناً وأخبرها بخبر سلامة ابن الملك بسبب غباء الخادم الذي لم يقتله، وأوصاها بالتخلّص منه قبل أن يفسد ملكها.

ومع فوران الأتربة احتمى عمر بالنخلة التى أرخت عليه سعفها وهي تضحك وتداعب شعر عمر، وقالت له:

- حان موعد عودتك للملك يا عمر.

وحكت له قصة الجارية الحسناء وكيف قتلت أمه، وأوصته أن يستعدّ للعودة إلى ملكه.

أما الجارية الحسناء فقد أولم لها أبوها وليمة حضرها كبار الجنّ، وكانت مائدتهم جثثاً أُخرجت من مقبرة المدينة، وبعد انتهاء الطعام خاطبها أبوها:

- لو لم تستمرّ المعارك ويموت الناس فلن يكون لنا بقاء. . . وأنت إلى الآن لم تملكي كلّ البلاد، والخوف أن تتحقّق النبوءة بعودة ابن الملك.

فقالت له: نفذ في المرّة الأولى لكنه لن ينفذ هذه المرة.

فردّ عليها أبوها: لن تستطيعي فعل أي شيء إلاّ حين يبتعد عن النخلة وضوء القمر.

فقالت له: سأتدبّر الأمر.

وقبّلت يديه ووعدته بسرعة التخلّص منه، وصعدت إلى سطح الأرض على هيئة امرأة عجوز، ووقفت أمام عمر سائلةً:

- مَن تكون يا فتى؟

فرد عليها:

أنا عمر اليتيم
أبويه النخلة
وأمي القمر
فسألته: منذ متى وأنت هنا؟
قال: من أول الزمان.
قالت له:
- هل أجد عندك رطباً؟
فرحّب عمر بها وقال لها:
- إن رغبتِ في الرطب أو البلح فأبي لديه الكثير.
فقالت له: نعم يا ابني، نفسي تاقت للبلح ونخلتك ليس بها عذوق، وأنت تعرف في أنواعه وأريد منك أن تصحبني إلى نخلةٍ قريبة (وأشارت بيده إلى الجهة الأخرى) وتنزل لي من بلحها.
كانت النخلة تسمع حوارهما فأخرجت عذوقها وأسقطت بلحها، فتناول عمر من تلك الحبات المتساقطة وقدّمها للعجوز، فتناولتها وقالت له:
- لا أريد من هذا البلح بل أريد من النخلة الأخرى.
فقال عمر: لا توجد نخلة في هذا المكان إلاّ أبي (النخلة).
فقالت له: أنا مريضة وقد وُصف لي تناول بلح في الليل.
فقال لها: خذي هذا البلح وتناوليه في الليل.
فقالت له: شرط الشفاء أن أتناوله من النخلة ليلاً.
فقال لها: انتظري حتى يحين الليل.
فقالت له: سأعود إليك ليلاً.
وكان مخططها أن تقتله بيد أخته، فقد أخبرها أبوها «أنّ الملوك لا يقتلهم إلا ملوك»، فعادت إلى الخيام ونادت على ابنتها وأخبرتها أنّها رأت طائراً ليس له شبيه وتمنّت عليها أن تصطاده بنبلها.
فقالت لها ابنتها: سأفعل حالما أراه.
فقالت لها: رأيته البارحة وسأدلّك على مكانه هذه الليلة.
عندما دخل الليل قادت ابنتها إلى مكان أخيها عمر الذي يصعد ليلاً إلى أعلى

النخلة ليبيت هناك بعيداً عن الزواحف والهوام. نظرت الأميرة فرأت طائراً لم ترَ له شبيهاً طوال حياتها وتمنّت لو أنها تمتلكه، وسمعت أمها تقول لها:

- لو صدتي هذا الطائر ستملكين الدنيا بأسرها.

فوضعت سهماً في قوسها وهمّت بالرمي لكنّها تذكّرت وصية أبيها الدائمة:

- حذاري يا بنتي أن تصطادي طيور النخيل!

فوقفت وأنزلت قوسها، فغضبت منها أمها وقالت لها:

- صوّبي قوسك.

فردت الاميرة: لكنّ أبي حذّرني من صيد طيور النخيل.

غضبت أمها وجذبت القوس وهمّت بالتصويب لولا أنّ ضوء القمر جاء كاشفاً المكان فأصابتها رعشة وكاد الضوء يحرقها، فابتعدت سريعاً... وتركت ابنتها في مكانها.

تفاجأت الأميرة أنّ الذي كان بين سعف النخل لم يكن إلاّ عمر اليتيم، فسألته:

- أنت الذي كنت بأعلى سعف النخل؟

فقال لها: نعم، أنا في الليل أتحوّل إلى طائر.

فعجبت لأمره وطلبت منه مرافقتها فوافق وسحب من جوف النخلة سيفاً وعرّضه لضوء القمر ولم يغادر حتى سمع من النخلة قولها:

- لا تترك الأميرة والزم الحذر

ولا تسل سيفك إلاّ عند الخطر.

مضى مع الأميرة إلى الخيام فرحّبت به الملكة الحسناء وقالت في نفسها: «جاء بقدميه وسأقتله حالما نصل إلى القصر» وعندما وصل إلى القصر انفردت به وقالت له:

- سأخبرك بسرّ وأريدك أن تنقذ مملكة زوجي وابنتي.

فشكرها على حسن ثقتها به وأصغى إلى ما تقول، فقالت له:

- إنّ جاناً قتل زوجي وتلبّس صورته وأريد منك قتله.

أظهر عمر تصديقه التام لما تقوله قاتلة أمه والراغبة في قتل أبيه، وطلب منها إيصاله إلى غرفة ذلك الجان وتركه يتصرّف. فأدخلته مخدع الملك وقالت له:

- إن قتلته زوّجتك ابنتي وجعلتك ملكاً على البلاد.

فأظهر فرحاً عظيماً واختبأ داخل مخدع السلطان حتى إذا لم يعد أحد هناك أخذ يغنّي غناءً حزيناً ذاكراً أمه ومقتلها ونجاته من القتل.

استيقظ الملك على ذلك الغناء الحزين، وظلّ منصتاً حتى سمع الحكاية كاملة، وعندما أراد النهوض لم يستطع، وبزغت الملكة صائحةً بعمر:

- اقتله وتزوّج بالأميرة وأنادي بك ملكاً.

فسلّ عمر سيفه وخاطب الملكة:

أنا عمر اليتيم

أبي النخلة

وأمي القمر

والقاتل مقتول لا مفرّ

وهوى بسيفه على الملكة فارتدّ السيف وصاحت به: ثنّي ضربتك.

فردّ عليها: لا أثني أبداً.

فانتفضت الملكة وخارت قواها وصبغ المكان أبخرة ودخان... وسحبت جثّة الملكة وغابت خلف ذلك الدخان.

نهض الملك معانقاً ابنه ومعتذراً له عمّا حدث له ولأمّه ووعده أن يصلح الوضع.

وفي اليوم التالي نادى الملك بابنه عمر وليّاً للعهد وفرحت أخته بنجاته وسلامة أبيها وعاش الجميع في خير وسلام بعد أن أعلن عمر إنهاء الحروب التي شنّتها زوجة أبيه على بقية البلدان وعاش الجميع في سلام وأمان.

رواية حنان الجهني

محمد يرث ومحمد لا يرث ومحمد يرث[1]

يُحكى أنّ رجلاً اشتهر، إلى جانب ثروته وتجارته، بالفطنة والذكاء والفراسة، وكان لديه ابن قد أسماه عليّاً وأخذ يُعدّه لأن يكون خلفاً له في تجارته وفطنته. وكانت تجارته تقتضي منه السفر الدائم، ولتغيّبه ترك خادماً يخدم زوجته وابنه، وكان الخادم خسيس الطبع يتعقّب عورة عمّته من غير أن تعلم به، وظلّ على عادته تلك حتى لم يعد يفكّر في شيء كما يفكّر في الوصول إليها، وكان متأكداً لو أنّه فاتحها أو لمّح لها فسوف تنزل به عقوبة قد تصل إلى قتله، فأخذ يفكّر في حيلة يصل بها إلى غرضه.

وكانت هناك امرأة عجوز برعت في تزيين العرائس وتحويل الدميمة إلى فتاة جميلة، فجاءها الخادم وقال لها:

- أرجوك أن تساعديني، فعمّي كما تعلمين مسافر، وقد جاء أحد التجار إلى بيته لردّ دين كبير، وإن لم يجده فسوف يسافر بالمال من غير أن يتركه، وبهذا يُخسر عمي أمواله.

فقالت المرأة العجوز: وكيف أساعدك؟

فقال لها: زيّني وجهي بحيث أكون شبهاً بعمي طبق الأصل وسوف أخبره عندما يعود بصنيعك هذا.

---

(١) أوردت قصة مختصرة لهذه القصة في قالت عجيبية أساطير من جنوب الجزيرة بعنوان علي يرث وعلي لا يرث، وكانت الحكاية هناك منتصرة لبطل القصة من غير إيضاح كيفية فكّ شفرة لغز الحكاية، بينما هنا نجد حلاً لكلّ الألغاز.

قامت المرأة العجوز وأجلست الخادم أمامها وأحضرت أصباغها وفرشها وعدّلت من سحنة الخادم حتى يظنّ من يراه أنه التاجر المشهور بعينه، ثم ودّعته وأوصته بإنجاز مهمّته بأسرع ما يمكن قبل تحوّل الأصباغ وذوبانها. فركض إلى بيت عمه، وما إن رأته الزوجة حتى أقبلت عليه مرحّبةً ومقبلة، فدعاها للانفراد بها، ونال منها مبتغاه وغادر البيت على الفور، فقد سمع جلجلة حصان عمّه وعرف أنّه قدم، وكان يتمنى أن لا يحضر قبل استمتاعه بعمّته لأيام مقبلة.

هرب الخادم من جهة مغايرة لدخول عمّه، وقد صُدم التاجر لمقابلة زوجته البارد، وتقبّل سؤالها ببرودٍ مشابه:

- لقد أطلت هذه المرّة؟

فقال لها: كان البلد الذي قصدته بعيداً.

فقالت له: لم أقصد سفرتك... بل قصدت مكوثك معي.

فلم يفهم ما تقصد، فدخل الحمام وتخلّص من آثار السفر ودعاها إلى المخدع، فتضاحكت وقالت له:

- لم تعوّدني الإتيان مرتين في الليلة الواحدة.

وقع قولها عليه كالصاعقة، وعلم أنّ زوجته قد أُخذت على حين غرّة، فسألها:

- وهل جئتك غير هذه الليلة.

فضحكت حتى طفر دمعها وقالت له:

- كيف تجيئني وأنت غائب.

فعلم بفطنته أنّ الفاعل أقدم على فعلته في هذه الليلة دون غيرها، وتأكّد من ذلك حين زارتهما العجوز (المزيّنة) وأخبرت التاجر بقصّة خادمه، فعرف خصمه وأخذ يبحث عنه فلم يعثر له على أثر، فكتم غضبه في صدره ولم يخبر زوجته، واعتزلها وهي لا تعرف سبباً لهجرانه حتى عندما جاءت تبشّره بأنها حامل اكفهرّ وجهه وطلب منها أن تغادره. فكانت تتعجّب من سلوكه وهجرانه، فصبرت على ما تجده من قسوة وتجاهل، وعندما بُشّر بأنّ زوجته أنجبت صبياً احتار في أمر أن ينسبه إليه أم يرفض فيقع في فضيحة سيعلم بها القاصي والداني، فكتم على غضبه وصمت، وقد تبرّعت مولّدة زوجته بتسمية الطفل باسم محمد تيمّناً بأخيه الأكبر.

وقرر التاجر أن يتزوّج بامرأةٍ أخرى كي لا يظلّ على وساوسه وكي يسدّ

احتياجه للنساء، فتزوّج بامرأةٍ أنجبت له ابناً أسماه محمداً أيضاً، وظلّ يدير تجارته ومن حوله ابناه وابن الخادم، ولم يشأ أن يفرّق بينهما في المعاملة كي لا يتنبّه أحد فيتّهمه بالظلم. وعندما مرض واشتدّ عليه المرض قرر أن يكتب وصيته بطريقة تُخرج محمداً ابن الخادم من الورثة، فكتب وصيته بالترتيب:

أولاً (محمد يرث ومحمد لا يرث ومحمد يرث)

ثانياً (محمد لا يرث ومحمد يرث ومحمد يرث)

ثالثاً (محمد يرث ومحمد يرث ومحمد لا يرث)

وقد أوصاهم أن لا يفتحوا وصيته إلاّ بعد دفنه بثلاثة أيام، وإن لم يستيطعوا فهم وصيته فليقصدوا القاضي العارف صاحب الصخرة[1]. وبعد انتهاء الأيام الثلاثة قرأ الأخوة الثلاثة معاً وصية والدهم ووقعوا في حيرة من أمرهم لأنهم لم يعرفوا من هو الذي لا يرث منهم، لاسيّما أنّ محمد الذي لا يرث جاء في أولاً (الثاني)؛ وجاء في ثانياً (الأول)؛ وجاء في ثالثاً (الثالث). وبعد المشورة وتداول الرأي أجمع الإخوة الثلاثة على الذهاب إلى القاضي الذي أشار إليهم أبوهم بالتوجّه إليه إن أشكل عليهم أمر الوصية، فعزموا على السفر، وفي الطريق وجدوا (أثر) جملٍ سار قبلهم في الطريق الذي هم سائرون فيه، فقال محمد الأول:

- هل تعلمون أنّ هذا الجمل أعور.

وقال محمد الثاني:

- وهل تعلمون أنّ الجمل مبتور الذيل.

وقال محمد الثالث:

- وهل تعلمون أنّ حمولة هذا الجمل من جانب تمر ومن الجانب الآخر خلّ.

وبينما هم سائرون في الطريق قابلهم رجل يبحث عن الجمل الذي وجدوا أثره في الطريق وسألهم:

---

(١) في هذه القصة يسمى القاضي قاضي الصخرة، وفي القصة الأساسية التي أوردها ابن السائب الكلبي اسم القاضي هو الأفعى بن الحصين الجرهمي، وفي قصة (علي لا يرث وعلي يرث) سمّت الحكاية القاضي بحمود بن منصور، ويتكرّر هذا الاسم في الحكايات الجنوبية بكثرة، وقد أخبرني أحد المسنّين أنّ له وجوداً واقعياً في الحياة لكن لم يؤكّد أين كان وجوده وفي أيّ زمن وافق.

- هل رأيتم جملاً على طريقكم؟
فقال محمد الأول: هل جملك أعور؟
قال الرجل: نعم.
وقال محمد الثاني: هل جملك مبتور الذيل؟
فقال الرجل: نعم.
وقال محمد الثالث: هل جملك حمولته من جانب تمر ومن الجانب الآخر خل؟
فقال الرجل: نعم.
ظنّ الرجل أنهم قد رأوا جمله في مكانٍ ما لأنّهم وصفوه وصفاً دقيقاً، ففرح وقال:
- هل رأيتموه؟
فقالوا: لا لم نره.
تفاجأ الرجل، كيف لم يروه وقد وصفوه بدقة! فقال لهم:
- أنتم سرقتم جملي وإلاّ كيف عرفتم أوصافه؟
فقالوا:
- لا والله لم نسرقه.
فقال لهم الرجل:
- لن أدعكم تذهبوا حتى تعيدوا إليّ جملي أو تخبروني أين رأيتموه أو أقاضيكم عند القاضي صاحب الصخرة.
فقالوا:
- نحن ذاهبون إليه لنتقاضى عنده، فتعال معنا لنتقاضى نحن وإياك عنده.
ذهبوا جميعاً إلى القاضي، وعندما وصلوا إلى القاضي وشرح الرجل صاحب الجمل للقاضي القصة كاملة، سألهم القاضي:
- هل تعرفون شيئاً عن جمل هذا الرجل؟
قالوا:
- لا والله لم نر جمله.
قال لهم القاضي:

- وكيف وصفتم الجمل وأنتم لم تروه؟

قالوا:

- وجدنا أثره في الطريق ومن أثره عرفنا أوصافه.

سأل القاضي محمد الأول:

- كيف عرفت أنّ الجمل أعور؟

فقال:

- عرفت ذلك لأنّ الجمل الذي وجدنا أثره كان يأكل من النباتات والأشجار التي على جانب واحد ولم يأكل من النباتات والأشجار التي على الجانب الآخر لأنه لم يرها.

وسأل القاضي محمد الثاني:

- كيف عرفت أنّ الجمل مبتور الذيل؟

فقال:

- عرفت ذلك لأنّ الجمل الذي وجدنا أثره برك ليلته في الطريق وبعر (تروّث) وقام وروثه مكوّم على بعضه، ومعروف أنّ الجمل دائماً يحرّك ذيله لطرد الذباب والحشرات، وأثناء تحريك ذيله يفرّق وينثر روثه، ومن هذا عرفت أنّ الجمل مبتور الذيل.

وسأل القاضي محمد الثالث:

- كيف عرفت أنّ الجمل حمله من جانب تمر ومن الجانب الآخر خل؟

فقال:

- عرفت ذلك لأنّ الجمل الذي وجدنا أثره برك وبات في الطريق وقام وذهب، ووجدت الذباب تجمّع على جانب من مبرك الجمل ولم يتجمّع على الجانب الآخر، والمعروف أنّ التمر ينزل دبساً والذباب يتجمّع على الدبس والحلو ويبتعد عن الخل والحامض.

فقال القاضي للرجل:

- لا علاقة لهؤلاء الرجال بجملك. اذهب وابحث عن جملك.

وبعد انتهاء قضية الجمل وصاحب الجمل سأل القاضي الإخوة الثلاثة عن قضيتهم فقصّوا عليه قضيتهم. وعرف القاضي من مضمون الوصية أنّ أحد الثلاثة

ليس ابناً لهذا الشيخ، أي ابن سفاح، ولا بدّ من عمل شيء لمعرفة من منهم هو ابن الزنا. فقال لهم القاضي:

- اذهبوا الآن وارتاحوا فأنتم متعبون من السفر الطويل، وبعدما ترتاحون في ضيافتي لمدة ثلاثة أيام ننظر في قضيتكم.

ثم ذهب القاضي واشترى خروفاً وجاء به وأمر خادمته أن تعدّ للثلاثة الغداء وأمر خادماً آخر أن يراقبهم ويتنصّت عليهم ويستمع إلى كلّ ما يقولونه أثناء تناولهم الغداء. وفي أثناء الغداء قال محمد الأول:

- إنّ المرأة التي عجنت خبز الغداء حائض.

وقال محمد الثاني:

- إنّ مضيفنا القاضي ابن زنا.

وقال محمد الثالث:

- إنّ هذا اللحم الذي نتناوله لحم كلب.

كان الخادم الذي كُلِّف بمراقبتهم قد سمع كل شيء قاله الثلاثة. وفي اليوم الثاني سأل القاضي الخادم عن الذي حدث أثناء مراقبته الإخوة الثلاثة، فقال الخادم:

- إنّ أحدهم قال إنّ المرأة التي عجنت خبز الغداء حائض.

ذهب القاضي إلى تلك المرأة وسألها ما إذا كانت حائضاً أم لا، فأجابته أنّها في الدورة الشهرية. فتفاجأ القاضي، كيف عرف محمد الأول أنّ المرأة حائض وهو لم يرها أبداً!!! ثم رجع إلى الخادم وقال:

- ماذا قال محمد الثاني؟

فقال الخادم:

- محمد الثاني لم يقل شيئاً.

فشكّ القاضي بالخادم لأنه رأى على وجه الخادم علامات ارتباك واضحة المعالم، فأصرّ على الخادم أن يقول الحقيقة، وبعد إنكار طويل من الخادم قال للقاضي:

- إنّ محمداً الثاني قال مضيفنا القاضي ابن زنا.

صُدم القاضي وانهار ممّا قاله محمد الثاني. وبعد تفكير طويل قرر أن يذهب

إلى أمه ليسألها عن والده الحقيقي، وسأل القاضي أمه عن أبيه الحقيقي، وفي بداية الأمر تفاجأت الأم من سؤال ابنها وأجابته وهي تخفي الحقيقة، وقالت:

- أنت ابن أبوك وهو الذي تحمل اسمه الآن.

إلاّ أنّ القاضي كان شديد الذكاء فشكّ في قول أمه وكرّر لها السؤال، إلاّ أنّ الأم لم تغيّر إجابتها، وبعد بكاءٍ طويل من الطرفين وإصرارٍ أكبر من القاضي في سبيل معرفة الحقيقة خضعت الأم لرغبات ابنها وقالت له إنّ أباه كان رجلاً فاضلاً وقاضياً وعرّافاً إلاّ أنه كان عقيماً وأنّ القاضي هو ابن رجل آخر كان قد زنا بها. . .

أُصيب القاضي بصدمةٍ عنيفة، كيف يكون ابن زنا؟ وكيف لم يعرف ذلك من قبل؟ والسؤال الأصعب: كيف عرف محمد الثاني ذلك؟

ثم سأل القاضي الخادم:

- وماذا قال محمد الثالث؟

قال الخادم:

- محمد الثالث قال إنّ اللحم الذي أكلوه على الغداء كان لحم كلب وليس لحم خروف.

ذهب القاضي إلى الرجل الذي اشترى منه الخروف، وقال له:

- ما هو السر الذي وراء الخروف الذي بعته لي بالأمس؟

فقال البائع:

- لا سرّ وراء ذلك الخروف.

فقال القاضي:

- بلى وراء ذلك الخروف سرّ ولا بدّ أن تخبرني به.

فقال بائع الخروف:

- كل ما في الأمر أنّ أم الخروف ماتت بعدما وضعته ورضع من كلبة كانت عندي مات جراؤها حتى كبر.

استغرب القاضي كيف عرف محمد الثالث أنّ اللحم الذي أكلوه كان لحم كلب وهو لم يرَ الذبيحة إلاّ لحماً مطبوخاً على الغداء. وبعد ذلك رجع القاضي إلى الخادم وفي رأسه تدور تساؤلات عدة، فسأله إن كان الإخوة قد قالوا شيئاً آخر، فقال الخادم:

- لا لم يقولوا شيئاً.

بعد ذلك جمع القاضي الإخوة الثلاثة لينظر في قضية الوصية. فقال لمحمد الأول:

- كيف عرفت أنّ المرأة التي عجنت خبز الغداء كانت حائضاً؟

فقال محمد الأول:

- لأنّ الخبز الذي قُدّم على الغداء كان يوجد به بعض الدقيق لم يعجن جيداً أثناء العجن، ومن المعروف أنّ المرأة أثناء فترة الحيض تُصاب بآلام وتخور قواها، ومن خلال ذلك عرفت أنّ المرأة كانت حائضاً.

ثم سأل القاضي محمد الثاني قائلاً:

- كيف عرفت أنني ابن زنا؟ وكان القاضي ينتظر هذه اللحظة بلهفة.

فقال محمد الثاني:

- لأنك أرسلت شخصاً يتجسّس علينا ويسترقّ السمع، وفي العادة تكون هذه الصفة من صفات أبناء الزناة.

ثم سأل القاضي محمد الثالث قائلاً:

كيف عرفت أنّ اللحم الذي قُدّم لكم على الغداء كان لحم كلب؟

فقال محمد الثالث:

- إنّ لحم الضأن والماعز والإبل والبقر قليلة الألياف ولحم الكلب كثير الألياف، حيث توجد الألياف بلحم الكلب تشبه الشعر والخيوط، وهو ما وجد باللحم الذي قدّم لنا على الغداء، وبذلك عرفت أنّ اللحم الذي قدّم لنا لحم كلب.

حينها عرف القاضي أنّ محمد الثاني هو ابن زنا، وهو الذي لا يرث من الإخوة الثلاثة لأنه لا يعرف ابن الزنا إلاّ ابن الزنا. لكنّ القاضي أراد أن يتأكّد أكثر قبل أن يصدر حكمه النهائي، فقال لإحدى جواريه:

- اليوم الإخوة الثلاثة سيوردون خيلهم على عين الماء، وأريدك أن تأخذي لك لبستين من الملابس وتسبقينهم إلى العين وتضعين لبسة من الملابس على حافة العين، وعندما يقترب الإخوة تنزلين الماء وأنت لابسة اللبسة الثانية، وعندما يطلّون عليك صيحي فيهم: «تكفون يالنشاما إنني أغتسل بالعين وملابسي على حافة العين

فارجعوا وراءكم حتى أتمكن من ارتداء ملابسي»، وراقبي تصرّفات وأفعال وأقوال كلّ واحد منهم.

وبعد أن ذهبت الجارية إلى العين ذهب القاضي للأخوة الثلاثة وقال لهم:

- إنّ الرجل الذي كان يورد خيلهم في الأيام الماضية ذهب في شأنٍ يخصّه ولم يعد، فعليكم أن توردوا خيلكم لعين الماء هذا اليوم.

فأجابوه:

- بكلّ سرور، منها نسقي خيلنا ومنها نتعّرف على بعض دياركم.

وقام الإخوة وسرجوا خيلهم وامتطوا ظهورها واتّجهوا لعين الماء. وعندما أشرفوا على عين الماء كانت الجارية قد نزلت في ماء العين ورأوا رأسها ووجهها وصاحت فيهم الجارية: «أيها الفوارس، لجأت للاغتسال بالعين قبل مقدمكم وملابسي على حافة العين فارجعوا وراءكم حتى أتمكّن من ارتداء ملابسي وعودوا لتسقوا خيلكم. . .» وهي تراقب تصرفات كل منهم وتستمع لما يقول. فما كان من محمد الأول ومحمد الثالث إلاّ أن أشاحا بوجهيهما وصرفا نظريهما عن الجارية وبدآ بالتراجع إلى الخلف، أما محمد الثاني فقد أمعن النظر إلى الجارية وهمّ بالتقدم نحوها ليرى منها أكثر ممّا يراه، لكنّ محمد الأول ومحمد الثالث زجراه ومنعاه من ذلك وأبعداه بالقوة. وبعد أن ابتعد الإخوة عن ماء العين طلعت الجارية وأخذت الملابس التي على حافت العين ورجعت إلى الحي وأخبرت القاضي بتفاصيل كلّ ما حدث من الإخوة الثلاثة. حينها ثبت لدى القاضي أنّ محمد الثاني ابن زنا، وهو الذي لا يرث.

بعد عودة الثلاثة من العين اجتمع القاضي بهم ونطق القاضي بالحكم قائلاً:

- يا محمد الثاني أنت الذي لا ترث من بين الثلاثة لأنك ابن زنا.[1]

الراوي سليمان أبو ستين

---

(١) يعود أصل هذه الحكاية إلى حكاية أوردها ابن السائب الكلبي قال فيها:
كان لأحد العرب من أبناء عدنان بن إسماعيل عليه السلام أربعة أولاد، وهم آباء لأربع قبائل من القبائل العدنانية (المستعربة). اشتدّ عليه المرض فطلب منه أولاده قبل مماته أن يقسّم بينهم الميراث، وكان رجلاً من أصحاب المال والنعم الكثيرة، فقال لهم: قبتي الحمراء وما =

= شابهها لفلان؛ وفرسي البيضاء وما شابهها لفلان؛ وناقتي الصفراء وما شابهها لفلان؛ وشاتي السوداء وما شابهها لفلان. واختلف بنو نزار في قسمة ما ترك أبوهم. فشخصوا إلى الأفعى بن الحصين، وهو بنجران. فبيّنا هم يسيرون إذ رأى مضر كلأً مرعياً، فقال مضر: لقد رعاه بعير أعور. قال ربيعة: وهو أيضاً أزور (أعرج). وقال إياد: وهو أيضاً أبتر (مقطوع الذيل). وقال أنمار: وهو أيضاً شرود. فلم يسيروا إلاّ قليلاً حتى لقيهم رجل توضّعت به راحلته يسأل عن بعير، فذكروا أوصافه وأنكروا رؤيته، فتمسّك بهم وطالبهم ببعيره، وأخبروه أنهم ذاهبون ليحتكموا بينهم عند ملك اليمن فرضي أن يحكم الملك بينه وبينهم فرضوا ورافقهم فوصلوا عند الملك الأفعى وأخبره صاحب البعير بالقصة فسألهم الملك: كيف عرفتموه وأنتم لم تروه؟! فقال مضر: إنه أعور يرعى نصف الشجرة ويترك النصف؛ وقال ربيعة: إنه أعرج لأنه يطأ الأرض بثلاث أخفاف واضحة والرابعة خفيفة الأثر؛ وقال إياد: إنه أبتر لأن روثه يقع على الأرض مجتمعاً؛ وقال أنمار: إنه شرود لا يرعى إلاّ من الشجر المفرد ويشرد من الشجر المجتمع. فحكم الأفعى بصحة كلامهم مع عدم رؤيتهم للجمل، واقتنع به الأعرابي وذهب في حال سبيله. ثم قام الملك بإكرامهم وقدّم لهم خروفاً سميناً أكلوا منه وأعجبهم. فقال مضر: نعم الخروف لولا أنه رضع من كلب؛ وقال ربيعة: ما ألذّ الخبز لولا أنّ به شيئاً من نجاسة!! وقدّم لهم الملك خمراً فامتدحها إياد وقال: نعم الخمر لولا أنّ غرستها نبتت على قبر!! وبعد أن ارتووا أخذوا بالحديث عن الملك الأفعى فقال أنمار: نعم الملك لولا أنه يُدعى لغير أبيه. فسمع الملك تسامرهم!! ثم ذهب إلى الراعي وسأله: ماذا ذبحت للضيوف اليوم؟ فقال الراعي: خروف أيها الملك!! الملك: ما قصة هذا الخروف؟ الراعي: إنه خروف ماتت أمه عندما ولدته فأصبح يرضع من كلبة الحراسة حتى كبر! ثم ذهب إلى صاحب الخمر فأخبر أنه بالفعل قد نبتت كرمة العنب على مقابر للموتى!!

وقبل أن يفقد الملك صوابه ذهب إلى قصر والدته وقال لها: من أعدّ الخبز على النار؟ فقالت له: إحدى جواريك، فسألها: هل كانت تصلي في ذلك اليوم؟ فقالت له: لا. فعرف أنها كانت حائضاً!! ثم بادرها بالسؤال عن والده: مَن أبي؟ فقالت له: أبوك الملك، رحمه الله. . . فوضع السيف على رقبتها وقال لها: إما أن تخبريني من أبي الحقيقي أو أغرقك بدمك الساعة. ارتجفت أمه وقالت: يا ولدي كان أبوك عقيماً وخاف على حكمه من الزوال فمكّنني من أحد أعوانه حتى أحبل بك ويستمرّ ملكه!! سقط الملك مغشياً على الأرض. . . ثم قام مستجمعاً قواه وقصد ضيوفه. . . قال لهم: وجدت حلاً لمسألتكم. . . ولكني أريد منكم أن تخبروني عن كلمات تكلمتم بها أثناء غدائكم.

قال مضر: قلت إنّ اللحم الذي أكلناه لحم كلب. . . فقال الملك: صدقت، إنه لحم كلب. . . فالخروف رضع من كلب والرضيع يأخذ صفات المرضِع. . . ولكن كيف عرفت؟ أجاب: لحم الغنم يصبح طرياً بعد الشواء بعكس لحم الكلب الذي يصبح قاسياً!!

فالتفت الملك إلى ربيعة وسأله: وأنت ماذا قلت؟ قال ربيعة: نعم الخمر لولا أنّ غرستها =

= نبتت على قبر!! قال: صدقت ولكن كيف عرفت؟؟ قال: يا مولاي إنّ للخمر نشوة وفرحاً فوالله ما شعرنا بها فأيقنت أنها نبتت من رفات الأموات، فقال إياد: أما أنا فقلت إنّ للخبز لذّة لولا أنّ به شيئاً من نجاسة! فقال الملك: صدقت والله. لكن كيف عرفت؟ قال: يا مولاي إنّ المرأة التي خبزت كانت تتلكأ وبعض الخبز به شيء من عجين فأدركت أنها غير مرتاحة وبها آلام في الظهر وهي تخبز!! وسأل أنمار: كيف عرفت إني لغير أبي؟ فقال: يا مولاي من عادة الملوك أن تأكل مع ضيوفها وتسامرهم وأنت ما قد فعلت هذا!! فقال: أتحتاجون إليّ وأنتم في جزالتكم وصحة عقولكم وآرائكم على ما أرى!! فوضّح لهم كيف يقتسمون المال وأصلح بينهم، ورضوا بحكمه واقتسموا أموالهم.

أغنى رجل وأفقر رجل

رُزق أحد السلاطين بصبية اكتمل جمالها وعقلها، وكانت سديدة الرأي وكل من رآها احتار بين جمالها وحكمتها، فهي تسلب اللبّ حين تنظر إليها وتسلب العقل حين تتحدث[1]، وذهب خبرها بين الأمصار فطمع كلّ من الملوك والأمراء بأن تكون تلك الأميرة زوجاً له وأماً لأبنائه.

كثر خطابها، ففي كلّ يوم تفتح المدينة لاستقبال ملك أو أمير جاء خاطباً، وكلّ يوم يتناقل الناس رفض الأميرة لمن جاء خاطباً، وتَقَوَّل أهل البلد أنّ الأميرة لم تجد فارس أحلامها بين خطّابها، وأُشيع أنّ ملك الجان أرادها لنفسه فمنع عنها الخطّاب. وعندما انتشرت الشائعة استقدم السلطان أمهر السحرة لتخليص ابنته من (حبسة) ملك الجان، وبدلاً من أن تُفتح أبواب المدينة للخطاب غدت تُفتح للسحرة والمنجمين، وكلّ ساحر يقف على الأميرة نافثاً عقده يخرج ذاكراً بديع صنع الله في ما خلق، نافياً أن تكون الأميرة مسحورةً أو بها مسّ.

بعد دحض السحر والجان انتشرت شائعة أنّ الأميرة عاشقة سافر عشيقها ولم يعد، وبقيت الشائعات تلاحق الأميرة، وأشفق السلطان على ابنته مما يُقال، فقد كان يحبها حباً عميقاً ولا يرضى أبداً أن «يجرحها الهواء الطاير» فجالسها وأخذ يلاطفها ويسألها عن سبب عزوفها من الزواج، فقالت لأبيها:

(١) يلاحظ أنّ الصياغة لا تبرح مكانها من التأكيد على الجمال ورجاحة العقل وكان بالإمكان الاكتفاء بجملة «اكتمل عقلها وجمالها»، إلاّ أنّ السرد الشفوي يعيد ويزيد في الوصف الذي يريد إبرازه كعنصر درامي محرّك لبقية الأحداث، ولهذا جاءت الصياغة كمحاكاة للأسلوب الشفوي. وفي بعض الأحيان يُعدّ هذا ميزة للأسطورة، وقد ذكرت ذلك في أحد الهوامش.

- أريد أن تزوّجني برجل يكون من أغنى أغنياء العالم وفي الوقت نفسه من أفقر فقراء العالم.

استغرب أبوها طلبها وقال لها:

- كيف يكون من أغنى أغنياء العالم وفي الوقت نفسه من أفقر فقراء العالم.

قالت له:

- هذا شرطي الذي يجب أن يتوفر في من يرغب في الزواج بي.

انساق السلطان لطلب ابنته وأعلن في سلطنته شرط الأميرة، فتناقل الناس هذا الشرط، وقد بلغ أقاصي الدنيا، وعادت المدينة تفتح أبوابها لاستقبال الملوك والأمراء وأثرياء العالم.

صار يومياً يصطف أمام قصر السلطان الخطّاب مستعرضين ثراءهم. تقدّم ملك بلاد السند والهند كأول الخطّاب فاستعرض أمواله التي حُمِّلت على ظهور الجياد وساقها العبيد والخدم، فعرض سبائك الذهب وأكياساً كبيرة مُلئت باللؤلؤ وبراميل احتوت على الجواهر بأشكالها وأحجامها المختلفة، وبعد أن استعرض أمواله وكنوزه وقف في نهاية العرض منتظراً رأي الأميرة.

ثم تقدّم ملك الصين بقاطرة من العربات المذهّبة التي فاضت جنيهاتها وتساقطت الجنيهات في مجرى سير بعض العربات مما حمل الناس على التراكض وجمع تلك المذهّبات، وبعد أن انتهى من عرض كنوزه وقف بجوار ملك الهند والسند انتظاراً لرأي الأميرة.

ثم توالت عروض ملك الفرس وملك البنجاب وملك التركمان وملك العرب وملك الأحباش وملك الروم وملك الرومان[1]، وكلّ واحدٍ منهم أظهر ثراء فاحشاً

---

(١) ظهرت الحضارة اليونانية فجأةً ودون تمهيد متدرّج على عادة الحضارات القديمة بـ ٨٠٠ سنة قبل الميلاد. وهكذا وجدنا طاليس في الفلسفة ولم يكن أحد قبله؛ وظهر زينون في الفلسفة أيضاً، وهسيود في الأدب وهوميروس في الملحمة وسافو في الشعر وهيرودوت في التاريخ دفعة واحدة، مع أنّ اليونان بلاد بركانية متناثرة على عدد كبير من الجزر، ولم تكن طبيعتها مهيَّأة لنشوء حضارة مميزة، وكان هذا الأمر لغزاً ظلّ إلى فترة قريبة بلا تفسير مقنع. والحقيقة أنّ الحضارة المسّينية (نسبةً إلى مدينة مسّينا) التي ظهرت سنة ١٦٥٠ ق.م لم تعش طويلاً واندثرت سنة ١٢٠٠ ق.م تقريباً، جراء البراكين، وعاش اليونانيون بعد ذلك طويلاً كأقوام =

أبهر الناس المجتمعين حول المضمار الذي تجمّع فيه الخطّاب.

وقفت الأميرة على شرفتها وخاطبت جميع الملوك بخطاب رقيق شكرتهم على تكبّدهم وعثاء السفر للقدوم إلى مدينتها وهم يحملون كنوز الأرض، وقالت (فيما قالت):

- يظهر أنّ شرطي لم يوضَّح للملوك، فأنا طلبت أن أتزوّج أغنى رجل وأفقر رجل في الوقت نفسه، والظاهر أنّ الذين قدّموا عروضهم اليوم هم من أغنى أغنياء العالم إلاّ أنهم ليسوا فقراء، وهذا يخلّ بالشرط الذي طلبته.

تقدّم ملك الهند والسند وقال: أنا فقير إلى امرأة مدبّرة.

وقال أمير الصين: أنا فقير إلى امرأة تحبّني وأحبّها.

وقال ملك العرب: أنا فقير إلى امرأة تدير شؤون مملكة مترامية الأطراف.

وقال ملك الفرس: أنا فقير إلى امرأة تحرق قلبي بالشوق إليها.

وقال ملك التركمان: أنا فقير إلى امرأة تمنحني أبناء لهم صلابتي وحنكتي وجمال ورجاحة أمهم.

وقال ملك الأحباش: أنا فقير إلى امرأة بهذا الجمال.

= بدائية، وهاجر بعضهم إلى الساحل السوري في الأناضول وفينيقيا، وتفاعلوا مع السكان الأصليين واكتسبوا ثقافتهم وحضارتهم. وبعد نحو ثلاثة قرون تمكّن التجار السوريون من ربط خطوط التجارة بين سوريا وبلاد اليونان، وساهمت هجرة الهكسوس من مصر إلى اليونان في تأسيس مستوطنات بشرية سورية في اليونان، وهؤلاء حملوا معهم معارفهم وثقافتهم وصنائعهم. وعندما غزا الفرس سورية سنة ٧٢٧ ق.م هاجرت أعداد إضافية من الصنّاع والتجار والحرفيين السوريين إلى اليونان، وفي هذه الأثناء كان عدد كبير من اليونان الذين قطنوا شمال سورية وفينيقيا قد بدأوا العودة إلى ديارهم الأصلية. وفي تلك الحقبة أيضاً بدأت المدن اليونانية بالظهور، مثل أثينا وأرغوس وإسبارطة وكورنثيا وطيبة، وراحت الحضارة اليونانية تتبرعم وتزدهر، ويتعلم أهلها الكتابة، مع أنّ الكتابة كانت معروفة تماماً في مصر وسومر وسوريا منذ ٢٥٠٠ سنة قبل الميلاد. وكانت نظرية فيثاغورس معروفة أيضاً في مصر وبابل قبل ألف سنة من ولادة فيثاغورس في صيدا. ولمع في اليونان من ذوي الأصول السورية كثيرون أشهرهم: زينون (قبرص)، لوقيان (سميساط في شمال سوريا)، فيثاغورس (صيدا)، هيرودوت (كيليكيا)، علاوةً على أوفيد وطاليس وهوميروس وسافو وغيرهم. صقر أبو فخر: «بين الأسطورية والتاريخية مأساة أوديب وقصة أخناتون»، مجلة نزوى، العدد السبعون.

تحدّث كلّ ملك عن فقره للمرأة فتبسّمت الأميرة وقالت لهم:

- لكلٍّ منكم وجهة نظر صائبة إلاّ أنّ الشرط لم يتحقق بعد. ودعونا نرَ الجولة الثانية من عرض الأمراء ثم نقرّر.

توافد الأمراء إلى مضمار العرض تحمل الأحصنة والجمال والبغال كنوزهم ومرّوا أمام الأميرة، وكلّ أمير يقف ساعة عرضه يقدّم موجزاً لما يملك من أموال... تلا ذلك عرض الوزراء والأثرياء، وانتظر الجميع قرار الأميرة واختيارها، فوقفت مرة أخرى وقالت:

- لم أرَ من عامّة الناس أحداً تقدّم لخطبتي.

ردّ عليها أبوها: ومن أين لهم الأموال والكنوز كي يعرضوها...

فردّت: الشرط شرط؛ فكما سُمح للملوك والأمراء والوزراء فليتقدّم أحد من عامة الناس... فتمّ تمديد العرض لمشاركة بقية أهل البلاد... وظلّ العرض مفتوحاً إلى اليوم التالي، وتناقل الناس هذا الخبر، ورغب الكثيرون في الاقتران بالأميرة. وفي الصباح تجمّع في فناء القصر آلاف البشر كلّ منهم لا يملك شيئاً من متاع الدنيا، فوقفت الأميرة وقالت:

- أرى أنكم لا تملكون من كنوز الأرض شيئاً والشرط أن يكون المتقدم أغنى الأغنياء وأفقر الفقراء وأنتم على ما أنتم عليه، فالشرط الثاني لا يتحقق فيكم.

وقبل أن تجلس برز من الصف شابٌّ وسيم يحمل معه مسحاة وإبرة وشبكة صيد ورفع صوته عالياً حتى سمعه الجميع وهو يخاطب الأميرة قائلاً:

- نحن أثرياء بحبنا لك وفقراء إلى حبك لنا...

هاج المكان وارتفعت الأصوات وحاول جنود الملك تهدئة المجاميع. رفع الشاب يده أن يصمتوا فعاد الهدوء، وعاد متحدّثاً:

- أنا أفقر الفقراء وأغنى الأغنياء...

ضحك الملك وشاركه بقية الملوك السخرية من هذا الشاب الذي ظهر بثيابٍ رثة ويدّعي أنه أغنى الأغنياء، وكاد الملك أن يأمر باستبعاده بالإشارة إلى الحراس إلا أنّ الاميرة طلبت منه أن يتقدّم ويعرض كنوزه كما عرض فقره، فخطا إلى الأمام حتى وقف أمامها وعرض مسحاته وإبرته وشبكة صيده، وقال:

- هذه أدوات كنوزي، فبالمسحاة أزرع كلّ أرض جرداء وبإبرتي أخيط لك أجمل الفساتين وبشبكة صيدي أخرج لك ما تأكلين وأستخرج بها اللؤلؤ المستكين في قاع البحار. . . .

وقفت الأميرة وقالت:

- بعد هذا العرض سوف أختار زوجي وسوف أعلن من يكون حالما ننتهي من وجبة الغداء.

واستكمالاً للعرض أُعلن أنّ الأميرة سوف تمرّ على المشاركين وتتذوّق من أطباقهم، وستكون إشارة قبولها بأيّ متقدّم من خلال حمل طبقه.

مُدّت مائدة كبيرة بها كلّ أصناف المأكولات والمشروبات وتحلّق حولها المدعوون والمتسابقون، وقد تمّ استبعاد عامة الشعب في موائد مستقلة صُفّت عليها أطباق من أقراص القمح واللبن.

دارت الأميرة على أطباق الخطّاب وأخذت من كلّ طبق لقمة ووضعته في إناء كانت تحمله حتى إذا انتهت من المرور على الملوك مرّت على الأمراء والوزراء والأثرياء، فتكوّن في إنائها عشرات الأصناف من المأكولات، فعادت خلطها ببعضها بعضاً ومررتها على خطّابها وقالت لهم:

- تذوّقوا هذا الطبق وأخبروني عن مذاقه.

وكلّما مرّ الطبق بخاطب لم يستطع تذوقه. . .

ثم انتقلت الأميرة إلى موائد الشعب وأخذت من طبق الفتى الذي تقدّم لخطبتها وخلطت معه لقمة من بقية الأطباق المقدّمة من أقراص القمح واللبن، ثم أعادت الصحن إلى الملوك والأمراء والوزراء، وقالت لهم:

- تذوّقوا هذا الطبق وأخبروني عن مذاقه.

وكلما تذوّقه أحدهم قال: هذا طعم قمح مخلوط بلبن.

فنهضت من مكانها واصطحبت الفتى من يده قائلة:

- أقدّم لكم خطيبي وزوجي مستقبلاً.

تصايح الناس مصفّقين ومرحّبين باختيارها إلاّ أنّ الملك قال لابنته:

- تتركين الملوك والأمراء والوزراء وتختارين هذا الرجل؟

فردت عليه:

- من يتغير أكله بالاختلاط يغيّر حياتك عندما تختلط به.

انسحب الملوك والأمراء والوزراء وأُعلن زواج الأميرة من الفتى صاحب المسحاة والإبرة وشبكة الصيد، وعاشت الأميرة سعيدة وهي تشارك زوجها البناء وبذل الجهد والعمل.

الراوي لطفي شاهين

مثل حديث عباس أوله (حوسة وآخره كوسة)

عليكم السلام والسلام على من صلّى على خير الأنام، في زمنٍ من الأزمان وُجد رجل ماتت زوجته وتركت له ابناً شكّ أقرانه في غفلته، فكلّما تحدّث بحديث لا يفهمه أحد، وإن سأل جاء سؤاله على غير العادة، وكان محلّ تندّر وسخرية أقرانه حتى إذا تحدث شخص بما لا يفهم قيل: مثل حديث عباس أوله (حوسة وآخره كوسة).

اعتزل عباس أقرانه ورابط في البيت لا يخرج إلاّ قليلاً حتى كبر فأمسك لسانه لا يتحدّث مع أحد وإن حدّثه أحد ردّ عليه بكلمة أو كلمتين ولا يزيد.

أحبّ العمل وتفانى فيه، مما أفرح أباه لخروجه من عزلته وإقباله على الحياة، وكان أبوه متشوّقاً لأن يزوّجه ويفرح بأبنائه فعرض عليه الفكرة فردّ الشاب:

- كما ترى يا أبي.

قال له أبوه:

- وما هي أوصاف الفتاة التي تودّ الارتباط بها؟

فقال له:

- شرطي أن تكون لي وعاء وأكون لها غطاء.

لاطفه أبوه ونصحه أن لا يتحدّث برغباته ولا يسأل، فما يقوله قولٌ لا يفهم، فوعده التزام الصمت تماماً، وأخذ الأب يتخيّر من بنات المدينة حتى استقرّ رأيه على فتاة جميلة ومؤدبة، فطرق باب بيتهم خاطباً إياها لابنه، وظلّ يتحدث مع أبيها لوقت طويل من غير أن تخرج كلمة من فم عباس، وظنّ أهل العروس أن العريس أبكم.

سأله أبو العروس: هل أنت أبكم؟
فردّ عليه: أنا لا أسمع.
خشي الأب مواصلة أبو البنت الكلام مع ابنه فيرفض الخطبة فتدخّل في الحديث قائلاً:
- عباس يحب المزاح فإن قلت له كلمة قال لك عكسها أو جملة لا تُفهم.
وانتهى الأمر على قبول الخطبة وما هي إلاّ أيام حتى أقيمت مراسم الزواج وزُفّت العروس إلى زوجها وهي سعيدة بهذا الزواج.
عندما انفرد بها عباس وضع يده على رأسها وقال لها:
- لمن هذا الرأس؟
فأجابته على الفور: هذا رأسي.
فقال لها: عودي إلى أهلك.
صُدمت العروس بردّه وخرجت تلحق بأهلها الذين لم يغادروا المكان.
استغرب أبوها وأهلها ما حدث وسألها: ما الذي حِدث؟
فقالت له: لا أدري، وضع يده على رأسي وسألني لمن هذا الرأس؟ فأجبته: هذا رأسي، فقال لي: الحقي بأهلك.
شاع بين الناس ما حدث، واختلف الناس في تفسير ما روته العروس؛ فبعضهم قال: ربما اكتشف العريس أنّ عروسه فاقدة بكارتها؛ وقال العارفون بعباس: إنه شاب أخرق ومن الخطأ تزويجه.
ومضت الأيام وعباس يعمل بجد ويعتزل الناس كي لا يزداد تهكمهم عليه، فكان يجالس كبار السن ويسمع من غير أن يتكلم. وعادت إلى أبيه رغبة تزويجه فاستشاره في الأمر فردّ عليه:
- كما ترى يا أبي.
وعندما سأله في مواصفات العروس التي يرغب فيها أجابه بالإجابة السابقة:
- أن تكون لي وعاء وأكون لها غطاء.
وتمّت خطبة فتاة اشتهرت بالأدب والجمال وحسن العشرة، وأقيم حفل الزواج وزُفّت العروس إلى بيت عباس، وما إن دخلت مخدع الزوجية حتى وضع عباس يده على رأسها وسألها:

- لمن هذا الرأس؟

فأجابته على الفور: هذا رأسي.

فقال لها: عودي إلى أهلك.

غادرت إلى بيت أهلها حزينة منكسرة الخاطر، وغضب أهلها من تصرف عباس وما لحق ابنتهم من أقاويل تشكّك في شرفها، وتناقل الناس الحكاية وأضافوها إلة بقية التصرفات الخرقاء التي يعرفونها عن عباس.

مضت الأيام وما زالت رغبة الأب متأججة في تزويج ابنه، وقد شاعت قصتا زواج عباس فأحجم الناس عن قبول تزويجه، وكلّما ذهب الأب خاطباً لابنه لم يجد القبول، وكان للأب صديق حميم يشتريه بالدنيا توسّم فيه القبول بابنه زوجاً لابنته الوحيدة، ومن أجل تلك الصداقة العميقة وافق على تزويج عباس، وجرى للزوجة الثالثة ما جرى للزوجتين السابقتين، وفي هذه المرة غضب أبو عباس أشدّ الغضب على ابنة صديقه، واعترف أنّ ولده معتوه ولا يصلح لشيء في هذه الحياة، وانتصاراً لابنة صديقه قام وطرد ابنه وتبرّأ منه أمام الناس.

خرج عباس من مدينته وقال: «والله لأطوف بلاد الله على اتّساعها من شرقها إلى غربها حتى أجد امرأةً تكون لي وعاء وأكون لها غطاء» وركب خيله ومضى سائراً من بلد إلى بلد يسمع ويرى كلّ ما يدور حوله، ويستحسن ويستقبح ما يمرّ به من أقوال وأفعال.

وذات يوم صادف رجلاً عجوزاً جمعتهما الطريق واتفقا أن يترافقا في سفرهما، ومع بداية انطلاق خيلهما في المسير قال عباس لمرافقه:

- أتحملني أم أحملك؟

نظر إليه العجوز بازدراء وقال له:

- كيف أحملك أو تحملني ولكلٍّ منّا حصانه الذي يركبه.

سكت عباس وانطلقت خيلهما راكضةً في تلك الدروب المتشعبة، وأثناء سيرهما عبرا قريةً ورأى عباس زرعاً قد حُصد فقال لمرافقه:

- أتظن أنّ هذا الزرع أكله أهله أم لا؟

فقال له الرجل:

- بدأت أشعر أني أرافق أحد الحمقى، كيف تسأل هذا السؤال؟ ألا ترى أنه لا يزال زرعاً، فكيف يؤكل الزرع ولم يثمر بعد؟

سكت عباس وتحمّل ما قاله الرجل العجوز بصمت وواصلا السير حتى إذا صادفتهم جنازة محمولة على الأعناق قال عباس لمرافقه:

- أترى صاحب هذا النعش حياً أم ميتاً؟

فصاح به الرجل العجوز:

- لم أصاحب في حياتي رجلاً أحمق منك ولن أرى أو أسمع أعجب مما تقول... يا رجل، ألا ترى الجنازة محمولة على الأعناق، فكيف يكون حياً؟

اعتذر عباس من رفيق سفره ووعده أن لا يتفوه بكلمة تغضبه، وظلّ يسترضي رفيق سفره حتى رضي شرط أن لا يتحدّث في أيِّ أمرٍ كان. وفي طريقهما مرّا باستراحةٍ فضّل الرجل العجوز المكوث فيها بعض الوقت وأخذ قسط من الراحة، فنزلا وربطا خيلهما وطلب الرجل العجوز لبناً يشربه، وعندما قدم خادم الاستراحة باللبن تناوله عباس واستأذن مرافقه وشرب جزءاً منه ثم أعطاه الباقي. استنكر الرجل العجوز هذا الفعل لكنه صمت بغضب وقال في نفسه: «هذا الشاب لم يؤدَّب بما يكفي» وانطلقا في سفرهما.

وفي يومٍ قائظ اقترح الرجل العجوز تجنّب حرارة الجو بالانعطاف إلى إحدى الاستراحات والبقاء فيها إلى أن تخفّ حدّة الشمس فوافقه عباس، وما أن وصلا حتى طلب الرجل العجوز ماءً ليطفئ ظمأه، وعندما قدم النادل بالماء خشي الرجل العجوز أن يخطف عباس الماء كما فعل باللبن، لذلك وجّه حديثه إلى النادل:

- قدّم هذا الشاب عليّ وأعطه الماء.

اعتذر عباس وأقسم أن لا يشرب إلاّ بعده. أضاف الرجل العجوز استغرابه لهذا الموقف إلى بقية الأحداث التي أحدثها الشاب، وتناول الماء وشرب إلى أن ارتوى ثم ناول عباس فشرب.

مع انكسار حدّة الشمس انطلقا في رحلتهما وكلٌّ منهما صامتاً يفكّر في ما حدثه رفيقه من فروقات عجيبة.

وصل الرجل العجوز بلدته ليلاً وأصرّ أن يضيف عباس رافضاً تركه يكمل سفره في ذلك الليل، فاستجاب عباس لدعوته مكرهاً.

دخل الرجل العجوز بيته مفسحاً المكان لضيفه واعتذر منه للتغيّب بعض الوقت للسلام على أهله.

وكان للرجل العجوز ابنة فرحت كثيراً برؤية أبيها وتعلّقت في عنقه تضمّه وتقبّله، وكانت وعثاء السفر تضايقه فتخلّص من بين يديها راغباً في الاغتسال والتخلص من آثار الأتربة العالقة به، وقبل أن يدخل إلى الحمام قال لابنته:

- معي ضيف، اذهبي وقدّمي له الماء والأكل.

فاستغربت ابنته وأظهرت استنكاراً واضحاً:

- كيف ترضى لي أن أنكشف على رجلٍ غريب؟

فقال لها:

- هذا شاب مجنون ومرفوع عنه القلم، الحقي قدّمي له الأكل والشرب قبل أن يغادرنا ويفضحنا ويقول إننا لم نضيفه.

قامت الفتاة بملء كأس ماء وتحرّكت إلى جهة الشاب وناولته الكأس، فشرب حتى ارتوى ثم قلب الكأس بين يديه وخاطبها قائلاً:

- كأس في غاية الرقة والجمال لولا ثلمة فيك لاكتملت.

قفزت الفتاة من أمامه وركضت إلى داخل الدار وهي في غاية الغرابة مما قاله أبوها عن الشاب، وانتظرته إلى أن خرج من الحمام وقالت له:

- كيف تقول إنّ هذا الفتى مجنون! لا والله ما هو بمجنون بل رجل حكيم.

ضحك منها أبوها وقال لها:

- وما دليل حكمته؟...

قالت له:

- في حديثه عمق أعلاه قول وأسفله معنى، فعندما ناولته كأس الماء خاطبها قائلاً: كأس في غاية الرقة والجمال لولا ثلمة فيه لاكتملت، وهو يقصدني بقوله ويشير إلى فلجة أسناني، فكيف حكمت عليه بالجنون؟

استغرب أبوها قولها فقالت له:

- احكِ لي ما حدث لك معه.

جلس الأب يحكي لها كلّ ما مرّ بينه وبين ضيفه من أحداث، فضحكت ابنته وقالت لأبيها:

- والله إنك صاحبت أعقل الناس وأحكمهم.

قال لها:

- وكيف عرفت حكمته وأنا أرى أنه أحمق جاهل؟

فقالت البنت:

- سوف أفسّر لك كل ما قال، فقوله: أتحملني أم أحملك؟ قصد به: تحدّثني أم أحدّثك حتى نقطع طريقنا؟ أما قوله عن الزرع: أكل أم لا يؤكل؟ فقد قصد: هل باعه أهله وأكلوا بثمنه أم لا؟ وأما قوله عن الجنازة: هل صاحب هذا النعش ميت أم حي؟ فقد أراد أن يقول: هل ترك الميت أحداً يحيي ذكره بعد مماته أم أنه عقيم تنتهي حياته بدفنه فلا يذكره أحد؟ أما استباقه لك في شرب اللبن فقد أراد إكرامك وإيثارك على نفسه، فمن المعروف أنّ أعلى اللبن يطوف الشعر والماء وفي أسفله تستقرّ الزبدة، فأراد لك خير ما في اللبن، أما تقديمك في شرب الماء فكذلك أراد إكرامك وإيثارك على نفسه، فمن المعروف أنّ أعلى الماء يكون صافياً رائقاً وترسب في أسفله الأتربة.

شعر الرجل العجوز بفرح غامر بما قالته ابنته عن ضيفه ومرافقه فخرج إليه هاشّاً باشّاً وجلس يحادثه ويرحّب به ثم قال له:

- أعتذر لك عما بدر مني في رحلتنا حينما استسخفت قولك.

استغرب عباس هذا التغيّر المفاجئ الذي طرأ على مرافقه وقال له:

- وهل تغير شيء ممّا قلت أنا أو أنت؟

فقال الرجل العجوز:

- نعم تغير، فهل تحب أن أفسّر لك ما سألتني عنه؟

قال عباس:

- نعم، أرغب في ذلك.

فأخذ الرجل العجوز يعيد ما قالته ابنته حرفياً من سؤاله الأول إلى حديثه مع الكأس.

فقال له عباس:

- ما هذا بكلامك، فأخبرني عن صاحبه.

قال له:

- ابنتي.

فخطبها منه فزوّجه إياها واقتطع لهما جزءاً من داره، وعندما زفّت إليه وانفرد بها في مخدعه وضع يده على رأسها وسألها:

- لمن هذا الرأس؟

فأجابته على الفور:

- بالأمس كان لي واليوم صار لك يتبعك ويستظلّ بأمرك.

فرح عباس بزوجته وعاش معها سعيداً هانئاً وقرر أن يعود إلى دياره وأن يبرّ بأبيه ويعتذر منه عمّا مضى ويخبره أنّ قصده أن يعيش مع امرأة تفهمه وتفهم ما يقول. فعاد إلى دياره واسترضى أباه وأصلح ما بينه وبين أهل بلده وأظهر نباهةً ومواقف أنست الناس ما كان منه سابقاً، حتى إذا مات أبوه عاد مع زوجته واستوطن ديارها واستصلح الأراضي المجاورة لحقول عمه وعاش يبذر ويقلع.

وفي سنة من السنوات ضرب القحط البلد فأيبست الأرض وماتت الحقول وفقدت الحيوانات مراعيها، فخاف عباس أن تموت إبله وإبل أهل البلد فاقترح عليهم أن ينتقل بإبله إلى بلد مجاورة أراضيها خصبة ويعقد معهم اتفاقاً ليفتحوا مراعيهم لبقية الإبل، فإن أفلح كان بها وإن لم يفلح سيعود بإبله في الحال.

دفع أمامه إبله واتّجه إلى تلك البلاد، وما أن حطّ رحاله حتى وجد نفسه محاصراً من كلّ جهة برجال أسرعوا في شدّ وثاقه واعتباره اقترف إثماً عظيماً يستوجب القتل، فوجّه حديثه إلى رئيس المجموعة قائلاً له:

- لقد جئت إليكم من أجل عقد اتفاق بأن تسمحوا لإبلنا أن ترعى في أراضيكم ريثما ينصلح حال أرضنا، وما هذه الإبل إلاّ جزء منها، فإن وافقتم بعثت إلى قومي لإرسال خمسة آلاف جمل، ولكم منها النصف.

قال له رئيس القوم:

- هذا عرض يفوق حال ما يتفق عليه الناس.

فقال له عباس:

- أعلم ذلك وأعلم لو أننا لو كسبنا نصف إبلنا خير من أن نفقدها جميعاً.

أخذ الرجال يتشاورون فيما بينهم وبلغ بهم الطمع مبلغاً أنساهم الحذر، واتفقوا

أن يقبلوا بعرضه ظاهرياً حتى إذ وصلت الإبل استولوا عليها جميعاً وقتلوه، فقالوا له:

- أحسنت في عرض حاجتك، ونحن قبلنا بهذا العرض فاكتب إلى قومك ليرسلوا إبلهم.

كتب عباس كتاباً يوصي قومه بإرسال الخمسة آلاف بعير ويخبرهم أنّ الأرض خضراء وستبقي على نصف ثروتنا بدلاً من أن يهلك ما بأيدينا، وختم الرسالة تحت أبصارهم وأعلمهم بما كتب فيها. فكلّف رئيس القوم اثنين من جنوده بحمل الرسالة، أحدهما أبيض والآخر أسود، وطلب منهما عباس أن يقولا لزوجته: «لا تنسي النذر؛ فيوم خروج الإبل اذبحي الكبش الأبيض واضربي التيس»، وقولا لها: «يقول زوجك أرسلي له كبّة من خيوط الوبر وبداخلها مخيط فقد عزم أن يغزل كيساً ليضع فيه نص الاتفاقية».

تحرّك حاملا الرسالة إلى بلد عباس، وحينما وصلا سلّما الرسالة إلى قائد البلد، وعندما فتحها لم يفهم فحواها وقال لمن حضر:

- لقد جُنّ عباس فعلاً فهو يأمرنا أن نرسل له خمسة آلاف جمل وهو يعلم أنّ القحط والمجاعة أكلت اليابس والأخضر وليس في البلد مائة جمل... وأراد أن يعيد الرسولين من حيث أتيا، لكنّ صهر عباس العجوز قال للقائد:

- أعلم أنّ زوج ابنتي لا يقول كلاماً عابراً، ففي حديثه عمق، فأعلاه قول وأسفله معنى ولا يعرف معناه إلاّ زوجته، فلو يسمح القائد بسؤالها فإننا سنعرف ماذا يقصد برسالته هذه.

وافق القائد على اقتراح الرجل العجوز وتمّ استدعاء زوجة عباس، فقرأت الرسالة وقالت:

- لم يشر هنا إلى شيء... ألم يقل المرسول شيئاً؟

قالوا: لا، ولم نسألهم نحن.

فطلبت رؤيتهم، وعندما وقفا أمامها قالت لهما:

- أنا زوجة عباس، ألم يقل لكما شيئاً تخبراني به؟

فقالا: بلى، يقول لك: لا تنسي النذر فيوم خروج الإبل اذبحي الكبش الأبيض

واضربي التيس، ويقول لك أيضاً: أرسلي له كبّة من خيوط الوبر وبداخلها مخيط فقد عزم أن يغزل كيساً ليضع فيه نص الاتفاقية.

تبسّمت زوجة عباس وقالت: وصلت الرسالة.

وتمّ إبعاد المرسلين، فقالت للقائد:

- إنّ عباس محتجز، وهو يقول لكم: اقتلوا الرجل الأبيض واضربوا العبد يعترف لكم بما هو حادث هناك. وفي خبره الثاني يقول لكم: اخرجوا للعدو ولتختبئوا بين الإبل كي لا يتحرّز عدوكم، فإذا نزل القوم لجمع الإبل اخرجوا إليهم من مخابئكم واقتلوهم تغنمون وتنهون قوة خصمكم.

قام القائد بقتل الرجل الأبيض، وما إن أحسّ العبد بالجلد المتوالي حتى اعترف بكلّ ما حدث وما يضمره قومه لهم، فربطوه في مكانه ونفّذوا خطة عباس واتجهوا إلى عدوّهم بنفس الكيفية والطريقة، وما إن وصلوا حتى تهافت رجال الأعداء بنيّة سلب الإبل كمغانم سهلة المنال، وفيما هم منشغلون بذلك خرج إليهم رجال بلدة عباس وأبادوهم جميعاً واستولوا على البلاد والعباد وكسبوا مكاسب كبيرة، وقرّر قائد البلد تولية عباس على تلك البلاد وتنصيبه سلطاناً عليها. وعاش عباس سلطاناً كلّما يتذكره أقرانه يتحسّرون على سخريتهم منه وعدم تثمين مقدرته وحكمته.[١]

رواية حنان الجهني

(١) منذ الوهلة الأولى تنبّهت إلى أنّ هذه الحكاية عبارة عن تركيب لقصص عربية عدّة جُدلت بعضها ببعض في سياق لو أرادت الراوية الانسياق فيه يمكنها أن تواصل الحكي من غير توقف، حيث بالإمكان وضع جسر حكائي بين القصص المختلة لتصبح تابعة للحكاية الأولى. وفيما أنا أقلّب بين الأساطير والحكايات المنقولة والمتنقلة وجدت هذه الحكاية في الموروث التونسي مع اختلافات طفيفة، وقد تحدّث عن تداخل هذه الحكاية واستعارتها للقص العربي كقصتي (وافق شنٌّ طبقة) و(النذير) الأستاذ محمد المرزوقي في كتابه الأدب الشعبي، الدار التونسية.

أمّ الكلاب

كان يا ما كان، كان في قديم الزمان رجل لديه ثلاث بنات[1] احتار في أمرهن، إذ كانت ابنتاه الكبرى والوسطى قبيحتي المخبر والمنظر، وكانت أختهما الصغرى آية من آيات الجمال وعلى خلق رفيع، وكان الخطّاب يتوافدون يومياً لخطبة الابنة الصغرى من غير أن يتقدّم أحد لخطبة الكبرى أو الوسطى، وكان الأب يرفض الخطّاب معلّلاً رفضه بأنّ ابنته لا تزال صغيرة، وفي حقيقة الأمر كان يرفضهم

---

(١) رقم الثلاثة والسبعة دائماً ما يتكرّر في الحكايات من غير شعور، وهذا التكرار يمكن تفسيره بأنه عودة إلى الجذر الأسطوري فـ«التثليث كان شائعاً في معظم الحضارات المائية والزراعية القديمة، لاسيّما في مصر وسورية واليونان وشبه الجزيرة العربية. فاللات ومناة والعزى، الإلهات الثلاث الإناث، نجدها في شبه الجزيرة العربية؛ والأعداد ١ و٢ و٣ لدى اليونان، حيث العدد يبدأ من الواحد لا من الصفر، أي من الوجود لا من العدم، وحيث الواحد هو الأول، أي الله الذي لا ينقسم (Atom)، والاثنان هو زوج الواحد، ومن حاصل زواج الواحد والاثنين (١ + ٢) جاء الثلاثة، ومن هذه (الأعداد الثلاثة ولدت الأعداد اللاحقة حتى التسعة، وجميعها من مضاعفات الأعداد الثلاثة الأولى؛ فالأربعة مضاعف العدد اثنين أو حاصل جمع الواحد والثلاثة... وهكذا حتى العدد ٧ الذي لا ينقسم إلاّ على نفسه، وهو ليس حاصل جمع أي أعداد سابقة، لهذا صار رقماً مقدساً. وعلى هذا المنوال ظهر ثالوث العقل والنفس والكلمة في اليونان أولاً، ثم لدى بعض الحركات الباطنية الإسلامية في ما بعد كالإسماعيلية، وظهر ثالوث الاسم والمعنى والباب (الشمس وقرص الشمس ونور الشمس) أي محمد وعلي وسلمان لدى العلويين، أي وحدة أقانيم الخليقة التي كان تعبيرها الأرقى في الثالوث المسيحي في سوريا التاريخية، أي الآب والابن والروح القدس أو عقيدة الموت والقيامة والتجسد. صقر أبو فخر: «بين الأسطورية والتاريخية مأساة أوديب وقصة أخناتون»، مجلة نزوى، العدد السبعون).

لأنّ أختيها الأكبر منها لم يتقدّم لهما أحد، ولو أنه زوّج الصغرى قبل أختيها فسوف يلومه الناس.

وكانت الأختان تحقدان على أختهما الصغرى وتعاملانها بقسوة وتدبّران الخطط لإيذائها، ولم تكن تردّ على إساءاتهما بالإساءة، بل كانت تتودّد اليهما وتعاملهما معاملة حسنة، وكلما فعلت ذلك زاد حقدهما عليها وتقوّلتا بأنها تسعى لإثبات أنهما سيئتا المخبر والمنظر، وأنها مثل الحية ملمسها ناعم لكنّ «قرصتها والقبر».

وفي أحد الأيام استمع الأب إلى خطبة جمعة يحثّ فيها الخطيب على تزويج البنات خشية انتشار الفساد، فاستغفر ربّه وقرّر أن يزوّج ابنته الصغرى إن جاءها خاطب، وليرزق الله ابنتيه الأخريين.

وقد طار خبر جمال البنت الصغرى في كلّ مكان، وسمع به أحد الأمراء الشباب فتحمّس لخطبة هذه الفتاة وتقدّم خاطباً، ولجماله ومنصبه وقع في قلب البنت الصغرى ودعت الله أن يكون من نصيبها، بينما كانت الأختان تعتصران حقداً.

وافق الأب على زواج ابنته الصغرى وأُقيمت مراسم العرس حضرها الأقارب والجيران، وانتقلت العروس إلى بيت زوجها الذي تيم بها حباً.

مضت الأيام سريعة هنية وحملت البنت، وحين حان موعد ولادتها طلبت من زوجها أن ينقلها إلى بيت أهلها كي تلد هناك. رحّب الأمير بالفكرة ونقل زوجته إلى بيت أبيها، وحينما حان موعد الولادة حضرت المولّدة (الداية) وأخذت تهلّل وتكبّر لجمال المولود وحسنه، وكانت الأختان حاضرتين الولادة، ومن شدّة التعب نامت أختهما الصغرى فأسرعتا إلى خادمتهما وأعطياها المولود، وقالت الكبرى:

- خذيه وارميه في الزبالة واجلبي جرو مولود.

كانت الخادمة تخاف هاتين الأختين خوفاً شديداً، فاستمعت لأوامرهما وحملت المولود وأشفقت أن ترميه بين القمامة فحملته إلى بيتها، ومرّت على مرمى المدينة فوجدت كلبة للتوّ أنجبت سبعة كلاب خطفت واحداً منها وعادت إلى الأختين تحمله.

عندما علم الزوج بولادة زوجته أسرع إلى بيت أبيها لزيارتها وصادف مجيئه إفاقتها من تعبها، فسأل عن المولود فأحضروا له الجرو وقالوا له:

- زوجتك ولدت كلباً!

اندهش الأمير وكذلك زوجته، وأمام تأكيدات الأختين والخادمة لم يستطع الزوجان فعل أيّ شيء، فحملا الجرو وعادا إلى بيتهما.

أخفى الأمير خبر أنّ زوجته ولدت كلباً وقال لوالدته:

- لقد ولدت مولوداً ميتاً.

وكانت أم الأمير تستغرب حين تجد زوجة ابنها مهتمة اهتماماً مبالغاً فيه بكلبٍ صغير، حيث تغسله وتنظّفه وتطعمه أجود اللحوم ولا ترضى أن تتركه يخرج إلى الشارع ليشارك بقية الكلاب اللعب والنباح.

ومرّت الأيام فإذا بالبنت الصغيرة تحمل للمرة الثانية وترجّت زوجها أن تضع حملها في بيت أبيها، فحملها إلى هناك وتركها، وما هي إلاّ أيام حتى جاءها الطلق فولدت على يد نفس المولّدة وكان طفلاً في غاية الحسن والجمال، فأسرعت الأخت الكبرى وأخذته وناولته الخادمة وقالت لها:

- كما فعلت مع المولود الأول ارميه في القمامة واجلبي جرواً نضعه لأختنا الصغرى.

لم تستطع الخادمة الاعتراض فحملت المولود إلى بيتها وانطلقت إلى مرمى النفايات تبحث عن أي كلبة ولدت، وبعد بحث وجدت جراء بعضهم فوق بعض، فتناولت واحداً منهم وعادت راكضة إلى بيت سيدها وناولت الأخت الكبرى الجرو وهي تقول لها:

- لقد رميت المولود وجئت بهذا الجرو.

ابتسمت في وجهها وقالت لها:

- لا تنسي أن تؤكّدي أنّ أختنا أنجبت جرواً للمرة الثانية.

وأنقدتها بعض المال وطلبت منها أن تغسل الجرو وتلفّه بقطعة قماش، حتى إذا حضر الأمير أخذت الأختان الجرو ووضعتاه في حضن أختهما الغائبة عن الوعي، وعندما فاقت ورأت الجرو في حضنها وزوجها يقف على رأسها يقضم شفتيه و(يطرقع) أصابعه، انهمرت دموعها وأخذت تعتذر منه وتقول له:

- هذه مشيئة الله، ماذا أفعل؟

تحامل الأمير على نفسه وأخذ زوجته والجرو الذي معها وعاد إلى بيته،

فاستقبلته أمه منتظرةً أن تزفّ البشرى إلى بقية الأسرة بحفيدها الذي انتظرته طويلاً وصدمت عندما رأت زوجة ابنها تحمل جرواً في حضنها وأخذت تستفسر، فقال لها ابنها:

- مات المولود قبل أن يخرج من بطن أمه، وكي لا تشعر بالحزن جلبت لها هذا الجرو كي تأنس به.

أخذت أمه تسخر وتقول له:

- أنتظرها أن تربّي أحفادي فإذا بها تربّي كلاباً!

وفي المرة الثالثة حدثت لها الحكاية نفسها، وعندما جاء زوجها لأخذها، تقدّمت أختاها تعتذران منه وتقولان له:

- كأنّ أختنا رضعت من كلبة، فهي لا تنجب إلاّ الكلاب.

وأخذتا تتضاحكان، وكانت أختهما تسمعهما وهي منكسرة حزينة ولم تستطع أن تنظر في عين زوجها الذي حملها متأسفاً على حاله وما يجده من زوجته، وكان يفكر في أمه التي تنتظره في البيت لتفرح بحفيدها، وعندما رأت زوجة ابنها تحتضن جرواً قالت لولدها:

- قل إنك تزوجت بكلبة، فمع كل ولادة تعود حاملة جرواً!

وخرجت غاضبة، وتناقل خدم القصر خبر أنّ الأميرة الحسناء لا تلد إلاّ كلاباً، وسرى الخبر بين الجميع، وقد أطلق الناس على الأمير لقب (أبو الكلاب).

كان الأمير يدخل عليها غاضباً ويسمعها أقذع الكلمات ويهينها في كلّ دخلاته وخرجاته، فحزنت البنت الصغرى إلى ما آل إليه حالها وطلبت من الأمير أن تعود إلى بيت أبيها، فرفض رفضاً قاطعاً وقال لها:

- لا بد أن تموتي أنت وكلابك هنا. تكفي الفضيحة التي حمّلتني إياها.

فكانت تبكي بحرقة فلا يسمع لها.

وقرّر الأمير أن يهجر زوجته ويتركها في قبو القصر مع كلابها، وقد وضع على خدمتها حارساً أوصاه أن تكون وجباتهم عظاماً خالية من أيّ لحم وأن يكون ماؤهم من البرك.

مضت الأيام والشهور والسنوات والبنت الصغرى تعيش حياةً قاسية مع الكلاب، لا تجد ما تأكله أو تشربه، فكانت تستعطف حارسها أن يمدّها بالقليل من

الفتات فيعتذر منها خشيةً من سيده، لكنه اتّفق معها أن يقوم بقذف القمامة داخل القبو وعليها تقليبها والبحث فيها عن طعامها فوافقت على ذلك، فكان يومياً يحمل القمامة ويرمي بها إلى القبو فتنهض البنت الصغرى تقلّبها فتجد بقايا من أطعمة تنقّيها مما التصق بها وتأكل منها بعد أن تتقاسمها مع كلابها.

وكان الأمير يتمنّى أن يسمع بموتها وموت الكلاب، فكلّما أراد أن ينسى ذكرها تخافت الناس عليه حين يسير أو يجلس بقولهم: جاء أبو الكلاب، أو مرّ أبو الكلاب، أو قال أبو الكلاب.

وكانت أمه تأتيه في كلّ حين راجيةً إياه أن يتزوّج كي ترى أبناءه وهي لا تزال على قيد الحياة، فيقول لها:

- وما يدريني أن أتزوج امرأةً فلا تلد لي قططاً. . . لا أريد أن أتزوج.

وظلّ لسنوات أعزباً يقضي حياته في التجارة ورعاية أمه، وإن وجد الوقت خرج إلى البرية للقنص أو لمتابعة خيوله وجماله.

ومازالت أمه ترغب له بقطع وحدته بالزواج إلى أن وافق، وتمّت خطبة إحدى الأميرات وأعلن موعد الزواج وتناقل الناس الخبر.

سمعت الخادمة التي ربّت أولاده بخبر زواجه، فجمعت أولاده وقالت لهم:

- اليوم سوف يتزوج أبوكم وأريد منكم أن تحضروا الزواج وإفشاله تمامه.

استغرب الأولاد ما سمعوا وقالوا لها:

- ألم تقولي إنّ أبانا مات.

فقالت لهم:

- لقد خبّأت عنكم سرّاً منذ سنوات، فأنا لست أمكم ولا أعرف ما الذي حدث لها، وأنتم أبناء الأمير. . .

وأكملت لهم القصّة كاملة منذ أن حملت كلّ واحد منهم وأبدلته بجرو. تلهّف الأولاد لرؤية أبيهم ومعرفة مكان أمهم، فتجهّزوا لحضور العرس ولبسوا أحسن الثياب، وكان كلّ واحد منهم نسخةً من أبيه في جماله وحسن طلعته، وتحرّكوا إلى قصر الأمير لحضور العرس. وما إن دخلوا إلى القصر حتى تنبّه الخدم إلى شدّة الشبه بينهم وبين الأمير إلاّ أنهم لم يتجرّؤوا على سؤالهم.

بدأ الضيوف يتوافدون من كلّ مكان، وكان أولاد الامير يتحرّكون في كلّ مكان

ويقلبون الكراسي ويقطعون الأثاث ويسكبون القهوة، وأراد أبو العروس نهرهم ومنعهم من العبث بكلّ شيء فلم يستجيبوا لنصحه وزادوا في إحداث التخريب في كلّ شيء يجدونه، ممّا حمل أبو العروس على مناداة الحرس وأمر بطردهم، فامتنع ثلاثتهم عن مغادرة القصر وهم يقولون:

- المال مال أبونا والغُرْب يطردونا!

وحدثت ضجة كبيرة ممّا حمل الأمير على سؤال خدمه عمّا يحدث بين الضيوف من هرج ومرج، فقال له خادمه الخاص:

- هناك ثلاثة شباب (سبحان الخالق فالق النوى) صورة طبق الأصل عنك أحدثوا خراباً في كلّ شيء وكلما نهرهم الناس لا ينتهرون، وعندما قام عمك بطردهم رفضوا الخروج وقالوا: المال مال أبونا والغُرْب يطردونا.

استغرب الأمير ممّا يسمع وأنهى لبسه على عجل ونزل لرؤية هؤلاء الشباب الذين أحدثوا خراباً ودُهش أيّما دهشة حين نظر في وجوه الشباب وكأنه يرى صورته مقسّمة على ثلاثة أرواح، فأمسك بهم وقال لهم:

- أبناء من أنتم؟

فقالوا له:

- أبناء الخادمة.

فقال لهم: أيّ خادمة؟

فقالوا له: ومشانك أنت بأمنا؟

فعرف أنّ الشدّة لن تجدي معهم فأخذ يتلطّف بهم وطلب منهم رؤية أمهم، فأخذوه إلى بيت الخادمة التي فزعت عندما رأته واقفاً أمامها مباشرة وهو يسألها:

- أبناء من هؤلاء؟

فقالت له: أبنائي.

فاستلّ سيفه وأقسم إن لم تخبره بالحقيقة ليطير برأسها، فأخذت ترتعد وتستحلفه أن يعطيها الأمان حتى إذا فعل أخبرته بكلّ القصة وأنّها خافت من الله أن ترمي بالمواليد إلى القمامة فكانت تحملهم إلى بيتها وتجلب الجراء بدلاً عنهم.

فرح الأمير فرحاً عظيماً وأخذ يقبّل أولاده واحداً واحداً ودموعه تنسكب على وجنتيه آسفاً على زوجته التي قذف بها إلى القبو ولا يعرف ما الذي حلّ بها.

أخذ يترجّى الخادمة في أن تصحبه هي وأبناؤه إلى القبو لمعرفة ما الذي حدث لزوجته، فتحرّك الجميع معه. وما إن وصلوا إلى القبو حتى وجدوا أكوام القمامة تغطّي المدخل وتملأ الأرضيات، فتحرّك الأمير إلى الداخل فوجد زوجته تقبع في أعلى القمامة تنقّب فيها وقد أحاط بها الكلاب يلعقون وجهها، فركض صوبها يقبّل قدميها ويطلب منها العفو، ولم تكن تعرف سبب مجيئة واعتذاراته المتلاحقة، وعندما دخلت الخادمة خلفه أحسّت بأنّ أمراً ما قد حدث، وكانت تفكر في أبيها وأختيها، فأخذت تصيح:

- هل حدث شيء لأبي أو أختيّ؟

فأقبلت الخادمة تقبّل قدميها وتطلب منها السماح والعفو، وعندما رأت ثلاثة شباب يقبلون على تقبيل رأسها أحسّت بأنّ هؤلاء الشباب هم أولادها، ومن بين دموعها أخذت تصيح:

- قولوا إنهم أولادي.

فقال لها الأمير: نعم، هؤلاء أبناؤك.

فأخذت تقبّلهم وتحضنهم ومن حولها أخذت الكلاب تنبح وتتعلّق بها أيضاً، فتضاحك الجميع وتمّ إخراج الأميرة إلى القصر وألغى الأمير الزواج، وعندما جاءت أمه لتستفسر وهي غاضبة من تصرفات ابنها، لكنها عندما رأت الشباب الثلاثة توقّفت في مكانها مسمّرةً فقال لها ابنها:

- أنت تريدين حفيداً واحداً وها هم أمامك ثلاثة أحفاد.

لم تصدّق ما حدث وأخذت تقبّل أحفادها وتعتذر لأمهم، وأصرّت على إبقاء الحفل احتفالاً بأحفادها وإعادة زفّ الأميرة كعروس... وانشغلت بنفسها بتنظيف وتزيين زوجة ابنها، فيما تحرّك الأمير إلى بيت عمه وأخبره بالخبر وما فعلته ابنتاه بزوجته، فقال له الأب:

- الحكم لك.

فقال الأمير: حكمي قطع رقبتيهما.

أخذت الأختان تعتذران وتطلبان العفو وهما تبكيان وتظهران الندم، فقال لهما الأمير:

- حكمي قطع رقبتيكما والوحيد الذي يلغي هذا الحكم أختكما إن عفت عنكما.

وتحرّك بهما إلى القصر وفي مقدّمتهما أبوهما الذي ما إن رأى ابنته حتى أخذ يقبّلها ويشتكي من حرمانه من رؤيتها، وكانت أختاها مكبلتين بالقيود فانطلقت نحوهما تقبّلهما، فأخذتا تبكيان وتطلبان العفو والسماح، فقالت لهما:

- لقد سامحتكما وسنعيش في خير وأمان.

فتدخل الأمير وقال:

- سوف أعفو عن قطع رأسيهما لكني سوف آمر بأن يمضيا بقية حياتيهما مربيتين للكلاب في نفس القبو الذي بقيت فيه لسنوات وأن يُعاملا المعاملة نفسها.

وأمر الخادم بحمل الأختين والكلاب وسجنهما في القبو.

وعاش الجميع في سعادة وهناء وكانت الأميرة، في كلّ يوم جمعة، تحمل الأكل النظيف والهدايا وتذهب لزيارة الكلاب وأختيها داخل القبو فتتعلّق برقبتها الكلاب وتلعق وجهها، فطلبت الأميرة من زوجها أن يعفو عن أختيها فرفض رفضاً قاطعاً، فطلبت منه أن يطلق سراح الكلاب فوافق على ذلك وطلب من الخادمة أن تجلب ثلاثة جراء كي تقوم الأختان بتربيتها. وعاش مع زوجته وأولاده في هناء وسعادة بقية عمرهم.

رواية حامدة حمدان

زواج المحارم... دودة في الرأس

يقال إنه في زمن من الأزمان عاش أهل قرية (مطلة على الوادي) عيشة هناء ورغد، يزرعون حقولهم ويحصدون ثمارها ويبيعونها ويشترون كلّ ما يحتاجونه من المدينة القريبة منهم.

واستمرت حالهم على هذا النحو إلى أن جاء موسم من مواسم الأمطار الغزيرة وامتلأ الوادي وفاض بمائه، فخرج رجال القرية ليتصدّوا لجريان السيل العنيف بوضع حواجز رملية في طريق المياه المندفعة باتّجاه قريتهم إلاّ أنّ فيضانه فاق مقدرتهم فغرق الرجال والنساء والحيوان وجرف السيل كثيراً من البيوت.

وعندما تفقدوا حالهم ومالهم بعد توقّف السيل وجدوا أنّ خسارتهم كبيرة، فقد مات الرجال ولم يتبقّ حيّاً إلاّ عشرة رجال فقط لا يستطيعون مجابهة كدر الحياة ورعاية من تبقّى من أهالي القرية، وكانت خشيتهم الكبرى أن يعرف أعداؤهم ما حلّ برجالهم فيغزونهم ويسلبون نساءهم المتبقيات. فاجتمعوا ليتباحثوا ما الذي يمكنهم فعله، فأشار عليهم قاضيهم بضرورة التكاثر بأسرع وقت، وردّوا على مقترحه بأنّ عددهم ضئيل مقارنةً بالنساء الموجودات، فتمّ إحصاء النساء فبقيت نساء من غير أزواج، فأباح لهم زواج المحارم.

وحدث أنّ كلّ رجل من الرجال العشرة ضمّ إلى زوجاته إحدى محارمه، وقاموا بنصب مجسّمات في أماكن مختلفة من القرية توهم القادمين أنّ القرية مليئة بالرجال، وتفرّغوا للتجارة بجمع ممتلكات من مات في السيل والمتاجرة بتلك الممتلكات، فاتّسعت تجارتهم وكسبوا ذهباً كثيراً، كانوا يجمعونه في حفرة حفروها

بوسط القرية، وانصبّت عليهم أموال الدنيا من كلّ جانب، فكانوا يحوّلون ممتلكاتهم إلى ذهب ويخزنونه في تلك الحفرة.

وبدأت نساؤهم بالتوالد والتكاثر، ولاحظوا أنّ أبناء وبنات المحارم يأتون في خلقة مشوّهة ولا تطول أعمارهم، فأغلبهم يقضي نحبه في السنة الأولى أو الثانية، وكلّما ذهب أحدهم لدفن ابنه خرجت إليه دودة من القبر والتصقت برأسه فيموت قبل أن يغادر قبره... حدث هذا مع الأول والثاني والثالث والرابع والخامس، فعلم الخمسة المتبقّون أنه العذاب، وكانوا يحتاطون لأنفسهم فلا يذهبون لدفن موتاهم، ويتحرّزون بتغطية رؤوسهم.

ذات يوم استيقظوا على موت السادس منهم؛ فقد وجدوا خطّاً صغيراً ممتداً من المقبرة إلى بيته، وفي نهاية الخطّ فجوة اتّضح لهم أنّ الدودة قطعت رحلة من القبر إلى بيت السادس منهم ثم ثقبت سطح الأرض وخرجت لصاحبهم وأكلت مخه فمات في الحال.

اجتمع الأربعة المتبقون يبحثون عن وسيلة تبعدهم عن الموت، فقرّروا مهاجمة الدودة بدلاً من انتظارها، فخرجوا إلى المقبرة كلٌّ منهم يحمل أسلحةً عدّة، وقلبوا حجارة المقبرة وأتربتها ونبشوا قبوراً وقلعوا أشجاراً لكنهم لم يعثروا على عدوتهم تلك، فعادوا مظهرين فرحاً بأنّ الدودة قد اختفت ولم يعد لها وجود.

وقبل أن يطمئنوا لهذا الظن إذ بالناعي ينعى لهم مقتل السابع منهم، فقد رأت زوجته الدودة متشبّثةً في عصاته، وما إن صاحت بزوجه لتحذّره حتى قفزت الدودة إلى أنفه وتسللت من فتحتها إلى داخل دماغه وتركته يتخبّط ويضرب برأسه الجدران حتى نزف ومات.

تبقّى الثلاثة يحملون رعبهم وعجزهم في تدبّر الكيفية التي يقضون بها على الدودة، واقترحوا أن يذهب أحدهم إلى القرية المجاورة كي يجلب شيخاً يقرأ القرآن في قريتهم علّ كلام الله يحبس تلك الدودة عنهم، ورشّحوا أحدهم لهذه المهمة، وافترقوا على أن يوافيهم المرسول بخبر يعيد إليهم الطمأنينة.

ومع الظهيرة جاء الناعي ينعى الثامن منهم، فقد وجد مقذوفاً في الطريق وقد تجمّع الذباب على الدم النازف من أذنيه.

تبقّى اثنان وأيقن كلٌّ منهما بهلاكه إلاّ أنهما لا يعرفان أيّهما يسبق الآخر، وفكّر

كلٌّ منهما باستخراج الذهب المكنوز وتفريقه على الضعفاء والمساكين عسى الله أن يقبل توبتهما من الذنب الذي أحدثاه مع رفاقهم الثمانية.

إلاّ أنّ هذه الفكرة التي اطمأنّا إليها تلاشت حين ذكر أحدهما للآخر أنّ صديقهم السابع قد أنفق كلّ أمواله في سبيل الله فمات مع آخر قرشٍ أنفقه، فتراجعا عن حفر حفرة الذهب واتّفقا على أن يلازما بعضهما بعضاً، فإذا نام أحدهما ظلّ الآخر مستيقظاً يحرسه.

استمرّت هذه الحال شهراً كاملاً، وكان خبر بقائهما على قيد الحياة بشرى تناقلتها نساء القرية وأردن إقامة حفل بهذه المناسبة، فتجمّعن وجهّزن أنواعاً مختلفة من الأكل والشرب، وتقاطرن إلى مكان تواجدهما، وفرشن الأسمطة وجلسن جميعاً لتقديم ألذّ ما على المائدة للرجلين، كلّ امرأة تمدّ لأحدهما بشيءٍ من طهوها. وقبل الانتهاء من تلك الوليمة طلب أحدهما كأس ماء ليشربه، فناولته زوجته (أخته) الكأس، وما إن رفعه إلى فمه حتى وجد الدودة تتحرك نحو فمه، فقذف بالكأس بعيداً وارتفع صياحه وهياجه، وتراكضت النساء صوب الكأس حاملات أحذيتهن لضرب الدودة فلم يجدن شيئاً، وبينما هنّ منهمكات في البحث عنها كانت الدودة عند قذف الكأس قد تعلّقت بالشال وأخذت تزحف إلى أن انزلقت إلى أذن التاسع، فتنبّه الجميع لصراخه وضرب رأسه بالأرض، فامتدت يد زوجته إلى رأسه وأدخلت إصبعها في أذنه فلم تعد إصبعها إليها، ومات التاسع في الحال.

خرج العاشر راكضاً إلى خارج القرية، وظلّ مسافراً من بلد إلى بلد إلى أن وصل مكة فاستقرّ بداخل الحرم لا يبرحه ليلاً ولا نهاراً.

ومضى على مكوثه داخل الحرم خمسة عشر عاماً تغيّرت فيها الدنيا وتبدلت، وذات يوم، بينما هو جالس بالقرب من الحجر، رأى امرأةً من قريته يعرفها فأمسك بها وأخذ يسألها عن الحال والأحوال فأخبرته أنّ قريتهم قد عادت إلى سابق عهدها وكثر بها الخير وأنّ قوماً يخافون الله نزلوا إليهم من أماكن مختلفة فأحيوا الأرض واستوطنوها فانتعشت الحياة، وأخبرته أنّ بعد رحيله لم يمت لهم لا طفل وكهل، وأخذت تحبب إليه العودة إلى قريته وأهله فوعدها خيراً وافترقا.

ظلّ الرجل العاشر يفكّر بالعودة وهو بين الخشية من الموت والحنين الجارف إلى قريته وأهله، فغلبه الحنين وفكّر جدياً بالعودة واستخراج الذهب والبدء بحياة

جديدة يكون فيها تقيّاً نائباً تائباً، فعاد مخفوراً بالأماني الطيبة ودخل قريته متعجّباً لما حدث فيها من متغيرات وما جدّ من جديد، ومن شدة فرحه أخذ يقبّل تراب القرية، ودخل إلى أهله مسروراً، وبقي لشهور يتنقل في أرجاء القرية من غير خوفٍ أو جزع.

وكانت نفسه تنازعه لاستخراج الذهب والبدء بالمتاجرة، وتردّد لأيام حتى استقر على رأي اطمأنّ إليه؛ فحزم أمره على الاستفادة هو وقريته من الذهب المخزون في الحفرة، ومن الصباح الباكر توجّه إلى تلك الحفرة وبدأ بالحفر، فظهر لمعان الذهب مغرياً، فنزل وجمع الصرر صرّةً صرّةً فإذا بها عشر صرر كلّ منها يحمل كنوزاً تبقيه غنياً أبد الدهر، وصعد ينفض ثيابه من أثر الأتربة التي لصقت به، ومن غير أن يتنبّه جاءت قدمه على صرّة فسقطت في الحفرة فنزل لإحضارها وحين مدّ يده إليها خرجت منها دودة قفزت إلى عينيه ففجرتهما وتوغّلت في مخّه ولم تتركه إلاّ جثة هامدة داخل الحفرة التي دفن بها.[1]

رواية زيد بازيد ـ جدة

(١) فالحدث في الحكايتين هو نفسه إلا أنّ طريقة سرد الراويين لهذه الحكاية اختلف وهذا ما يعيدنا إلى أنّ كلّ حكاية يمكن أن تتلوّن وفق الراوي لها.

طيبة وحسيبة

كان يا ما كان، كان في قديم الزمان امرأة مات زوجها وترك لها ابنتين تعبت وجاهدت وهي تربّيهما، وذات يوم مرضت كلتاهما مرضاً شديداً ولم يعد بمقدورهما السير، فنصحها بعض الجيران أن تخرج إلى البرية لتجمع أعشاباً لمداواتهما، فخرجت إلى البرية وبينما هي تفتش عن الأعشاب التي نصحت بها رأت رجلاً يجرّ كلباً أسود[1] بحبلٍ التفّ حول رقبته وهو يضربه ضرباً مبرحاً ويضع على ظهره كيساً ثقيلاً به عظام وجلود، فقالت له:

---

(١) ترسّخ في الذهنية العربية أنّ الكلب الأسود هو من الجان، وقد ذكر الجاحظ في كتاب الحيوان عن ابن عبّاس أنه قال: السُّود من الكلاب الجِنّ، والبُقْع منها الحنّ، ويقال إنَّ الحنَّ ضَعفة الجنّ، كما أنَّ الجنيَّ إذا كفر وظلَم وتعدَّى وأفسد قيل شيطان؛ وإن قوي على البنيان والحمل الثقيل وعلى استراق السمع قيل مارد، فإنْ زاد فهو عِفريت، فإن زاد فهو عبقريّ.
ويورد صاحب الحيوان أحاديث عن قتل الكلاب. فعن أبي عنبسة عن أبي الزبير عن جابر قال: أمرنا رسول اللّه صلى الله عليه وسلم بقتل الكلاب، حتى أنّ المرأة لتقدم بكلبها من البادية فنقتله، ثم نهانا عن قتلها وقال: عليكم بالأسود البهيم ذي النكتتين على عينيه فإنه شيطان.
وعن أبي الزبير عن جابر قال: أمرنا رسول اللّه صلى الله عليه وسلم بقتل الكلاب، فكنا نقتلها كلها حتى قال: إنها أمة من الأمم؛ فاقتلوا البهيم الأسود ذا النكتتين على عينيه فإنه شيطان.
إلاّ أنّ هذه الأحاديث وجدت معارضة وذهب بعضهم إلى أنها نُسخت، فيقول الدميري: حمل الأصحاب الأمر بقتلها على الكلب الكلِب والكلب العقور واختلفوا في قتل ما لا ضرر فيه منها. وقال القاضي حسين وإمام الحرمين والماوردي في (باب بيع الكلاب) والنووي في أول البيع من شرحي المهذب ومسلم: لا يجوز قتلها، وقال في (باب محرمات الإحرام): إنه =

- أشفق على الكلب فهو حيوان مسكين.
فردّ عليها الرجل:
- اذهبي لحال سبيلك ولا تتدخلي فيما لا يعنيك.
فقالت المرأة العجوز:
- أخبرني ما الذي فعله لك كي تضربه كلّ هذا الضرب المبرح.
فقال لها:
- كلما أوكلت إليه مهمة لا ينفّذها وقد فضحني حينما سرت ليلاً في أرض العدو بنباحه[1] وفي آخر الأمر عقر غنماتي، فلقد تركتها معه ليحميها من الذئب فإذا بي أراه يتصيّدها واحدة واحدة و(ينيبها) ويمتصّ دمها، وما هذا الكيس الذي على ظهره إلاّ عظامها وجلودها.
فقالت له:
- اتركه لي وسوف أؤدّبه لك.
فضحك الرجل وقال لها:
- وكيف لك أن تؤدبي كلباً؟
فقالت له:
- عندي ابنتان مريضتان لا تمشيان وسوف أربطهما في عنق هذا الكلب ليتنقل بهما في كلّ مكان، فإن استقام حاله أعدته إليك.
وافق الرجل على هذا التأديب وقال لها:

= الأصح، وإنّ الأمر بقتلها منسوخ. وعلى الكراهة اقتصر الرافعي في الشرح وتبعه في الروضة، وزاد أنها كراهة تنزيه لا تحريم، لكن قال الشافعي في الأم في (باب الخلاف في ثمن الكلاب): واقتلوا الكلاب التي لا نفع فيها حيث وجدتموها، وهذا هو الراجح.
وقد جاء في صحيح مسلم أنّ الكلب الأسود شيطان.
وكذلك يدخل القط الأسود إلى الذاكرة العربية أنّ الجنّ يتمثلون في صورته، وفي هذا يقول ابن تيمية: فإنّ الكلب الأسود شيطان الكلاب والجنّ تتصور بصورته كثيراً، وكذلك بصورة القط الأسود، لأنّ السواد أجمع للقوى الشيطانية من غيره وفيه قوة الحرارة.

(١) هنا نتذكر المثل العربي القائل: على أهلها دلّتْ بَراقِشُ. وبَراقش كلبة نبحتْ على جيشٍ مرّ في جوف الليل وهم لا يشعُرون بموضع الحيّ، فاستدلُّوا عليهم بنُباح الكلبة فاستباحوهم. (كتاب الحيوان للجاحظ)

- إذا كان هذا هو تأديبك فأنا أعطيك الكلب ولا أريده، وشرطي أن ترهقيه.

فقالت المرأة:

- سوف أكسر ظهره... دعْهُ لي.

ناولها الرجل الحبل المعلّق برقبة الكلب فأخذته مظهرةً غضبها وسخطها من الكلب وهي تصيح:

- سوف أجعلك عبرةً لكلّ الكلاب.

واختطفت الحبل وذهبت تبحث عن الأعشاب التي خرجت لجمعها فلم تجد، وظلت طوال الوقت في بحث مستمرّ إلى أن أصابها التعب، فاستظلت تحت شجرة وغفت، وعندما أفاقت وجدت الأعشاب التي تبحث عنها قد ملأت زنبيلها الذي كانت تحمله، فاستغربت أشد الغرابة وأخذت تبحث عمّن ساعدها على جلب تلك الأعشاب، لكنها لم تر أحداً فحملت زنبيلها وعادت إلى منزلها، وكان الكلب يسير مطأطئ الرأس لاهثاً.

نقعت تلك الأعشاب ووضعتها على ابنتيها، وما هي إلاّ أيام حتى تحرّرت ابنتاها من مرضهما وأصبحتا تسيران وتلعبان من غير أيّ عجز.

نظرت العجوز إلى الكلب فوجدته كلباً مسالماً يلبّي النداء ويفعل كلّ ما تأمره به، وتذكّرت أنها وعدت أن تؤدّبه بحمل ابنتيها، وكي تلتزم بوعدها كانت تأمر ابنتيها بوضع بعضٍ من ملابسهما على الكلب.

وكانت حسيبة تحبّ أن تضع على ظهره عروستها المصنوعة من القماش، وكلّما وضعتها سقطت من على ظهر الكلب فتظلّ تبكي، فكانت أمها تربطها بحبل حتى لا تسقط. وذات يوم عاد الكلب ولم تعثر حسيبة على عروستها فتناولت عصاً وضربت الكلب على رجله فأخذ يعوي من شدّة الألم، وعند تفقّد موقع الضربة وجدت أنّ رِجل الكلب قد كُسرت، فشعرت بالندم، فقامت بتجبير رجله واعتنت به فترة طويلة حتى شفي تماماً، ولم تعد تضربه أبداً، فكان يحرص على تلبية أيّ طلب تطلبه منه.

مضت الأيام وكبرت البنتان وشاخت أمهما وكانت تخاف على ابنتيها من غوائل الزمن وتظلّ تبكي في الليل وتخاطب نفسها ممّا تجد. وذات ليلة سمعت الكلب يدخل عليها ويقول لها:

- أبقيهما في أمانتي ولا تخافي عليهما.

استغربت حديث الكلب إلاّ أنها فرحت بوجود كائن سوف يرعى ابنتيها، وفي الصباح غيّرت معاملتها للكلب وأصبحت لا تكلّفه بشيء سوى بمصاحبة ابنتيها في الذهاب إلى المرعى أو إلى البئر.

وما هي إلاّ أيام وماتت الأم، فكان الكلب يقوم بكلّ الأدوار التي كانت تقوم بها الأم، من إحضار الأطعمة وشراء الملابس وحراستهما وتزويدهما بالمال، فعاشت البنتان في حياة رغدة.

وكانت أفعال الكلب تبعث الاستغراب في بال البنت الصغرى، وقررت أن تعرف من أين يأتي الكلب بكل هذه الأطعمة والأموال، وفي أحد الصباحات خرج الكلب كعادته فتبعته البنت الصغرى، وكان اسمها طيبة، ولا زالت تتبعه وهو يسير بين أزقّة القرية حتى خرج إلى البرية، ولا زال سائراً حتى بلغ شجرةً دار حولها وانفتحت حفرة عميقة سقط بداخلها، فلحقت به طيبة ونزلت في تلك الحفرة، ورأت غولة ضخمة ترحّب بالكلب وتحضنه وتقبّله وهي تقول له:

طوّلت الغيبة يا مهنّا

فين كنت بعيد عنا؟

فردّ الكلب:

بين طيبة وحسيبة

رايح جاي مهنّا

عندما سمعت طيبة حوارهما شهقت فتنبّهت الغولة والكلب وقالت الغولة:

- أشمّ رائحة إنسي في مغارتنا.

فأخذ الكلب يتشمّم الهواء وقال للغولة:

- هذه رائحة طيبة... أظنها لحقت بي.

فزمجرت الغولة غاضبةً وقالت:

- حقها أكسر عظامها بسنوني.

عندما سمعت طيبة حديث الغولة والكلب زاد خوفها فتراجعت وهمّت بالهرب، إلاّ أنّ الكلب لحق بها وجذبها من فستانها، فأظهرت ندماً على متابعتها له وأخذت تستحلفه أن لا يؤذيها، إلاّ أنّ الغولة تدخّلت وقالت للكلب:

- اتركها عشاء لي فأنا جائعة.

فقال لها:

- لقد وعدت أمها أن أحرسها فدعيها لي أؤدّبها بطريقتي.

فقالت له الغولة:

- أغمض عيني فإن فتحتها وإن لم تؤدّبها فسأبتلعها.

فأسرع الكلب ولعق ساقي طيبة فتحوّلت في الحال إلى ساقي حمار، وعندما فتحت الغولة عينيها ورأت ما حدث لطيبة قالت للكلب:

- هذا ليس عقاباً فقد أعطيتها شارتنا ولا بدّ من دقدقة عظامها.

فقال الكلب:

- لك ما تشائين يا أمنا الغولة ولو تسنّي أسنانك قبل أن تأكليها يكون أفضل.

وافقته الغولة على اقتراحه وتناولت مبرداً وأخذت تسنّ أسنانها، فاقترب الكلب من طيبة وقال لها:

- أسرعي وتناولي ثديها وارضعيه وإلا أكلتك.

استجابت طيبة لنصيحة الكلب وأسرعت وتعلّقت بأثداء الغولة وأخذت في الرضاعة، فزمجرت الغولة وقالت:

حرمتني يا مهنّا

مما كنت أتمنى.

ثم صاحت بالكلب:

- أخرج ولا ترني صورتك... وإياك إن وجدتها في طريقي.

أسرع الكلب بحمل طيبة وطار بها إلى بلاد بعيدة وتركها في مرمى قمامة ملك تلك البلاد، ثم عاد إلى حسيبة.

بقيت طيبة بين القمائم لا تعرف ما الذي تفعله، وبينما كانت تفكّر في حالتها وتنظر إلى ساقيها اللتين تحولتا إلى ساقي حمار بحسرة أحسّت بقمائم تنهال فوق رأسها، حيث كانت خادمة الملك ترمي قمامة القصر في المكان المخصص. تحمّلت طيبة كلّ القاذورات التي رمتها الخادمة، وكانت تفتش بين تلك القمائم عن شيءٍ تأكله، وعندما لم تجد شيئاً صالحاً للأكل قالت:

يا خادمة يا خادمة

ارمي لقمة للقاعدة من بدري
بطنها بطن المهموم والبال يسري
ولو تعرفي يا خادمة لكن مين يدري

عندما سمعت الخادمة صوت طية أصابها الرعب فانطلقت راكضةً تخبر سيدتها وتقول لها:

- القمامة تتكلم.

استخفّت الملكة بما قالت الجارية ومع قسمها أنها سمعت القمامة تحدّثها تحرّكت الملكة إلى مكان القمامة وقلبتها راساً على عقب فرأت فتاةً لم ترَ مثيلاً لها في الجمال، فصاحت بها:

- إنسية ولا جنية؟

فردّت طية:

- بل إنسية ومن خيور الإنس.

فقادتها الملكة إلى القصر وأمرت الخادمات بتنظيفها وإلباسها أحسن الملابس ثم الإتيان بها إلى مقصورتها. وحين انتهت الخادمات من تزيينها وتنظيفها وعرضها على الملكة لم تصدّق أنّ في الكون فتاة بهذا الجمال، فرغبت في أن تزوّجها لابنها، وأعلن في القصر عن خطبة ولي العهد للفتاة الغريبة، وتناقلت النساء الخبر، وكانت كلّ أم تمنّي نفسها بأن يكون ولي العهد زوجاً لابنتها، فحقدن على الفتاة الغريبة وبدأن بالبحث عن أيّ عيب يلصقنه بها، ولعدم تمكّنهن من رؤيتها أغروا مزيّنة القصر بنقل أخبارها إليهن، وأجزلوا لها العطايا والهبات، فكانت المزينة تتلصص على الفتاة لتكتشف أيّ عيب بها، وكلّما نظرت إليها عادت لتقول لهن:

- ليس في الكون أجمل منها.

فيزداد كرههن لهذه الغريبة التي لا يعرفن عنها شيئاً، والقادمة من مزابل القمائم لتصبح زوجة ولي العهد، ومازلن يغرين المزينة بالبحث عن أيّ شيء يعيبها كي يستخدمنه في نقض خطبة ولي العهد.

لاحظت المزينة أنّ ملابس الفتاة كلها تخطّ في الارض فقالت لها:

- يا ابنتي ثيابك اتسخت من طولها فلو قصرت فساتينك كي لا تخط على الارض.

فردّت عليها الفتاة:

- أحب أن تكون ملابسي طويلة جداً.

أحسّت المزينة أنّ الفتاة تخفي شيئاً تحت هذه الفساتين الطويلة، فكانت تبحث عن وسيلة لكشف ما تحتها، وظلّت تراقب الفتاة وتتحين الفرص لمراقبتها عندما تذهب للاغتسال. وذات يوم رأتها خارجة من دورة المياه ورأت أنّ لها ساقي حمار[١]، فخرجت وأخبرت النساء بأنّ الفتاة جنية وأنّ لها ساقي حمار... فرحت النساء بهذا الخبر وأخذن يتدبّرن وسيلة لكشف هذه الحقيقة للملكة وابنها، وقد تبرّعت أخت الملك التي كانت تعدّ ابنتها للزواج من ولي العهد بتدبّر حيلة تكشف أنّ الفتاة جنية جاءت لتقضي على الملك وابنه. فذهبت إلى الملك وقالت له:

- كيف تقبل أن تزوّج ابنك الوحيد بجنية؟

استغرب الملك قول أخته وسألها:

- وكيف عرفتِ أنها جنية؟

فقالت له:

- ليس للبشر سيقان حمير، فقط (السعلوة) لها ساقا حمار، وهذه الفتاة لها ساقا حمار.

فقال لها الملك:

- وكيف نعرف هذا... فلو طلبنا منها أن تكشف عن ساقها ولم تكن ساق حمار لربما غضبت ورفضت الزواج من ابني.

فقالت له أخته:

- عندي حيلة تجعل كلّ الشعب يرى ساقيها من غير أن تشعر بهذا.

فقال لها الملك:

---

(١) ثمة أسطورة عن ملكة سبأ في تجرينيا (إرتيريا) تقول إنّ فتاة تجرينية اسمها اتبي ازيب (أي ملكة الجنوب) كانت لها ساقا حمار مكسوتان بالشعر وأنها تسمع بحكمة النبي سليمان وقوته الروحية فتقرر الذهاب إلى أورشليم لتحصل منه على الشفاء وتسافر.
وهذه تتداخل مع أسطورة الجنية ليليت التي تقمّصت جسد ثعبان وتظهر في الليل عارية يكسوها الشعر وهي بساقي حمار. (حمزة علي لقمان: **أساطير من تاريخ اليمن**، دار المسيرة، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٨، ص٥٢)

- وما هي هذه الحيلة؟

فقالت له:

- أعلن في المملكة عن مسابقة للجري بين الفتيات الراغبات في الزواج من ولي العهد، وسوف تكون هي من بينهن، وعندها ستكشف عن ساقيها ونرى ما تخبّئه تحت ملابسها.

استحسن الملك الفكرة وأعلن عن السباق، وعندما سمعت طيبة بهذا الإعلان أصابها الغمّ والكدر وأيقنت أنّ سرها سوف يكشف، وأنّ الجميع سيرجمونها أو يشنقونها ويعلقون جسدها على بوابة المدينة، فأصابها الأرق ولم تستطع النوم.

أما أختها حسيبة فقد افتقدت غيابها وأخذت تبحث عنها في كلّ مكان تتوقع أن تذهب إليه، وحين عاد الكلب ووجدها على حالتها من الحزن والبكاء لفقد أختها ظلّ يواسيها ويصبّرها، وهي في حالة بكاءٍ وبحثٍ مستمرين. وكانت تماثل أختها في الجمال وقد كثر خطابها فكانت تشترط على أيّ خاطب أن يوصلها بأختها كي تقبل خطبته، فعجز الخطّاب عن معرفة مكانها.

وذات ليلة طلع عليها شاب وسيم وقال لها:

- أنا أحبك من زمن بعيد منذ أن كنت طفلة وجئت الآن خاطباً لك وعلى استعداد أن ألبّي شرطك.

استغربت حديثه وقالت له:

- لم أرك أبداً فكيف أحببتني وأنا لا أزال صغيرة؟

فقال لها:

- لو أخبرتك من أنا أخاف أن ترفضي طلبي.

زاد فضولها لمعرفة من يكون ذلك الشاب، فقالت له:

- قل من أنت ولا تخف.

فقال لها:

- سوف أعرّفك بنفسي في الصباح عندما أقدم لك شيئاً تحبينه.

وغاب عن ناظريها مودّعاً ومتمنّياً أن تقبل به عريساً لها.

وفي صباح اليوم التالي ظلت حسيبة تنتظر قدوم ذلك الشاب الذي وعدها أن

يعرّف بنفسه بتقديم ما تحبّ، وكانت تفكّر في ما هو الشيء الذي تحبّه حبّاً كبيراً جعل منه الشاب دليلاً على معرفتها منذ طفولتها، وأخذت تسترجع ما تحبّه علّها تحزر قبل أن يأتي الشاب. فكّرت كثيراً ولم تصل إلى نتيجة فهي تحبّ أشياء كثيرة، تحب البخور والعطور والذهب والملابس والفواكه والمناظر الطبيعية.

وبينما هي تحصي الأشياء التي تحبها ظهر الكلب وفي فمه عروستها المصنوعة من القماش والتي فقدتها عندما كانت صغيرة، وكان عقاب الكلب الذي أضاعها أن كسرت له رجله.

تناولت العروسة وقلبتها وقبّلتها بفرح وتذكّرت تلك الأيام السعيدة حين كانت أمها وأختها تحيطان بها وتذكّرت وحدتها وضياع أختها فاكتسى وجهها بالحزن. وزاد من انقباض قلبها عدم ظهور الشاب كما وعد، فرجعت إلى بيتها ومن خلفها ركض الكلب نابحاً.

وفي الليل ظهر الشاب فاستقبلته بالصدود وقالت له:

- لقد وعدت وأخلفت.

فقال لها الشاب:

- بل وفيت بوعدي وجلبت لك ما تحبينه.

فاستغربت الفتاة وقالت له:

- لم تحضر ولم تجلب شيئاً.

فقال لها الشاب:

- والعروسة التي معك؟

فقالت له:

- وهل أنت من أعطاها للكلب؟

فقال لها:

- لا تخافي وسوف أخبرك بكل شيء.

فقالت له:

- ممَّ أخاف؟ قل ما عندك.

فقال لها:

- أنا الكلب.

فقفزت من مكانها فزعةً مرعوبة، فقال لها:

- من طفولتك وأنا أحبّك فإن قبلت بي زوجاً فسوف أضعك في عيني وإن رفضت فأنا حارسك الأمين.

وبعد أن هدأت وتذكّرت ما كان يفعله الكلب من أجلها وافقت على الزواج منه واشترطت عليه أن ترى أختها وتطمئنّ عليها. فرح الكلب فرحاً كبيراً وحمل حسيبة على ظهره وطار بها إلى المدينة التي ترك بها طيبة. وهناك وجدت حسيبة أختها في حالة حزن شديد تقلب أمرها وخشيتها من قتلها، وحين رأت أختها برفقة شاب وسيم فرحت بهما فرحاً عظيماً وأخبرتهما بما هي مقدمة عليه، فطمأنها الشاب وقال لها:

- سوف تعود ساقاك إلى ما كانت عليه.

وأخبرتها أختها بقصة الكلب وخطبته لها وموافقتها على الزواج منه، وطلب الشاب من طيبة أن تكشف عن ساقيها وقام بلعقهما فعادت إلى ما كانت عليه، وقامت حسيبة بنقش الحنّاء على ساقي أختها ثم ودّعتها على أن تراها قريباً، وقد وعدت أختها أن لا تغادر المدينة حتى يتمّ زواجها من ابن الملك.

وفي صباح اليوم التالي اجتمع الناس في مضمار السباق لرؤية الفتاة الغريبة وما أُشيع من أنها جنية تسير بساقي حمار.

وقف الملك ومن حوله أسرته واصطفت المتسابقات لبدء السباق، وقد تأخرت طيبة عن الحضور فانتظر الجميع وصولها، وعندما حضرت تمنّت على الملك أن يعفيها من الدخول في السباق إلاّ أنه أصرّ على ذلك، فتمنّعت حتى سمعت أخت الملك تقول لها وبصوت مرتفع:

- علمنا أنك سعلوة وما هذا السباق إلاّ لرؤية ساقي الحمار اللتين تحملينهما، واليوم سوف يقطع رأسك سواء دخلت السباق أم لم تدخلي.

تحرّكت طيبة إلى مضمار السباق وكشفت عن ساقيها فتصايح الحضور لجمال ساقيها وقد تزيّنا بنقوش الحناء... فصاح الملك بأعلى صوته:

- أشهدك يا شعبي أنّي قبلت زواج ابني من الفتاة الغريبة وسوف يقام زواجهما مع بداية الشهر المقبل.

فرحت الملكة وابنها بما أعلنه الملك، وتراجعت النساء عن المكر بطيبة بعد أن تقرّر زواجها من ولي العهد. وطلبت طيبة من الملكة السماح بأن تزفّ أختها معها في حفل زواجها، فوافقت على طلبها.

وفي ليلة واحدة زفّت طيبة على الأمير وولي العهد وزفّت حسيبة على الكلب الجني وعاش الجميع في سعادة ووئام.

رواية حامدة حمدان

وداعة الله

في زمنٍ من الأزمان قرّر أحد الرجال أن يحجّ إلى بيت الله الحرام، وكانت الطريق إلى المشاعر المقدّسة طويلة ومنهكة، وقد تردّد كثيراً في أخذ زوجته الحامل معه، وكان كلّما قرب موعد الرحيل تشبثت زوجته برغبة أن تقضي فرضها خشية أن يحول بينها وبين ذلك موت أو عدم استطاعة، وكان اعتراضه قائماً على حجّة البعد وهي امرأة قد قرب وضعها لمولودها، فكانت تقول له:

- ما أجمل أن يلد ولدك في أفضل بقعة على وجه الأرض.

وظلت ترغّبه باصطحابها إلى أن وافق.

ومع دخول أشهر الحج، يمّم وجهه إلى مكة ممتطياً بغلة وأركب زوجته جملاً هيّأ لها على ظهره هودجاً مريحاً حتى إذا وصلا إلى الميقات أحرما بنية الإقران وواصلا سفرهما ملبيين مستغفرين.

وعلى بعد ست شدّات من مكة توجّعت زوجته وظهرت علامات الولادة جليّةً، ولم يكن الرجل عارفاً بكيفية التوليد فأنزل زوجته من هودجها، والحيرة تكتسي كل تصرفاته و«يضرب أخماساً لأسداس»[1] لا يعرف ماذا يصنع. تلفّت بحثاً عن معين،

---

(١) «ضرب أخماساً لأسداس» هو مثل عربي جرى على ألسنة كثير من الناس خطأً من وجهين: أولهما في النطق فيقولون: «ضرب أخماساً في أسداس» مستبدلين باللام حرف الفاء؛ وثانيهما في المضرب إذ يضربونه فيمن يعتريه الشكّ والحيرة ويكثر التفكير، كما أنهم يزعمون أنّ كلمة ضرب معناها ضرب كما في الحساب، يعني جُدّاء. والحقّ أن ضرب هنا معناها أظهر وبيّن قال تعالى: «ضرب لكم مثلاً». والواجب ألا يضرب هذا المثل إلاّ في من يسعى في المكر والخديعة فيظهر شيئاً ويريد غيره. قال ابن الأعرابي: العرب تقول لمن خاتل: ضرب أخماساً =

فكانت عيناه تصلان لآخر المدى من غير أن تلمحا أحداً، فينطلق مهرولاً بين الجهات علّه يجد من يمدّ له يد العون فلا يجد، وبين روحاته وغدواته اتخذ قراراً، فعاد إلى زوجته وحملها إلى مغارة قريبة، وقال لها:

- أخشى إن بقيت معك يفوتني الحج وقد استخرت الله أن أتركك هنا، فماذا تقولين؟

فردّت عليه وهي تتعصر من الألم:

- لن أكون خيراً من سيدتنا هاجر، اذهب والله معي.

ترك لها زوادة السفر وما كان معه من ماء واستودعها الله ومضى يخبّ القفار ليلحق بالوقوف بعَرَفة... ولا زال سائراً حتى شارف على البيت الحرام، فطاف طواف القدوم وركب بغلته وانطلق في أثر الحجيج حتى بلغ مشعر منى فهبط الوادي وانطلق ملبّياً مع الملبّين.

أما ما كان من حال زوجته فقد داهمها الطلق متتابعاً بعد الغروب، وكان قد مضى على رحيل زوجها نصف نهار، ولشدّة الألم وشعورها بالوحدة والخوف فقد تخلّت عن خوفها وأخذت تصرخ وتستغيث فيتردّد صوتها في جنبات المغارة، فاستلقت على ظهرها مستحكمةً تدعو الله أن يسهّل ولادتها، وأخذت تعالج وضعها بنفسها، ولازالت بين الصراخ وتفقد انسلال الجنين حتى سمعت صراخ وبكاء مولودها، فتحاملت على نفسها وقطعت حبل السرة وضمت وليدها إلى صدرها وغفت من شدة التعب.

= لأسداس، وأصل ذلك أنّ شيخاً كان في إبله ومعه أولاده يرعونها قد طالت غربتهم عن أهلهم فقال لهم: ارعوا إبلكم ربعاً فرعوا ربعاً نحو طريق أهلهم فقالوا لو رعيناها خمساً فزادوا يوماً قِبل أهلهم ثم قالوا: لو رعيناها سِدساً، ففطن الشيخ لما يريدون فقال: ما أنتم إلا ضرب أخماس لأسداس، وما همتكم رعيها إنما همتكم أهلكم وأنشأ يقول:

وذلك ضرب أخماس أراه ... لأسداس عسى ألا تكونا

قال أبو عبيدة: «ضرب أخماس لأسداس» يُقال للذي يقدّم أمراً يريد به غيره.

والرِّبْع والخِمس والسِّدس كلها إظماء للإبل، أي أنها بعد رعيها ترد الماء في اليوم الرابع أو الخامس أو السادس. (تاج العروس من جواهر القاموس لمحمد بن عبد الرزاق المرتضى الزبيدي، وكذلك كتاب الدلائل في غريب الحديث لابن ثابت السرقسطي، تحقيق الدكتور محمد القنّاص).

استيقظت مع الصباح مبتهجةً بفرج الله، وتطلعت إلى وليدها فرحةً حامدةً شاكرةً فضل الكريم المنّان الذي سهّل لها وعليها، وأخذت ترضع ولدها حتى شبع، وتماسكت وفتحت الزوادة فوجدت بها خيراً كثيراً، فأكلت وشربت قليلاً من الماء وعادت إلى الاسترخاء.

مرّت عليها أيام وهي على حالتها تلك حتى بدأ الخوف يداهمها، فالماء أوشك على الانتهاء تماماً ولم يعد هناك من زاد تأكله، فلفّت ابنها بقطعة قماش وسمّت عليه بأسماء الله الحسنى ووضعته في مكانه الذي ولدت فيه وخرجت تتفقد ما الذي يوجد خارج المغارة.

وأول ما صدمت به فراغ المكان من جَمَلها، تلفتت يمنةً ويسرى فلم تعثر له على وجود، ورأت المكان مقفراً ليس به شجر ولا حجر إلاّ الجبل الذي نحتت فيه الرياح تلك المغارة العميقة بينما تمدّدت الرمال في كلّ مكان وعلى مسافات شاسعة، وعندما سمعت بكاء وليدها عادت إليه مسرعةً وضمّته إلى حضنها وسكبت أدمعها وأخذت تبتهل إلى الله.

قرصها الجوع وذبحها الظمأ فخرجت خارج مغارتها تسعى بين رمالها علّها تجد شيئاً يؤكل، ولم يعد مهماً نوع الأكل فقد احتزمت بتصميم أن تظلّ حية لابنها، وكان لديها الاستعداد أن تأكل أي زاحف أو أي حشرة وتلوك أعجاز عشب تناثر هنا وهناك.

تنهض يومياً من الصباح الباكر من أجل أن تصطاد الزواحف الخارجة من مخابئها، وفي أحيان تتعقب بعضها من بُعد لعلها ترشدها إلى مكان يوجد به ماء...

ظلّت على هذه الحال فأصابها الاستوحاش، فمع عدم تواجد الماء كانت تقوم باصطياد بعض الزواحف وشرب دمها... فلم يكن يهمّها شيء سوى البقاء حية وأن يظلّ ثديها مُدرّاً للّبن. وكانت تذهب وتعود فتجد وليدها يتقلب وسط المغارة ضاحكاً مرة وباكياً مرات.

وذات يوم وجدت بيده عشبة يضعها في فمه فتناولتها منه فاذا هي عشبة مشبعة بقطرات ماء، وكم كان فرحها حين وجدت أنّ تلك العشبة متوفرة بكميات كبيرة

داخل المغارة في جهة لم تتنبّه لها طوال مكوثها داخل المغارة، ومع وجود هذه العشبة لم يعد من مشكلة سوى توفير صيد الزواحف والحشرات.

مضت شهور وهي تتدبّر حالها وحال وليدها داخل تلك المغارة، وقد عزفت عن مغامرة قطع تلك الصحراء بعد محاولة وحيدة كادت تبتلعها الرمال وتغيبها عن الوجود هي ووليدها، فاحتكمت لأمر ربها وبقيت في تلك المغارة تدبّر كيفية مواصلة الحياة.

وذات ليلة وبينما هي تستعدّ للنوم أحسّت بوخزة مؤلمة في أسفل ساقها، فمدّت يدها إلى موقع الألم فإذا بها تمسك عقرباً، فقفزت صارخةً وقذفت العقرب بعيداً وباتت كلّ الليل متوجّعةً متألمة، ولم يأتِ الصباح إلاّ وقواها قد خارت وارتفعت حرارة جسدها وتقاطر العرق من جيدها وصدرها وتباطأ نفسها، فسحبت وليدها إلى صدرها وغفت.

أما ما كان من أمر زوجها فقد أكمل حجّه، ومع انتهاء آخر شوط من طواف الوداع كان قلبه يخفق للعودة ومعرفة ما الذي حدث لزوجته وهو يدعو الله أن يسلّمها من كلّ شرّ.

ركب بغلته وخبّ في المسير عائداً، وفي طريقه صادف اثنان يختصمان وقد فجر أحدهما على الآخر، فتدخل ليصلح بينهما فإذا بالفاجر منهما يتّهمه بمعاونة خصمه على سرقته، وأمسك بالحاج وأشبعه ضرباً، فالتفّ حولهما العابرون، ولم يستطع المجتمعون تخليص الحاج إلاّ بعد أن غرس الفاجر خنجره في صدره، وتفلّت من بين أيديهم هارباً، وانشغل الناس بالحاج المصاب، فأسنده أحد المجتمعين وطلب ممّن هم حوله مساعدته لنقل الحاج إلى داخل مكة، فصنع له حاوية من جذوع الأشجار ووضعه فيها وثبتت على ظهر حصان ونقل إلى أحد المداوين المشهورين في مكة، فعاين إصابته وعمق جرحه وبذل جهداً في إسعافه، وحين سأل: من معه؟ تبرّأ الجميع من معرفته وعرّفوا بأنفسهم أنهم فاعلو خير، فأبقاه المداوي في غرفته، وظلّ الجريح غائباً عن الوعي أسبوعاً كاملاً، وقد تفرّغ المداوي لتطبيبه والاعتناء به، وحين أفاق أخبره بقصته كاملة فأسف لحاله وأبقاه عنده حتى تشافى واستطاع النهوض والحركة.

وكان يشعر بالخجل الشديد ويديم الاعتذار للمداوي لكونه لا يملك شيئاً يقدّمه

له فيخفّف عنه معالجه ويطالبه برفع الحرج عن نفسه. وعندما قوي واشتد استأذن المداوي في الرحيل فأذن له وتعانقا على أمل اللقاء في قابل الأيام.

لم يكن الحاج يملك شيئاً وقد اعتراه الخجل من أن يطلب من المداوي أن يعينه بثمن حمار يركبه في سفره، فقرّر أن يغادره ويعمل من أجل جمع مال يشتري به راحلة تعينه على قطع الطريق الطويل والشاق.

فعمل (صبياً) لدى بائع سبح بأجرٍ زهيد حرص على جمعه وعدم التفريط بأيّ قرش، وكانت صورة زوجته لا تفارقه، مثلها مثل اللوم الذي جثم على صدره لكونه تركها في مكان قفر ولم يبالِ بها وبما في أحشائها، وكلّما عصره الشوق والحزن صبّر نفسه بأنّ هذا هو قدره، فجدّ في العمل والحرص على عدم الإنفاق إلاّ في الحدود الضيقة. وبعد مضي شهور استطاع جمع مال يستطيع به شراء حمار وينفق ما تبقّى على سفره.

وما أن وجّه الحمار نحو وجهة مقصده حتى أخذ على نفسه عهداً أن لا يتدخل في أمر كائن من يكون، وانطلق يقطع المسافات من غير أن يقف حتى بلغ المغارة التي أودع فيها زوجته، فربط حماره وصعد، فوقفت عيناه على مشهد سلب عقله وتركه فاتحاً فمه، فقد رأى جسد زوجته مستنداً على صخرة والنصف الأيسر من جسدها ميت متفتت بالي العظام وقد جرت فيها الدود والحشرات بينما النصف الأيمن من جسدها حي نابض بالحياة، وطفل معلّق بثديها يرضع حتى إذا شبع انزلق ليلعب ويلهو حولها فإذا ابتعد جذبته بيدها إليها.

في وقفة الحاج وحيرته اتّسعت عين زوجته وأغمضتها حين رأته يحمل طفلها وفي سرعة متناهية تفتت شقها الأيمن وغدا رفاتاً متماثلاً مع شقّها الأيسر.

قام الحاج بحفر قبر داخل المغارة وصلّى على زوجته وواراها الثرى، وحمل طفله وغادر المغارة، وقبل أن يبتعد تذكّر أنه نسي في الداخل زوادته فصعد ليجلبها فإذا فتحة المغارة قد سُدّت بصخرة عظيمة.

رواية زيد بازيد

الكاذب الصدوق

يقال إنّ قاضياً كان فاسد الذمة، ظلوماً، وكان له جار يعرف هذه الحقيقة، وكلما حاول كشف حقيقة القاضي كُذّب واتُّهم من قبل الجيران بأنه حقود لا يتورع عن رمي الناس بما ليس فيهم.

ولم يكن القاضي غافلاً عن جاره هذا، فأخذ يتحين الفرص من أجل الإيقاع به بأي جرم كي يحكم عليه حكماً يغيّبه في السجن لسنوات.

وذات يوم تقدّم رجل بشكوى على جار القاضي مدّعياً أنّه تعدّى على أرضه وسلبها، وكانت الشكوى مكيدة مدبّرة من المدّعي، فحين علم بالخصومة ما بين القاضي وجاره استغلّ ذلك وادّعى بما ادّعاه.

وكان الجميع يعلم أنّ تلك الأرض هي لجار القاضي ورثها أباً عن جد، وحينما اطّلع القاضي على عريضة الشكوى وجد أنّ الحجج المقدمة واهية لا تستقيم على وجه وأنّ جاره يمكنه إحضار مائة شخص كشهود يطعنون في الدعوى، فاستدعى القاضي المدّعي وسأله:

- هل علم أحد بدعواك؟

فأجابه المدعي:

- لا يعلم أحد بها إلاّ أنت يا سيدي القاضي.

فأمسك به ونصحه بالتريث في الدعوى حتى يتمكن من سبك دعواه بالحجج المقنعة. فوجد المدعي رغبةً لدى القاضي في إقامة الحجة على جاره، وتحيّن فرصة خلوّ المجلس من الناس وقال للقاضي:

- بمَ تنصحني؟

فردّ عليه القاضي: كن كاذباً صدوقاً.

فقال له المدعي: وكيف أكون كاذباً صدوقاً؟

قال له: أن تؤمن بأنّ كذبك حق.

فلم يفهم المدعي وخرج يبحث عن كيفية الكاذب الصدوق... حتى إذا سمع أنّ المؤمن لا يكذب[1] ذهب إلى جار القاضي وقال له:

- ما من أحد إلاّ وتغلبه نفسه، وأريد منك أن تسامحني.

فقال له جار القاضي: على ماذا؟

فقال المدعي: لقد ادّعيت بين الناس أنك كاذب وكنت في صلاة وسمعت المتحدّث يقول: المؤمن لا يكذب؛ فأحسست بالذنب وجئت كي تسامحني.

فأبدى الجار تسامحاً وعفواً عن خصمه، فقال المدعي:

- والله لا أبرح هذه الأرض حتى تعتقني منها.

وظلّ واقفاً على بوابة بيت الجار متصنّماً ولم يتحرك قيد أنمله وهو يقول للجار:

- لا تحبسني هنا.

استغرب الجار ولم يعرف ما الذي يقصده المدّعي، وحين استفسر منه وجدها فرصة لأن يوقع بهذا الجار فقال له:

- أخشى إن أعلنت للناس بأني كذبت في ادعائي عليك أن لا يصدقني أحد بعد اليوم وقد وجدت مخرجاً يبقي لي كرامتي وماء وجهي.

فقال الجار: وكيف ذلك؟

فقال المدعي: أولاً عليك أن تخلصني من حبسي وتكتب لي كتاباً بأنك ملكت الأرض فزهدت منها، وأعطيتني عفوك عنها حتى أعلن للناس أني كذبت عليك... .

فقال الجار: أيّ أرض هذه؟

---

(١) هنا إشارة إلى ما رُوي عن الإمام مالك في الموطأ والبيهقي في شعب الإيمان عَنْ صَفْوَانَ بْنِ سُلَيْم رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: «قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَاناً؟ فَقَالَ: نَعَمْ، فَقِيلَ لَهُ: أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ بَخِيلاً؟ فَقَالَ: نَعَمْ، فَقِيلَ لَهُ: أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَّاباً؟ فَقَالَ: لا».

فقال له: هذه البقعة التي أقف عليها في الشارع، ألم تسمعني وأنا أقول: «والله لا أبرح هذه الأرض حتى تعتقني منها»؟ فأنا سجين هذا المكان حتى تحررني.

فقال له: أنا لا أملكها حتى أحرّرها لك.

فقال المدعي: لقد ملكتها كونها فسحة بيتك... وأنا سجينها الآن... جرّب أن تخرجني منها.

حاول الجار جذبه مراراً إلاّ أنّ المدعي تثبّت وانغرس في مكانه، فقام الجار بكتابة: أشهد الله أني ملكت هذه الأرض وزهدت منها فوهبتها لفلان.

وناوله الورقة، فأخذها المدعي وانطلق إلى القاضي قائلاً:

- أنا الآن كذوب صادق.

فاستدعى القاضي جاره لأن يقف أمامه وقد اتفق مع المدّعي على كيفية مسار الجلسة، وحين حضر الجار بدأ المدعي حديثه لجار القاضي:

- هل تؤمن أنّ المؤمن لا يكذب؟

فردّ الجار: نعم، المؤمن لا يكذب.

فأخرج المدعي القصاصة وقال للجار:

- ألم تكتب لي هذه الورقة؟

فتناولها الجار وتأملها ثم رد:

- نعم كتبتها لك.

وعلى الفور ارتفع صوت القاضي مخاطباً جاره:

- أعد إلى خصمك أرضه.

فقال الجار: أي أرض هذه التي يلاحقني بها هذا الإنسان؟

وعندما علم الجار أنّ الأرض المقصودة هي أرضه التي تحمل حقوله وثمارها نفى أن يكون قد باعها أو وهبها، فلوّح المدعي بتلك القصاصة التي كتبها الجار وهو يردد:

- ألم تقل إنّ المؤمن لا يكذب ولا يمكن أن أكذب أنا، وهذه القصاصة؟

في الوقت نفسه وعلى الفور حكم القاضي للمدّعي بالأرض.

وعلم الجار فيما بعد أنّ القاضي تعاون مع خصمه لسلبه أرضه، فلم يجد

طريقة لإثبات ذلك، فكتم غيظه بين جوانحه واستعاض الله في الأرض التي أخذت منه.

وذات يوم تناقل الناس أنّ السلطان مغرم بالقاضي وعدله، وبسبب ذلك سوف يحضر إلى مجلسه ليسمع ويرى كيف يقضي قاضيه بين الناس، فتهافت خلق كثير لمشاركة السلطان حضور جلسات القاضي.

وعندما علم القاضي بهذا دبّر متخاصمين كثراً وحبك لكلٍّ منهم قضية وابتكر لكلّ قضية حلاً، وما أن التفّ السلطان والجمهور لسماع القضايا وحكم القاضي حتى نفذ إلى الجلسة جاره وهو يحمل مصباحاً في عز الظهيرة[1] فقال له القاضي:

- أنت مخبول والاّ سكران تضيء الكشاف في هذا الوقت؟

فردّ عليه بصوت مرتفع:

- ما أنا مخبول ولا سكران بل لديّ حق ضائع ولم أجده وأنا الآن أبحث عنه.

وافتعل تقليب وسائد ومخادّ وكراسي المجلس، والسلطان والناس ينظرون إلى ما يحدث مندهشين.

وصاح بالسلطان: يا سلطان الزمان ابحث معي عن حقي علّنا نجده هنا أو هنا.

وحين كان يقول هنا أو هنا كانت يده تعبث بعَمّة القاضي وتخلخل ذقنه وتفتح فمه.

فهم السلطان من حركات الجار أنّ قاضيه مدلّس، فصمت وكأنه لم يفهم، فقام الجار وسحب يده من فم القاضي قائلاً:

- من هنا حكم بالجور والظلم.

---

(١) هنا استلهام لقصة ديوجين ويقال إنه كان طوال حياته يحمل مصباحاً مضيئاً ويتجول به نهاراً بحثاً عن الأمانة وآخرون يقولون بحثاً عن العدل.
ديوجين فيلسوف إغريقي اعتاد العيش في برميل نبيذ، واشتُهر باعتناقه ودعوته لمبادئ خاصة بالمذهبين الفلسفيين العدمية والحيوانية، كما اشتُهر بحكايته الطريفة مع الإسكندر الأكبر؛ حيث يقال إنه بينما كان ديوجين يستريح في ضوء الشمس أثناء أحد الاحتفالات، أتاه الإسكندر الأكبر متحمّساً للقائه وسأله إن كان باستطاعته أن يقدّم له أي خدمة، فردّ عليه ديوجين، قائلاً: نعم... ابتعد فأنت تحجب عني ضوء الشمس، ورغم الإحراج قال الإسكندر: لو لم أكن الإسكندر لوددت أن أكون ديوجين!.

وأعاد حركته ساحباً لسان القاضي وقائلاً:

- ومن هنا جلست على ماء

- ومن هنا جلست على نار

- ومن هنا جلست على أرضي.

فتدخّل السلطان وخاطب القاضي:

- أين الأرض التي أخذتها فقد أخبرني صاحبك؟

فأقسم القاضي بأنه لم يأخذ إلاّ نصفها. وكان السلطان لا يعلم شيئاً عن تلك القضية، ولكنه استغلّ ارتباك القاضي وتدخل بما قال، وحين علم بالقصة كاملة سجن المدّعي والقاضي وعيّن ذلك الجار قاضياً للبلدة.(1)

رواية حسين بشاوري

(1) الحكاية غير متماسكة ولم يظهر الجار مقدرة فقهية خارقة حتى يوليه السلطان القضاء ولربما كانت التولية استناداً على حكمة ديوجين الذي وقف ضد الظلم في واقعه، فأرادت الحكاية أن تكرّمه وتمنحه القضاء كي يعدل بين الناس. فالحكاية الشعبية غالباً تنتصر للحق في نهاياتها وربما لهذا منح الجار القضاء.

التخلص من ثقل الملك

جلس السلطان مع أحد ندمائه الخلص يتسامران، وأخذ السلطان يشكو لنديمه ثقل المسؤولية التي على كاهلة والصعوبات التى يواجهها لحل مشاكل البلاد. فقال له نديمه:

- لو أنني أجلس مكانك لمدة ربع ساعة فقط لرأيتك العجب ولحللت كل الصعوبات التي تعترضك.

فقال له السلطان:

- وماذا تفعل بالحكم لمدة ربع ساعة؟

فقال له نديمه:

- سوف أريك العجب إن مكّنتني من ذلك.

فقال الملك لنديمه:

- سوف أمنحك الحكم لمدة ربع ساعة فأرني ماذا تستطيع أن تصنع خلال هذه الربع ساعة.

وأمر حاجبه أن يعلن للملأ أنّ السلطان قد تنازل عن الحكم لنديمه لمدة ربع ساعة فقط، وأنّ على الجميع تنفيذ أوامر نديمه خلال تلك الدقائق.

وعندما امتلك نديم السلطان الحكم لمدة ربع ساعة كان أول قرار اتخذه أن نادى على السياف وأمره بقطع رأس السلطان، وتربّع على عرش الحكم ما بقي من حياته!

رواية فوزي عقيل

أكرم الأكرمين

توفي شخص لم يكن يصلّي بانتظام، وفي ليلة وفاته حلم به إمام المسجد، ورآه في أجمل صوره، وسمعه يقول له:

- أنا في العليين.

فقال له:

- ولكنك لم تكن تصلّي بانتظام فكيف أصبحت من العليين؟

فردّ عليه:

- اسأل فلان.

وكان هذا الـ(فلان) يحضر إلى المسجد فى أوقات متقطعة، لذلك خرج إمام المسجد يبحث عنه لأيام دون أن يعثر عليه، وفى يوم الجمعة لمحه بين المصلين، وبعد انقضاء الصلاة ذهب إليه وسأله:

- ماذا تعرف عن فلان (المتوفي)؟

فردّ عليه:

- لاأعرفه!!

فقصّ عليه القصة، وقال له:

- وحينما سألته كيف أصبحت من العليين أشار إلي بأن أسألك.

فقال له الرجل:

- لقد حضرت دفنه وقلت: يا ربّ الأرباب لو كان هذا الميت ضيفي في هذا اليوم القائظ لأكرمته كرماً يذهب حرارة يومه، فكيف به وهو ضيفك يا أكرم الأكرمين؟

رواية عبدالعزيز الصفراني

القلب لله

وقف أناس على شطّ نهر في انتظار قارب يقلّهم إلى الجهة الأخرى، وكان من بينهم رجل بسيط الحال في ملبسه وفي علمه، وكان له دعاء واحد لا يعرف غيره يقوله في كلّ حالاته، وعندما أبطأ ظهور القارب تنافر الناس مؤجّلين قطع النهر إلى وقت آخر، ولم يتبقَّ على الشطّ إلاّ هذا الرجل البسيط ورجل آخر وكلاهما كان راغباً في الانتقال إلى ضفة النهر الأخرى بأيٍّ صورة كانت.

انتظرا طويلا وحين ملّ الرجل البسيط الانتظار رفع يده داعياً بدعائه الوحيد نفسه:

- تغفر أو لم تغفر، لا بدّ أن تغفر.

سمعه الرجل الذي يجاوره، وكان متفقهاً في الدين وعالماً في علوم الشرع، فشعر أنّ من واجبه تفقيه هذا الرجل الأمي، فاقترب منه وقال له ناهراً:

- يا رجل، لا بدّ أن تحسن الأدب مع ربّك حين تناجيه.

فقال له: لا أعرف إلاّ هكذا.

فوبّخه وتركه وانزوى جانباً وأخذ يتربّص بذلك الرجل الذي وضع رجله في النهر فرآه يسير على الماء، فناداه صائحاً:

- يا فلان، ادعُ الله كما يحلو لك.[1]

رواية لطفي شاهين

---

(١) عَن تَمِيم الدارِيِّ، قال: «سُئِلَ رَسول الله صلى الله عليه وسلم عَن مُعانَقَةِ الرَّجُلِ إذا لَقِيَهُ، قال: فَكَانت تَحِيَّةُ الأُمَمِ السالِفَةِ، وخالِصُ وُدِّهِم أَن يَسجُدَ هَذا لِهَذا، وأَنَّ أَوَّلَ مَن عانَقَ خَلِيلُ =

= الله إبراهيم عَلَيهِ السَّلامُ، وذَلِكَ أَنَّهُ خَرَجَ مَرَّةً يَرتادُ لِماشِيَتِهِ بِجَبَلٍ مِن جِبالِ بَيتِ المَقدِسِ، فَسمِعَ مُقَدِّسًا يُقَدِّسُ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ، فَذُهِلَ عَما كان يَطلُبُ وقَصَدَ الصَّوتَ، فَإِذا هو بِرَجُلٍ طُولُهُ ثَمانِيَةَ عَشَرَ ذِراعًا يُقَدِّسُ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ، فَقال لَهُ إبراهيم: يا شَيخُ، مَن رَبُّكَ؟ قال: الَّذِي فِي السَّماءِ، قال: فَمَن رَبُّ الأَرضِ؟ قال: الَّذِي فِي السَّماءِ، قال: ما بَينَهُما إِلَهٌ غَيرُهُ؟ قال: لا، هو رَبُّ مَن فِي الأَرضِ، فَقال لَهُ إبراهيم: هَل مَعَكَ أَحَدٌ مِن قَومِكَ؟ قال: ما عَلِمتُ أَحَدًا مِن قَومِي بَقِيَ غَيرِي، قال إبراهيم: فَأَينَ قِبلَتُكَ؟ قال: قِبلَتِي إِلَى الكَعبَةِ قِبلَةِ إبراهِيم، قال إبراهيم: فَما طَعامُكَ؟ قال: أَجمَعُ مِن ثَمَرَةِ هَذِهِ الأَشجارِ فِي الصَّيفِ فَآكُلُهُ فِي الشِّتاءِ، قال إبراهيم: أَينَ بَيتُكَ؟ قال: مِلكُ المَغارَةِ، قال: انطَلِق بِنا إِلَيهِ، قال: فَإِنَّ بَينِي وبَينَها وادِيًا لا يُخاضُ، قال إبراهيم: فَكَيفَ تَعبُرُهُ؟ قال: أَمشِي عَلَى الماءِ جائِيًا وأَمشِي عَلَيهِ ذاهِبًا، قال إبراهيم: انطَلِق بِنا فَلَعَلَّ الَّذِي ذَلَّلَكَ عَلَيكَ سَيُذَلِّلُنا، فانطَلَقا مَشيًا عَلَى الماءِ، وكُلُّ واحِدٍ مِنهُما يَتَعَجَّبُ مِما أَرَى صاحِبَهُ، فَلَما دَخَلا المَغارَةَ نَظَرَ إبراهيم، فَإِذا قِبلَتُهُ قِبلَةُ إبراهِيم، فَقال إبراهيم: أَيُّ يَومٍ أَعظَمُ؟ قال: اليَومُ الَّذِي يُوضَعُ كُرسِيُّهُ لِلحِسابِ، يَومَ تَزفِرُ جَهَنَّمُ زَفرَةً لا يَبقَى مَلَكٌ مُقَرَّبٌ ولا نَبِيٌّ مُرسَلٌ إِلاَّ خَرَّ بِوَجهِهِ لِهَولِ ذَلِكَ اليَومِ، قال إبراهيم: ادعُ اللَّهَ يا شَيخُ أَن يُؤَمِّنَنِي وإِياكَ مِن هَولِ ذَلِكَ اليَومِ، قال: ما تَصنَعُ بِدُعائِي، إِنَّ لِيَ دَعوَةً مَحبُوسَةً فِي السَّماءِ مُنذُ ثَلاثِ سِنِينَ لَم أَرَها، قال لَهُ إبراهيم: أَلا أُخبِرُكَ بِما حَبَسَ دُعاكَ؟ قال: بَلَى، قال إبراهيم: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ إِذا أَحَبَّ عَبداً أَخَّرَ مَسأَلَتَهُ يُحِبُّ صَوتَهُ وجَعَلَ لَهُ فِي كُلِّ مَسأَلَةٍ ما لا يَخطِرُ عَلَى قَلبِ بَشَرٍ، وإِذا أَبغَضَ صَوتَهُ عَجَّلَ مَسأَلَتَهُ أَو أَلقَى الإِياسَ فِي صَدرِهِ لِيَقبِضَ صَوتَهُ، فَما مَسأَلَتُكَ المَحبُوسَةُ فِي السَّماءِ مُنذُ ثَلاثِ سِنِينَ؟ قال: رَأَيتُ شابًا فِي رَأسِهِ ذُؤابَةٌ، ومَعَهُ بَقَرٌ كَأَنَّهُ الذَّهَبُ وغَنَمٌ كَأَنَّهُ فِضَّةٌ، فَقُلتُ: يا فَتَى لِمَن هَذِهِ؟ قال: لِخَلِيلِ الله إبراهِيم، فَقُلتُ: اللَّهُمَّ إِن كان لَكَ فِي الأَرضِ خَلِيلٌ فَأَرِنِيهِ قَبلَ خُرُوجِ رُوحِي مِنَ الدُّنيا، فاعتَنَقَهُ إبراهيم وقال لَهُ: قَد رُدَّت مَسأَلَتُكَ، وقَد كان قَبلَ ذَلِكَ يَسجُدُ هَذا لِهَذا وهَذا لِهَذا إِذا لَقِيَهُ، ثُمَّ جاءَ الإِسلامُ بِالمُصافَحَةِ فَلا تُفَرَّقُ الأَصابِعُ حَتَّى يُغفَرَ لِكُلِّ مُصافِحٍ، فالحَمدُ لِلَّهِ الَّذِي وضَعَ عَنا الآصارَ». - (كتاب العلل المتناهية في الأحاديث الواهية لعبد الرحمن بن علي الجوزي جمال الدين أبو الفرج).

قال المُؤَلِّفُ: هَذا حديث لا يَصِحُّ، وفِيهِ مَجاهِيلُ. قال أَبُو حاتِمٍ الرازِيُّ: عُثمانُ بن عَطاءٍ لا يُحتَجُّ به. وقال عَلِيُّ بن الجُنَيدِ: مَترُوكٌ. وقال الدارقُطني: ضَعِيفُ الحديث جِدًّا. وقال ابن حِبَّان: لا يَجُوزُ الاحتِجاجُ بِرِوايَتِهِ ولا بِرِوايَةِ أَبِيه، فَإِنَّ أَباهُ كان رَدِيءَ الحِفظِ ولا يَعلَمُ.

واجب السيد

كان لأحد العباد جارية تعمل لديه لا تعرف أي شيء وتظل في خدمته إلى وقت متأخر وبعد أن تنتهي من عملها تخرج ولا تعود إلا بعد وقت طويل، فتنبه سيدها لغيابها في مثل هذا الوقت، فساورته الظنون وقال في نفسه:

- أين تذهب هذه الجارية؟ لا شك أنها تذهب لمنكر.

وظمر على معاقبتها لكنه تريث وفضّل معرفة ما تصنع، وبعد أن انتهت من خدمته وخدمة سيدتها وخرجت إلى برية تحفّ بها أشجار كثيفة، وهناك خلعت ملابس العمل ولبست ملابس أخرى وأخذت تصلّي فكانت إذا سجدت سجد كلّ ما يجاورها من شجر، فذهل سيدها، وبعد أن انتهت ركض باتجاهها يقبّل يدها ويقول لها:

- بأيّ دعاء كنت تدعين الله في صلاتك؟

فقالت له:

- لا أعرف شيئاً كما تعلم يا سيدي.

فقال لها:

- ماذا تقولين؟

فقالت له:

- كنت أقول: أديت واجب سيدي واجب ستي وذحين أوادي واجبك يا ربي.

فقال لها:

- اذهبي فأنت حرة لوجه الله ولك ما يقيم حالك ما تبقى لي من عمر.

رواية لطفي شاهين

الله يعلم بالسرائر

كان هناك أخوان أحدهما عابد يتعبد فوق جبل والأخر فاسق يسكن أسفل الجبل وظلا على هذه الحال زمناً طويلاً. وفي أحد الأيام قال العابد:

- ماذا استفدت من العبادة؟ كل يوم صلاة وذكر دون فائدة وأخي يعيش في نعيم وحبور. . . لا بد أن أنزل عنده وأعيش حياتي وعند الموت سألاقي كريماً يغفر لعباده.

وفي نفس الوقت ندم أخوه الذي يسكن أسفل الجبل وقال:

- أنا طول عمري عايش على الذنوب وأخشى أن أموت عليها فتذهب دنيتي باخرتي بينما أخي يعيش عيشة قانعة مطمئنة وكل الخير أن أصعد إلى أخي وأشاركه حياته وأتقرب إلى الله عسى أن يغفر لي ذنبي.

وفي أثناء صعود وهبوط كل منهما جاءهما الموت، فكان الناس يمرون بالذي عُرف بالمعصية ويزدرونه ويقولون: عاش عاصياً ومات عاصياً، ويلتفون على العابد وكل منهم يقول: عاش عابداً ومات عابداً.

وحملوا الجثتين وغسلوهما وخرجوا لدفنهما وحفروا قبرين لكل منهما فكان قبر العابد يصطلي بنار موقدة بينما قبر العاصي تفوح منه روائح طيبة وتراب أرضه باردة، فقالوا:

- لا بدّ وأننا أخطأنا فهذا قبر العبد الصالح والآخر قبر أخيه

وعندما حملوا جثة العابد وعزموا على دفنها في القبر الذي تفوح منه روائح طيبة تحول إلى لهب وتحول القبر الآخر إلى قبر بارد، وظلوا على هذه الحال لوقت، وعندما أعياهم حمل الجثتين قال أعلمهم:

- ادفنوا كل واحد في قبره.

فدفنوهما ووضعوا على قبر العابد أغصان خضراء ووضعوا على قبر العاصي غصناً يابساً ومضوا. وبعد أيام مروا على القبرين فوجدوا الأغصان الخضراء التي وضعوها على قبر العابد قد تحولت إلى أغصان يابسة بينما الغصن اليابس الذي وضعوه على قبر العاصي قد اخضرّ وأزهر.

رواية ليلى عبده

كيد النساء

كان ياما كان، كان في ملك لديه بنت جميلة للغاية وكلّما خطبها أحد اشترطت عليه شرطاً فلا يحققه لها فترفض الزواج به. وشرطها أنه في يوم من الأيام نزلت امرأة ضيفة على أبيها فأكرمها وبالغ في إكرامها فتعجبّت منه وسألته:

- يمرّ بك الملوك والأمراء فلا تتباسط معهم كما تفعل مع هذه المرأة!

فقال لها:

- هذه سيدة عقلها. وعندما أرادت أن تفهم منه الكثير قال لها: عندما تكبرين ستفهمين.

وفي تلك الليلة جالست المرأة ابنة الملك وقالت لها:

- الرجال مخابر وليسوا مناظر، وإذا تزوّجتي تزوّجي بالفطن يعزّك مدى الدهر.

وجلست معها ليالي تعطيها خبرتها ونقشت على مرفقها «مين يعرف كيد النسا يحصل على قلب النسا» وقالت لها:

- زوجك هو الذي سيجيبك عن هذا السؤال فلا تتزوّجي إلاّ من يجيبك عليه، والجواب عندي وسأقوله لك من الآن فإن جاء أحد لطلب الزواج منك فاطلبي الجواب كما أقوله لك.

وأخبرتها بالجواب وسافرت إلى بلدها.

مضت سنوات وكبرت بنت الملك وزاد جمالها وفتنتها وسمع بها القاصي والداني وتقدّم لها مئات من الملوك والأمراء والوزراء والقادة وعامة الناس، وكان شرطها أن يجيب المتقدم لخطبتها عن سؤالها، وكلما جاءها الخطّاب تشترط شرطاً

واحداً هو أن تنفرد بخطيبها وتسأله وأن يجيب عن سؤالها الذي اعتبرته مهراً لها، وكلّما انفردت بخطيب سألته: ما هو كيد النساء؟ فلا تجد جواباً يقنعها فترفض خطبته. . .

وقد ذاع صيت جمالها وشرطها الذي لم يحققه أحد، وكان في المدينة شاب وسيم تربّى في الخرابات[1] وتصاحب مع الجنّ وكانوا يعطونه ما يريد فأصبح غنياً يمتلك القصور، وعندما سمع بالفتاة ذهب لرؤيتها قبل أن يخطبها، فعمل ساقياً ودخل عليها البيت فرأى جمالاً لم يره طول حياته، ثم تقدّم لها وعرض كلّ قصوره مهراً لها فقالت له:

- لا أريد قصورك بل أريد أن تجيب على سؤال واحد: ما هو كيد النسا؟

فلم يعرف جواباً فتذكّر أصحابه الجن وطلب منها مهلة ليعود لها بالجواب، فقالت له:

- لك ليلة واحدة إما تعود بالخبر أو تنسى خطبتك لي.

وعدها الشاب أن يعود بالجواب قبل انقضاء الليلة، وعاد إلى أصحابه يسألهم: ما هو كيد النساء؟ فلم يعرف أيّ جنّيٍّ الجواب، وطاف أحد الجن سائلاً عن الجواب حتى وصل إلى حكيم الجن، فقال له:

- هناك امرأة عجوز تسكن في طرف الدنيا[2] تعرف الجواب، وإن أراد صاحبك الوصول إليها فليذهب ويلتقي بها بمفرده وليتنبّه لها ولا يسبق قوله بشاشتها فإن بشت له يواصل ملاطفتها حتى تقول له ما هي حاجتك، وإن استعجل ستقطف رأسه قبل أن يسمع منها شيئاً فهي امرأة يستجيب لاستغاثتها عشرة سيوف كلّ سيف يبتر عشر رقاب، وهذه السيوف سيوف أبنائها لا يقبلون أن تُضام أمهم في شيء.

عاد الجنّي إلى الشاب وأخبره الخبر، فقال الشاب:

- وكيف أصل إلى أطراف الأرض وقد ضربت لي موعداً بليلة واحدة، فإن سافرت من الآن فلن أعود قبل سنة؟

---

(١) استعاضت الحكاية عن المغارات بالخرابات لأنّ الحكاية داخل المدينة.

(٢) نلاحظ هنا تغيب المكان وهي تيمة توجدها الحكاية لأسباب عديدة قد يكون أهمها أنّ الأسطورة انسلخت بتقادم الزمن أو أنها تحولت من الصياغة المقدسة إلى الصياغة الحكائية. . . وتغيب المكان هو فعل طارئ على الأسطورة.

فقالِ له الجني:

- أنا أحملك إلى موطنها في ساعة[١].

وحمله إلى طرف الدنيا فوجد امرأة عجوزاً تجلس بجوار بئر، فجلس معها شرب من البئر وبدأ يتحدث معها فسألها: ما هو كيد النسا؟

فوقفت عند البئر وبدأت تبكي وتنوح بصوتٍ مرتفع وتستغيث بأبنائها ليأتوا لقتل الشاب ظنّاً منهم أنه يريد أن يدفعها في البئر. فقال لها:

- ماذا تفعلين؟ وحاول إيقافها، وقال لها: أنا لم آتي إلى هنا لأذيتك.

فقامت وأمسكت بدلو الماء وسكبته على نفسها، فتعجّب الرجل منها وسألها:

- لماذا فعلتِ هذا؟

وبينما هو يكلمها أتى الأبناء العشرة مشهرين سيوفهم. فقالت العجوز:

- هذا الرجل أنقذني عندما سقطت في البئر.

فقام الأبناء يشكرونه وفرحوا به كثيراً فسألها:

- ما الحكمة من فعلتك هذه؟ فقالت:

- هكذا هي المرأة، إذا أسعدتها أحبتك وإذا أذيتها قتلتك، والفعل الأول للقتل والفعل الثاني للحب وكيد النساء يبطله الحب.

ثم التفتت إليه وقالت له:

- أرسلتك بدر البدور ولـم يصلني أحد ممن خطبها إلاّ أنت فعُد إليها وإذا لقيتها صُبّ على نفسك ماء الدلو فستعرف أنك وصلت للجواب. وإذا قالت لك: من أخبرك؟ قل لها: من نقشت على يدك فيصل لقلبك ما يصلني.

وكان قرص الشمس على وشك الغروب وقد أمسك به أبناؤها لضيافته وإكرامه فاعتذر منهم وقال لهم: سأعود إليكم، ولجأ إلى صديقه الجني الذي أعاده إلى بلدته فدخل على البنت قبل انقضاء الليلة فقالت له:

---

(١) هنا استعارة لقصة حوار سيدنا سليمان عليه السلام مع الجن عندما رغب في إحضار عرش بلقيس قبل أن تصل إليه ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (سورة النمل: ٣٩ - ٤٠).

- لو تأخرت ثانية لانتهى موعدك، فلم يتبقّ من انتصاف الليل إلا لحظات... هل جئتَ بالجواب؟

أخرج الشاب الدلو الذي حمله من بئر المرأة العجوز وصبّ ماءه على جسد الأميرة فصرخت وسارعت بوضع طرف فستانها في نار المدفأة والشاب ينظر إليها مستغرباً. تقافز الملك وحرسه لنجدتها فقالت لهم:

- اشتعل فستاني من نار المدفأة وقد أغاثني هذا الشاب وأطفأ الحريق. فقال لها الشاب:

- هل تقبلين بي زوجاً لك؟ فغاصت في خجلها وهزّت برأسها، فسعُد الملك وزوّجها بذلك الشاب الذي أصبح ملكاً للبلاد.

وقام صديقه الجني بتسجيل السؤال والجواب ووزّعه على بقية جنّ الأرض ليحفظوه لو أنّ أحداً سألهم عن كيد النسا بقية الأزمان!

رواية فوزية البلوي

شجرة التفاحة

كانت تتمنى أن يرزقها الله بطفل، وبعد زمن طويل أنجبت طفلاً دميماً للغاية فنفرت منه وخرجت إلى الغابة وتركته هناك، وكانت بجواره شجرة تفاح صغيرة كبرا مع بعضهما، وكانت تغطّيه من الشمس وتغذّيه من ثمارها، وكبر الصبي مع التفاحة فكانت تجالسه ويتحدّثان عن همومهما، فكانت تشتكي له من استغلال الناس لثمارها وقطع أوراقها من غير الالتفات إلى أحزانها، وكان الصبي يخرج ليتنزه فيرى الصبايا فيتوق أن تكون له فتاة، لكنّ الفتيات كنّ ينفرن منه. وعندما كبر أراد أن يبني له بيتاً فأعطته التفاحة من أغصانها فبنى بيته، وكانت شجرة التفاح في وسط ذلك البيت. وأراد أن يتزوّج وكلّما ذهب إلى فتاة رفضته فأعطته التفاحة رائحتها فقبلت به فتاة جميلة، وعندما زفّت إلى البيت قالت له:

- شجرة التفاح ضيّقت علينا البيت ولا بدّ من قطعها.

فاستجاب لها وقطع شجرة التفاحة فعاد دميماً ورفضته زوجته.

رواية هاني الجهني

ست ساعات من النعيم

كان ياما كان، كان في قديم الزمان صياد يعيش مع زوجته في حالة فقر مدقع، فكلّ يوم يخرج للصيد من الصباح الباكر ويلقي بشبكته ويظلّ منتظراً إلى وقت الظهيرة، وعندما يرفع شبكته لا يجد الصيد الوفير، فيحمل ما اصطاده إلى السوق ويبقي حبّة أو حبتين كي يتغذى بها هو وزوجته. وظلّ على هذه الحال زمناً طويلاً ولم يتمكّن من ادخار أيّ مبلغ مالي يمكّنه من شراء بيت أو تحسين حالته المادية.

وكان قانعاً يواسي زوجته ويحضّها على الحمد والشكر على ما هما عليه.

وذات يوم رمى شبكته وظلّ ينتظر إلى ما بعد الظهر وحين رفعها من البحر لم يجد بها إلاّ سمكة واحدة فاحتار هل يبيعها أم يعود بها إلى بيته كي يأكلها هو وزوجته، وفي آخر الأمر قرر أن يعود بها إلى بيته لتكون وجبتهم لذلك اليوم.

عاد الرجل مبكراً على غير العادة فسألته زوجته عن هذا التبكير، فقال لها: لم يرزقنا الله اليوم إلاّ هذه السمكة، وناولها إياها قائلاً: جهّزيها للغذاء... ودخل مخدعه ليرتاح قليلاً.

قامت الزوجة بتقشير وتنظيف السمكة، وحين شقّت بطنها وجدت بها حبّة لؤلؤ كبيرة صافية العروق، ففرحت فرحاً عظيماً ودخلت إلى زوجها لتبشّره بما وجدت في بطن السمكة.

نهض زوجها فرحاً وأخذ يقلّب تلك اللؤلؤة مندهشاً من جمالها وانسيابيتها، فقالت له زوجته:

- هذا رزق ساقه الله إلينا... أُخرج واعرضها للبيع عسى أن نحصل بقيمتها على مال يخرجنا مما نحن فيه من عوز.

ارتدى الصياد لباسه الوحيد وخرج قاصداً بائع اللؤلؤ، وعرض عليه شراء لؤلؤة يملكها. استغرب البائع عرضه وهو العارف بحاله إلاّ أنّ استغرابه زال حينما أخبره أنه صاد سمكة وحيدة فوجدت زوجته لؤلؤة في بطنها، فطلب منه البائع إخراجها لرؤيتها. فتح الصياد (كمرَهُ) وأخرج اللؤلؤة، فأخذ البائع يفحص ويتأمل تلك اللؤلؤة، وكم كانت دهشة البائع بعد الفحص فقد كانت لؤلؤة نادرة، فقال للصياد:

- أنت تمتلك لؤلؤة لا أستطيع شراءها فلو أعطيتك كلّ ما أملك لن أفي ثمن هذه اللؤلؤة، لكن أنصحك أن تذهب إلى المدينة وتعرضها على تجار اللؤلؤ هناك.

سافر الصياد إلى المدينة لعرض لؤلؤته للبيع، فكشف عليها التجار وكلّ واحد منهم يقول: لا أملك ثمن شرائها فهي لا تقدّر بمال.

قام شيخ باعة اللؤلؤ بنصح الصياد لأن يحمل لؤلؤته ويعرضها على سلطان البلد لشرائها، فهو الوحيد القادر على ذلك.

وقف الصياد على بوابة قصر السلطان طالباً الإذن لمقابلته، وعندما عرف غرضه سمح له. تفحّص السلطان تلك اللؤلؤة وأعجبته أيّما إعجاب، فالتفت إلى الصياد وقال له:

- سوف أفتح لك أبواب خزائني جميعها وستبقى بها لمدّة ست ساعات وخلال هذا الوقت خذ ما تشاء ثمناً للؤلؤتك.

قال الصياد: ست ساعات كثيرة يا مولاي تكفي ساعة أو ساعتين.

فقال له السلطان: لا، أمامك ست ساعات خذ ما تشاء خلالها.

فتح السلطان خزانته وقال للحرس: يُسمح لهذا الصياد بأخذ كلّ ما يريد من هذه الخزنة خلال ست ساعات من الآن، وبعد انقضاء الوقت أخرجوه.

دخل الصياد إلى تلك الخزنة فأصابته الدهشة وظلّ لدقائق حائراً فيما يأخذ أو يترك. وكانت الخزينة بها ثلاث خزائن: خزينة لصنوف الأطعمة وخزينة لكلّ أنواع الأثاث وخزينة للأموال والجواهر.

احتار الصياد من أين يبدأ، فحين رأى خزنة الأطعمة وأنواع المأكولات والمشروبات التي لم يرها طوال حياته قال في نفسه: منذ البارحة وأنا لم أتذوق لقمة واحدة، ولو سرت إلى خزينة الأموال والمجوهرات فلن أستطيع أخذ كلّ ما أريد، وعليّ أن أتغذى جيداً كي أتمكن من أخذ المال الكثير. وبعد أن قرر دخل إلى خزينة الأطعمة وأخذ يأكل ويشرب من كلّ تلك الأنواع حتى شعر أنّ بطنه سينفجر

من شدّة الامتلاء، وشعر برغبة ملحّة في الاسترخاء فمرّ بخزينة الأثاث وتنقّل بين الفرش الوثيرة فوجدها لينة رطيبة، فألقى بجسده المنهك على إحدى الأرائك واستلقى، فداهمه نعاس لذيذ استسلم له ونام نوماً عميقاً، وأخذ يحلم أنه أخذ كميات كبيرة من الأموال والمجوهرات التي حملها على عشر دواب، وانتقل بها إلى بيته وخزنها وأخرج منها أموالاً واشترى بها بيوتاً ومزارع وانفتحت له كلّ أبواب التجارة فغدا تاجراً مشهوراً يُشار إليه بالبنان... وفكّر في أن يتزوج على زوجته بصبيّة تصغره بسنوات، وقد فاتح زوجته بذلك فأمسكت بتلابيب ثوبه تنهره وتبكي لتفريطه بها وعدم وفائه لها، وحاول أن يبعد أصابعها عن حلقه لكنّ تلك الأصابع ظلّت تنغرس في لحمه. تحرك يميناً ويساراً، وأفاق من نومه فإذا بتلك الأصابع كانت أصابع الحرس وهم يوقظونه من النوم ويخبرونه أنّ مدّة وجوده داخل خزنة السلطان قد انتهت، فأخذ يصيح أنه لم يأخذ شيئاً مقابل لؤلؤته، فلم يصل إلى خزنة المال والمجوهرات، فقال له كبير الحرس:

- والله إنّ بك حمقاً، ولولا هذا الحمق لكنت جمعت ما تشاء من مال وخرجت ثم اشتريت المأكل والمشرب كما تشتهي... لكنّ غفلتك وحمقك قاداك إلى خسارة كلّ شيء.

حاول الصياد أن يمنحوه دقائق فقط لأن يصل إلى خزنة الأموال والمجوهرات إلاّ أنّ الحراس سحبوه خارج الخزنة والقصر لانتهاء الست ساعات وطردوه.

عاد الصياد إلى بيته حزيناً وواصل حياته كما كان عليها: يستيقظ من الصباح الباكر ويلقي بشبكته وينتظر ما تحمله له من أسماك.[(١)]

رواية مراد أبو لبن

---

(١) بعضهم يورد هذه الحكاية ويحمّلها مدلولات وعظية بأنها عبرة، حيث إنّ الحكاية لم تنهَ عند نهايتها بل تمتد إلى العبرة، فتلك الجوهرة، كما يقول مرسلها (قروب جدة) عبر البريد الالكتروني، هي روحك أيها المخلوق الضعيف، وهي كنز لا يقدّر بثمن، لكنك لا تعرف قدر ذلك الكنز. أرأيت تلك الخزنة؟ إنها الدنيا، انظر إلى عظمتها وانظر إلى استغلالنا لها، أما الجواهر فهي الأعمال الصالحة، وأما الفراش الوثير فهو الغفلة، وأما الطعام والشراب فهما الشهوات. والآن - أخي صياد السمك - أما آن لك أن تستيقظ من نومك وتترك الفراش الوثير وتجمع الجواهر الموجودة بين يديك قبل أن تنتهي تلك الست ساعات فتتحسر والجنود يخرجونك من هذه النعمة التي تنعم بها؟

خسارة العصّار

قلّنا وقلّكم، كان عصّار يعصر حبيبات السمسم ويبيع زيتها لأهل القرية، وكان يدير معصرته بواسطة ثور اشتراه ليزيد من غلته.

تقدّم العصّار لخطبة جارته التي أحبّها حبّاً ملأ عليه وجدانه، وظلّ يعمل ويكدح إلى أن تمكّن من جمع مال يسير وتقدّم لخطبة تلك الجارة التي لم تكن راغبة في الاقتران به، إلاّ أنها انساقت لأوامر أبيها وتزوّجت ذلك العصار وقلبها معلّق بشخص آخر.

مضت الأيام والعصار يعيش في هناء وسعادة يتمنّى الحصول على الرزق الوفير ليجلب لزوجته ما تشتهيه. وقد تفانى في الاستجابة لطلباتها التي تبدو في أحيان كثيرة أنها لا تقدّر وضعه، ومع ذلك كان يتدبّر الحصول على المال بالاقتراض من أجل أن يجلب لها ما تشتهيه، ولم يظن للحظة أن زوجته تبغضه بغضاً شديداً وتتمنى أن تنشقّ الأرض وتغيّبه عن ناظرها.

وقد استشارت صديقة لها عن طريقة تخلّصها من زوجها، فقالت لها: سمّميه.

فاستعصى عليها الأمر وقالت: من أين أجد ذلك السُّمّ؟

فقالت لها جارتها: اخلطي دم حيضك في أكله أو شربه فيتسمّم ويموت.[1]

---

(١) احتلّ دم الحيض حيزاً من الاهتمام المبكر وقيلت فيه أمور شتى منها أنه سم زعاف يميت في الحال (وبعضهم قال يميت ببطء) وبعضهم يقول إنّ المرأة لو أرادت أن تجعل زوجها طيّعاً لها ورهن إشارتها تضع له قطرات من دم حيضها في مأكله ومشربه فيصبح طوع بنانها، وهناك من قال إنّ دم الحيض يستخدم في السحر. والطريف في هذه المرويات أنّ فكّ السحر المعقود بدم الحيض يكون من خلال شرب الزوج بول والدته!!! =

قررت الزوجة تنفيذ ما أشارت به صديقتها وأخذت تنتظر حلول موعد الدورة الشهرية، وخلال ذلك كان زوجها يلاطفها كلما أظهرت غضبها وعدم رضاها ممّا يفعل من أجلها، فتقابل أفعاله بالجحود وتلعن حظها العاثر الذي أوقعها عنده، فيتجاهل ثورتها ويمضي إلى عمله مجتهداً في كسب المال لتحسين وضعه، فكان يرهق الثور بالدوران المستمر حول المعصرة، ولم يعد يكتفي بأن يأتيه الناس للشراء

= وفي أفريقيا يتم استخدام دم الملدوغ لإنتاج السم، وقد عرف هذا السم باسم (الميميا)، وهو مصطلح ارتبط عند المهاجرين السعوديين في بداية الحكم السعودي، حيث كان يخرج الناس بحثاً عن الرزق في البلدان المجاورة، وقد كانت الحشبة وأريتيريا والسودان والصومال أماكن محبية للبحث عن ذلك الرزق، وكان المهاجرون في الغالب هم القادمون من الأرياف والجبال والصحاري فيجدون مدن البلد شحيحة الرزق، والقادمون إلى جدة يتجهون عبر البحر الأحمر إلى الحبشة أو السودان. وقد روى لي الصديق زيد بازيد قصة (الميميا) (نقلاً عن راوٍ آخر أخبره بالميميا)، وهي قصة ارتبطت برعب المهاجرين من تحويل دمائهم إلى مصدر للسم، وكانوا يتبادلون الأحاديث والأخبار عمّا يحاك ضدهم في تلك البلدان. روى عنه قائلاً: كنا نعيش في شظف وكانت السواحل المقابلة لمدينة جدة هي الملجأ للحصول على الأعمال ذات المكاسب الوفيرة، وقد ذهبت إلى مصوع وأنا أحمل نتفاً من الحكايات عن الميميا، وعند وصولي إلى مصوع كانت هناك جماعة مهمتها استقبال الغرباء ورميهم داخل غرفة مليئة بالأفاعي فيتعرضون للدغ ثم يتم تعليقهم حتى تتقطر دمائهم في إناء يوضع أسفل الملدوغين ثم يجمع ذلك الدم ويوزع في قنانٍ صغيرة كسم فتاك تتم المتاجرة به.

وهذا الذي روى قصة الميميا قال إنه تعرض لمحاولة لجذبه وإلقائه فريسة لتلك الثعابين، حيث أكمل قائلاً: عندما وصلت مصوع كنت أبحث عن عمل فوجدت رجلاً صومالياً نادى عليّ بصوت مرتفع: يا ولد هل ترغب في العمل؟ فأجبته بنعم، فقادني إلى مكان موحش وسط أدغال حتى بلغنا كوخاً نائياً وطرق الباب فظهر رجل أشقر ذو عينين خضراوين - الراوي يقول إنه إيطالي، وربما حدد جنسيته بسبب أنّ الحبشة كانت من ضمن المستعمرات الإيطالية - وعندما رأيت هذا الرجل الأشقر خفت وهربت وعدت إلى الميناء فوجدت سفينة عائدة إلى جدة فركبتها وعدت.

ولم أستطع أن أصل إلى العلاقة بين هذه القصة عن (الميميا) كسمّ وارتباط هذا المسمّى بما يباع عند العطّارين بالاسم نفسه ويستخدم كدواء لهشاشة العظام وتجبير الكسور وله لون أسود.

ولقدم القصة ربما حمل الاسم حمولات مختلفة، ويمكن أن تكون الحكاية في مجملها من الحكايات الكابحة لرغبات المهاجرين فيتمّ خلق القصص والحكايات المثبطة لذلك الرحيل.

بل أصبح يملأ قوارير الزجاج ويدور بها على أهل القرية ليشتروا منه، ويعود إلى البيت منهكاً فتقابله زوجته بالتعنيف والتحقير، فيهرب من غضبها إلى النوم.

في اليوم التالي عاد من عمله كالمعتاد فوجد زوجته على غير العادة منشرحة والضحكة تملأ وجهها، وقبل أن يسألها عن ذلك التغير قالت له:

- لقد حلّ بجوارنا جيران جدد وأنا سعيدة بهذا، وأريد منك أن تتعرف إلى جارنا الجديد وتحمل له هذا الطبق الذي طهوت أكلته بنفسي ترحيباً به وبزوجته.

فرح الرجل لفرحها وخرج حاملاً طبق الطعام الذي جهّزته زوجته، وطرق الباب على جاره مرحّباً به ومقدّماً له طبق الطعام راجياً منه قبول هديته، فاستقبله الجار مرحّباً وشاكراً صنيعه، ولم يكن العصار يعرف أنّ هذا الجار هو الشخص الذي أحبّته زوجته وتمنّته من دون الرجال. كما أنّ الزوجة أرجأت تسميم زوجها إلى الوقت المناسب، فظهور حبيبها سيمكّنها من التخلص من زوجها حالما تتفق معه على ذلك.

عندما عاد زوجها أخذت تسأله عن جارهما وكيف استقبله وماذا قال وكيف كانت هيئته؟... وواصلت أسئلتها بلا كلل، وكلما سألته ثقل رأسه وداهمه النعاس، فاعتذر منها وذهب إلى مرقده. وفي تلك الليلة حلم بشيخ وقور يقول له:

- ابحث في مدار معصرتك وستجد كنزاً هو رزق رزقك الله به.

نهض الرجل منشرح الخاطر وأخبر زوجته بما حلم، لكنها عنّفته وقالت له:

- أنت لا تعمل شيئاً في هذه الدنيا إلاّ أنك تحلم... قم إلى معصرتك ودع الأحلام.

خرج الرجل إلى عمله نشطاً ومثابراً كالعادة، وقد استغلّت زوجته خروجه واتجهت مباشرةً إلى بيت جارها (من تحبّ) متصنّعةً زيارة ورؤية جارتها الجديدة، وعندما فتح جارها الباب أخذت تشكو له لوعتها وشعورها بالفقد من غير وجوده، فلم يكترث بها ونادى على زوجته لاستقبالها.[1]

---

(١) تحفل الحكايات الشعبية بالكثير من حكايات الخيانة الزوجية، وبسبب هذه الخيانة الزوجية كسب العالم سفراً حكائياً مهماً ألا وهو ألف ليلة وليلة، فلولا خيانة زوجة شهريار لما ظهرت لنا شهرزاد الحكاءة العظيمة.

=

مضت ثلاث ليالٍ والعصّار يحلم الحلم نفسه، حيث يأتيه ذلك الشيخ الوقور ويقول له: ابحث في مدار معصرتك وستجد كنزاً هو رزق رزقك الله به. فيخبر

= ومن أقدم حكايات هذه الخيانات ما ورد في تاريخ الملوك لابن الجوزي، وهي قصة لقمان بن عاد الذي عمّر عمر سبعة نسور مبتلياً بالنساء، فكان يتزوج المرأة فتخونه حتى تزوّج جارية صغيرة لم تعرف الرجال ثم نقر لها بيتاً في سفح جبل وجعل له درجه بسلاسل ينزل بها ويصعد فإذا خرج رفعت السلاسل حتى عرض لها فتى من العماليق فوقعت في نفسه فأتى بني أبيه فقال: واللهّ لأجتنينّ عليكم حرباً لا تقومون بها، قالوا: وما ذاك؟ قال: امرأة لقمان بن عاد هي أحبّ الناس إليّ. قالوا: فكيف نحتال لها؟ قال: اجمعوا سيوفكم ثم اجعلوني فيها وشدوها حزمة عظيمة ثم ائتوا لقمان فقولوا: إنا أردنا أن نسافر ونحن نستودع سيوفنا حتى نرجع وسمّوا له يوماً، ففعلوا وأقبلوا بالسيوف فدفعوها إلى لقمان فوضعها في بيته وخرج لقمان وتحرّك الرجل فحلّت الجارية عنه، وكان يأتيها فإذا أحسّت بلقمان جعلته بين السيوف حتى انقضت الأيام ثم جاءوا إلى لقمان فاسترجعوا سيوفهم، فرفع لقمان رأسه بعد ذلك فإذا بنخامة يبوس في سقف البيت فقال لامرأته: مَن نخم هذه؟ قالت: أنا. قال: فتنخمي، ففعلت فلم تصنع شيئاً فقال: يا ويلتاه السيوف دهتني، ثم رمى بها من ذروة الجبل فتقطّعت قطعاً، وانحدر مغضباً فإذا ابنة له يُقال لها صحر قالت له: يا أبتاه، ما شأنك؟ قال: فأنت أيضاً من النساء، فضرب رأسها بصخرة فقتلها. فقالت العرب: ما أذنبت إلا ذنب صحر.

وتذكر كتب التاريخ والسير أنّ أول اجتماع على الفاحشة حدث في بني آدم إذ كان له نسلان من أولاده أو قبيلتان، إحداهما تسكن السهل والوادي الأخضر والأخرى تسكن الجبل. وكان للرجال في القبيلة التي تسكن الجبل جمال وروعة أما نساؤهم فكنّ ذوات دمامة وقبح، فالرجال أجمل من النساء كثيراً، أما القبيلة التي تسكن السهل والوادي فكانت نساؤها رائعات الجمال فلا يستطيع الرجل أن يمعنوا النظر إليهن لشدة جمالهن، أما الرجال فكانوا على عكس ذلك فقد كانوا من القبح والدمامة بمكان فلا تطيق أن تعيش معهم. واستغلّ إبليس هذه المفارقة العجيبة وأراد أن يخلطهما ببعض حتى تشيع الفاحشة بينهم، فنزل على رجل من أهل السهل، وجاءه على هيئة غلام ليعمل في بستانه وزرعه، فاستأجره وجعله خادماً له، فجاء إبليس بمزمار يحدث صوتاً مثل مزامير رعاة الغنم، وبدأ يحدث به صوتاً عالياً ليسمع قبيلة الجبل صوتاً غريباً، فجاؤوا على هذا الصوت وأقاموا حفلاً جعلوه عيداً كلّ عام يأتون إليه، وبدأت نساء السهل تخرجن متبرّجات وهنّ على قدر من الجمال، فرآهن الرجال، وهرع رجل من الجبل إلى أصحابه يحكي لهم عن الخبر فتحوّلوا إليهم ونزلوا معهم وظهرت الفاحشة الكبرى وحقق إبليس ما كان يريده، فلقد أقسم في السماء ليغوينهم أجمعين إلا الصالحين منهم والمؤمنين بالله عزّ وجلّ. وكثر بنو قابيل وظهرت المعصية وأكثروا الفساد وأصبح إبليس وأبناؤه بينهم يفعلون بهم ما يريدون ويدعونهم إلى المعصية فيستجيبون. **(البداية والنهاية والكامل في التاريخ وتاريخ الطبري)**

زوجته فتتلقاه بالتعنيف والتحقير. وعندما خرج العصار إلى عمله حدّثت زوجته نفسها قائلةً: مادام أنّ حلمه تكرّر، ولثلاث ليال، فلا شكّ في أنّ ما وعده به ذلك الشيخ أمر حقيقي.

ثم خرجت إلى جارها وأسرّت إليه بأنّ زوجها يمتلك كنزاً كبيراً، وأخذت تبسط هيامها به وأنها لم تخبره عن هذا الكنز إلاّ حباً فيه واشترطت عليه أنها لن تخبره عن موقع الكنز إلاّ بعد أن يعدها بتطليق زوجته والزواج بها بعد أن تتخلص من زوجها.

وكان هذا الجار فقيراً معدماً يتمنى أيّ منفذ يخرجه من فقره، فوافق على عرضها، فقالت له:

- آتيك في الليل ونذهب سوياً لإخراج الكنز.

واتفقا على ذلك وانصرفت إلى بيتها.

وعندما جاء العصار استقبلته استقبالاً جيداً وهيّأت له عشاءه ومرقده وأخبرته أنها مدعوة من جارتها لقضاء بعض الوقت معها، فطاب خاطره لمعاملتها الحسنة له وأذن لها بالخروج إلى جارتها، فانتظرت إلى أن دخل في النوم العميق، وانسلت إلى بيت جارها الذي كان ينتظرها وتحرّكا سوياً. وفي طريقها إلى المعصرة أخذت تلوم نفسها على هذه الورطة، فالكنز الذي ستدلّه عليه ما هو إلاّ حلم، وكيف ستتصرف عندما لا يجد الكنز، وماذا ستقول له. وزاد قلقها من أنها ستخسره إلى الأبد حين لا يجد الكنز. ولا زالت تلوم نفسها حتى وصلا إلى المعصرة، فأشارت له بأنّ الكنز يقع في مدار الثور الذي يقود سارية المعصرة، فشمّر جارها عن ساعده وأخذ بالحفر الدائري بهمّة ونشاط وهي تمسك له بالفانوس وتزيح معه الأتربة، وبعد مضي وقت قصير تكشفت قلل فخارية مملوءة بالذهب الخالص. أخذ الجار يقفز عالياً ويقول لها:

- لن أكون فقيراً بعد اليوم.

أما هي فلم تصدّق ما حدث واستعادت هدوءها، وعندما لمست تلك الجنيهات الذهبية قالت لجارها:

- لقد صدقت في إخباري لك عن الكنز وعليك الآن أن تصدق بوعدك لي.

فقال لها:

- سوف أفي بوعدي.

وحمل الجرار وأراد مغادرة المعصرة، فقالت له الزوجة:

- لا، دعنا نقتسم المال. نقسم الكنز إلى نصفين وبالتساوي وتطلق زوجتك وأطلب أنا الطلاق من زوجي وإن رفض سمّمته وتخلّصت منه. عندها نجتمع أنا وأنت جسداً ومالاً.

فقال له جارها:

- أخاف أن تختاري رجلاً غيري وتعطيه حصتك، فكما أعطيتني مال زوجك فلا آمن من أن تعطيه رجلاً آخر، والرأي كلّ الرأي أن يكون الكنز في حوزتي حتى إذا تطلقتِ من زوجك جئتِ إليّ فطلقت زوجتي وتزوجت بك.

فقالت له:

- وأنا أخاف إن أخذت كلّ الكنز لا تنظر إلي، لذلك دع الكنز عندي حتى إذا تطلقتُ من زوجي تأتي اليّ وتتزوّج بي، فأنا الشارية والراغبة فيك.

عندما رآها مصرة على رأيها انتابته حالة الجشع فحاول التملّص منها، فأمسكت به بقوة، وكلّما حاول التخلص منها اشتدت قبضتها على ذقنه، فامتدت يده إلى رقبتها وخنقها قبل أن يطلع صوتها، فماتت بين يديه، فأسرع بإلقائها في مدار المعصرة وأهال تراباً خفيفاً على الجهات التي حفرها، وخرج حاملاً الكنز ومختفياً بسرعة قصوى.

استيقظ العصار من نومه واستغرب عدم وجود زوجته، وفكّر في أن يذهب إلى بيت جاره وينادي عليها، لكنّه استشعر بالخزي أن يُقال إنّ زوجته باتت خارج بيتها، وخشي أيضاً أن تعنّفه على السؤال عنها وهي التي أخبرته بأنها ستتأخر لدى جارتها، وحسب أن تكون جارتها مريضة فمكثت معها، وأخيراً قرر أن يذهب إلى المعصرة.

تحرّك من فوره إلى عمله، وقام بجذب الثور إلى مداره ووضع على رقبته سارية المعصرة، وخبط على مؤخرته ليتحرّك لكن الثور لم يستجب وظلّ في مكانه، فخبطه مرة أخرى فلم يتحرك، وكان العصار يفكر في غياب زوجته أكثر مما يفكّر في أيّ شيء آخر، وعندما لم يتحرك الثور انتابته حالة من الغضب، فتناول مهمزاً كان يستخدمه لحماره ونغز الثور في دبره فصدرت أنّة ألم لكنّه لم يتحرّك من مكانه،

ولو أنّ العصار نظر أسفل قوائم الثور لرأى جثة زوجته ملقاة في حفرة وتعترض ممشى الثور. زادت هواجس العصار على غياب زوجته فكان يتصرّف من غير وعي، فأخذ يجلد الثور جلداً مبرحاً، وعندما وصل به الغضب مداه استلّ خنجره وانهال طعناً على الثور فسقط على الأرض وبقيت رقبته معلقة في السارية، وعندما تنبّه العصار لسقوط ثوره أصابته الحسرة وحاول رفعه فإذا به يجد جثة زوجته بالأسفل فأخذ ينوح ويستغيث بالناس نادباً حظه بفقد زوجته وثوره في وقتٍ واحد.

رواية حامد حمدان

ثمرة الرحمة

يقال إنّ أفعى لم تغادر بيت أحد سكان المدينة، وكان صحاب البيت لديه خمسة أبناء يخشى عليهم من تلك الأفعى، وكلّما همّ بقتلها أمسكت زوجته بيده وقالت له:

- وما أدراك أن تكون جنية ولو قتلتها ينتقم الجنّ من أبنائنا أو منا.

احتار الرجل فيما فعل، واستشار إمام المسجد في ما يجده من خوف تلك الحية فقال له:

- أنذرها فإن وجدتها بعد ثلاثة أيام في بيتك فاقتلها.

عاد الرجل إلى منزله وحين ظهرت الأفعى ظهر لها وبيده عصا وقال لها:

- أسألك بعهد نوح وسليمان عليهما السلام أن لا تؤذينا.

فتحركت الحية نحو جحرها بهدوء تام، ولثلاثة أيام كانت تظهر فيسمعها صاحب الدار ما قاله له إمام المسجد، وقرر في اليوم الرابع قتلها إن هي ظهرت، فلم تظهر له وأيقن من كونها جنية في صورة أفعى وأضمر ذلك في صدره كي لا تعلم زوجته فتخاف، وظلّ يبحث عنها في كلّ الجحور القريبة من منزله، فقالت له زوجته:

- لقد اطمئننت أنها ليست جنية وأنها حية وهي من مخلوقات الله التي لم تؤذنا فاتركها تعِش.

فقال لها:

- إن ظهرت فهي جنية وعليك قتلها، فطيبة قلبك سوف تجلب لنا المصايب.

وكانت الحية لا تظهر للزوج بتاتاً فإذا غاب خرجت من جحرها وسعت في

الأرض، وكانت الزوجة ترى الحية كلما خرجت إلى الفناء فلا تؤذيها.

وذات يوم استيقظت الزوجة فاكتشفت أنّ للحية بيضاً قد فقس وخرجت منه حيات صغيرة التفّت حول بعضها بعضاً، وكان في فناء الدار قطّان يحومان حول تلك الحيات الصغيرات، فقامت وجمعتها في (قفّة) بعيداً عن مكانهما وطردت القطّين، وكان من عادتها أن تحلب بقرتها وتملأ لأبنائها الخمسة طاسة لبن وتضعها في الفناء حتى إذا أفاق أبناؤها تناولوا اللبن قبل خروجهم إلى المرعى، وبعد أن أمّنت الحيات الصغيرات اتّجهت إلى بقرتها وحلبتها ووضعت الطاسة في مكانها المعتاد ودخلت إلى داخل البيت لتكمل بقية أعمالها.

جاءت الحية فلم تجد حيّاتها الصغيرات، وأخذت تدور في المكان باحثةً وقد ارتفع فحيحها، وعندما عجزت عن العثور عليهن ورأت (طاسة) اللبن المليئة باللبن اتّجهت إليها وأفرغت كلّ سمّها داخل الطاسة ظانّةً أنّ صاحب البيت قد قتل حياتها، وزحفت مسرعةً لتختبئ في مكان آخر غير جحرها، وبينما كانت تبحث عن جحرٍ ملائم عثرت على حيّاتها داخل (قفّة) وفي مكان آمن تغطيها غلالة رقيقة من شاش، ولمحت من بُعد أنّ أبناء صاحب البيت قد نهضوا من نومهم واتّجهوا إلى (طاسة) اللبن لتناوله، فقفزت من مكانها وسبقتهم إلى الطاسة وأغرقت نفسها بداخلها، فانقلبت وانسكب اللبن واختلط بالتراب، وانسلت إلى مكان تواجد حيّاتها.

عندما رأى الأبناء أنّ اللبن انسكب على الأرض ولم يعد صالحاً للشرب غادروا إلى المرعى، وبعد مغادرتهم جاءت أمهم ورأت الطاسة معفّرة بالأتربة فتضاحكت وقالت في نفسها: كأنهم تشاجروا على اللبن فسكبوه. وأخذت طاستها وغسلتها جيداً ورصتها مع بقية الأواني.[1]

رواية فواز الحربي

---

(١) هي قصة يتناقلها الناس لإيصال رسائل متعددة يستنتجها كل قارئ أو سامع وفق طباعه أو ثقافته.

وفي زمن سابق كانت البيوت مفتوحة على كلّ شيء، فتدخلها الكلاب والقطط والحيات، وكان الناس يخشون بعض أنواع الحيوانات والزواحف، ويقال إنّ بعضها جنّ تشكلوا في =

= صور كلب أو قط أسود أو ثعبان، ولذلك جرت العادة على إنذارها بمغادرة المنزل، وهذا الإنذار ليس طارئاً فله جذر في الحكايات والسير. وثمة حديث للرسول صلى الله عليه وسلم يقول فيه: «إنَّ بِالْمَدِينَةِ جِنّاً قَدْ أَسْلَمُوا، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهَا شَيْئاً فَآذِنُوهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ»، وَحَمَلَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ ذَلِكَ عَلَى الْمَدِينَةِ. وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ عَامٌّ فِي كُلِّ بَلَدٍ لاَ تُقْتَلُ حَتَّى تُنْذَرَ.

وأصل هذا الحديث عند مالك في الموطأ (١٧٦١) رواية يحيى الليثي، ومن طريقه (أي مالك) مسلم في صحيحه (٢٢٣٦) من طريق صيفي مولى بن أفلح عن أبي السائب مولى هشام بن زهرة أنه قال: دخلت على أبي سعيد الخدري فَوَجَدْته يُصَلّي فَجَلَسْت لِأَنْتَظِرَ فَرَاغَهُ فَسَمِعْت حَرَكَةً تَحْتَ سَرِيرٍ فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ، فَالْتَفَتُّ، فَإِذَا حَيَّةٌ فَوَثَبْت لِأَقْتُلَهَا فَأَشَارَ إِلَيَّ أَنْ اجْلِسْ فَجَلَسْت، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَشَارَ إلى بَيْتٍ فِي الدَّارِ فَقَالَ: أَتَرَى هَذَا الْبَيْتَ؟ قُلْت: نَعَمْ قَالَ: كَانَ فِيهِ فَتًى مِنَّا حَدِيثُ عَهْدٍ بِعُرْسٍ، فَخَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إلى الْخَنْدَقِ، فَكَانَ ذَلِكَ الْفَتَى يَسْتَأْذِنُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عِنْدَ انْتِصَافِ النَّهَارِ، وَيَرْجِعُ إلى أَهْلِهِ فَاسْتَأْذَنَهُ يَوْماً فَقَالَ صلى الله عليه وسلم: خُذْ عَلَيْك سِلاَحَك فَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْك بَنِي قُرَيْظَةَ، فَأَخَذَ الرَّجُلُ سِلاَحَهُ، ثُمَّ رَجَعَ إلى أَهْلِهِ، فَوَجَدَ امْرَأَتَهُ بَيْنَ الْبَابَيْنِ قَائِمَةً، فَأَهْوَى إِلَيْهَا بِالرُّمْحِ لِيَطْعَنَهَا بِهِ وَأَصَابَتْهُ غَيْرَةٌ فَقَالَتْ لَهُ: اُكْفُفْ عَنْك رُمْحَك وَادْخُلْ الْبَيْتَ حَتَّى تَنْظُرَ مَا الَّذِي أَخْرَجَنِي، فَدَخَلَ، فَإِذَا حَيَّةٌ عَظِيمَةٌ مُطَوَّقَةٌ عَلَى الْفِرَاشِ فَأَهْوَى إِلَيْهَا بِرُمْحِهِ فَانْتَظَمَهَا، ثُمَّ خَرَجَ بِهِ، فَرَكَزَهُ فِي الدَّارِ فَاضْطَرَبَتْ عَلَيْهِ وَخَرَّ الْفَتَى مَيِّتاً فَمَا نَدْرِي أَيُّهُمَا كَانَ أَسْرَعَ مَوْتاً الْحَيَّةُ أَمْ الْفَتَى قَالَ: فَجِئْنَا إلى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَأَخْبَرْنَاهُ بِذَلِكَ وَقُلْنَا: اُدْعُ اللَّهَ أَنْ يُحْيِيَهُ فَقَالَ: اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ لِصَاحِبِكُمْ، ثُمَّ قَالَ إنَّ بِالْمَدِينَةِ جِنّاً قَدْ أَسْلَمُوا، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهَا شَيْئاً فَآذِنُوهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنْ بَدَا لَكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَاقْتُلُوهُ، فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ». وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْإِنْذَارِ هَلْ هُوَ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، أَوْ ثَلَاثُ مَرَّاتٍ وَكَلَامُ النَّاظِمِ صَالِحٌ لِكُلٍّ مِنْهُمَا. قَالَ فِي الْآدَابِ الْكُبْرَى: يُسَنُّ أَنْ يُقَالَ لِلْحَيَّةِ الَّتِي فِي الْبُيُوتِ ثَلَاثُ مَرَّاتٍ. وَفِي الْمُجَرَّدِ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ انْتَهَى. وَمُقْتَضَى الْحَدِيثِ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ. قَالَ بَعْضُ الشَّافِعِيَّةِ: وَعَلَيْهِ الْجُمْهُورُ، وَقَالَ الْيُونِينِيُّ مِنْ أَئِمَّةِ الْمَذْهَبِ فِي مُخْتَصَرِ الْآدَابِ: يُسَنُّ أَنْ يُقَالَ لِلْحَيَّةِ فِي الْبُيُوتِ ثَلَاثُ مَرَّاتٍ، ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ وَلَفْظُهُ فِي الْفُصُولِ ثَلَاثاً وَلَفْظُهُ فِي الْمُجَرَّدِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ. وَكَيْفِيَّةُ الِاسْتِئْذَانِ كَمَا فِي الْآدَابِ الْكُبْرَى وَغَيْرِهَا اذْهَبْ بِسَلَامٍ لاَ تُؤْذِنَا. وَفِي حَيَاةِ الْحَيَوَانِ تَقُولُ: أَنْشُدُكُنَّ بِالْعَهْدِ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْكُنَّ نُوحٌ وَسُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُد عليهم السلام أَنْ لاَ تَبْدُوا لَنَا وَلاَ تُؤْذُونَا. وَفِي أُسْدِ الْغَابَةِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: إذَا ظَهَرَتْ الْحَيَّةُ فِي الْمَسْكَنِ فَقُولُوا لَهَا: إنَّا نَسْأَلُك بِعَهْدِ نُوحٍ صلى الله عليه وسلم وَبِعَهْدِ سُلَيْمَانَ عليه السلام لاَ تُؤْذِينَا، فَإِنْ عَادَتْ فَاقْتُلُوهَا، فَإِنْ ذَهَبَتْ بَعْدَ الِاسْتِئْذَانِ وَإِلاَّ قَتَلَهُ إنْ شَاءَ، وَإِنْ رَآهُ ذَاهِباً كُرِهَ قَتْلُهُ، وَقِيلَ لاَ يُكْرَهُ.

حذاء الملك

يقال إنّ ملكاً عادلاً عاش في عصر من العصور وكان طيباً يزن الأشياء وفق طيبته ويعمل الصالحات، فأحبه قومه أيّما حبّ، ومن عيوبه أنه إذا أعطى أسرف وإذا فكر في معضلة تجاوز حله الحاجة.

وكان على جواره وزير حكيم أريب يقيس الأشياء وفق حجمها من غير تسريف أو تبذير، حازماً من غير شدة، يغلب عليه المكر في أحيان، فاطمأن له الملك وأبقاه إلى جواره يعينه على سياسة الرعية.

وذات يوم قرر الملك القيام برحلة صيد، فخرج معه لفيف من أصدقائه الخلص، وكان هدف رحلتهم صيد الصقور، فاختاروا صحراء تقع جنوب مدينتهم كي تكون مقصد رحلتهم، فتجهّزوا بكلّ ما يحتاجونه ومضوا في رحلتهم، ومع وصولهم إلى المكان المحدد نصبوا الخيام وتفرغوا للصيد.

وكان السلطان مغرماً بتتبع آثار فريسته، فرأى غزالاً أعجبه منظره ورغب في امتلاكه حيّاً، فظلّ يسير خلفه بحذر مصطحباً معه خادمه الوفي، فكان الغزال يغيّر من سيره، فمرّةً يركض ومرّةً يمشي الهوينا ومرّةً يقتحم الأحراش، ولازال السلطان يتتبعه حتى أوصله تتبّع الغزال إلى منطقة خلاء، وقد وجد السلطان الفرصة سانحة للقبض على الغزال حين رآه قد استظلّ بشجرة، فترجّل عن فرسه وأمر خادمه بأن يترجّل ويحاصر الغزال من الجهة الأخرى محذّراً إياه من أن لا يفلت الغزال من بين أيديهما.

وما أن ترجّلا حتى انطلق الفَرَسان بعيداً، فلم يكترث السلطان بذلك واستحثّ الخادم على محاصرة الغزال، وهجم عليه فقز من بين يده وانطلق راكضاً في ذلك الخلاء.

عندما يئس السلطان من متابعة الغزال قرر العودة إلى المخيم، وكانت الشمس في غاية الحرارة، فلم يقوَ على تحمّل الرمضاء، فكان يتحرّك بصعوبة وكلما لامست قدماه الأرض احترقت بلهيب الرمال الناعمة. ولا زال خادمه يحمله على ظهره حيناً ويرتاح حيناً، وبعد مشقة وعناء وصل السلطان إلى الخيام وقدماه متورمتان محروقتان، فأخذ على نفسه عهداً أن يجنّب الناس هذا المصير، فعاد إلى مملكته وهذا العهد يشاغله، وبعد تفكير أمر أن تُغطّى كلّ الأرض بالجلد كي يتجنب الناس رمضاء الطريق، فكان عمال السلطنة يدورون في كلّ مكان لشراء الجلود وجمعها من أجل تنفيذ مشروع السلطان، وكلّما غطّوا جهةً تبقّت جهات من غير غطاء. فجاء الوزير إلى السلطان وقال له:

- يا سلطان الزمان، لو أنفقنا مال السلطنة كله لما استطعنا تغطية وجه الأرض، ولك عندي فكرة.

فقال له السلطان: هات فكرتك.

فردّ عليه: أمهلني يومين.

بعد مضي اليومين طلب الوزير من السلطان الخروج للصيد، فتعجّب منه وقال له:

- ألم ترَ ما الذي أصابني من هذا الخروج؟ ثم أين الفكرة التي حدّثتني عنها؟

فقال له الوزير: سوف أعرضها عليك في رحلة الصيد.

وافق السلطان على الخروج، وانتظر الوزير حتى حمت الشمس وطلب من السلطان الخروج في تلك الرمضاء فكاد السلطان أن يأمر بقطع رأس الوزير، إلاّ أنّ الوزير أخرج من تحت إبطيه فردتي جلد ألبسهما قدمي السلطان وقال له:

- جرّب الآن السير في هذه الرمضاء.

لبس السلطان فردتي الجلد وسار فلم يشعر بحرارة الرمضاء الهالكة.[1]

رواية إبراهيم القاضي

---

(١) يقول الراوي إنّ من هذه القصة اكتشف الإنسان لبس الحذاء... وبعد أن لبس السلطان قطعتي الجلد تلك قلّده الناس وتم اكتشاف الحذاء.

الملك وبطانته

كان ياما كان، كان في والي حكم بلاده سنواتٍ طوالاً بالعدل وحسن السيرة، ولـم يرزقه الله إلاّ ولداً واحداً علّمه وأحسن أدبه، وعندما حانت منيّة الملك قرّب ابنه إليه وقال له:

- أنا سأموت وسأعهد إليك بدولة مترامية الأطراف، فإن شئت السعادة في الدنيا والآخرة فأصلح بطانتك، فلا يخرّب الملك إلاّ فساد الحاكم، وإن نجا فلا يفسد حكمه إلاّ بطانته، فإن استقرّ لك الأمر فاحرص على اختيار معاونيك.

أخذ الابن يهوّن على أبيه ويدعو له بطول العمر، فقال له:

- ابن آدم محمول على آلة حدباء[1] إن طال الزمن أو قصر فاحفظ عني ما قلت لك.

مضت أيام أسلم فيها الملك روحه، فحزن الشعب على موت ملكٍ أحبوه وتمنّوا أن يسير ابنه على نهجه.

---

(١) إشارة إلى بيت كعب بن زهير حين قال:

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آله حدباء محمـول.

وهو كعب بن زهير بن أبي سلمى المزني أبو المضرَّب، شاعر مخضرم لأنه عاش عصرين مختلفين هما عصر الجاهلية وعصر صدر الإسلام، عالي الطبقة، كان ممن اشتهر في الجاهلية ولما ظهر الإسلام هجا النبي صلى الله عليه وسلم، وأقام يتشبّب بنساء المسلمين، فأهدر النبي صلى الله عليه وسلم دمه، فجاءه كعب مستأمناً وقد أسلم وأنشده لاميّته المشهورة التي مطلعها: بانت سعاد فقلبي اليوم متبول، فعفا عنه النبي صلى الله عليه وسلم وخلع عليه بردته. وهو من أعرق الناس في الشعر: أبوه زهير بن أبي سلمى وأخوه بجير وابنه عقبة وحفيده العوّام وكلّهم شعراء. وقد كَثُر مخمّسو لاميته ومشطّروها، وترجمت إلى غير العربية.

دخل الابن بلاط الحكم ملكاً، فبايعه الوزراء والقوّاد والقضاة وعامة الناس، ومنذ يومه الأول حرص على تنفيذ وصية أبيه، فكان يجمع خاصّته ويستشيرهم فيمن يولّيه وفيمن يعزله، ولا زال حريصاً على تفقّد أحوال الناس، فيخرج ليلاً ويسمع ما يقوله الناس عنه، فسمع عن انتشار مظالم وزرائه ولم يعلم أيّهم الظالم.

وكان له ثلاثة وزراء يظهرون له التفاني والإخلاص، وأنّ كلّ واحد منهم ينفذ ما يقول له الملك تنفيذاً حرفياً. فجمعهم ذات يوم وقال لهم:

- سمعت عن البساتين والمروج في خارج المدينة وأنّ بها مختلف الفواكه والثمار وقد تاقت نفسي لأن آكل منها.

فقال له وزيره الأول:

- أطال الله عمر الملك. إنّ بساتين وحدائق قصرك بها ما لذّ وطاب من الفواكه والثمار، وهي تجلب لك يومياً فلا تذوقها أو تمد إليها يدك.

فقال له:

- أعلم ذلك، ولكنّ نفسي تاقت إلى الفواكه والثمار التي تُزرع بخارج المدينة فلعلّ مذاقها يختلف عن مذاق فواكه القصر.

فقال الوزير الثاني: الآن نأمر العبيد والخدم ليجلبوا لك كل أنواع الفواكه هناك.

فقال الملك: هم من يجلب لي يومياً فواكه من حدائق القصر، وهم خدم لا يجالسونني ولا يعرفون ما أشتهيه منها.

فقال الوزير الثالث: وما الذي يأمر به الملك فننفذه له؟

فقال الملك: أنتم وزرائي وجلسائي وتعرفون ما أحبّ وما أكره ولو خرجتم أنتم لجمع الفواكه والثمار لربما جئتم بما أحبّ.

أظهر الوزراء الاستعداد الكامل لتلبية طلبه، فناول كلاً منهم كيساً ليجمع له فيه ما لذّ وطاب من الفواكه وأمرهم بالخروج من صباح اليوم التالي.

ومن الصباح الباكر حمل كلّ وزير كيسه وخرجوا إلى الحدائق المنتشرة خارج المدينة لجمع الثمار والفواكه، وكان الجو قائظاً والهواء حاراً، وكانت مهلة جمعهم للفواكه تنتهي مع الغروب.

تفرّق الوزراء داخل البساتين والحدائق لقطف الثمار وجمعها، وكان الملك قد

أمر خدمه بقطف الفواكه من البساتين المتقدمة، حتى إذا جاء الوزراء ولم يجدوا بها شيئاً فكّر الوزير الأول مع نفسه وقال: «لا أظنّ أنّ الملك يشتهي شيئاً، فالفواكه والثمار تملأ القصر وربما أخرجنا في هذا الجو القائظ من أجل إذلالنا» وركن لهذا الخاطر واكتفى بجمع الحشائش والأعشاب القريبة منه وحشا بها كيسه وذهب إلى أشجار ملتفة بحثاً عن الظل والهواء العليل واستلقى هناك. أما الوزير الثاني فقال في نفسه: «لا أظن أنّ الملك بحاجة إلى فاكهة وإنما أراد اختبار عزيمتنا في الخروج في هذا الجو الهالك وتنفيذ أمره، ولهذا ليس مهمّاً أن أعثر على الفاكهة أو الثمار الناضجة، يكفي أن أجمع ما يسقط منها على الأرض وأملأ كيسي»، واطمأن لخاطره هذا، وظلّ يجمع كلّ ما تساقط على الأرض من فواكه أو ثمار، المعطوب منها والضامر. أما الوزير الثالث فقد جدّ واجتهد وقال لنفسه: «إنّ الملك غالٍ وعزيز ولم يأمر يوماً بشيء لنفسه، وهي فرصة سانحة لتمكينة من رغبةٍ سيطرت على باله»، وعندما بدأ يبحث عن الفواكه لم يجد شيئاً صالحاً في مقدمة البساتين فتغلغل إلى داخلها ومضى بعيداً حتى وصل إلى أشجار يانعة طافحة بثمارها، فأخذ يجمع أفضلها وأجودها وأشهاها، ومع الغروب امتلأ كيسه بعد أن ناله التعب والإرهاق الكامل، فأغلق كيسه وتحامل على نفسه وأقفل عائداً، فوجد في طريقه الوزيرين الآخرين وهما يستعدّان للعودة.

وعندما وصل الوزراء إلى القصر كان الملك في استقبالهم ومعه رئيس الشرطة، فرحّب بهم وقال لهم: اليوم سأكتشف من يكسر أوامري ومن ينفذها بدقة، والتفت إلى رئيس الشرط، وقال له:

- أسجن كلّ وزير في سجنٍ منفرد مع كيسه ولا تقدّم لهم أكلاً أو شراباً حتى آمرك، وإن عصيت أمري فسأقطع رأسك، وسوف أعرف إن قدّمت شيئاً لهم، فأنا قد وضعت عيوناً عليك.

تحرّك رئيس الشرطة آمراً جنوده بدفع كلٍّ من الوزراء الثلاثة إلى سجنه الانفرادي.

لكنّ الوزير الأول لم يجد شيئاً ليأكله أو يشربه في سجنه، فصاح بالحرس لإسعافه بأكلٍ أو شرب فلم يُجبه أحد، وأخذ يفتّش في أركان سجنه علّه يجد شيئاً فلم يجد، وفتح كيسه وحاول مضغ الحشائش والأعشاب فلم يقدر على ابتلاعها،

فمات بعد ثلاثة أيام جائعاً عطشاً. أما الوزير الثاني عندما اكتشف أنّ أمر الملك واقع، ولم يمدّه أحد بأكل أو شرب في يومه الأول، فقد فتح كيسه وأخذ يتخيّر الصالح ممّا جمعه من فواكه، وظلّ يقتات عليها لأيام، لكنّ فساد بعضها تسبّب له بتسمّم فمات مسموماً. أما الوزير الثالث فقد ظلّ صابراً ليومين من غير أكلٍ أو شرب ظانّاً أنّ الملك سوف يتراجع عما أمر به، واستحى إن أخرجه فلا يجد الفاكهة التي جمعها له، وعندما وثق أن لا شيء من مأكلٍ أو مشرب سيصله فتح الكيس الذي جمع فيه الفاكهة وأخذ يأكل منها ويجفّف بعضها، وظلّ على هذه الحال مدّة شهرٍ كامل حتى إذا سمع الحراس يصيحون معلنين مقدم الملك أخذ ينتظر أن تفتح زنزانته، فيعتذر للملك عن أكل الفاكهة.

وصل الملك وأمر أن تُفتح زنزانة الوزير الأول فوجده ميتاً، وفتّش كيسه فوجد أعشاباً وحشائش متيبسة، فقال: لا خير في هذا الوزير واستحق ميتته.

وعندما فتح الحرس زنزانة الوزير الثاني وجده ميتاً ومن حوله تناثرت فواكه معطوبة وضامرة، فقال الملك: هذا الوزير غلبت خسّته نبله فاستحق الموت.

وعندما فتح زنزانة الوزير الثالث أسرع إليه الوزير الثالث يقبّل يده ويعتذر عن أكل الفواكه الناضجة التي جمعها معلّلاً أنه لم يفعل ذلك إلاّ من أجل الإبقاء على حياته، وقال للملك: لقد أبقيت الشيء الكثير من الفاكهة التي زادت حلاوتها بالتجفيف. فقال الملك: هذا هو الوزير الذي يُعتمد عليه في تنفيذ الأوامر. وأخرجه من السجن وجعله وزير دولته الأوحد.

رواية سعيد عشميل

ما هو ميزان العقل؟

كان ياما كان، كان في قديم الزمان رجل تقدّم لخطبة ابنة جاره، فوافقت على الزواج منه بشرطين: أن لا يهينها أبداً، وإن سألته سؤالاً فلا يأتيها إلاّ عن إجابة على سؤالها، وألا تطلّق منه.

وافق الرجل على شرطي خطيبته وتمّ زواجهما، فكانت له نعم الزوجة الحنونة المهتمة بكلّ شؤونه، وقد حرص طوال زواجه أن لا يهينها مهما حدث، وهو الشرط الأول، ولم تلجأ هي إلى سؤاله أبداً.

طالت فترة زواجه ولم تنجب له فضاق في صدره من هذا الأمر ولم يشأ أن يضايقها، فكانت تستشعر بما يحسّ وتلمّح له أن يقول ما في صدره على أن لا يهينها بما يودّ أن يقول، فعلم لو أنه قال لها إنه يريد أن يتزوج من أجل الخلفة لأهانها، فأمسك عمّا في خاطره، ولم يكن راغباً في الزواج من أي امرأة، فقد كان عاشقاً لزوجته عشقاً لا يدانيه عشق، فسكت وإن ظلّ خاطره متعكّراً، خاصةً أنّ أصدقاءه يلحّون عليه بالزواج بدلاً من أن يترك تجارته تذهب للغرباء.

أحسّت زوجته ببعض التغيّر في سلوكه فتزيّنت وأصلحت من هيئتها وجهّزت له عشاءً فاخراً وجالسته وتناغيا طوال الليل، وبعد أن سكن إليها وسكنت إليه قالت له:

- طوال مدة زواجنا لم أسألك سؤالاً وأجد أن الوقت قد حان لهذا السؤال.

فقال لها: سلي!

فقالت له: تعرف تكملة الشرط؟

قال لها: ذكّريني.

فقالت له: لن تصل إلي ما لم تجب عن سؤالي.

استخفّ في قرارة نفسه بما سوف تسأله وأيقن أنه سيجيب على سؤالها فقال لها:

- سلي!

فقالت له: ما هو ميزان العقل؟[١]

وقف حائراً، ومضت ثلاثة أيام وهو يخبرها في كلّ حين بإجابة وكلها لم ترق لها، وعندما لم يصل إلى الإجابة المقصودة قالت له:

---

(١) ربما تُعدّ هذه الحكاية من الحكايات الملغزة التي سادت في فترات زمنية مختلفة، حيث يضع السرد الحكائي تلغيزه حول مسألة أو قضية أو كائن ما وتدور حول اللغز القصة، إلاّ أنّ هذه الحكاية تضع العقل كمادة جوهرية للإدراك وقياس ما حولها، وهي استلهام لمعضلة الإنسان البدائي الأول الذي كان خارج التمييز يواجه الحياة من غير مقدرة على إدارتها وفكّ مغالقها وإنتاج الحكمة من وجوده وامتلاك العقل هو امتلاك لميزة متفردة عن بقية الخلق، وهي الميزة التي استخدمها في ما يواجه من ظروف الحياة المختلفة.

وإذ نفينا وجود الإنسان من غير عقل كون تراثنا الديني ينص على أن العقل كان أول المخلوقات وبواسطته تأسست علاقة التوحيد فقد روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله: «أول ما خلق الله سبحانه وتعالى العقل، فقال له: أقبِل، فأقبل. ثم قال له أدبِر، فأدبر. فقال عزّ من قائل: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أعزّ لي منك، بك آخذ وبك أعطي وبك أحاسب وبك أعاقب.»

وهذا يعني بالضرورة أنّ غياب العقل هو غياب لجوهر التوحيد، وبالتالي غياب الإدراك الفلسفي لكلّ ما يحطّ بالمخلوقات البدائية الأولى غير الإنسان، وهي الإشارة التي أشار إليها الأستاذ نزار يوسف في كتابه **الحكمة بين الإله والسلطان** بقوله: بما أنّ الإنسان هو الكائن والمخلوق الوحيد الذي يحمل العقل، فإنه قد تميز به عن سائر المخلوقات الأخرى، وبالتالي أصبحت هناك رابطة أو علاقة خاصة مميّزة ومستقلة عن غيرها من الروابط وهي: الله - العقل - الإنسان. وإذا عدنا إلى علوم الآثار والانتروبولوجيا والتاريخ وجدنا أنّ بداية الأصول الأولى المكوّنة للحضارات والتجمعات البدائية كانت مع بداية ظهور الإنسان العاقل، إذ قبل هذه الفترة (فترة ظهور هذا الإنسان) لم يكن للإنسان البدائي القديم أيّ أثر يدلّ على تحضّره أو تمدّنه أو تميّزه عن غيره من الحيوانات، بل كان إلى حدٍّ بعيدٍ يشبه القردة (هذا لا يعني أنّ أصل الإنسان كان قرداً وفق صحة أو عدم صحة نظرية داروين)، والشبه كان حاضراً في تصرّفاته وأعماله، فهو لم يكن منتصب القامة بل كان يمشي على أطرافه الأربع، وخلال ملايين السنين مرّ هذا الإنسان بعمليات تطور هي: الأوسترالوبيسيكوس (الإنسان الجنوبي) ثم الإنسان الحاذق ثم الإنسان المنتصب القامة ثم الإنسان العاقل ويأتي بعده الإنسان الحالي أو الإنسان الشديد الحكمة.

- أُخرج وابحث عن الإجابة ولا تأتني إلا ومعك إجابة السؤال؟

حاول أن يثنيها عن إصرارها فلم يفلح، فخرج مسافراً يتقصّد العلماء كلاً في بلاده ليسأله: ما هو ميزان العقل؟

وكلما وصل إلى مدينة دخل على علمائها وسألهم فيجيبونه إجابات سبق أن أجابها لزوجته فلم تعتبرها إجابة صحيحة.

طاف بلداناً كثيرة ودخل على علماء كثر وفي كلّ بلد لا يجد جواباً مقنعاً.

وذات يوم هبّت عاصفة قوية، وكان مسافراً وسط صحراء قاحلة، وحاول أن يحتمي من الأتربة المتطايرة فنزل عن حصانه، وقبل أن يربطه انفلت من بين يديه حبل لجامه فانطلق الحصان راكضاً، فإذا به وسط تلك الصحراء لا يعرف ما الذي سيفعل، واحتمى بشجرة سدر ريثما تخفّ العاصفة ليبحث عن حصانه.

هدأت العاصفة وظلّ يبحث عن حصانه إلى أن حان وقت الغروب ولم يعثر عليه، وقد نال منه التعب والظمأ فنام حيث هو، ومع الصباح واصل بحثه لكنّه لم يعثر على شيء وتعالت الشمس إلى كبد السماء، وكان قد بلغ منه الجهد مبلغه، فسقط في مكانه مغميّ عليه، ولم يفق إلاّ في خيمةٍ حيث وجد أعرابياً يقف على رأسه يسقيه اللبن.

أخبره الأعرابي أنه وجده مغشيّاً عليه فحمله على راحلته وأنزله خيمته، فشكر للأعرابي صنيعه وقدّم له مالاً جزاء ذلك الصنيع، فأبى الأعرابي وقال له:

- لو كنت أبحث عن المال لسرقته منك وأنت مغشيّ عليك ومضيت لحالي.

فاستحى الرجل منه وأخذ يعتذر له اعتذارات متكررة، وأراد أن يغادره فأمسك به الأعرابي وقال له: لن تمضي قبل ثلاثة أيام. فكانا يتسامران في الليل ويحكي كلّ منهما حكاية أو قصيدة أو أخبار الأولين...

وكان للأعرابي ابن يمكث طوال الوقت في رحلات الصيد ويعود متأخراً، وفي تلك الليالي جاء إلى أبيه غاضباً ممّا لقيه في رحلات صيده من فشل، فقال له أبوه:

- ألم أخبرك بميزان العقل؟

فقال الشاب: أخبرتني ولكني لا أطيق.

فقال له الأعرابي: من لا يطيق لا يُطاق.

فاعتذر الابن وقبّل رأس أبيه ومضى إلى مخدعه.

حدث كلّ هذا والرجل يستمع، وحين جاء ذكر ميزان العقل تنبّه تماماً، ومع مضيّ الشاب إلى مخدعه استحلف الرجل الأعرابي فسأله: ما هو ميزان العقل؟

استغرب الأعرابي سؤاله وقال له: بلغت هذه السنّ ولا تعرف ميزان العقل؟

فقال له الرجل: مضت عليّ عشرون سنة وأنا أبحث عن جواب لهذا السؤال.

وأخبره بقصته كاملة، فضحك الأعرابي وقال له: لو أراد الله لكنّا اجتمعنا من وقت مبكر لكي تعرف الجواب وتعود إلى زوجتك.

فقال الرجل بلهفة: أخبرني بالجواب كي أعود إلى دياري وزوجتي.

فقال له الأعرابي: ميزان العقل هو الصبر، فمن لا يصبر يطيش عقله ولا يستوي له أمر.(١)

---

(١) كثيرة هي القصص التي تتحدث عن رجاحة العقل فيمن لا نظن بهم امتلاك معرفة. وقد احتقر أحدهم أعرابياً وجده في مكة يطوف ويتمتم فقال له: أيها الأعرابي هل تعرف تدعو؟ فقال: نعم، فقال له: قل، فقال: اللهم منحتنا الإسلام ولم نطلبه منك فامنحنا الجنة ونحن نطلبك إياها. فأكبر الرجل ذلك الأعرابي واعتذر منه.

وذكر الأصمعي قصةً، وهو سيد علماء اللغة، وكان يجالس هارون الرشيد في مجلسه مع باقي العلماء... فكان إذا اختلف العلماء التفت إليه هارون الرشيد أمير المؤمنين قائلاً: قل يا أصمعي!! فيكون قوله الفصل... ولذلك وصل الأصمعي من مرتبة اللغة الشيء العظيم، وكان يُدرّس الناس لغة العرب، وفي يوم بينما هو يدرّسهم كان يستشهد بالأشعار والأحاديث والآيات، فمن ضمن استشهاداته قال: (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) فقال واحد من الجلوس (أعرابي): يا أصمعي، كلام من هذا؟ فقال: كلام الله! قال الأعرابي: حاشا لله أن يقول هذا الكلام! فتعجّب الأصمعي وتعجّب الناس. قال: يا رجل انظر ما تقول... هذا كلام الله! قال الأعرابي: حاشا لله أن يقول هذا الكلام... لا يمكن أن يقول الله هذا الكلام!! قال له: يا رجل، تحفظ القرآن؟ قال: لا، قال: أقول لك هذه آية في المائدة! قال: يستحيل، لا يمكن أن يكون هذا كلام الله! كاد الناس أن يضربوه (كيف يكفر بآيات الله) قال الأصمعي: اصبروا... هاتوا المصحف وأقيموا عليه الحجة. فجاؤوا بالمصحف ففتحوه، وقال اقرأوا فقرأوها: (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ). إذاً، الأصمعي فعلاً قد أخطأ في نهاية الآية؛ فآخرها عزيز حكيم وليس غفور رحيم. تعجّب الأصمعي وتعجّب الناس قالوا: يا رجل، كيف عرفت وأنت لا تحفظ الآية؟ قال الأعرابي للأصمعي: تقول: اقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً. هذا موقف عزّة وحكمة وليس بموقف مغفرة ورحمة، فكيف تقول: غفور رحيم؟! قال الأصمعي: والله إنّا لا نعرف لغة العرب!!

فقام الرجل وقبّل رأس الأعرابي واستأذنه بالمغادرة، فوافق الأعرابي على مغادرته شرط أن يقبل منه هدية.

فقال له الرجل: الجواب الذي أعطيتني إياه هو أكبر هدية.

فقال له الأعرابي: لا، فهديتك حصاني تستعين به في سفرك.

لم يجد الرجل شيئاً يقوله للأعرابي إلاّ تكرار الشكر والامتنان، ومن الصباح الباكر امتطى الحصان الذي قدّمه له الأعرابي وودّعه على أمل أن يلتقيا قريباً وانطلق في سفره، ولا زال مسافراً لخمسة عشر يوماً حتى وصل مدينته، وسلك الطريق الموصل إلى بيته، وعندما دخل وجد رجلاً ينام بجوار زوجته فاعتلاه الغضب وأخرج سيفه وهمّ بقتل من يجاورها، وقبل أن يفعل تذكّر أنه خرج عشرين سنة يبحث عن ميزان العقل، فقال في نفسه: «أصبر وأرى...» فخرج من بيته ودخل مرة أخرى سابقاً خطواته بنحنحة عالية للتنبيه، فنهضت زوجته وعندما رأته على الباب قامت إليه فرحة وهي تضمّه إلى صدرها وتوسع له الدار كي يدخل فتشاغل وكأنه لا يرى النائم، فقالت له:

- أطلت الغيبة، هل وجدت الإجابة؟

فقال لها: وجدتها.

فقالت له: أسعدني، ما هي؟

فقال له: ما أنا عليه الآن من صبر.

فزغردت وخبط النائم وهي تصيح به: انهض، لقد عاد أبوك من سفره الطويل.

تفاجأ الرجل حين رأى الشاب يشبهه تماماً وكأنه نسخة منه، فحضنه وأخذ يقبّل زوجته، فحكت له: أنها حملت من الليلة التي غادر فيها، وأنّ المغزى من سؤالها كانت تريد منه الصبر، فليس هناك شيء مستحيل على الله لو أننا صبرنا حتى تصل إلينا أرزاقنا.

فرح الرجل برجاحة عقل زوجته وعاشا بقية عمريهما سعيدين.

رواية عبدالله يماني

شراء النصيحة

يُحكى أنّ رجلاً حكيماً يرأس إحدى القبائل، وقد رزقة الله بنتاً ولم يكن له ابن (ذكر)، وكان له ابن أخ يتيم الأب كان ينعم عليه ويرجو أن يخلفه في رئاسة القبيلة فيما بعد، ونشأ هذا الولد في كنف عمّه معزّزاً ويحضر مجالس عمّه مع القبيلة حتى أصبح شاباً يافعاً، وكانت لدى عمّه مزرعة وقطيع من الأغنام، ويقوم على رعاية مصالح عمه في المزرعة ورعاية الغنم ثلاثة من العمال خير قيام بينما عمّه مشغول في قضايا شؤون القبيلة. وفي أحد الأيام عندما رأى العم أبن اخيه أصبح شاباً عرض عليه أن يعمل لديه في المزرعة، وكان الشاب قد أحبّ ابنة عمه ويريد الزواج بها، وأراد أن يظهر قوة الشباب والتحمّل والصبر في العمل أمام عمه، ثم بعد ذلك يطلب يد البنت ويفوز بها، فقال لعمه:

- يا عمّ، أنت لديك ثلاثة عمال يقومون بشؤون المزرعة ورعاية الأغنام، بينما أنا وحدي سوف أكفيك وأقوم بعمل الثلاثة خير قيام بدلاً من هؤلاء العمال.

رحّب عمه بذلك وسرّح العمال واستلم الشاب العمل وقام به خير قيام، وكان عمه يتابعه رغم مشاغله ويشجّعه ويأنس أن يكون حكيماً في المستقبل. أما العمال السابقون لدى عمه فقد بحثوا عن عمل فلم يجدوا مثل عمله السابق فاتّفق الثلاثة فيما بينهم أن يمرّوا في طريقهم بالقرب من الشاب ويتحدّثوا فيما بينهم بحيث يسمع الشاب حديثهم، فيقول الأول:

- انظروا يا رفاق هذا الشاب كيف أجهد نفسه في العمل من أجل أن يتزوج ابنة عمه.

فقال الثاني: مسكين هذا الشاب إنه مخدوع يخدعه عمه.

فقال الأول: كيف ذلك؟

قال الثالث: نعم، سوف يزوج عمّه ابنته من ابن فلان.

فقال الثاني: قد تم الاتفاق بينهما لكنّ طلب العم أن يكون ذلك سرّاً حتى يفرغ من شؤونه.

لمّا سمع ذلك الشاب ذلك غضب غضباً شديداً فترك عمله في حينه واتّجه إلى ظلّ شجرة وجلس، وعادةً كان الشاب عند غروب الشمس يأخذ الأغنام معه إلى حظيرة قرب منزل العم، أما في هذا اليوم فقد وجد العم أنّ أغنامه تأتي إلى الحظيرة متفرقة في مجموعات ومهملة وليس معها أحد، فأخذ يبحث عن ابن أخيه ويرجو الله أن لا يكون قد أصابه مكروه، فلمّا وصل إلى المزرعة أخذ ينادي على ابن أخيه فأجابه فقال له:

- ماذا بك، هل أنت بخير؟ فقال غاضباً:

- كلا، وأنت السبب. أنا أخدمك وأرعى شؤون عملك وأنت تخدعني.

فقال العم: وكيف ذلك؟

قال: تريد تزويج ابنتك بغيري؟

فقال العم: ومن قال ذلك؟

قال: قد مرّ بقربي العمال السابقون لديك وسمعت حديثهم عن ذلك.

هنا أدرك العم أنّ ابن أخيه رجل جلد في العمل لكن يطغى عليه الاندفاع والحكم على الأشياء دون التثبت، فأراد أن يعالج الأمر بحكمة، فقال لابن أخيه:

- أبداً يا ولدي لم يحدث ذلك، وسوف يتمّ زواجك أنت وفلانة في الأسبوع المقبل.

بدأ الاستعداد للزواج وتمّ الزواج حسب ما قال، لكنّ العم كان قد أقلقه ما فعل ابن أخيه وأراد تلقينه درساً في الحياة، فأتى في اليوم الثاني إلى ابن اخيه وقال له:

- الآن أصبحت فلانة زوجتك وقد دخلت بها، لكن سوف أسألك سؤالاً إن أجبتني عليه سوف تبقى بجواري وسأعطيك النصف من المزرعة والأغنام، وإن لم تجب فلا زوجة لك عندي حتى تعرف الإجابة ولن تجلس بقربي.

فقال: ما هو السؤال؟

قال: أريد أن تخبرني عندما يُقال هذا الرجل عاقل فمن أين أتى له مصدر العقل؟

فقال الشاب: مصدر العقل من الرأس؟

فقال العم: إذن تخرج من ديار القبيلة ولا ترجع حتى تعرف الإجابة، أما زوجتك فهي عندي تنتظرك حتى ترجع بالإجابة.

حاول الشاب الاعتراض لكنه وجد عمه حازماً وجاداً في ذلك، فخرج هائماً على وجهه حتى خرج من ديار القبيلة إلى ديار بعيدة، ثم ساقة القدر إلى العمل لدى أحد الحكماء في مزرعة، لكنّ الشاب كان يخجل أن يسأل عن الإجابة لأنّ عمه قال: يفترض إنّ كلّ رجل يعرف الإجابة ومن لا يعرفها ليس برجل ولا يعدّ من الرجال العقلاء، فكان يحدّث نفسه قائلاً: «لو سألت عنها ربما احتقرني الرجال لأنني سألت ولم أستنتج الإجابة». وكان عمه يريد له السفر والتعامل مع الناس باختلاف أجناسهم لأنه يؤمن أنّ السفر والتنقل من مكان إلى مكان والتعامل مع الناس يصقل معادن الرجال ويزيدهم معرفةً وعلماً ويستلهمون العبر من المواقف والأحداث.

أخذ الشاب يعمل وانهمك في العمل ما يقارب خمسة عشر عاماً، ثم أخذه الشوق إلى الديار والزوج وكانت منقطعة عنه الأخبار لبعد المسافة، فكان يحدّث نفسه قائلاً: «سوف أرجع، ربما عمي نسي السؤال وهو في شوق إلي، أو ربما توفي وانتهى الموضوع». وأخيراً عزم على السفر فكلّم الرجل الذي يعمل عنده قائلاً:

- الآن أُريد أجرتي لأنني أريد السفر.

فقال الرجل: نعم، إنّ أجرتك في هذه المدة أربع نياق وجمل وبندقية، لكن لدي نصائح تفيدك إن أردت شراءها، فالنصيحة أبيعها بناقة واحدة.

فكّر الشاب قليلاً وقال: أريد شراء نصيحة واحدة، خذ هذه الناقة.

فقال الرجل: يا ولدي، إنّ مصدر العقل هو الصبر.

وأخذ يشرح ويوضّح أنّ الرجل العاقل إذا همّ به أمر لا يستعجل الحل بل يصبر ويتأنى لتتضح له كامل الصورة وتهدأ الأعصاب ويتّخذ الحكم بعد رؤيا وبصيرة.

كاد الشاب يطير فرحاً، فقد عثر على ضالته التي يبحث عنها منذ سنوات، فقال:

- أعطني النصيحة الثانية وخذ ناقة. فقال الحكيم:

- «لا تخاوي واحداً ما تعرفه»، بمعنى لا تسافر مع مَن لا تعرف لأنك لست آمناً معه.

فقال الشاب: أريد شراء الثالثة.

فقال الرجل: «لا تنم في وادي سيل».

فقال الشاب: نعم وأريد شراء الرابعة.

فقال الرجل: «لا تسأل عمّا لا يعنيك».

فقال الرجل: أما النصيحة الخامسة فهي هدية لك مني، وهي «كلام الليل يمحوه النهار».

بقي للشاب الجمل والبندقية فودّع الرجل وذهب لا يملك إلاّ الجمل والبندقية، وقد زوّده الرجل بزاد الطريق، وفي أثناء الطريق في الصحراء تقابل مع رجل راكباً ناقة ومعه بندقية فقال له الرجل: أين تريد أيها الشاب؟

فقال: إلى هذا الاتجاه.

فقال: الطريق واحد، وأنا كذلك.

فتذكّر النصيحة لكن ماذا يفعل، فقال نعم، ولكن على حذر. وعند غروب الشمس قال الرجل:

- نريد أن نستريح وننام هنا حتى الصباح ثم نواصل المسير.

وافق الشاب، وعندما نام الرجل قام وجمع بعض الأعشاب ووضعها مكانه وغطّاها بردائه وذهب غير بعيد ونام، وقبل بزوغ الشمس قام الرجل وأخذ بندقيته وصوّبها إلى مكان الشاب يريد قتله وسلبه، لكنّ الشاب صوّب بندقيته إلى الرجل وقتله بعد أن عرف أنه من قطاع الطرق، فكسب الشاب البندقية والجمل عن طريق الأخذ بالنصيحة والحذر وأصبح لديه جمل وناقة وبندقيتان، ثم قطر الناقة خلف الجمل وواصل طريقه.

وأثناء سفره في أحد الأيام شاهد، وهو في الطريق، بيتاً للبدو من الشعر فذهب

إليهم يستضيف عندهم ليلته هذه فاستقبله صاحب البيت وأعدّ له العشاء، وعند النوم قال له صاحب البيت:

- نَم هنا أمام البيت.

فقال الشاب: لا، إنكم تسكنون وتنامون في وادٍ للسيل فأنا سأذهب إلى تلك الهضبة سوف أنام هناك.

فقال صاحب البيت: إننا منذ سنوات هنا ولم يأتِ هذا الوادي بسيل.

فقال الشاب: إنك لا تعلم عمق الوادي ونحن نرى سحباً وبرقاً فيجب الحذر.

فقال صاحب البيت: اذهب أنت في أمان الله، أما نحن فسوف ننام هنا كما كنا.

ذهب الشاب إلى مكان مرتفع ونام، وبعد منتصف الليل إذا بصاحب البيت يعدو ويحمل صندوقاً ووضعه عند الشاب قائلاً:

- لقد داهمنا السيل وسوف أرجع لأحضر زوجتي وأولادي.

وعند رجوعه جرفهم السيل جميعاً وجرف بيتهم وأغنامهم ولم يبقَ منهم أحد.

فتح الشاب الصندوق فوجده مملوءاً بجنيهات من الذهب، فأصبح بفضل تطبيق النصيحة لديه صندوق من الذهب. وبعد ذلك واصل طريقة إلى مقر عشيرته، وفي الطريق مرّ على منازل لبعض البدو ثم اتّجه إلى أكبر البيوت للضيافة، فرحّب به صاحب البيت وأكرمه، فإذا بالشاب يلاحظ بنتاً وكلباً مقرونين سويّاً، فأراد أن يسأل صاحب البيت لكنّه تذكّر النصيحة «لا تسأل عمّا لا يعنيك». وعندما أراد الذهاب استغرب صاحب المنزل لماذا لم يسأله هذا الشاب عن ذلك، فقال الشاب:

- إنني أمتلك نصيحة بأن لا أسأل عمّا لا يعنيني، وهذا لا يعنيني.

فقال الرجل: لقد أنقذك الله وعصم دمك مني. انظر أيها الشاب، إنني قد أقسمت على أنّ كلّ من يسألني عن هذا، وهو لا يعنيه ذلك، فإنه قد أباحني دمه وماله. تعال معي وشاهد هنا هذه الحفرة كم من رؤوس الرجال الذين أهلكتهم بسؤالهم، فاذهب أنت راشد عني.

ذهب الشاب وواصل طريقة حتى وصل قريته عند منتصف الليل وإذا هو يعرف منزله ومنازل قومه، فذهب إلى منزله مباشرةً وإذا بفتى ممشوق القوام ينام بجانب زوجته، فأخذته الغيرة وأراد أن يقتله لكنّه تذكر النصيحة «كلام الليل يمحوه النهار»،

فاستعاذ الله وذهب إلى مكان قريب من المنازل ونام. وبعد الفجر وإذا بعمه قد أتى إليه وهو نائم، ثم رفع صوته منادياً: يا محمد، تعال أبوك إنه هنا نائم. فقام الشاب وعانقه عمه وإذا الولد الذي كان نائماً قرب زوجته هو ابنه الذي لم يره، حيث إنّ زوجته حملت به في الليالي الأولى من الزواج فرحّب به عمه وسأله عن الجواب، فأجاب:

- نعم يا عم، «الصبر والتأني» هما مصدر العقل والحكمة في اتّخاذ القرار الصحيح.

رواية عباس الغانمي

رزق الدودة

ذكروا أنّ سليمان عليه السلام كان جالساً على شاطئ بحر، فأبصر نملةً تحمل حبة قمح تذهب بها نحو البحر، فجعل سليمان ينظر إليها حتى بلغت الماء فإذا بضفدعة قد أخرجت رأسها من الماء ففتحت فمها، فدخلت النملة[1] وغاصت الضفدعة في البحر ساعة طويلة، وسليمان يتفكّر في ذلك متعجباً. ثم إنها خرجت من الماء وفتحت فمها فخرجت النملة ولم تكن الحبة معها. فدعاها سليمان عليه السلام وسألها عن شأنها وأين كانت؟ فقالت:

- يا نبي الله، إنّ في قعر البحر الذي تراه صخرة مجوفة وفي جوفها دودة

---

(١) النملة حشرة محظوظة فقد جاء ذكرها في القرآن من خلال قصتها مع النبي سليمان عليه السلام (وسمّيت إحدى سور القرآن باسمها - سورة النمل) وقد أسهب المؤرخون الإسلاميون الحديث عن النملة فها هو ابن كثير يقول إنّ اسم النملة التي أشارت إلى قومها بالاختباء من سليمان وجنوده تدعى (جرسا) وإنها من قبيلة يقال لهم بني الشيصان، وإنها كانت عرجاء، وكانت بقدر الذئب!

وقال الزهري: إنّ سليمان بن داود عليه السلام خرج هو وأصحابه يستسقون، فرأى نملة قائمة رافعة إحدى قوائمها تستسقي، فقال لأصحابه: ارجعوا فقد سقيتم، إنّ هذه النملة استسقت فاستجيب لها.

وقال ابن عساكر: وقد روي عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «خرج نبي من الأنبياء بالناس يستسقون الله، فإذا هم بنملة رافعة بعض قوائمها إلى السماء، فقال النبي: ارجعوا فقد استجيب لكم من أجل هذه النملة».

وقال السدّي: أصاب الناس قحط على عهد سليمان عليه السلام، فأمر الناس فخرجوا، فإذا بنملة قائمة على رجليها، باسطة يديها، وهي تقول: اللهم إنا خلق من خلقك، ولا غناء بنا عن فضلك. قال: فصبّ الله عليهم المطر.

عمياء، وقد خلقها الله تعالى هنالك فلا تقدر أن تخرج منها لطلب معاشها، وقد وكّلني الله برزقها فأنا أحمل رزقها، وسخّر الله تعالى هذه الضفدعة لتحملني فلا يضرّني الماء في فيها، وتضع فاها على ثقب الصخرة وأدخلها، ثم إذا أوصلت رزقها إليها وخرجت من ثقب الصخرة إلى فيها فتخرجني من البحر.

فقال سليمان عليه السلام: وهل سمعت لها من تسبيحة؟

قالت: نعم. إنها تقول «يا من لا تنساني في جوف هذه الصخرة تحت هذه اللجة برزقك، لا تنسَ عبادك المؤمنين برحمتك».[1]

رواية محمد خلوفة

---

(١) يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (هود: ٦).

وما جزاء الإحسان؟

كان ياما كان، كان في قديم الزمان صياد يرمي صنارته يومياً فيعلق بها عدد قليل من السمك فيقوم بإخراجه وبيعه وشراء طعام لأسرته. وكانت زوجته تلومه كلّ حين على بطء همّته والاكتفاء بالصيد القليل والعودة إلى البيت والاسترخاء طوال الوقت، فكان يعتذر بأنّ الصنارة لا تصيد إلاّ سمكة سمكة، فقالت له: لماذا لا تشتري شبكة وتصيد كثيراً وتزيد من رزقك؟... ولا زالت تحثّه على ذلك حتى اشترى شبكة، فلم يكن حظه أفضل مما كان عليه، وظنّ أنه سيسلم من تعنيف زوجته إلاّ أنها قالت له: المكان الذي لا تجد فيه رزقك فابحث عنه في مكان آخر. فوعدها خيراً، إلاّ أنه لم يفعل وظلّ يصطاد في المكان نفسه.

وذات صباح خرج كعادته وألقى بشبكته وانتظر رزقه، وعندما جاء ليسحب الشبكة وجدها ثقيلة، ففرح وقال في نفسه: «اليوم سيكون الصيد وفيراً وسأسكت تلك الحيزبون» وظلّ يجاهد في سحب الشبكة، وكم كانت حسرته عندما رأى أنّ شعباً مرجانية علقت بشبكته وقطعت أجزاء كبيرة منها، فأخذ يصلح الأجزاء المهتكة ثم قام بفردها والتأكد من سلامتها وقذف بها مرة أخرى إلى البحر، وحين سحبها للمرة الثانية وجدها أثقل من المرة السابقة، فجاهد في جذبها إلى أن وصلت إليه فإذا بحمار ميت علق بشبكته، فنزل إلى البحر وخلّص شبكته من ذلك الحمار وأعاد مدّها وقذف بها مرة ثالثة مبدياً تذمراً مما يحدث له في هذا اليوم، وأخذ يلوم نفسه على عدم تنفيذ وصية زوجته بالبحث عن مكان آخر، فقال في نفسه: «إن لم تفلح هذه الرمية فسوف أغيّر موقع صيدي» ومكث لبعض الوقت ثم جذب شبكته فإذا بها أثقل من المحاولتين السابقتين، فبذل جهداً مضاعفاً، وكلما جذب ازداد الثقل ثقلاً،

ودهش حينما وجد أنّ ذلك الثقل ما هو إلاّ قمقم نحاسي مختوم على فوهته بقطعة من الرصاص ومختوم عليه بختم النبي سليمان[1]. فكّر الصياد أن يزيل الختم فلربما يجد عفريتاً يحقق له كلّ أمانيه، فأخرج سكينه وانشغل بمعالجة الختم وإزالته،

---

(١) قصة سرقة خاتم النبي سليمان مشهورة ووردت في كثير من كتب السير والتاريخ، وقد رويت بطرق مختلفة، وكيف عاقب النبي سليمان سارق خاتمه الجني (حبقيق). ولهذا نجد في القصص الشعبي إعادة لتلك المرويات إما بالحصول على الخاتم أو مواجهة الجني السارق.
وقصة هذا العقاب يوردها ابن الأثير في كتابه **الكامل في التاريخ** فيقول: حدثنا أسباط عن السديّ في قوله: «ولقد فتنّا سليمان وألقينا على كرسيّه جسداً» قال: الشيطان حين جلس على كرسيه أربعين يوماً قال: كان لسليمان مائة امرأة وكانت امرأة منهنّ يقال لها جرادة، وهي آثر نسائه عنده وأمنهن عنده، وكان إذا أجنب أو أتى حاجةً نزع خاتمه ولا يأتمن عليه أحداً من الناس غيرها، فجاءته يوماً من الأيام فقالت له: إنّ أخي بينه وبين فلان خصومة وأنا أحب أن تقضيَ له إذا جاءك، فقال: نعم، ولم يفعل، فابتُلي، فأعطاها خاتمه ودخل المحرج فخرج الشيطان في صورته فقال: هاتي الخاتم، فأعطته فجاء حتى جلس على مجلس سليمان وخرج سليمان بعد ذلك فسألها أن تعطيه خاتمه فقالت: ألم تأخذه قبل؟ قال: لا، وخرج من مكانه تائهاً. قال: ومكث الشيطان يحكم بين الناس أربعين يوماً. قال: فأنكر الناس أحكامه فاجتمع قرّاء بني إسرائيل وعلماؤهم وجاؤوا حتى دخلوا على نسائه فقالوا: إنا قد أنكرنا هذا فإن كان سليمان فقد ذهب عقله وأنكرنا أحكامه! قال: فبكى النساء عند ذلك. قال: فأقبلوا يمشون حتى أتوْه فأحدقوا به ثم نشروا فقرأوا التوراة. قال: فطار من بين أيديهم حتى وقع على شرفة والخاتم معه، ثم طار حتى ذهب إلى البحر فوقع الخاتم منه في البحر فابتلعه حوت من حيتان البحر. قال: وأقبل سليمان في حاله التي كان فيها حتى انتهى إلى صياد من صيادي البحر وهو جائع وقد اشتد جوعه فاستطعمه من صيدهم وقال: إني أنا سليمان، فقام إليه بعضُهم فضربه بعصاً فشجّه. قال: فجعل يغسل دمه وهو على شاطئ البحر، فلام الصيادون صاحبَهم الذي ضربه وقالوا: بئس ما صنعت حيث ضربته! قال: إنه زعم أنه سليمان. قال: فأعطوه سمكتين مما قد ضُرب عندهم فلم يشغله ما كان به من الضرب حتى قام على شطّ البحر فشقّ بطونهما وجعل يغسلهما فوجد خاتَمه في بطن إحداهما فأخذه فلبسه فردّ الله عليه بهاءه ومُلكه وجاءت الطير حتى حامتْ عليه فعرف القومُ أنه سليمان فقام القوم يعتذرون مما صنعوا فقال: ما أحمدكم على عُذركم ولا ألومكم على ما كان منكم، كان هذا الأمر لا بدّ منه. قال: فجاء حتى أتى مُلكه فأرسل إلى الشيطان فجيء به وسُخّرت له الريح والشياطين يومئذ ولم تكن سُخّرت له قبل ذلك وهو قوله: «وهبْ لي مُلكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدي إنك أنت الوهّاب». وبعث إلى الشيطان فأتى به فأمر به فجعل في صندوق من حديد ثم أطبق عليه وأقفل عليه بقُفل وختم عليه بخاتَمه ثم أمر به فألقِيَ في البحر فهو فيه حتى تقوم الساعة وكان اسمه حبقيق.

فانبعث دخان كثيف من فوهة القمقم وأخذ يتجمّع حتى غدا مارداً ضخماً، فارتعد الصياد هلعاً ولم يستطع أن ينطق، فسمع ذلك المارد يصيح معتذراً:

- يا سليمان يا نبي الله لا تقتلني ولا تحبسني[1] فسأكون كما تريد واعذرني على تقصيري السابق.

فتجرّأ الصياد وقال للمارد: لا تخف فنبي الله سليمان مات منذ سبعة آلاف سنة.

فرح المارد وأخذ يقفز يميناً ويساراً ثم التفت إلى الصياد وقال له:

- اعلم أني عصيت النبي سليمان فوضعني في هذا القمقم وقذف بي في البحر، فمكثت مائة سنة أعاهد فيها نفسي على مكافأة من يخلّصني من سجني بأن أعطيه أموال البحر كلها، فمضت المائة سنة ولم يخلصني أحد، ثم وعدت أنّ من يخلصني في المائة التالية أهبه كنوز البحر والأرض، ومضت السنوات متوالية ولم يخلّصني أحد، فارتضيت بالسجن ولم أعد أحصي الأيام أو السنوات، وذات يوم مرّ أحد جان البحر فسمعته يقول: إنّ مَن سجن سجن وإنّ مَن عتق عتق، فلم أعرف ماذا يقصد، لكنّ السنوات الطويلة التي بقيت داخل القمقم عرفت منها مقولة ذلك الجني وهي أنّ من سجن فهو سجن دائم لا خروج منه، فقلت في نفسي: ما دام أنه سجن دائم فلا يفكّ سجني إلا خاسر، ونذرت أنّ من يخلّصني من القمقم سأقتله وله عليّ فقط أن يختار كيف تكون ميتته... وأنت الخاسر فاستعد واختر كيف تريد أن تكون ميتتك.

ارتعد الصياد وأخذ يتوسّل المارد ويذكر له أنّ لديه زوجة وعيالاً ولا يكون جزاء الإحسان إلا الإحسان، فلم تجد كلماته صدى لدى المارد إلاّ إصراراً على قتله وهو يقول له:

---

(١) سخّر الله عزّ وجل الشياطين للنبي سليمان، وكان يأمرهم فيطيعون، وكان بمقدوره تصفيد الشياطين. قال تعالى: ﴿... فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ (سورة ص: ٣٦-٣٨).
ويذهب جلّ العلماء إلى أنّ الشياطين الذين كانوا يخدمون سليمان ويظهرون على هيئتهم ولا فرق في الهيئة. وهو كلام مطلق ليس عليه دليل، والراجح أنّ التسخير حادث إلاّ أنّ حضور الهيئة والتجسيم كرؤية خاصة بالنبي سليمان فحسب، فهو الذي يراهم على حالتهم، وهذا الأرجح فيما أتصور.

- السبب الرئيس لحبسي أني حنثت بقسمي للنبي سليمان، ولن أكرر الحنث بما أقسمت عليه، فتخيّر كيف تريد أن تكون ميتتك.

تيقّن الصياد من ميتته على يد هذا المارد، فطلب منه أن يمنحه الوقت كي يصلي ركعتين قبل أن يقبض على روحه، فتوضأ وأحسن وضوءه واتّجه إلى القبلة خاشعاً منيباً، فتبادر إلى ذهنه ضعف الشيطان[1] وعزم على خداع هذا المارد، فأنهى صلاته واتّجه إلى المارد وقال له:

- أنا مستعد للموت الآن، لكن لدي حيرة.

فقال له المارد: وما هي؟

فقال الصياد: أنا لا أصدق أبداً أنك كنت محبوساً في هذا القمقم الصغير جداً وأنت بهذه الضخامة.

فقال له المارد: بلى، كنت محبوساً فيه.

فأكد الصياد عدم التصديق وقال للمارد: أنت تريد خداعي فقط لأنّ عقلي غير مصدّق، وإذا أردت أن أصدّقك فأرني... وإن صدقت في قولك فلتكن قتلتك لي مضاعفة.

قال له المارد: سوف أجعلك تصدّق ثم أقتلك قتلة يذهب بها التاريخ مثلاً.

فقال له الصياد: أنت لا تقدر على إدخال إصبعك في القمقم فكيف بجسدك كله؟... أتحداك أن تفعل.

غضب المارد غضباً شديداً وقال للصياد: حماقتك هذه سوف أجعلك تندم عليها. ثم تراجع وقال: ولماذا تندم فأنت ميت ميت. وصاح صيحةً عاصفة وتبخّر إلى دخان كثيف أخذ ينسلّ إلى داخل القمقم وصاح بالصياد: أتصدقني الآن؟... ها أنا داخل القمقم. فأسرع الصياد إلى الختم وأعادته إلى فوهة القمقم، وهو يضحك ويخاطب المارد الذي عاد إلى داخل سجنه:

- أما الآن فلن تخرج، وسأحذر الناس منك، وسأكتب على القمقم: يوجد

---

(١) هذا استلهام للآية الكريمة التي يقول فيها الله عزّ وجل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (النساء: ٧٦).
وهو تأكيدٌ أنّ كيد الشيطان كيد واهٍ...

هنا عفريت من يخرجه سيكون مصيره الموت، وقد مكثت سبعة آلاف سنة في القمقم وسوف أجعلك تبقى داخله إلى قيام الساعة.

فصاح به المارد: أخرجني وأعدك أن أكون خادمك المطيع.

فردّ عليه الصياد: لا يلدغ المؤمن من الجحر مرتين.

وحمل القمقم وقذف به بكل قوته إلى وسط البحر.[1]

رواية حامدة حمدان

---

(١) توجد هذه القصة في **ألف ليلة وليلة**، وكثير من قصص هذا السفر الحكائي يتم إخراجها من سياقها الحكائي الطويل المبني على تناسل الحكايات بعضها من بعض إلى سياق مستقل قائم على وحدة حكاية واحدة منبتة... فهذه القصة وردت في **ألف ليلة وليلة** مؤسسةً لحكايات أخرى تناسلت منها لكي تبقى شهرزاد في حالة سرد مشوق ومتواصل. ففي **ألف ليلة وليلة** تقول شهرزاد:

بلغني أيها الملك السعيد أنّ الصياد لمّا قال للعفريت لو أبقيتني كنت أبقيتك، لكن ما أردت إلا قتلي فأنا أقتلك محبوساً في هذا القمقم، وألقيك في هذا البحر، ثم صرخ المارد وقال بالله عليك أيها الصياد لا تفعل وأبقني كرماً ولا تؤاخذني بعملي، فإذا كنت أنا مسيئاً كن أنت محسناً. وفي الأمثال السائرة يا محسناً لمن أساء كفي المسيء فعله ولا تعمل عمل أمامة مع عاتكة. قال الصياد: وما شأنهما؟ فقال العفريت: ما هذا وقت حديث وأنا في السجن حتى تطلعني منه وأنا أحدثك بشأنهما، فقال الصياد: لا بدّ من إلقائك في البحر ولا سبيل إلى إخراجك منه فإني كنت أستعطفك وأتضرع إليك وأنت لا تريد إلا قتلي من غير ذنب استوجبته منك، ولا فعلت معك سوءاً قط ولم أفعل معك إلا خيراً، لكوني أخرجتك من السجن، فلما فعلت معي ذلك علمت أنك رديء الأصل، واعلم أنني ما رميتك في هذا البحر إلا لأجل أنّ كلّ من أطلعك أخبره بخبرك وأحذره منك فيرميك فيه ثانياً فتقيم في هذا البحر إلى آخر الزمان حتى ترى أنواع العذاب. فقال العفريت: أطلقني فهذا وقت المروءات وأنا أعاهدك أني لا أسوؤك أبداً بل أنفعك بشيء يغنيك دائماً، فأخذ الصياد عليه العهد أنه إذا أطلقه لا يؤذيه أبداً بل يعمل معه الجميل، فلما استوثق منه بالأيمان والعهود وحلّفه باسم الله الأعظم فتح له الصياد فتصاعد الدخان حتى خرج وتكامل فصار عفريتاً مشوّه الخلقة ورفس القمقم في البحر، فلمّا رأى الصياد أنه رمى القمقم في البحر أيقن بالهلاك وبال في ثيابه وقال: هذه ليست علامة خير، ثم أنه قوّى قلبه وقال: أيها العفريت قال الله تعالى: «وأوفوا العهد، إنّ العهد كان مسؤولاً» وأنت قد عاهدتني وحلفت أنك لا تغدر بي فإن غدرت بي يجزّك الله فإنه غيور يمهل ولا يهمل، وأنا قلت لك مثل ما قاله الحكيم رويان للملك يونان: أبقني يبقيك الله. فضحك العفريت ومشى قدّامه وقال: أيها الصياد اتبعني، فمشى الصياد وراءه وهو لم =

= يصدّق بالنجاة إلى أن خرجا من ظاهر المدينة وطلعا على جبل ونزلا إلى برية متّسعة وإذا في وسطها بركة ماء، فوقف العفريت عليها وأمر الصياد أن يطرح الشبكة ويصطاد، فنظر الصياد إلى البركة وإذا بها السمك ألواناً، الأبيض والأحمر والأزرق والأصفر، فتعجّب الصياد من ذلك ثم أنه طرح شبكته وجذبها فوجد فيها أربع سمكات، كل سمكة بلون، فلما رآها الصياد فرح، فقال له العفريت: ادخل بها إلى السلطان وقدّمها إليه فإنه يعطيك ما يغنيك، وبالله أقبل عذري فإنني في هذا الوقت لم أعرف طريقاً وأنا في هذا البحر مدة ألف وثمانمائة عام، ما رأيت ظاهر الدنيا إلاّ في هذه الساعة ولا تصطد منها كلّ يوم إلاّ مرة واحدة واستودعتك الله، ثم دقّ الأرض بقدميه فانشقّت وابتلعته، ومضى الصياد إلى المدينة متعجّباً مما جرى له مع هذا العفريت، ثم أخذ السمك ودخل به منزله وأتى بمأجور ثم ملأه ماءً وحطّ فيه السمك فاختبط السمك من داخل المأجور في الماء، ثم حمل المأجور فوق رأسه وقصد به قصر الملك كما أمره العفريت.

فلما طلع الصياد إلى الملك وقدّم له السمك تعجّب الملك غاية العجب من ذلك السمك الذي قدّمه إليه الصياد لأنه لم يرَ في عمره مثله صفةً ولا شكلاً، فقال: ألقوا هذا السمك للجارية الطباخة، وكانت هذه الجارية قد أهداها له ملك الروم منذ ثلاثة أيام وهو لم يجرّبها في طبيخ، فأمرها الوزير أن تقليه، وقال لها: يا جارية إنّ الملك يقول لك ما ادّخرت دمعتي إلا لشدّتي ففرجينا اليوم على طهيك وحسن طبيخك، فإنّ السلطان جاء إليه واحد بهدية. ثم رجع الوزير بعدما أوصاها فأمره الملك أن يعطي الصياد أربعمائة دينار فأعطاه الوزير إياها فأعطاها فأخذها الوزير في حجره وتوجه إلى منزله لزوجته وهو فرحان مسرور، ثم اشترى لعياله ما يحتاجون إليه. هذا ما كان من أمر الصياد. بعد ذلك تنتقل الحكاية إلى الجارية وقصتها مع السمك الذي صاده الصياد، وأردت فقط استكمال حكاية المارد مع الصياد وفق المخيلة الساردة لسفر ألف ليلة وليلة لبيان أساليب الحيل السردية في ذلك السفر.

لا أحد يقدر على مكر العجائز

كان أحد البيوت مسكوناً بالعفاريت، وكلّما أراد صاحبه أن يؤجّره لا يمكث المستأجر سوى يوم حتى يغادره، حيث يظهر له جني ويقول له: شغّلني وإلاّ قتلتك أو أن تغادر هذا البيت، فمتى شغّله أنهى الجنّي شغله في الحال ويطالبه بشغل آخر فيتمّه على وجه السرعة، وعندما لا يجد شيئاً يأمره به يقتله، وهكذا فمن دخله لا يخرج، فعزف الناس عن هذا البيت وظلّ خرابة، وقال صاحبه: من استطاع أن يسكنه فهو ملك له.

سمعت إحدى العجائز بخبر هذا البيت فذهبت لتستأجره فقال لها صاحب البيت:

- إن استطعت أن تمكثي به فهو لك.

دخلت المرأة العجوز فجاءها الجني صائحاً: تشغليني وإلاّ قتلتك. فكشفت له عن فرجها وقالت له: هفّ عليه حتى ينغلق.

ظلّ الجني يهفّ عليه بفمه لوقتٍ طويل، وكلما حاول أن يتأكّد أنّه انغلق وجده مفتوحاً فيواصل الهفّ. وفجأةً طقعت العجوز فقال لها الجني: ما هذا؟ فقالت له: لقد انفكّ من جهة أخرى، وأشارت إلى فتحة دبرها وقالت له: عليك أن تهف على الفتحتين حتى تنغلقا. فخرج الجنى هارباً ولم يعد إلى البيت.

الراوي شخص رفض ذكر اسمه

جوع شعبك

كان في قديم الزمان سلطان ظالم[1]، وقد زاد من ظلمه وزيره الأول الذي

(١) سجّل التاريخ مئات الحكام الظلمة الذين استبدوا بشعوبهم إلا أن الضحّاك يكاد يكون أول ملك يتصف بالظلم والبطش. فقد ذكر بيوراسب وهو الازدهاق الذي يسمّيه العرب الضحّاك، وأهل اليمن يدّعون أنّ الضحاك منهم وأنه أول الفراعنة وكان ملك مصر لما قدمها إبراهيم الخليل، والفرس تذكر أنه منهم وتنسبه إليهم وأنه بيوراسب بن أرونداسب بن رينكار بن وندريشتك بن يارين بن فروال بن سيامك بن ميشي بن جيومرث؛ ومنهم من ينسبه غير هذا، فقد قال هشام بن الكلبيّ: ملك الضحّاك بعد جم فيما يزعمون والله أعلم ألف سنة، ونزل السواد في قرية يُقال لها برس في ناحية طريق الكوفة، وملك الأرض كلها وسار بالجور والعسف وبسط يده في القتل، وكان أول من سنّ الصلب والقطع وأول من وضع العشور وضرب الدراهم وأول من تغنّى وغنّي له. قال: وبلغنا أنّ الضحاك هو نمرود وأنّ ابراهيم عليه السلام ولد في زمانه وأنه صاحبه الذي أراد إحراقه، وتزعم الفرس أنّ الملك لم يكن إلاّ للبطن الذي منه أوشهنج وجم وطهمورث، وأنّ الضحّاك كان غاصباً وأنه غصب أهل الأرض بسحره وخبثه وهوّل عليهم بالحيّتين اللّتين كانتا على منكبيه. (الكامل في التاريخ لابن الأثير) وقال كثير من أهل الكتب: إنّ ما كان على منكبيه هو لحمتان طويلتان كلّ واحدة منهما كرأس الثعبان، وكان يسترهما بالثياب، ويذكر على طريق التهويل أنهما حيتان تقتضيانه الطعام، وكانتا تتحركان تحت ثوبه إذا جاعتا، ولقي الناس منه جهدًا شديدًا وذبح الصبيان لأنّ اللحمتين اللتين كانتا على منكبيه كانتا تضطربان فإذا طلاهما بدماغ إنسان سكنتا، فكان يذبح كلّ يوم رجلين، فلم يزل الناس كذلك حتى إذا أراد الله هلاكه وثب رجلٌ من العامة من أهل أصبهان يقال له كابي بسبب ابنين له أخذهما أصحاب بيوراسب بسبب اللحمتين اللتين على منكبيه، وأخذ كابي عصاً كانت بيده فعلّق بطرفها جرابًا كان معه ثمّ نصب ذلك كالعلم ودعا الناس إلى مجاهدة بيوراسب ومحاربته، فأسرع الى إجابته خلقٌ كثير لما كانوا فيه من البلاء وفنون الجور، فلما غلب كابي تفاءل الناس بذلك العلم فعظّموه وزادوا فيه حتى صار عند =

يزيّن له الأعمال الخبيثة ويدفعه على إتيانها. وذات ليلة وبينما هما يتسامران قال الوزير للسلطان:

- كما تعلم يا سلطان الزمان والأوان أنّ الشعب إذا جاع أطاع وإذا شبع تمرّد، وكي تبقى في كرسي مملكتك عليك أن لا تبقي أحداً من شعبك يملك شيئاً ذا قيمة.

استحسن السلطان مشورة وزيره وأمر حرسه وقوّاده بالسير في طول البلاد وعرضها وتبليغ الأمراء بأخذ أموال الناس وأنعامهم وإرسالها إلى قصر السلطان والمداومة على هذا الفعل حتى يأتيهم أمره بالكف.

وكي يضمن الملك أنّ الأموال والأنعام لا تذهب إلى الجباة أرسل بينهم عيوناً تخبره بما يحدث، فخشي كلّ واحد من رفيقه وباتوا يعملون ليل نهار من غير أن يأخذوا شيئاً لهم.

وكان قصر السلطان يستقبل يومياً أموالاً كثيرة حتى فاضت المخازن، وتمّ بناء مخازن جديدة خلف القصر امتدت على مساحات واسعة.

وأقيم في كلّ مدينة يحكمها السلطان مطبخ كبير يفد إليه أهالي تلك المدينة

= ملوك العجم علمهم الأكبر الذي يتبركون به وسمّوه درفش كابيان، فكانوا لا يسيرونه إلاّ في الأمور الكبار العظام ولا يرفع إلاّ لأولاد الملوك إذا وجهوا في الأمور الكبار. (الكامل في التاريخ لابن الاثير)

وبعض المجوس يزعم أنه وكّل به قوماً من الجنّ، وبعضهم يقول إنه لقي سليمان بن داود وحبسه سليمان في جبل دنباوند، وكان ذلك الزمان بالشام، فما برح بيوراسب بحبسه يجرّه حتى حمله إلى خراسان، فلمّا عرف سليمان ذلك أمر الجنّ فأوثقوه حتى لا يزول وعملوا عليه طلسماً.

وبعض الفرس زعم أنّ أفريدون قتله يوم النّيروز، فقال العجم عند قتله: إمروز نوروز، أي استقبلنا الدهر بيوم جديد فاتّخذوه عيدًا.

وقيل إنه هو الذي بنى مدينة بابل ومدينة صور ومدينة دمشق. (المصدر السابق نفسه)

ويبدو أن الضحّاك هذا هو الجذر الأسطوري لما يُعرف بمصاص الدماء، وخاصةً في الجزئية التي تذكر أنه ذبح الصبيان، لأنّ اللحمتين اللتين كانتا على منكبيه كانتا تضطربان فإذا طلاهما بدماغ إنسان سكنتا، فكان يذبح كلّ يوم رجلين. وقد أنساق وراء الفكرة هذه وأقول إنّ فكرة قتل مصاص الدماء بواسطة خشبة إنما جاءت من العصا التي حملها الرجل الأصبهاني واتّخذ منها علماً ليجمع من حوله المعادين للضحّاك.

للأكل والشرب حتى إذا انتهوا من أكلهم نهضوا لمواصلة أعمالهم من زراعة وحدادة وصيد ونجارة وتذهب عائداتها إلى مخازن السلطان، ومن هناك يتصرّف رجاله في بيعها للبلدان المجاورة وحمل الأموال وإدخالها خزينة السلطان.

استمر انتشار أعمال الأمراء بجباية أموال الناس وتسخيرهم للعمل مقابل الأكل والشرب وكسوة واحدة للعام وحمل ما يجمعونه والذهاب به إلى السلطان... فعاش الناس في ضيقٍ وكرب ولم يعد أحد منهم يحتكم على درهم واحد.

وذات ليلة أبلغ السلطان وزيره الأول أنه قد نفّذ مشورته حتى لم يعد بالبلد شخص واحد يمتلك شيئاً، وقال لوزيره:

- أراهنك إن كان بالبلد شخص واحد يمتلك درهماً.

فتلمس الوزير العذر من السلطان وقال له:

- وما يدرينا يا سلطان الزمان بهذا الخبر؟

استغرب السلطان ردّ وزيره وقال له:

- وهل تشكّ في أنّ هناك من يمتلك مالاً؟

فقال الوزير: أن نشكّ أفضل من أن نطمئن.

فقال له السلطان: ماذا تقصد؟

فقال الوزير: علينا أن نكتشف هذا بأنفسنا، وعندي خطة للتأكد من أن ليس بالبلد شخص يمتلك درهماً واحداً.

فقال له السلطان: وما هي خطتك؟

فقال الوزير: نبعث برسل إلى كلّ المدن التي تحكمها يا سيدي ومع كلّ مرسول فتاة جميلة بحيث يصيح المرسول: من لديه درهم نزوّجه بهذه الفتاة.

راقت الفكرة للسلطان وأرسل الخادمات إلى البيوت لاختيار أجمل الفتيات والإتيان بهنّ إلى القصر.

أُصيب البلد بحالة ذهولٍ تبعه استنكار لم يثمر عن شيء، ورضخ الجميع لأن تؤخذ ابنته ويذهب بها إلى القصر، وحين تجمّع الناس مطالبين ببناتهم خرج إليهم الوزير وخطب فيهم قائلاً:

- إنّ السلطان رقّ لبقاء بنات البلد بلا زواج وأحب أن يزوجهن بمعرفته.

اطمأن الأهالي وعادوا إلى بيوتهم وهم يحلمون بأن تزفّ بناتهم لرجال السلطان علّهم ينالون الحظوة من هذه الزيجة أو يتمتعوا بفائضٍ من الأكل والكسوة.

تجمّعت بنات البلد في مكانٍ واحد وأمر السلطان الوزير أن يشرف على الخطة المقترحة لمعرفة إن كان هناك من يمتلك درهماً واحداً في البلد. ومن حينه اختار الوزير مجموعة ممّن يثق بهم من الرجال، وأرسل مع كلّ منهم فتاة من الفتيات الجميلات وأمرهم أن تركب الفتاة على حصان ويجول مرافقها بها في أسواق المدن صائحاً: من يرغب في الزواج من هذه المليحة أزوّجها له بدرهم. وأوصاهم جميعاً إن وجد من يدفع الدرهم تدفع إليه الفتاة زوجةً على سنّة الله ورسوله شرط أن يعرف بيته وأهله وناسه. فانتشر الرجال كلّ معه فتاة، وداروا على مدن البلاد وقراها وجزرها وجبالها ووديانها...

وظلّ السلطان والوزير ينتظران أخبار أولئك المرسلين، وكلّما عاد مرسول بالفتاة التي معه قائلاً: لم أجد شخصاً يملك درهماً فعُدت بالفتاة، ينتشي السلطان ويحدّث وزيره:

- ألم أقل لك لا يوجد في البلد من يملك درهماً واحداً.

فيردّ عليه الوزير قائلاً:

- هذا يفرحني يا سلطان الزمان لكن تبقّى من المرسلين من لم يأت.

استمر توافد المبتعثين في الوصول إلى القصر وإنزال الفتيات وإعادتهن إلى أهاليهن، ولم يتبقّ منهم إلا مرسول واحد، وهذا المرسول كان يدور في إحدى القرى ينادي على الفتاة التي معه، وسمعه أحد الشباب فنظر إلى الفتاة وهام بها وطلب من المنادي أن ينتظره ريثما يأتي بالدرهم المطلوب، فاستجاب له وأخبره أنه سينتظره بجوار حوانيت السوق.

انطلق الشاب إلى أمه طالباً منها أن تعطيه درهماً فأخذت تضحك من طلبه، وعندما أخبرها خبر الفتاة التي تُيّم بها مهدّداً إن لم يحصل على الدرهم فإنه سينهي حياته بغرس خنجره في بطنه، فأقسمت له والدتها أنها لا تحتكم على (قرش أبيض) ولو أرادت أن تبيع نفسها فلن تجد من يشتريها، إلاّ أنّ الشاب لم يعجبه قولها وهمّ بغرس خنجره في بطنه فصاحت به:

- توقّف، تذكّرت الآن أنّ أباك وضع صرّةً تحت عتبة البيت وبنى عليها وقال

لي إن قدرت على نزع العتبة فخذي ما تحتها، ومع ما أصابنا من ضيق حاولت نزع العتبة بكلّ الطرق فلم تنتزع من مكانها. . . اذهب وحاول.

حمل الشاب معولاً وتحرّك إلى عتبة دارهم الخارجية، وما إن ضرب بالمعول حتى انفلقت العتبة، فطفق يزيحها من مكانها ويقلب ما تحتها فوجد صرة بها دنانير ذهبية، ففرح فرحاً عظيماً وتناول ديناراً وركض إلى الرجل الذي ينتظره بجوار حوانيت السوق وأعطاه الدينار الذهبي فعقد له على الفتاة، فأخذ الشاب زوجته وأراد أن يغادر، فلحق به المرسول وقال له: من الشروط أن أعرف أهلك وبيتك واسمك. فرحّب به وقاده إلى بيتهم وأصرّ عليه حضور حفل الزواج، وما هي إلاّ أيام حتى أنفق الشاب على زواجه وأقام الولائم ودخل بزوجته. ثم استأذنه المرسول بأن يتركه يعود إلى بلاده فأذن له وودّعه إلى آخر أطراف القرية.

عاد المرسول من غير أن تصحبه الفتاة، انتشى الوزير وخاطب السلطان:

- ألم أقل لك إنه لا زال في البلد من يمتلك مالاً؟

فطلب منه التريث حتى يتكلم المرسول، فتحدّث المرسول بأنّ شاباً أعطاه ديناراً ذهبياً (وليس درهماً) وأقام حفلة كبيرة دُعي إليها خلق كثير، فاستغرب السلطان وقال للمرسول:

- هل تعلم مكان هذا الشاب؟

ردّ عليه المرسول أنه يعلم ذلك، فأرسل معه جند وطلب منه أن يحضروه إلى القصر وإن استعصى فليقتله الجند.

عاد المرسول إلى تلك القرية بصحبة الجند.

أما ما كان من أمر السلطان والوزير أنهما جلسا يقلّبان الاحتمالات ببقاء هذا الشاب ثرياً بالرغم من أن البلد ليس بها شخص واحد يمتلك شيئاً. . . وكان اقتراح الوزير زيادة الأعباء على الشعب وتغريمهم بسبب هذا الشاب بأن لا يقدّم لهم إلاّ وجبة واحدة وأن تكون كسوتهم كلّ سنتين بدلاً من كل سنة. . . وانطلق المنادون يشيعون الخبر في كل مكان.

أما ما كان من أمر الشاب فقد وصل إليه المرسول مع الجند وطلبوا منه مصاحبته إلى قصر السلطان فرفض الانصياع لهم، فتجمّعوا عليه وحاولوا قتله فأعلن لهم عن استسلامه وانقياده لأمر السلطان، فودّع أمه وزوجته ومضى مع الجند.

وكان يسير راجلاً يجرّ بحبل خلف قافلة الجنود، وكلّما بلغوا مرحلة من مراحل سفرهم ترجلوا عن خيولهم وطبخوا وأكلوا وواصلوا السير. وفي إحدى استراحاتهم كان الشاب يجلس بعيداً عنهم ورأى ثعبانا أسود يلتفّ حول أرنبٍ صغير ويعصره عصراً، فأخرج خنجره وبتر رأس الثعبان فمات في الحال، فقفز الأرنب الصغير إلى داخل الحشائش وعاد ومعه أمه التي اقتربت من الشاب تشكره على حسن صنيعه مع ابنها وأخبرته أنها جنية مسلمة وأنّ الثعبان من الجنّ الكفرة طلبها للزواج فرفضت وتزوّجت بمثيلها من الجنّ المسلمين وقد رزقت منه بسبعة أبناء، فتسلط ذلك الجني على زوجها وقتله، وكلما رفضت الزواج به قتل أحد أبنائها، وكان على وشك أن يحرمها من آخر أبنائها لولا تدخل الشاب بقتل ذلك الجني.

حزن لقصتها وتمنّى لها حياة أفضل من التي مضت، فقالت له: وما قصتك؟... فأخبرها خبره، فقالت له: لا عليك سأعطيك خاتم الاسم فقد كان زوجي محتفظاً به منذ آلاف السنوات ولا تستخدمه إلا في الخير وحذاري أن تستخدمه في الشر. وناولته الخاتم فوضعه في بنصره وشكرها على هديتها. وحينما تحركت القافلة جذبوه من الحبل المقيد فيه فسار خلفهم.

كان الملك مقرّراً قتل الشاب، لكنه كان راغباً في معرفة من أين جلب الدينار الذهبي والبلد ليس بها من يملك شيئاً، وعندما وصل الجنود بالشاب أمرهم بسجنه في سجن منفرد ريثما يفرغ له.

قذف بالشاب في سجن ضيق ومظلم فاستشعر بالوحشة والضيق، وجاءت يده على الخاتم ففركه وفي الحال سمع صوتاً يخاطبه: شبيك لبيك عبدك بين إيديك...

ذهل الشاب للحظات وطلب منه إنارة السجن وجلب أكل وشرب، وفي الحال كان السجن مضيئاً وواسعاً وقد امتدت مائدة بها كلّ ما لذّ وطاب، فأكل الشاب وارتوى ونظر إلى المارد الذي وقف بين يديه منحنياً منتظراً منه أن يطلب طلباته.

فقال للمارد:

- أنت تعلم أنّ هذا السلطان جائر وظالم لشعبه، وأفكّر في أن أتخلّص منه، وهذا حق وليس شراً.

وافقه المارد وقال له:

- أرى فيك صلاحاً وعندي لك خطة تتخلّص بها من هذا السلطان وتصبح أنت السلطان.

فسأله: وكيف ذلك؟

فقال المارد: لو جاء السلطان ليتحدث معك وحوله الجنود قل له أريد أن أتحدث معك بمفردك، ودع الأمر لي.

وافق الشاب وأخذ ينتظر قدوم السلطان، بعد أن قام المارد بإعادة حالة السجن إلى ما كانت عليه من ظلمة وضيق، وما هي إلاّ ساعات حتى ارتجّ السجن وتنادى الحرس بمقدم السلطان، وفتحت زنزانة الشاب ودخل إليه السلطان مع وزيره وبعض حاشيته، وسأله:

- من أين لك بالدينار الذهبي؟

فردّ عليه الشاب: سأخبرك يا سلطان الزمان شرط أن نكون بمفردنا.

فارتفع صوت الوزير صائحاً:

- يا كلب يا نجس، تريد قتل السلطان عندما تنفرد به.

فقال الشاب: جرّدوني من كلّ شيء أو قيّدوني بسلاسل. شرطي أن أكون أنا والسلطان بمفردنا.

وجد السلطان أنّ الشاب مصرّ على الانفراد به فأمر بتقييده وخروج كلّ من معه. فعل الحرس ما أمرهم به وبقي في مواجهة الشاب، ففرك الشاب الخاتم فتصاعد دخان كثيف وظهر المارد ضاحكاً ومخاطباً السلطان:

- لقد ظلمت وتجبّرت وأفضل عقاب لك أن تسجن في مكان مثل هذا.

فزع السلطان ولم يعرف ما الذي يفعله، فمرّر المارد يده عليه فإذا به على صورة الشاب، ومرّر يده على الشاب فإذا به على صورة السلطان، وقام بنقل السلاسل إلى قدميه ويديه وعنقه، ثم قال للشاب:

- الآن نادي على الجنود وغلّظ في حكمك بأن يسجن سجينك مدى الدهر لا يزوره أحد ولا يقدّم له إلاّ نصف وجبة يومياً.

فصاح الشاب بأعلى صوته:

- يا حراس!

تراكض الحرس والحاشية مستجيبين للصوت ووقفوا منتظرين أوامر الشاب (الذي أصبح في صورة السلطان) فقال لهم:

- حمّلوا هذا السجين بقيود لو جاء الجن ما ساعدوه على فكّها ولا تقدّموا له إلاّ نصف وجبه في آخر الليل، ومن يعصي أمري سأضعه في مكانه.

صاح السلطان (وكان على صورة الشاب) من قيده: لا يخدعكم هذا الوغد... أنا السلطان!

فاقترب منه الوزير وركله بقدمه وصفعه على خدّه، فقال له الشاب:

- اضربه أشدّ وأقسى فقد جُنّ هذا الشاب وقد طلب الانفراد بي ليقول إنه هو السلطان، ومرّة يقول إنه ابني، وأنا كما تعلم ليس لي ابن.

سارع الوزير فتناول عصا الحراس وانهال على السلطان ضرباً مبرحاً بينما السلطان يصيح به: أنا السلطان يا كلب. وكلما ضُرب شتم، فنادى الوزير على بقية الحاشية أن يضربوا ذلك الملعون الذي يدّعي الجنون وليس بمجنون، فتشارك الجميع في صفع وبصق السلطان وهو يصيح بهم ويلعنهم فيزيدون من غلظتهم عليه.

وخرج الشاب من السجن وبصحبته الوزراء والقواد والجنود، وسلك طريقاً إلى القصر، وفي سيره رأى كلبتين تلهثان وتنظران إليه وتصدران نباحاً خفيضاً، فسأل المارد عن أمرهما فقال له:

- الكلبة البيضاء تقول للمنقّطة: زوّجي ابنتك لابني، فردت عليها: وأين سيسكنها؟ فضحكت منها وقالت لها: بفضل هذا السلطان كلّ البلد خرابة، فلتختر أيّ خرابة تريد.

أضمر الشاب حزناً على حال البلد، وجلس يفكّر ما الذي يمكن أن يصنعه، فنادى على وزرائه يستشيرهم في أمر البلد وما وصلت إليه، فصمت الجميع إلاّ وزيره الأول الذي قال:

- كما اتفقنا يا مولاي أن تبقى البلد جائعة ليس بيد أحد قرش أبيض.

أعرض عنه وأعاد سؤاله فلم يتكلم أحد ورجع الوزير الأول بنفس مقولته، فقال الشاب:

- فكرة مَن هذه؟

استغرب الوزير وأحسّ أنّ الذي يتكلّمَ ليس السلطان نفسه، وحاول التملّص قبل أن يحدث مكروه، إلاّ أنّ الشاب نهض من مجلسه غاضباً وصاح بالسياف: اقطع رأس هذا الكلب.

فأخذ الوزير يستجير ويصيح ببقية الوزراء: هذا ليس السلطان.

وقبل أن يكمل صياحه كان رأسه يتدحرج أمام بقية الوزراء.

فوقف الشاب مخاطباً البقية: صدق هذا الكلب، أنا لست ذلك السلطان الجائر وقد جئت لإنقاذ بلدي.

وفرك خاتمه فظهر المارد ومسح على جسد الشاب فعاد إلى صورته الأولى. ذهل كلّ الحضور، وقبل أن يتنبهوا صاح بهم الشاب:

- مَن يبايعني؟

تحرّك الجميع لمبايعته وإعلانه سلطاناً على البلاد، وأخذ المنادي يطوف بالبلد وهو يقول إنّ السلطان الجائر مسجون والوزير الخائن قتل وسوف تعمر البلاد خلال أيام.

لم يصدّق أحد من الشعب ذلك النداء، لكنّ الشاب فرك خاتمه وطلب من المارد أن يستعين بأهله وأقاربه وأصدقائه لبناء بيوت الشعب وتعميرها، وخلال أيام كانت بيوت المدينة بيوتاً في غاية الجمال، وانطلق الناس للعمل والكسب من غير أن تؤخذ أموالهم وزروعهم وأرزاقهم.

وأرسل الشاب جنداً إلى قريته لإحضار أمه وزوجته وقام باستقبالهم وإعلان زوجته ملكة للبلاد، وعاش سعيداً وخلّف ابناً أورثه الحكم وسار على نهج أبيه في العدل والإحسان.

ومات السلطان الجائر في سجنه ولم يعلم بموته أحد.

رواية ياسر شطا

الأمنيات الثلاث

يُحكى أنّ ثلاثة من الشباب جمعت بينهم ظروف المعيشة وكوّنت بينهم صداقة ذات عرى وثيقة، حيث كان كلّ واحد منهم يملك جملاً ويعملون في جمع الحطب وبيعه في سوق المدينة، ثم يشترون بثمن ذلك الحطب المواد الغذائية التي تحتاج إليها أسرهم.

وكان يحكم هذه المدينة أحد السلاطين الحكماء، وقد أحاط المدينة بسورعظيم له بوابة للدخول وأخرى للخروج محاطة بالحرس، وعند الغروب تقفل هذه الأبواب ولا تفتح إلاّ مع شروق الشمس. وكان للسلطان في هذه المدينة أعين تبيت خارج السور ليلاً لترصد وتستمع للزائرين الذين يريدون دخول المدينة في الصباح الباكر، وكانوا يخبرون السلطان بكلّ ما يدور من أحاديث خارج سور المدينة. وفي أحد الأيام جاء الأصدقاء الثلاثة إلى المدينة لبيع حمولة جمالهم من الحطب ولم يصلوا إلاّ بعد غروب الشمس وقد أقفلت الأبواب، فبدأ الشباب الثلاثة بإعداد العشاء والقهوة، وفي أثناء ذلك قال أحدهم مازحاً:

- كل واحد يتمنى ما يريده غداً في المدينة.

فقال الأول: أتمنى أن أجلس على كرسي الحكم بدلاً من السلطان وأكون حاكماً للمدينة.

وقال الثاني: أنا أتمنى أن أتزوّج بزوجة السلطان. وقال للثالث: وأنت؟

قال: أنا اتمنى أن يحمل السلطان حملي من الأرزاق لأذهب بها إلى أهلي والجيران.

رصد كلام الشباب الثلاثة ووصل إلى السلطان الحاكم فأمر بإحضارهم. وعند

فتح الأبواب بدأ الناس بالدخول والخروج، وتمت إحاطة الشباب الثلاثة وطلب منهم التوجّه إلى السلطان مع عسكر المدينة، فبدأ الخوف والقلق يدبّ في أوصال الشباب الثلاثة ويسألون العسكر: ماذا يريد السلطان؟ وما الجرم الذي اقترفناه؟ فكان جواب العسكر: لا نعلم، نحن مأمورون... فلما وصلوا قصر الحاكم ودخلوا على السلطان استقبلهم وعرف من هيئتهم أن ليس وراءهم أي مؤامرة أو خوف، فقال:

- أريد أن أحقّق لكلّ واحد منكم أمنيته، فعليكم إخباري ما تمنيتم البارحة.

خجل الأول والثاني وخافا من السلطان، أما الثالث فأخبر بأمنيته، فقال له السلطان:

- صدقت، هيّا حمّلوا له جملاً وثلاثة جمال أخرى من الأرزاق واذهب إلى أهلك.

أخذ الثالث الجمال وظلّ قريباً من القصر ليستطلع الخبر ماذا يفعل بصديقيه... أما السلطان فقد أصرّ ورغب على الشابين إما أن يخبراه بما قالوا أو السجن والهلاك. فقال الأول:

- أيها الحاكم، والله إنني أمزح على صاحبي وقد تمنيت أن أجلس على كرسي الحكم لأحكم المدينة.

فقال السلطان: صدقت، وأنا سأحقّق لك ذلك إن كنت تستطيع الجلوس على الكرسي. وقد سبق وأن أمر الجنود أن يعلّقوا عدداً من السيوف والخناجر فوق الكرسي ببعض الخيوط، ثم أمر الشاب أن يغتسل ويلبس ثوباً من ملابس السلطان، وقال له: اجلس، فجلس الشاب، وكان السلطان قد طلب من أحد الحرس أن يحرّك السيوف والخناجر بخيط بعد جلوس الشاب بوقت قليل، وعند تحريك السيوف والخناجر قفز الشاب خوفاً من سقوطها عليه، فقال السلطان: ارجع، ما بك. فرجع وأخذ السلطان يحادثه، ثم حُرّكت السيوف فقفز الشاب فزعاً، فقال الملك:

- إنّ من يجلس على كرسي الحكم هو في خوفٍ وفزع دائمين، لأنه في أيّ لحظة تتهاوى السيوف لتطيح برأسه طمعاً في الجلوس مكانه على هذا الكرسي.

أما الشاب الثالث فقال له: وأنت ستخبرني وإلاّ قطعت رأسك الآن. فقال الشاب في خجل: أيها السلطان أنني تمنيت زوجةً كزوجة السلطان في جمالها. فقال

السلطان: بل تمنيت زوجة السلطان. هيّا، ادخل على زوجة السلطان. فرفض فأخذ السيف وقال: ادخل. وكان السلطان قد أخبر زوجته وقال لها: تصرفي فإنني سوف أدخله إليك. فلما دخل إلى زوجة السلطان قالت له: اجلس، فلما جلس أحضرت له قهوة وصبّت له القهوة في فنجان من الذهب وقالت: اشرب، فشرب، ثم صبّت له فنجاناً ثانياً من الفخار وقالت: اشرب، فشرب القهوة فقالت له: ما الفرق بين الأول والثاني؟ فقال: ليس هناك فرق، كلها قهوة. قالت: في الطعم؟ قال: الطعم واحد. فقالت: إذن اعلم أنّ النساء واحدة ليس بينهن فرق وإنما مظهر خارجي في اللبس مثل القهوة طعمها واحد لا اختلاف في الطعم. فقال: صدقت، وهذه حقيقة لم أكن أعلمها. ثم استأذن وخرج للسلطان وأخبره بما حصل، فرأى السلطان أن يحمّل جمل كلّ واحد من الأرزاق ويذهبوا في حال سبيلهم، فتقابل الأصدقاء الثلاثة بعد أن استوعب كلّ منهم درساً في حياته.

رواية عباس الغانمي

اسأل الله أن يعطيك

دخل العروسان إلى منزلهما كأول ليلة من ليالي زواجهما، وقدّمت الزوجة العشاء لزوجها، وقبل أن يمدّا يديهما إلى الأكل سمعا طرقاً على الباب فاستغربا وتساءلا من يكون الطارق الذي اختار هذا الوقت لإزعاجهما، فتحركت الزوجة لفتح الباب ورؤية من يكون الطارق، فوجدت سائلاً يطلب صدقة، فعادت وأخبرت زوجها الذي غضب غضباً شديداً وخرج إلى السائل وأشبعه ضرباً مبرحاً وطرده. ومن تلك الليلة استشعرت الزوجة أنّ زوجها عديم الرحمة غليظ القلب، ومع مرور الأيام تكشّفت لها خصال أكثر سوءاً، فلم تصلح بينهما الحياة وطلقت وعادت إلى بيت أبيها.

وبعد سنتين أو ثلاث تقدّم لخطبتها رجل فوافقت سائلةً الله أن يكون صالحاً ويعوّضها ما فاتها من سنين قضتها في بؤسٍ وشقاء، وتمّ استكمال الزواج، وفي ليلة الدخلة وبينما كانت مع زوجها على مائدة العشاء سمعا طرقاً على الباب، فقامت لترى من الطارق فوجدت على الباب زوجها الأول يطلب صدقة، فشعرت بالأسى عليه وعلى حالته التي أصبح عليها، وعندما عادت سألها زوجها عن الطارق فقالت له سائل يطلب حاجة، فقام وجمع العشاء وأخرج نقوداً من جيبه ليعطيها للسائل، فاستوقفته زوجته معترضةً:

- أتعطيه كل أكلنا ونحن لم نأكل بعد؟

فردّ عليها: هذا قليل في طلبنا رضاء الله.

وعندما رأى السائل وعرف فيه ذاك الرجل الذي ضربه ذات ليلة عاد إلى داخل

بيته وأخرج صرة من جنيهات الذهب الخالص وأعطاها للسائل، وعندما عاد سألته زوجته:

- لماذا فعلت هذا؟

فقال لها: لو تعلمين قصتي مع هذا السائل لزاد عجبك. فقالت له: أخبرني. فقال لها:

- كنت فقيراً مدقعاً، أعمل يوماً وعشرة لا أجد عملاً، وفي إحدى المرات أصابتني الفاقة فانقطعت الأعمال ولم أجد شيئاً آكله، فطرقت باباً من الأبواب طمعاً في لقمةٍ أسدّ بها جوعي، فإذا بصاحب الدار يخرج غاضباً قائلاً: ماذا تريد؟ فرددت عليه: أعطني ممّا أعطاك الله. فأخذ يصرخ بي: اذهب إلى الله ليعطيك بدلاً من إزعاج الناس! وأخذ يحقّرني، وكلّما أردت الردّ عليه زاد غضبه حتى امتدت يده وضربني ضرباً مبرحاً، ونزعت نفسي منه نزعاً وأخذت أركض في الشوارع وصوته يتردّد في مسامعي: اذهب إلى الله ليعطيك... ووجدت أنّ قوله صحيح، إذ كيف نطلب من الناس وننسى الوهّاب الذي إذا سألته لم يردك خائباً أبداً... فعقدت العزم أن لا أسأل أحداً من الناس وكنت طوال الوقت أدعو سرّاً وجهراً: يا وهّاب هب لي من فضلك كما وهبت سليمان بن داود!

وذات يوم وأنا أتسكع في الأسواق وجدت رجلاً عجوزاً قد وقع عن جمله فتقدّمت لمساعدته، وكانت قدمه قد كسرت، فظللت أداويه وأقضي حوائجه من غير أن نتحدث حتى إذا طاب وعادت إليه صحته قال لي:

- أريدك أن تصحبني إلى بلدي وتعمل معي في متجري.

فوافقت وعندما وصلنا إلى بلاده عرفت أنه من أكبر التجار وأنّ لديه خيراً كثيراً، وكان رجلاً عقيماً فأوكل إلي مهمة إدارة تجارته بعد أن وثق بي، فكنت أعمل معه بجد واجتهاد، وفاجأني ذات يوم حين جمع تجار البلد وقال لهم: أُشهدكم أنّي بعت كلّ أملاكي وعقاراتي لعاملي هذا. وأشار إلي وصدّق قوله بمكاتبة وقّعها أمام الجميع.

وبعد أن عدنا إلى البيت سألته لماذا فعل هذا؟ فقال: رأيت في المنام أنّ رجلاً يقول لي عاملك يسأل الله أن يهبه من فضله، وأنت ميت، فهب ما تمتلكه لعاملك وسيعوّضك الله خيراً.

ولم تمضِ سوى أيام حتى مات ذلك الرجل العجوز وأصبح لديّ من الأموال ما لا حصر لها، فعدتُ إلى مدينتكم لأشكر الرجل الذي كان سبباً في ما رزقني الله بتذكيري أنّ الوهاب هو الله. . . وقد أخذت على نفسي عهداً أن لا أردّ سائلاً وأن لا أنهره مهما كان الأمر. وعندما طرق بابنا هذا السائل وخرجت لأهبه شيئاً يسيراً ممّا وهبني الله فإذا به الرجل نفسه الذي ضربني تلك الليلة، فاستحيت أن أذكّره، وهداني تفكيري أن أجزل له العطاء لعله يعود إلى حالته الأولى.

فبكت زوجته وقالت له:

- لقد كنت شاهدة على ما تقول، فأنا زوجة هذا السائل، وقد وهبك الله المال والزوجة الصالحة بإذنه تعالى.

فسجد الرجل حامداً شاكراً الله، وعاش الزوجان في عيش رغيد وسعادة غامرة.

رواية عدنان الصحفي

قصص عن الحسد[1]

١
حاسدة لا تعرف محسودتها

جلست طفلتان تلعبان في فناء الدار، وكانت إحداهما جميلة وتزيّن رأسها بـ(مصون) تدلّت منه جنيهات الذهب، فمرّت بهما جارتهما وسألتهما عن أمهما

---

(١) الحسد واقع ماثل في حياتنا اليومية، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم، بل أمرنا أن نستعيذ من فعل او أثر الحاسد يقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ (سورة الفلق: ١ - ٥). وورد ذكر الحسد في مواقع أخرى من القرآن الكريم حيث يقول جلَّ علاه: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ١٠٩). ويقول سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ (النساء: ٥٤- ٥٥)

والنهي عن الحسد جاء في الديانات الثلاث، واعتبرته الأدبيات المسيحية ومن ثم الثقافات الغربية إثماً من الآثام والخطايا السبع المميتة، والتي هي: الشهوة والجشع والغضب والكسل والشراهة والحسد والغرور. (هل الحسد انفعال طبيعي أم انفعال إضطرابي، الدكتور جمال الشمري)

وقد جاء الإسلام ناهياً عن الحسد، فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقول: إِيَّاكُمْ وَالْحَسَدَ، فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ.

وقال صلى الله عليه وسلم: إنّ لنعم الله أعداء، فقيل: ومن هم؟ فقال: الذين يحسدون على ما آتاهم الله من فضله. =

فأشارت البنت الجميلة إلى وجودها داخل البيت، فدخلت وسلّمت على صاحبة الدار، وقبل أن تجلسا سمعت صراخاً خارج البيت فقفزت المرأة لترى سبب ذلك الصراخ فوجدت ابنتها صريعة، فأخذت تحاول إنعاشها بصبّ الماء على رأسها فلم يجدِ فعلها شيئاً يذكر. وعندما وقفت الزائرة على الحالة قالت: والله إني ما كنت أعرف أنها ابنتك أصل المصون كان يبغى يأخذ من وجهها وصلة.

٢
حسد الرجل على زوجته

يقال إنّ رجلاً نجدياً غنياً عاش في حي الرويس وتزوّج من إحدى بنات ذلك الحي، وكانت زوجته في غاية الجمال فأحبّها حباً شديداً، وكان يتفانى في إرضائها ويكرمها غاية الإكرام ويحضر لها السراويل المصرية والمدورة والسديري المذهب، وعاش معها زمناً طويلاً، وخلال هذه المدة ازدهرت تجارته وأصبح اسمه على كلّ لسان.

وكان الناس يتحدّثون أنّ سبب نجاحه يعود إلى زوجته، وتحول حديثهم إلى حسد واضح، فكان لا يمرّ بأحد إلاّ قال له: ربنا يرزقنا بزوجة كزوجتك.

وذات يوم التقى بأحد أصحابه القدماء في السوق وتجاذب معه الحديث

= وهناك تعريفات عديدة للحسد قديماً وحديثاً، فها هو ابن القيم في كتابه بدائع الفوائد يقول إنّ الحسد بغض نعمة الله على المحسود وتمنّي زوالها.

ويقول جمال الشمّري: الحسد هو انفعال مركب يختلف عن الانفعالات الرئيسية، وفي الغالب هو حالة إدراكية معقدة تستند إلى خليط من الانفعالات الغريزية مثل الخوف والغضب والحقد والامتعاض والقلق والحزن، وتختلف عنها في كون جميع الانفعالات تزول بسرعة نسبياً وتفقد قوتها تدريجياً، في حين أنّ خاصية الحسد هي الاستمرارية والاحتفاظ بقوته وشدته، ويؤدّي بشكل مستمر إلى اختلال التوازن الانفعالي للحاسد.

والحسد هو انفعال مؤلم ومربك ومحبط غير مريح، ويستند إلى تصورات غير عقلانية تجعل الحاسد Envier يشعر بعدم السعادة دائماً، ويشعر أنه ليس بخير، ويتمركز حول صفة أو شيء أو أمر مرغوب فيه، ينقصه ولا يستطيع أن يمتلكه، بل يتمنى أن يمتلكه، ولكن شخصاً أو أشخاصاً آخرين يمتلكونه، ويتمنى الحاسد زواله عنهم. (هل الحسد انفعال طبيعي أم انفعال اضطرابي، الدكتور جمال الشمري).

والسؤال عن الحال، فأخذ صديقه يشتكي من سوء الحال وكساد تجارته، فلامه النجدي واتّهمه بالتقاعس، إلاّ أنّ صديقه قال له:

- أنت محظوظ متزوّج من الرويسيات والواحد ما يضيق به الحال معهن، فالواحدة منهن تعاون زوجها وتمدّه بالمال وخاصة زوجتك.

استنكر النجدي مقولة صاحبه، وقال:

- زوجتي لا تساعدني وعمري ما أخذت منها شيئاً.

فقال له صديقه: أتحداك إن كنت ما أخذت من زوجتك شيئاً من المال. وتابع قوله: وأنا شاهد أن زوجتك تعاونك.

غضب النجدي وقال: زوجتي طالق مني بالثلاث لو أنها ساعدتني بمال. وعندما عاد إلى بيته قال لزوجته: يا فاطمة قد مرة أعطيتني فلوس.

قالت له: أش جاب السيرة؟...

فقال لها: أخبريني أولاً.

فقالت له: في سنة من السنين تأخرت تجارتك وكنت قد صنعت خسف وبعته بستين ريال فضة، وأعطيتك الفلوس لأنّ فلان (هو الشخص الذي تحدّاه) جاء يطالبك بدين له.

فقال لها: سامحيني يا فاطمة، أنا طلقتك. خذي من البيت ما تشائين واذهبي لأهلك.

وظلّ لفترة طويلة عازباً، وعندما قرّر الزواج، وفي ليلة زواجه، سمع أنّ زوجته الأولى (فاطمة) ماتت مع من أصيب بالجدري، فأقسم أن لا يدخل على زوجته الجديدة. وحضر عزاءها وظلّ يودّ أمها إلى أن مات.

٣
حاسدان في بيت واحد

كانت جميلة للغاية وقد خلّفت أحد عشرة بطناً ماتوا جميعاً، فما أن تتضح ملامح المولود أو المولودة حتى يمرض أو تمرض وتموت فجأةً، ولم تخرج من الدنيا إلاّ بابنة وحيدة كانت دميمة، استطاعت أن تزوجها بـ«العافية»، وكانت هذه البنت تسأل أمها دائماً: لماذا لا يأتي أبنائي جميلين مثلك على الأقل؟

فقالت لها: هذا أفضل لأنّ إخوتك الذين ماتوا كانوا جميلين وعندما أنظر إليهم يموتون.

لم تصدّق البنت هذا القول حتى أنجبت ولداً كان جميلاً للغاية، وعندما جاءت أمها لزيارتها ورأته قالت: ما أجمل عيونه! وفي الصباح انفجرت عيون الطفل.

وعندما كانت البنت تولول على مولودها أرادت أمها أن تخفف عليها فقالت لها: بعد انفجار عيونه زاد حلى على حلى. فمات في الحال.

ويُحكى أنّ هذه المرأة في ليلة دخلتها نفسها نظر إليها زوجها وهي تمشّط شعرها، وبسرعة وضع المرآة أمامه فتشظّت، فقالت له: ما بك؟ فقال لها: أحسست في نفسي وأنا أراك أردد: يا الله ما أجملك، فخفت أن أصيبك بعيني.

ويقال إنهما اجتمعا تحت سقف بيت واحد يتوزعان الحسد.

وممّا يروى عن زوجها أنّ جاره خرج بابنه، وكان الابن جميل للغاية فسأل جاره: متزوج من فين؟ فرد الجار: متزوج حضرمية؟ فقال له: أشوف خشم ابنك مسلول مثل السيف الحضرمي بيقد وجه قد.

فخرّ الولد يرفس وظلّ ينازع حتى مات.(١)

---

(١) ثمة التباس بين مفهومي الحسد والعين، وفي هذا يقول ابن القيم في الزاد إنّ العين «هي سهام تخرج من نفس الحاسد والعائن نحو المحسود والمعين تصيبه تارةً وتخطيه تارة». ويقول في كتابه بدائع الفوائد: العائن والحاسد يشتركان في شيء ويفترقان في شيء، فيشتركان في أنّ كلّ واحد منهما تتكيف نفسه وتتوجّه نحو من يريد أذاه؛ فالعائن تتكيف نفسه عند مقابلة المعين ومعاينته؛
والحاسد يحصل له ذلك عند غيبة المحسود وحضوره أيضاً؛ ويفترقان في أنّ العائن قد يصيب من لا يحسده، من جماد أو حيوان أو زرع أو مال، وإن كان لا يكاد ينفكّ من حسد صاحبه.
ونفس العائن لا يتوقف تأثيرها على الرؤية، بل قد يكون العائن أعمى فيوصف له الشيء فتؤثر نفسه فيه وإن لم يره، وكثير من العائنين يؤثرون في المعين بالوصف من غير رؤية.
والحسد والشماتة خصلتان متلازمتان كلّ منهما يتمنى زوال النعمة. يقول الله تعالى في شأن الشماتة: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ (سورة آل عمران: من الآية ١٢٠).
والحسد نوعان نوع محرم ونوع مباح، فالمحرم هو تمنّي زوال النعمة، والمباح يطلق عليه مسمّى الغبطة وهي تمنّي أن يكون لك مثل ما لدى الآخر من نعمة، وفي هذا يقول الرسول =

٤
الحاسد وفقأ العين

عاش صديقان مع بعضهما زمناً طويلاً، وكان الفقر مصاحباً لهما، وذات ليلة أخذا يتمنيان فقال محمود: أتمنى أن يرزقني الله خيراً كثيراً لا يحصى. فردّ عليه خالد (وكان عياناً) قائلاً: اترك عنك الأمنيات فسوف نعيش فقراء ونموت فقراء.

ومضت الأيام فكان محمود (المتمني) يعمل بجدّ لعلّ الله يستجيب لأمانيه، فاشترى نعجتين وخروفا، فبارك الله فيهما وتكاثرت لدرجة كبيرة، فكان يخرج بها إلى المرعى فتملأ الوادي.

وعندما علم العائن بحال صديقه أصابه الغم والحسرة ووقف على الوادي متمنياً أن تمحق (مواشي) صديقه عن بكرة أبيها، وفي كلّ يوم يذهب ويصوّب عينيه علّها تصيب تلك المواشي فلا يتحقق له مراده، وكان يعرف عياناً أخر اشتهر بأنّ عينيه تفلقان الصخر، فذهب إليه يشتكي ممّا يجد في داخله من ألم بسبب النعمة التي حلّت بصديقه، وطلب من العائن مساعدته في محق مواشي صديقه، فقال له العائن:

- دلني أين يرعى غنمه والأفضل أن تريني إياها وهي خارجة إلى المرعى.

فقال له: يخرج بها بعد العصر ويدخل إلى الوادي من الجهة الشمالية.

واتفقا على الالتقاء عند الموقع المحدد.

وفي اليوم التالي ومع حلول العصر كانا يتربصان بالجهة الشمالية انتظاراً لمقدم محمود وهو يدفع قطيع مواشيه أمامه، وظلاّ ينتظران، وفجأةً صاح خالد محرّضاً العائن على تسليط عينيه على المواشي:

- لقد جاء.

= صلى الله عليه وسلم: «لا حَسَد إلا في اثنتين: رجلٌ آتاهُ الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاهُ الله القرآن فهو يقوم به آناءَ الليل وآناء النهار.» - (ورد الحديث في الصحيحين).

وهذا النوع من الحسد يجسد المنافسة وهي مباحة لقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (سورة المطففين: ٢٦). وقول الله عزّ وجل (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ) (سورة الحديد: ٢١).

وخير ما يقال في الغبطة: بارك الله لك في نعمتك وأسأل الله أنْ يرزقني مثل ما رزقك.

فرد عليه العائن: أين فأنا لا أراه؟
فقال خالد: انظر هناك فهو قادم من أول الوادي.
فلم يكن من العائن إلا أن صاح بخالد: ول عليك شفته من كلّ هذا البعد.
وما إن انتهى من جملته حتى انفقأت عين خالد فصاح بأعلى صوته:
- لقد أُصبت، لقد فجّرت عيني يا عدو الله!

٥
الحاسد وصلاة الميت

يُحكى أنّ رجلاً صالحاً أراد أن يصلح من شأن عائن عاث فساداً في القرية، فلا أحد يسلم من عينه، فما أن يصوّبها صوب أمر حتى يفسد ويعطب ما حسده، وعندما علم الرجل الصالح أراد إصلاح شأن ذلك العائن فذهب إليه ناصحاً وموضّحاً له أنّ ما يفعله بالناس أمرٌ لا يرضاه الله ولا رسوله، فقال له العائن:
- وما الذي يمكنني فعله فالعين التي بي لا أجد لها دفعاً.
فقال له الرجل الصالح: عندما ترى شيئاً ويعجبك اذكر اسم الله، وقل ما شاء الله تبارك الله.
فقال العائن: حاولت كثيراً ولم أنجح فعيني تسبق قولي وأنا أريد أن أتخلّص مما بي.
فقال له الرجل الصالح: إذاً نكفنك ونصلّي عليك صلاة الميت.
فقال العائن: ولو فعلتم ذلك هل تتلاشى مصيبتي التي أحملها؟
فقال له الرجل الصالح: إن شاء الله.
وافق العائن على الفكرة، فأُعلن في القرية موافقة العائن على تكفينه والصلاة عليه صلاة ميت، ففرح الناس وتجمّعوا حول بيت العائن، وبعد أن تمّ تكفينه حُمل على نعش واتّجهوا به إلى المسجد للصلاة عليه، فأزاح العائن الكفن عن وجهه ونظر إلى المشيّعين وقال:
- ول... كل هؤلاء خرجوا لتشييعي فسقط ميتاً كل من سار في الجنازة![1]

---

(١) وعلاج العائن لو تمّ التعرف إليه أن يتّبع إحدى الطرق الواردة في الحديثين الآتيين، فقد ثبت =

٦
دعاء أمّ

كانت امرأة تسرّح شعر ابنتها، وكانت الابنة تتحرك في كلّ لحظة، فشدّتها من شعرها وقالت لها: الله يجعله آخر جمار. فماتت البنت في الصباح.[(١)]

رواية حامدة حمدان

= من حديث أبي أمامة بن سهل بن حنيف - رضي الله عنه - قال: مر عامر بن ربيعة بسهل بن حنيف وهو يغتسل، فقال: لم أرَ كاليوم، ولا جلد مخبّأة. فما لبث أن لبط به، فأتى به النبي صلى الله عليه وسلم فقيل له: أدرك سهلاً صريعاً. قال: من تتهمون به؟ قالوا عامر بن ربيعة. قال: علام يقتل أحدكم أخاه؟ إذا رأى أحدكم من أخيه ما يعجبه، فليدعُ له بالبركة. ثم دعا بماء فأمر عامراً أن يتوضأ فغسل وجهه ويديه إلى المرفقين وركبتيه وداخله إزاره وأمره أن يصبّ عليه. قال سفيان: قال معمر عن الزهري: وأمره أن يكفأ الإناء من خلفه. (صحيح الجامع - ٥٥٦).
لعلاج العين أن يؤمر العائن فيتوضأ ثم يغتسل منه المعين، لما ثبت من حديث عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: كان يؤمر العائن، فيتوضأ، ثم يغتسل منه المعين. (صحيح أبو داوود - ٣٢٨٦). أي أن يتوضوأ العائن ثم يأخذ المصاب بالعين ذلك الماء ويغتسل من ذلك الماء.
وطريقة أخرى: أن يتوضأ الشخص ويغسل وجهه ويديه إلى المرفقين وركبتيه ثم يصبّ من ذلك الماء على المصاب بالعين يشفى بأمر الله. أما الطريقة الأخرى، وهي علاج المصاب في حالة عدم معرفة العائن عن طريق الرقية، بحيث يرقي المحسود نفسه صباحاً ومساء لمدة ثلاثة أيام بالتعوّذات القرآنية التالية: الفاتحة- آية الكرسي- آخر سورة البقرة- الإخلاص- المعوذتين بالإضافة إلى التحصينات النبوية المعروفة. وهناك طرق أخرى منها العلاج بالسدر والملح إما اغتسالاً أو شرباً. وفي هذا يقول الشيخ بن جبرين: وكذا رقيت على بعض الأقارب أو الأحباب الذين حبسوا عن نسائهم، بما ذكره ابن كثير من ورقات السدر، وقراءة الآيات التي ذكرها، فوقع الشفاء بإذن الله. - (الصواعق المرسلة في التصدي للمشعوذين والسحرة). وهناك من يقول إنّ العائن لا يتخلّص ممّا به إلاّ بتغسيله وتكفينه والصلاة عليه صلاة ميت.

(١) هذه القصة لا تحمل إشارة إلى وجود حسد إلا إذا كان سياق القصة يضمر ذلك من كون ضفائر البنت الصغيرة كانت طويلة وأن الأم معينة وقد أرهقها تضفير شعر ابنتها فأصابتها بالعين وهذا مستبعد، وربما كانت الحكاية تتحدث عن دعاء الأم على ابنتها، وإيراد القصة من أجل العظة والعبرة وحثّ الأمهات على عدم الدعاء على أبنائهن.

ابنة الحطاب والكنز

يُروى أنّ حطّاباً احتطب وعاد إلى بيته ووضع حزمة الحطب في فناء الدار وطلب من ابنته أن تجهّز له الطعام ليأخذ قسطاً من النوم، وعندما ذهبت ابنته لتأخذ من حزمة الحطب عوداً رأت نوراً ينبعث من الحزمة وكأنّ أحداً يشعل تلك الحزمة، وعندما تحققت رأت كمية من الذهب تلمع بشدة، فسارعت تغرف منه وتضعه في ثوبها وانطلقت إلى أبيها وألقت عليه بالذهب الذي جمعته وصاحت به: تعال شيل معايا. فسألها عمّا حدث فقالت له:

- حزمة الحطب التي جلبتها مليئة بالذهب وكلما أخذت منه زاد.

نهض أبوها مسرعاً وعندما وصلا إلى حزمة الحطب انطفأ لمعان الذهب وتحوّل إلى فحم.[1]

رواية حامدة حمدان

(١) لأنّ سرّ الكنز لا يظهر إلاّ لشخص واحد.

الراعية والكنز

كانت فتاة ترعى الغنم ولمحت نوراً يشعّ في وسط المرعى فتحركت باتجاهه فوجدت قطعاً معدنية تلمع فـ«خمشت» بيدها وراحت تجري خلف غنمها وترمي ممّا أخذت على الغنم وهي تهشّها، وعندما وصلت إلى البيت كان بيدها ثلاث قطع معدنية فرآها أبوها فأخذها منها وذهب إلى المدينة وأعطاها لأحد التجار وأعطاه قطعة واحدة، فسأله: من أين جئت بها؟ فقال له: حقي. فحمّله جملاً محمّلاً بكلّ المقاضي وأرجع له بقية نقود، وعاد إلى ابنته يقول لها: ورّيني المكان الذي جلبتي منه هذه القطع، وعندما أوصلته إلى المكان نفسه وجد مجموعة خنافس كثيرة.[1]

رواية حامدة حمدان

---

(١) يوصي الناس بعضهم بعضاً أنّ من يرى ضوءاً يرمي عليه مسماراً أو أيّ معدن لأنّ هذا الضوء باب كنز وإذا لم يرم عِليه المعدن يتحول هذا الكنز إلى فحم، وبعض الأحيان إلى خنافس. ويقال إنّ هذا كنز مدفون له حراس وإذا لم يُرمَ المعدن يقفل باب الكنز بينما من يرمي عليه مسماراً يفتح له حراس الكنز الباب ويمكّنونه من أخذ كلّ ما يريد من ذلك الكنز.

الديجيرة - ١

كانت هناك امرأة نائمة فجاءت جارتها إليها وأيقظتها وقالت لها: هيا نذهب إلى البير نعبي مويا. فقالت لها: لا زال الوقت مبكراً لنتأخر قليلاً. إلاّ أنّ الجارة أصرّت على الذهاب، فنهضت المرأة واتجهت مع جارتها إلى البئر، وكانت كلّما ملأت قربتها انساب الماء من ثقب لم يكن موجوداً بالقربة، فتقوم بإصلاحه وتعود لتعبئة القربة، فتجد الماء ينساب من ثقب آخر، فتصلحه وتعاود الكرّة، فاحتارت وقالت لنفسها «من ذا الذي يثقب قربتي»، واشتكت لجارتها عمّا يحدث لها، وكانت جارتها تنظر إليها وتضحك، فاستغربت ضحكها وتمايلها ساخرة منها. وعندما عمّقت النظر رأت أنّ ساق جارتها كساق الحمار فاستعاذت بالله منها وفي الحال اختفت الديجيرة[1] ووجدت المرأة نفسها في خلاء فسيح وليل دامس رغم أنّ خروجها كان في الصباح الباكر، وظلّت تسير لمدة يومين حتى وصلت إلى بيتها.

---

(١) اشتهر ظهور الديجيرة في الحجاز في المناطق الممتدة بين المدينة المنورة وجدة، وهي كائن تتشبّه بأيّ صورة بشرية ويمكن لها أن تتشبّه بصورة جار أو أم أو أخت، وتتشبّه بشخص يكون من المحيط نفسه الذي تظهر فيه، والشخص الذي تظهر له يعرفها من خلال قدميها إذ لها قدم صحيحة وأخرى تنتهي بحوافر وساق أشبه بساق الحمار، ودائماً تختفي إذا استعذت بالله منها.

الديجيرة - ٢

استيقظت امرأة على بكاء طفلها واستشعرت أنه عطش فخرجت إلى البئر لتملأ دلوها وتسقي ابنها، وعلى البئر وجدت امرأة تسرّح شعرها فاستغربت منها وقالت لها: كيف تمشطي شعرك على البير؟ فلم تردّ عليها وظلّت تسرّح شعرها وهي صامتة، فاقتربت منها وأرادت إبعادها عن فوهة البئر وهي تقول لها: ابتعدي حتى أعبّي قربتي. وعندما رمت الدلو رأت شعر تلك المرأة يمتد داخل البئر حتى وصل إلى قراره، فحدّقت في تلك المرأة فرأت أنّ لها ساقاً على شكل ساق حمار فهربت وأقسمت أن لا ترد البئر بتاتاً.

الديجيرة - ٣

تسلّطت ديجيرة على أهل قرية من القرى فكانت تقطع الماء عن نخيلهم وتعترض نساءهم ورجالهم ليلاً لتخويفهم، وكان هناك رجل يُدعى سالم قال لأهل القرية: أنا أخلصكم منها، وخرج إلى جهة النخل فوجدها قائمة، وعندما رأته تحركت لإيذائه فكشف عن عورته فغطّت وجهها[١]، وعندها أسرع وأمسك بها وربطها إلى جذع نخلة وقال في نفسه: «أربطها حتى نسقي زروعنا»، وسقى زرعه وعاد إلى بيته ونام، ومع أذان الفجر استيقظ وتذكّر الديجيرة فذهب لإطلاق سراحها، وعندما هم بفك قيدها قالت له:

- لا تفكّ قيدي فقد طلع الصباح ولو رجعت إلى أهلي يقتلونني وأريد منك أن تبني لي عشّة من غير عتبة[٢] أعيش بها.

فبنى لها عشة بجوار بيته وعاشت بها من غير أن تؤذي أهل القرية.[٣]

---

(١) من الصفات التي تناقلها الناس عن الديجيرة أنها لا ترى عورة الرجل وإذ انكشفت غطت عينيها كي لا تصاب بالعمى.

(٢) يقال إنّ الديجيرة لا تدخل البيوت التي لها عتبة، وكانت من عادة أهل ذلك الزمان أن يضعوا عتبة على بيتهم كي لا تدخل الديجيرة عليهم، وكانوا يتواصون بوضع عتبات على مداخل بيوتهم أو عششهم.

(٣) وتقول راوية الحكاية إنّ هذه الديجيرة ظلّت عايشة لوقت قريب بين الناس يسمونها ديجيرة سالم بينبع النخل.

الديجيرة - ٤

يقال إنّ مغنية كانت تحيي حفلاً في قصر الزاهر بمكة، فصعدت امرأتان إلى (الكوشة) وقالتا للمغنية: نريد منك أن تغني لنا في فرح ابننا. لم ترتح المغنية لهيئتهما وأرادت أن تعتذر بطريقة مؤدّبة فقالت لهما: أنا أحيي الحفلة بخمسة وعشرين ألفاً. وكانت في الحقيقة تتقاضى سبعة آلاف لليلة الواحدة، فأخرجت إحداهما مبلغ خمسة وعشرين ألفاً وناولته للمغنية، فاستغربت منهما وقالت: الناس يدفعون عربون أولاً. فقالوا لها: هذه فلوسنا ولو أردت زيادة سوف نزيدك. فقالت لهما: أين مكان زواج ابنكم ومتى؟ فقالت التي أعطتها النقود: في الأسبوع القادم مثل الليلة سيكون زواج ابننا وفي هذا القصر نفسه.

وفي الأسبوع التالي حضرت المغنية والطقاقات وبدأن الغناء، وقد رأت المغنية وفرقتها العجب العجاب في تلك الليلة إذ كانت الحاضرات على شكل واحد لهنّ بياض ناصع، وكلّما بدأ الغناء ينزلن جميعاً للرقص و(ينقّطن) بأموال كثيرة ليس لها حدّ، لكنّ الذي أخاف المغنية ورفيقاتها رؤيتهنّ لأقدام الحاضرات إذ كانت كلّ واحدة منهنّ لها رجل بشرية والرجل الأخرى رجل حمار، فأصابهنّ الفزع وتبادلن الرأي مع انتهاء كلّ أغنية، وقررن الهرب بحجّة أخذ قسط من الراحة، وعندما تسللن للخارج استغربن أنّ القصر مطفئ أنواره تماماً فزداد رعبهن ووقفن على الشارع العام فتوقف لهنّ سائق تكسي، فركبن وهنّ غير مصدقات بنجاتهن، وقالت المغنية للسائق التاكسي:

- نحمد الله أنك توقفت لنا وأنقذت حياتنا فقد كنا في زواج كل المدعوّات لهن ساق حمار.

ضحك صاحب التاكسي وكشف عن ساقه وقال للمغنية:

- مثل هذه؟ (وكانت ساقه ساق حمار)..

فتقافزن من التاكسي ودرن في شوارع مكة مثل المجانين يصحن طلباً للغوث.

الديجيرة - ٥

كانت امرأة في نفاس قد وضعت مولودها في هندول قريب من فراشها، وكلما بكى هزّت الهندول فينام، وشعرت بالحاجة للذهاب إلى بيت الخلاء، فنهضت من فراشها وقضت حاجتها ثم عادت إلى فراشها فوجدت ولدها فوق الفراش يبكي فأخذت تهدن عليه وحملته إلى صدرها فأحست بثقله وأخرجت له ثديها فأخذ يرضع بنهم ويقرط حلمة ثديها ويأتي بأفعال وحركات لم تتعوّدها من طفلها، وتذكّرت أنها تركت ابنها داخل الهندول قبل دخولها بيت الخلاء، لكنّها عندما عادت وجدته فوق الفراش، فاستعاذت بالله من الشيطان وأخذت تنظر إلى الطفل الذي بين ذراعيها بذهول. وفجأةً انفتح الباب ودخلت امرأة تحمل رضيعاً، فوضعته على الفراش وأخذت الطفل الثاني، بينما كانت صاحبة الدار في حالة ذعر وخوف منعها من الكلام، وزاد رعبها عندما رأت أنّ للمرأة التي دخلت عليها ساق حمار.

قالت لها الديجيرة:

- لا تخافي مني، أنا أسكن معك في البيت نفسه، وقد حطيت ولدي على فراشك وغلطت وأخذت ولدك من الهندول، وما صار إلا الخير فولدي صار ابنك بالرضاعة وأصبحت في مأمن مني ومن جماعتي.

ومن يومها وصاحبة الدار ترى الديجيرة[١] داخل منزلها تتصرّف وكأنها صاحبة الدار، فعاشا سوياً ولكن لا تتكلمان مع بعضهما.

رواية حامدة حمدان

---

(١) ويتناقل الناس المؤمنون بوجود الديجيرة أنّ لها خاتماً بأحد أصابعها من تجرّأ وأخذه من إصبعها غدت خادمته المطيعة تلبّي كلّ طلباته.

المخاوي

تزوّج رجل بامرأة جميلة، وكان يعيش معهما قط. لاحظ الزوج أنّ القط دائم النظر إلى زوجته، فكان يقول لزوجته: هذا البس يحبك فطوال الوقت معلق بصره في وجهك. فتضحك زوجته من مقولته وتقول له: هو أحسن منك فأنت لا تنظر إلى وجهي كما يفعل هذا البس.

وفي إحدى المرات، وكالعادة، كان القط يتأمل وجه الزوجة، فقال له الزوج: تبغاها خذها.

وفي لمح البصر اختفى البس والزوجة.

رواية حامدة حمدان

الهول - ١ [1]

كان أحد الرجال ضائقاً ممّا هو فيه وقد جافاه النوم، فخرج إلى الخلاء وسمع غناءً يأتي من داخل الظلام، فظلّ يسير إلى أن وصل إلى مصدر الصوت فوجد أناساً يرقصون ويلعبون، فدخل ورقص معهم، ثم عاد إلى بيته.

وفي الصباح قال لصديق له ما حدث معه في ليلة البارحة، فقال له صديقه: أنت لعبت مع جنّ، فهم يخرجون في المكان الذي تقول عنه.

لم يصدّقه، فقال له صديقه: هل تعلم المكان الذي ذهبت إليه؟ فقال له: نعم. فقال: خذني إلى هناك.

واتّجها إلى المكان الذي كان به صديقه، وكم كانت المفاجأة إذ لم يكن هناك من أثر إلاّ أثر وحيد، فقال الصديق لصديقه:

- انظر هذا أثرك لوحدك فقد كنت ترقص وتلعب مع جن.

---

(١) قصص الهول كثيرة ولا تحصى وكلها تتمحور حول ظهور شخصية تتمثل في أيّ صورة، مهمته تضليل من يظهر له، ويتّخذ أشكالاً كثيرة حية وميتة.

ويقال إنّ الهول، وهو مفرد وجمعه أهوال، وهم ممّن نجوا من إصابة الشهاب الثاقب الذي يقذف عليهم عند استراق السمع لمعرفة ما يدور في السماء، ويكون الشهاب قد أصابهم إلاّ أنه لم يقتلهم بل شوّههم، ومهمة الهول الإغواء.

وقصص إغوائه جلّها تتمركز في إرشاد من يسأله عن الطريق إرشاداً خاطئاً.

الهول - ٢

يقال إنّ رجلاً كان محبّاً للغناء والرقص، وذات يوم كان يسير في وسط الخلاء فسمع من على بُعد (دقّ الزير) فانتشى وأخذ يسير مسترشداً بالأضواء المنبعثة من بعد، وعندما وصل وجد احتفالاً ضخماً وغناء ورقصاً، فجلس مستمتعاً وقام ونثر على العريس ريالات فضية، ولم يكن هذا الرجل يعلم أنّ الحفل المقام كان حفلاً للجنّ، وبينما هم جلوس قال أحد الجنّ لآخر محرّضاً إياه على قتل الرجل الغريب:

قوم اذبحه يا حويان والذبح يرضي دخيله

فردّ صاحب الحفل:

ما ينذبح فن الافنون والذبح ما يستويله

فتراجع الجني عن ذبح الغريب وتحرّك صاحب الحفل صوب الرجل وقال له: اهرب بنفسك قبل ما يقتلوك. فعلم الرجل أنهم جنّ، فانطلق مبتعداً عن المكان.

الهول - ٣

يُحكى أنّ رجلاً جاء من (الدعيجة في ثول) قاصداً (خليص) وبينما هو سائر سمع صوتاً ينادي عليه: يا أبو فلان، إلى أين مقصدك؟ فردّ عليه: متوجّه إلى خليص. فقال له: أنا مسايرك.

وتسايرا، وفي أثناء سيرهما أظهر المساير العجب إذ كانت قامته ترتفع وترتفع إلى أن وصل رأسه السحاب، وفجأةً سقط رأسه على الأرض مفصولاً عن جسده، وظلّ الرأس يضحك بصورة استفزازية، فأصيب الرجل المتّجه إلى خليص بالهلع وسقط مغشيّاً عليه. وفي اليوم التالي مرت قافلة ورأته مرميّاً في الخلاء، وكان بها شخص يعرف المغشي عليه فحمله إلى بيته، وبعد أيام أفاق الرجل من غيبوبته وحكى للناس قصته مع الهول وما صنع به.

الهول - ٤

يقال إنّ رجلاً كان مسافراً يقطع الطريق على قدميه، وفجأةً وجد حماراً يلوك من أعشاب الخلاء وليس معه أحد، فركبه هذا المسافر وأخذ يستحثّه على الإسراع بضربه بعصا كانت بيده، وبعد مسافة طويلة أثنى الحمار رقبته باتّجاه المسافر، وقال له:

- أخليك تشيلني كما شلتك.

انتفض المسافر رعباً وقفز من على ظهر الحمار وانطلق يكمل سفره من غير أن يلتفت خلفه، وظلّ يسير ليوم كامل حتى اطمأن أن لا أحدَ يلحق به، وأثناء سيره وجد عباءة مقصّبة (بشت) ففرح بها وحملها ووضعها على ساعده الأيمن وواصل سيره، وبعد أن قطع مسافة طويلة سمع البشت يقول له:

- لقد شلتني كما شلتك.

قذف المسافر بالبشت وانطلق راكضاً إلى أن وصل إلى قرية واستجار بأهلها من الهول.

الهول - ٥

كان هناك رجل يتضوّر جوعاً، وبينما هو يسير وجد قرص عبود (نوع من أنواع الخبز يقال له عبود) ففرح به، فحمله ومدّ يده لأخذ قطعة منه فسمع صرخة عالية تصدر من قرص الخبز صائحة:

- يا أذني!

فقذف بالقرص وانطلق راكضاً.

الراوي عباس الغانمي

السلطان والباذنجان

قال السلطان لطباخه: أرغب اليوم في أن آكل باذنجان.
فقال الطباخ: نعم يا سيدي لو تعلم فوائد الباذنجان فهو...
السلطان: ولكنه حار.
الطباخ: نعم يا سيدي فالباذنجاج يزرع في الأماكن الرديئة.
السلطان: ولكن نفسي اشتهته.
الطباخ: إنّ الباذنجان له فوائد عديدة.
السلطان: لكنّ شكله نيئاً لا يعجبني.
الطباخ: صدق مولاي فسواده واستدارته تشعر المرء أنه يرى امرأة حاملاً.
السلطان: تعرف أنّ الباذنجان نبات سهل الهضم رطب في المضغ مطرٌّ للبلعوم.
الطباخ: صدقت يا سيدي فالباذنجان يغدو كالحلوى حين يلاك ويجري كالماء حين يبلع.
السلطان: لكنّ هذا الباذنجان يسبّب لي انتفاخاً.
الطباخ: كلّ سوء يصل إلى البطن من هذا الباذنجان.
السلطان: أنت لا تستحي كلما قلت شيئاً أجبتني له.
الطباخ: يا سيدي أنا أعمل عندك وليس عند الباذنجان.

رواية لطفي شاهين

يا وليدي يا محمد

كان في بقرة عندها أربعة من الأبناء هم محمد وباء وتاء وقفة الحجاج، قالت لولدها الكبير محمد:

- أنا خارجة أجيب لكم أكل، إذا خرجت اقفل الباب ورايا ولا تفتحه لأي أحد وأنا إذا جيت بأغني وأقول: يا وليدي يا محمد افتح الباب المغلق، اللبن قطع ديوسي والحشيش كسر قروني. إذا سمعت صوتي افتح لي ولا تفتح لأي أحد ثاني.

قال لها محمد: طيب. وراحت الأم.

كان السعلي واقف وراء البيت جيعان وسمع الأم ايش قالت لولدها. لما خرجت الأم جاء السعلي وغنّى بصوت خشن:

- يا وليدي يا محمد افتح الباب المغلق اللبن قطع ديوسي والحشيش كسر قروني.

قال الأولاد:

- لا، هذا مو صوت أمنا. أمنا صوتها ناعم وأنت صوتك خشن.

راح السعلي للساحرة وقال لها: أبغى صوتي يكون ناعم. أعطته الساحرة سكراً أكله وصار صوته ناعماً مثل صوت الأم. رجع للأولاد وقال بصوت ناعم:

- يا وليدي يا محمد افتح الباب المغلق اللبن قطع ديوسي والحشيش كسر قروني.

فرح الأولاد وتسابقوا على الباب يفتحون لأمهم. أوقفهم محمد ونظر من تحت الباب ثم قال:

- أنت مو أمنا أمنا رجلها بيضاء جميلة وأنت رجلك سوداء قبيحة.

راح السعلي للساحرة وقال: أبغى رجلي بيضاء جميلة. أعطته الساحرة مسحوقاً مسح به رجله وصارت بيضاء جميلة. رجع للأولاد وقال بصوت ناعم:

- يا وليدي يا محمد افتح الباب المغلق اللبن قطع ديوسي والحشيش كسر قروني.

نظر الأولاد من تحت الباب شافوا رجل بيضاء جميلة. فرحوا وفتحوا الباب ولقوا السعلي. خاف الأولاد وحاولوا يهربون لكنه مسكهم إلاّ محمد قدر يتخبّى عنه.

رجعت الأم و لقيت الباب مفتوح والبيت فوضى وأولادها مو في البيت نادت: يا محمد، يا محمد.

خرج محمد من مخبئة وأسرع إلى أمه وحكى لها كل اللي صار.

خرجت الأم وولدها محمد يدوّرون على الأولاد الباقين. في طريقهم شافت قطيع غنم نادت عليهم، وقالت: يا هل غنيمة وغنيمات ما شفتولي ثلاث عيال واحد باء وواحد تاء وواحد قفة الحجاج؟

ردوا: ما شفنا شي.

كمّلوا طريقهم ومشوا وشافوا قطيع بقر قالت لهم: يا هل بقيرة وبقيرات ما شفتولي ثلاث عيال واحد باء وواحد تاء وواحد قفة الحجاج؟

قالوا: شفناهم مع السعلي تحت الشجرة.

راحت الأم للشجرة لقيت السعلي أكل عيالها ونايم تحت الشجرة وبطنة منتفخ.

قالت له: يا السعلي وش رايك نلعب لعبة اشيلك على راسي وانزلك وتشيلني على راسك وتنزلني؟

قال لها: طيب.

شالها السعلي ونزلها وجاء دورها شالته ورميته على الصخرة وانفقع راسو كان تشق بطنة وتخرج عيالها.

رواية عباس الغانمي

الأحمدي

كان في رجال يسمى الأحمدي خرج من دياره وقبيلته وراح يدور على رزقه. لقى قبيلة لفى عليهم وعاش عندهم وراح لرجال راعي حلال هو شيخ القبيلة وقال له يشغله عنده فرعى الغنم والجمال والمواشي. وافق الرجال وسكنه عنده وشغله وصار كل يوم يسرح ويضوي بالإبل والغنم. فيوم من الأيام صارت حرب وغزو على هالقبيلة وشالوا حلال الرجال اللي شغال عنده وكان الرجال هذا له بنت بسن زواج وعيال عمها ثلاث يحاولون يكسبون رضى عمهم عشان يزوجها واحد منهم. ويوم شافوا حلال عمهم انسرق قاموا يحاوطون الرجال يحاولون يسترجعونها. حاولوا حاولوا ما قدروا. خافوا وتركوها. قام الأحمدي جهز بندقيته ودخل على الحرب والبنت وراه كل ما رمى ببندقيته قال خذها مني وأنا الأحمدي والبنت تسمعه. ورمى ورمى ورمى لحين حاصرهم وحاوط الإبل ورجعها وجمع الزمل (العقل) وحطها فخرجت وغطس يده في الدم السايل من الرمي وطبع يده على متن البكرة وراجع. ويوم جاء الليل اجتمعوا رجال القبيلة عند عمه الشيخ يقولون له: الحمد لله على سلامة إبلك وسألوه من رجعها؟ وقاموا عيال اخوة الثلاث يألفون قصص ويحكون مواقفهم البطولية في استرجاع الإبل والأحمدي متكي على خرجه يسمعهم وساكت. سمعت البنت اللي صار وكيف عيال عمها يحكون وهو ساكت. قالت البنت لأبوها: يا بوي لي مطلوب عندك.

قال: وش تطلبين؟

قالت: بصب القهوة على جماعتي؟

قال لها: ادخلي.

دخلت البنت وصبت القهوة على الرياجيل لحين وصلت عنده وقالت:

خذ مني الفنجال جاك الهوى عشاقه من الراس   يا مورد البارود يا ملحق الكاس، يا معتزي بالعزوة الأحمدية.

قال لها:

لا تهدي روحك عليا ياللي خديدك كما الماس   روحك على راقه وروحي على ياس، لزمة فالوجيه النقية.

قالوا لها: وش فيه يا بنت؟

قالت: شوف العقل حقت إبلك فخرج من يا ابوي وروح للبكرة الفلانية شوف يد من فيها عيال أخوك ولا الأحمدي.

ويخرج الأحمدي العقل من خرجه ويعطيها عمه.

قال الشيخ: والله ما ياخذ بنتي غير إنت يا الأحمدي.

قال الأحمدي: والله أنا ملزوم في رقبة.

قال الشيخ: عندي أنا أروح وأفكها.

وراح الشيخ لقبيلة الأحمدي وطلبها منهم وفك الرقبة وزوّجه بنته.

رواية عباس الغانمي

مالكة أخت مالك

كان في بنت راحت ترعى غنمها وبعدت عن ديارها وضيّعت الطريق وما عرفت ترجع. جاء الليل وخافت البنت على نفسها. كان تلبس لها جلد حيوان وضوت على أهل البيت قالوا لها: من انتي من وين؟

قالت: أنا خشيشبان أبا الذبان أرقد فدحول الكلاب وأشرب في قروة الدجاج؟

سألوها: أنتي صاحية ولا مجنونة وش قصتك؟

قالت: أنا صاحية أنا خشيشبان أبا الذبان؟

قالوا لها: طيب ايش تسوين؟

قالت: أرعى غنم وإبل.

شغلوها عندهم لا جاء الليل راحت حفرت لها دحول ونامت فيها زي الكلاب. ولا جاء النهار شالت الإبل ترعاها ولا بعدت عنهم راحت عند غدير ماء كبير عنده شجرة كبيرة. ربطت لها فيها مرجيحة تفصخ ملابسها وتتروش وتتنظف وتمشط شعرها الطويل، والجمل واقف يتفرج فيها وهيا على مرجيحتها تغني:

كل الجمال ارتعت إلا بعيرك يا علي

ولا رجعت المغرب كل الجمال والغنم شبعانه إلا بعير علي ضعفان وجيعان.

قال علي: أنا لازم أتبع خشيشبان أبا الذبان هذا وأشوف إيش مسوّي في جملي ميت من الجوع.

وفي اليوم الثاني تبعها وتخبّى عنها لحين وصلت الغدير وفصخت اللي عليها

وفكّت شعرها الطويل فجرى مع الماء من شدة طوله[1] وبان جمالها فصخت ذهبها

---

(١) جلّ الحكايات تقيم جمال المرأة من خلال شعرها، ويلعب الشعر دوراً رئيساً في وصول المحبوب إلى محبوبته، فإذا كانت في قصر مهجور أو معزول ورآها بطل الحكاية وحدث بينهما تجاذب ولم يكن من سبيل للوصول إليها بسب الحراس أو علو المكان أو إغلاق منافذ القصر، فإنّ بطلة الحكاية تدلي شعرها لحبيبها كي يصعد إليها في خدرها. وقد تنبّه لهذا الملمح الحكائي في الأساطير الشاعر نزار قباني في قصيدة قارئة الفنجان التي غناها الفنان عبدالحليم حافظ:

فحبيبة قلبك... يا ولدي نائمةٌ في قصرٍ مرصود
والقصر كبيرٌ يا ولدي وكلابٌ تحرسه...
وجنود وأميرة قلبك نائمةٌ...
من يدخل حجرتها مفقود...
من يطلب يدها...
من يدنو من سور حديقتها...
مفقود من حاول فك ضفائرها...
يا ولدي.. مفقودٌ.. مفقود.

وفي الجزئية الغنائية يقول:

والشَّعر الغجري
يسافر في كل الدنيا

ويأتي الشعر أيضاً منبهاً لوجود تلك الفاتنة التي تغتسل في مياه النهر أو الوادي بينما شعرها يمتد مسافات طويلة وبسببه يمتنع الخيل عن الشرب ليترجل البطل بحثاً عن سبب عزوف خيله عن الارتشاف ليكتشف ذلك الشعر الطويل المترامي الأطراف الذي يوصله إلى رؤية الفاتنة، ومن ثم تبدأ حكاية الحب أو البحث عن تلك المحبوبة.

ومن عادات أهل مكة إذ ولدت لهم مولودة يبحثون عن بنت من الحي يكون شعرها طويلاً ويؤتى بها ويقومون بلفّ شعرها على رأس المولدة ثلاث مرات تيمّناً كي يطول شعر المولودة عندما تكبر.

وكانت من عاداتهم أيضاً قصّ خصلات صغيرة من شعور الصبايا وحملها إلى الحرم المكي وإيداعها في المسعى وتحديداً على جبل الصفا اعتقاداً بأنّ الشعر سوف يسعى مع الحجيج والمعتمرين ومن ثم يطول شعر الصبية التي قصت خصلتها.

وإن كان لهذا الفعل قراءة أخرى لكون الحجاج والمعتمرين تنتهي مناسك حجهم أو عمرتهم عند الصفا بتحليق أو قص شعورهم مما يفتح مجالاً لقراءة ثقافية مغايرة لاعتقاد أهل مكة في فعلهم ذاك.

وكانت القبائل المتحاربة والغازية تعيش على السلب والنهب، وفي هذا الغزو يكون فيه السلب =

وتروشت وتنظفت وقعدت على مرجيحتها تغني. كان يجيها الجمل يتفرج فيها جاء علي بهدوء وأخذ واحد من خواتمها بدون ما تحسّ ويوم خلصت البنت راحت تلبس وجات تلبس خواتمها وتقول: البس يا ذا والبس يا ذا والبس يا ذا. . . . وجلس الأخير بدون خاتم دورت دورت عليه حوالينها ما لقيته وقالت خلاص ضاع وعلي رجع البيت قال لأمه الليلة خشيشبان ابا الذبان يبات في البيت ولا عاد يسرح مع غنم ولا عاد يرقد في دحولة الكلاب أنا أطلع أنام برا وخشيشبان ابا الذبان ينام في البيت.

يوم رجعت للبيت قالت لها الأم: تعالي باتي في البيت.

قالت: لا لا أنا خشيشبان أبا الذبان أرقد في دحول الكلاب وأشرب في قروة الدجاج.

قالت الأم: علي يقول خشيشبان أبا الذبان الليلة ما تبات إلا في البيت.

جاها علي وقال لها هذا خاتمك اللي مضيعته وأنا بتزوجك.

قالت: بتزوجني جيب لي أبوي.

قال لها: وكيف أعرف أبوك وين ألقاه؟

قالت له: تلقاه بالخاتم اللي معك.

أخذ الخاتم وراح يدور ويسأل ويسأل ويسأل لبين لقاه وورّاه الخاتم قال: هذا خاتم بنتي.

قاله: بنتك عندي في الحفظ والصون وأنا بتزوّجها ويوم درت أني بتزوجها شرطت عليّ تجيبلي أبوي.

قال: خلاص يروح معاك أخوها.

وراح الأخو معاه يوم وصل شاف أخته وسلم عليها وفرحت فيه قال لها: خلي

= فاحشاً لدرجة سلب ثياب النساء، خاصةً إذا كانت الملبوسات فاخرة.

وقد ذُكرت لي قصة لإحدى سيدات تلك القبائل، إذ كانت مجال افتخار قبيلتها؛ والحكاية تقول إنّ غزاة أغاروا على قبيلتها وكانت ترتدي فستاناً مطعماً بالفصوص والحلي، وقد أجبرها الغزاة على خلع ثوبها (ولم تكن المرأة العربية ترتدي ملابس داخلية)، وعندما وجدت نفسها مجبرة على خلع فستانها نثرت شعرها وفردته على جسدها فغطّت كلّ مفاتنها حتى إذا رحل الغزاة كانت هذه المرأة محل فخر قبيلتها لكونها سترت نفسها ولم تظهر عورتها أمام العدو.

الزواج يتم ويقيم الحفل ولا غنيت لك اخرجي للجمل ورا البيت خليهم هما في لعبهم وحنا نسري.

سووا الزواج وجهز العشاء وقوم القصيد وراحوا الناس للعشاء وغنى أخوها:

سرى الليل يا مالكة يا خت مالك شعيلان في سدة البيت بارك.

سمعت البنت غنى أخوها وقالت للعجوز اللي عندها: يا خالة يا خالة في شعرة في لسانك طلعيه أخرجها.

مدت العجوز لسانها وبسرعة قصته البنت وشردت للجمل بتلحق أخوها.

وقامت العجوز تنادي: ياهل الذين ذينكم لاح. . . ياهل الذين ذينكم لاح (يا أهل الزين زينكم راح).

وماحد فهم عليها وش تقول.

روحت البنت ولحقت أخوها وسروا راجعين لأهلهم وديارهم.

رواية عباس الغانمي

المقبرة (فضل الصدقة)

كان في حرمة راحت ترعى غنمها والتهت عنها شوي وضاعت الغنم وراحت تدور عليها وليّل عليها الليل ودخلت لها مقبرة تبات فيها وأثناء الليل سمعت الموتى يتكلمون. وحدة تقول لخويتها بكرة بتزورنا وحدة حبيبة الدار والجار تنشر ثيابها وتزلق من السلم تطيح وتموت. قالت ثانية: بكرة بتجينا وحدة لا صخية جار ولا دار لا سكتت ورع ثغى ولا ورثت نارها لجار تطيح من جملها وتموت مالها مكان بيننا لا بغوا يدفنونها يرمون حصى حيث ما تقع يحفرون لها ويوم جاء الضحى صار اللي قالوه وطاحت الحرمة من الجمل ومَاتت وجوا الناس يحفرون لها قبرها. حفروا حفروا القبر ما ينفتح جاتهم الحرمة وقالت لهم يا اهل الخير ارموا حصى، حيث ما يوقع احفروا القبر. سووا زي ما قالت. رموا الحصى وراحوا محل ما وقعت حفروا القبر وانفتح ودفنوها جوّها قالوا لها يا بنت الحلال انتي حالمة ولا عالمة. قالت لهم أنا هذا ما سمعت وأنا بايته هنا.

قالت الحرمة لنفسها برجع الليلة أبات فالمقبرة واسمع وش صار مع الحرمة الثانية.

يوم جاء الليل سمعتهم يتنادون تقول لخويتها: وينها حبيبة الجار والدار اللي تقولين بتجينا.

ردّت عليها قالت: يا بنت الحلال الله سبحانه وتعالى قال صدقة قليلة تدفع سيئة كثيرة. الحرمة وهي تنشر ثيابها جاها مسكين يشحذ وعطته غداها وربي دفع عنها الموت فلم تمت.

رواية عباس الغانمي

يمكنكم مراسلة المؤلف على الإيميل
abdookhal2@yahoo.com